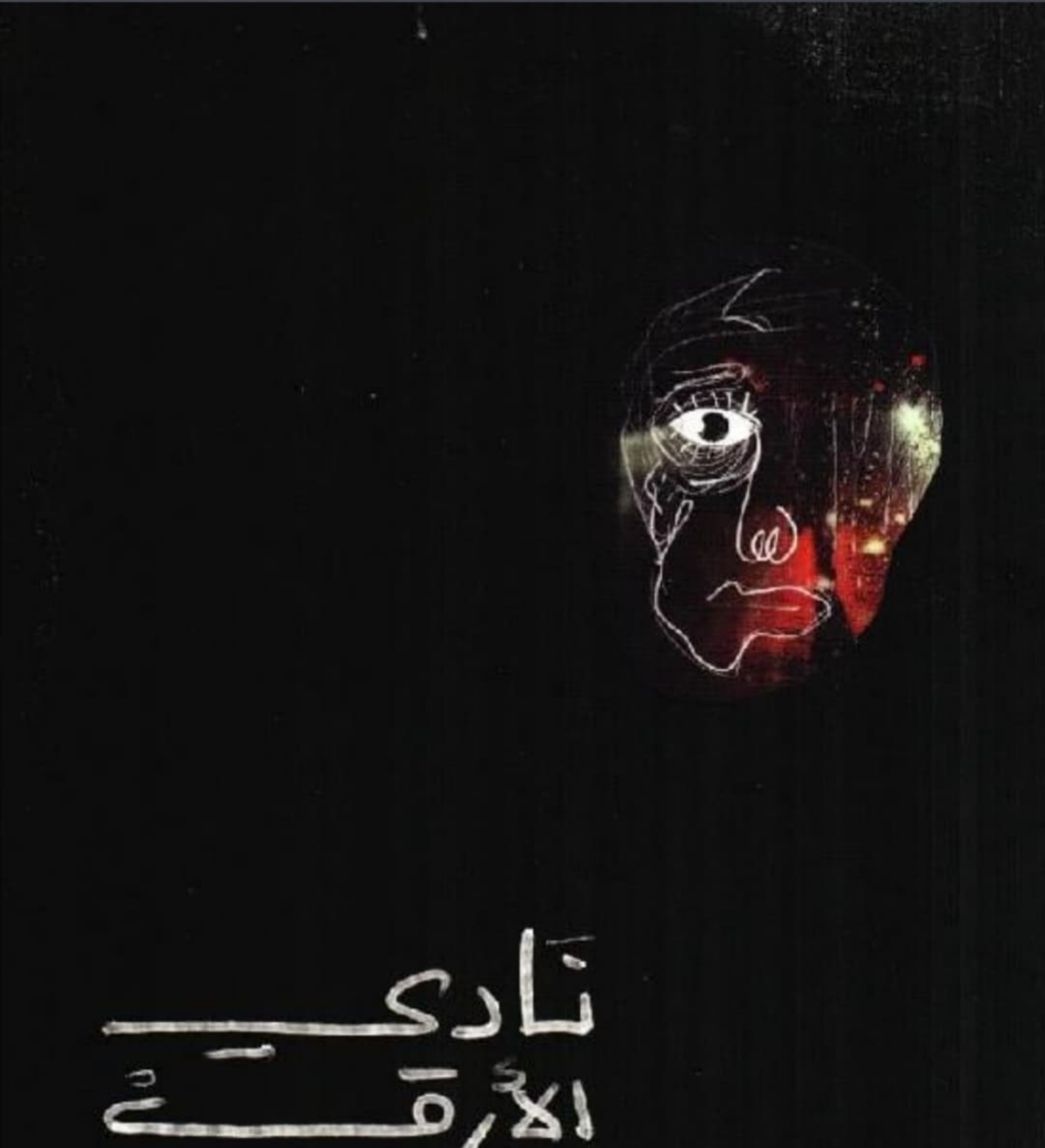


نادي الأرق

رواية

محمد سلمان كامل

الطبعة الأولى

t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضــاد الرسمية على تطبيق تيليجرام:

تمَ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بـواسـطـة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

إلى عائلتي..

التي آمنت بوجود كل هذه الأشياء

قبل أن تصبح حقيقيّة.

الكتاب الأول

أيُّها الرقاد الهادئ المريح،

يا مُعوِّض أتعاب البشر،

ماذا فعلتُ أنا حتى جفوتني هكذا؟

لماذا لا تدعني أغمض عيني، وأغرق في بحر من السبات العميق والنسيان؟

لماذا أيُّها النوم؟

شكسبير. مسرحية هنري الرابع، الجزء الثاني

الفصل الثالث، المشهد الأول

ما يُسمَّى عودة

1

طفولة المرء لا تجعل كل الأفكار واضحة، وفي سنوات طفولتي، لم أعتقد بأنَّ للإنسان قدرة على الابتعاد عن محيطه الذي يعرفه، وكلما رأيتُ مكاناً جديداً، أضيفه إلى القائمة التي تُشكِّل العالم بالنسبة لي. لكنني أدركتُ بعد ذلك بأنَّ العالم أوسع، وفكرة السفر أتاحت لي الابتعاد عن مكاني في خيالي أولاً، قبل أن يحدث هذا معي في الواقع، والابتعاد بجسدي عن العالم الذي أعرفه، وعن الأماكن التي شكَّلت قائمة الحياة بالنسبة لي، وعن كلِّ ما يحمل ذكرى وجودي فيه، ولو دام هذا الوجود مرة واحدة في الحياة. أصبح العالم كبيراً، وأدركتُ فجأة بأنَّ الحياة مكان أوسع مما ظننتُ في طفولتي، حتى وإنْ كنتُ حينها صبياً أذكى من أن تغفل ثوابت الحياة عنه؛ لأنَّ أحداً لم ينتبه بأنه يجب أن يُحذِّر طفلاً بأنَّ العالم كبير. وإن كان هناك من لم يتغافل عن هذه الفكرة، فهي لا تأتي دائماً بالمعنى المطلوب، فكون مَن يكتشف أنَّ العالم أكبر من النطاق المحيط به، قد تشتّته في كل الاتجاهات. ولكن على النقيض أيضاً، فكونك لا تدرك بأنَّ العالم لا يقتصر على محيطكَ فقط، هي فكرة قاسية بالنسبة لطفل. في كل الأحوال هذه هي الحياة، غالباً ما تقوم على خيارين كلاهما قاسٍ، ولكن بالاتجاه الذي يسلكه هذا الاختيار.

لا ينحصر الابتعاد دائماً، على فعلٍ مفاجئ، ينقلكَ مما هو مألوف إلى بقعة أخرى جديدة. وليس من الضروري كذلك، أن يأتي مصحوباً بالوحشة، ومقاومة هذه الرغبة في الأعماق. يأتي الرحيل أحياناً مفاجئاً، حيثما تكون أنتَ، لا يكون موحشاً، كما لو أنَّ الكآبة عامل من عوامل البُعد. يكون الرحيل أحياناً ساكناً كذوبان قطعة جليد ثم تبخُّرها ببطء في الهواء، دون أن تعرب عن ألم، أو حتى تترك أثراً، يدلُّ على أنَّها وُجِدت يوماً هنا، وشغلت حيزاً صغيراً من هذا العالم.

يساورني شعور بالتقيُّد هنا بقاعدة انتظار بوابة الطائرة حتى تُفتح. أراقبُ وجوه الأشخاص الموجودين دون إتاحة فرصة استيعاب وجودي لهم. كنتُ أخمّن: من منهم يحمل ملامح مدينتي وهو عائد إليها؟ ومن الذاهب عن وطنه إلى هناك؟ أحاول أيضاً توقُّع القصص المخفيّة وراء الوجوه. كل ذلك كان

مصحوباً بجهد التخفي؛ لأنني -ومن دون سبب لذلك- أردت أن أبقى مختفياً كما كان يجب أن أكون حين لا تثور أمواج الحياة بالطريقة التي يتطلَّبها وجودي فيها.

أشعر دائماً بأنني أنتمي إلى الطبقة المحشورة بين أوجه الحياة، حيث لا أنتمي لذبذبات الحياة، ولا أستطيع التعمُّق في عزلة الأشخاص البعيدين عن الصخب. عالق أنا مابين الأشخاص الذين يفضِّلون الانتماء حتى النخاع إلى جانبٍ معين من الحياة.

فُتِحت البوابة، ولم تكن اللحظات تمرّ سريعة، حتى احتشد عدد من الأشخاص العجولين عند طابور دخول البوابة. وحده الجانب المخصَّص لدرجة رجال الأعمال، لم يقف فيه أحد حتى الآن. تساءلتُ: لمَ العجلة؟ لماذا يعتقدون بأنَّ وقوفهم أولاً سيعطيهم أسبقية الوصول؟ ففي نهاية الأمر ستطير الطائرة بنا جميعاً في وقت واحد.

عزلني صوت الموسيقى الخارج من سمَّاعات الأذن عن المحيط الذي أوجد فيه بجسدي، بينما أفكاري تسافر بعيداً عبر فجوة سوداء رمت بها إلى العدم. أصبح العالم صورة تتحرَّك بالتناغم مع موسيقى شوبان التي تملأ رأسي. إشارات بالأصابع، وإيماءات بالرأس، شفاه تتحرّك دون صوت، وملامح جدِّيّة تميل إلى الغضب تتزاحم أمام الحاجز القصير المحيط بالبوابة. يمكنني أن أتصوّر شكل أفكار الأشخاص المتزاحمين، وهي تخرج من رؤوسهم كدخان داكن، غاضب وعجول، ويمتزج ببعضه. لكلّ منهم رغبة، ولكل منهم غاية.

أمٌّ وطفلها وحيدان، وأمّ أخرى وابنتان مراهقتان يبدو على ملامحهم تعب نهاية الرحلة، وهذا يوحي بأنهم عائدون، وليسوا ذاهبين. تبدو الأم شابّة جدّاً بتسريحة ذيل الحصان، بحيث بدتْ كما لو أنها أخت كبيرة لابنتيها. رجل وحيد يحمل حقيبة حاسوب محمول، وشابان مرهقان هما أيضاً، والعديد من الوجوه، بدا لي من المخيف الوقوف تحت غيمة أفكارهم التي اتّحدت لتصوِّر ضباباً غاضباً، وخانقاً.

لا أنام. أدركتُ بأنني في الأيّام الأخيرة لا أستيقظ من نومي، وأنا أشعر بأنني خُضتُ شوط الراحة هذا بما يكفي. بل كانت الراحة تأتي متبوعة بالكسل، الذي يقيِّدني في فراشي وأنا مستيقظ.

لفظني النوم بطريق مفاجئة، ولم أُصَب بذلك بطريقة تدريجية، والآن أصبح الأمر كما لو أنني أحاول فرض نفسي عليه، وليس النعاس هو ما يهاجم جفني. لا أعلم ماهو العامل الأساسي الذي تسبَّب لي بذلك، ولكنّني أعتقد بأنَّ العودة أصابتني بالحنين إلى الغياب، كما أظنُّ بأنني لا أجد نفسي إلّا في الغياب، وهذا ما كان يناسبني تماماً. لكن نقاط تكوين الجوهر فينا لا تزول بسهولة، ولا بُدّ أن تجد تكرارها في طريق حياتكَ، ولو كان ذلك بهيئة مختلفة عمَّا تعرفه. لا يمكنني تحجيم الأمر مع الآخرين، بل ببساطة لا يمكنني خوضه مع أيّ شخص آخر بسهولة؛ لأنَّ لكل شخص مقياساً مختلفاً في النظر إلى هذا الأمر بحيث لا يساوي الشخص الآخر في التفكير. كما أنني أرفض أن أترك للآخرين حرية تشكيل نطاق حول ما أفهمه أو أعتقده. هذا الإحساس لطالما ساورني، كنتُ دائماً أترك مجال المفاجآت عندما يتعلّق الأمر بما يخصّ الجهة الأخرى، حيث يقف كل من يندرج تحت فئة الآخرين. لكن السؤال هو: مَن هم هؤلاء؟ مَن يحدِّد هوياتهم؟ ومن يضع الجانب الذين يقفون فيه؟ هم أم أنه أنتَ؟

شعرتُ بالضيق في مقعدي، ورغم أنَّ الطائرة لم تكن مزدحمة، إلا أنّ شعوري بأنّ الهواء ينسحب، وتتقاسمه رئات الآخرين بلؤم كان واضحاً بالنسبة لي. لم يتجدّد الهواء، بل غدا خانقاً وحاراً نوعاً ما. كنتُ ممتنّاً لنفسي؛ لأنني أرتدي قميصاً أسود قصير الكمين، مما منع بقع العرق من أن فتستقرَّ عليه. ابتعدتُ عن المقعد القاسي في الدرجة الاقتصادية من الطائرة، فشعرتُ بالبرودة فجأة تسري فوق البقع المتعرِّقة. سحبتُ قميصي، وعدتُ لوضعه حول جسدي بعد أن شعرتُ بأنه يلتصق بي بطريقة ليست مريحة.

حركت رأسي ونظرت عبر الممرّ؛ لأرى عدّة أفراد من طاقم الطائرة، وهم ثلاثة مضيفين: رجل وامرأتان نحيلتان تقفان بجوار الباب الذي كان ما يزال مفتوحاً، معلناً مزيداً من خيبة الانتظار. هزّ الثلاثة رؤوسهم باتجاه الباب، وابتسم الرجل فقط مادّاً يده؛ ليلتقط تذكرتي الرجل والمرأة اللذين اقتحما الطائرة، وكانا آخر من يصل، وهما كذلك من تسبَّبا في تأخيرنا لبضع دقائق. لكنّ أحداً لم يتذمَّر، ولم يبدُ تأخّرهما أمراً غريباً، وحدي من كان يشعر بالحنق لذلك. لا يعني هذا بأنني أغضب ممن لا يحترم مواعيده، بل أنا أشعر بالقلق في مجمل الأمر. مرَّ عام كامل على آخر مرة حشرتُ فيها جسدي في طائرة مبتعداً عن المكان الذي أعود إليه الآن.

قرَّبتُ قدميَّ من بعضهما، وتلامس طرفا حذائي من الداخل ببعضهما. بزغ فجأة شعور القساوة فيه؛ لكونه جديداً. نظرت إلى قدمي، وراقبتُ فردتي الحذاء اللتين كانتا ماتزالان ناصعتين؛ لكونها المرَّة الأولى التي أستخدمه فيها. لم أدرك بأن ركبتي كانت تهتزّ إلّا بعدما رأيتُ كفّي المرتخي عليها يتحرك بطريقة عشوائية مزعجة لبصري. رفعتُ عينيّ من جديد فرأيتُ الثلاثي الواقف أمام الباب قد اختفى، والباب أصبح مغلقاً. تنفستُ، وحاولت أن أغرق في مقعدي الضيّق. شعرتُ بنبضات قلبي. حاولت دفع مقدمة القلق هذه؛ لئلّا تنشأ موجة جديدة لن يكون هذا الوقت المناسب لها.

2

أجفلني طنين عميق، يمكنني أنْ أتخيَّل بأنَّ له شكلاً كروياً لو كان مرئياً. أعلن ذلك الطنين أمر الاستعداد للجميع. كان الجميع جالسين في مقاعدهم، ومعظم الموجودين لا يمكنني رؤية أكثر من أطراف رؤوسهم. اختفى الرجل الذي وصل مع زوجته أخيراً. لم يعبرا الممرّ الضيق المجاور لكرسيي، وهذا يعني بأنهما علقا في درجة رجال الأعمال. ألقيتُ نظرة على الكرسيين المجاورين لي، كانا خاليين، لا أحد يعلم أبداً كم كنتُ ممتنًّا للبشرية كلها؛ لأنَّ أحداً منهم لم يخطط للجلوس بجوار رجل مضطرب يشعر بالقلق، و-نوعاً ما- برهاب الطريق.

قرقعة قصيرة، ثم أتى صوت رجل بدا مصاباً بالرشح: "أعزائي المسافرين على.." تشوَّش صوته، وكان بإمكاني أن أتخيَّله وهو يلصق المايكروفون بشفتيه بحيث طغى تشويش أنفاسه على كلماته. "الرحلة رقم.." عاد صوت التشويش، وانخفض صوته هو، وكذلك كانت الكلمات سريعة بحيث لم أفهم كل ما قاله بعد ذلك، بما في ذلك، اسم المطار الذي سنهبط عليه والذي أعرفه سلفاً، ومدة الرحلة القصيرة ذاتها. "يُرجى العلم بأنَّ التدخين ممنوع على متن هذه الرحلة، كما يتمنَّى لكم طاقم الرحلة سفراً آمناً".

صوت إزعاج قصير اختفى بعده صوت المايكرفون، ولكنه سرعان ما عاد. كان الصوت هذه المرة أنثوياً يكرّر ما قاله الكابتن، ولكن باللغة الأخرى. ظهرت على الشاشة المقابلة لي تعليمات الرحلة، ولأنني كنتُ غارقاً في مراقبة العرض على الشاشة دون محاولة فهمه، لم أنتبه إلى وجود المضيفة واقفة بجواري.

بدت الفتاة رشيقة بحيث يعتري من يراها الشك في كونها عارضة أزياء، وليست مضيفة طيران. انحنت قليلاً محاولة أن تصنع ابتسامة وهي تقول: "سيدي. الحزام من فضلك".

"ها". أصدرتُ ذلك الصوت من فمي، وأنا فاغرٌ فاي، وعيناي ما تزالان تراقبان الشاشة. استدرتُ فجأة وأظهرتُ علامات الاستفهام على وجهي بطريقة بلهاء أمام المضيفة.

اختفت ابتسامتها، ولكن معالم اللطف ما تزال مرسومة على محياها. مدَّت

إصبعها، وأشارت إلى جسدي، وهي تقول من جديد: "الحزام... اربط الحزام، من فضلك".

"أجل، الحزام". قلتُ وأنا أحاول جذبه من تحت جسدي الثقيل. رفعتُ نفسي من فوق المقعد، وجذبتُ طرفه وأنا أقول: "حسناً". لكنها لم تسمع ذلك؛ لأنّها رحلت، ولم تكترث لكوني ربطت الحزام حقّاً أم لا. في نهاية الأمر أنا من سيموت في حال حدوث أي خطأ؛ لأنني مسؤول عن نفسي، وليست هي من ستتحمل عواقب إهمالي للحزام.

تحركت الطائرة عبر المدرج، وطنين المحرك أصبح أكثر حدّة، استدارت ربع استدارة قبل أنْ تثبت على الطريق المغطى بالحصى. توقفت -ورغم صوت محركاتها- بدا توقفها يشبه الصمت. بل إنّ لحظات التوقُّف كلها تشبه الصمت نوعاً ما. انطلقت الطائرة إلى الأمام، ثم بدأت ترتفع بمستوى مائل. شعرتُ بأنَّ جوفي ينخض إلى الأسفل، كما شعرتُ بانقباضة تحيط بقلبي. لكن تلك الانقباضة زالت ما أن عادت الطائرة إلى مستوى مستقيم، فشعرتُ بأمعائي تعود إلى وضعها السابق.

أتت ضربة انغلاق العجلات، ثم الهدوء الذي محا الرهبة التي تتكرّر في كل رحلات الطيران. لكن هذه الرحلة كانت مميزة نوعاً ما؛ لأنَّه يفترض بها أن تكون بدايتي الجديدة.

حجب غيم الليل الداكن كل النقاط المضيئة الصغيرة للمدينة، كان ذلك بمثابة إثبات على قدرة الطائرة في إبعادي عن الأرض مسافة مخيفة من شأنها أن تولّد في ذهني مشهداً خيالياً لوقوع الطائرة، وتحطُّمها، ولطريقة موتي. لو حدث ذلك كنتُ سأفضّل أن يكون وقوعنا على أي جزء من المدينة، ولن آبه لما سيخلفه ذلك من دمار، على أن نقع في البحر، وأن أعيش لأرى كيف ستمتلئ الطائرة بالماء.

طردت تلك الخيالات من رأسي؛ لأن هذا ليس هو وقتها المناسب. ازداد مفعول الأقراص المنوّمة، وبدت كما لو أنّها يدان خفيّتان تقبضان على رأسي بنعومة، وتجرانه برفق إلى المقعد. على يساري كان هناك كرسيان فارغان يفصلان بيني وبين النافذة، كنت أتحرّك فوقهما بحرية مقترباً من النافذة، ثم أعود إلى كرسيي؛ لأنه لا يجدر بي الجلوس على غيره، شعرت بأنَّ هذا طفوليّ

نوعاً ما؛ لأنّ أحد لن يأبه لكون هذان الكرسيان فارغين. كان يمكنني ببساطة أن أمدّد جسدي ولو بتكوّر قليل، وأن أنام فوق الكراسي الثلاث. لكنني رفضت.

سمعت صوت الجرس يعلن بأن المصابيح ستطفأ، وتبع ذلك الصوت الظلام فوراً. حاولت أن أقاوم رغبتي في النوم الآن؛ لأنني أحتاج إلى وقت قصير أعتاد فيه على غرابة المكان، ومن ثم يمكنني أن أنغمس فيه، وأن أشعر بأنني جزء مؤقت منه.

عرض علي مضيف شاب أراه للمرة الأولى في هذه الرحلة وجبة العشاء. الواقع أن ذلك لم يكن عرضاً؛ لأنه كان يهمُّ بوضعها أمامي، على الرغم من أنّ طاولتي كانت مغلقة. لم يتفهَّم رفضي أو يسمعه حتى، لذلك كان دفعي ليده بطريقةٍ حاولتُ أن أجعلها لبقة حاسماً الأمر.

رحل دون أن يهديني نظرة تعاطف، وأشكُّ أنّ تلك النظرة لا تملكها سوى المضيفات. كنتُ في مرحلة ما بين الجوع والشبع، ولكنْ لم تكن هناك أيّة رغبة لديّ بتناول الطعام، فانقباض معدتي الذي كان يتردّد، يحذرني من محاولة تناول الطعام، وفي الواقع لا مجال لمعضلة أخرى، أكثر ممّا أشعر به الآن.

تعلّقت عيناي مطولاً في رأس المقعد المقابل لي بلا هدف، ثم بعد أن استنزف ذلك التحديق الأبله سيطر عليّ الدوار. لكنني لم أغفُ، بل التفتُ إلى النافذة الصغيرة التي تبعد عني مسافة كرسيين. تعكس النافذة وجهي، ورأس الكرسي المجاور لي، وكذلك اللون الباهت للبخار المحيط بالطائرة، والذي يشكل الغيمة.

لا يمكنني رؤية المسافة الفاصلة بيني وبين الكراسي الموجودة في الصف المجاور لي. لا يظهر الممر عبر انعكاس زجاج النافذة. تجلس امرأة وحيدة متقدّمة في العمل، ممتلئة الجسد بعض الشيء، على الكرسي الأوسط من بين الكراسي الثلاثة في ذلك الصف. على الكرسي الأول وضعت حقيبة ظهر رياضية سوداء، بدت من الخارج منتفخة تدلّ على الامتلاء. أما على الكرسي المجاور لنافذتها، لم يكن هناك أيّ شيء. كان فارغاً ويمكنني أن أجزم بهذا، دون حتى أن ألقي نظرة تأكيدية على المكان.

ظهر ذلك الطيف، ولا أعلم كيف حدث ذلك، وكأنه خرج من قلب الكرسي الفارغ: رجل مسنّ يرتدي ملابس رسمية، وسروالاً أسود طويلاً، وقميصاً أبيض. تغطي وجهه لحية كثيفة ولكنها قصيرة يملؤها الشيب، ورأسه أصلع. لم تتخذ عينا الرجل أي شكل، بل ظهرتا كحفرتين سوداوين في الانعكاس. التفتُ لأرى الرجل يُصعِد الجزء البارز من جسده، وقد أعاد صدره ورأسه إلى الخلف، ليختبئ خلف جِيد المرأة المنهمكة في جهاز تشغيل أغاني المحمول خاصتها.

لم يعد الرجل ظاهراً في مجال رؤيتي، وأنا بدوري لم أُطِل النظر؛ حتى لا تنتبه المرأة الوحيدة لتحديقي تجاهها. استدرتُ لأراقب الفراغ بين الكرسيين المقابلين لي، ومرة أخرى لم يكن لذلك أي هدف. غير أن تمويهي هذا بعدم الانتباه جعل الرجل الأصلع يخرج من مخبأه، ويسير في الرواق الضيق بين الكراسي متّجهاً إلى الستار الفاصل بيننا وبين مقاعد رجال الأعمال. وجهت نظري إليه أخيراً، وقبل أن يُغلِق الستار تماماً ترك زاوية ضيقة تمكنه من إرسال نظرة أخيرة خبيثة وشريرة تجاهي. كانت بمثابة دعوة، أو تحدٍّ بمعنى "إن كُنت تجرؤ فاتبعني". لم أفعل ذلك فوراً، بل بقيتُ في مكاني منتظراً للحظات، وبعد أن أكل الفضول جوفي، نهضتُ دافعاً بكلتا يدي، جسدي المتثاقل فوق الكرسي.

سرتُ بترنُّح لا يمكنني السيطرة عليه، ولا التحكم بخطواتي. عزوتُ هذا إلى كوني في قلب الطائرة، وهي ليست ثابتة. سرتُ في الممر وأنا أحاول تثبيت كفي على قمة كل كرسي فارغ في طريقي؛ حتى لا أقع. نظرتُ إلى مقعدي فبدا بعيداً. حاولت العودة فكِدتُ أقع في مكاني. شعرتُ بالخوف؛ لأنني لم أتمكَّن من العودة، ولم يبقَ أمامي سوى المضي وراء الرجل الغريب.

دفعت الستار الفاصل بين مقاعد الدرجة الاقتصادية، ورجال الأعمال. تقدمتُ متخطِّياً المكان، فوجدتني أقف في ممر أوسع، أرضه مكسوة ببلاط لامع أبيض، لا يشبه الأرضية السوداء في الطائرة. كان خلفي جدار خالٍ يملأ مكان الستار الأزرق. لم أعُد على متن الطائرة، وإنما في ممرٍ أبيض نظيف عبق برائحة المطهرات التي تخرِّش أغشية الأنف. نموذج يتكرّر في كل مستشفى، ولكنّ هذا الممر بتفاصيله كان مميزاً عن غيره؛ لأنني قضيتُ فيه أياماً عديدة.

رنّ جرس ربط الأحزمة، ولكن بدلاً من ظهور إشارة ربط الأحزمة، اختفى نور مصابيح الممر، واشتعلت مصابيح الطوارئ بالتزامن مع صوت الجرح. مشيتُ مع خط النقاط المضيئة التي تشير إلى الطريق دون أن يكفي نورها لإضاءة المكان. سرتُ بحذر دون أن تترنَّح قدماي حتى آخر الرواق، حيث لا يوجد أي مخرج، سوى باب مقسوم إلى نصفين كبيرين كباب غرفة العمليات. في كل نصف من الباب كانت توجد نافذة زجاجية مربعة صغيرة. اتجهتُ إلى النافذة اليمنى، وأحطتُ رأسي بيدي لا إرادياً، على الرغم من أنّ الرؤية كانت ممكنة دون أن أفعل ذلك. راقبتُ جوف الغرفة، فوجدتُ مساحة مربعة خالية غارقة في ضوء المصابيح البيضاء، والتي تجعل الأرضية ناصعة البياض. لا يوجد أي أثاث في تلك الغرفة، وإنما جسد شابٌّ يرتعش ويتلوّى على الأرض، كأنه سمكة قُذِف بها على اليابسة.

التوت الأصابع وتشنّجت، احتقن الدم في ذلك الوجه الغريب، واتّسع فمه المحاط بشفاهٍ مشدودة. راقبني الرجل من خلال الزاوية الحادة لعينيه بغضب عاجز. أخذ يتلوّى في مكانه، ويرتجف من دون أن أسمع له صوتاً.

تكرَّر صوت الجرس، وتلاه صوت بعيد جداً يناديني: "السادة المسافرون على.." لكن الصوت كان بعيداً عن أذني مما يجعل ما تبقّى من الكلمات غير مسموعة. جعلني ذلك أيضاً بعيداً عن الواقع. ضرب أحدهم كتفي، ونادى: "سيدي.." كان ذلك الشخص هو المضيف ذاته الذي أراد تقديم الطعام لي. أمرني بربط حزامي الذي كنتُ متأكّداً من كونه مربوطاً. ففعلت ذلك، ثم فركتُ عينيَّ الناعستين. راقبتُ شاشة حركة الرحلة أمامي، فأظهرتْ لي أنَّ الطائرة على مشارف الوصول.

3

ومضت أضواء الأرض عبر نوافذ الطائرة، ثم أخذت تتلألأ كما لو كان هذا احتفالاً صغيراً يعاند حلكة الليل على الأرض التي أغرقها بسواده.

تأتي الانقباضة من داخل أحشائي في مكان لا يمكن تحديده مصحوبة بألم حزين، بل كانت تحقنني بحزن غريب، وكآبة، تضعني في زاوية موحشة غريبة عن المكان. الأعين المضيئة لمصابيح الإنارة لا تعرفني، لا يعرف كلانا الآخر، والأرض غريبة عني. محا هذا المكان ذكرياتي معه، وأنا بي من الحزن ما يكفي كي أشعر بالغربة هنا أكثر من أي مكان غريب عرفتُه. لم يعد شعور الألم يقتصر على وخزٍ سريع مصحوب بذكريات، بل صار يتدفَّق كالسيل في داخلي. وفي تلك اللحظة تحديداً لم يعد لصخب العالم معنى، ولا لازدحام الطرقات ووهج مصابيحها أية أهمية. أنا هنا، هذا ما يؤكده لي هذا المحيط الموحش.

لا يبدو على شيرل شقيقتي الكبرى أيٌّ من معالم الراحة. كانت تجلس بظهر مستقيم لا يلاصق ظهر المقعد الخاص بها. تتشبث بالمقود بكلتا يديها، وتستدير بطريقة مبالغة كلما أرادت الانعطاف. أمطرتني بعبارات السرور كلها في المطار وصولاً إلى السيارة، وعندما لم يتبَقَ ما يجب أن نقوله لنعبُر عن مدى الحنين الموجود داخل كلٍّ منّا تجاه الآخر سألتني:

"هل كانت الرحلة مُتعِبة؟ تبدو مرهقاً!". كان نظرها مصوّباً نحو الطريق طوال الوقت، وهذا كان يبعث فيّ الراحة نوعاً ما، حتى لا أتكلَّف عناء تشكيل تعابيري الموحية بالصدق التامّ أمامها.

أجبتُ: "أجل، نوعاً ما كانت الرحلة مُرهِقة. لم تكن المسافة قصيرة جداً، لكنّ الجيد هو أنني نمتُ معظم الوقت، ولم أشعر بملل ساعات الطيران تلك". انطلقت الكلمات متتابعة دون توقف، وكنت صادقاً فيما أقوله رغم أنه كان يفتقر لحماس الصدق فيه.. لم أكن أحاول التحامل على شقيقتي الكبرى، أو حتى التحامل على الحياة. بل كنتُ خجلاً، لا أعرف أية كلمة أختار حتى أتفادى القنابل الخفيّة في معاني الكلمات كلها.

"حتى النوم على متن الطائرة يجعلكَ تشعر بالإرهاق، أعرف هذا الشعور تماماً". شعرتُ بشيء من السخرية؛ لأنها ربما تشعر بذات الشعور. كنتُ

أبالغ في تحليل الأمر وفي تخيُّله مهما كانت الأحداث متشابهة، فتركيبة المشاعر وترتيب الموقف، يُظهِران مزيجاً مختلفاً مع اتحادهما في مشاعركَ أنت. لا يمكن أن يولِّد تكرار الأحداث شعوراً مطابقاً عشتَه فيما سبق.

لا أطيق النظر إلى الطرقات التي ما تزال تحمل أطيافَ الماشي، شبحي أنا، بل جزء من روحي ما يزال عالقاً هنا. جزء منّي يشبه الماضي، يأبى التحول إلى الحاضر، يشبه حزن الذكريات، التي لمجرد كوننا نتذكّرها كشيء، عبر وانتهى، يربطها بالحزن. كان هذا حال الشوارع معتماً، وفي كل زاوية غارقة في الظلام هناك صورة لي، أُدرك الآن بأنه لو كان تكرارها ممكناً، فإنّ عودة مشاعرها مستحيل.

"ليو؟" أتى الصوت مُصِرّاً.

أجبتُ مجفلاً: "ماذا؟" بدت نبرتي أقرب إلى الغضب من الاندهاش.

"أين سرحتَ؟ سألتُكَ هل تفتقد المنزل؟" صمتت لبرهة، ثم كشفتْ عن السؤال الحقيقي بصراحة: "هل افتقدتَنا؟" كان هذا هو السؤال الذي حاولت إخفاءه؛ لأبعدَ فكرة ربط المشاعر بكل ما أنتمي أنا إليه، وكل ما طُبع عليه ذكرى ليو.

"جداً". أجبتُ قاصداً الاثنين معاً.

هزّت رأسها إيجاباً بطريقة تدلّ على توقّعها لتلك الإجابة، ولم يكن تخمين مقدار شوقي لحياتي الطبيعية أمراً يستحيل فعله، وهي شقيقتي، وأكثر من يعرف الطريقة التي تتوجه بها مشاعري تجاه أمر ما، وتحديداً عائلتي. أنا في النهاية فرع قوي من هذا الجزع ولطالما كنتُ كذلك، وكان ولائي للعائلة قوياً. لا يمكنني أن أحكم على صورة مشاعري تجاه أمر ما، ولكن حين يتعلّق الأمر بالحب، فإن المرء يستطيع تصوّر حجم مشاعرها وهي تنصبُّ على ما يحبُّه. وأكبر دليل على ذلك، هو أنني أخوض عمق الأسى الموجوع في الذكريات العالقة في هذه المدينة، وأعود إلى البداية.

لماذا؟ لأن المرء وحده هو مَن يواجه تبعات أخطائه.

سارت سيارة كريستين في قلبي المدينة، وبهذا فإن وهج الأضواء على الأبراج ذات الطول المتفاوت اختفى؛ لأننا ببساطة أصبحنا نسير بينها. لم

يبقَ إلّا النور العادي على واجهات المباني في المساء، وذلك الضوء المزعج الصادر من مصابيح النيون طويلة الاستخدام. تفقد الأشياء بريقها كلما اقتربنا منها. لمعت الحوائط الزجاجية والتي يرسم منظرها حداثة العصر أكثر من تلك الحوائط الإسمنتية الثقيلة بلمعان حزين، وكان الضوء قد غسل الشارع من بقايا مشاعر الأرواح العابرة هنا. لم يتأخّر الوقت كثيراً، ولم تدقّ ساعة النوم بعد، لكنني شعرتُ بأنّ الشوارع خالية؛ لأن الناس هنا لا يريدون الانتظار في طريق يمرُّ فيه شخص سيّئ مثلي.

تجاوزنا المدينة بعد انعطافات جعلت طريقنا أطول وصولاً إلى المخرج الآخر، حيث الجسر الحديدي، وهو نقطة الاتصال بين المدينة والضاحية المبنية على قطعة أرض تحيط بها المياه من كل جانب، مما يجعلها جزيرة صغيرة، ولكن لا أحد الآن يطلق عليها هذا اللقب. كانت الضاحية تشبه سناماً منخفضاً توزَّعت عليه المنازل الضخمة في بقاع مختلفة، مما يجعل بعضها واضحاً على طرف المدينة، وبعضها مختبئاً على الجانب الآخر، لا يقابله إلَّا البحر. قادت كريستين السيارة في طريق مرتفع، وأصبحت المدينة تنحفض عبر الزجاج الخلفي للسيارة. فجأة حاوطتنا الأشجار التي بدت لي أكثر نوماً خلال غيابي، ولكن الواقع هو أنَّ كل شيء بقي كما كان في السابق، ولم تتغيّر إلا الطريقة التي تنظر بها عيناي إلى كل شيء. أصبح كل شيء فجأة مُعتماً، وغدت الأضواء أكثر بريقاً ولمعاناً، وكأنَّها تتّحد مع العالم لتجعل ظلاله أكثر انتشاراً وحلكة.

هل بكى العالم قبل وصولي، أم أنَّ هذه الأرض كانت تبكي طوال فترة غيابي؟ هل افتقدني المكان، أم أنَّ تلك كانت طريقة تأنيبه لي؟ لم أشعر بأيّ ترحيب، بل كانت مدينتي تشعر بالغرابة، وتزهو كما لو أنها تريد أن تجد في عيني غريباً لا تعرفه. أردتُ أن أقول للجميع: "هذا أنا من جديد... ولكنني لم أجد أحداً!"

وصلنا إلى وجهتنا في النهاية، وفي هذه اللحظة قبضتْ يدٌ خفية على الواقع، تجمّد الوقت، كُتمتُ أنفاسي، وضاعت كل أفكاري، وكل تلك المشاهد التي تخيَّلتُ ولادتها ما أن أصل إلى هنا. رمقتني كريستين بنظرة عطوفة، زمَّت معها شفتيها فأظهرت ما يشبه الابتسامة. أدركتُ أن ذلك لم يأتِ بنفع أو بتغيير لما أشعر به فسألتني:

"هل أنتَ مستعد؟"

"لا". أجبتُ باقتضاب.

قهقهت بسرعة، ثم كتمت تلك الضحكة القصيرة، وقالت: "هذه إجابة صريحة". أدارت المقود بكلتا يديها لتواجه سيارتها البوابة الحديدية التي خيَّم عليها ظلّ الأشجار كشبكة عنكبوت، توزَّعت على الأعمدة الحديدية النحيفة التي تشبه الرماح، وعلى الأرضية المغطاة بالحصى. أحاط سور حجري مُضَاء بمصابيح متفرِّقة منزلنا الكبير، وخلف السور ومن بين فتحات البوابة الحديدية، كان المنزل يرتكز وحيداً، لم تكن الأشجار الضخمة حوله لتؤنس وحدته، بل زادت من وحشته، ولأول مرة في حياتي أشعر بما تقوم به الأشجار على حائط منزلنا الحجري، والذي يمتدُّ لطابقين حتى العلّيّة المقوّسة.

4

فُتِحت البوابة تلقائياً، وتقدَّمت عجلات السيارة متجاوزة القوس الذي يُتوِّج البوابة. تجاوزنا النافورة الدائرية التي تتوسَّط الطريق بين مدخل المنزل والبوابة الرئيسية. توقَّفت كريستين أمام السلم الحجري القصير. ثم أوقفت عمل محرك السيارة. ترجَّلت كريستين دون أن تنتظرني، وأشارت باليد التي تحمل المفتاح فأصدرتْ صوت تصادم القطع المعدنية فيها. فتحتُ باب السيارة، وترجلتُ ببطء. أبطأتُ خطواتي، وسرتُ نحو السلم الحجري الذي سبقتني كريستين إلى صعوده. ربتت على كتفي، وطلبتْ مني التحلّي بالقوة.

توقفتُ وقلت: "أنا لم أرَها طوال الأيام التي مضت".

"ولم ترَ أحداً منَّا. كانت غاضبة وهذا حقيقي، لكنّها ليست كذلك الآن. لقد تجاوزتْ هي كما تجاوزتَ أنتَ تلك الحكاية. قد لا تصدق ما أقوله لك الآن ولكنه الواقع، وستجدها بانتظاركَ خلف هذا باب". بحركة ارتجالية أشارت بسبابتها إلى الباب الكبير، وبطرف عينها، ثم أمالت رأسها باتجاه المنزل. فتحت الباب، وأقحمت جسدها ثم فردت ذراعها بحركة ترحيبية.

نادت كريستين بصوتٍ تردّد لفترة قصيرة في زوايا البهو المظلمة: "لوسي، إنّنا هنا". كان ذكر اسم الخادمة، هو ما أعاد إحياء وجودها في ذاكرتي بعد كل هذه الأشهر الطويلة. إنها ما تزال هنا بعد كل هذا الوقت الطويل، بل هي جزء من المنزل كان يجب أن أتذكَّره، كلما أعادتني الذكريات إلى هنا عندما كُنتُ بعيداً.

لم تظهر لوسي، وإنما عبر الحديقة وخلف النافورة ظهر بول البواب، وبستاني المنزل الذي يعيش هنا منذ أن اشترى والدي المنزل. أمرته كريستين: "بول، أحضروا حقائب ليو من السيارة. اجعل فريد يحملها عنكَ". أمّا فريد فهو مَن تولّى مهنة قيادة سيارة المنزل، بعد أن أكلت السنوات هِمة بول. لم يكبر بول كثيراً ليثبتَ للعالم مدى عمر هذا المنزل، بل بدأ عمله هنا في سنٍّ متقدِّمة.

رفعتُ رأسي ليقابل بصري لمعانُ النجفة الضخمة المقابلة للسلم العريض في منتصف البهو، ومضتْ أطرافها الكريستالية التي تدلَّت بأضواء خافتة، بعضها تسرَّب من خلال النوافذ المصمَّمة على الطراز الفرنسي، وبعضها الآخر

من خلال المصابيح الصغيرة المُضاءة، والتي لم تكن كافية لإضاءة المكان، وإنما لتجمعَ الظلال في زوايا ضيقة تعطي المكان شعوراً بالكآبة أكثر مما هو عليه في العتمة التامّة. في تلك اللّحظة لم أستمع لخطوات أمي تقترب، ولكنّني ما أن أخفضتُ رأسي حتى رأيتُها تسير مبتعدة عن الضفة السوداء للممر الذي خرجت منه، وكان الممر هو المعبر الأساسي لبقية أجزاء المنزل. رأيتُ التردُّد في عينيها بداية، ثم شعرتُ بخطواتها تفقد سرعتها. توقّفت فرفرفَ طرف فستانِها الأسود ذي الكمين الواسعين لوهلة قصيرة، ثمّ ثبتَ هو الآخر بعد أن توقّفت هي عن السير.

تقدَّمتُ بتأنٍّ. أصبحت خطواتي تُقَصّر المسافة الفاصلة بيننا رغماً عني. ثبت أمامها كتمثال لا روح فيه، رغم أنّ المشاعر في داخلي، كانت تتلاطم بجدران روحي راغبةً بتحطيمي وبالخروج في كل الاتجاهات. لمعت عيناها بجواب غريب.. غضب، وحنين في آنٍ واحد. أحاطت وجنتيّ بكفّيها، ولمس باطن كفيها وجهي بقوة. اعتصرت وجهي وقالت:

"ها أنتَ ذا، أمامي، حقيقي". كنتُ أقف أمامها، أقذف نفسي بكل معاني الحقيقة، غير راغب بتلاشي هذه اللحظة أبداً. لم أكن أثق بلحظات السعادة؛ لأنها لا تدوم، وإنْ طالت فهي تشكل خطورة؛ بسبب وحشة الفراغ القاحل الذي ستتركه لنا للمقارنة بعد أن ترحل عنّا. جذبتني والدتي بطريقة مباغتة، وشدَّت رأسي على صدرها. إنها هي بعد كل هذا الغياب، شعرتُ بملمس ثوبها وبسطحه البارد، ثم سلَّمتُ نفسي لأحضانها، وقد تلاشت رغبتي في أن ألقي نفسي عند قدميها. أثبتت لي بأنّ قلبها يتّسع لي. ظهر الرابط الأسري الذي اختفى فجأة ليطوّقني بها، وليذكّرني بأنّ هناك دائماً، من هو موجود من أجلي.

لأنَّ الحياة لا تكافئني طويلاً بلحظات كهذه، ظهرت لوسي أخيراً، ولكن لم يكن ذلك استجابةً لنداء شقيقتي، بل بسبب الذعر الذي جرَّها، بعد أن حاولت التخفّي حاملة ما حدث معها. صوت أنفاسها كان يسابق خطواتها، وفور دخولها لم توجّه بصرها إليّ، بل نقَّلته بين والدتي وشقيقتي، وكأنني طيف شفاف أقف هنا.

"سيدتي، إنها روزالي". أفلتتني والدتي، وحركت جسدها ليواجه لوسي. تدفَّق الرعب على وجه شقيقتي واتَّخذت وضعية الاستعداد للانطلاق في أي

اتجاه يتطلبه ما ستوجُهنا لوسي للانطلاق إليه.

ردَّت أمي: "ما بها؟". لكن الكلمات ظلّت عالقة في فم لوسي.

"أين هي ابنتي يا لوسي". قالت كريستين بلهجة أكثر جدية من والدتي، وكانت من النوع التي يجعلها تصرُّ على جعل الأحرف تبحث عن طريق للخروج من بين شفتيها. ثم حثَّتها بلهجة مهددة: "تكلَّمي، أين هي روزالي؟" استقام صدرها وأصبح مشدوداً أكثر. تسارعت حركة صدرها صعوداً وهبوطاً.

"لا أعلم. أعني.. أنها كانت معي، لم أغفل عنها سوى لحظة واحدة، اختفت خلالها. بحثتُ في كل أرجاء.." توقفت للحظة، ازدردت ريقها، ثم استأنفت الحديث برعب: "في ملء أرجاء المنزل لم أجدها. لا أعلم أين هي". ارتعش كفّها الذي كان يتحرّك في الهواء مسانداً كلمات لوسي التي تشرح ما حدث. صرخت أختي، ولم تكن هذه الصرخة موجهة لها، بل كانت موجهة للفراغ المحيط بنا وكأنها تسأل شيئاً لا نراه، عن مكان ابنتها.

قالت أمي بنبرة تحاول فيها تمالك الهدوء: "ألَم تبحثي عنها في القبو أو في الخارج. سأطلب من فريد البحث عنها، بينما نبحث نحن في القبو، وفي الطابق العلوي". اخترتُ أنا مهمَّة الخروج، واللجوء إلى الرجال في الخارج، بينما كانت مهمة البحث داخل المنزل للنساء. صرختُ عدّة مرات قبل وصولي إلى البوابة، وقبل أن يقابل جدّي باب المنزل الصغير كان بول قد فتحه.

ظهرت علامات التساؤل تسبق صوته الذي قال بكسل: "أهلاً بعودتكَ يا ليو". ضمَّني بين ذراعيه حاضناً إياي لوقت قصير، ربَّت خلاله مرتين متتاليتين على ظهري. لم تخرج مني عاطفة تساوي ما بدر منه. بل كنتُ أقف مسلماً نفسي لذراعيه، قبل أن أسحب جسدي.

"ألم ترَ روزالي؟ هي ليست موجودة في الداخل. ربما تكون قد خرجت دون أن تشعر لوسي أو أمي بها". لم يرتسم الذعر على وجهه، بل ظلَّت الحكمة الطاعنة تسير في عمق تجاعيد وجهه التي ابتلعت حلكة الليل في طيَّاتها.

أجاب بعد لحظة تفكير: "تلك الطفلة، لا بد أن نجدها في مكان ما قريب. بل أنا متأكّد من أنها في جزء ما من الحديقة. إنَّ ظلام الليل لا يهدد خروجها، ولا أي شيء آخر. إنها شجاعة بقدر ماهي مشاغبة وعنيدة". تجاوزني ولم يلتفت إليّ؛ لأنَّه توقَّع أن أتبعه. سرنا على الدرب المرصوف عائدين باتجاه

النافورة الكبيرة. تجاوزناها بخطوات لا تنتمي للسرعة أبداً. أصبحنا على الجانب الآخر من الحديقة، وخلف صف أشجار البلوط، اقتحمنا الجزء المعتم من الحديقة، والذي لا تظّله مصابيح السور.

"روزالي". صاح بول بصوتٍ مرتفع، ومرتجف، لا قوة فيه. كررتُ أنا ما فعله هو بصوت أشد وأقوى. سار بول تاركاً مسافة أكبر تفصل بيننا. انحنى ليلتقط جسماً غريباً امتدَّت أطرافه متجاوزة حجم كفّه. قلب بول الجسم بيده، ثم التفت ليريني إياه: "أخبرتكَ بأنها في مكان ما في الحديقة. أعتقد بأنَّ هذه دميتها، فهي نظيفة. يبدو أنها تركتها هنا". كانت الدمية عبارة عن مجسم خشبي خالٍ من أي شي يميزه. يبدو شكلها مطابقاً تماماً لدمى المسارح التي لا تحتوي وجوهها على ملامح، ويتمّ ربطها بخيوط تحركها. مرّر المجسم الخشبي الصغير، فالتقطتُه بحذر. قلبتُه بيدي متفقِّداً معالمه دون سبب معين. في ظهر الدمية كان هناك خاتم معدني مربوطاً بخيط متين. حشرتُ سبابتي في الخاتم، فأتى صوت الدمية بلهجة مرحة:

"هل تريد أن تصبح صديقي". عاد الخيط إلى مكانه قبل أن تُنهي الدمية الجملة. اختفى الصوت الذي خرج من الدمية مصحوباً بلحظة خوفٍ بدرت مني ومن بول الذي راقبني بصمت. لم نتوقَّع أن تنطق الدمية التي لا يحتوي وجهها أية ملامح أو تعابير، إنما كان مجرد شكل بيضاويٌّ خاوٍ. أمسكتها بيدي وجعلتُ أطرافها تتحرّك بحرية كلما سِرتُ خطوة تابعاً فيها بول. بحثنا في الحديقة كلها، وحاولنا أن نمسح بنظرنا المكان كله، لولا أنّ الليل كان يعيقنا ولم نجد أي أثر للطفلة.

"عُدْ إلى الداخل، وحاولْ طمأنة الجميع، بينما سأخرج لأتفقَّد المكان. قد تكون تجاوزت البوابة دون أن أراها". لم أعترض رغم قلقي. بل سرتُ إلى الداخل لأرى إن كان قد استجد مع شقيقتي وأمي أي شيء.

عندما عدتُ وجدتُ شقيقتي قد سلَّمت نفسها للخوف ولدموعها، على رأسها كانت تقف أمي، تحيطها بيديها، ولوسي تدور في المكان كنحلة امتلأت بالنشاط، لكنَّ الخوف كان هو ما يحرّكها. نظرت لوسي إلى يدي وعندما تبيَّنت عيناها شكل الدمية، قفزت من مكانها، وهي تصرخ مؤكّدة أنها دمية طفلتها. سحبتها والدتي، وألقت عليها بضع كلمات لم تأتِ بأيّ تأثير. أخبرتُها بأنّ بول ما يزال هناك يبحث عن الطفلة في الخارج. لم تقوَ كريستين

على الانتظار، فجرت باتجاه الباب، ثم خرجت وبغمضة عين كانت خطواتها قد ألقت بها على السلم الحجري القصير. ما يزال طيف بول يخطو عند أسنان البوابة الحديدية، يحصيها ويملأ بعض الفراغات بينها. كان ظله الأسود ثابتاً، لا يمكنّنا أن نتبيّن إذا ما كان يولي إلينا وجهه أم ظهره، لكننا سمعنا صوته في النهاية: "ابقوا مكانكم، لقد وجدها فريد". ثبتنا جميعاً عندما سمعنا تلك الكلمات. هبطت السكينة علينا جميعاً. كانت عينا كريستين تترقب البوابة، ووالدتي تضمُّ يديها إلى صدرها، أما لوسي فقد غطَّت بذراعها اليمنى فمها وطرف أنفها. الأزواج الثلاثة لأعينهم، كانت تراقب بول، وتنتظر أن يظهر فريد برفقة الطفلة. وبالفعل لم يتأخّر الشاب حتى ظهر برفقة ظلٍّ قصير كانا يسيران تحت ضوء الليل القرمزي الممزوج باللون الأصفر لمصابيح البوابة الصغيرة، المعلّقة على الطرفين المدببين للبوابة. سحب بول البوابة وسمح لهما بالعبور عبر الطرفين. تقدمت كريستين واتّجهت نحوهما مهرولة.

"روزالي". نادت والدة الطفلة، قبل أن تصل إليها، وينخفض ظلها من بعيد ليندمج بظل الفتاة مشكلان كرة سوداء تحت بقعة الضوء الأصفر. تجمَّعنا نحن السبعة في النهاية عند النافورة الحجرية التي تشكّل حلقة مائية كبيرة بين البوابة والمنزل. لم تتعرف عليَّ الفتاة الصغيرة في البداية، لكنها أرسلت لي ابتسامة ترحيب في نهاية الأمر، كانت تلك الابتسامة مزيجاً من الترحيب، والتفاخر بالخطورة التي قامت بها الفتاة.

علقت والدتي من خلفي: "فتاة مشاغبة".

"فتاة مشاغبة". قالت روزالي مقلدة لهجة والدتي بقول تلك العبارة.

انتظر فريد بعينين مثبتتين على والدتي كلمات الشكر على ما قام به. لكنها وبدلاً من أن تشكره سحبت كريستين والطفلة إلى الداخل، وفي اللحظة التي كاد فيها بول يبتعد بصحبة فريد، التفتت والدتي وقالت: "مهلاً... تعالا لتناول العشاء معنا، سنجتمع كلنا على المائدة اليوم. سيكون هذا بمثابة شكر لما قمتما به، وكذلك احتفاءً بليون". التفتت إليّ بعد أن أتمَّت كلامها. كانت هي الوحيدة التي ما تزال تناديني ليون، أما والدي فكان يناديني بليونارد.

أظهر العاملان في البداية الرفض بنظرات خجلة، لكن والدتي أصرَّت على دخولهما، فانصاعا لأمرها وتبعانا إلى غرفة الطعام، التي أصبحت جاهزة بعد

عدة دقائق من انتشارنا حول المائدة.

5

وقفتُ متأملاً غرفتي دون أن أتجاوز المدخل وقتاً طويلاً، أو هكذا بدا لي بينما أنا أقف وآلاف الأفكار تراود ذهني. ها أنا أعود إلى هنا، بعد أن أخذتني حياتي في جولة أبعد ما يكون عن تلك الصورة التي رسمتُها لنفسي، والتي ظنَّت والدتي بأنها تراني بها.. أو ظنَّ كل من يعرفني بأنني سأكون عليها. تلك الصورة القديمة تمزَّقت، وظهر الوجه الآخر الذي لم أتوقَّع وجوده في حياتي قبل هذا، وظهر المنطوي خلف الصفحة الجديدة لقصتي. أنا هنا أخيراً في نقطة البداية، أنا حيث توقفت حكايتي القديمة. كانت حقائبي تستقر في منتصف الغرفة، اندفعتُ باتجاهها، وتركتُ الباب ينزلق بحرية، وينغلق من تلقاء نفسه خلفي. طرحتُ حقائبي على الأرض، وبينما كنتُ أفتحُ حقيبتي الأكبر حجماً، سمعتُ صوت طرقاتٍ ناعمة على الباب. وقبل أن أدعو الطارق إلى الدخول، سمعتُ صوت رتاج الباب يندفع، ومن ثم ساد صمت قصير، لتظهر بعده والدتي التي سبقها ظلّها في الدخول.

نظرت إليّ بينما كانت عيناها مسمرتين على ارتفاع بسيط عنّي، ثم قالت: "اتركْ مهمة إفراغ الحقائب لنا، سنقوم بذلك أنا ولوسي في الصباح. ستجد في خزانتكَ ملابس ملائمة للنوم". كانت والدتي قد أعدَّت كل شيء بطريقة مناسبة تماماً، بحيث لم تدعْ أي فراغ يشعرني بأنني ضيف أحلّ على المنزل الذي عشتُ فيه طفولتي بعد أن بلغتُ من السنّ ما يسمح لي بتركه والابتعاد عنه. كانت تحاول أن تُظهِر لي بأنَّ هذا المنزل يحتضنني وكأنني تركتُه بالأمس فقط.

"يمكنني القيام بهذا الآن، لا أشعر بالنعاس، ولا يوجد ما أقوم به هنا".

تفقدت والدتي البقعة التي أجلس فيها، ثم قالت: "لن أصرَّ على ذلك، يمكنكَ القيام بما تشاء". صمتت لبرهة، ثم قالت بعد أن رمت نظرة دقيقة على ما وقع بيني وبين الحقائق: "هذه دمية روزالي". نظرتُ أسفل مني، ثم أجبتُها بالإيجاب. نسيتُ الدمية برفقتي، ولم أُعِدها إليها قبل أن ترحل مع والدتها ما أن أتمننا تناول العشاء. لمحتُ ابتسامة والدتي بينما هي تتأمّل الدمية، ثم تراقبني بعاطفة غريبة. تحركتُ حولي، ثم تجاوزتني وصولاً إلى سريري. مسَّدتُ بيدها غطاء السرير، وما أن أصبح مفروداً جلستُ عليه. ألقت نظرة فاحصة على الغرفة كلهاحتى السقف. "لم أقم بتغييرات كثيرة

في غرفتكَ، ما تزال ذكريات طفولتكَ عالقة فيها، ولا أرغب في أن تزول. تركتُها كما هي، ولكنني قمتُ ببعض الإصلاحات". أشارتْ بيدها إلى بعض الملصقات على الحائط، وكان أضخمها هو ملصق كبير يُظهِر صورة لألفس بروس لي باللونين الأبيض، والأسود."حتى هذه الملصقات لم أرغب في إزالتها".

ابتسمتُ وأنا أذكّرها: "كنتِ غاضبة؛ لأنني أفسدتُ الحائط بوضعها عليه".

أظهرتْ انفعالاً مبالغاً فيه؛ لتطفي المرح على ما ستقوله: "لقد كان ورق الجدران الموضوع على حائط غرفتكَ مكلفاً، ولم أرغب في أن تفسده بهذه البساطة لمجرد ولعكَ بالموسيقى". لم تنظر إليّ مجدداً، بل كانت عيناها معلقتين على صورة ألفس.

"لم يكن ولعاً بالموسيقى بقدر ما هو ولع به". أشرتُ إلى الملصق الكبير الذي كانت أمي تراقبه. نهضتْ، وسارت باتجاه الصورة، مسحتها بأصابعها، ثم قامت بفرك كفّيها ببعضهما. بدت لي بأنها غصَّت بما كانت ستقوله لي في الواقع. تاهت والدتي، وغصّت بكلماتها. ظهر لمعان خفيٌّ في عينيها، بينما كانت تتّجه إليّ من جديد. وبينما أنا جالس على الأرض. دسَّت أصابعها في شعري معيدةً إياه إلى الخلف. ظهرت جبهتي كاملة، وبينما كنتُ أرفع رأسي لأراقبها، همست:

"مسرورة؛ لأنكَ هنا من جديد". سحبتُ يديها، وقبضتُ عليهما بكلتا ذراعيّ، ثم أعربتُ عن سروري أنا أيضاً بوجودي هنا مرة أخرى. سحبت يديها، ومشت بتباطؤ حتى وصلت إلى الباب. أغلقته برفق خلفها، وتركتني وحيداً أكمل مهمتي. أفرغتُ حقائبي، واستغرق مني ترتيبها، ودس مافيها في خزانتي القديمة وقتاً أطول مما تصورت. فكّرتُ مرات عديدة بالاستسلام، وترك المهمة لوالدتي، ولكن ما أقوم به لم يكن جديداً تماماً. لقد علّمتني حياتي وحدي في شقّتي أن أعتمد على نفسي، إلى أن فقدتُ نفسي بطريقة مثيرة للسخرية.

علّقتُ دمية روزالي على الرفّ الخشبي، بين التحف الصغيرة القديمة الخاصة بي. أطفأتُ المصابيح مكتفياً بالضوء المتسرّب من النافذة الطويلة

لغرفتي. كان مقاس بجامتي أكبر قليلاً من مقاسي، وهذا ما كنتُ أتوقعه؛ لأنني خلال الأيام الماضية فقدتُ كثيراً من وزني، ولم أتوقع أن تدرك والدتي هذا؛ لأنها لم ترني. كنتُ أختبئ تحت برودة لحافي، تاركاً وجنتي تنعم بملمس الوسادة الناعم. كان لذلك شعور يحيي ذكريات مراهقتي، وطفولتي أيضاً.. هذا هو المكان نفسه.

على الرف كانت دمية روزالي تجلس بثبات كما تركتها، رأسها نصف مائل يسقط عليه جزء من الضوء الآتي من النافذة. أنار الضوء جزءاً مثلثاً من الوجه البيضاوي الخالي من الملامح، لكنه في تلك اللحظة لم يكن بلا ملامح، بل كانت هناك عين واحدة مرتسمة في الجانب المضيء.

6

الحزن يخيّم فوق قلب الفتاة، التي كانت تجلس في المكتب الأخير. كانت الغرفة الصغيرة، لا تتسع إلا لمكتب واحد، وكرسي، وطاولة فيها أدراج قابلة للجر. جلست الفتاة أمام شاشة الحاسوب، بوجه منير سطع عليه ضوء الشاشة، وما تبقّى من الضوء ارتطم بالنافذة من خلفها ليمحو صورة أبراج المدينة الشامخة خلفها، ويعكس ظهر كرسيها. تمايل الكرسي يميناً وشمالاً، حركته الفتاة بتململ وبكسل، وبعد تفكير قصير أبعدت الفتاة ذقنها عن باطن كفّها الثابت بين الطاولة ووجهها. نقرت بسبابتيها على لوح المفاتيح، ودوى صوت شبيه بآلة الكتابة في المكتب الضيق.

حلَّ الظلام باكراً، وهذا ما تجيد فعله غيوم الشتاء المحمّلة بالعتمة. هذا ما فكرت فيه الفتاة عندما توقفت عن الكتابة، ونظرت إلى النافذة خلفها، لتجد الأبراج التي تملأ صورة النافذة الزجاجية وقد أشعلت أنوارها، أو أنّ الظلام هو ما جعل النور المتفرّق واضحاً. جمعت الفتاة شعرها القصير خلف رأسها، وراحت تفكر في الفكرة التالية، وبداية السطر الذي نقلت المؤشر إليه. كان المؤشر الأزرق يومض على الشاشة البيضاء، يظهر ويختفي، يناشدها أن تطبع كلمة أخرى. أغمضت الفتاة عينيها وكأنها تحاول النظر في جوف دماغها؛ لتنظر ما إذا كان هناك في زواياه ما نسيت أن تطبعه. لكنها وجدت مساحة فارغة تحتاج إلى أن يتم إعادة ملئِها، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا عندما تأخذ استراحة. حرّكت الشابة كرسيها غير المريح، فتحركت عجلاته فوق الأرضية المغطاة بالسجاد بصعوبة. لم تكن المسافة التي قطعتها كبيرة، إنما جعلت ذراع كرسيها تلامس الحائط، وأزاحت هي جسدها النحيل لتلامس وجنتها الإطار الخشبي المحيط بالنافذة. تفقّدت المدينة، ورأت الأضواء الحمراء تومض على قمم الأبراج الأقل طولاً. بحثت عن القمر ولكنه كان أعلى من قمة النافذة، كل ما كان يمكنها رؤيته هو بعض الغيوم التي ظهرت في السماء، والتي بدت منخفضة من جهة البحر. لم يكن يظهر أي شيء ينتمي إلى الطبيعة سوى جزء صغير من السماء، ومسافة صغيرة من البحر. كانت الفتاة تشعر بالضوضاء اللامسموعة، هناك.. على الجهة الأخرى من الطرقات التي تفصل بينها، وبين المباني الأخرى المقابلة لنافذتها. أيضاً كانت تشعر بعبور الأرواح تحت قبب السيارات العابرة في الطرقات، والتي كان عبورها

يتضاءَل كلّما ازداد الظلام حلكة، وتقدّم الليل مكتسحاً سماءها.

سمعتْ صوت نقرات سريعة على الباب الخشبي، فأجفلت لترى زميلتها بشعر مجعد قصير بدا كأنه قبعة قديمة فوق رأسها، سألتها الفتاة بتعجل: "سريزا، هل أنهيتِ المقالة". رمقت المتطفّلة الفتاة الجالسة بجوار النافذة. هزّت الفتاة رأسها نفياً. "احرصي على أن تكوني قد انتهيتِ منها قبل نهاية الأسبوع، إنهم يحتاجون إليها".

"غداً سأنتهي منها". قالت الفتاة ذلك، فاختفت صاحبة الشعر المجعد. فكرت الفتاة الجالسة بـ "هم". من هؤلاء الذين يشكّلون السلطة الخفيّة التي تحتاج القيام بواجب معين دائماً؟ لماذا يجب أن يكون علينا الرضوخ لهذه السلطة، التي هي تحت مطرقة سلطة أخرى، تريد دائماً منا القيام بما تنتفع به، بينما نحن نقوم بذلك؛ لإخماد نار الواجب، أو الخوف بعبارة صحيحة. إننا نخاف غضب السلطة الخفية التي تجبرنا على القيام بمهمة، وإن كُنّا لا ندرك هدفها، يبقى علينا تأديتها. هي هنا، وهناك هم، ولدى الـ "هم"، هم خاصة بهم، ولكل سقف، سقف آخر ما دامت السماء على ارتفاع يكفي لأسقف كثيرة، ولم يعد شعاعه ينتمي لمفهوم الحرية في هذا العالم.

أرادت الفتاة أن يتلاشى كل شيء، المقال، المكتب، المجلة، زميلتها، وسلطة الأوامر التي تُشهر عليها دائماً سيف التنفيذ. كان الملل يضغطها إلى الأسفل باتجاه قدميها، ويمحو كل بريق جميل كان من الممكن أن تلمحه، ويرمي بها في جدران مألوفة تكرّس التكرار في حياتها. كان هذا القيد يعيق المشاعر الإيجابية من الوصول إليها، ويؤخر تطور أفكارها.

كل ما كانت تفكر فيه هو الملل، ولا شيء آخر.

يخبرونك بأن الحزن أوضح من عشرات اللحظات السعيدة، إنه أوضح من محاولة التغاضي عنه. لكن ماذا إن كان الحزن هو ما يملؤك، ولا شيء سواه، ولا أية محاولة لكتم صوته. وكل هذا البراح الموجود في أعماق إنسان، يصبح مدى يتردد فيه صدى هذا الصوت المؤلم. هكذا كانت الفتاة، ولأنها وحيدة رغم كل ما يحيط بها، إلّا أنّها لا تتمكن من مجابهة أحزانها بمشاعر أخرى.

سحبت كرسيها ليجاور المكتب من جديد، وأصبحت مرة أخرى قريبة من حاسوبها. نظرت إلى الساعة الموجودة في زاوية الشاشة، فوجدت أنّ الوقت

تجاوز ساعات عملها بدقائق كثيرة. أطفأت الشاشة، وفكّرت في أنها سترفض ورديات المساء القادمة، وستكتفي بساعات العمل الصباحية، وإن كانت ستضيّق عليها وقتها الذي تنعم فيه بنوم كافٍ. حزمت كل ما يخصّها في حقيبة يدها، وأغلقت شاشة حاسبوها بينما هي تنهض، ثم خرجت من المكتب. عبرت الممر القصير الذي يفضي إلى ساحة المكاتب المتجاورة، وفي الجهة المقابلة، وصلت إلى المصاعد، ضغطت على زر المصعد، وانتظرت وصوله إلى البهو الصغير الساكن من أية حركة. في تلك اللحظة سمعت رنين هاتفها في الحقيبة المعلّقة على كتفها. أرخت السير المشدود، وسحبت الحقيبة إلى صدرها. دسّت الفتاة يدها في الحقيبة، وما أن ضغطت زر الإجابة على الاتصال، حتى صدح جرس المصعد في المكان. وضعت الفتاة الهاتف على أذنها، وباليد التي كانت تحمل الحقيبة، ضغطت زر الطابق الأرضي. أبعدت الهاتف لترى من المُتّصل، فلم يظهر أمامها اسم محدد، بل كان رقم هاتف أرضي. سمعت صوتاً أنثوياً متقطّعاً يحاول التلفُّظ بكلمة معينة، ولكنْ في المصعد لا يوجد شبكة تستطيع الوصول إلى هاتفها.

"أ..نـ.. سـ.. ثـ..سـ.."

"مهلاً... إنني في المصعد. أجل، أجل.. أنا أنسة ماثيسون". زفرت الفتاة وهي تهزُّ الهاتف حول أذنها، ولكن ذلك لم يأتِ بنتيجة. انقطع الاتصال فجأة، فاستسلمت للأمر، وأرخت اليد الحاملة للهاتف. انتظرت وصول المصعد، وما أن هبط بها، حتى خرجت منه، بخطى سريعة، تسير على الأرضية الرخامية لبهو البرج وصولاً إلى الباب الآلي. أرادت الشابة أن تعيد الاتصال بذلك الرقم، ولكنها تكاسلت عن هذه المهمة؛ لأنَّ الأمر لو كان هامّاً لعاودوا الاتصال بها. خرجت تسير على الرصيف، وهي تشدُّ حقيبتها على كتفها، وهاتفها المحمول بين أصابعها. انتظرت وصول أية سيارة أجرى، ولكنها كانت متأكدة، من أنّ مرورهم هنا شحيح. كان عليها السير حتى نهاية الشارع عند المنعطف المؤدي إلى الطريق الرئيسي. سارت وحيدة في الطريق، دون أن تشعر بالخوف من وحدة الليل وظلمته. لماذا الخوف وهي تعرف الطريق؟ سارت على الرصيف بمحاذاة الحوائط الإسمنتية، مكتفية ببرودة الزجاج الذي انتشر على الحوائط، بدلاً من عبور التيارات الباردة على وجهها. ما كادت تقطع ثلثي الطريق حتى اهتزّ الهاتف في قبضتها من جديد، وكان رقم الهاتف الأرضي هو ذاته. رفعت الهاتف إلى أذنها، وأجابت بلهجة نافذة

الصبر.

سألت المرأة على الجانب الآخر: "أنسة ماثيسون؟"

"أجل، هي تتحدث الآن". أجابت بنبرة مُستهزئة.

"إننا نتحدث من دار رعاية المسنين، إن والدتكِ تلحُّ طالبة رؤيتكِ، وهي في حالة.." بحثت المرأة عن التعبير الصحيح، ثم قالت بعشوائية: "في حالة من الفوضى، ولا أعتقد بأنها ستكفُّ عن ذلك قبل رؤيتكِ". ساد صمت قصير، سمعت الفتاة فيه صوت أنفاس المرأة تعبر سماعة الهاتف، وتنتظر منها أية إجابة.

7

"أتقصدين الهذيان؟ أم أن هناك شيئاً آخر؟ هل والدتي بخير؟"

"إنها بخير. نعم هو الهذيان، ولكنها تصرخ وتلحّ تريد رؤيتكِ. "أحضروا لي ابنتيّ"، هذا ما كانت تصرخ به طوال النهار حتى الآن، ونحن نعلم بأنَّ هذا.. غير.. غير ممكن. لكن وجودكِ أنتِ وحدكِ، قد يساهم في تخفيف الأمر. لقد حقنها الطبيب ببعض المهدئات في الصباح، وكان يعتقد بأنها ما أن تستيقظ حتى تزول موجهة الهذيان هذه، ولكنها لم تنسَ، بل إنّ ذاكرتها تعمل بشكل أفضل من كل الأيام، وعادت لطلب وجودكِ بإصرار أكثر من السابق".

لوهلة شعرت الشابة بقبضة في جوفها تشدُّ على كل مشاعرها، وتحرِّك وجدانها لأسباب عديدة. وكونها لم تدرك حاجة والدتها لها، فقد كان ذلك أهم أسباب شعور الذنب السريع الذي عبر ذاتها بينما كانت تتحرك على الرصيف، تحت سماء الليل وحيدة. غضبٌ وحزن في آن واحد.. يشكلان عالمها الآن.

وافقت الفتاة على طلب المتَّصلة: "سأكون موجودة، سآتي حالاً".

"هذا جيد، لا أعتقد بأنّها ستنام الليلة قبل رؤيتكِ، لذلك ستكون بانتظارك ريثما تصلين". لم تجبها الفتاة إلّا بصوت يدلّ على الموافقة، وبعد ذلك أغلقت الخط، دون أن تتأكَّد أي الطرفين بادر بإنتهاء المكالمة. تركت هاتفها ينزلق في جوف الحقيبة بعد أن دسَّت طرفه فيها. جرت الحقيبة المتأرجحة في الهواء، وسارت بخطوات واسعة إلى نهاية الشارع. توقفت وهي ترى أضواء سيارات عابرة على جوانب الطرق الأخرى، والتي كانت ترى من خلالها فسحة ضيقة. عبر ضوء في نهاية الطريق الذي كانت تقف هي فيه، وكان وكأنّه جزء من نص قصتها. تبينت معالم السيارة، وعندما لاحظت بوضوح النتوء العلوي في قبة السيارة، رفعت يدها مشيرة للسائق. توقفت مركبة الأجرة أمامها، فرمت جسدها بثقل على المقعد الخلفي. تحركت السيارة ما أن أُغلِق الباب الخلفي. أعطت السائق وجهتها بينما كانت السيارة تسير في طريق مستقيم للخروج من الشارع الضيق.

تأرجح جسد الفتاة الضئيل في المقعد الخلفي. أدركت بأنها كانت تحتضن حقيبتها، فطرحتها على المقعد الذي بدا وكأنه لا يحتوي على إسفنج. اعتاد أنفها على رائحة سيارات الأجرة، والتي لا تختلف عن بعضها إلّا في أحيان

قليلةً. لم تعد تتذمر بسبب طريقة القيادة، ولا من روائح السيارات؛ لأنّها أدركت أنّ ذلك لا طائل منه، ولأنها أيضاً لم تعد تجد من تبثُّ إليه شكواها بشأن سيارات الأجرة بشكلٍ مطوّل. كل الأحاديث التي كانت تتبادلها مع الآخرين، كانت رسمية لا تخلو من مزاح سطحي، يدعو إلى صنع ابتسامة مزيفة، أو صوت ضحكة قصيرة يختفي ما أن يشيح من يقف أمامها ببصره عنها. اتّكأت على باب السيارة تاركة جبهتها تلتصق بالنافذة الزجاجية، وتحوَّل هذا الأمر في العام الأخير من حياتها إلى هواية غريبة. راقبت الطريق، وعبور النقاط المضيئة في أعمدة الإنارة أمام نافذة االسيارة التي تسير بسرعة وبتأرجح. لمحت أطياف أشخاص يسيرون على الأرصفة متفرّقين. لكنّ مركبة الأجرة كانت سريعة، بحيث جعلت منهم مجرد أطياف ضبابية تعبر أمام الزجاج وتختفي، أو تمتزج بالأضواء الموجودة خلفهم. لم تصلها ذبذباتهم، ليس كما يحدث عندما تسير بين الأشخاص. كانت تشعر بموجاتها تخرج وتمتزج بهم، رغم أنها لا تكون مرئية بالنسبة لهم، لكنها كانت بطريقة ما تمتصّ موجات أجسادهم، وتشعر بمشاعرهم. هذا على الأقل ما كانت تتخيّله. أحبَّت لعبة الإدراك غير الحقيقية التي تلعبها؛ لتسلي صمتها أثناء العودة. في رحلات الذهاب كان من شأن حماسها لفكرة ما أن يخلق ما يغيّر حياتها، ويلغي قليلاً شعورها بالملل، فلا تلعب لعبة قتل الوقت، ولكن في طريق العودة تكون فرص التغيير قد ماتت، ولا يعود هناك ما تفعله سوى تخيّل ما يسليها حتى تصل إلى مسكنها.

أطياف عديدة عبرت، لم يكن لها ملامح، ولكنْ لهم حيوات مختلفة، وقصص، ومشاعر لا تتشابه. بعضها حزين، وبعضها الآخر غاضب، وأخرى تشعرها بالسعادة لأسباب مختلفة، ولكنّها مسألة وقت حتى تتغير الأحوال. الحياة لا تتوقّف أمام شعور معين أو لحظة واحدة. كل القصص قابلة للتغيير، والحياة ليست إلا عجلة تدور لتظهر مواضع وإن كانت متشابهة في شكلها، إلا أنها مختلفة في نقطة تصعب رؤيتها.

8

وصلت إلى وجهتها، وخلال مسافة أمتار قليلة، تدرَّجت سرعة سيارة الأجرة هبوطاً، ثم توقَّفت تماماً. استغرقت الفتاة بضع لحظات، وهي تمعن النظر في واجهة المكان، قبل أن تجذب حقيبتها إليها وتسحب منها المال؛ لتعطيه لسائق السيارة. استقبل الرجل المال بصمت، وأعاد لها بعد ذلك ما تبقّى منه، دون أن تكون هي بانتظاره. تركت الباقي له، وترجَّلت من المقعد، لتعود واقفة وسط نسمات البرد. كان وجهها عالقاً باتجاه الجدار الأمامي للمبنى المربع، ذو السقف الذي تميّز بالنتوءات الهرمية. كانت تلك النتوءات تشكل مثلثاً حادّ الزاوية، يهبط من جانب، وفي الجانب الآخر يُظهر مثلثات زجاجية أصغر حجماً. أما الطوابق السفلية فقد اتّحدت مع المبنى المربع، لئلّا تُظهر معلماً مميزاً. لا يسوّر المبنى أي حاجز، وإنما حديقة ذات أرضية مغطاة بعشب ميت، وبدت كأنها أرض مقفرة. ووسط العشب ظهر الممشى المُغطَّى بالحجر بطريقة مميزة، وبلون كلون الملح يميّزه عن لون النبات الأخضر المحيط به. سارت الفتاة على الممشى العريض، متّجهة إلى الباب الأحمر ذي النوافذ التي اخضلّت؛ بسبب الرطوبة المدسوسة في برد الشتاء. دفعت الجانب الأيمين للباب المقسوم، ولطمت برودة الباب باطن كفّها. سارت إلى الداخل ليمتصّ جسدها دفء المكان. عبرت المسافة الخالية وصولاً إلى طاولة الاستقبال. كادت موظفة الاستقبال أن تنهض لتستقبلها، فليس من المعتاد زيارة أحد لهذا المكان في المساء. ألغت الموظفة فكرة النهوض، واكتفت بالاعتدال، وإظهار الفضول للزائرة الشابة.

"هل أستطيع مساعدتكِ؟" سألت الموظفة.

"بالطبع تستطيعين". ردّت الشابة بسخرية تعمَّدت أن تبدو واضحة، ثم قالت: "أنا هنا من أجل والدتي..".

قاطعتها الشابة: "لكنّ وقت الزيارة قد انتهى منذ وقت طويل".

أغمضت الشابة عينيها مغتاظة من مقاطعة الموظفة لها. فكّرت في أنّ هذه الموظفة والتي لا تبدو كمن يجهد نفسه للعمل بكل إخلاص، تظهر تفانيها الآن أمامها. سحبت نفساً عميقاً، وحاولت تبديد غيضها، ثم شرحت لها: "أعلم.. أعرف بالتحديد أوقات الزيارة. لقد اتصلوا بي، وطلبوا حضوري من

أجل والدتي، وهذا الأمر يطول شرحه. والدتي هي المريضة ماثيسون، ولا أعلم من الذي يجب أن تسأليه ليعطي الأذن بدخولي".

تراجعت الموظفة ليلتصق جسدها بالكرسي، فهي لم تتوقّع هذا الرد المطول هذا، ولا تعتقد بأنها فعلت ما يستحق أن تتلّقى بسببه هذا الانفجار. إنها تؤدي واجبها بالطريقة الصحيحة فقط، لكنّ ذوي النزلاء، لا يسهُل التعامل معهم دائماً، وفي ساعة كهذه لابدَّ أنْ يكون الأمر غريباً. تفهَّمت الموظفة غضب الفتاة، ورفعت سماعة الهاتف لتجري المكالمة التي ستحسم الأمر. وبعد مرور أكثر من خمس دقائق، ظهرت ممرضة من خلال الممر المجاور لركن الاستقبال، وأشارت للشابة بأن تتبعها. سارتا بصمت، وقد تبعت الشابة الأصغر الأخرى التي غطّى زي العمل الأبيض جسدها. لم يكن هناك كثير من الجلبة في المكان، لا وقع أقدام على الأرض، ولا أصوات نقاشات بعيدة، ولا حتى هامسون متخفُّون عن الأنظار. كل شيء هنا كان يتلخَّص بـ: صمت، ظلام يطلُّ من خلال النوافذ، وأضواء ساطعة تهبط على الممرات من السقف القصير.

وصلت الشابة في النهاية إلى المكان الذي كانت تترقّبه، لم تتخيّل أنَّ مقابلتها لوالدتها التي تركتها منذ أقل من أسبوع واحد ستكون في مكان مختلف عن الأماكن المعتادة. كما لم تكن مقابلتهما في الحديقة، أو في ردهة الطعام، ولا حتى في الحجرة المخصّصة للزيارات الخاصة. لقد كان اللقاء في مكتب طبيب خالٍ من أي إنسان ما عدا والدتها، التي كانت تجلس أمام الطاولة العريضة وتراقب الجدار. كان هناك مقعد آخر خالياً مقابل والدتها التي جلست في الحجرة نصف المظلمة. دفعت الممرضة الباب والذي لم يكن مغلقاً أساساً، وأشارت للفتاة بالدخول.

"سأكون بالجوار، في حال حدوث أي أمر طارئ". أرعب هذا الاحتمال الشابة، ولم تتصوّر أن تفضي القصة إلى منحنى آخر لا ترغب هي فيه. بينما كانت تدخل تساءلت عن التعاون في التعامل مع هذا الأمر. لا تبدو والدتها طبيعية، وهذا أمر مؤكد لها قبل أن ترى والدتها. لكن إذا كان الأمر حقيقياً لماذا يتركونهما في مكتب دون حماية أو اتخاذ أي احتياط آخر من نوع لا تعلمه هي نفسها. وجدت الإجابة من تلقاء نفسها، هذا دار للمسنين، وليس مصحَّاً نفسياً، وفي نهاية الأمر كانت والدتها مضطربة قليلاً، وهذا عامل

طبيعي يصيب أيّ شخص بلغ سنها، وقاسى من ظروف الحياة ما قاسته تلك المرأة. لكنها لم تصل إلى حدّ الجنون الفعلي لكلمة جنون، ربما يكون الخرف قد أصابها، ولكن هذا ليس أمراً غريباً، ولا بالغ الخطورة في دار للمسنين تجيد التعامل مع هذه الفئة. لكن ماذا لو كانت والدتها قد أصيبت بالجنون الفعلي، وتعاني من كل آثار هذه الكلمة، وممّا تحمله من معانٍ عديدة؟

قفزت والدتها من مكانها، وتحرَّك جسدها الهزيل من بين ثنايا ثوبها الأبيض الحريري ذي الياقة المزركشة. وناجت ابنتها: "سريزا، عزيزتي اقتربي". حاولت أن ترفع يدها لتتشبث بالفتاة، ولكن سريزا رفضت أن تجهد والدتها، فقبضت على ذراعيها، ودفعتها للبقاء على كرسيها، وجلست أمامها، بينما أبقت ذراعيها متشبثتين بذراعي والدتها المجعدتين النحيفتين. "أخيراً أنتِ هنا".

"لم تمضِ سوى أيام على زيارتي الأخيرة يا أمي". لم ترغب سريزا في أن يتمّ تفسير ما قالته، على أنه تكاسل عن تلبية واجبها تجاه والدتها، التي أرادت من تلقاء نفسها اللجوء إلى دار الرعاية. أردفت الشابة: "لكنني سأكون معكِ متى احتجتِ ذلك".

ارتعش جسد والدتها الجالسة بالقرب من النصف المظلم للغرفة، بينما جلست سريزا تحت المصباح المضيء تماماً. أعطى سقوط الظل على جسد والدتها صورة كئيبة، ولكنها لم تخلُ من هيبة تمازج العوامل المحيطة بوالدتها، الشيب الذي انتشر أسرع في رأسها، وكثافة شعرها المتناثر على جانبي رأسها. كذلك كان الوقار في عينيها الغائرتين الهزيلتين، واللتين كانتا تحملان غضب فترة الطفولة.

"أمي، أخبروني بأنك تريدين رؤيتنا أنا و..".

قاطعتها الأم: "جوليان، لقد رأيتُها بالفعل، قبل وصولكِ".

تنشَّقت الفتاة الهواء ببطء، وأردفت بجدية واضحة: "هذا مستحيل، أنتِ تعلمين بأن هذا مستحيل يا أمي. جوليان ميّتة، ولن تعود إلى الحياة. كيف استطعتِ رؤيتها؟"

بطريقة دفاعية، رفعت الأم كفَّيها لتواجه جسد ابنتها: "أعلم.. أعلم يا سريزا، أعلم هذا يا فتاتي الصغيرة. هي ميتة، ورؤيتها مستحيلة، لكنها تزورني

في أحلامي، وأحياناً.. أحياناً.. تأتي في الواقع، ولكنها ذكية فلا تجعل أحداً يراها سواي". قهقهت الأم بطريقة طفولية ماكرة، وكان هذا سرّ، لم تخبر سوى ابنتها فقط به.

"أمي.. أمي، هل يضايقكِ هذا المكان، هل تحتاجين مساعدةً من شخص مختصّ، طبيب آخر مثلاً؟".

ردَّت والدتها بحزم: "لستُ مجنونة، لم يصبني الجنون حتى الآن. ما زلتُ أتذكّر كيف انتهت حياة جوليان، ومازلت أشعر بمشاعركِ تجاه حبي لها. أنتِ ترفضين عودتها ويعجبكِ رحيلها. لكن تلك الأيام ولّت، كنت أنا أيضاً شابة، ومولعة بابنتي الصغيرة، ولستُ على استعداد لخسارة فرد آخر من العائلة". أشارت إلى سريزا؛ لتؤكّد لها بأنها هي المقصودة: "لكنّ أفكاركِ ليست صحيحة، أنا لا أفضّلها عليكِ، ولا أحبها أكثر مما أشعر تجاهكِ أنتِ. كلاكما طفلتاي".

أغمضت سريزا عينيها مطولاً، كأنها تسترجع ذكريات الطفولة، ثم سألت: "لماذا طلبتِ رؤيتي الآن".

اعترضت الأم: "لا". بعثرت نظراتها في أرجاء الغرفة، كما لو أنها تريد التأكُّد من كونها خالية من غيرهما. "من قتل جوليان". صمتت لبرهة لرؤية استقبال ابنتها لبداية هذا الحديث، وعندما رأت الترقُّب على وجه الشابة، أكملت: "من قتل جوليان، ما يزال موجوداً.. موجوداً هنا".

"لم يقتلها أحد".

"بلى، لقد قتلها.. قتلها". أخفضت الأم صوتها. "سيغضبه حتماً إفشاء هذا السر، ولكنه لن يتركني في كل الأحوال، لذلك يجب أن تعرفي بأنه موجود، يجب أن تُدركي هذا قبل وصوله إليكِ أنتِ أيضاً. لقد أدركتُ من تلقاء نفسي، بأنه لم يترك جوليان طوال السنوات السبعة التي تظاهرت خلالها بأنها تعافت منه. سبعة عشر عاماً وهو يطاردها، ولكنّه أجبرها في السنوات السبع الأخيرة على أن تتظاهر برحيله قبل أن نقضي عليه، أو نؤكّد وجوده". هزّت سريزا رأسها؛ إشارة إلى عدم قدرتها على إدراك أو استجماع ما تقوله والدتها. "صدقيني.. صدقيني يا فتاتي، لم يكن موت جوليان من ضمن خطّته، ولكنّه تمكّن من الهرب في النهاية. و.. الآن.." تغيرت تعابير وجه والدتها، وبدا

النصف المعتم من الغرفة يزداد حلكة حولها. وفي عينيها الغائرتين اشتعل فتيلان كما لو أن هناك يرقات عالقات في الفلك الأسود المحصور في عينيها. قاومت والدتها العجز ما أصابها، وحاولت جاهدة أن تشدَّ أطرافها، ولكنها بدت متشنّجة. أصيبت بسكينة باغتتها فغدت كتمثال، لا روح فيه.

نادت سريزا: "أيتها الممرضة. تعالي حالاً". راقبت وجه والدتها الذي رسم ابتسامة بالكاد واضحة تحت الظلام. ومض الفتيل الصغير جداً في عينها، وما أن دخلت الممرضة دافعة الباب بعجالة، حتى نهضت الأم المبتسمة.

طلبت والدة سريزا من الممرضة، أن تأخذها إلى سريرها. انتهت محادثة الفتاة ووالدتها بطريقة مفاجئة عصيَّة على الفهم. راقبت سريزا والدتها وهي تعبر الباب برفقة الممرضة. لم تلتفت الأم نحو ابنتها، ومضت هي والممرضة بخطوات بطيئة عبر الممر، وصولاً إلى نهايته. لم تفهم سريزا حينها ما الذي ينبغي عليها القيام به، ولم يكن أمامها سوى حلّ سهل ينهي كل هذه الغرابة، وهو الرحيل والعودة إلى بيتها.

9

خرجت سريزا من المركز، وكان الطريق المقابل للمبنى، هو معبر خاصّ للمكان، فلم تعبر فيه أية سيارة. اضطرها الأمر للمشي إلى نهاية الطريق مرة أخرى، وأصبحت أكثر كرهاً لهذه الخطوات المعدومة من الصخب؛ لأن صخب الحياة يكتم صخب الأفكار. عاشت بين تناقضات أفكارها، وبين تصريحات والدتها. هل فعلاً أحبتها والدتها بقدر ما أحبّت جوليان؟ كانت الإجابة الأوضح هي: لا. لكن من القسوة أن تحكم على الأمور من خلال منظورها الشخصي لها؛ لأنها ربما تكون قد تغاضت عن بعض الأمور. أتى بعد ذلك السؤال الأكبر: من الذي قتل جوليان؟ بل ماذا قتل جوليان؟ هذا ما قالته والدتها قبل قليل.

وجدت سيارة أجرة أخرى، أقلّتها إلى منزلها، كما أقلتها السابقة إلى هنا. لم ترَ ساعتها، ولم ترغب في أن تفعل ذلك. لم يعد الوقت ينتمي إليها، ولا تسير هي حسب خط سير الساعات المملة التي تحصر حياتها من كلا الجانبين، وتجبرها على السير حسب روتين يتكرر في معظم أيام الأسبوع، وعندما يتوقّف هذا الروتين، تصبح حياتها خالية دون هدف أو معنى، وتتلاشى الساعات كما لو أنها عالقة في دقيقة واحدة لا تمضي أبداً، ما يتغير حقاً هو وجود الشمس وغيابها فقط.

عادت إلى منزلها في النهاية، وأصبحت وحدتها المألوفة أقل تأثيراً من وحدتها العارية أمام الآخرين. كانت تشعر بالخزي كما لو أنه موجود في جوفها عابر في دمها، يستشعره الآخرون، ويدركون كم هي غريبة ووحيدة لا تشبههم، ولا تشبه أيّ أحد. شعرت بأن الساعة تقدّمت وأصبحت في مرحلة متأخّرة من الليل، وأثبت هدوء الشوارع ذلك، ولكن الأمر لم يكن كما توقعته، فالساعة لم تتجاوز منتصف الليل بعد، ولكنها قدرة الشتاء العجيبة على امتصاص الحياة أثناء الليل. غرقت في الأعمال المنزلية التي تكرّرت حتى غدت عادةً وجزءاً من حياتها الطبيعية. تذكّرت فجأةً، بأنه مرَّ وقت طويل، منذ أن تناولت آخر وجبة. هاجمها الجوع فجأة. أعدَّت شطيرة محشوة بشرائح الديك الرومي والجبن، ثم جلست على الطاولة التي تتسع لشخصين، أو ثلاثة في أصعب المراحل، وراحت تتناول طعامها وهي شاردة. استغرقت عملية تناول الطعام وقتاً طويلاً، قضته بصحبة الذكريات التي لم يسعفها الوقت في أن

تصبح ذكريات حقيقية؛ لأنها حديثة. استرجعت حديثها مع والدتها، والطريقة التي تركتها بها والدتها. لم تكن تتصرف كما لو أنها هي المرأة التي عرفتها دوماً، ولكنها في الواقع لم تعد كذلك منذ وقت طويل. لم يقتصر تفكيرها على هذه الأفكار، بل قفزت إلى مرحلة الطفولة، وتذكّرت شقيقتها والحياة التي تشاركتاها معاً. شعرت بالغضب فجأة، وبالحنين الذي كانت تكابد لكي تخفيه. كتمت تدفُّق ذلك الشعور وحجبته. سريزا تفتقد شقيقتها جوليان، ولكن هذا الحنين لن يُصلِح شيئاً، ولن يعيد شقيقتها. لا يعيد الحنين كل من نفتقدهم، بل إنه يحيي ذكراهم تاركاً الألم يملأ أماكنهم الفارغة. وهي ليست في حالٍ تسمح لها بمواجهة فكرة سيئة متعلّقة بماضيها.

لديها الكثير لترويه عن الماضي، ولكن لا أحد سيسمعها.

كادت سريزا أن تبكي، بينما هي تجلس ويداها تحيطان الطبق نصف الممتلئ. أكلت من وجبتها ما يكفي للقضاء على جزء كبير من الشعور بالجوع الذي أصابها فجأة، أما ما تبقّى فقد منعها حزنها من أن تتمه. غسلت طبقها، ورمت الجزء المتبقّي من الطعام في الحاوية. وبعد ذلك سارت إلى غرفة نومها، حاملةً سروراً خفيّاً؛ بسبب التعب الذي سيجعلها تنام ما أن تدس نفسها في الفراش، ولكنها عجزت في الواقع عن النوم. مرّ الوقت وهي تتقلب على فراشها دون أن تشعر به.

حدَّقت سريزا في السقف، دون هدف كأنه صفحة تجدد لها الذكريات التي كانت تراها. رأت العالم بعينيها عندما كانت طفلة، ورأت جوليان تسير أمامها بشعرها ذي التموجات القليلة. كان شعرها أسود طويلاً، بعكس ما كان عليه شعر سريزا البني، والذي كان لونه مزيجاً من اللونين البني والأحمر. حتى ملامح الشقيقتين كانت مختلفة، بحيث تجعلان من الصعب تصديق كونهما شقيقتين. كانت الكبرى فاتنة ذات عينين مفتوحتين كالأقراص الإسطوانية، ولها نظرة آسرة. أما سريزا فنظرتها كانت توحي بالتحدي وبالعناد، لها عينان كبيرتان ذات أطراف مسحوبة، مما يعطي إيحاء بالنعاس، أو بالتعبير عن الملل لكل من يراها. كذلك كان من الصعب أن ترتسم تعابير المرح على وجه سريزا مهما بدت سعيدة، وهذا العامل كان سابقاً للتعاسة التي تعيشها الفتاة الآن، وكأنَّ ملامحها تدرك بأنها لن تحتاج للبسمة مرة أخرى، فأعطتها معالم التحدي والغضب، لكنها لم تمحُ لمسة الجمال العالقة بين تضاريس وجهها.

نامت ببطء نوماً لم يكن مريحاً. فقدت في البداية السيطرة على حدسها، ثم بعد ذلك... وكجمرة تخمد ببطء انطفأت أفكارها، وبقيت خيالاتها تحت جفونها، فأضفت إمارات الظلام على مرآها. صور الماضي، وخيالات حديثة مرتبطة بالخوف وبالدهشة.. ثم الظلام فجأة. هكذا نامت سريزا.

10

أندي، هكذا كان يتكرَّر اسمه في إعلان المعلبات، بينما يتكئ الطفل أندرو بمرفقيه على جانبي طاولة التلفاز. يضيء التلفاز بأضواء مختلفة تبرز على أنفه الناتئ، ثم تلمع الصور عميقاً في حدقتا عينيه السوداوين. لم يكن يسمع أية نداءات حقيقية حوله، إنما صوت الفتيات وهن يكررن اسمه، ثم يُطبع على المعلبات الإسطوانية. كان أندي يحاول النظر في أعين الفتيات، والوصول إلى ما ينتمين إليه كما اعتاد أن يفعل، أو كما اعتادت تلك القوى الخفية أن تفعل معه، كلما نظر خلال عين أحدهم. لكن قواه خذلته هذه المرة، ولم يكن متأكِّداً إن كان السبب هو عدم ثبات وجوه الفتيات، أم كونهنَّ لسن حقيقيات. أراد أن يفعل هذا الشيء مع أشخاص هو معجب بهم، وأن يتخطَّى حدود العالم الصغير المحيط به، في مدينته الصغيرة المعزولة عن العالم، والتي كما يتخيلها ينبوعاً للملل. كان أندرو (أو كما يناديه والده: أندي) طفلاً مميزاً، وهو يدرك بأنه مميّز كما يعي بأنَّ العالم لا يرى الطريقة التي يتميّز بها الطفل. لم يكن من أولئك المتطلِّبين اللذين يحاولون نيل المرتبة الأولى دائماً، بل هو قنوع، ويرضى بما يملكه، ويعجبه هذا المكان من العالم، حيث هو طفل وحيد يعيش حياة مملة بعض الشيء، ولكنها آمنة، عابقة بحب أسرته الصغيرة. كان يكفيه أن يعلم هو الطريقة التي يتميز بها عن كل الأطفال من أبناء جيله ذاته. يحاول أن يصنع لنفسه صورة أفضل، ولا يرضى أن يتدنَّى عن هذه المكانة، ولكنه لم يكن ليعترض إنْ لم يتطوّر سريعاً في أعين الآخرين. طفل وحيد يتسبب بالراحة لوالديه بقدر ما ترضيه كل الأشياء البسيطة في عالمه الصغير. لا يحبُّ مدرسته، ولكنه لا يكرهها أيضاً، ولا يشعر بالغربة أو بالخيبة؛ لأنه ينهض كسولاً. يملك أفكاره الخاصة، وعالمه الصغير الذي يجعل أي مستشكف لقدرات الأطفال يتنبأ بمستقبل واعد لهذا الطفل. لكنَّها الحياة ولا أحد يعلم ما الذي تخبِّئه، وأي منعطف قد يجر هذا الصبي فيكبر بطريقة مغايرة عمَّا قد يتوقعه له العالم. لا يحبُّ توقُّع المستقبل، ويهوى أن يبقى في واقعه، وأن يحسِّنَه. هو أيضاً من الأطفال الذين لا يحتاجون تكرار شرح الأمورلكي يفهموها؛ لأنه يفهمها من المرة الأولى، وإن كانت أموراً ذات تعقيد، وقد يحتاج مرتين لفهمها، ونادراً ما يحتاج إلى الشرح مرة ثالثة. كما كان يزعجه تكرار معلميه لشرح النظريات السهلة التي يتلقَّاها الأطفال في الصف، ويشعر بالملل، أو بالغضب؛ لأنه فهم وما يزال معلمه يكرر ما

فهمه بصوت عالٍ وببطء؛ لكي يستوعبه الأطفال الآخرون ذوو الذكاء الأقل. لا يقف ذكاء الطفل عند هذا الحد الاعتيادي، بل إنه اكتسب مفاهيم غريبة، لم يتعلَّمها في مدرسته، ولا من خلال والديه، ولا حتى في دروس الدين. كان الطفل يتعجّب من تلك المفاهيم، ويتساءل أحياناً عن مصدرها في دماغه، إلى أن بات يعتقد بأنها تولد مع الإنسان في مكان خفيّ بداخله. لكن أندي كلّما نظر إلى الأشخاص المحيطين به، كان يدرك مدى بعدهم عن تلك الأمور التي تجول في داخله، بل كان يشكُّ بأنّ لديهم أصواتاً داخلية تناقشهم كما هو حاله، حيث إنَّه يشعر أنَّ هناك مَن يتحدث إليه، ويطرح تساؤلات حول العالم، ومعاني الأشياء. كان يرى أشخاصاً أغبياء يطلقون النكات المضحكة أحياناً، والحكم المملة، والتي رغم فائدتها لا تتماشى مع مواقف حياتها البسيطة. وكمثالٍ على الأشياء التي ولد هذا الطفل مكتسباً إياها: هو الشعور بروح كل الأشياء حتى الجماد منها. كان أندي يعتقد بأنَّ لكل شيء روحاً خفيّة تثبّتُه، وتبقيه على شكله في هذا العالم السريع، ولم يشرح له أحد ذلك، بل إنه لو طرح الفكرة على أي شخص غريب لغالطه، ولَطلبَ منه عدم التفكير فيها؛ فالأشياء التي تملك أرواحاً ستصبح معدودة، وما عدا ذلك ليس إلا جماداً صنعه إنسان، وثبَّتَه لغرض ما يخدمه. أندي يحمل فكرة مغايرة عن تلك الإجابة المفترضة، والتي ظنَّ بأنّه سيتلقاها لو أنه ناقشها مع أيّ شخص غريب، هو أيضاً لا يملك الكلمات التي تعتبر مفاتيح معقدة يمكن للكبار مناقشته بها، كان طفلاً لم يبلغ الثانية عشرة، ويملك معانٍ بسيطة للكلمات سيستخفُّ بها البالغون، وقد يضحكون عليها. لذلك قرّر الطفل إبقاء كلماته لذاته، حتى يتمكَّن من الوصول إلى مفردات صعبة تدهش المستمعين، وتجذب انتباههم أيضاً، تجعل نبرته الطفولية الحادّة لا تتزعزع، أو حتى ترتجف عندما يستمع إليها من يعرفهم هذا الطفل. كان أندي الطفل يبحث للأسئلة التي تدور حول مفاهيم الحياة عن إجابة، وعندما لا يجد المعنى، لم يكن يغضب أو يتصرف بصبر نافد، إنما ينتظر حتى تبرهن له الحياة سبب ما تصنعه. أما مسألة الأسماء، فهي المحور الأكبر في حياته، رغم كونها مسألة وهمية، وليست ذات معنى حقيقي. تأخذ غرابة الأسماء جزءاً كبيراً من تساؤلات الطفل، ولكنه يعارض هذه النظرية؛ لأنه يستطيع الوصول إلى ما تنتمي إليه الأشياء من خلال النظر إليها فقط. هو يعتقد بأنَّ لكل شيء روحاً... حتى الجماد، لذلك كان يعرف إلى ما تنتمي هذه الروح بمجرد النظر إليها، أو لمسها أحياناً. ذات مرة وجد قلماً أسود مؤطَّراً

بلون ذهبي لامع، بدا فاخراً جداً ذا نقوش غريبة رقيقة مطليّة باللون الذهبي. أدرك بأنّ شيئاً مظهره ثمين كهذا لا بدّ أن يكون بالفعل ثميناً، ولم يتركه صاحبه هنا، بل نسيه، أو وقع منه في الفصل. في البداية نظر إليه مطولاً، ثم تأكد بأنه يخصّ إحدى الفتيات الموجودات في الفصل، وهي فتاة لم يكن قد تأكد من اسمها بعد، ولكن عندما تذكّر رسخ في ذهنه اسم جيسيكا، ولم يكن متيقّناً إن كان هذا هو اسمها الحقيقي، أو ما يعتقده هو. انحنى ليلتقط القلم الأسود، والذي لا يشبه أقلام الأطفال الآخرين، أحس أندي بشيء آخر. لم يكن انتماء القلم ينتهي عند الفتاة الشقراء التي تغطي غرتها جبهتها. بل يتجاوز الأمر ذلك، وهذا القلم ينتمي لوالدها. وفي صباح اليوم التالي عندما أعاد إليها القلم جَرَّب أن يخبرها بأنّ هذا هو قلم والدها، وهو من وجده تحت طاولتها. قفزت الفتاة، وهتفت بأمل كان قد تلاشى منذ ساعات طويلة. أخبرته بأن القلم بالفعل يعود لوالدها، ولكن كيف تمكن هو من معرفة ذلك؟

عاشت جيسيكا في دوامة صغيرة، تلاشت مع مرور دقائق قليلة. لكن أندي كان يعيش في زوبعة على الدوام. أحياناً كان يستمتع بما يميزه، وفي أحيان أخرى، كان يريد البحث عن الإجابة. لكنّه حتى الآن لم يحصل على كل شيء، ولا تمنُّ الحياة على أحد بأن تقدّم له الإجابة عندما تمنحه ما لم يتوقّعه. قضت جيسيكا الليلة الماضية، في رعب كان مفعوله الحقيقي بعيداً. هي طفلة وحيدة كما هو حال أندرو. سافر والدها وهو يعمل كطبيب لجراحة القلب، ولأيام طويلة لم تسمع عنه أيّة أخبار حقيقية، غير الأخبار المقتضبة التي تذكرها والدتها. سرقت جيسيكا القلم من مكتب والدها كتذكار لها حتى يحين موعد عودته. لكن ما أن فقدت القلم، عاشت الطفلة في رعب مترقّب، كانت تفكر في لحظة عودة والدها واكتشافه لفقدان القلم، أما الخيار الثاني والمستبعد، كان اكتشاف والدتها لذلك. لكن والدة جيسيكا لا تدخل مكتب زوجها إلا نادراً، ولا يكون ذلك إلا لتنظيفه من الغبار، ولمسح الأرضية. فكّرت الطفلة مليّاً في مكان قلم والدها المفقود، وبعد أن تعبت من تخمين مكانه، سلّمت نفسها للخوف. في صباح اليوم التالي أعاد لها أندي القلم، وأصبح هو المنقذ بطريقة غير مقصودة، وكانت هذه بداية صداقة حقيقية بين الطفلين.

أما أندي فهو يعرفها، أو أصبح كذلك، ما أن نظر إلى عينيها وأصبح يرى الخيط الذي يربط روح الحياة بعالمها. يظنُّ الطفل بأن الأسماء كانت للأجساد، بينما الأرواح لا تنتمي لأي عنوان. هذه أشياء أكبر من أن تحيط

بطفل مثل أندي، وعندما تحيط به، فهي تتخلّى عن مفهوم الحجم، وتصبح أقرب إلى القسوة منها إلى الكبر.

رغم كل المفاهيم الغريبة، لم تقتل هذه العوامل براءة الطفل أندرو. إنَّه ما يزال طفلاً يغوص في ألوان شاشة التلفاز، وينغمس حتى رأسه في المسلسلات الكرتونية، وكقلّة من الأطفال تستهويه القصص المصوّرة، والمثلجات وخاصة ذات الطعم الكريمي منها. وأحياناً يكره الاعتراف بأن الألعاب التي لها مجسمات تشبه مجسمات الإنسان تعجبه، لكنه الآن أهملها، وأصبح يحب ألعاب الفيديو أكثر، وتشغل باله فكرة اقتناء قرص جديد، كلما تأكد من اقتنائه واحداً جديداً.

على مسافة قريبة إذا ما قُطعت بالسيارة، يقع منزل جيسيكا الطفلة التي انتقلت إلى هنا قبل عام واحد. تصبح المسافة ليست بعيدة إذا ما قُطعت سيراً، ولكن مفهوم قريبة يمحيه تعب الخطوات. كانت الطفلة الشقراء ذات الشعر الباهت، والبشرة الشاحبة منزوية على نفسها بعض الشيء. لم يكن لديها أي أصدقاء سوى أندي. بينما أندي يملك عدداً لا بأس به، يخفي عنهم مفاهيمه الخاصة، ويحاول مجاراتهم في السذاجة، عندما يحين وقت اللعب.

"أندي.. إنني أتحدّث إليك". عاد إلى الواقع بسقوط قاس، مباشرة فوق نبرة والدته الجدية والغاضبة. تشتت نظره بينها وبين التلفاز، لكنه قرّر في النهاية أن يتدارك غضبها. نظر مباشرة إليها، وهو يترقّب ما ستقوله. استأنفت والدته حديثها قائلة: "أنتَ لا تستمع إليّ! ابتعد عن التلفاز، واترك مسافة مناسبة بعيداً عنه". فهمَ السبب وهو خوفها من أن يؤذي هذا عينيه. بينما كان يبتعد مطيعاً أوامر والدته، أمرته مرة أخرى: "اذهب وأخبر والدكَ بأنّ العشاء أصبح جاهزاً. وفي المرة القادمة لا تقترب إلى هذا الحد من شاشة التلفاز". شعر أندي بتثاقل، ولكنه حاربه وهو ينهض، سار باتجاه السلم، ثم جرى على درجات السلم وصولاً إلى مكتب والده في الطابق العلوي، بعد أن تحوّل مكتبه في الطابق السفلي إلى ورشة نحت لوالدته.

11

دفع أندي الباب فوراً وهو يقبض على الرتاج، ويرخي جسده على الباب، وينزلق معه إلى داخل الغرفة. رفع والده رأسه فجأة، ونظر من خلف نظاراته إلى طفله وهو يندفع بطريقه همجية إلى الداخل، فصاح به: "ما الذي تفعله؟ أخبرتُكَ أنّه يفترض بك طرق الباب أولاً" . أوامر تتكرَّر، وتتكدس فوق بعضها في ذهن الطفل، ولكنها تتلاشى مع نهاية كل يوم.

أجاب الطفل: "لكنكَ هنا في الداخل" .

"هذا هو السبب الذي من المفترض أنْ يجعلكَ تطرق الباب قبل دخولكَ. وهذه تسمى خصوصية. أتعلم انسَ الأمر" . لم يكن والده يعامله بهذا الجفاء، إلا في وقت العمل. يدرك الطفل مدى حبّ والديه له، وهو لا يغضب بشأن هذا، بل يتفهّم الأمر، ويدرك بعض تصرفاته الخاطئة.

"تخبرك أمي أنّ العشاء جاهز" . سحب الباب ولم ينتظر ردّ والده. انزلق بخطواته التي تشبه القفزات عبر السلم. كانت خيوط الشمس الذهبية ما تزال تتسلّل عبر النوافذ الأمامية للمنزل، ولكن عائلته تتناول وجبة العشاء باكراً. وبعد حلول الظلام بوقت قصير يخلدون إلى النوم. تسير حياة العائلة حسب قوانين صحية وضعتها والدة أندي، وهي تُرضي والده، ولا تغضبه هو شخصياً، لكنها تعرِّضه في بعض الأحيان للحرمان مما يشتهيه، بينما يكون في متناول الأطفال مرات كثيرة.

جلس الطفل مع والديه حول مائدة الطعام، وكان صوت التلفاز البعيد يتسلّل كشخص يهمس بطريقة مزعجة. لم يعترض أحد على اقتحام هذا الصوت حواجز الهدوء المحيطة بهم وهم يتناولون الطعام. بعد ذلك كسر الأب الصمت، وبدأ يتناقش مع والدته بأشياء لا يفهمها ذكاء الطفل؛ لأنهم كانوا يردّدون بعض المصطلحات التي يسمعها الطفل، ولكنه لا يفهم ما الذي تعنيه هذه العبارات.

يكره كونه متأخّراً، ويكره أيضاً أن يبقى حبيساً في حيز الطفولة، الذي يحجبه عن فهم الأشياء بوضوح كالبالغين. من الغريب أن يصل أي طفل إلى هذه المرحلة، وأن يلقي لوم الإدراك البطيء على طفولته. كان هذا الشعور يجعله يميل إلى مخالطة أبناء جيله، والذين إن لم يكونوا في مقدار ذكائه، فهم

غالباً ما يكونون أقل ذكاءً منه.

أنهى أندي طعامه، وسحب طبقه إلى المغسلة ليتركه هناك. لا تجبره والدته على غسل طبقه، ولكنها تطلب منه أن يتركه عند المغسلة، كنوع من المحاولة لجعل الطفل ينخرط في أسلوب منظم. غسل الطفل يديه، وسرق نظرة خاطفة إلى نافذة غرفة الطعام ليرى السماء وقد بدأت تصطبغ بلون الغروب البرتقالي. عاد جرياً بخطوات ضيقة إلى والدته التي لم تُنهِ طعامها راجياً: "هل يمكنني الخروج لبعض الوقت".

رفعت رأسها وهي تسحب الملعقة من فمها: "إلى أين؟ سيحين موعد نومكَ قريباً".

رفع أندي رأسه إلى ساعة الجدار المعلقة، ثم قال: "ما يزال هناك بعض الوقت، سأرى أصدقائي".

"ستغرب الشمس قريباً، ولا أحبذ فكرة بقائك في الخارج حتى هذا الوقت".

ظهرت نبرة الرجاء أوضح في صوت الطفل: "أمي لكن.."

تدخَّل الأب أخيراً: "دعيه يخرج، لم يعد طفلاً". شعر أندي بالفخر لهذا التعليق، ولم يدرك أن حقيقة هذا هو رغبة والده في هدوء أكثر مما كانوا محاطين به، كي يستطيع خلاله إنجاز ما تبقى له من العمل قبل موعد النوم، من دون مقاطعة ابنه. وافقت الأم أخيراً، فانفرجت أسارير الفتى، وبدى كما لو أنّ نوراً بدر من تعبير وجهه. اندفع بسرعة باتجاه الباب، باحثاً في الخزانة المجاورة عن حذائه، والذي لاختلافه عن حجم بقية الأحذية، كان العثور عليه أمراً سهلاً. رمى جسده على الأرض بطريقة طفولية، حشر قدمه في الحذاء، ثم انطلق خارجاً. كان الشعاع الدافئ لما تبقى من النهار ينسحب ببطء، ومع انسحاب النور، كانت شوارع البلدة الصغيرة تعمّ بالسكينة أكثر. لم يتبقَّ في الخارج إلا أصوات العائدين إلى منازلهم، وآخرين مرهقين في نهاية اليوم. كان أندي يهرول على الرصيف، باتجاه منزل جيسيكا، وقد وعدها أن يحاول رؤيتها في هذا المساء. لم يخبر والديه بهذا؛ خشية مما سيضطر لأن يقاسيه من خجل إنْ هو أقحم ظلّ فتاة في أمر خروجه المفاجئ. لم يكن للقاء الطفلين أي هدف، سوى بوادر الصداقة الجديدة التي كانت تحثهم على قضاء وقتٍ أكبر معاً.

قطع أندي مسافة مسير قصير أمام صف منزل الجيران، قبل أن يصل أخيراً إلى منعطف يؤدي به إلى دخول شارع آخر، في منازل مصفوفة بنفس الترتيب. تجاوزهم وقد بدأت الشمس تغرب خلفه مباشرة. أصبح يسير بين صف أشجار قصير ومنخفض.

استوقفه في ذلك الهدوء صوت مواء واضح. لم يكن يشبه صوت قطط الشوارع الجائعة، والتي غالباً تهرب دون أن تخاطر بالمواء للأطفال، إنما كان صوتاً ناعماً لقطٍ لم يعتد التواجد في الشارع. توقف أندي لبرهة، وراقب بين فراغات الأشجار القصيرة، ولم يتأخّر في اكتشاف الجسد الصغير، المغطًّى بفراء أسود كثيف. اتجه الطفل نحو الشجرتين المحيطتين بالقط. ترك الرصيف، وبدأ يسير على الأرض المغطاة بالتراب، وبعض العشب، وأوراق الشجر القليلة المتساقطة. نهض القط، ولكنه لم يترك مكانه، بل أخذ يراقب أندي بعينين واسعتين. أكّد الطوق المحيط بعنق القط، ما كان يعتقده أندي، حين فكر بأنّ هذا القط، لم يكن في الشارع من قبل. انحنى الطفل ودسّ أصابعه في فراء القط، ومن ثم سحب القرص الذهبي الذي كان يتدلّى من الشريط البنفسجي المحيط بعنق القط. كان كل ما كتب عليه هو "لو"، وهذا يدل على اسم القط، وليس عنوان مالكه. داعب القطُ بأظافره المقلّمة يد الطفل، فلم يصبه بأية خدوش. تعاطف أندي مع الصداقة التي أظهرها القط. حمله بين ذراعيه جارّاً إياه من بين الشجرتين. أصبح الطفل يعرف أخيراً إلى أين ينتمي هذا القط، ولكنْ خالطه مزيج غريب من الأفكار وصعوبة في إدراك ذلك. شعر بالضياع لوهلة قصيرة، كان يرى الظلام خلف هذا القط، ولكن الفراغ الأسود لم يدم طويلاً، قبل أن يرى وجه المالكة. ولأن طريق منزل جيسيكا، كان يسبق طريقه المفترض، قرّر أن يصطحب صديقته معه؛ كي يجعلها دون قصد منه تندهش من قدرته الغريبة.

لم تكن الخطوط الهلامية الصادرة من عيني القط مرئية، من خلال عين بشرية لطفل مثل أندي، ولكنه على الأقل شعر بالانتماء إلى الفراغ الذي أتى منه هذا القط، ولأنه كان يحمل القط بين ذراعيه، لم يلاحظ الفتيل المشتعل في أعماق عين القط. حمل أندي القط برفقٍ شاعراً بأحشاء القط تنساب فوق ذراعه، وجلد القط يحجب بينه وبينها. سار به، ولم يقاوم القط ذراع الطفل، حتى وصل أندي إلى منزل جيسيكا.

12

لم ينتظر أندي طويلاً، بعد أن ضغط على الجرس. فتحت والدة جيسيكا الباب، وبنبرتها المعتادة نادت اسمه الكامل: "أندرو". راقبها الفتى وهي سيدة نحيلة وطويلة، تقف أمامه بطريقة مائلة. عقصت والدة جيسيكا شعرها بشدة إلى الخلف على طريقة ذيل الحصان، ممّا جعل جلدها الرقيق يبدو مشدوداً على وجهها النحيل بطريقة أوضح.

"من الجيد أن أراكَ مرة أخرى. هل هذا قطكَ؟".

أجابها أندي: "لا في الواقع، وجدتُه في الطريق". سحب الميدالية المتدلية من عنق القط، وقال: "أعتقد بأن هذا القط تائه، وأنا أعرف من هي صاحبة القط". لم يقابل أندي صاحبة القط، ولكنه كان متأكداً من أنها أنثى، ويمكنه رؤية ملامحها في خياله أيضاً.

تشكلت شفتي والدة جيسيكا على شكل حلقة جوفها أسود، ثم قالت: "أوه، كم يبدو هذا موقفاً شهماً منكَ. أنتَ طفل خيّر يا أندرو". فتحت الباب مفسحة مجالاً كافياً لدخول الطفل. "يمكنكَ انتظار جيسيكا في الداخل". أبعدت جسدها؛ حتى تؤكد له رغبتها، ولكن أندي تردد لبرهة، ورفع القط مسافة قصيرة أمام جسده كسؤال صامت: "إن كانت الدعوة تشمل هذا الحيوان الأليف، أم لا؟". بالطبع، بالطبع يمكن لكليكما الانتظار في الداخل، ريثما تأتي جيس". قالت المرأة ذلك، وقهقهت بينما أولت الطفل ظهرها، وسارت لتختفي عن نظره. كان أندي حائراً بين فكرة التجول، واختيار البقعة التي سيبقى فيها بنفسه، وبين أن يبقى في مكانه ثابتاً كتمثال، وهو يحمل هذا القط بكلتا يديه منتظراً وصول صديقته. الفكرة الثانية بدت أقرب للقبول وأسهل، كما أنّها تدلّ على اللباقة أكثر من اقتحام أرجاء المنزل. عمّ هدوء غريب جعلَ الشكّ ينتاب الفتى الصغير، وظنّ بأن والدة جيس قد نسيت وجوده، ولم تذهب لاستدعاء ابنتها، لكنه سمع وقعَ خطوات سريعة أتت إليه من الجهة العلوية. وبعد ذلك تغيّر موضع الخطوات، ثم ظهرت الفتاة، وكان تأثير جهدها الذي بذلته واضحاً.

سألته ببهجة، وبصوت مرتفع: "هل جلبتَه مؤخراً؟" وأشارت بيدها إلى القط.

فسَّر لها هي الأخرى: "ليس لي، بل كان تائهاً. سنعيده نحن إلى صاحبته". قال كما لو أنه يعرف من هي صاحبته أو قابلها مسبقاً. لكن الطفلة سألته عن ذلك، فقال لها: "لا أعرفها. بل أعرفها.. مهلاً، الأمر معقَّد. لم أرها مسبقاً، لكنني أعتقد بأنني أعرفها. هذا ليس هامّاً... لنذهب هيا". حثّها على المغادرة.

ظهرت والدة جيس من جديد: "هل أنتما خارجان؟" بدأت والدة جيس تعتاد على خروجهما معاً، أسرع من والدة أندي. كان يسعدها أن يكون لابنتها الوحيدة أصدقاء، وبذلك لا تضطر لأن تكون وحيدة تماماً، كما كانت سابقاً. رأتْ كم كانت الوحدة صعبة على طفلة بهذا السن، لذلك عندما رأت أندي بصحبة ابنتها، حاولت توطيد علاقته بها، وهذا ما يدفعها إلى معاملته بلطف، قبل أن تكتشف بأنه طفل يستحقّ هذه المعاملة بحق. أما أندي فلم يُخجِله توطُّد علاقته بهذه الفتاة، بل كان سعيداً؛ لكون جيس تحتل مكانة الصديق المفضَّل بالنسبة إليه، وتسعده رفقتها. كان الوقت يمضي بمتعة لكلٍّ من جيس وأندي، والمغامرات الصغيرة بينهما لا تنتهي، ولا يزعج جيس أن يكون أندي قد تجاوز حيّز تفكيرهما، أو تفكير الأطفال بشكل عام. كان ذكاء أندي مدعاة للاعتماد عليه في كل الأحداث التي يخوضانها.

"أجل". أجاب الطفلان بصوت واحد.

على الطريق البارد، وبينما كانت الشمس ما تزال تناضل لنشر شعاعها الأخير في السماء، كانت أضواء المباني المتفرّقة في البلدة قد انتشرت في كل الزوايا التي يمكن رؤيتها. أعمدة الإنارة نشرت بقعاً متفرّقة على طول الطريق، والجدران عكست نور المصابيح ذات الإطارات الحديدية المعلقة عليها. كانت كل تلك الأضواء تحارب شعاع الشمس الأخير، وتتحداه بصنع نور أقوى من ذلك النور الأحمر الذي كان يخسر المعركة رويداً رويداً، وينسحب من السماء تاركاً للقمر وللنجوم الجولة التالية. أمام كل هذه التحديات الصامتة، كان أندي يسير حاملاً القط الساكن بيده، وجيس تراقب هذا الحيوان الأليف ذا الفراء الأسود، وكيف لم يقاوم قبضة الطفل كل هذا الوقت. أظهر القط وداعة وهو مستسلم لقبضة حامله، وبدى كما لو أنه ينتظر العودة إلى منزل مالكته، بقدر ترقّب الطفل للقيام بأمر جيد. في هذه الأثناء، لم تكن جيس في أي من الطرفين، كانت تساند صديقاً، وتترقب لحظة رحيل

هذا الحيوان الصغير، دون انتظار مردود يخصّها هي، ولأنها تحمل أفكار طفلة، فهي لم تكن لتخوض في مسألة الواجب والنتائج، بل كانت تفعل ما يجب القيام به، ولكن الحياة لم تتمه.

رغم أن المنازل لا تتجاور في البلدة، إلا عندما تصل إلى قلبها، إلا أن الطفلان، وصلا إلى جانب بعيد، لم يعتادا الوصول إليه، إلا من خلال السيارة. شعرت جيس بالرعب، وكان عزاؤها الوحيد، هو ثقة أندي، وعدم تردده وهو يمضي في اتجاهه هذا. سألته: "هل أنتَ متأكّد من أن المرأة تقطن هنا؟"

"لست متأكداً من شيء. لكنني شعرتُ بذلك. هذا أمر لا أستطيع تفسيره يا جيس، ولكنني أستطيع الشعور بالأشياء، كما لو أنني أعرفها مسبقاً". كان من الصعب أن يرتب هذا الرد مع التبرير؛ لأنه طفل، لكنه في النهاية تمكن من تركيب عبارة طويلة، جعلت الفتاة تطمأن أكثر.

"إن لم تكن متأكداً، فلماذا تفعل هذا؟".

أجاب أندي دون أن يوجّه نظره إليها: "لأنني سأتأكد الآن". كان يقصد بأنَّ قدرته التي لم تنجح مع فتيات إعلان المعلبات. سيتأكد من قوتها الآن عندما يصل إلى العنوان الصحيح بمجرد لمسه لهذا القط. لم تفهم جيس ذلك تحديداً، ولكن التساؤلات تفتح أبواب القلق، وتلك الطفلة كانت تستجمع الثقة بصعوبة.

توقف أندي فجأة في مكانه، مما جعل المحيط حوله هادئاً، وهذا أدى إلى وضوح صوت الرياح التي هبّت بسرعة حوله هو وصديقته. كان يتطلّع في الزوايا الفارغة للطريق الذي اكتست أطرافه بالأشجار الضخمة. "أعتقد بأننا قريبان جداً". قال ذلك وهو يبحث بنظره عن أية إشارة، ومن ثم أشار إلى أحد المنازل في الصف المستقيم للبيوت الصغيرة. "هناك... ذلك هو المنزل المقصود". أصبحت خطوات الطفلين سريعة فجأة، وكأنهما يترقّبان النهاية القريبة. ضغطا على جرس المنزل الصغير المكوّن من طابق واحد، وبعد لحظات من ذلك، فتحت امرأة أكل الشيب بعض الخصلات رأسها، وامتزج مع خصلات شعرها المجعدة. راقبت المرأة الطفلين قبل أن تلاحظ وجود القط بين يدي أندي.

قال أندي: "مرحباً". ثم رفع القط الذي بدأ بالمواء أمام وجه صاحبته.

سألتها جيس: "نعتقد بأن هذا قطكِ، هل هو كذلك؟".

شهقت العجوز، ثم قالت بصوت متهدّج، مرهق: "لو... هاقد عاد من جديد!". التقطت القط من بين يدي أندي، وقالت بتثاقل: "قط مزاجي... كنتُ أتمنّى لو لم يعد... إنّه قط شرير.. شرير". كرّرت الكلمة الأخيرة بارتياب يدلُّ على الاستياء من شغب حيوان أليف. دعت العجوز الطفلين قائلة: "يمكنكما الدخول، سأسكب لكما بعض العصير كمكافئة لعودة القط". أخفضت بصرها وراقبت القط بنفور. "هيا ادخلا، لا تترددا". لوّحت بيدها بإصرار، فدخلا. أغلقت الباب خلف الطفلين، ثم أفلتت القط. فجرى القط في الممر أمام الجميع، ثم اختفى عن أنظارهم.

سار الطفلان في طريق مستقيم وصولاً إلى الغرفة المعيشة المضاءة بمصباح لم يكن بالقوة الكافية لكسر حاجز ظلام الليل الذي غطّى النافذة. بعد انتظارٍ قصير عادت المرأة بكوبي عصير وقدمتهما للطفلين، ثمّ سألتهما على فور: "كيف عرفتما عنواني؟" أعادت صياغة السؤال فاختلف المعنى: "كيف وجدتما "لو" على كل حال؟"

"وجدتُه في الطريق، وعرفتُ من الطوق بأنه ليس قطّ شوارع". فسّر أندي.

هتفت جيس: "أمّا طريقة الاستدلال فسِرُّها هو قدرة أندي الخارقة". رمقها أندي بنظرة خجلة. لم تصدق العجوز، بل لم تفهم. كان سبب قبول الطفلين لدعوتها، هو شعورهما بالعطش، وكذلك فضولهما حيال هذه المرأة الغريبة. رحّبت بالقط وأظهرت نفوراً من عودته في آنٍ واحد. أثار هذا التناقض حيرة الطفلان، وجعلهما لا يدركان تماماً ما إذا كان ما قاما به أمراً صائباً أم لا.

"إنه هذا القط غبيٌّ دائماً. قالت المرأة ذلك كما لو أنها تخاطب نفسها. التفتت فجأة إلى الطفلين، وقالت مرة أخرى: "أعلم بأنه حيوان، ومن الغريب قول ذلك عنه. إنّه قطٌّ شرير، لا يرحل أبداً". تنهدت المرأة بطريقة غريبة، ومفاجئة.

سألتها جيس: "لماذا تريدين منه الرحيل؟، أوليس هذا قطكِ أنتِ؟".

"أجل، هو كذلك. لكنه.." خفضت المرأة الغريبة صوتها فجأة، وقالت بهمس وهي تحجب جانب وجهها بيدها: "ليس كما تعتقدون". بدت كما لو أنها لا تريد للقط أن يسمع ذلك. أفلتت جيس قهقة قصيرة، ثم كتمتها فجأة

ما أن لكزها أندي. "هذه ليست نكتة". قالت المرأة بغضب، ثم أردفت: "إن كنتما لا تصدقان، يمكنكما ببساطة الرحيل من هنا. لستُ عجوزاً خرفة أو مصابة بالجنون لأنني وحيدة... لستُ كذلك!".

أظهر أندي تعاطفه وهو يسأل بجدية: "ما الذي يجعلكِ تعتقدين هذا؟"

"ليس لديّ أي شيء لأثبته، ولا حتى قطط غريبة. أنا أشعر بهذا فقط. يتصرف هذا القط، كما لو أنه يحاربني، ورغم ذلك، هو لا يرحل أبداً. لكن لا عليكما، انظرا لمن أقول هذا! لا يجب أن أثير رعبكما". استدارت ثم قالت: "انسيا الأمر". أوضحت نبرة صوتها نهاية هذه الضيافة. لم تطلب منهما الرحيل، ولكنَّ الطفلين شعرا بذلك.

13

عندما خرجت جيس، شعرت باختلاف الهواء البارد وانتعاشه، بعكس ما كان عليه الأمر في منزل المرأة. وعندما كانت تسترجع صورة المنزل، كاد الضيق يطبق عليها من شدة ما بدى كئيباً في ذاكرتها، رغم أنها لم تبتعد عنه سوى بضع خطوات. التفتت لترى أندي الذي كان يتبعها دون هدف، ويسير بخطوات بطيئة تثبت بأنه لم يكن واعياً لما يجري في الخارج.

أندي، هل أنتَ على ما يرام؟". لكنه لم يجبها، قالت مرة أخرى بصوت ثقيل، بدا كصوت رجل بالغ: "من الأرض إلى أندي، هل تسمعني". كانت تسبقه بخطوة واحدة، وبينما هي تقول ذلك حرَّكت يدها أمام وجهه.

ردَّ الصبي: "أندي يستجيب للنداء".

"بماذا تفكر؟ في تلك المرأة المخبولة؟" هزّ أندي كتفيه لم تعجبه تلك الصفة التي أطلقتها جيس، ولكنها بدت واقعية بعض الشيء.

قال: "لا أعلم إن كانت حقًّا مجنونة. لكنها غريبة".

"هذه الغرابة هي الجنون بعينه". مشت الفتاة بخطوات أوسع، جعلت أندي يزيد من سرعة خطواته ويعود إلى الواقع. طلب منها أن تتمهّل، لكنها عاندت طلبه، وبدأت تهرول تحت بقع الضوء التي شكَّلتها المصابيح المنتشرة على الرصيف. حلّ المساء تماماً، وحان وقت العودة إلى المنزل بالنسبة للطفلين. ودّ أندي لو يمضي وقتاً أكثر بصحبة الفتاة، وخلاله يستطيعان أن يطيلا النقاش حول ما جرى. لكن الوقت مضى على نحو أسرع مما تصوّرا.

عندما اقتربا من منزل جيس، اعترفت الفتاة أخيراً: "إنكَ بالفعل فتى خارق يا أندي".

قال بخجل محاولاً كتم ابتسامته: "ليس إلى هذا الحد".

"بل أكثر... أنتَ بالفعل مميّز يا فتى". قالت تلك الجملة بطريقة صبيانية، أثارت ضحك أندي. تلاشت الضحكة ما أن أصبح يسير مع جيس بمحاذاة سياج منزلها القصير. التفتت جيس وقالت: "سنلتقي غداً إذاً".

أيَّدها أندي، وعبر السياج باتجاه منزله هو. سار مبتعداً عن منزلها حتى

اختفى عن الصورة المحيطة بجسده الضئيل، والذي كان يسير وحيداً. عاد إلى المكان الذي وجد فيه القط الأسود، ولكن بدلاً من وجود القط بين الأشجار، وجد رجلاً يقف عند طرف الرصيف الحجري، وعلى غرار غادجيت، غطى جسد الرجل معطف مطري طويل، رغم أنّ السماء لم تكن تمطر. وقبعة رجل التحدي كانت كبيرة، أكبر من المألوف، بحيث غطّت ملامح وجهه، وغشيتها بغيمة سوداء. تردّد أندي في العبور أمام الرجل الذي كان يراقب الطريق وهو يدس كلتا يديه في جيوب معطفه. ازدادت سرعة خطوات الطفل، وعبر أمام الرجل الغريب ذي المعطف الذي بدا لونه أسود تحت ظلال الأشجار. بدا الرجل في البداية كتمثال أسود يقف تحت انعكاس الأغصان.

عندما عبر أندي أمامه، قال الرجل: "أليس الجو بارداً للخروج في مثل هذا الوقت؟"

أجاب أندي بارتياب: "لا أشعر بالبرد إلى حدّ يمنعني من الخروج".

علّق الرجل: "هذا لأنكَ طفل نشيط، وكثير الحركة. على عكس رجل بلغ من السن ما يجعل البرد ندّاً له".

"إذاً عُد إلى منزل". نصحه أندي، وسار مبتعداً عنه. لكن الرجل طلب منه الانتظار. وما أن حاول أندي التحلي بشجاعة في غير محلها، تحرّك الرجل مقترباً منه بخطوات ليست متزنة تماماً.

قال الرجل: "تبدو طفلاً ذكياً".

"أشكركَ على ذلك".

قال الرجل كما لو أنه يخاطب شخصاً بالغاً، ولا يحتاج لتبرير ألفاظه أمامه: "لا تشكرني على ما أنا عليه". لاحظ أندي الصوت الهادر والعميق للرجل الغريب، والذي لم تفلح الأضواء الخافتة في إنارة وجهه، بل اكتفى ضوء القمر بجعل عينه اليسرى تلمع كما لو أنها قطعة ماس صغيرة. راقب أندي لمعان عين الغريب، والذي ذكّره فجأة بالقط لسبب لا يعرفه. غاص أندي في السواد، كان يُحدّق في عمق الفجوة المعتمة لعينيه كما لو أنه يحشر جسده في جحر أسود معتم. شعر بالاختناق قبل أن يعود إلى الواقع، ويرى لمعان عينه من جديد.

"ماذا أنت؟" شعر أندي بالطريقة الخاطئة لصياغة سؤاله، فسأله مرة أخرى: "من أنت؟"

"أنا؟" مدَّ الرجل تلك الكلمة بصوته حتى أصبح وقعها حاداً على الأذن. "ثلاثاء". عقد أندي حاجبيه أمام الرجل، ففسّر له: "ثلاثاء، كيوم الثلاثاء". ثم زفر بنعومة، فامتزج صوت أنفاسه بصوت الرياح.

"هل تعني بأنكَ يوم الثلاثاء؟ أم أن هذا اسمكَ؟" ساد صمت غريب، فكسره أندي قائلاً: "يبدو اسمك غريباً".

"ظننتُ بأنكَ ذكي يا فتى". لم يعلق أندي. حاول التأمُّل في وجهه وتحديد مكان عينه التي اختفى لمعانها، ليعود وجهه صفحة سوداء. لكنه لم يجد شيئاً، بل شعر أن وجهه بئر أسود يكاد يبتلعه. شعر أندي بالخوف فاهتزّ جسده في مكانه وقرّر الرحيل.

"لا تفعل هذا معي يا فتى. ماهو اسمكَ؟"

لم يفهم أندي ما الذي نهره عنه الرجل، هل كان يقصد محاولته اكتشاف هويته. كان الرجل ينتمي إلى اللاشيء. مجرد ظلام. لكن أندي أجاب أخيراً: "أندرو.. أندي يناديني الجميع أندي". ابتعد خطوة واحدة وقال: "يجب أن أذهب، لقد تأخرتُ".

"وداعاً يا أندي، لا بدّ أن نلتقي من جديد".

بدأ أندي بالهرولة وهو يلوّح بيده مودّعاً وهو يقول: "وداعاً يا سيد ثلاثاء". لكن الرجل، لم يتحرك، بل كان واقفاً كجزء من المكان. راح أندي يلقي عليه نظرة خاطفة، كلما ابتعد عنه بضع خطوات. أصبح الرجل في النهاية مجرد ظلّ امتزج بظل الأشجار وبظلام الشارع. وصل أندي إلى منزله، ولم يكن هناك في تلك الليلة أي شيء مختلف فيما يخصُّ عائلته، إلّا أنّ الطفل لم يتمكن من إزاحة صورة القط، والمرأة المجنونة، أو حتى السيد ثلاثاء، من رأسه. في تلك الليلة تمكّن أندي من النوم بصعوبة، لكن لم تراوده أية كوابيس.

14

غالباً ما يكون للذكريات المؤلمة تأثيراً متشابهاً في بداية حضورها، هو ما يوحي لكَ بأنّ الزمن قد توقّف لوهلة قصيرة، ثم عاود السير ببطء مصحوباً بالتأثير الحزين لما تفعله تلك الذكرى أثناء عبورها. تلك الصور الخيالية المدرجة تحت مسمى الذاكرة، أو الحنين أحياناً ما تكون عابرة كأيّ شيء آخر في حياة إنسان. لا شيء في الحياة موثّق تحت خانة الخلود، ولا شيء يبقى مهما طال أمده. لكل شيء وقت، وكل شيء راحل في لحظة ما حتى لو اختلفت أشكال الرحيل وتنوعت، وحتى لو تلته عودة، حيث إنه يغدو عندئذ كالذكريات التي هي محاولة غير ناجحة في استحضار ما انتهت فعاليته.

أصبحت راكيل تمتلك مفهوماً مغايراً لكل ما كانت تعتقده طوال سنوات حياتها السابقة. منذ دخولها إلى دار المسنين. ليست كل الوعود مرتبطة بالتزام التنفيذ، وليست الثقة في نبرة لفظها مشروطة بأن تكون حقيقية. مهما بلغت نيّة من يلقي بهذا الوعد، فهو نفسه قد لا يستطيع التزام بإتمامه، بينما حياته متأرجحة على كف عالم قابل للتغيير في أية لحظة. وبالنسبة لراكيل وهي أم لفتاتين، كان كل المستحيل معقولاً في لحظة ما، بل إنها انشغلت عن التفكير بتحقيق المستحيل، وأصبح وقتها ملك لابنتين، وهما جوليان وسريزا الصغيرة. الواقع الذي لا تدركه هذه الأم بأنه حتى الوقت الذي استغرقته رعاية الفتاتين منها، كان الجزء الأكبر منه لجوليان، ولو أنكرت هي ذلك مدّعيةً المساواة بين الفتاتين. لم تدرك بأن هذا الأمر كان يطرح تساؤلاً في عقل الصغيرة، بأنها ربما لو كانت فتى لأحبتها أمها بطريق تستحقها. كان كون الفتاتين متشابهتين يجعل شغف الأم يتجه نحو جوليان الأكبر؛ لأنها كانت بالنسبة لها بداية كل شيء.. بداية الأمل، والاجتهاد، وحتى السعي وراء الحياة بطريقة أكبر. لكن الآن جوليان لم تعد موجودة.. رحلت جوليان، وتركت مكاناً فارغاً، لا يمكن لوالدتها أن تملأه بأي شيء آخر، ولا حتى حب ابنتها الأخرى. اكتفت راكيل بما قدمته من مشاعر للصغيرة، وتقبّلت فكرة أن يتبخر الجزء الأكبر من شعورها، بعد رحيل جوليان.

في ذلك المساء، شعرت المرأة بشيء مختلف بعد رحيل سريزا. لم يكن عليها أن تبوح بالسر الخطير لابنتها. ذلك الكيان المبهم يحيا في ذاكرتها، وهو كالخوف الذي لا ينتقل إلا عن طريق الاعتراف به. ها هي قد اعترفت محاولةً

التخلص من كومة الأيام الحزينة التي تجمَّعت حولها. لم يعد للأيام معنى، ولا للأفكار معنى. لا يموت المرء إلا عند توقف أفكاره. راكيل عاجزة عن اتخاذ أي قرار جديد، وهذا ما جعلها تتداعى كإنسانة، وتكشف عن شبح كان في الماضي سعيداً.

الموت لا يترك خلفه مجرد فراغ، بل أيضاً يُشكِّل الندوب التي لا تمُحى، وراكيل تمتلك ندبة تشبه جوليان تماماً. هذا الجرح جعلها محاطة بالتشكيك دائماً. كان من الوارد جداً طلب تركها للمكان، أو اللجوء إلى معالج نفسي، إن لم يتم نقلها هي شخصياً إلى مركز علاج نفسي. في ليالٍ عديدة، يسمعها الممرضون تهمس للعتمة، والبعض يقول بأنها كانت تتحدث بصوت واضح يتسرّب عبر الممرات. أما البكاء، فهو أمر وارد بالنسبة لامرأة خسرت ابنتها. لكنها كانت تحدِّث رجلاً، وليس شبح ابنتها.

لم تدرك راكيل بأن تلك الليلة، ستكون الخاتمة لكل معاناتها بعد رحيل سريزا من المركز؛ لأن الشبح سيعود لينفذ كل تهديد قال بأنه سينفذه ببساطة تامّة، في حال أعلنت عن وجوده لشخص آخر، وحتى وإن كان ذلك يبقيه ويثبت وجوده أكثر. أما معاناة راكيل فهي باقية، حتى اللحظة الأخيرة؛ لأنّ تشكيك ابنتها بما كانت تقوله، يعني أنها رمت نفسها في النار، دون الوصول إلى غاية كانت وما تزال تبتغيها، حتى بعد رحيل سريزا. هي في النهاية لا تستطيع لوم ابنتها؛ لأنها لم تخلق العاطفة التي تبقي الأثر الرابط بينها وبين الفتاة، ولم تكن جيدة بالمستوى الذي يجعلها ذات مصداقية كبيرة للفتاة.

في دار الرعاية، معظم الأبواب ليست مقفلة، ولا يوجد وقت محدد للراحة أو للنزهة. تركت راكيل قلمها فوق ورقتها التي كانت رقيقة تساوي سطح الطاولة البنية، وخرجت من الغرفة تسير عبد المرر الذي أُطفِئت الأنوار فيه. سارت بخطا واثقة، ولم يوقفها النور المنبعث خلفها، ولا حتى رائحة الورق المحترق التي انبعثت فجأة. كانت تعلم بأنها هي فقط من يرى الوميض، ويشتمّ ذلك، وهذا هو تأثيره عليها. لم ينطق بشيء، فهو لا يقرأ أفكارها، ولا يتوقَّع ما ستقوم به.. رغم أنها تشكّ أحياناً بأنه يعيش في وسط روحها.

سارت حتى السلم ذي الدرابزين الحديدي. قلقت فجأة من أن يكون هناك من سمع صوت الباب الخلفي يُفتح، فراحت تجري بخطوات أثقلتها الشيخوخة، قاومت ألم قدميها، فلا معنى له الآن. تجاوزت الطابق الأرضي،

ثم الأول ثم وصلت إلى السطح حيث الهواء المنعش. لمست برودة الأرض بقدميها العاريتين، ولكنّ سرعة خطواتها كانت تزداد فتتلاشى البرودة. تغيّر ملمس الأرضية عندما اعتلت الطرف الحجري، ثم لم يعد للأرضية وجود؛ لأنها ببساطة كانت تطير، وراح جسدها يستدير نصف استدارة في الهواء. شعرت بأحشاءها ترتفع دون توازن، وخصلات شعرها تتحرك بحرية.

تساءلت في نفسها: هل تراني الآن؟ لن تؤذيني مرة أخرى، ولن تنفعكَ تلك التهديدات.

تلاشى كل شيء فجأة. صدمة، ثم ألم.. وبعده الظلام. هكذا ماتت راكيل، بأطراف ملتوية وعظام نصف مهشمة على أرضية حجرية قاسية تجاور مدخل دار المسنين. لن يهتم أحد ببساطة لذلك. سيحزن البعض؛ لأن الجنون تمكّن منها بطريقة أسرع مما كانوا يتوقعون لسنوات أن تقوم به.

الليل والمدينة

15

فيوليت هي من أوائل الأشخاص الذين انضموا إلى النادي. حسب ما تعتقد أتت الدعوة من مجهول كان يراقبها عن كثب بطريقة ثاقبة، جعلت حتى أفكارها مكشوفة أمامه. لكن فكرة الكشف عن هوية هذا المجهول تلاشت مع مرور الوقت؛ لأنها تحمل أنواع غرابة مختلفة في تفاصيل حياتها. وتبدأ هذه التفاصيل مع اسمها الذي حصلت عليه في الدير. أعطتها الأخت صوفيا هذا الاسم كما أعطت ماري صديقة فيوليت الاسم الخاص بها أيضاً. ولأن الطفلتين وُجِدتا في يوم واحد، وكانتا في سنّ متقارب، كبرتا كتوءم. لم تتشابها في الشكل، فيوليت صاحبة قامةٍ قصيرة، وشعرٍ أحمر يشبه الجمل، وملامح وجه حادة قاسية، وعينين كالدمى، وماري جميلة بوجهٍ أبيض ناعم كالقطن، وعينين حادتين بعض الشيء، وشفاه صغيرة لكنها متناسقة مع ملامح وجهها، بحيث أصبحت محقونة بالأنوثة، وكان ذلك يجعلها تبدو سابقة لسنها في أحيان كثيرة. فيوليت مُتسرِّعة، انفعالية، ولا يمكن عدم إدراك وجودها في حيز قريب، ولو لم تكن مرئية. بينما ماري لا تحاول سرقة الأضواء، ومهما فعلت فوجودها لا يكون ملحوظاً. كانت رقيقة بعكس الأولى، وتتصرف حسب ما تتطلب منها طبيعتها كفتاة. وفي حال سرقت ماري الأضواء، لا يدوم الأمر طويلاً، وكانت في تلك اللحظات تختار كلماتها بعناية فائقة، فتظهر بمظهر الفتاة الذكية، والتي لا تحتاج للاسترسال لإيصال ما أرادت قوله. أحاطت بالفتاتين هالة واحدة من الإيمان، وكانت هذه الهالة امتداد لما كان يغمر قلبيهما، ولما ينبع منه إلى حياتهما التي كانت تمضي بطريقة ليست مصطنعة، حياة مشتركة. هذه الهالة كانت موجودة حتى تشتد في الوقت الذي كان إيمان إحداهما يتزعزع فجأة بسبب ضغوط الحياة. حيث كانت الأخرى تتدخل لتثبيت سور المعتقدات في عقل الأخرى.

بالنسبة لفيوليت، ما تزال ذكريات الأخت صوفيا عالقة في خيالها كشريط طويل، مصحوب بالهواء القاتم في كل الأيام السعيدة والحزينة، وكذلك في أيام اللاشعور، التي تسقط من الذاكرة وتتبخر مع الجانب المعدوم للحياة. تساءلت فيوليت كثيراً عن ذلك الجانب، وتمنّت لو أنه يبتلع كل مافي خيالها، بما في ذلك صوفيا الطيبة والقاسية. إلا أن المجهول الداكن لم يبتلع إلا

ماري. هذا يؤكد أن ماري ليست موجودة الآن، وأن فيوليت هي الوحيدة في عالمها.

عندما وصلت إلى السن الكافي للخروج من الدير، طلبت منها الأخت صوفيا الحضور إليها قبل أن تطلب ذلك من ماري، رغم أن الجميع كان يعتمد على ماري أكثر. وعندما وصلت فيوليت إلى المكتب الضيق في نهاية رواق غرف الأخوات، طلبت منها الأخت صوفيا الجلوس على الكرسي الخشبي المتهالك. كان ذلك الكرسي هو الكرسي الوحيد المخصص لأي ضيف في المكتب، ولو كان هناك ضيفان كان على الآخر الوقوف. وحين تكون ماري وفيوليت معاً هنا، كانتا تتناوبان طوال فترة الحديث مع صوفيا، على الجلوس فوق الكرسي.

"أخت صوفيا". نبرة السؤال كانت واضحة، رغم صوت فيوليت المنخفض.

أشارت صوفيا بكفها المبسوط إلى الصبية، وقد وجَّهت أطراف أصابعها إلى الكرسي الوحيد المقابل لها. جلست الفتاة، وهي ما تزال تراقبها بعينين غارقتين بالتساؤلات التي تعرف الإجابة عنها باكراً. كانت فيوليت تنتظر هذه اللحظة، لكنها لم تتصوّر صعوبتها. "لقد أتممتِ دراستكِ الثانوية، وكذلك عامكِ السابع عشر. كما أنكِ تعرفين قوانين الدير هنا. أنتِ وكل فتيات الدفعة المقبلات على الجامعة، ستنطلقن نحو حياتكن الخاصة، بمن في ذلك اللائي سيخترن درب الرهبنة. هذا المكان لم يعد كبيراً، ولا يتسع إلا للحالات الجديدة المحتاجة. أما أنتن فقد أصبحتُنّ بالغات. لقد أخبرنا بعض الفتيات بذلك، والآن حان دوركِ أنتِ وماريا، أصبح بإمكانكما استلام صندوق أموالكما، والانطلاق خارج هذا المكان، بحرية، أو حتى دون رغبتكما". كانت العبارة الأخيرة، نوعاً ما دعابة. ابتسمت الأخت نصف ابتسامة، بينما فيوليت لم يفارقها التوتر.

"في الواقع، انتظرنا أنا وماري هذه اللحظة، وخططنا للعديد من الأشياء. سنبحث عن سكن مشترك قريب من الجامعة التي ستُقبلنَ فيها". فركت فيوليت كفَّيها المقوسين، وقهقهت بخجل، ثم كتمت صوتها فجأة وحوّلت الصمت بسرعة إلى كلمات: "لم أتصوّر رهبة هذه اللحظة، إنها صريحة جداً، أكبر حتى مما قد يحتمله قلبي".

بسطت صوفيا كفيها على الطاولة وهي تحثّ الصبية: "إنها الحرية يا فتاة". قهقهتا معاً.

"أعلم.. أعلم بأنها الحرية. كنتُ حرّة هنا بما يكفي لأن أكون محمية من العالم الخارجي".

ردّت الأخت صوفيا: "وها هو نطاق حريتكِ يصبح أوسع الآن". أعلن الصمت الذي أعقب ذلك نهاية النقاش، فنهضت فيوليت مستأذنة، وسارت باتجاه المخرج قبل أن يناديها صوت الأخت صوفيا: "فيوليت".

التفتت فيوليت فجأة وقالت بعينين دائريتين: "أخت صوفيا!"

"أنتِ تملكين القدْر الكافي من القوة لمواجهة أية عوائق. لا أعني بذلك أن العالم خلف أسوار الدير هو العائق، بل أعني أنكِ شجاعة لمواجهة جمال الحرية". هزّت فيوليت رأسها وهي تفسّر الكلمات، بل تجعلها تذوب في ذهنها كذوبان مكعبات السكر.

عندما عادت فيوليت إلى ماري، طرحت عليها الأخرى وابلاً من الأسئلة؛ ظناً منها بأنّ هذا سيجعلها تتفادى الارتباك المصحوب بلقاء الأخت صوفيا، والتي لطالما كانت صديقة للفتيات. هتفت ماري وهي تصفق ثلاث مرات متتالية، بأن هذه هي الحرية، وهذا هو المنتظر طوال الأعوام السبعة عشر الماضية، كان ذلك الانتظار مصاحباً لهما منذ لحظات عدم إدراك العالم، حين كانتا في مهديهما رضيعتين. أما اليوم فماري ترى بأنها تبعد خطوة واحدة عن طموحها، وفيوليت هي من سبقتها بدقائق.

"لكنها لم تطلب منكِ لقائي". تذكرت ماري.

فسرت فيوليت الأمر: "أعتقد بأنها ستطلب ذلك شخصياً منكِ حين تراكِ".

"لنجعلها تراني إذاً".

سألت فيوليت ساخرة: "أهكذا تَحلين أمورك. إنْ بحثتِ عنها فلن تجديها، وإن حاولتِ جذب من تريدين فما كان لينظر إليكِ. جرّبي التهرُّب منها ستجديها تقف خلفكِ تماماً". امتعضت ماري مما قالته صديقتها، لكنها لم تستطع أن تخفي ضحكتها الحقيقية طويلاً. "اسمعيني يا فتاة، انتظري منها أن تطلب لقاءكِ، هي لن تتأخر بكل تأكيد. وحتماً لن أترك هذا المكان من دونكِ".

لكزت ماري صديقتها ثم قالت: "ها هي الصديقة المخلصة تعود. لن تترك السجن من دون اصطحاب ثاني أخطر المجرمين معها".

عاد الشكل الحلقي لجفني فيوليت: "هل أنا أخطر المجرمين؟"

أجابت ماري بسؤال سريع: "وهل أنا ثاني أخطر المجرمين". ضحكتا معاً تاركتين تلك اللحظات السعيدة تسرقهما، دون وضع اعتبار لتبعات أي فعل يقمن به في هذا الحياة، أو حتى للماضي الذي أصبح مجرد رياح عابرة تركتهما في سبيلهما الذي ما زلتا تمضيان فيه.

في لحظات البهجة، كان الهدوء صاخباً كذلك. ترك الصمت للكلمات وقعاً ومعنى، وصدى كذلك. أصبحت كل اللحظات واضحة رغم ضباب السعادة الذي يُصعّب رؤية الأشياء. رغم كل المعوقات كانت الضحكات تصنع من الأشياء حقيقة ومكافئة يستحقها إنسان. لم يحضر السكون، ولم يعد يقوى على التغلغل بين أصوات الأشخاص السعيدين.

أما الهدوء الفعلي، عاد ما أن فتحت الأخت صوفيا الباب على الفتاتين، وبوجه باسم، طلبت من ماري أن تأتي معها، لتتلو عليها ما كانت الفتاة تعرفه وتنتظره، وما كانت الأخت صوفيا تعلم بأنها تأخّرت عن البوح به؛ لأن فيوليت نقلت البهجة بدلاً منها. راقبت الأخت الكبيرة ماري وهي تبتعد عن صديقتها، وتذكّرت كيف كانتا دائماً في إطار واحد للصورة، ولم تفترقا منذ ولادتهما. في تلك اللحظة تساءلت ما الذي كان يجمع بين الفتاتين، وما كان سيكون لو أنهما أختان بالدم. وبعد سنوات طويلة أدركت صوفيا أنّ المحبة لاترتبط بالدم أبداً، وأن الروابط لا تحتاج لخيط فعلي يربطها وينتهي بعقدة قابلة للفك، إنما هناك روابط أخرى تنشأ مع وجود إنسانية في الروح الساكنة للجسد، وهاتان الفتاتان أكبر دليل على ذلك.

16

لم يكن نادي الأرق يشبه ما مضى من حياة فيوليت، ولا يرتبط بلياليها السابقة بطريقة واضحة. لكن الماضي هو ما جعلها تسلك هذا الطريق، وتصبح الآن واقفة هنا، مُصدِّقة لخرافة بطاقة دعوة وجدتها أسفل كتابها بالمصادفة. قد يكون هذا المكان خدعة، مجرد فخ نصبه شخص متربّص بها، لكنها لا تكترث. نداء هذا المكان الغريب كان أقوى من أي اعتقاد أو شك من شأنه أن يخيفها.

ماري، كانت هي كل الحكاية.

الفتاة كانت مندفعة إلى عالم لا تألفه كثيراً، لكنها لحسن الحظ تسمع عنه، تقرأ عنه كذلك، وتراه في شاشة التلفاز. تعبر خلاله في بعض المناسبات، لكن دير الأخوات لم يرمِ بهما في قلب ذلك العالم بعد. أما الآن وبعد أن أصبحتا ناضجتين بما يكفي، ستكون لهما الحرية في خوض الحياة، والبداية كانت مع البحث عن سكن جديد. قررتا بأنهما ستكتفيان بسكن صغير يتسع لهما، ورغبتهما في ذلك سببها ارتفاع ثمن الإيجار.

لم يكن هناك أي تاريخ محدد تترك فيه الفتيات دير الأخوات، إنما كان عليهن ترك المكان ما أن يجدن سكناً جديداً. لم تنتظرن حتى بداية العام الجديد، بل كان للأخوات نظرة أخرى في أمر الفتيات. كُنّ يردن للفتيات الرحيل قبل بداية العام؛ حتى يكون بمقدورنهن الاعتياد على الحياة الجديدة، والاعتماد على أنفسهن؛ كي يصرن متأقلمات على تلك الحياة مع بداية الدراسة الجامعية.

ساعدت صوفيا الفتاتين في البحث عن مكان قريب من جامعتهما، ولكن الفتاتين لم تتحملا ذات الصبر الموجود في قلب صوفيا. شعرتا بالملل والتعب مع مرور الأيام، وتكرار عملية البحث دون الوصول إلى الهدف المرجو منها. وبعد أن تتالت الأيام وتحوّلت إلى أسابيع، وجدتا المكان المناسب، والذي كان يبعد عن مكان دراستهما مسافة اثنتي عشرة دقيقة سيراً على الأقدام. كانت ميزة القرب من الجامعة تبعث بالطمأنينة في قلبيهما، وأيضاً في قلب الأخت صوفيا. العيب الوحيد في تلك الشقة هي أنها تقع في الطابق الثاني لمبنى عريض مصمم على طراز فيكتوري يتكون من خمسة طوابق، ولكن الطابق

الأخير حمل التقويسة التي تزيّن المبنى، فأصبح ظهوره صعباً. بدا المبنى قصيراً ولكنه كان كبيراً من الداخل، والشقق التي توزّعت في جوفه كانت واسعة ومريحة، حتى تلك التي تحمل عدداً قليلاً من الغرف. رغم أن المكان كان قديماً جداً، وفي داخله مصعد واحد قديم إلّا أنّ الفتاتين رسمتا حياتهما، وتخيلتا مواقف سريعة ستنشأ في هذا المكان. والسلّم العريض المقوّس والذي يحتضن المصعد الصدئ كان أكثر ما سحرهن.

"لكن ألا تعتقدا بأننا نستطيع إيجاد مكان أفضل، أو أحدث من هذا المبنى على الأقل.. لو بحثنا أكثر؟". كان هذا رأي الأخت صوفيا.

علّقت ماري بسرعة: "لكننا لم نجد. طال البحث ولم نجد أي شيء".

"أخواتكن وجدن أماكن عديدة، لا تجعلا الكسل يقف عائقاً أمام فرص أفضل. ستلازما هذا المكان أياماً عديدة". ردت صوفيا.

"لكننا لم نكرهه. نحن لم نرَ كيف تبدو مساكن الفتيات الأخريات. قد تكون أسوأ مما يبدو عليه هذا المبنى".

قالت صوفيا بنفاد صفر: "لديكِ ردّ لكل تعليق يا ماري".

تدخلت فيوليت أخيراً: "هذا المبنى قديم، ولكنه ليس رديئاً، أو سيئاً. لا يبدو كالأماكن التي زرناها في الأحياء الصغيرة. إنَّ المبنى يقع في نهاية التقاطع، ويبدو محجوباً خلف المبنى الطويل المجاور، وأرى أن هذه هي مشكلته الوحيدة. أما فيما يتعلّق بكونه قديماً أرى أن هذا لا يسبب مشكلة ما دامت الشقة مجهّزة بكل ما يلزمنا".

طلبت من حارس المبنى أن يريهن الشقق، وعندما أدرك نوعية السكن الذي تحتاجه الفتاتان، عرض عليهما المكوث في الطابق الثاني، حيث كانت تقع الشقة الصغيرة، والتي تتكون من حجرتين إحداهما رئيسية، وتتسع للفتاتين معاً، والأخرى كانت صغيرة من دون دورة مياه، قررتا فيما بعد أن تكون غرفة تبديل الثياب وما أن وجدتا حيزاً فارغاً في الشقة حتى جعلتاه ركناً للكتب. هكذا بدأت حياتهما في ذلك المكان. ساعدتهما الأخت صوفي في نقل كل ما يتعلّق بهما من دير الأخوات إلى شقتهما الجديدة.

"لحسن الحظ، لم يكن لديكما الكثير لأخذه معكما، وإلا لما كان هذا

المصعد المتهالك سيؤدي الغرض المطلوب".

قهقهت ماري وهي تقول: "لا بأس ببعض الرياضة على السلم".

ردّت صوفيا: "أرجو أنْ تتذكري ذلك عندما تعودين في نهاية اليوم، وتجدين هذا المصعد معطلاً. لكن لا تقلقي لن يكون الإجهاد كبيراً؛ لأنكِ ستصلين بعد أن تُنهي دورتين على درجات السلم". قبض الصمت فجأة على كلمات صوفيا. التفتت إلى فيوليت فوجدتها تمعن النظر في زوايا المكان، كأنها تزوره للمرة الأولى. ظنّت صوفيا بأنّ الفتاة ليست مستعدة لخوض هذه التجربة، فواستها وهي تربت على كتفها لتعيدها إلى الواقع: "ستعتادين على الحياة الجديدة".

"ليس هذا ما يقلقني في الواقع. ليست الحياة الجديدة، إنما هي الحياة.. الحياة فقط".

زمّت صوفيا شفتيها، وهي تحاول إزاحة الستار المُسدَل على نظر الفتاة، والذي يحجب عنها -وهي التي ربتها- ما كانت فيوليت تفكر فيه الآن. شعرت ببعض الاضطراب، ولكن هذا القلق لن يوقف رحلة الفتاة، ولن يمنع خروجها من قفص الدير. ستفتقدها!! بل كانت ستفتقد كل الفتيات في ذلك المكان، ولكنها ليست المرة الأولى التي تخوض فيها تجربة إطلاق سراح الفتيات. العزاء الوحيد لها هو أنهما ستبقان قريبتين، يمكنها زيارتهما أو العكس. حاولت أن تؤكد تلك الفكرة وهي تراقب الفتاتين، ولكن الواقع لم يكن بتلك البساطة، ففيوليت وماري كانتا مختلفتين. العلاقة التي نشأت بين صوفيا والفتاتين لم تكن علاقة أم، أو معلم.. بل تحوّلت إلى صداقة أكثر من كونها تشبه أي شيء آخر مما هو دارج في أشكال العلاقات بين الأشخاص في هذه الحياة.

توزّعت الصناديق على الأرضية الفارغة، والتي لن تعود كذلك غداً، وبعد أن تصل قطع الأثاث البسيطة التي اختارتاها للسكن. كانتا تفتشان في الصناديق، وتفتحانها؛ لتتأكدا من المحتوى أولاً قبل أن تنقلاها إلى إحدى الحجرتين. حملت ماري أحد الصناديق فاختلّ توازنها بسبب ثقله، لكنها ضمّت الصندوق بقوة، وتحركت ببضع خطوات متّزنة في حيز واحد. تحركت ببطء بعد أن استعادت توازنها متجهة إلى الممر المؤدي إلى الحجرتين. كانت تتظاهر

بالعجز رغم قدرتها؛ لتضفي بعض المرح على ما تقومان به.

علّقت صوفيا بينما عيناها تراقبان ماري وهي تسير على طول الممر: "لأول مرة، أشعر بأن الأدوار تتبدّل. كانت هي الفتاة الهادئة، وأنتِ هي المتسرّعة، لكنها اليوم تتصرّف كما لو أنها أنتِ".

"إنها سعيدة". علقت فيوليت، ثم ابتسمت وهي تراقب صديقتها. "نحن نتشابه كثيراً.. أنا وهي، لكن لا يلحظ ذلك أحد، حتى نحن ننسى ذلك أحياناً، لكنني أعي ذلك. أشعر بأنني هي، وأحياناً يسعدني أن أرمي بثقل ما تنوء به روحي من هموم إليها. نتبادل أدوارنا رغم تشابه حكايتينا. أعتقد أن ذلك الاختلاف هو عزاؤنا الوحيد في الدير".

"لم أقل ذلك من قبل، لكنني أشعر بتشابه روحيكما كثيراً. أحياناً أعتقد بأنكِ تحتمين بها، وهي الظلّ الذي سيغطيكِ دائماً، لكنني أكتشف في اليوم التالي بأن شجاعتكِ وطيشكِ، هما سبب قوتها وبقائها. في وقت آخر يتغيّر هذا المفهوم، وأبقى محصورة في هذه الدوامة كلما التقيتُ بكما. أنتِ أصغر من أن أتحدّث معكِ في ذلك أو أن تحاولي فهم كيف يبدو المرء. الحياة طويلة يا فيوليت، وتشرح لكِ ما يكفي عن تكوين النفس البشرية، وسيكون هناك من الملل ما يكفي لأن يرميكِ في البحث عن ذلك".

في نهاية اليوم، وبعد أن مضت بضع ساعات على غياب الشمس انتهى كل ما يمكنهن القيام به. عرضت عليهما ماري أن تقوم بصنع القهوة، لتكون تلك أول مهمة في مطبخهما المتواضع، ورغم أنّ الأواني لم تكن قد تعرضت للترتيب بعد إلا أنَّ إيجادها لم يكن معضلة. جلسن على الأرض تتوسطهن الأخت صوفي وتقد اعتلى رؤوسهن الحاجز الخشبي للنافذة، المطلة على الطريق الفاصل بين شقتهما وبين المبنى المجاور.

" لن تنقطعا عني، أليس كذلك؟" سألتهما صوفيا وهي تحتضن الكوب بكلتا يديها، وبينما كان السائل الذي في داخله يتحرك، كان ضوء الليل المنعكس على سطح الكوب يتحرك أيضاً مُشكّلاً تموجات ليست ملحوظة.

شهقت ماري بطريقة أنثوية: "لا... بكل تأكيد لا".

"سنرى ذلك". قالت صوفيا، وهي تراقب ماري من زاوية عينها.

تحركت فيوليت من مكانها لتقابلهما، ثم سألت: "وأنتِ كذلك، لن تنقطعي عن زيارتنا، أليس كذلك؟".

"لستُ متأكدة". أجابت الأخت صوفيا، ثم ضحكت ما أن رأت امتعاض الفتاتين. لم يَطُل وجودها بعد أن تلاشت القوى من الكوب المحمول بين يديها. رافقتاها حتى المصعد، وانتظرن وصوله. ما أن سمعت صوفيا صوت المصعد البطيء يعلو حتى أدركت بأنها اللحظة الحاسمة التي ستصبح هي بعدها جزءاً من حكاية الماضي، ولا تعود الأخت صوفيا، وإنما صوفيا الصديقة. كما ستتحوّل الفتاتان إلى جزء من العالم الذي سيجرفهما معه بعيداً. لكنها تمنّت ألا يمحو هذا العالم مشاعرهما تجاهها.

اقتحمت صوفيا المصعد، وقالت وهي تلوح للفتاتين: "كونا قويتين... سنلتقي قريباً". انغلق الباب، وبدأ المصعد بالهبوط. تلاشى الدمع المتراكم في عيني الفتاتين، كما تبخّرت لحظة الوداع الحزينة. كانت الأخت صوفيا ذكية في عدم إظهار الحزن المرافق للحظة الرحيل. كذلك كانت فكرة اللقاءات بين ذلك الثلاثي عاملاً لتخفيف حزنهن.

عاود فيوليت وماري ذات الحماس بعد أن أصبحتا وحيدتين في قلب سكنهما الجديد، وبعد أن أغلقتا بابهما شعرتا بأن حكايتهما الجديدة تبدأ سطرها الأول الآن.

17

أن ترتبط الحياة بمعنى ثابت هي خدعة إنسان؛ لأنها تختلف مع مفهوم كل شخص لها، وأيضاً مع ما ينشأ عليه المرء، وأحياناً حسبما يشعر. تختلف من منظور إلى آخر. الحياة ثابتة، ولكن معانيها تتغيّر مع الزاوية المخصصة لرؤية كل إنسان لها. وأينما وصل الشخص في قصته، يصبح الأمر كدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. كذلك كان الأمر في حياة فيوليت التي كانت تنظر إلى الأمور بمنظورٍ واحد، وكانت أحياناً تعجز عن تغييره، أو إثبات الاحتمالات المرتبطة به. لم تكن الحياة متساهلة في كل التفاصيل الصغيرة، بل كانت تتغير أمامها فجأة. اعتقدت سابقاً بأن ترك الدير يشبه ضوءاً بعيداً، تحاول عبور طريقها وصولاً إليه، ولما تمّ ذلك لم يكن يشبه الأشياء المتوقّعة، بل جاء كهبوب رياح باردة عليها. لم تكن حياتها خلف سور الدير صعبة أو قاسية، بل كانت تنحصر تحت مسمى التجربة.. تجربة لا مفرّ منها، ولا يوجد طريق آخر يمكنها اختياره عوضاً عمّا تعيشه الآن. تساءلت كثيراً عن معنى وجودها مع الأخوات، وما أن كبرت حتى بدأت تطرح الأسئلة حول نفسها، وتحاول تفسير ما هي عليه. وعندما أصبحت تملك من الوعي ما يُمكّنها من فهم محيطها، بدأت تطرح الأسئلة حول نفسها، وحول ماري صديقة الطفولة. مع الشعور بالملل بدأت فيوليت تطرح التساؤلات، حول كل الفتيات الموجودات في الدير، ومع مرور الزمن توسّعت تلك الدائرة لتشمل الأخوات؛ لأنهن ببساطة السلطة المتحكّمة بحياة فيوليت الصغيرة آنذاك.

لم يكن النادي كما توقّعته فيوليت، بل كان يقع في مرآب كبير أسفل مبنى قصير حديث الطراز، مُؤلّف من ثلاثة أدوار. بدا المكان من الخارج شاحباً، لكنّها ما أن دخلت إلى هناك حتى تلاشت الأفكار المرعبة التي زرعت في ذهنها بسبب منظره الخارجي. ترددت قبل أن تفعل ذلك، وأدهشها أن تجد نفسها تتجاوز مدخل المكان. قضت وقتاً طويلاً تتأمل فيه المبنى من الخارج، وتوقعت أن يكون النادي في أحد الأدوار داخل المبنى القصير، ولكنها عندما أعادت قراءة بطاقة الدعوة الغريبة، رأت مجدداً أنَّ العنوان تحديداً هو مرآب المكان، والذي كان هو الجزء الفاصل بين المبنى المقابل للفتاة، وبين المبنى المجاور له. كان المرآب من الداخل عبارة عن مساحة واسعة، ولكن لم تتم تجزِئتُها بعد. وجدت عدداً من الأشخاص يجلسون متجاورين، يشكلون قوساً

ضيقاً تكاد أطرافه تتلامس فيشكل دائرة. راقبتها الرؤوس القليلة، والتي كان قلقُها يمنعها من إحصائها. بدا الجميع متوقّعاً وصول الفتاة، وهذا لم يكن أمراً مدهشاً؛ لأن الباب أصدر صوتاً واضحاً بينما كانت تفتحه وتقتحم المكان. نهض من بين الأشخاص رجل واحد، لم يكن هناك أي شيء يميّزه سوى شعر قصير، وقميص مقلم على شكل مربعات كبيرة. نهض وسار إليها عاقداً حاجبيه. جعل وجهُه فيوليت تتساءل أكثر عن هوية مرسل تلك الدعوة. هل تراها وجدتها عن طريق الخطأ؟

سألها الرجل: "هل أنتِ مخطئة في المكان؟"

تردّدت، وفكّرت في الإجابة بنعم تماشياً مع فكرته هو، لكنها تشجّعت أخيراً، وقالت بينما هي ترفع الدعوة أمامه: "لقد وجدتُ هذه بين أغراضي، وهي ما دلّني على هذا المكان". راقبت الأشخاص القليلين من خلف كتف الرجل الغريب، وبدا شكل جلوسهم مألوفاً، فهو يشبه أولئك الذين يجلسون في جلسات الدعم.

"تحملين بطاقة دخول النادي إذاً. يبدو أننا سنحظى بضيف جديد". قال موجهاً النصف الآخر من كلامه للأشخاص الجالسين. ابتسمت من بينهم امرأة، بدت بعمر الأخت صوفيا، شعرها القصير تجعّد ليتجمع فوق رأسها. هزّوا رؤوسهم جميعاً بطريقة توحي أنهم يوافقون على وجودها. لا تعلم فيوليت إن كان لهم الصلاحية لفعل ذلك، أم أن من استقبلها هو الشخص المسؤول فقط.

دعاها الرجل إلى أن تتبعه، وهو يقول: "يبدو أن من أعطاكِ هذه الدعوة يثق بكِ، فهذا التجمّع سريّ كما هو مذكور في البطاقة، أو كما ذكرها لكِ من أهداكِ إياها". فكّرت فيوليت في قول الحقيقة، ولكنها آثرت الصمت على فعل ذلك، فالحقيقة ستجعلها تبدو كمن أخطأ فعلاً في المكان، أو كلصّة سرقت الدعوة من شخص آخر. كأن الرجل قد قرأ أفكارها، فقال قاصداً أن يجعل فكرتها تتلاشى نهائياً: "إذا كان سرّ النادي مأمون لديكِ، فلا يهمّ من هو مرسلكِ إلى هنا، الأهم هو أن يؤدي هذا النادي غرضه نحوكِ". هزّت فيوليت رأسها مؤيدة كلامه رغم أنها لا تعلم ماهي مهمّة هذا التجمع السريّ. التفتَ إليها الشاب من جديد، ثم قال: "بالمناسبة، أنا ماركوس. أنا هنا المسؤول عن تنظيم التّجمُّع، ومواعيد لقائنا جميعاً معاً. نحن نلتقي غالباً كمجموعة كاملة". استدار ليتأكّد إذا ما كانت فيوليت تستمع إليه، أم أنها

سرحت في غرابة المكان شبه الخالي إلا من الآدميين. "في الواقع عددنا بسيط جداً. أنا هو الشخص الخامس حتى الآن. هذا يجعل الأمر مفيداً أكثر. جميعنا نواجه مشاكل غريبة مع النوم، وهذا ما يجعلنا نجتمع لمناقشة هذا الأمر. أحياناً كثيرة يساعدنا ذلك على تجديد مهمّة النوم لدينا، أو التغلّب على ما يسبب الأرق. لهذا نحن ندعو هذا المكان بـ (نادي الأرق)".

تلاشت المدينة خلف جدران المرآب، وبدا العالم كله منحصراً في هذا المكان الهادئ. تجمّعت كل الأفكار المشتتة في ذهن فيوليت، وانحصرت في هذا المكان. سحب لها ماركوس كرسياً من دون أذرع، وتركها تجلس بجوار المرأة ذات الشعر المجعد، ثم سار مبتعداً عنها حتى وصل إلى طاولة خشبية ملتصقة بجدار المكان. سحب زجاجة ماء، وعاد بها إلى فيوليت.

سألها: "إذاً.. أنتِ تواجهين مشاكل مع النوم".

هزّت فيوليت رأسها دون النظر إليه. "في الواقع.. نعم. أواجه مشاكل مع النوم مؤخراً". وزّعت بصرها بين الوجوه الثلاثة الغريبة، ثم عادت للنظر مباشرة إلى عين ماركوس التي بدت فارغة، وكأنما ينقصها وضع مصباح في جوفها.

"ما السبب يا.. :" سألتها المرأة ذات الشعر المجعد.

"فيوليت أنا فيوليت. في الواقع السبب يصعب تحديده.."

قال ماركوس فجأة: "أعتقد بأننا نخوض في هذا قبل أوانه".

قالت المرأة ذات الشعر المجعد: "قد يصعب تحديد السبب، ولكن وراء كل عائق حكاية. لهذا نحن هنا.. لنُفرغ ذلك". ساد صمت قصير قبل أن تُعَرّف المرأة عن نفسها قائلة: "بالمناسبة، أنا ملدرد". ابتسمت فيوليت في وجه ملدرد. وكذلك فعلت هي ثم تحوّلت نظرتها إلى نظرة فضول. لا تعلم فيوليت إن كان عليها البوح بما تفكر به الآن، لكنهم في النهاية غرباء، وهذا يكسر حاجز الخجل، أو الخوف من البوح لهم بحكاية لا تعنيهم.

لم ترغب في أن تنخرط في هذا المكان بهذه السرعة الغريبة، والتي لا تبني الثقة لكنها سحبت نفساً طويلاً، وقالت بجرأة في نهاية الأمر: "أنتِ محقة يا ملدرد، كلنا نملك حكاية ما تدفعنا إلى الجدار المسدود في النهاية. وأنا

حكايتي يصعب تحديد الزاوية المناسبة كبداية لها، لكن أعتقد أن المعضلة بدأت مع اختفاء ماري".

18

لا أعلم كم كانت الساعة تحديداً، حين استيقظتُ من نومي، لكنّني بقيتُ مشلولاً، والظلام يغمرني من كل اتجاه، مؤكّداً أن الشمس لم تشرق بعد. أردت أن أنهض ولكنني عجزتُ. جسدي كان يحتاج هذه الرفاهية التي تحتضنني، ولكن عقلي واعٍ لكل ما يجري، ويشعر بالأشياء واضحة، كما لو أنني لم أخض تجربة النوم. اختلاف المكان هو ما سبّب ذلك، أحتاج إلى المزيد من الوقت حتى أعتاد البداية الجديدة. أنا في منزلي، وفي غرفة طفولتي ومراهقتي، وجزء من شبابي أيضاً. أنا في أكثر الأماكن انتماء لنفسي، ولكن للبعد أيضاً قدرته على خلق المسافات. تقلّبتُ مرات عديدة في مكاني، ولكن ذلك لم يكن بداعي العودة إلى النوم؛ لأنني أدركُ مسبقاً بأن محاولاتي في ذلك ستفشل مهما تكرّرت. كنتُ أشعر بعدم ارتياح، وبنوع من الاختناق. أبعدتُ لحافي عني؛ راجياً من ذلك تخفيف الضغط القابع على صدري، لكن برودة الهواء المتسرّب إلى الحجرة، أجبرني على إعادة لحافي إلى وضعه السابق. لا أعلم كم بقيتُ بعد ذلك على هذه الوضعية، إلا أنني وجدتُ راحتي فيها، ووعيي تمكّن من نقلي ببساطة إلى الحقائق الموجودة في عالمي الآن. أنا هنا في منزلي، في المكان الذي قضيتُ فيه معظم أيامي. أمي، كريستين، وروزالي أيضاً... جميعهم قريبون مني الآن، هم عالمي، وأنا عدتُ جزءاً من حياتهم أيضاً. لم أكن أشعر بالضيق، ولا حتى بالعطش، أو بالجوع. نهضتُ أخيراً متّجهاً إلى دورة المياه، رغم عدم حاجتي إليها، لكنني قمت بذلك بطريقة آلية. عندما عدتُ إلى غرفتي سرتُ باتجاه النافذة، وعندما أزحتُ الستار، رأيتُ أنّ الأشجار الواقعة في مجال الرؤية الذي تتيحه النافذة قد نمت، وتشابكت بعض أغصانها، وكانت تحجب عني رؤية الحديقة، ولكنها لم تمنعني من رؤية سورِ المنزل، وجزءٍ من المنزل الموجود في الجهة الأخرى من الشارع. تذكرتُ بول ما أن نظرتُ إلى الخارج، ومن المؤكد بأنَّ وقت نومه هو وفريد قد حان منذ ساعات.

لم تبدُ لي فكرة العودة إلى فراشي واردة؛ لأنني أكتسب من النشاط ما يكفي لأن أخوض يومي كما هي أية ساعة أخرى فيه. خرجتُ من غرفتي متّجهاً إلى الطابق السفلي. تجوّلتُ في أرجاء المنزل تحت جنح الظلام، دون أن أحتاج إلى تدفق المزيد من الضوء إلى داخله. لم أكن أقصد أية زاوية، أو حتى أبحثُ

عن أي شيء. كان مقصدي مما أقوم به هو استكشاف الزوايا التي أصبحت لوقت ما جزءاً من الماضي، ولأنني عدتُ إلى نقطة الماضي بدت لي أحداثها كالقطار الذي جرّني إلى الرحلة الطويلة عادت بي إلى هنا. تذكرتُ مركز العلاج، وبداية رحلتي إليه. عادت صور المدخل الكئيبة في خيالي.. الممر الأبيض الطويل، المصابيح الفلورية التي لم تكن تكسر الظلام، وإنما تغيّر لون الجو الخانق الموجود في المكان، لكنّها لا تلغيه. في ذلك الحين، ورغم شدة مرضي، أدركتُ بأنّ الظلام والعتمة لا ينتميان إلى اللون الأسود دائماً؛ لأنهما ينبعان من داخلنا في أي لون نراه نحن، وفي أية صورة ثابتة أمام أعيننا. سلّمتُ نفسي طواعية إلى ذلك المكان راغبةً في التغيير. رأيتُ الموت قبل ذلك، عشتُ تلك التجربة، وبُعِثتُ إلى الحياة مرة أخرى. لم أكُن ليو الابن، أو حتى الأخ.. كنتُ ليو الغريب السقيم، والذي لا رجاء من عودته، كما لو أنني جسد سائر فقدَ روحه. كانت تجربة الغياب والعودة هي الفارق، ذلك الرحيل هو ما علّمني أنّ البقاء ثمين؛ لأنه ببساطة تجربة واحدة لا تتكرّر، والحظّ ليس شرطاً لتمامها، فعندما تبتعد لا يوجد أيّ وعود بالاقتراب من جديد. غبتُ لثلاثة أيام عن الواقع، لم أكن أتذكّر منها أي شيء غير أنها كانت تبدو لي كثلاث سنوات من الظلام والفراغ، وعندما عدتُ وجدتُ والدتي، كانت أوّل من انتظر عودتي في هذا العالم. أدركتُ في تلك اللحظة أيضاً أنّ محبة الأم غير مشروطة، ولا ترتبط بأيّ شيء، ولا تشرخُها الأخطاء حتى. قالوا لي بأنني محظوظ؛ لأنني لا أزال على قيد الحياة. أما كريستين كانت ترى بأنني محظوظ بمحبة والدتي. أعتقد أنّ كل ما قمتُ به قبل ذلك كان هو الجزء الأكبر من رحيل والدي. ماتَ والدي قبل تلك الحادثة بعام واحد، بعد أن كان يتحمّل كل عواقب ما أقوم به من طيش قبل ذلك، ولو كان مايزال على قيد الحياة لمات؛ من هول تلك الحادثة.

بعد مضي يوم واحد على إفاقتي من تلك الغيبوبة القصيرة، قالت لي والدتي بلهجة آمرة، أكثر من كونها عرض مساعدة: "ستتعالج من هذا". تبادر إلى خيالي كل ما كنتُ أسمعه عن هول العلاج، وأعراض الانسحاب، بدا كل ذلك لي كغيمة تحجب عني شكل الحياة الطبيعي خلف معاناة العلاج. "ستتخلص من إدمانكَ بأية طريقة يا ليون". بينما أنا راقد لم أشعر بأي إنهاك، وإنما كنتُ أشعر بالعار الذي يمنعني من الابتعاد عن وسادتي حتى، حرّكتُ رأسي إيجاباً بكسل وبصمت. لم أرغب في أن أبدو طبيعياً آنذاك؛ لأنني لا أستحقّ أن أكون

كذلك.

"تريزا..؟" لفظتُ ذلك الاسم بصوتٍ مبحوح، فرمقتني والدتي بنظرة توحي بألّا حقَّ لي بطرح ذلك السؤال. بعد لحظات، تحوّلت النظرة الجليدية إلى نظرة تعاطف. حركتُ عينيّ نحو كريستين، فرأيتُ في عينيها نظرة شفقة لا تشبه التعاطف الموجود في عيني والدتي. "هل هي بخير؟" سألتُ بإصرار أكبر، وهنا بدأت طاقتي تتدفق، كأنمّا فتحت مجالاً لعبور السيل في داخلي.

تحركت كريستين في مكانها، ثم قالت: "في الواقع.."

قاطعتها أمي: "ليس الآن". أظهرت كريستين نظرة اعتراض، فنهرتها أمي بعينيها، وقالت بلهجة صريحة: "ليس الآن". قبض عليّ القلق وأشعرني بالعجز، فلم أعد مُصِرّاً على سماع الإجابة؛ ففي حيرة الاحتمالات تكمن راحة غريبة تبعدني عن مرارة الحقيقة.

لم يمضِ أسبوع آخر على وجودي مع والدتي، حتى قرَّرتْ أن ترسلني إلى المصح. كنتُ بالغاً بما يكفي لكي أعترض، وأعود إلى شقتي الصغيرة، حيث أملك حياةً مستقلة، وافتقدت تلك التعليمات منذ وقت طويل. لكن في ذلك الوقت، لم تعد لديّ أية قوّة على الاعتراض، وحتى والدتي لم تكن لتسمح بهذا، دون أن يتغيّر شيء في داخلها تجاهي. لم أعترض على سفري، بل وافقتُ ببساطة. كانت والدتي حريصة في مسألة الوقت، وفي مراقبتي أيضاً؛ لأنها كانت قلقة من انزلاقي من بين يديها مرة أخرى والعودة إلى الإدمان، فحاجتي إلى ذلك لم تكن تحتمل التأخير أكثر. رافقتني هي وكريستين في رحلة سفري، بل إنّهما كانتا آخر وجهين أراهما، وأنا أعرفهما مسبقاً، بينما أعبر باب المصح، وأتركهما تراقبان رحيلي بعيداً.

ما تلا رحيل والدتي لم يكن كما تصوّرتُه أنا، أو ما تصورتُ أنها ستتركني فيه. سألني الطبيب المسؤول عنّي حين دخلتُ إلى هناك: "هل تدرك ما الذي حدث معكَ تماماً؟". كان يعلم بأنني أدرك ذلك، لكنه بدا كما لو أنه يريد سرقة الاعتراف مني؛ ليزيد حجم الخزي في قلبي.

"أجل أعلم". أكّدتُ له بأنني أعلم.

أصرّ على سرقة الاعتراف أكثر: "وما الذي حدثَ يا ليوناردو؟".

"ليو، ما دُمنا سنتواجه كثيراً هنا". ابتسم لذلك، وتساءلتُ إن كان يجب عليه كسر حاجز الرهبة باكراً هكذا. "جرعة زائدة، كادت تودي بحياتي، لولا وجود معجزة العلاج".

"أنتَ تدرك بأن هذه معجزة، وهذا أهم حاجز يمكنه إرهابكَ مما كنتَ فيه سابقاً. هذه نقطة هامّة وفي صالحكَ يا ليو. ما حدث معكَ ليس أمراً غريباً، أو ظاهرة نتعامل معها للمرة الأولى، لكنَّ عليكَ أن تعلم منذ هذه اللحظة، بأن هناك مَن تخطّاها، ونجح في طي هذه الصفحة، وهناك من فشل. لكنني لا أريدكَ أن تفكّر في احتمالية الفشل". ما كان يجب عليه طرح تلك الاحتمالية المحبطة. أطلق الرصاصة، وأراد مني تفادي ضررها. التفتَ إليَّ؛ ليرى إن كنتُ ما أزال متماسكاً.

"أتفهم هذه الأمور". قلتُ بعجز، وكنتُ لا أعني تلك الكلمات تماماً.

"ما يجب أن تعرفه يا ليو، بأن المرحلة التالية لن تكون بالسهولة التي تتصوّرها. قد يكون علاجكَ هو المرحلة الأخيرة من هذه المأساة، ولكن لا تظُن بأنّ عبور هذه المرحلة يبدأ بوصولكَ إلى هنا. التجاوز ينبع من داخل إنسان، وسَيرُكَ على خطّ الأحداث لا يلزم اقتراب النهاية منكَ، ما دُمتَ لا تحاول تحديد خط النهاية بنفسكَ، هل هذا مفهوم؟" أردتُ أن أقول: "لا" كنوع من التحدي، لكنّ ما قاله كان واضحاً، ولم يعد هنا أي مجال للتحدي، فأنا مكسور من الداخل، والعطب الموجود في قلبي يجعلني عاجزاً عن تجاوز الحقيقة.

ما تلا تلك البداية في المصح، كان مليئاً بالعجز وبالقوة أيضاً، صراخ.. دموع، وتجاوزات أيضاً. لكنَّ الأهم هو أنني استطعتُ في النهاية، وها أنا في المكان الذي أعرفه تماماً من جديد. خرجتُ من المنزل متّجهاً إلى الحديقة، لم تكن برودة الهواء كما تصورتها، بل كان الهواء رغم برودته ساكناً، ويحمل بعض الدفء. كان هذا الانتعاش المرافق للسكون في الخارج، يحثُّني على الخروج وعلى رؤية الشوارع الخالية، كما لو أنها ملكاً لي وحدي الآن. بحثتُ عن مفاتيح أيٍّ من السيارات الموجودة في المنزل، ولكنني لم أجد أي مفتاح يخصّ السيارتين الموجودتين في المرآب، لذلك لم يعد أمامي، سوى حلّ واحد جعلني أقاوم كسلي، والخوض فيه. بدّلتُ ثيابي، وارتديتُ ما يتناسب مع تمرين سريع في الخارج.

عدتُ إلى الطابق السفلي، ومن ثم خرجتُ إلى الحديقة، وعلى الفور اتجهت مبتعداً إلى البوابة الحديدية. رحتُ أمشي بخطا نشيطة بجوار السور الحجري الذي يحيط بمنزلنا. بدأت جولتي في الضاحية سيراً، وما أن امتلكتُ نشاطاً أكبر، بدأتُ أهرول على الجزء المرصوف. تجاوزتُ المنازل الكبيرة في أعلى الضاحية، ولكنني لم أذهب باتجاه الجسر الذي يعتبر مدخلاً إلى هذه المنطقة، وإنما سرتُ باتجاه الحد العالي للمكان، والذي يبدو كالتل الصغير، والذي يتيح لأهالي الضاحية رؤية واضحة لمباني المدينة التي تفصلنا عنها المعبر الضيق تحت الجسر. سرتُ إلى هناك، ولم يكن للإجهاد أي دور بعد. كانت خطواتي قوّية، وأقدامي ترتطم بالأرض بثباتٍ وبتحدٍ. كانت الشوارع خالية تماماً، وفي تلك اللحظة بدت المدينة ملكي وحدي، ولا أحد في هذا العالم سواي.

وصلتُ إلى الحدّ المغلق بحاجز حديدي قصير، والذي كان يظهر قبل اقترابي منه كخطٍ مضيء. اقتربتُ أكثر فتحوّل الخط إلى حدٍّ غير متساوٍ يُظهر أبراجاً قصيرة، وأخرى طويلة تجاورت دون ترك فراغ بينها. كانت قمم بعض الأبراج تومض كاسرة عتمة السماء السوداء التي تعتلي قممها، وتركت على صفحة البحر صوراً متلألئة تمثل انعكاساً غير ثابت لصورة المدينة في الليل.

19

بدت حركة الوقت صعبة وبطيئة مع لحظات بزوغ الفجر. أما ساعات الصباح فقد كانت تشبه يوماً كاملاً بحدّ ذاتها. لم يعد ذلك السكون مدعاةً للتأمل، وإنما أصبح إشارة للملل وللوحدة. استيقظ الخدم في المنزل، وتبعهم نهوض والدتي من فراشها، أعدوا لنا الإفطار، ولم يحتاجوا إلى دعوتي إلى المائدة؛ لأنني شهدتُ لحظات إعدادها.

"أراكَ قد استيقظتَ باكراً". قالت أمي، وهي تزيح كرسيها عن الطاولة.

أجبتُ، وأنا أجلس على الطرف في مكان والدي: "لم أنم طويلاً". قلتُ ذلك، وتركتُ تفاصيل تلك الكلمة لفهم والدتي. فسَّرت هي الأمر بكوني لم أعتد بعد على المكان، فأنا غبتُ عنه طويلاً. أيدتُ تلك الفكرة، وكانت فعلياً هي السبب الأوضح لذلك.

"ما الذي تخطط لفعله فيما تبقّى من النهار؟"

"ليس لديّ أية خطط. أفكر أحياناً في دعوة كريستين للخروج معي، لكنني أخشى ألّا يكون لديها متّسع من الوقت لذلك". فكرتُ في خطط بديلة بينما توقفت الكلمات في فمي، ثم اعترفتُ: "لا أعلم ما الذي سأفعله، سأترك الأنشطة تخرج بطريقة عشوائية". كنتُ أدرك بأنها قلقة على تركي وحدي في طرقات هذه المدينة، ولكنني لم أجد أية طريقة لطمأنتها. لم يعد لدي أي صديق في هذا المكان، فجميعهم يتعلقون بالماضي وبالانتكاس. أمّا فيما يخصّ مشاعري أنا شخصياً، فقد كنتُ خائفاً من الاقتراب من مناطق الماضي، تركتُ مفاجآته تذبل وتموت، ولم تعد لدي الشجاعة لتجربة كل ما يحمل شعوراً مشابهاً للماضي. حاولت أن أبعد أفكاري عن الماضي بقدر المستطاع؛ خوفاً من أن تتمكن غريزة الأم من اختراق عقلي، ورؤية أفكاري. لم أكن أتصور أنْ ترى تلك الذرات البيضاء الصغيرة، وهي تتراقص على الصفحة المظلمة التي أراها كلما أغمضت عيني. كانت تمثل الموت والألم كذلك بالنسبة لي.

لا أملك سيارة خاصة بي؛ لأنني بعتُها ببساطة، ولم تكن هي فقط ما تخليتُ عنه، بل كل ما كان يمكنني استبداله بالمال. طلبتُ من أمي بخجل: "هل يمكنني استعارة إحدى السيارتين؟"

هزت رأسها بينما هي تمضغ الطعام، ثم ابتلعته بصعوبة وقالت: "بالطبع تستطيع. سأطلب من بول أن يجلب لكَ مفتاح السيارة الأصغر". شعرتُ بالامتنان لذلك، لكنني عبّرتُ عن ذلك من خلال صمتي. سألتني فجأة: "لكن، هل قررتَ أين ستذهب؟"

زفرتُ وقلتُ محاولاً بثَّ الاطمئنان في نفسها: "أرجو ألّا تشعري بالقلق عليّ يا أمي. لم أحدد بعد ما الذي سأفعله، ولكنني طلبتُ السيارة في حال وجدتُ ما يمكنني القيام به". أدرك بأنّ ذلك لم يقنع والدتي أبداً، ولكنها لم تعترض على ما قلتُه؛ لأنها لا تود وضعي تحت ضغط يجعلني أبدو كغريب، أو كشخصٍ ذي سوابق لا يمكنها الوثوق به. لم تعد عيناها تقابل عينيّ ونحن جالسان على المائدة، لكنّ كلينا حاول ردع الصمت من التسلل بيننا، فكانت تسألني عمّا كان يخطر في بالها، وإنْ لم يكن للسؤال معنى حتى.

بعد أن تناولنا الإفطار أتى فريد بمفتاح السيارة الأصغر، ومن دون أية كلمات سوى التحية التي ألقاها أعطاني المفتاح، وخرج. عدت إلى غرفتي التي كان ضوء الشمس قد اخترقها كلها، فلم تعد هناك أية حاجة للمصابيح. كانت الغرفة نظيفة، ولم يعد هناك أي غرض يخصّني في غير محله. جلستُ وحدي أفكر في خطة يمكنني فيها قتل الوقت المتبقي من النهار، وفكّرتُ بأنَّ الوقت لا يتحرّك رغم أن اليوم مايزال في بدايته، فكيف سأقضي المساء؟ بل كيف ستكون أيامي القادمة هنا.

هذا ما جنيتُه أنا.

هكذا كان يبدو الخلاص بعد ألم الذنب.

في مركز علاج الإدمان، لم أُدرك بأنّ مرحلة انتقالي كانت سريعة إلّا بعد مرور يوم واحد. كانت أدوية المستشفى تشوّش عقلي، وتبعدني عن حاجتي إلى المخدر، ولكن بعد مضي يومين، أي في بداية مكوثي في المصح، بدأت الأعراض تظهر عليّ. كانت أطرافي تذبل بطريقة مفاجئة، وكان هذا يحدث غالباً عندما أتأخر عن إيجاد المال للحصول على المخدر. اشتعل الاضطراب في قلبي فجأة، وبدا الأمر كما لو أنّ نهاية العالم تبدأ الآن. لم تكن جدران المركز تحميني، ولا صورة الممرضين بالرداء الأبيض لم تكن تمثل الخلاص بالنسبة لي. طلبتُ مقابلة الطبيب، وكنتُ مصّراً على ذلك؛ خوفاً من ألّا أتمكّن

من المقاومة، فتتفاقم الأعراض وتشعرني بالتعب. بقيتُ وقتاً طويلاً قبل وصول الطبيب إلى غرفتي الصغيرة في المركز. زالَ الخدر فجأة، وعادت السكينة إلى جسدي.

عندما وصل الطبيب فجأة نهضتُ من مكاني، ووقعتْ عيناي فوراً على الشارة التي تُظهِر اسمه الأوّل المكوّن من أربعة أحرف، ولكنني ناديتُه بكنيته: "دكتور داروين، أنا لا أشعر بأنني على ما يرام، بل.. إنني.."

ابتسم، وفردَ كفّيه أمامي قائلاً: "تمهّل، الجرعة الأخيرة كانت كفيلة بنشر السم في جسدكَ فترة أطول من الجرعات التي سبقتها، حتى علاج المستشفى لم يكن ليغير شيئاً من حقيقة وجود السم في جسدكَ. ستواجه أعراض الانسحاب وهذا طبيعي، كل ما يمكننا فعله، هو مساعدتكَ بما نستطيع أن نقوم به، حتى تشعر بالدعم وتتجاوز الأمر".

قلت: "لكنني أشعر بذلك يبدأ الآن".

"أجل وهذه هي البداية، فترة العلاج لن تكون قصيرة، ستتبع الخطة المعدّة للعلاج بالتدريج مروراً بالمراحل الصعبة، ثم ستعود بعدها إلى الركود من جديد".

مضى ذلك اليوم، وكنتُ أجد صعوبة في قضاء الوقت في المصح؛ لأن وجودي مايزال حديثاً. استيقظتُ في اليوم التالي ونور الشمس يضرب جفني المغلق. أدركتُ عندما فتحت عيني بأنّ نور الشمس لم يكن السبب، بل كان شعوري بتشنج عضلات جسدي. حرّكت جسدي على الفراش، فلامس ظهري الفراش بطريقة مباشرة، فشعرتُ ببرودته! هل بللتُ فراشي؟ لكن الأمر لم يكن كذلك بل إنه العرق الذي كان يتجمّع بين مفاصلي، وشكّل طبقة باردة على جبهتي. نهضتُ فلامس هواء الغرفة جسدي جاعلاً موجة باردة تسري في أطرافي بسرعة غريبة.

كلما أغمضتُ عيني في تلك الغرفة التي تعزلني عن الآخرين، رأيتُ الأمر كما لو أنّه ثلج يتساقط، ويشكّل طبقة رقيقة على الأرض. أردتُه بقوة، أردتُه مقابل أي شيء يمكنني تقديمه. كان ذلك وقت الإفطار، فخرجت إلى قاعة الطعام. قدموا لي أطباقي في صينية زرقاء مستطيلة، وعلى طاولتي لم يشاركني أحد. بل كان كل مريض يجلس وحيداً تقريباً.

راقبتُ أصناف الطعام القليلة، ولم تقوَ يدي على لمس أيٍّ منها. جزء مني كان يشعر بالجوع آنذاك، لكن لا رغبة لي في تناول أي شيء. ربّتَ أحدهم على كتفي، فرفعتُ رأسي مجفلاً، ثم قلتُ ما أن تعرفت على الشخص الواقف بجواري: "دكتور داروين".

"يمكنكَ أن تناديني براد، براد فقط". وافقتُ بحركة بسيطة من رأسي. فطلبَ مني برفق لم يعاملني أحد بما يشبهه منذ وقت طويل: "تناولْ طعامكَ، يجب عليكَ أن تفعل ذلك".

امتعضتُ قبل أن أقول: "لا أشعرُ برغبة في ذلك الآن".

ابتسمَ ثم قال: "من حسن الحظ أن هذا ليس سجناً، يمكنكَ أن تتناول طعامكَ في وقت لاحق إذاً.. عندما تشعر أنتَ برغبة في ذلك أخبر الممرضات، وإنْ تأخّرن عن فعل ذلك يجب علينا أن نفعل الأمر معك، لا يمكنكَ البقاء دون طعام فهذا جزء من العلاج، كما أن عليكَ الإكثار من شرب الماء، حتى وإنْ كُنتَ لا تشعر برغبة في ذلك". حاولتُ أن أحفظ نصائحه في ذهني، وأخذها على محمل الجد.

***

الوحدة هي كل شيء، رغم ذلك لم تكن الضوضاء تهدأ في رأسي. من دون أية صورة في خيالي كان الصوت يصل إلى ذهني وكأنَّ حشداً من الأشخاص يتحدَّثون في آن واحد. بدأت الصورة تظهر ببطء، ورحتُ أتخيَّل مشهداً لطريق محتشد بمئات الأشخاص الغرب، والذين لا يمكنني رؤية وجوههم، وإنما أنا أرى صورة جانبية من الأعلى لذلك الطريق. لم أحدد وقتَ ذلك، ولكن خيالي رسم ضوء الشمس وهو يبدأ بالخفوت، فبدأت اللحظة في وقت متأخِّر من العصر. كانوا يتحدّثون، وأصواتهم ترتفع. رغبتُ في تجاهل ذلك، ولكنّ ذلك الضجيج كان يتفاقم دون توقُّف. فتحتُ عيني في نهاية الأمر. فتحوّل العصر إلى صفحة ناصعة البياض، نظيفة، ورائحة غريبة لمكان لا يشبه أي منزل دخلتُه من قبل. أدركتُ بأنني هنا في المصح من جديد.

أردتُ أن أفعل ذلك مجدداً، كنتُ بحاجة للأمر.

ذلك المخدر مرة أخرى.

نهضتُ من مكاني بطريقة مفاجئة، وحاولتُ التقاط أنفاسي. أشعر بالخدر في الجزء العلوي من جسدي. انفجر الصداع بطريقة مفاجئة، وكأنّه نبض آخر في رأسي. حاولتُ أن أتنفّس ببطء، لكن العالم كان قد بدأ بالذبول حولي. خفتَ ضوء الشمس، وبدأ لون الجدران الأبيض الناصع يتحوّل إلى رمادي معتم. ضاق المكان عليّ دون مبرر، ورحت أحُثّ نفسي على التنفس ببطء، لكنني كنتُ عاجزاً عن فعل أيّ شي. أشعرُ بالقلق من كل شيء. وضعتُ يدي على عنقي، ورحتُ أضغط عليه، ثم أفلتُ عنقي لأسحب أكبر قدرٍ من الهواء. أخفضتُ يدي حتى صدري، لم أشعر بالنبض يصل إلى باطن كفّي، لكنّني شعرتُ به في داخلي. كان قلبي ينبض ببطء، حتى شعرتُ بأنّه سينام فجأة، وبذلك سأموت دون مبرر. رحتُ أتلفّتُ لأراقب المكان الخالي حولي. عاد الشعور بالبرد فجأة، فحاولتُ احتضان نفسي.

دخلت الممرضة محطمة تلك اللحظة المريعة، لكنها أجفلت ما أن رأتني نصف جالس في فراشي، أحدّق في الجدران. سألتني بقلق: "هل أنت بخير؟". توقفت خطواتها عن الحركة، وتركت مسافة فاصلة بيننا.

"لا". اعترفتُ لأنني ببساطة لم أكن بخير. "أنا بحاجة.." فركتُ وجهي بيدي، ثم مسحتُ أنفي الذي كان يسيل دون توقف، بظهر كفي: "أحتاج إلى.." لم أكن قوياً للاعتراف برغبتي في تلك اللحظة.

سألتني: "هل تحتاج للطبيب؟"

"لا". أجبتُ بغضب فاجأني أنا قبل أن يفاجئها هي. "أنا بحاجة للمخدر.. أجل بحاجة إلى ذلك".

نظرت إليّ بجزع، وأدركت بأنّ الجزء الحقيقي من العلاج قد بدأ الآن: "اهدأ، سيساعدكَ الطبيب". لم يساعدني ذلك الأمر الكاذب. بل حاولتُ النهوض، وأنا أطلب منها المخدر. آلمتني مفاصلُ قدميّ وكتفيّ أيضاً. لكن وقوفي ذلك لم يكن لأية غاية. تركتني الممرضة، ورحلت قبل أن تدرك ما فعلتُه. حاولتُ أن أفتح باب الغرفة، لكنها أقفلته ما أن رحلت. كيف لم أدرك هذا في تلك اللحظة؟ ضرب الباب بكفّي، وانفجر الغضب في قلبي فجأة، ولم أكن بمثل هذه الحالة منذ دقيقة واحدة.

صرختُ: "أخرجوني من هنا". لم يتأخّر الطبيب "براد" في فتح الباب

وفي العودة مع ممرضتين بدلاً من واحدة. وقبل أن يحاول صنع كذبة جديدة يقلّل فيها حدة ما أنا فيه قلتُ: "أحتاج إلى ذلك مجدداً". وضع كفه بطريقة دفاعية بيني وبينه، فصرختُ: "لا تقفْ هكذا، أنا بحاجة للمزيد!". لم ينفعل مع كلماتي، فرجوتُه: "براد، أرجوك.. أرجوك، يجب أن تحضر لي المزيد". ازدادت برودة الجو حولي لكنني كنتُ أتعرّق بغزارة.

"أنتَ هنا لتتخلص من ذلك السم، نحن لا نقدّم المزيد هنا. هيا تحلَّ بالقوة يا ليو".

"لا أستطيع" كررتُ الأمر صارخاً وبلهجة بطيئة: "لا أستطيع". تردَّد صدى الكلمة الأخيرة في المكان.

لم أجد في ذاكرتي بعد ذلك ما يجعلني أتذكّر الأمور التي تلت وصول الطبيب. استيقظتُ لأجد نفسي مُقيّداً في سريري، لكن قيودي لم تكن مشدودة بإحكام، بل كان يمكنني التخلص منها بنفسي. رفعتُ رأسي لأرى ظهر ذراعي المكشوف، فنبض الألم في كل أنحاء جسدي، دون أن يترك مساحة خالية يمكنني أن أوجّه تركيزي عليها؛ كي أنسى ألم بقية أجزاء جسدي. تشابكت أطراف الخطوط الداكنة المرسومة على ذراعي، فأدركتُ بأنني مصاب بندوب، كانت تؤكّد لي وجودها بإرسال شعور يشبه الوخز الحارق في يدي. ماذا حدث؟ كان هذا السؤال الأول في ذاكرتي، كنتُ بحاجة لاكتشاف الحدث الفاصل بين وصول الطبيب، وبين استيقاظي هنا. ارتخى جسدي من تلقاء نفسه، وحاولت طرد الأفكار؛ لأنني سأجد لها حتماً تفسيراً.

وصل الطبيب براد في النهاية، ودلف إلى غرفتي وحيداً، سار باندفاع حتى وصل إلى طرف السرير، ثم سحب أطراف الشريطين اللذين ثبّتا ذراعي. "لم يكن يجدر بالأمر، أن يصل إلى هذه المرحلة". لم أجد معنى لذلك، فقال: "أخبرتُكَ بأنّ مراحل العلاج ليست كلها سهلة. لكن أنتَ عليكَ المحاولة معي أيضاً، عليكَ أن تقبض على تلك الأفكار التي تسيطر عليكَ، أنتَ من عليه السيطرة عليها، وليس العكس".

سألتُه: "ما الذي حدث؟"

رد بدهشة: "ألا تتذكر؟" هزّ رأسه بتفهُّم، وهو يشيح بصره عني، ثم قال: "كانت نوبة عنف غريبة، حاولتَ الهجوم على كل شخص اقترب منكَ. أنا

أتفهّم حدوث هذه الأمور أحياناً، لكنكَ تبدو كشخص عاقل، سيحاول تمالك نفسه".

حاولتُ تفسير الأمر بطريقة لا تنتمي إليه: "لكنني لا أتذكّر". وكوني لا أتذكر لم يكن ليلغي ما حدث.

"يحدث هذا أيضاً، قد يفقد المريض بعض المشاهد من ذاكرته؛ لأنها تعاني من قلق مستمر". لم أكن أتفهم مدى ارتباط الأمور التي فسرها ببعضها، ولكنني على الأقل أثق بالطريقة التي يفكر بها؛ لأنه هو الطبيب، وأنا المريض في النهاية. ما قاله عن القلق كان حقيقياً، احتوى ذهني على شتى أنواع الصور، ما يتعلّق بوجودي هنا، وما كان بعيداً عن البقاء الموحش في هذا المركز. أردتُ الخروج، ولدت هذه الرحمة باكراً، وكان الجزء المؤلم هو إدراكي بأنني وصلتُ إلى هنا حديثاً، ومايزال هناك شوط طويل عليّ خوضُه قبل ترك هذا المكان. لم أدرك في تلك اللحظة أنّ رحلتي مع العلاج كانت ستحتوي على إخفاقات، ونجاح.. تكرار وتجاوز.

20

"لا أصدّق بأن هذا يحدث الآن". قالت كريستين، وهي تجلس أمامي مباشرة.

قلتُ: "علينا تجاوز مرحلة الدهشة هذه. أنا هنا بالفعل". كانت سعادته تذكرني دائماً بأنها المرحلة التي تلي الأمور الصعبة التي تخطيتُها. هذا يجعلها دائماً إشارة إلى الماضي، وهذا كان يشعرني بأن الأمر مايزال يطفو على بحيرة أفكاري. أردتُ التخلُّص من الماضي، بل مَحوه من ذاكرة الجميع.. وذاكرتي أنا أيضاً. لكنْ ببساطة لا يمكنني أن أمنع كريستين من التعبير عن سعادتها.

وضع النادل كوبي القهوة أمام كلٍّ منّا. جذبت كريستين كوبها نحوها، وتأمَّلت سطحه الداكن، قبل أن ترفع رأسها، وتسألني: "إذاً ماهي الخطة الآن؟" راحت تراقبني بصمت بينما هبّت نسمة فقدت برودتها؛ بسبب تسلُّط الشمس على الأرض، وحرّكت خصلة من مقدمة شعرها.

قلتُ معلقاً على كلامها: "الجميع يسأل عن الخطط القادمة".

فقالت بجدية: "الجميع هم أنا، وأمي فقط؟"

أجبتُ بخجل "أجل.." ابتسمتُ لعجزي عن إيجاد ما أقوله.

ردّت هي: "يجب أن يكون هناك خطة، حتماً يجب عليكَ فعل ذلك. أنت عدتَ الآن إلى هنا، ولأن هذا المكان هو ما تنتمي إليها، فهذا يجعلكَ تعود إلى الواقع بمعنى أقرب للمعاني التي تكون في الخيال، أو حتى في بقاع العالم التي تزورها لفترة مؤقتة. عليكَ التفكير فيما ستفعله؛ لأنكَ لن تجلس هكذا من دون أي هدف".

كان لكل كلمة تقولها رنين واضح في ذهني. ترددتُ قليلاً، وأنا أصدر أصواتاً تمثل بداية لكل كلمة، قبل أن أقول أخيراً: "في الوقع، لا أملك أية خطة". اعترفتُ.

"لكنّ أمي لديها.. على ما أعتقد".

رفعتُ رأسي إليها مندهشاً، ثم سألتُ: "حقاً؟" خرجت الكلمة بصوت حادّ،

وهي تحتوي على شعورين متضاربين، الأول كان خيبة؛ لأنني لستُ مستعداً. أما شعوري الآخر كان بسبب حماسي؛ لأنّ هذا يعني نوعاً ما عودة ثقة أمي بي.

"أعتقد ذلك يا ليو. يبدو أنّ أمي تتوقّع منكَ استلام مكتب والدي طالما لا يديره أحد".

"ولماذا لا يفعل أحد ذلك، وأين هو مدير المكتب الآن؟" شعرتُ أنني أبتعد عن النقطة الأساسية.

أعادتني كريستين إلى أساس الموضوع بطريقة ذكية قائلة: "هو في نهاية الأمر غريب، وقد يكون أكثر حرصاً منّا. أنا أدير عملي الخاصّ، ولدي عائلتي أيضاً. أما والدتي فهي تشعر بالعجز أكثر من قوتها للقيام بذلك. أنتَ هو الخيار الأمثل".

بصعوبة نطقتُ كلمتي الوحيدة: "لكن.."

"لا يوجد لكن. إننا نثقُ بأنكَ تستطيع صنع الأفضل للمكتب، ولنا أيضاً. أنا، أمي، وأنتَ كذلك". أخيراً رفعت فنجان قهوتها، وراحت ترشف القهوة بينما كانت تحاول النظر إليّ من خلال الجزء العلوي للفنجان. تذكّرتُ فنجان قهوتي أنا أيضاً، فحشرتُ إصبعي في مقبضه فجأة ثم رفعتُه إليّ. ساد الصمت فور ذلك، أنا أفكّر في مدى تطابق كلماتها مع ما أشعر به أنا، حيث كانت كريستين تفكّر في احتمالية نجاح كلماتها تلك.

***

أيقظني صوتها، كانت تقول كلمة ما، لكنني لم أفهمها.. بل إنني ما أن استيقظتُ في غرفتي في مركز العلاج حتى نسيت تلك الكلمة، ولم أستطع استرجاعها. لم يكن هناك من أحدٍ في الغرفة سواي، وذلك الصوت الأنثوي لم يكن مُنبعثاً إلّا من بين طيّات أفكاري، وربما كان تجديداً لذكرى عِشتُها سابقاً. نهضتُ من مكاني، وأنا فاقدٌ للشعور بالوقت، كنت أقضي في النوم ساعات طويلة، أحياناً أستيقظ لأجدَ أنّ الشمس ما زالت تبعثُ ضوءها عليّ، وتارة أخرى لا أجد سوى الظلام يحيط بالعالم كله. أنام كثيراً، وعندما أستعيد وعيي، أجده مصحوباً بصور ضبابية للأطباء وللممرضين الذين مرّوا بهذه الحجرة أثناء وجودي. كم مرّ على وجودي هنا؟ يوم.. اثنان.. أسبوع، بل كان

أكثر من ذلك. لا يتحد الوقت مع العمليات الحسابية، عندما تتلاشى مقومات الحياة التي تشكل المعاني الحياتية. رأيتُ الجداجد تقتحم الحجرة، ولا أعلم أين كان مصدر ذلك تحديداً. كانت تغطي الأرضية بلونها الداكن، وتحاول تسلُّق سريري. نظرتُ حول طيّات اللحاف التي كانت تبتلع جزءاً من الظلال، فوجدتُ أنَّ الجداجد قد تسلّقته بالفعل، كما أنَّ عدداً إضافياً منها يحاول كذلك التسلق إليّ. شعرتُ بحركتها على ظهري، فعدتُ إلى الخلف، وارتطمتُ بالجدار بقوة. بدأت الحشرات تسير على فخذي، وبعضها وصل بالفعل إلى يدي. قفزتُ من مكاني، وهبطتُ بقدمي على الأجزاء الفارغة على الأرض. حاولتُ أن أبعدها عني، ولكنها لم تكن تبتعد مهما فعلتُ. صرختُ صرخةً سريعة تلاشت فجأةً دون ترك صدى، وتلاشت معها كل الحشرات الموجودة.

خرجتُ من الحجرة متَّجهاً إلى الحديقة في الخارج، وهناكَ جلستُ وحيداً، تاركاً الشمس تلطم وجهي بقسوة، وبكل عجز بقيتُ جالساً أمام الحرارة التي تبعثُها على وجنتي. كنتُ أتأمل في المساحة الخضراء أمامي. في خيالي كانت أصوت عديدة ترتسم، وكنتُ أرى كل الأشخاص الذين أعرفهم يقفون في زوايا حديقة المركز يراقبونني وحدي.

ظهر الطبيب داروين وهو يهبط عتبات السلم الجانبي للحديقة، وفور هبوطه اتّجه نحوي. اعتدلتُ في جلستي، واستعدتُ تركيزي. سحب الكرسي المجاور لي؛ لأن الاتجاه المقابل لي لم يكن يحتوي على أيّ كرسي. جلس، وراح يراقب الجزء الفارغ من الحديقة، ثم قال: "لم تُشكِّل أية صداقات هنا".

قلتُ بسخرية: "لم يكن هذا ضمن مخططاتي هنا".

"لكنَّ ذلك قد يخفف عنكَ".

أجبتُ: "ليس هذا الأمر بيدي، يسير الوقت هنا، ولا أتمكّن من إنشاء أية رابطة بيني، وبين الموجودين هنا".

علّق هو: "أو أنّكَ لا تشعر بالاهتمام. أخشى أن يصيبكَ الشعور بالوحدة هنا بالإحباط أيضاً، وهذا ما يجب أن نتفاداه". لم أشعر بالاهتمام لذلك، ولم تنبعث فيّ الرغبة في التعرُّف إلى أي شخص هنا. أردت الوصول إلى اللحظة الأخيرة لكل ما يجري هنا. بدا لي أنَّ الأصعب من انتظار النهاية هو عدم إدراك المسافة التي تفصلني عنها.

كم سيطول بقائي هنا؟ إلى متى سيستمر هذا الانتظار؟

***

لا بد أن تتبخّر ذكريات الماضي؛ لأنني الآن جزء من الواقع. عدتُ إلى المنزل، لكنني لم أجد والدتي في أي مكان. شعرتُ بأنني تائهٌ بين جدران المنزل، لذلك فضّلتُ البقاء في حجرتي لما تبقى من المساء. كان برفقتي ثلاثة كتب استعرتُها من مكتبة والدي الصغيرة، والتي كانت تجاور غرفة نومه في الطابق الأول. لم أتصفّح الكتب، وإنما تركتُها على الطاولة الجانبية لسريري. سمعتُ طرقات ناعمة على الباب، وقبل أن أعطي الإذن لدخول الطارق، تحرّك الباب، ثم ظهرت والدتي راسمة على وجهها مسبقاً ابتسامة مبالغ بها.

"متى عدتَ؟" سألتني.

"لا أعلم تحديداً، لكنَّ بقائي هنا لن يدوم طويلاً".

"إنّنا نُعِدّ مائدة العشاء، هل ستشاركني، أم أنكَ تشعر بالتعب؟"

نهضتُ من فراشي وأنا أقول: "أعتقد بأننا سنهبط معاً". خرجت هي قبلي من حجرتي، وعندما تبعتُها سحبتُ الباب لأغلقه خلفي. هبطنا على السلم متجاورين وصولاً إلى الطابق الأرضي. في تلك اللحظة سألتُها: "لم تكوني هنا، عندما وصلتُ".

"لقد عدتُ منذ وقت قريب. كان لديّ بعض الأعمال لأنجزها، وأيضاً لا بدّ لي من المرور بمكتب والدكَ فالعمل هناك مايزال قائماً". كانت تتحدث كما لو أنني أمضيتُ سنوات عديدة بعيداً عن هذا المكان، رغم أن مدّة علاجي لم تتجاوز العام الواحد، بل كانت بضعة شهور فقط.

"لقد تحدّثنا أنا وكريستين في هذا الأمر".

نظرت إليّ بطريقة مفاجئة جعلتني أعتقد بأنني وشيتُ بشقيقتي. سألتني: "حقاً، وماذا قالت لكَ؟".

قلتُ وبصراحة تامة: "أعتقد بأنّ عمل والدي يحتاج إلى من يديره، طالما أنَّكِ أنتِ وكريستين لا تفعلان ذلك".

"وما رأيكَ أنتَ بهذا؟"

هبطنا متّجهَين إلى غرفة الطعام، ولم أجب على سؤالها، حتى جلسنا في أماكننا. "لا أعلم، في الواقع لم أفكر في هذا حتى الآن".

"أنا لا أعرض عليك شيئاً". أحرجتني إجابتها، لكنها تداركت الأمر قائلاً: "لا أعرض عليكَ ما هو لكَ. عمل والدك، وهو أيضا عملكَ. هذه مصلحتنا جميعاً، وعليكَ أنتَ الإشراف عليها دون سواكَ، لذلك أرى أن تنظر في هذا الأمر أكثر".

حركتُ رأسي موافقاً، ثم قلتُ: "أحتاج إلى المزيد من الوقت قبل خوض أي شيء جدّي".

"سأمهلكَ ما يكفي من الوقت، ولكن لا تتأخّر"، قالت مبتسمة، وبدت كما لو أنها تخاطب طفلاً صغيراً.

بعد أن تناولنا العشاء، تركتُ والدتي على المائدة، رغم أنّها لم تكن تتناول المزيد من الطعام. خرجتُ إلى الحديقة وبدأتُ أسير على الطريق المرصوف بين البقعتين الكبيرتين المعشوشبتين. كانت الحديقة خالية، ولا يوجد أي أثر لبول أو فريد. لا أعلم تحديداً كم قضيتُ من وقتي وأنا أسير هناك، ولكنني كنتُ أتحرّك تحت ظلال الأشجار دون هدف، بل تاركاً ذكرى والدي وصورته تسرقاني من الواقع. تمنيتُ في تلك اللحظة دون سواها أن يكون معي، كان بإمكاني أن أتخيّل شكل الحديث الذي سيدور بيني وبينه. لكنّ والدي لم يكن موجوداً، وكنتُ أنا وحدي من يقف هناك.

عدتُ إلى غرفتي رغم أن التعب لم ينل مني بعد. دسستُ جسدي تحت فراشي، ومنعني الظلام من مراقبة أية زاوية من غرفتي، ولكن ما أن اعتادت عيناي على الظلام مكتفية بضوء الليل المنبعث من النوافذ الكبيرة، حتى وقعت عيني من جديد على دمية روزالي. كانت الدمية الخشبية ذات الوجه البيضاوي الخالي من الملامح، ماتزال في مكانها تجلس باستمالة، كما لو أنّها تمنع نفسها من السقوط. سقط ضوء خارجي، على جانب رأس الدمية راسماً لها عيناً افتراضية ليست موجودة فعلياً. لكن هذه المرة لم تكن العين وحدها هي ما نشأ على ذلك الوجه الخالي. بل كانت هناك ابتسامة مضافة لم تكن موجودة بالأمس. كانت الدمية تراقبني مبتسمة بصمت.

"ها.. ها.." أتى صوت قهقة متقطعة "هل يمكنكَ أن تصبح صديقي؟"

أتت الجملة بنغمة سينمائية، بدت كما لو أنها جزء من أغنية ريفية أيضاً. توقفت حركة كل أجزاء جسدي للحظة، حتى تمكنتُ أخيراً من تحديد مصدر الصوت. كانت هي الدمية، لقد صدر الصوت عنها، رغم أن أحداً لم يكن بالقرب منها ليشدَّ الخيط الباعث للصوت في ظهرها.

21

بدا لي بأن أحدهم كان يتحدث، إلا أنني حين فتحتُ عيناي، لم أجد أي أحد، ولم أسمع سوى صوت حفيف فراشي. لم يكن ذلك إلا من بقايا أحلامي التي علقت في مخيلتي حتى وصولي إلى طرف الواقع، أما الآن فها أنا في الواقع من جديد. كنتُ أتحرّك تحت اللحاف دون وعيي مني، وفي النهاية وجدتُني وجهاً لوجه أنا ونافذتي العريضة، والتي كانت هي العامل الوحيد الذي كسر عتمة غرفتي. تسرّب بعض من الضوء الخارجي. كانت السماء صافية، ولا هواء يحرك أغصان الأشجار التي نمت قبالة نافذتي، أما الأضواء الضئيلة فكانت لامعة وصافية على الزجاج. تجاوز الوقت منتصف الليل بسويعات قليلة، وكان مايزال هناك قبل شروق الشمس وقتٌ كافٍ لأقضيه تحت نسيم المساء. لم يكن أمامي أي حلّ للعودة إلى النوم، مرّت دقائق قليلاً لكنها كفيلة بأن تعيد لجسدي نشاطه. وجدتُني بعد وقت قصير أرتدي ملابس الجري، وأتحرك بخطا سريعة أمام منازل الضاحية، وصولاً إلى الجرف المسدود المقابل للمدينة على الطرف الآخر.

تلك الصور كانت ترافقني مع كل خطوة تضرب فيها قدمي الأرض. صرخاتي، لحظات الغضب، والهذيان أيضاً. كنت أحثُّ نفسي على النسيان كثيراً، حتى أصبحت فكرة النسيان مملة ومبتذلة ومرتبطة بالآلام أيضاً. أدركتُ بأنني عاجز عن فعل ما أطلب من نفسي فعله، فلم يبقَ أمامي إلّا أنْ أترك نفسي تنجرف مع كل الأمور المحيطة بي.

إنّها لحظات الوحدة، هي ما كانت تجعل الأصوات التي في رأسي واضحة، ليس أمامي سوى التخلُّص منها. لكن هذا الهدوء يبدو لي مريحاً، وهذه العزلة كانت تتيح لي فرصة رؤية الأمور بوضوح مهما بدت قاسية عليّ. هل عليّ مواجهة هذا الخوف والتخلص منه الآن؟ لكنني لم أستعد قوتي من كبوتي الأخيرة بعد.

لم أبقَ عند حافة الجرف وقتاً طويلاً، بل استغرقتُ ما يكفيني كي أبقي صورة المدينة المضيئة أمامي وفي ذهني حتى زيارتي القادمة. عدتُ أدراجي، ولكنني لم أكن أجري بنفس السرعة؛ لأنني كنتُ منهكاً. أعدتُ سماعات الرأس إلى وضعيتها الثابتة في أذني، ثم رحتُ أسير في ذات الطريق الذي أتيتُ منه. هرولتُ على طول خط طويل خالٍ من المنازل، بل كان يجاورني

على جانب واحد حائط مدرستي الابتدائية. انعطفتُ مع نهاية الطريق، وكانت وجهتي هي زقاق ضيّق يفصل باحة الأشجار الصغيرة عن المدرسة. كان الزقاق غارقاً في الظلام أكثر من الشوارع قبل شروق الشمس. أردتُ عبور الزقاق، لولا أن جسد القط الذي ظهر أمامي استوقفني. كانت الموسيقى ماتزال ترنّ في أذني دون أن تأبه بما أشعر به، لكن ذلك القط كان يراقبني باكتراث. لم يُشِح بصره عني، وبعد مراقبتي له لثوانٍ قليلة أدركتُ بأنّ هناك خطب ما في صورة القط الأسود.. لقد كان ذلك هو لونه، وليس لون الظلال الهابطة عليه. اختفى نصف جسد القط في الجدار، ولم يظهر إلّا نصفه الأمامي ورأسه. كان القط يخترق الجدار، والطريقة التي أراه بها لا تنتمي للطبيعة أبداً. ارتجفت قدمي قبل أن تتراجع من تلقاء نفسها خطوة إلى الوراء. سحبتُ السماعة اليمنى عن رأسي، فأصبح صوت الموسيقى أقل وضوحاً، وهو يتخلّل رأسي من الجانب الأيسر فقط. سحبتُ السماعة الأخرى، فأصبحت الموسيقى عبارة عن صوت إيقاع بعيد يتكرر بانتظام، ويحاول كسر الهدوء الذي أحاط بي. لم أعبر خلال الزقاق، بل تجاوزته بخطا بطيئة، لا تُظهر خوفي، أو دهشتي. كان الطريق الذي سلكتُه أطول بمدة دقيقة واحدة فقط، ولكنه بدا لي طويلاً جداً خلال سيري فيه بمشاعري تلك.

حاولتُ أن أسرِّع حركة خطواتي قدميّ، ولكن سرعتي رغم ازديادها لم تكن كبيرة، ولم يكن ذهني حاضراً معي، بل إنه مايزال يحيي صورة نصف القط الذي كان يراقبني من خلال الجدار المعتم. ازدادت سرعتي، وظلّت السرعة تزداد مع كل شبر أقطعه، حتى أصبحتُ أجري بكل طاقتي. عدتُ إلى الطريق المؤدي إلى قلب الضاحية، حيث تقع المنازل الكبيرة.

اكتفى الشارع بضوء أعمدة الإنارة ليكون واضحاً أمامي، ولكن ضوءاً مفاجئاً اخترق المكان، ليثير استغرابي ففي وقت كهذا تكون حركة السيارات شبه معدومة في المنطقة. كان الضوء شديداً مسلَّطاً عليّ مباشرة مما يجعل ظلّ جسدي يظهر أمامي طويلاً على الأرض. استدرتُ لأرى صورة مظللة سوداء لسيارة ضخمة بعينين مضيئتين تبعثان هذا النور عليّ. كانت الشاحنة الضخمة تقترب مني ببطء، وتتجه نحوي بشكل مباشر. رحتُ أجري دون توقف، حتى قطع طريقي أول منعطف. غيرتُ اتجاهي مع ذلك المنطعف، واستأنفتُ الجري.

اختفت الشاحنة بنورها الشديد، ولم تعد موجودة خلفي. تباطأت خطواتي؛ بسبب التعب الذي أصابني، وشعرتُ بألم مفاجئ يقبض على ساقي. كان كل ما يهمني في تلك اللحظة، هو الشعور بالأمان الذي اعتراني فجأة. سرتُ بخطوات ثابتة على الطريق باحثاً عن أي منعطف آخر يعيدني إلى سبيلي الأول. ظهر الضوء خلفي مجدداً، كان بعيداً، ولكنه يقترب بسرعة أكبر هذه المرة.

لم تستعجل قدماي نشاطهما بعد، لذلك كان الجري أمراً صعباً في تلك اللحظة، ولكنني كنتُ أحثّ جسدي على الحركة رغم عجزي. اقترب المصباح مني، وكان يعمي بصري كلما أصبحت المسافة بيننا أقل. حاولت أن أبتعد بكل مافي قدميّ من قوة، لكنه كان يتبعني دون تعب مُصدِراً هديراً يشبه صوت وحش ضخم يتنفّس بغضب.

سلكتُ طريقاً مقوّساً، ورحتُ أجري بأقصى سرعة حتى اختفى المصباح لوهلة قصيرة، ثم عاود الظهور خلفي. سمعت صوتاً ذكورياً يصرخ: "توقّفْ". لكنني رفضتُ فعل ذلك. ثم طلب الصوت مرة أخرى مُرفِقاً كلماته بضربات غاضبة على صفحة حديدية: "توقّفْ، يوجد هنا حاويات ممتلئة".

توقفت خطواتي بينما كدتُ أنفجر بضحكة شفقة على نفسي. استدرتُ وراقبتُ الضوء الذي توقّف عن اللحاق بي. استجمعت تركيزي، فرأيتُ الصورة بطريقة أوضح. لم تكن تلك شاحنة جمع القمامة.

بحركة سريعة لم أغيّر خلالها من وضعية جسدي المستقيم، انزلقتُ تحت شلال الماء البارد. شعرتُ بجلدي يتشنّج للحظة، ثم بدا لي كما لو أن قوى خفية تشده حول جسدي كله. أغمضتُ عينيّ، ولم أدرك أن قبضتيّ كانتا مشدودتين، إلّا حين بدأ الألم يشتعل في رسغي. تركتُ الماء يشلّ كل محاولاتي للتفكير الذي لم يكن يهدأ، وعندما اعتاد جسدي على البرودة، بدأت الأفكار تتسلل مجدّداً إلى ذهني.

عندما خرجتُ من دورة المياه متّجهاً إلى ركن تغيير الملابس، وجدتُ دمية روزالي الخشبية راقدة على الأرض، رأسها ثابت بوضعية مائلة، تجعل وجه الدمية الخالي من الملامح مواجهاً للستارة المفتوحة، والتي أتاحت لي الفرصة لرؤية السماء، وهي تكتسي بلون كحلي يعلنُ عن قدوم الشمس. رفعتُ

الدمية عن الأرض فأصدرت صوتاً مفاجئاً: "ها أنتَ من جديد". قالت الدمية تلك الجملة بلهجة ساخرة، وكان من الغباء بعد سماعها أن أعتقد بأنّ الدمية تتحدّث إليّ.

وضعتُها على الرف حيث كانت قبل أن أجدها بطريقة لا تفسير لها على الأرض. انزلق ظهر الدمية، واستلقت على الصفحة الخشبية، لكنّ قدميها تدلّتا من فوق الحافة. "إنه أنتَ، إنه أنتَ، إنه أنتَ. هالالويا". بعث الصوت المنبعث منها مرة أخرى في نفسي بعض الطمأنينة. تبدّل شكّي حول الدمية مع بعض اليقين من كونها تعاني خللاً ما، وكانت هذه الفكرة أفضل، لكنها لم تُبعد عني التساؤل بشأن تغير مكان الدمية.

انقضت ساعات الصباح الأولى دون أن أنخرط خلالها في أي نشاط يُذكر، بل إنّني لا أذكر كيف مرّ الوقت حتى انتصفت الشمس في السماء. خرجتُ من المنزل مستقلّاً السيارة الأصغر، والتي كنتُ أتضايق من قيادتي لها، كلّما تذكّرتُ بأنّها لم تكن لي بل هي مستعارة لبعض الوقت. أدركتُ بأنني سأحتاج سيارة خاصة بي، وهذه الحاجة توصلني إلى حقيقة حاجتي للعمل.

قدتُ السيارة حتى الطريق الساحلي، وصولاً إلى الجانب الآخر من الشاطئ حيث شُيِّدت بعض المنتجعات في السنوات الأخير، كان لي صديق انتقل مع عائلته إلى شاليه صغير في منتجع تملكه والدته، كما أنه يدير مقهى شيّده بنفسه على الأرض التي تملكها عائلته. أوقفتُ السيارة أمام الرصيف حيث لم تكن هناك أية لافتة تعلن منع إيقاف المركبات. تركتُ الشمس تتوهّج على الزجاج الأمامي للسيارة، وترجّلتُ منها متجهاً إلى المقهى الذي يزيّن مدخله إطار خشبي، ولافتة تُضاء في المساء من خلال مصابيح صفراء متفرقة معلنةً اسم هاواي، وهو اسم هذا المقهى الصغير.

دفعتُ الباب وتوجهتُ إلى طرف الاستقبال عند الطاولة الخشبية الكبيرة. رمقني الشاب الذي كان يصفُّ زجاجات العصير بنظرة سريعة، ثم أحنى رأسه، ليضع اللمسة الأخيرة على صف الزجاجات. التفت إليّ معلناً: "مرحباً بكَ.."

استقبلتُ ترحيبه بابتسامة، ثم أعلنتُ: "سأشرب أي مشروب دافئ تفضّل تقديمه لي. لكن قبل ذلك، هل أجد تشارلي هنا؟".

"سيد وين، أعتقد بأنه في المخزن يتأكّد من وصول المؤونة، هل تريد

مني أنْ أتأكد؟ هل هناك أي خطب ما؟" كان الفضول بادياً على وجه الفتى المراهق، والذي كان في مرحلة متقدمة من مراهقته تكفيه ليبدو عقلانياً، وليكون كفوءاً هنا، وإلا لما كان تشارلي ليثق به.

"لا تقلقْ، ليس هناك أي خطب. إنني صديق قديم له. لم نتقابل منذ وقت طويل، وأود أن تكون رؤيتي بمثابة مفاجأة له".

لم يتقبَّل ما قلتُه في البداية، لكنه أجاب: "حسناً، سأفعل". خرجت الكلمات بصوت كان بالكاد مسموعاً، ثم اختفى تاركاً إيّاي وحدي في المكان. لكن غياب العامل لم يدُم طويلاً. عاد بعد ذلك وهو يشير خلفه، إشارة تدل على قدوم تشارلي. أعلن قلبي قلقه بنبضات واضحة، ولكنني لم أتمكن من العيش في لحظة الترقُّب طويلاً؛ لأن تشارلي ظهر قبل أن ينغلق الباب الذي فتحه الفتى. سحب تشارلي جسده الذي كان مايزال شاباً، وبكامل حيويته، ثم التفت لتِواجهني نظرته.

عقد حاجبيه في البداية، ثم أفلتَ ابتسامة مدفوعة بضحكة سريعة، هتف بصوت عالٍ: "ليو، إنه أنتَ حقاً!". اقترب فاتحاً ذراعيه، ولم يكن بحاجة إلى أن يجذبني إليه؛ لأنني فتحتُ ذراعيَّ محتضناً إيّاه بنفس القوة. أبعد جسده عني ليراني، ثم أردف: "لم أكن أعتقد بأنه أنتَ من كان يسأل عني... يا رجل لم نتقابل منذ وقت طويل!".

زممتُ شفتي، ثم حركتُ رأسي بطريقة لا تدلّ على أي معنى. سحبني وهو يتجه نحو الباب الزجاجي الموجود في الجانب الآخر من المكان. التفتَ وأمر الصبي: "أحضر لنا القهوة إلى الخارج". توزَّعت الطاولات في الردهة الخلفية للمكان، والتي كانت تطلّ على الشاطئ. سحب كرسيه، وطلب مني الجلوس قبالته.

قلتُ: "لم تتغير".

"أود أن أكون كذلك فعلاً".

نقّلتُ عينيَ بينه وبين الشاطئ وفي تلك اللحظة سرت موجة باردة إلى جسدي. "إنكَ كذلك بالفعل، لم تتغير".

"إنك تبدو ممتلئاً بالحيوية، ما الذي فعلتَه لتبدو هكذا".

ضحكتُ بصوت عالٍ، ثم بسطتُ كفي على الطاولة الخشبية الباردة، وأنا أقول: "يا رجل لا تُطلق عليّ مثل هذه الكذبة، إنني كهل الآن". إنه يعلم بما أصابني، ولكنني لم أكن متأكداً إن كان تشارلي مستعداً لعودتي في الإطار الذي صممه لحياته. تلاقت عيناي بعينه مجدداً، ورأيتُ لمعاناً يوحي بالترحيب أكثر منه رهبة.

"لم تخبرني بأنكَ عائد".

"لم أخبركَ بأنني راحل".

"أنتَ رحلتَ قبل أن ترحل" تاهت نظراتي، ولم أعرف إلى أين ينبغي عليَّ توجيهها. "كم مرّ على لقائنا الأخير؟ عامين؟"

أجبتُ دون رغبتي بذلك: "أقل.. بقليل".

"كنتُ أسمع أخبارك، وأحاول الاطمئنان بمختلف الطرق، ولكن مع سفركَ للعلاج، لم يبقَ أمامي أي سبيل. أنا لم ألتقِ بوالدتك حتى.."

قاطعتُه: "لستَ بحاجة لتبرير أي شيء. لم تكن بحاجة لفعل ذلك، رغم أنني كنتُ أعلم بأنك ستفعل حتى نفَسك الأخير. كان الخطأ كله خطئي، وكل وقت فيه أنا الذي اخترتُه". استجمعتُ جرأتي لأقول أخيراً: "أنا آسف لانقطاعي.. آسف أيضاً لكل ما حدث بشأن صداقتنا".

"صداقتنا لم تتغير يوماً، قد نكون ابتعدنا قليلاً، لكن مشاعري تجاهكَ، لم تتغير أبداً. خرج الفتى المراهق وهو يحمل كوبي قهوة، وكان توقيته مناسباً لسببين: الأول هو أن يقطع اللحظة الشاعرية التي كانت تشعرني بالذنب، والسبب الآخر هو أن يساعدني فنجان القهوة في الحصول على بعض الدفء.

22

صرخ صوت يشبه صوتي تماماً.. فاستيقظتُ.

كانت تلك نوبة عنف جديدة أصابتني، وهذا الصوت نابع عن شعوري بالعجز. تعجز الكلمات أحياناً عن التطابق بشعور لم يدرج تحت خانة المسميات، فلا يعود أمام المرء سوى الصوت للتعبير، دون أن يتكلّف عناء تشكيل ذلك الصوت إلى شيء مفهوم. لم تكن حاجتي هي سبب تدفُّق موجة العنف إليّ، بل إنها أفكاري. أُصِبتُ بالإحباط، وفقدتُ كل شعاع أمل يمكنني رؤيته. كان الصرح الذي يشبه العودة قد انهار أخيراً، وبدأت أفقد الأمل في كل شيء. لم أفقد وعيي آنذاك، ولم يحقنوني بالمهدئات رغماً عني؛ حتى أغيب عن الواقع المشوّه الذي أصنعه.

دخل الطبيب براد إلى الغرفة، ووصل في وقت لو تأخر عنه، لكان ثمة ضرر ما قد أصاب أحدهم. أمرني بالتزام الهدوء، ثم وضع ثقته بي، بطريقة جعلتني خجلاً من أن أخذله، فالتزمتُ الصمت. سحب كرسيه إلى منتصف الغرف، وجلس قبالتي. "ما الذي يحدث الآن يا ليو؟ لقد قطعتَ شوطاً كبيراً حتى الآن".

"لا أعلم". أجبتُ بتلك الكلمات التي تبسط معاني كل شيء أو تلغيها تماماً. "لا أعلم ما الذي يحدث معي، ولكنني لم أعد أتحلّى بالصبر بعد الآن، تلاشى هذا مني، ولم يعد في داخلي أي شيء". ضربتُ أضلعي بيدي، وقلتُ: "لم يعد هنا أي شعور أواسي نفسه به".

زفر براد، ثم قال: "يصيب الإحباط، من يظنّ بأنه سوي.. بل إنه يصيب من يحاول تجنيب الناس منه، فكيف أنتَ، وقد أحاطت بكَ هذه الأحوال الغريبة. لكننا لا نستسلم.."

قاطعته: "لا تستسلم لأنكَ تملك بالمقابل حياتكَ، التي تمدُّكَ بالصبر أمام كل ما تواجهه من صعوبات".

ابتسم وقال: "لكنكَ لا تعرف كيف تبدو حياتي في الواقع. بل إنّنا جميعاً نعتقد بأننا أقل حظاً ممن تجاوز ما يكفي من الصبر لديه؛ ليواجه عقبات حياته، لكننا في الواقع لا نعلم كم يخسر الإنسان بعد تجاوز كل عقبة. لكل حياة ظروفها، وبدلاً من الحكم على الآخرين، ابدأ بتقييم الأخطاء التي تحيط

بكَ، وحاول تغييرها".

"أريد أن أخرج من هنا". طلبتُ منه.

"ستخرج، حتماً ستُنهي علاجكَ، وستتجاوز الأمر، ثم تخرج". قال تلك الكلمات، وبدا لي بأنه يواسي طفلاً.

أغمضتُ عينيّ بقوة، ثم قلتُ بعد أن أرخيتُ جفني: "أريد الخروج الآن من هذه الغرفة". وافق فوراً، وعرض عليّ أن نتجول في المكان. أبعدني عن الحديقة؛ ظناً منه بأنني أملك خطّة أُخفيها عنه للهروب من المكان، ولكنني في الواقع لم أكن بحاجة للذهاب إلى الحديقة. خرجنا من الغرفة، ورحنا نسير في الممرات، ثم أبعدني عن أروقة حجرات المرضى إلى الرواق الفاصل بيننا وبين مكاتب الأطباء.

تحدّث براد، ولكن كلماته لم تكن بالنسبة لأذني إلا جزءاً أستطيع إهماله من المشهد برمته. استغرق في حديثه، ولم تعد عيناه تراقباني؛ لأنه أعطاني الثقة. في تلك اللحظة تمكّنتُ من الجري سابقاً الوقت الذي يملكه هو بعدة ثوانٍ سيستغرقها حتى يستوعب ما أفعله. فتحتُ النافذة الزجاجية المربعة، ومن دون أي تردّد، تركتُ ثقل جسدي ينتقل إلى الجهة الأمامية من جسدي لتجذبه الأرض، بينما هو يهوي من علو طابق واحد. من غير المنطقي القول: "إنني أدركُ بأنّ هذا السقوط سيقتلني"، ولكنني كنتُ أريد إمّا الموت ولو كان احتمال وصوله ضعيفاً، أو على الأقل عقاباً نفسياً لروحي، وإهداءها ما يبعدها عن الشعور بالذنب. لم تكن تلك اللحظة تاريخية بطيئة، تتيح لي رؤية شريط حياتي يعبر في خيالي. طالما أنَّ ذلك الشريط لم يعبر، إذنْ.. فنذير الموت لم يكن يوحي بدنوه مني.

مرّت اللحظة بسرعة، وبإرادتي استغرقتُ لحظة وصول جسدي إلى الأرض في تأمل خيال تريزا. أصبحت الأرض قريبة، بحيث لم أدرك بأنني بعد لحظة واحدة سأرتطم بها.

صرخ الصوت في ذهني فجعل رحلة نومي القصيرة تنتهي.

نظرتُ إلى الساعة فرأيتُ أن الوقت لم يتجاوز إلا ثلاث ساعات عن المرة الأخيرة التي نظرتُ فيها إلى ساعتي الرقمية. لا أنام كما أرجو دائماً أن أفعل، لكن هذا لم يشكّل أية معضلة أمامي. كان الوقت فائضاً بالنسبة لي، ولديّ

منه ما يكفي لأنام لاحقاً، أو لأن أبقى عالقاً في هذا الوقع.

زارتنا شقيقتي كريستين في مساء هذا اليوم، ولكن لم يكن ذلك بسبب رغبة أمي، وإنما كانت تلك إرادة شقيقتي. طلبت أمي ممن يعملون في المنزل إعداد مائدة، كانت تكفي لإطعام مايفوق ثلاثة بالغين وطفلة واحدة، لذلك طلبت أمي من الخدم توزيع جزء من الطعام بينهم، وتقديم جزء آخر لبول وفريد.

اختفت روزالي، بعد أن كانت بالكاد موجودة على المائدة. جلست كريستين بجواري بينما أنا اتخذتُ الطرف الآخر مكاناً لي لتصبحا جالستين أمامي. اقتحمت روزالي الغرفة، وبيدها دميتها الخشبية. كانت عيناي تتعقبان كفها القابض على الدمية، بينما راحت قدما الدمية تتحركان بحرية في الهواء كلما تحركت روزالي.

سألتها: "كيف وجدتِها؟" توقفت الطفلة عن الحركة، وسمَّرت وجهها باتجاهي وهي تُظهر علامات عدم استيعاب ما قلتُه.

أجابت والدتها: "كادت تجنُّ عندما فقدتها". ضحكت كريستين وحدها بكسل مما قالته، ثم أردفت: "لم تكفّ عن البكاء، حتى أتينا لها بواحدة جديدة". أردتُ أن أشرح لها كيف وجدتُ الدمية، لكنني لم أشأ تذكيرها بتلك الحادثة. طالما كانت الفتاة تملك دميتها الخاصة الآن، فلن يكون من الهام لها أن تعلم أين هي دميتها السابقة.

تذكرتُ الدمية، وكيف وجدتُها على الأرض، فراحت عيناي تراقبان النسخة المطابقة لها بين أصابع روزالي. بعث وجود تلك القطعة الخشبية، شعوراً غريباً في داخلي. نهضتُ من مكاني، وانسحبتُ بهدوء متجهاً إلى حجرتي.

عندما دخلتُ وجدت النافذة الطويلة مفتوحة، ولم يكن ضوء المساء المنبعث منها، يشبه ما كان يضفيه الزجاج قبل دخوله. بل كان ضوءاً رقيقاً وأكثر وضوحاً على الأرضية المقابلة للنافذة. تراقصت الطبقة الشفافة من الستائر أمام حاجزي النافذة. لم يكن منظر النافذة المفتوحة يثير فضولي؛ لأن هناك عدة تفسيرات محتملة لكونها مفتوحة.

ما أثار دهشتي هو عدم وجود الدمية الخشبية في مكانها مرة أخرى. خطر في ذهني أن تكون روزالي قد اقتحمت غرفتي وأخذتها، لكن كريستين أخبرتني بأنهم اشتروا لها دمية جديدة. أين ستكون تلك القديمة إذاً؟! تركتُ غرفتي

دون أن أكترث لوضعية الباب بعد خروجي. سرتُ بخطوات حاولتُ إحكامها إلى الطابق الأرضي، وما أن هبطت حتى ظهرت روزالي وحيدة هذه المرة تسير أمامي.

ناديتُ الطفلة: "مهلاً". توقفت وراقبتني بدهشة، فهي ماتزال تعتاد على وجودي بعد هذا الغياب. "روزالي.. تلك الدمية... من أي مكان اشتريتموها".

عقدت الطفلة حاجبيها، وهي تقول بفخر لأنها تعلم ما لا أعلمه أنا: "من متجر الألعاب".

"أجل". لم يكن يجدر بي إظهار ذكائي أمامها، فقلت: "حقاً؟ وأي متجر كان ذاك؟".

أجابت الطفلة: "المتجر القريب من منزلنا".

"متى فعلتُم هذا إذا؟"

لم تفلح لهجتي المرحة؛ لأن الطفلة أظهرت نفاد صبرها، وقالت بينما كانت تبتعد: "اليوم... فعلنا هذا اليوم". سارت بخطوات قافزة، حتى اختفت عن ناظري تماماً.

23

للظلام أعين، وللجدران كذلك. انتشرت تلك الأعين البيضاء في كل بقعة وقعت عليها الظلال.

ارتسمت أسفل السرير، وكان بياضها ناصعاً، يجعلها تبعثُ ما يشبه الضوء، في البداية لم تكن ترمش، بل كانت تحدِّق في كل اتجاه زُرِعت أمامه. كان الرجل يرقد في فراشه، ولم يدرك بأنّ كل ما حوله كان يراقبه. كانت تلك الساعات القليلة مليئة بالمشاعر السرية التي تعطي الآخرين حريتهم. بزغت الأعين الصغيرة على السقف، وراحت تراقب الرجل الراقد بهدوء.

تحت صفحة السرير الكبيرة، كانت الدمية الخشبية ترقد متوسِّدة الظلال والعتمة. لم يكن لوجه الدمية أية ملامح، لكن عيناً واحدة صغيرة جداً بحجم ذبابة، بدأت تنخر الوجه الخشبي للدمية لتنبعث إلى السطح، ومن ثمَّ تبدأ بالمراقبة هي أيضاً.

الأرق والموت

24

بطريقة ما لم تكن خارقة للطبيعة، كان لدى سريزا إحساس غريب بأن كل ما تتعلق هي به لا يدوم، ولن تندهش إن رحل كل شيء ينتمي إليها. لذلك عندما أخبروها بأن والدتها ماتت لم تندهش، بل أصابها الحزن فوراً، والحيرة كذلك. تركت والدتها قبل يوم واحد، ولم يبدُ عليها أي مرض.

أما الدهشة، فكان لها أوانها.

انتحرت والدتها، وهذا كان المنعطف الفاصل في حكاية الجنون، والهذيان المحيطين بها منذ سنوات طويلة. لم تظهر والدتها أية ميول انتحارية مسبقاً بل كانت تلك الأفكار أقرب إلى ذهن سريزا الفارغ، والمليء بالوحدة، أما والدتها فكان حزنها على فقدان ابنتها يواسيها، ويبقيها في الحياة ليوم آخر حزين. لماذا ترحل الآن، وتنهي كل تلك المعاناة التي كانت تعيشها بدلاً من سريزا. ما تزال الفتاة شابة لتواجه حكايات الماضي، والحاضر وحدها. كان عزاؤها هو أن والدتها تعيش في حيرة التساؤلات بدلاً عنها، لماذا عليها الآن أن تتحمل غموض والدتها، وشقيقتها جوليان.. وغموض الحياة أيضاً.

لم يصب وجه والدتها أي أذى واضح. ليست هناك إلا بضعة خدوش تسبب بها وقوعها على الأرض القاسية، وقدم تم إخفاء الأثر بواسطة مساحيق التجميل، وإسدال خصلة من شعرها عليها. أما الأجزاء المحطمة في جسدها، فقط كانت مستورة تحت ردائها الأبيض ذي الأكمام الطويلة. راقبت سريزا والدتها التي تستلقي داخل التابوت المفتوح، وأرادت أن تصرخ فيها غضباً؛ لأنها رحلت تاركة غيمة سوداء هي الأخرى. أي لعنة حلّت على تلك العائلة؟ وإن كانت هذه لعنة، فمتى سيحين دور سريزا لتعيش دورها هي أيضاً.

لم يحضر إلى تأبين والدتها سوى عديد قليل من النساء. صديقتان قديمتان لوالدتها، وخالتها، ونساء آخريات لم يكن لهن أي دور هام في حياة العائلة. دفنت والدتها وفي تلك اللحظة لم تعد قادرة على التماسك أكثر. كان من حسن حظها أثناء الدفن أن خالتها دوروثي كانت قريبة منها تحثها على التماسك كلما شعرت بأنها ستفقد السيطرة على نفسها.

عادت إلى المنزل، الذي مكثت فيه وحدها طويلاً، ولكنها الآن أصبحت متيقنة من أن خلوتها لن يملأها شيء مرة أخرى. كانت فكرة وجود والدتها تخفف عنها أحياناً، واحتمال تركها لمركز الرعاية، والعودة إلى المنزل كان احتمالاً وارداً أيضاً. لكن سريزا الآن ستبقى وحيدة وهذا المنزل أصبح يخصها وحدها بكل مافيه من أشباح، وأطياف الماضي. أصبح خيالها أكثر سوداوية الآن، وكان يخيّل لها أنَّ والدتها وشقيقتها في الطابق العلوي تتحركان.

عادت خالتها دوروثي معها إلى المنزل، وجلستا سوياً في صمت حتى يتسنى لهما تقبُّل اللحظة بشعور شخصي أكثر من أداء واجبهما تجاه شخص ميت. عرضت عليها خالتها: "سأبقى معكِ هنا".

قبضت سريزا على ذراعي المرأة المتشابكان، ونهتها قائلة: "ليس عليكِ فعل ذلك، كنتُ وحدي مسبقاً، ولن يتغير بالنسبة لي وضع المنزل الآن".

"لكنكِ الآن حزينة". فكرت سريزا في أنها كانت كذلك من قبل لكن أحداً لم يعرف.

"أستطيع تدبر أموري صدقيني". لكن خالتها قررت البقاء رغم رفض سريزا لذلك. لم تعترض الفتاة طويلاً على ذلك؛ لأن جانباً منها أراد وجود أي شخص آخر معها، ورفقة خالتها الآن ستكون حلاً مناسباً.

"سأذهب إلى منزلي لإحضار ما يلزمني، وسأمكث في حجرة والدتك". وافقت سريزا على ذلك، وأثناء رحيل دوروثي، كانت ستصعد إلى غرفة والدتها، وتعيد تنظيمها لتكون صالحة لمكوث دوروثي فيها. رحلت دوروثي دون أن تخبر سريزا بذلك، اختفت فجأة ولم تشعر سريزا بذلك؛ لأنها كانت في الطابق العلوي، تسحب ملاءات والدتها القديمة، وتستبدلها بأخرى نظيفة، فتحت نافذة الحجرة لتسمح بدخول هواء جديد. تفادت النظر إلى الرف الموجود فوق خزانة الحلي الخاصة بوالدتها. كان الرف مليئاً بصور جوليان، وبعض الصور لها، وصورة كبيرة لزفاف والدتها. مرّت عيناها على صورة والدها من غير اهتمام؛ لأنه رحل منذ وقت طويل، وأصبح ينتمي إلى الحزن الباهت، أما والدتها فقد كانت جرحاً عميقاً، تم فتحه من جديد، وهاهو ينزف الآن مرة أخرى.

حملت سريزا الصورة، وقالت بصوت مسموع: "لماذا؟ لماذا فعلتِ بي

هذا؟" لم تكن تقصد الانتحار فقط، بل كانت تقصد كل الأيام التي عاشتها مع والدتها، قلة المشاعر التي استقبلتها منها، التفريق بينها، وبين جوليان، وأخيراً الهروب دون الاكتراث بوجود سريزا في هذا العالم الفارغ.

سمعت صوت عجلات سيارة تتسلق الرصيف الأمامي لمنزلها. أطلت برأسها من خلال النافذة، فرأت سيارة خالتها دوروثي تُركن. لم تعلم سريزا كم قضت من الوقت في حجرة والدتها، لكنها لمحت السماء تكتسي بلونٍ برتقالي. رأت خالتها تسير حاملة حقائب صغيرة، ثم اختفت تحت حاجر الباب حيث المصباح الأمامي للمنزل. خرجت من غرفة والدتها متّجهة إلى السلم، فسمعت صوت دوروثي ينادي: "سريزا، لقد عُدت". هبطت إلى الطابق السفلي فرأت دوروثي تحمل كيساً بلاستيكياً وتسير به إلى المطبخ. "أحضرتُ معي بعض الطعام، لم نتناول أي شيء منذ الصباح". صمتت، ثم سألت بصوت عالٍ: "أم أنكِ فعلتِ في غيابي؟".

"لا، لم أتناول شيئاً حتى الآن". في تلك اللحظة توجه انتباه الفتاة إلى شعورها بالجوع، الذي لم تكن منتبهة له قبل ذلك.

أمرتها دوروثي: "أعدّي المائدة ريثما أُخرج الطعام... إنه مايزال ساخناً". لم تكن سريزا تعلم ماهو نوع الطعام الموجود في الأكياس، لكنها كانت مستعدة لتناول أي طعام موجود. أعدت المائدة الصغيرة، وبينما كانت تفعل ذلك، دخلت دوروثي حاملة علب الطعام، وقامت بتفريغها في الأطباق السيراميكية البيضاء.

"هل هذا كل شيء؟ أسبوع واحد فقط". سألت دوروثي بينما كانت عيناها معلقتين على شاشة التلفاز، وجهاز التحكم مايزال موجهاً بشكل مستقيم إلى الشاشة، التي كان لون الإضاءة فيها يتغير مع كل ضغطة زر. أدارت عينيها باتجاه سريزا، التي سيطر عليها الخمول، وجعلها تتكئ على ذراع الأريكة العريض بتكاسل.

"أسبوع واحد، هذا ما يناله الموظف عندما يفقد شخصاً قريباً من الدرجة الأولى. ثم إنّ رحيل والدتي ليست غلطتهم هم". ارتخى خدّ سريزا على ظهر كفها، وراحت تراقب الشاشة ببلاهة.

ردت دوروثي: "لم يكن خطأ أحد حتى، ولكن هذا الأمر يستحق بعض

الإنسانية منهم".

"بل كان خطأها، وليسوا مجبرين على التعامل بإنسانية معي في مثل هذا الظرف. أنا لا أعلم كيف سأواجههم هناك، وبأية كلمات سأرد على عبارات المواساة الكاذبة التي سيقولونها لي، وهم لا يعنونها؛ لأن ما حدث لم يسرق أمي مني، بل هي اختارت الرحيل".

راقب دوروثي وجه سريزا الكسول بعدم تصديق، ثم قالت: "لا تقولي مثل هذه الأشياء".

قاطعتها سريزا: "لماذا؟ لأنها الحقيقة؟"

"بل لأن من تتحدثين عنها هي والدتكِ".

سألتها سريزا وقد استعادت بعض النشاط: "أم لأنها شقيقتكِ؟"

"لأنها كلاهما. لا تتحدثي عنها بهذه الطريقة؛ لأنك فقد لا تعلمين أية أفكار كانت تسيطر على عقلها دائماً. ما مررتم خلاله لم يكن سهلاً، بل لم يتركِ كما كنتِ سابقاً، فكيف ستتصرف وهي ترى أنها كمن فقدَ السيطرة على الأمور كلها، ورأى حياته تتحطم أمامه؟!".

"وحياتي أنا.. ألم تتحطم أمامي؟"

ردّت دوروثي: "هذا يجعلكِ تتفهمين مشاعرها، لا أن تغضبي منها".

"لكنني لم أنتحر". قالت سريزا.

فأجابت دوروثي فوراً: "لأنكِ قوية، أمّا هي فلا". رمت دوروثي جهاز التحكم بجوارها، ونهضت من مكانها قائلة: "سأخلد إلى النوم. لا تسهري طويلاً، وأزيحي تلك الأفكار عن ذهنكِ يا عزيزتي، فلن تؤذي شخصاً سواكِ، ولن تعيد ما مضى أو حتى تغيره". هزّت سريزا رأسها موافقة بتكاسل، وانتظرت حتى يختفي وقع خطوات خالتها، حتى تطلق العنان لحزنها، وتترك عيناها تدمعان، فيصبح ضوء الشاشة التي أمامها، مجرد وهج أبيض ضبابي.

"سر..يزا" همس صوت ما، فالتفتت الفتاة لتبحث عن مصدر الصوت، فرأت ظلّاً يتحرك في العتمة القابعة في الممر الفاصل بين المطبخ وغرفة الطعام. تحرّك الجسد الذي يصدر ذلك الصوت. ظهرت جوليان أمامها

وشعرها الأشقر مجعد ولامع بعد أن تجمع العرق بين فراغاته. كانت تتحرك بسلاسة مع الهواء، فحاولت سريزا أن تركّز نظرها على قدمي الفتاة فكانتا غير واضحتين؛ بسبب غيمة ضبابية تغطيهما. نهضت من مكانها مبتعدة عن طيف شقيقتها، وهي تتمتم بأحرف غير مفهومة.

"أمي.. لم تأتِ بعد". أصبحت قدما جوليان واضحتين. كانتا ترتفعان مسافة شبر واحد عن الأرض، أمّا أصابع قدميها فكانت مشدودة إلى الأسف، وعروق الدم تظهر واضحة تحت جلدها الرقيق.

"لكن.. والدتنا رحلت". ظهرت أعين فارغة كثيرة في الممر المظلم، وبدأت تنتشر حتى وصلت إلى جدران غرفة المعيشة.

أعادت سريزا بصرها إلى جوليان التي كانت تقترب بجسدها المرتفع عن الأرض. كانت عيناها قد تحولتا إلى كرات زجاجية بيضاء فارغة. قالت جوليان: "أنـ..ام". وراحت تقترب بينما سقطت إحدى عينيها من محجرها تاركة فراغاً أسود في مكانها. سقطت العين الكروية على الأرض فتهشمت مخلّفة غباراً لامعاً على الأرض. غطّت جوليان عينها الفارغة بيدها، ثم أخفضت كفها، لتُظهِر عيناً جديدة بقرنية صفراء، انشطرت ببطء إلى اثنين.

كررت سريزة بصيغة سؤال: "أنام؟"

"لا أنام.. لا أنام.." راحت جوليان تكرر تلك العبارة، والأعين التي في الجدران تتحرك في كل الزوايا بقلق.

استيقظت سريزا على صوت شهقتها. فوجدت نفسها تجلس في غرفة المعيشة وحيدة، ولم تكن هناك أية عين مطبوعة على الجدران، كما أن الممر المعتم لم يُظهر جسد جوليان. خافت من أن تبقى في هذا المكان الذي يحمل زوايا منامها بشكل واضح. أطفأت شاشة التلفاز، وصعدت إلى حجرتها.

مرت بجوار باب حجرة جوليان المغلق، وراقبته بينما لم تتوقف وهي تعبر أمامه. دخلت إلى غرفتها، وأغلقت الباب معتقدة بأنها حصلت على كل الأمان الذي تحتاجه هنا. انسلّت إلى فراشها، وجذبت اللحاف حول جسدها، وحاولت طرد الصور الخيالية مذكرة نفسها بأن هناك خطّاً يفصل الخيال الذي يصنعه عقلها، عن الواقع الذي يحمل الأمور المنطقية والطبيعية.

أما حجرة جوليان المغلقة منذ وقت طويل، فكانت الأعين اللوزية، والدائرية أيضاً قد زُرِعت في كل جدرانها، وعلى الأرض والسقف أيضاً. كانت قرنيات تلك الأعين تتحرّك دون توقُّف كأنما تبحث عن شيء ما في ذلك المكان الخالي. لم يكن لذلك أي صوت واضح، وإنما كل ما يتطلبه الأمر كان فراغاً منسياً سقط من ذاكرة الآخرين. تلك الأعين مطبوعة في كل زواية، بل وتحت سرير جوليان الذي يحمل الآن رائحة اللحاف المغبرّ. حتى خلف خزانتها كانت هناك عين كبيرة لم يكن لوجودها أية فائدة، وأسفل الطاولتين الجانبيتين للفراش، كان هناك أزواج من الأعين الصغيرة تتحرك دون توقف مع كل ثانية تمضي.

25

تسرب شعاع أزرق هرب من الشمس مع لحظات شروقها الأولى، ليخترق نافذة سريزا التي ترقد مصحوبة بالخوف، الذي كان آخر ما رافقها وهي تستسلم للنوم. استيقظت شاهقة، لكنها لا تتذكر منامها تحديداً. شعرت بنبضات قلبها سريعة، وجالت عيناها في زوايا الغرفة المعتمة لترى ما الذي تسبب لها بهذه المفاجئة، فلم تجد أي شيء. كان زجاج النافذة يشع بنور خافت يشعل الزجاج بالضوء، ولكنه لم يغير من ظلام الحجرة أي شيء. ما فعله هذا النوم، هو لا شيء أكثر من بعث بعض الراحة في قلب سريزا. تدريجياً خلال الهدوء بدأت تودع تلك الرهبة العابرة، وتعود إلى هدوئها المعتاد. عادت لها الذاكرة ببطء، وتذكّرت بأنها رأت في منامها طيفاً أنثوياً، ميّزت ذلك من خلال الشعر الذي يتطاير ليغطي الرأس، لكنها لم تتعرف على ملامح الوجه، ولا تدرك إن كانت تلك التي في منامها، هي جوليان أم والدتها، أو قد تكون امرأة أخرى لا تعرفها. لن تسمح الآن لهذه الصورة العابرة، والتي صنعها خيال ممزوج بشعور خاطئ، أن تعكر لحظتها هذه، فهي في النهاية تملك من الحزن ما يكفي، ولا تريد إضافة هذا الوهم عليه.

دبّت خطوات بعيدة على الأرضي الخشبية باتجاه حجرة والدتها، فأبعدت لحافها عنها، وخرجت متجهة إلى مصدر الصوت حيث كانت دوروثي. وجدت باب حجرة والدتها مغلقاً، فاندفعت لتفتحه بعد أن طرقت عليه بنعومة مرتين متتاليتين. اندفع الظلام من الفسحة المكشوفة عبر الباب، ورأت الحلافَ مُكوَّماً فوق السرير، ورأساً مغطى بالشعر يبرز فوق الوسادة. للحظة ظنّت في أن من ترقد هناك هي والدتها، لكنها في الواقع لم تكن سوى دوروثي. كانت نائمة بحيث لم تشعر بسريزا وهي تفتح الباب، بل ولم تسمع الطرق عليه. فكرت سريزا، في الصوت مرة أخرى، وإذا كانت دوروثي نائمة، فخطوات مَن تلك التي كانت تدب على الممر الفاصل بين غرفتها، وغرفة والدتها؟ تجاهلت الأمر، وهبطت إلى الطابق السفلي، وخرجت إلى الحديقة الخلفية، والتي لم يكن فيها ما يعبر عن كونها حديقة. لم تكن أكثر من عشب يغطي الأرض، مسيّج بسور خشبي قصير، ومتهالك. جلست على كرسي خشي صغير، كان الطلاء البني الذي يغطيه قد تقشر باعثاً لون الخشب الأصلي، على بعض الزوايا في الكرسي. لاحظت سريزا أنه رغم النور الأزرق المنبعث من السماء،

إلا أن الغيوم كانت تحارب لتحتل الصفحة الزرقاء. تقدمت ساعة بزوغ الفجر، ومايزال الضوء ينبعث بخفوت من السماء. وأتاها في تلك اللحظة خيال والدتها، هل هي الآن في السماء؟ هل ستكون برفقة جوليان؟ ثم عبرت الفكرة الأصعب، وهي أن والدتها قد انتحرت، ولن تجد الفرصة الآن لرؤية جوليان؛ لأنها ستذهب إلى الجحيم. اعتصرت الصورة الخيالية للنيران قلبها، لم تتصور أن تقاسي والدتها المعاناة هنا، وهناك أيضاً. رجت الله في سرها ألّا يجعلها تعبر خلال هذا، وأن يصفح عمّا قامت به. قد لا تكون والدتها بكامل قواها العقلية، وما فعلته لم يكن بملء إرادتها أو حتى باختيارها، وهذا هو العزاء الوحيد في الحدث المؤلم.

أما جوليان التي فقدت سنوات عديدة من حياتها، وهي تعيش حبيسة جسد لا تتحكم به، أين ستكون الآن؟ هل هي تعاقب على كل الأشياء الشريرة التي فعلتها أثناء مراهقتها؟ أم أنها كفّرت عن ذلك أثناء ما أصابها خلال السنوات الأربع عشرة الأخيرة؟ كانت سريزا صغيرة، ورغم أنها كانت على مشارف دخول عقدها الثاني، إلا أنها كانت تملك ما يكفي من الوعي لكي تدرك غرور شقيقتها الكبرى، وأنانيتها. في تلك الأثناء كانت جوليان تنتقل من مرحلة الطفولة إلى المراهقة، لكنها لم تعتق سريزا من أنانيتها. كانت جوليان قد تجاوزت سن الاستمتاع بالدمى البلاستيكية، إلا أنها كانت تجد المتعة، في مشاركة سريزا اللعب في دماها، وتحطيمها، وغالباً ما كانت تنتهي لحظات اللهو في ملاحظة إن كانت ساق، أو زراع إحدى الدمى مفقودة. أما عندما تكون جوليان في مزاج سيء، كانت تلقي باللوم في ذلك على سريزا، وتطلب من والدتها أن تحكم في هذا الأمر بعد أن تتهم سريزا بأنها هي من حطمت الدمى.

وما أن وصلت إلى مرحلة متقدمة من مراهقتها، وبدأت معالم الشباب تظهر على محياها، اكتست جوليان بالجمال، وكانت مدعاة لفخر والدتها. كانت ذكية، تتقن التصرُّف في أمور حياتها، وكذلك في دراستها. لكن أنانيتها لم تتغير، بل توسعت تلك الدائرة لتشمل أفكارها الشريرة حتى صديقاتها، كانت تختار صديقات على حسب المؤهلات التي تحتاجها هي، وتقيّم معظمهن بحسب الشكل، أو المستوى المعيشي، وتحاول في الخفاء دائماً أن تحظى بما يحظين به مستغلة مهاراتها.

لكن كل تلك الأمور تغيرت في يوم واحد. يوم ترك تأثيره ينمو ببطء في أفكار جوليان. في كل نهاية أسبوع تجتمع جوليان بصديقاتها في منزل إحداهن، ففي بلدة صغيرة كالتي يعشن فيها، لا يوجد الكثير ليقمن به سوى ذلك، أما النشاطات الكبيرة فقد كانت تنتظر حتى عطل الصيف. أما في نهاية الأسبوع تلك كان الاختيار قد وقع على جوليان، وتم ترتيب ذلك في المدرسة. لم تعترض جوليان، ولا تعترض عادة على أوقات المرح.

لم تكن جوليان تسمح لسريزا بالبقاء معهن، وعندما كانت سريزا تعترض على ذلك، أو تطلب من والدتها التدخل، وفرضها على الفتيات، كانت تعترض قائلة: "لا يجب أن تجلسي مع الفتيات، فأنتِ ما تزالين طفلة". كانت سريزا في تلك الأثناء تقضي وقتها إما مع بعض الأصدقاء في أرجاء البلدة دون أن تبتعد عن منزلها، أو في القراءة. لكنها لا تمنع نفسها من التجسس على الفتيات عندما تحين ساعة الذروة، ويتناسين وجودها في المنزل. لم يكن يعجبها ما يفعلنه، لكنها فكرة التحدي التي تجعلها فخورة في تجاوزها حدود اللباقة مع والدتها وشقيقتها.

كانت جوليان هي الفتاة الخامسة بين مجموعة الفتيات، وكن يجلسن في الشرفة الخلفية محتشدات حول الطاولة الخشبية الصغيرة. جلست سريزا تحت نافذة المطبخ مكتفية بمنظر ظهور ثلاثة من الفتيات اللائي حجبن الرؤية عنها، وبالاستماع إلى حديثهن أيضاً. سحبت إحداهن صندوقَ ورق مقوى مستطيلاً ونحيلاً، قائلة: "هاهي المفاجئة".

فردت إحداهن، لم تكن سريزا متأكدة من أنها شقيقتها أم لا: "ما هذا؟ أهذا هو ما حدثتني عنه في المدرسة".

"أجل سيتيح لنا هذا اللوح تجربة التواصل مع آخرين لا ينتمون إلى عالمنا".

ردت أخرى: "أو قد ينتمون إلى عالمنا، لكنهم رحلوا عنه. هذا ما سمعته عن هذا اللوح مسبقاً، إنه يتيح لمن يستخدمه فرصة التواصل مع الأشباح، أو أرواح من كانوا يعيشون من قبل لكنهم فارقوا الحياة". كان الحديث يسرق كل تركيز سريزا التي لم تعد تبالي في كونها مكشوفة لهن أم لا. رفعت الفتاة قدميها لتطل أكثر من خلال النافذة، لكنها رغم ذلك، لم تتمكن من رؤية شكل اللوح الذي كنَّ يتحدثن عنه.

ردت جوليان: "هذا كله هراء، لا يمكن التواصل مع الموتى، وإلا لكان كل من فقد إنسان يحبه فعل ذلك من خلال هذا اللوح، ولما كنا قد وجدنا الفرصة لشرائه؛ لأنَّ سعره حينها سيكون مقدراً بالملايين".

"وما الضير في التجربة؟". كان هذا صوت صاحبة المفاجئة.

عمّ صمت مفاجئ، جعل اللحظة تمضي ببطء. راقبت سريزا حشد الفتيات والتشويق يندفع مرفقاً ببعض الخوف، والنبضات التي تتسارع شيئاً فشيئاً. بدأت إحداهن بالشرح: "سنضع أطراف أصابعنا على هذا اللوح، ونقوم بدعوة الروح التي ستلعب معنا هذه اللعبة، ثم سنطرح السؤال الذي نريد. هل أنتن مستعدات؟".

أعربن عن استعدادهن بصمت.

ثم قالت إحداهن: "نحن ندعوكَ للعب معنا، فهيا احضُر". وبدأت الأيادي تتحرك فوق المثلث الخشبي مشكلة دوائر مترافقة مع صوت احتكاك. لم تفهم سريزا من هو المدعو للعب، ولا تحفزها الطبيعة التي عاشت فيها، على تصديق أن هناك من سيلبي هذا النداء، ويأتي للعب معهن الآن. لكن لم يمنعها من الانتظار أي شيء.

هتفت إحدى الفتيات برجاء: "هيا.." ثم ساد صمت قصير قبل أن تسأل: "هل أنتَ هنا الآن؟" لم يتغير أي شيء. ازداد سكون الليل، وعتمته أيضاً بالنسبة لسريزا الجالسة خلف النافذة المربعة الصغيرة. ثم تحركت أيدي الفتيات، وصوت الاحتكاك كان هو الإنذار الذي ينبه سريزا.

سألت جوليان: "من يفعل هذا؟"

قالت إحداهن: "لستُ أنا". فكررن جميعاً: "ولا أنا".

استمر صوت الاحتكاك فترة قصيرة قبل أن تسأل جوليان: "إلى أين يتحرك؟ إنه يشير إلى كلمة نعم!".

شرحت صاحبة اللعبة: "هذا يعني أن هناك شخصاً ما معنا الآن". شهقت الفتيات في عدم تصديق، أما سريزا التي تراقب من خلفهن فقد كتمت شهقتها، ولكنها لم تمنع شفتيها من التباعد. راقبتهن فاغرة فاها، ولم تعد تكترث أكثر من السابق لكونها مرئية أم لا.

"لنسأله عن اسمه". طلبت فتاة، ثم سألت: "ماهو اسمكَ؟" بدأ المثلث الخشبي بإصدار صوت الحفيف وهو يتحرك فوق اللوح الخشبي، بدأت الفتيات يكررن الأحرف التي يتوقف عندها المثلث: "م.. ي.. ن.. ا". قامت جوليان بتجميع الأحرف ثم قالت: "مينا؟" تحرك المثلث الخشبي باتجاه كلمة "نعم".

"هل أنتِ امرأة". ظل المثلث عالقاً في زاوية كلمة نعم. لم تفهم الفتيات معنى ذلك، فسألت إحداهن: " إنّها رجل إذاً؟" فتحرك المثلث باتجاه كلمة لا. كان ذلك هو الدليل على أن مينا أنثى، وليست ذكراً.

أفلتوا جميعاً ضحكات مرتجفة كانت تحمل من القلق أكثر ممّا تحمله من شعور المرح. سألت جوليان: "هل أنتِ شبح؟" فساد الصمت بعد أن تسرّب الفضول إلى قلوب الفتيات. تحرك المثلث ليعلن: "مُ.. تُّ".

قالت جوليان: "مُتِّ؟ هل أنتِ ميتة يا مينا. كيف متِ؟". تحركت الأحرف لتعلن: "س.. ي.. ا.. ر.. ة. هتفن في صوت واحد: "سيارة؟ هل تقصدين حادث سيارة". فتحرك السهم إلى الزاوية المختومة بكلمة نعم.

طلبت جوليان: "أثبتِ لنا بأنك هنا يا مينا". ساد الصمت، ولم يتحرك المثلث الخشبي. علقت أعين الفتيات على اللوح الذي طبعت عليه الأحرف، ولكن شيئاً لم يحدث. كانت سريزا تراقبهن، وتوجه جلّ تركيزها عليهن، قبل أن تدرك بأن الجدار الخشبي الموجود خلف الفتيات، قد كتم ظلٌّ ما النور المرسوم عليه، ولم يعد يعكس أي ضوء، بل كان يعكس صورة مخروطية الشكل بدأت تكتسب تدريجياً شكل فستان طويل، وخصر نحيل جداً. تحرك الظل كما لو أنه غصن يرقص بسبب الرياح. تشكل الرأس ببطء، وعاد الضوء ببطء عبر ثقبين في أعلى الرأس، توسعا ليشكلا فراغين كبيرين يمثلان عينين واسعتين تحتلان نصف الرأس. لم يتحرك الظل، بل راح يهتز في نطاق ضيق. رفعت جوليان رأسها فقابل بصرها شكل الظل الذي كانت سريزا تراقبه. صرخت جوليان بفزع، ففر الظل، وبحركته السريعة أصبح ملحوظاً لكل الفتيات. قفزن من أماكنهن وملأ الصراخ الأرجاء.

"هل رأيتم هذا؟" سألت جوليان، ولكنهن عالقات تحت تأثير الرعب، فلم تجب أيّ منهن بل بدأن بالجري، مبتعدات عن الجدار، واتجهن فوراً إلى

مدخل المنزل. في تلك الأثناء، هبطت سريزا من مكانها، وخرجت من المطبخ جرياً حتى وصلت إلى الجزء الخلفي من المنزل. لم تكن الطفلة قلقة مما رأته، إنما أخافها أن تكتشف الفتيات وجودها هناك.

***

لم تدرك سريزا أن السماء تمطر، إلا بعد أن أزاحت الرياح بضع قطرات على وجنتها. رمشت عدة مرات، وتلاشت خيالات الماضي من ناظريها. مسحت القطرة التي رست على خدها. بدا لها أن ما هبط هو ليس إلا ماء تدلى عن طريق الخطأ من السماء الذي كانت ترفض أن تفلته؛ لأن شعاع الشمس كان مايزال يناضل من أجل الهروب من بين طيات الغيوم التي قبعت فوقه. نهضت عائدة إلى المنزل، حيث كان الهدوء مايزال يحتل المكان.

لم تستيقظ دوروثي بعد، ولم ترغب سريزا في تناول الفطور وحدها طالما أن دوروثي موجودة في المنزل. رأت أن تنتظر، وتشغل نفسها في أي أمر آخر حتى تستيقظ خالتها. فتشت في عقلها عن أي مشروع يمكنه أن يملأ فراغ وقتها، لكنها لم تجد. صعدت متجهة إلى الطابق العلوي، ولأن جوليان كانت ما تزال تحتل أفكارها، فكانت وجهتها هي غرفة شقيقتها الراحلة. كانت تريد الوصول إلى أي شيء يتعلق بجوليان لتواجه الذكرى، وتتغلب عليها، قبل أن تتمكن منها.

فتحت باب الحجرة، فاندفعت رائحة الغبار إلى أنفها. استغرق الأمر ثوانٍ حتى بدأت ذرات الغباء بمفعولها الحارق في أنف الفتاة. لم تدخل إلى هنا من وقت طويل، بل إنها لم تملك الجرأة لفعل ذلك من قبل. قد يكون ما يعطيها الدافع والشجاعة الآن، هو وجود دوروثي في الجوار.

تركت نظرها يعيد مطابقة صور ذاكرتها مع الواقع الذي ترى فيه الحجرة. ما أن اعتادت عيناها على ذلك، لاحظت سريزا الأشكال الغريبة التي انتشرت على الأرضية والجدران. رغم أن الغبار يحتل الأرضية الخشبية، إلا أنَّ الطبعات اللوزية على الأرض، توحي بأن هناك شيئاً آخر منع الغبار من الانتشار على الأرضية كاملة.

راقبت المكان قبل أن تعبر متفادية الأشكال اللوزية وصولاً إلى الستارة، فسحبتها ليتدفق قدر أكبر من الضوء إلى الداخل. أصبحت البقع اللوزية

أكثر وضوحاً؛ لأنها داكنة على عكس اللون الباهت الذي رسا على الأرض. خرجت سريزا من الحجرة جرياً، وهي تهبط بقدمها على آثار خطواتها. توجهت إلى غرفة والدتها، وفتحت الباب باندفاع، لكنها تمالكت نفسها في اللحظة الأخيرة، وبرفق لكزت خالتها: "دوروثي، استيقظتي".

لم تجد دوروثي صعوبة في استجماع ما يكفي من النشاط لكي تبعد رأسها عن الوسادة، وتسأل بكسل: "ماذا؟ ماذا هناك؟". راقبت دوروثي تعابير وجه الفتاة، بعينين بالكاد تلتقطان النور. انتظرت أي جواب خلال ملامحها، لكن سريزا لم تبدِ أي قلق.

ردت سريزا: "تعالي معي، هيا الآن".

أبعدت دوروثي اللحاف عنها، ونهضت بينما سريزا تشد يدها كطفلة. سارتا عبر الممر وصولاً إلى غرفة جوليان التي مايزال بابها مفتوحاً. أشارت سريزا إلى الحجرة، وقالت: "انظري إلى هذا".

فركت دوروثي عينيها، وحاولت أن تستجمع التركيز، ثم قالت: "هذه آثار أقدام، هل تسلّل لص إلى هنا؟ وأنت لم تدركي الأمر؟" ضاعت الكلمات من دوروثي فأردفت: "أو لعلنا لم ندرك الأمر، ودخل توّاً. هل رأيتِ شيئاً؟".

"هذه آثار أقدامي أنا، ولكن الأثر الآخر ظاهر في كل الأرجاء".

تلاشى الخوف من وجه دوروثي، وسحبتْ نفَساً يعبِّر عن حاجتها الماسة للهواء. قالت: "كاد قلبي يتوقف". ثم بدأت تراقب زوايا الغرفة بتمعُّن. "ما هذا؟ في كل مكان؟"

هزت سريزا كتفيها: "لا أعلم، لهذا أناديكِ".

"يبدو كأوراق الشجر، بل كشكل العين".

"أجل.. يبدو غريباً. المكان مليء بالغبار، إلا هذه البقع، مما يعني أنها حديثة".

أحاطت دوروثي خصرها بيديها ثم قالت: "قد يكون هناك تسريب ماء في مكان معين، أو أن الماء يتجمّع هنا". لم تكن سريزا متأكدة من ذلك التفسير. فتجاوزت مدخل الغرفة، ولسمت البقع بأطراف أصابعها. تبعتها دوروثي، وقامت بالأمر نفسه في بقعة أخرى. تحسست أطراف أصابعها، ثم قالت: "لا

تبدو هذه البقع رطبة، لكنها دافئة".

وافقت سريزا: "أجل، كذلك هنا. تبدو حديثة حتى".

26

لم يرَ أندي السيد ثلاثاء طوال الأسبوع. أخبر جيسي عن الرجل، ووصفه بأنه ذو وجه بلا ملامح، لكن صديقته عزت الغموض إلى كون الظلام قد انتشر في ذلك الوقت. في الواقع كانت جيسي ولأول مرة لا تصدق ما يقوله أندي، بل كانت تعتقد بأنه أحب التفاخر بعد نجاحه مع مسألة القط فأراد الآن أن يتباهى بالأمر أكثر، ويخلق بطولات غريبة جديدة. لكن أندي لم يهتم للأمر، ولم يُبقِ تركيزه على ردود أفعالها، ليتأكد إن كانت تصدقه أم لا، بل كان يفكر في السيد ثلاثاء طوال أيام الأسبوع حتى يوم الجمعة حين عاد من المدرسة، كانت فرحة انتهاء الأسبوع الدراسي تشغل باله، أكثر من كل الأفكار المرعبة التي تراوده. فكّر في كل الأشياء التي يمكنه أن يفعلها خلال اليومين القادمين، وكلها لم يشملها خيال السيد الغريب الذي رآه في تلك الليل. حتى عندما حاولت جيسي أن تعيد إحياء ذكرى ذلك الكائن، لم يكن يهتم للأمر.

سألته الفتاة: "أ مازلت تفكر فيما قلتَه لي بخصوص سيد ثلاثاء، أو ماذا كان اسمه؟" بدت نبرتها ساخرة من الاسم الغريب، فأثار هذا بعض الحنق في أندي.

رد أندي: "لم أختر له هذا الاسم، هو من أخبرني بذلك. لا أعلم إن كنتِ تصدقين الأمر أم لا، لكنه حدث بالفعل". سارت الفتاة بجواره، ولكن الطريق لم يَطُل بهما قبل أن يصلا إلى المفترق.

أحست جيسي بالذنب، ولكنها لا تؤكد قصة أندي الغريبة "لا أقول بأنك تكذب، ولكن هذه الحكاية لا تبدو لي بأنها ذات معنى حتى يا أندي".

"أعلم، والغريب هو أنني لم أجد هوية ذلك الرجل. لم تكن له أية هوية، لم أصل إلى معرفة أين ينتمي، لم أتمكّن من معرفه اسمه من تلقاء نفسي. هذا يحدث معي للمرة الأولى. في تلك الليلة عجز حتى عن النظر في عينيه مباشرة".

سألته جيسي: "ألم تقل بأنه من دون ملامح".

"بلى، كان هناك الظلام يغطي وجهه، ولكنه لم يُخفِ بريق عينيه".

سألت جيسي والدهشة بادية على وجهها: "أتقول بأن له عينين مضيئتين".

"ليس تماماً، كانتا تلمعان، وقد يكون ذلك بسبب وقوع ضوء القمر عليهما".

عاد أندي إلى أفكاره الخاصة، وحاول أن يبعد صورة السيد ثلاثاء عن ذهنه. لم يجدد خططاً محددة، لنهاية الأسبوع هذه، لكنه كان يعلم بأنه ينغمس في نشاطات مختلفة، ستنشأ من تلقاء نفسها. سار بجوار جيسي التي عادت لهدوئها هي الأخرى، وبدت غارقة في أفكارها الخاصة، مما منع أندي من مقاطعتها عن فعل ذلك. وعندما وصلا إلى المنعطف المؤدي إلى منزل جيسي، لوحت له بيدها، وطلبت منه ألّا يفكر في أية أفكار مرعبة خلال العطلة القصيرة. لوح لها بيده هو الآخر، وراقبها تبتعد بينما خطواته لم تتوقف حتى تجاوز الطريق.

أعاد تركيزه إلى طريقه وكان سيستغرق من الوقت ما ستحتاجه جيسي للوصول إلى منزلها عبر ذلك المنعطف. بالنسبة إلى طفل كان يصعب عليه تحديد أية فكرة في تلك الأثناء هي الأكثر قرباً إلى ذهنه، فالأفكار المشرقة في خياله كانت كثيرة، وكلها تجذبه إلى التفكير فيها. أما كون أي من الأفكار التي تدرو في ذهنه هي التي تتحكم بتصرفاته الآن، فقد كان بعيداً عن إدراكها.. بل كان بعيداً عن إدراك فكرة التأثير بحد ذاتها. مهما ابتعد حد الأفكار الخاصة به، كانت الحفر الطفولية التي تمتص عمق الأفكار موجودة، وتعيده إلى أصل معتقداته السطحية.

عندما عاد أندي إلى المنزل، لم يجد أحداً في البداية ولكن عندما هبطت والدته عبر السلم، شعر بأن الصورة التي أخافته تكتمل لذلك سألها فوراً عن الجزء المفقود حتى الآن قائلاً: "أين والدي؟"

"لقد خرج للقاء شخص ما". لم يكن أندي يهتم بباقي التفاصيل، ولكنه أراد للغموض الذي قابله في المنزل أن يتلاشى، وأن يتأكد من أن عائلته ما تزال بخير حتى الآن. أمرته والدته أن يذهب لتبديل ثيابه، ريثما تعد السفرة لكليهما، أما والده فلن يرافقهما على المائدة اليوم.

عندما انتهى من تناول طعامه سأل والدته: "ألن يعود والدي باكراً".

"لماذا تسأل عنه؟" أحاطت أفكاره بمخاوفها. "هل حدث أمر ما".

زم الطفل شفتيه، وأشار بالنفي قبل أن يقول: "كان ذلك مجرد سؤال

لا أكثر". هبط من فوق كرسيه، وابتعد عن المائدة بخطا سريعة مفعمة بالاندفاع. نادته والدته من خلفه؛ ليكمل تناول الطعام المتبقّي في طبقه، لكن أندي رفض ذلك بحجة الشبع، وكان ذلك هو شعوره في تلك الأثناء.

قضى أندي الوقت في غرفته حتى بدأت الشمس بالغروب، كان يقرأ إحدى الكتب التي لا تحتوي على صور، فقد تجاوز مرحلة الصور، لكنه مايزال يمتلك رهبة قراءة الكتب الكبيرة، ولم تجد والدته خلافاً في ذلك، فلتلك الكتب وقتها الخاص. في هذا الوقت كان يمكن لأندي أن يجزم بأن والدته الآن قد بدأت بالعمل على تماثيلها، كما كان يتخيّل والده وهو يجلس برفقة رجل واحد، وبينهما طاولة صغيرة وكوبا قهوة، يتحدثان عن أمور تخص عمل والده، وتلك الأحاديث لن يكلف نفسه عناء تخيلها؛ لأنه لن يفهمها لو كانت حقيقية ومسموعة.

سمع صوت الجرس القديم، والذي يعلن عن استقبال اتصال عبر هاتف منزلهم الأرضي. كان الهاتف حديثاً، لكنه مايزال يمتلك تلك النغمة التي تميزه. اختفى صوت الجرس الصاخب فجأة، وبعد ثوانٍ قليلة، سمع والدته تنادي: "أندي إنها مكالمة لكَ". أفلت أندي الكتاب من يده، وتركه يهوي على الفراش، ثم هبط جرياً على السلم وصولاً إلى الهاتف، دون أن يسأل والدته عن أية تفاصيل.

قبض على السماعة وأجاب بصوت طفولي، هتف الصوت على الطرف الآخر: "أندي، إنه أنا جو". أحبطت هذه الجملة آمال الفتى، الذي كان يأمل بأمر لا يتوقعه يكسر هذا الهدوء.

"مرحباً يا جو". قال بملل لم يظهر للطفل الآخر.

"أعتقد بأنني ومايك سنذهب لتناول بعض الحلوى عند الواجهة". كان أندي يقصد ركناً مخصصاً لمحلات الطعام، وبعض المحلات المختلفة. وهو عبارة عن طريق مليء بالواجهات الزجاجية على كلا جانبيه. فكر جو في رفض الفكرة؛ لأن رفقتهما لم تعد تبعث الحماس لديه، لكنه لم يرغب في تفويت متعة قد تكون موجودة اليوم.

"سأطلب من والدتي أولاً".

حسناً سنكون هناك في كل الأحوال". لم يعلق أندي على أي شيء بل

أغلق السماعة، وراح يفكر في قبول عرض جو، أم رفضه، قبل حتى أن يطلب موافقة والدته على ذلك. كان الطفلان جو ومايك يمثلان رفقة مناسبة لأندي فيما مضى، لكنه الآن أصبح يشعر تجاههما ببعض السذاجة، ولم يرغب بالاعتراف لنفسه، بأنهما أغبى منه، وبأنّ مفهوم اللهو لديهما مُمِلٌّ، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو متهور.

فاجأه صوت والدته من خلفه: "من كان ذلك الفتى".

أجاب باقتضاب: "جو". كان مايزال يفكر في طرح الفكرة، أم لا.

"وماذا أراد". ازداد الحصار عليه.

أجاب أندي: "يريدني أن أرافقه هو ومايك لتناول بعض الحلوى".

استقامت والدته، وتظاهرت بالتفكير ثم هتفت: "لم تلتقِ بهما منذ وقت طويل، ظننت بأنكم لم تعودوا أصدقاء. يمكنكَ الذهاب إن أردت ذلك، وسأعطيك المال لتشتري بعض الحلوى أنتَ أيضاً".

صارح أندي والدته قائلاً: "لستُ متأكداً من رغبتي".

أرادت والدته التفكير معه، وإيجاد الحل المناسب لذلك، وأخبرته هي أيضاً بفكرتها، من دون تضليل صراحتها بعبارات طفولية تناسبه: "ما الممتع في بقائك هنا. أنا أعمل، وأنت وحدكَ هنا، حتى والدك لن يعود باكراً، لذلك لا معنى للبقاء وحيداً. هيا اخرج طالما لا يوجد مدرسة غداً، ولكن كن حريصاً".

27

عندما وصل أندي إلى الواجهة، كانت الشمس تنخفض في نهاية الطريق المفتوح أمامه، وتبعث نورها الذهبي على الواجهات الزجاجية فتتوهج، وتبدأ باللمعان كلما تحركت عينا الطفل بحثاً عن جو ومايك. كان جو يبدو أكبر سناً منه، ومن مايك، فهو ممتلئ الجسد، وطويل. أما مايك فقد كان أسمر البشرة بشعر قصير يمرر يده عليه كلما أراد أن يبدأ الحديث فيبدو مضحكاً للآخرين. رآهما أندي ولم يستغرق في بحثه عنهما زمناً طويلاً. كان جو يقف متكئاً على عمود إنارة ذهبي، أما مايك فقد كان يتحرك دون توقف أمام صديقه، وذراعاه تتحركان بحرية، بينما كان فمه ينطق بكلمات لم يكن أندي يسمعها وهو على بعد تلك المسافة عنهما. لم ينشأ أي خلاف بين الأطفال الثلاثة، يضعف الرابط بين أندي، وبين مايك وجو. انسحب أندي بعيداً عنهما عندما لم يعودوا يدرسون في فصل واحد، وصداقة جيسي كانت تعوضه عن كل ما يحتاجه خارج المنزل، فهي كانت المستمع الذي يتفهّم أفكاره التي تنتمي لسنه؛ لأنها في ذات المركب معه.

استقام جو ما أن انتبه لوصول أندي إليهما، أما مايك فقد توقفت شفتاه عن الحركة، وهبطت ذراعاه لوقت طويل. لم يلتقِ أندي بهما خارج أسوار المدرسة، لذلك كان شعوره غريباً حين التقى بهما هناك، وبدوا له أكبر سناً من دون زي المدرسة الموحَّد. كان جو يرتدي سترة صوفية حمراء، مخططة باللون الأبيض، وقبّعة بيسبول سوداء. أما مايك فقد ارتدى سروال جينز، بدا واسعاً يهبط براحة حول قدميه، اللتين يغطيهما حذاء أبيض، ويرتدي أيضاً سترة سوداء بقلنسوة. حياهما أندي ضارباً قبضته بقبضتيهما كما اعتادوا أن يفعلوا.

"هل انتظرتماني طويلاً". سألهم أندي.

أجاب جو: "لا، لقد راهن مايك على أنك لن تأتِ، لكنني شعرتُ بعكس ذلك".

رمق أندي مايك بنظرة جدية باردة، وخالية من أي تعبير، ثم قال موجهاً حديثه لكليهما: "نحن الثلاثة ما نزال أصدقاء، أليس كذلك؟" انتظر إجابتهما، فحركا رأسيهما إيجاباً. "إذاً، لا شيء يمنعني من القدوم".

لجأ الأطفال الثلاثة إلى محل الحلوى الأول في الجهة المواجهة لهم.

سألهما جو عن نوع الحلوى التي سيختارها كلّ منهما، وراودته فكرة تقليد أي من صديقيه، ولكنه تراجع، واختار قطعة مثلجات وهو غير آبه لبرودة الطقس في الخارج. حذَّره مايك من ذلك، ولكنه لم يستمع لذلك التحذير. خرج الأطفال الثلاثة من المحل وساروا متجاورين على الرصيف، حتى تجاوزوا المنطقة. أشار مايك بإصبعه شمالاً، وعرض عليهما أن يقضوا ما تبقى من الوقت في الحديقة. كان أندي يخشى أن تكون الحديقة مكتظة بالعائلات، والأطفال الآخرين في هذا الوقت فيصعّب عليهم ذلك أن ينالوا فرصتهم في اللعب. لكنهم عندما وصلوا إلى هناك، كان المكان شبه خالٍ. تقضي العائلات عطل نهاية الأسبوع في أماكن أخرى عندما يصبح الطقس بارداً؛ لأن البلدة تغدو كئيبة في الشتاء، أما العائلات التي لا تسافر إلى أماكن قريبة، لا تخرج في الطقس البارد، أو لا يكون لديها أطفال.

"لماذا لستَ مع تلك الفتاة". سأل صوت طفولي، لم يميزه أندي بسهولة، فالتفت ليرى أي الطفلين هو من سأله. أوحى وجه مايك بأنه هو من طرح السؤال.

أجاب أندي: "لأنها مع عائلتها، وأنا برفقتكما اليوم".

تدخَّل جو: "هل تعني بأنها لو لم تكن كذلك لكُنتَ معها الآن، وبأنك عندها لم تكن لتخرج معنا؟؟".

"لا لم أعنِ ذلك، أحب قضاء وقتي معكما، هي صديقتي، وأنتما صديقاي كذلك".

وصلوا إلى الساحة التي تتوسط الحديقة، وبينما كان أندي يسير بخطوات تساوي خطوات جو، استعاد مايك نشاطه، وبدأ يتسلق إحدى الألعاب المثبتة في الأرض. اختفى في قمة اللعبة، ثم أطل برأسه ثم لوح لهما منادياً: "هيا أيها الكسولين، تعالا إلى هنا".

"حذاري من أن تسقط يا مايك". قال أندي.

ضحك الآخر في الأعلى، ثم قال: "تتحدث كوالدتي".

فقال جو: "أنتَ تشبهها أيضاً". ثم انفجر بالضحك وتبعه أندي الذي لم تضايقه نكات جو يوماً.

"سأقتلكما" . هددهما مايك، ولكن ذلك التهديد لم يأتِ بمفعوله.

تسلق أندي اللعبة، وعندما وصل إلى النهاية عرض مساعدته على جو الذي بدأ بالصعود، ولكنه وجد صعوبة في ذلك. مدّ أندي ذراعه، وقال: "تشبث بي" . ثم التفت إلى مايك قبل أن يقول: "ساعدنا" . سحب الطفلان جو إلى الأعلى. انزلق الثلاثة من فوق اللعبة، وفور نهوضهم راحوا يجرون باتجاه الألعاب الأخرى.

هتف جو: "كل الألعاب هنا آيلة إلى الانهيار" .

جرى مايك إلى طرف الحديقة، وقال: "كفاكما لعباً كالأطفال، دعونا نذهب باتجاه المنحدر عند الطرف الآخر. تبعه جو وألقى بنظرة لأندي الذي شعر بالتردد، لكنه أخفى جبنه من القيام بذلك تحت جنح الظلام. تبعهم بخطى بطيئة، ثم تحوَّلت خطواته البطيئة إلى الجري ما أن ناداه صديقاه.

قال أندي: "لا يمكننا الوصول إلى هناك، سور الحديقة سيمنعنا" .

قال مايك الذي اختفى خلف صف الأشجار: "سنقفز، هيا" . تبعهم أندي دون تفكير.

ميز أندرو صوت أوراق الشجر المتكومة تحت قدمه، قبل أن يشعر بها تحتشد تحت حذائه الثقيل. فكّر في التراجع الآن، قبل أن يمضي مع صديقيه إلى ذلك الجانب الميت من الحديقة، لكن لحظة التراجع فاتت؛ فصديقاه لم يعودا معه، ولا يمكنه العودة قبل أن يعلمهما بذلك، وإلا سينشر الرعب في قلبيهما. نادهما مردداً اسميهما، لكن أياً منهما لم يجب على ندائه. سمع صوت أوراق الشجر تُدهس بالقرب من حافة المنحدر فسار إلى هناك، وهو ينادي: "هل أنتما هنا؟ أنا سأعود" .

ظهر خلفه جسد أسود مغطى بالظلام، لكنه يساويه بالطول، لم يلاحظ أي شيء مميز فيه سوى تلك القبعة التي تغطي قمة رأسه. دفعه الجسد، فتهاوى أندي على حافة المنحدر وصولاً إلى الأرض المنخفضة على الجانب الآخر. بدا ظل جو بعيداً عنه، لكنه كان واضحاً وهو يراقبه من ارتفاع بسيط. تدحرج جسد أندي فوق الأوراق المتيبّسة، قبل أن يرتطم بالأرض، ويثبت تماماً. ظهر مايك ليجاور جو، ثم قال جو: "اطلب من صديقتكَ أن تأتي لنجدتكَ" . واختفيا تاركين أندي وحيداً تحت ظلال الأشجار التي غطّت شكل السماء. أراد أن

يطلب منهما نجدته، أو انتظاره، لكن كبرياءه لم يسمح، وتفوّق على شعوره الطفولي بالخوف.

حاول تسلُّق الأرض المائلة بسرعة، لكن التوتر سبب له اختلالاً فسقط فوق الأوراق الميتة من جديد. خيّم الهدوء على المكان، ولم يعد صوت خطوات صديقيه مسموعاً. لقد رحلا وتركاه وحيداً هنا كعقاب. كان كل ذلك فخاً خططا له مسبقاً.

أراد النهوض، ولكنه تمهّل ثانية واحدة بعد أن سمع صوت دهس على الأوراق اليابسة. لم يرَ بسبب الظلام من كان ذلك الغريب الذي يقترب منه، لكنه حاول التحلّي بالشجاعة بقدر المستطاع، كتم صراخه عنوة.

همس الصوت الذكوري: "هل تركاكَ هنا وحيداً؟".

"أ.. أجل". رد أندي بصوت مرتجف.

همس الغريب بمرح: "يمكنني أن أنتقم لأجلكَ إنْ أردتَ". كاد يقول نعم، لكنّ هوية هذا الظل كانت تسبب له الرهبة أكثر من فكرة الموافقة أو الرفض.

"لا، لا أريد ذلك".

"حسناً، انتقم لنفسكَ أنتَ، وإلا ستكون مدعاة للهو عند غيرهما". بدأ الجسد يبتعد ويسير تحت الأغصان المنخفضة. كان الرجل الغريب يعتمر قبعة دائرية، وهذا ما ميّز ظله.

"مهلاً". قال أندي فالتفت الرجل، وبرقت عينه كما لو أن يرقة علق في وجهه. سأله أندي: "هل أنتَ.. هل أنت السيد ثلاثاء".

ضحك الرجل ضحكة مغضبة في الظلام، ثم انفجرت ضحكة طويلة وصاخبة منه. "أجل، صديقكَ الجديد. إن كُنتَ تقبل بصداقتي يا أندرو العزيز". هز أندي رأسه، ولكنه لم يكن متأكداً ما إن كان الرجل سيرى ذلك في الظلام أم لا، لكن المفاجأة هي أن الغريب أصدر صوتاً يشبه الفحيح عبّر من خلاله عن السرور، ثم قال: "كم أنتَ متواضع يا أندي.. أندرو الطيب". تحرك رأسه، فاختفى البريق مما يدل على أن الرجل أشاح بوجهه، ثم اختفى في قلب العتمة.

28

الآخرون خدعة صنعها إنسان؛ لتخفيف وطأة الأحداث على نفسه، وتقليص مجهود النسيان عند حشره بين كيانات الأشخاص المحيطين به، لكن لا أحد يستطيع تغيير مافي داخلكَ؛ لأن هذا العمق منطقة محظورة، لا يملك أي إنسان آخر القدرة على الوصول إليها، أو حتى الوقت للابتعاد عمّا يعانيه والولوج إليكَ. إنهم مدرجون تحت هويتهم الخاصة، بينما أنتَ تبقى المعني بنفسكَ فقط. ففي لحظات انعزالكَ عن الآخرين، أنتَ تسمع صوتكَ الخاص، ولا ترى إلّا ما يمثل حكايتكَ من دون تحريف تفاصيلها.

في حجرته كان أندي يشعر بالخيبة وبالإحباط؛ لأنه لم يتمكن من فهم الفخ الذي وقع فيه باكراً. لكن الأمر قد حدث بالفعل، والأهم من خوضه رحلة التفكير في ذلك، لديه الآن السيد ثلاثاء ليشغل أفكاره الحزينة به، ويحاول تفسير ماهية ذلك الرجل.

اقتحمت والدته حجرته، فأجفل الفتى في مكانه. "لقد عدتَ باكراً.." لاحظت والدته ملابسه المتسخة فسألته: "ما كل هذا؟ ما الذي حدث؟".

فكّر أندي في الكذب؛ لتفادي وابل الأسئلة التي ستلي جوابه: "لقد وقعت".

لم ترَ والدته الصدق في عينيه، بل كان يتفادى النظر إليها مباشرة. "تحدث يا أندرو. ما الذي حدث؟ هل تشاجرت مع جو ومايك؟". هز أندي رأسه نفياً، فسألته بيأس: "أخبرني إذاً... لماذا تبدو هكذا؟ ثم إنكَ عدتَ باكراً وهذا يدل على أن أمراً ما قد وقع". تردد أندي قبل أن يعترف فحثته: "هيا تكلم".

"إنهما يكرهاني؛ لأننا لم نعد أصدقاء كالسابق".

سألته: "يكرهانكَ لأنكم لم تعودوا أصدقاء؟ أم لأنكم لستم أصدقاء؟"

"لأنني لم أعد صديقهما، لكن الأمر ليس كذلك".

انحنت والدته على ركبتيها لتوازيه بالطول. ضغطت على كتفيه بكفيها، ثم نظرت مباشرة إلى عينيه، وفعل هو الأمر ذاته؛ لأنه أزاح الحجر الذي يشعره بالخجل عن صدره. "اسمعني يا أندي. يجب أن تتعلّم كيف تكون صديق الجميع، وأن توازن بين صداقاتك؛ لأن هناك من يحبكَ، ويشعر بالغيرة عندما

يخسركَ، لكن لا يحسن الجميع التصرف أو التعبير عن خيبة خسارتهم لكَ، فيكون ردُّ الفعل سيئاً". هزّ أندي رأسه، لكن والدته كانت تشكُّ في أنه يتفهّم كلامها، فسألته: "هل تفهم ما أعنيه؟"

"أجل، أعلم بأن ما فعلاه لم يكن إلا بداعي الغضب؛ لأنني لم أعد صديقهما". عادت فجأة صورة السيد ثلاثاء في رأسه، وتخيّل ما كان من الممكن أن يحدث لو طلب منه أن ينتقم لأجله. جو ومايك صديقاه، وأندي يعلم بأنهما طيبان، ولكنهما متهوران أيضاً.

موتٌ سعيد يا جوليا

29

لا يشبه الموت أي شيء آخر سوى الحياة، شيء لا تشعر به إلا عندما ترغب بأن تشعر به، تعيش في قلبه، في حاضره أنت موجود، لكنكَ في لحظة اللحظة لا تعي ذلك. أنتَ فيه وهو غير ملموس. الألم الممزوج بالراحة. هو الظلمة التي تريكَ الجانب الآخر، جانبٌ قاسٍ تراه ولا تعود بعده عيناكَ تريان ما كان مألوفاً لهما سابقاً. الموت يوصف بأشكالٍ عديدة، اتجاهات عديدة. نقاط البداية فيه عديدة.. ولكنه واحد رغم كل الاختلافات. أن تموت يعني ألّا ترى، وإن رأيتَ فقد كسرت القاعدة الأولى. هو نقطة النهاية لكل السطور، لحظة التوقّف عن مقاومة كل شيء. تكفُّ عن حريتك التي تخوضها في حياتك. يختارك فتصبح عنده مجبوراً على إنهاء كل البدايات، كل القرارات، وكل ما عملت يوماً على اختياره.

جوف جوليا كان محطماً لسببٍ ما في تلك الآونة التي بدت فيها قوية لا مبالية، تقف أمام منزلها الجديد وهي ترتدي قميصاً أبيض خالٍ من أية نقوش، وبنطالاً نيلياً داكناً جداً حتى يكاد يبدو أسود وخصره عالٍ ضيق، بينما كان واسعاً عند القدمين. وكانت ترتدي حذاءً ذا كعب عريض قليلاً يخفي أصابع قدميها وكعبيها كذلك. كان عشبُ المرج المقابل لمنزلها باهتاً ومنكمشاً قليلاً، طوله غير متساوٍ؛ لأن أحداً لم يهتم بترتيبه لفترة طويلة. راقبت جوليا تحت أشعة الشمس الخريفية، العمال الثلاثة وهم ينقلون قطع الأثاث إلى داخل المنزل. لم يصل أثاث منزلها كاملاً حتى الآن، ولكن أصبح لديها ما يكفي لتسكن المنزل، وقد وصلت هذه القطع في الوقت المناسب تماماً. الحياة أقصر من أن نخوض ما قد مضى بلا عودة، ولكننا رغم إدراكنا ذلك، لا نكفُّ عن الضرب في الميت. كأننا نسير في دائرة مغلقة، نهوى العودة إلى نقاط البداية وتسلق المنحدرات الصعبة.

تبعت جوليا العمال الثلاثة إلى داخل منزلها الذي لا يختلف عن منازل الضواحي متوسطة الحجم. منزل مبني من القرميد الباهت بتصميم قديم كما لو أنه منزل خشبي مكون من طابقين، ويكفي لعائلة صغيرة. لم تختره جوليا عن قناعة تامة، وإنما أرادت أن تكون فيه أو في أي مكان يشبهه بعيدة وهاربة

عن كل ما أتلفته خلفها. أتلفته هي، أو أتلفته الظروف.. هذا غير هام. كان هناك خطأ تركته خلفها وفقط.

اختلفت وتقلبت شخصية جوليا مرات عديدة مع كل تموجات الحياة التي حاولت هي أن تغوص فيها. كانت في وقت ما شخصاً محارباً، وأصبحت شخصاً محبّاً ضعيفاً يعرف التضحية، وبينه وبينها دربٌ سهل. ضحَّت مرات عديدة من أجل الحب، وفي وقت قصير جداً أصبحت شخصاً أنانياً خائفاً. أما الآن هي شخص خالٍ ضعيف بقناع اللامبالاة. حياة كاملة خاضتها كان يصعب اختصارها بصفات قليلة. كل التجارب كانت تعرف عاطفة مختلفة، وشعر لا يشبه الآخر، وهذا ما يصنع إنسان.

قبيل الغروب، كانت قد نزعت الأكياس الشفافة عن جميع قطع الأثاث الموجودة، وجمعتها في كيس قمامة أسود كبير. وفي الممر الواسع قبل غرفة المعيشة، كانت الصناديق ترابية اللون مبعثرة ومنتشرة على طول الممر، ما تزال مغلقة بأشرطة لاصقة لامعة. تنزع الشريط الشفاف عن الصندوق الأقرب إليها بفضول، رغم أن ما يحتويه الصندوق هو حاجياتها سابقاً. تنزل الشريط بعناد فلا يعود شفافاً، وإنما عليه بقايا من الطبقة الأولى للصندوق. تحاول أن تسقط الشريط من يدها فتهزه ولكنه لا يقع. تضطر لإقحام يدها الأخرى والتي كانت تثبتها على الأرض. تثبت جسدها بركبتيها على الأرضية الخشبية وبيدها الأخرى تسحب الشريط الذي التصق بإبهامها. تضعه أرضاً بقربها، ومن ثم تفتح غطاء الصندوق لترى أول دعوة للذكريات القريبة. لم تكن جوليا بعيدة جداً عن حياتها الماضية، فترة قصيرة تفصل مرحلتين من حياتها، ولكن ذكرياتها القديمة تؤلمها وتبث الحنين في قلبها بطريقة تجعل كل ما تتذكره مؤثراً ومؤلماً قليلاً.

ترى في أعلى الصندوق كتاباً ذا غلاف كرتوني مقوى. كانت تألف الغلاف الداكن تماماً؛ لأن هذا كان إصدارها الثالث والأنجح قبل أن تتوقف لوهلة قصيرة وتهجر لوحة المفاتيح. تسحب الكتاب وتخرجه من الصندوق، تمسح بكف يدها على سطحه الناعم، ومن ثم تفتح الغلاف برفق متجاوزة صفحتين، تصل مباشرةً إلى صفحة الإهداء.

إلى آدم، معاً سنصل إلى خارج المجرة.

تحرك سبابتها على الكلمات، وتشعر بوخز المشاعر المغموسة فيها. هل ندمتِ يا جوليا على وضعها هنا؟ يمكنكِ في الطبعات القادمة إزالتها، ولكن ما هو موجود الآن يمكن محوه. لا يمكن أن نمحي قراراتنا بعد اتخاذها، ولكننا نتخذ ماهو أفضل منها، فندفن الماضي بعيداً ونزين الصورة بماهو أفضل من السابق. كل شيء بعيد عن جوليا الآن، وحتى هذا الدور الجالب للشفقة، لم يعد يأتي بغرضه.. لا أحد يعرف جوليا هنا. انتقلت جوليا إلى هذا المنزل حيث لا تجد أي شيء يتعلق بماضيها هنا.

عادت جوليا إلى الواقع بسرعة لم تكتفِ معها بالعيش في تلك الذكرى. كانت تصل في ضعفها إلى أسهل أنواع الحزن: وهو حزن العيش في الذكريات. كان الواقع باهتاً كئيباً ومحقوناً ببعض الحماسة الغريبة لكونه جديداً، في مكان لم تألفه إلا حديثاً. ليس الخطأ أن تمتلك ذكرياتكَ الخاصة؛ فالذكريات هي قصتك.. هي ما يصنعكَ؛ لأنك مع اكتساب كل ذكرى جديدة تتغير ولو بشكل ضئيل. الخطأ هو أن تتعلق بالذكرى وتعيش عليها. وجوليا تكاد تصل إلى هذا الحد نوعاً ما لولا أنها ماتزال تملك جزءاً صغيراً من شخصيتها الشجاعة والمواجهة.

أين بدأ كل شيء في حكاية جوليا؟ مع صورتها بفستان يكشف الجزء العلوي من صدرها، فستان أبيض ناعم مع طرحة خفيفة تجعل منها عروساً ليست مميزة عن غيرها، ولكنها تملك جمالها بطريقة خاصة. هل كانت هذه النهاية السعيدة هي بداية كل شيء؟

لطالما كان الفضاء يخصُّها. وجدت نفسها كثيراً تسبح في مجرة سوداء افتراضية مع شخصيات روايتها الأخيرة، والتي حطمت قلوب القراء، وما زالوا ينتظرون تتمة الحكاية في الجزء الثاني منها. وقفت جوليا أمام الطاولة الرخامية العريضة، وتخيّلت بطل روايتها وهو يظهر من العدم، يبرز في الفراغ الأسود ونجوم المجرة تنعكس على خوذته. سمعت صوته وكان غير واضح آتياً من جهاز الإرسال الخاص به، وهو يطلب منها أن تكمل القصة، وهو يعبر لها عن الخذلان الذي يشعر به؛ لأن حكايته هو الآخر وجدت البداية، ولكن لم تجد النهاية بعد.

عادت ذاكرة جوليا إلى الوراء، حيث الوقت الذي كانت فيه مع آدم. سألها: "هل أنتِ مَن كتب هذا؟" راقبته بعينين لامعتين، ودت لو أنها تكذب حتى

تخفي إحراجها الذي أصبح ظاهراً على ملامحها مما جعل آدم يستشعره.

"نعم.. أنا كتبته". أخفض آدم وجهه على الأوراق، اختفى بريق عينيه الناعستين، وأصبحتا كما لو أنهما مغلقتان لا يمكنها أن ترى إلا رموشه، وجفنيه اللذين كانا بلون بشرته الخمرية الدافئة. ضربت الشمس خصلات شعره فأعطتها لون الفحم.

نظر إليها من جديد: "هذا مذهل، بل أكثر". كان بالفعل يقرأ الأوراق التي وجدها مصادفة على المكتب، ولم يتمكن من التوقف حتى دخلت جوليا.

علّق من جديد: "أريد قراءة الأوراق كلها، إذا كان هذا ممكناً". حرّكت رأسها بذهول.

بعد صمت قصير أجابت: "لا تقل بأنه مذهل حتى تنتهي، ستغير رأيكَ حتماً بعد ذلك".

لا يهم.. لم يكن ذلك يهمه، كان يرى عالماً كاملاً خلقته جوليا في تلك الأوراق، يراه بنظرة المخرج التي اعتاد أن يلقيها على كل الأشياء التي أمامه، كل المشاهد التي يقوم بالتقاطها كما تخيلها. كان يرى هذه الصورة بسهولة مما جعله يتعجب لقدرتها في رسم الصور التي تدور الأحداث فيها. كانت حاسته تنبّئُه بعد قراءة صفحات قليلة بأن ما بين يديه شيء ثمين، وسينال إعجاب العديد من الأشخاص. وكان محقاً فقد نجح هو معها فيما بعد

قال لها: "سنصل إلى خارج المجرة، كما فعلتِ مع هذه الشخصيات". ترك الأوراق وأتى ليقف قبالتها؛ احتفالاً باللحظة السعيدة، أراد لها أن تشعر بوجوده قريباً منها من جديد، أن تشعر بدعمه الذي لم ينقطع، لكن الآن في الواقع، وفي الوقت الحالي انقطع دعمه، ولم يعد آدم موجوداً معها، بل صار يبعد عنها أميالاً عديدة، تكفي لكي تشكّ في أنّ هواءها يختلف عن هواء عالمه.

30

لم يكن الحزن بحد ذاته هو ما يحتضن جوليا، بل كان يفور في داخلها كبركان يجبرها على إظهاره، لم تكن تشعر بالراحة في منزلها الجديد، ولم تجرب حتى الآن أن تنخرط، أو أن تقنع نفسها بأنها جزء من هذا المكان البعيد. لم تكن هذه البلدة تشبه المدينة، فبعيداً عن زحام المدينة، انسخلت جوليا بدوامات أفكارها عن العواصف التي تجري فيها أفكار الآخرين. الحياة هنا فيها من الهدوء ما يكفي لكي تسمع صوت ذاتكَ. مؤرقة هي فكرة الوحدة، والأصعب من ذلك عندما توهمكَ الحياة بالصخب غير المسموع، وتعيدك بعد ذلك لظلام وحدتك.. أن تجعلك تقارن بين صخب غير حقيقي وهدوء مؤلم، أن تعود إلى الصفر وإلى نقطة البداية. جوليا تبدأ عند بداية السطر من جديد، ولكن مَن يستطيع أن يرفض واقعه، ويطلب واقعاً آخر؟ إنه ماهو مُقدَّر لنا أن نعيشه. لا يحتاج إنسان الكثير حتى يستوعب مدى حزنه في اللحظات التي يشعر فيها بأنه حزين، وبأن السعادة أبعد ما تكون عنه. وبأن الوحدة عامل مساعد على اشتعال الحزن بسرعة تفوق تصوّر صاحب الشعور نفسه.

لم يكن اليوم التالي لجوليا في منزلها مميزاً، حتى حلول المساء، ففي المساء تحوَّلت حياتها إلى شيء آخر لا يشبه كل مخططاتها في الشفاء من صدمتها. ابتلعت جوليا حزنها بعد أن خسرت حياتها السابقة مع آدم، لكن هناك صدمات لا نتقبّلها إلا عندما تبدأ بالتطابق مع الوقت، وهذا الانسجام يرتبط بالوقت.

ابتعدت جوليا حتى نهاية الممر حيث الردهة الصغيرة، والتي تستعملها كمكتب صغير لها. تسلّل الهواء البارد عبر الأرضية الخشبية، وشعرت به على طول ساقها حتى ركبتيها، مما لم يشعرها بالراحة أثناء جلوسها على الكرسي، ولم تتمكن من أن ترخي جسدها الذي كان مشدوداً؛ بسبب البرودة المفاجئة. فتحت حاسوبها المحمول دون أن تشعل المصباح الجانبي الصغير، بل ظلّت معتمدة على الضوء المنبعث من الشاشة، وهي تضغط على لوحة المفاتيح وتبحث عن الأحرف. مرّ وقت طويل فقدت فيه أصابعها الانسجام القديم بينها وبين مفاتيح الحاسوب، وهذا الشعور كان يبعث على الإحباط. فتحت أيقونة معالج النصوص، وحاولت البَدء بالخطوة الأصعب في الكتابة

بالنسبة لها وهي البداية. لم تكن لديها أية أفكار مترابطة لكتابتها، ورغم ذلك كان في رأسها صوت مُلِح للمحاولة على الأقل. تذكرت بطل قصتها، وشعرت بأنه يقف مُشجِّعاً، رغم ذلك توقفت عند استخدامها للنقطة الأولى وبعد نهاية الجملة الأولى. أغلقت التطبيق فاستوقفها تنبيه الحفظ. تردّدت وهي ترى الجملة الوحيدة، ولأنها شعرت بأنّ كتابتها لم تكن جهداً ذا أهمية، لذلك قامت بإغلاق المعالج دون حفظها.

تذكرت آدم فجأة، وانتابها نوع من الفضول البارد لترى كيف كانت تسير حياته بعد كونها لم تعد جزءاً منها نهائياً، وكأنها لم تدخلها حتى. فتحت محرك البحث لتدخل على مدونتها عبر الإنترنت. كانت مدونتها شبه ميتة ولا جديد فيها منذ أشهر عديدة. لم تتوقف عن متابعة مدونة آدم رغم أنه فعل؛ ليس لأنها لا ترغب في ذلك، بل لأنها نسيت وجودها، ونسيت مدونتها، ولم تعد تهتم بالدخول إليها. كانت هناك رسائل مباشرة عديدة لم تفتحها، ولم ينتابها أي فضول تجاهها، وهي متأكدة بأن آدم لم يكن ضمن قائمة المرسلين.

وجدت جوليا مدونته بين المدونات التي تلحق بها، دخلت إليها فكان المنشور الأخير عمره يوم واحد. أبعدت يدها عن الحاسوب، وأبقت منشوره في منتصف الشاشة أمامها. راقبته بجمود بوجه ورأس نصف مائل. تحركت عيناها على كل جزء من المربع الذي وضعت فيه الصورة التي نشرها. كان عدد الإعجابات بها كبيراً، كما كانت التعليقات كذلك. كان المنشور عبارة عن صورة تمّ التقاطها بهاتف محمول؛ لأنها ليست واضحة. يظهر بها النصف العلوي لجسده، وهو يقف باعوجاج حتى يصبح بطول المرأة التي وقفت مستندة إليه. كان يرتدي قميصاً أبيض تحت معطف صوفي قصير، وبقربه وجه سارة المألوف بشعرها البني، وهي ترتدي معطفاً جلدياً، تحته قميص خفيف، وسروال جينز أزرق يُظهر جزأه العلوي فقط، كتب تحت المنشور: "رسمياً نرتدي خواتمنا". وبعد تلك الجملة الصغيرة يظهر شكل رمزي لخاتم بألماسة زرقاء كبيرة.

إذن: هما مخطوبان الآن!

شعرت جوليا برغبة قوية في دفع الهواء القليل المتبقي في رئتيها. دفعته بقوة عبر فمها دون أخذ شهيق. نقرت بأطراف أصابعها على الطاولة، في حين نقلت عينيها إلى السقف ومن ثم في أجزاء المكتب، أعادت نظرها إلى

المنشور. أغلقت المدونة بسرعة، ونهضت مبتعدة عن الحاسوب دافعة الكرسي إلى الخلف دفعة خفيفة.

"لن أبكي". قالت لنفسها. كتمت بكاءها، لكنها شهقت في منتصف الطريق وهي متجهة إلى غرفتها، سرعان ما وضعت يدها، وكأنَّ ما بدر منها كان رغم إرادتها، وحين أجهشت فجأة لم تكن هي المتحكمة في نفسها. أنَّبت ذاتها وحبست دموعها، اتكأت عل السرير، واختبأت تحت لحافها. سرعان ما أبعدته من جديد عن وجهها، وأخرجت يدها لتجر الدرج القريب، ثم أخرجت علبة الأقراص المنومة منه. كان هذا هو الحل الوحيد للنوم مهما بدا دراماتياً ومبالغاً فيه، ورقدت بعد مرور وقت لم يكن قصيراً أو حتى طويلاً، بل يكفي لكي تظل مصحوبة بحنقها وقتاً إضافياً.

لأن النوم أتى بتلك السهولة كان معجزة صغيرة بالنسبة لجوليا، وعادةً لا تحدث معها المعجزات. استيقظت بعد مرور ساعتين، حين كان الليل أكثر حلكة، والنافذة ترسم صورة أكثر قتامة للعالم الخارجي. لم تكن متأكدة ما إذا كان صوت الضربات على النافذة هو ما أيقظها، أو صوت الطفل في نهاية الشارع. كان هناك في البداية ضربات أقوى من صوت حصى يُرمى على نافذتها، بل يشبة ضربة كفٌّ مبسوط بحجمه الكامل على نافذتها. أقلقها الصوت، ونفث في داخلها رعباً من شأنه بسهولة أن يخفي كل ذرة دوار تشعر بها، وكل طبقة ضبابية كانت على عينيها.

زجاج النافذة انقسم إلى قسمين، بينهما فراغ صغير يكفي لكف يد جوليا، كانت النافذة مفتوحة قليلاً، وضوء عمود الإنارة معكوس عليها، وستائر الساتان الخفيفة تتحرك مُصدرة حفيفاً. أتى صوت جرس عجلة هوائية من بعيد قبل أن يصل جسدها إلى النافذة. أغلقت الجزء الأيمن منها، وبينما كانت تغلق النصف الأيسر رأت انعكاس الشارع من جهته اليمنى على الزجاج. كان هناك كائن قصير يركض في منتصف الشارع بخطوات غير متزنة. أدارت وجهها لترى الصورة الفعلية للشارع، فرأت طفلاً يرتدي سروالاً قصيراً، وحذاء ضخماً، وقميصاً أكمامه قصيرة ميّزت اللون الأبيض عليه بسهولة من بعيد.

مشى الطفل على شكل موجة على طول الشارع، كان يمشي على الخط الأبيض الفاصل بين خانتي الشارع الاثنتين متجهاً حتى أسفل الطريق. ابتعدت جوليا عن النافذة باحثة عن ردائها القطني، والذي وجدته مرمياً على الأرض

بالقرب من سريرها. أخذته وقلّبت أكمامه قبل أن ترتديه وتربطه بإحكام حتى شعرت بصعوبة التنفس. خرجت من الغرفة بخطوات سريعة ليس لها صوت؛ بسبب خُفّ المنزل الذي ترتديه.

عندما خرجت كان الطفل قد وصل إلى نهاية الشارع وحيداً بخطوات غريبة، كما لو أنه كان يرقص على موسيقى بطيئة. تبعتهُ بخطوات تشبه الهرولة، ولكنها أبطأت قليلاً. ودّت أن تصرخ به: "توقف". ولكن لماذا قد تثير ضجة، وبالنهاية يكون الأمر أبسط مما فعلت؟ وفي الوقت ذاته لم تكن تريد إزعاج جيرانها النائمين في منازلهم. مشت بسرعة حتى أصبح رداؤها يتطاير، حتى ظهرت ساقاها تحته.

مايزال الطفل يمشي على الخط الأبيض، ولكنه انعطف مع نهاية الشارع يميناً. اختفى عن ناظرها لوهلة، ولكن ما أن انعطفت جوليا، حتى رأته قد قطع مسافة أكبر من أن يتمكن من قطعها في الوقت الذي كانت تتبعه فيه قبل انعطافها. جمعت حروفها وصوتها في الجزء الخلفي من فمها، وبقيت مترددة من إخراجهما أم لا. أخرجت الصوت دون إرادتها في النهاية: "توقف".

ضحك الطفل من بعيد، وأكمل سيره منعطفاً يساراً عند المنعطف الأول. جرت جوليا خلفه فقد ازدادت سرعة خطواته. كان يتجه إلى الجسر فوق النهر. انتشر بعض الأدرينالين في جسدها مسبباً خوفاً لا تعرف مبرره الحقيقي. جرت وأصبح رداؤها خفيفاً يتحرك بسهولة مع الهواء.

على حافة الجسر وقف الطفل خلف الدرابزين الحديدي. لم ترَ كيف تسلقه وأصبح على الطرف الثاني من الجسر. كانت الأرضية الحديدية تحته مكشوفة من أحد جانبيها، ونحيفة بحيث بالكاد تكفي لقدميه معاً. تحرك الطفل مع الريح الخفيفة كما لو أنه دمية من القش.

صرخت جوليا مجدداً: "توقف.. لا تفعل شيئاً".

أسندت يديها، ورفعت جسدها على الحاجز الحديدي. أبقت إحدى يديها قابضة على الدرابزين، وتحركت ببطء على الطرف الحديدي. كانت خطواتها حذرة.. قدم تسبق الأخرى. كانت المسافة الفاصلة بينهما تعادل الثلاثة أمتار تقريباً، ومن تحتهما النهر كان يتحرك مشكلاً موجات خفيفة وأقرب إلى الركود.

ازدادت شدة أعصاب جوليا مع كل حركة للطفل الذي تجاهل وجودها تماماً. اقتربت منه بينما ظلّ هو واقفاً على الطرف الحديدي، ويداه طلقتان في الفضاء. لم يكن يحدق في شيء، وبدا وكأنه شارد الذهن.

يبعد الجسر عن النهر ما يقارب اثنتي عشرة قدماً ارتفاعاً. ويبتعد الطفل عن ذراع جوليا، بينما تفردها له مقدار متر واحد أو أقل. كانت قدماها غير متزنتين، وركبتاها ترتجفان خوفاً، مما جعلها تشد قبضتها على الحاجز الحديدي. اقتربت خطوة واحدة أخرى، ولكن حينها أرخى الطفل جسده، كما لو أنه نام فجأة، وكورقة رقيقة سقط جسده في النهر أمام جوليا.

أنتج ارتطام جسده بالنهر صوت صفقة. ظهرت موجات قوية في البقعة التي سقط فيها جسد الطفل. لم يظهر جسد الطفل، ولكن تحت طبقة الماء حيث البقعة التي سقط فيها كانت هناك حركة قوية وسريعة بدت لجوليا كحركات طير وهو يحاول أن يرفرف، أو يطير بسرعة بسبب أمر أخافه.

ظلّت واقفة متردّدة أمام ما ترى، حتى أنها لم تدرك بأن يديها قد أفلتتا الحاجز الحديدي. تحركت خصلات شعرها وهي تقف مندهشة كالتمثال. هبّت رياح أخرى أقوى جعلتها ترتعش رعشة خفيفة. وفي لحظة لم تتردد كثيراً قبلها قفزت بشجاعة لم تكن تملكها يوماً، أرخت جسدها، وبعد ثوانٍ قصيرة ارتطم أيضاً بالماء البارد.

غرق جسد جوليا كله تحت ماء النهر العميق. تشكلت حولها موجات مصحوبة بفقاعات صغيرة شفافة، ولكنها حجبت عنها الرؤية لوقت قصير عاد بعدها الماء للركود. ابتعد عنها سطح الماء لأشبار قليلة. هوى جسدها وهبط كقطعة حجر. حركت عينيها في الماء المظلم الذي بدا كالفضاء الذي تسبح فيه، عندما تعود إلى خيالها في وقت الكتابة. بحثت عن الطفل حولها ولم تجد له أثراً. راقبت الجزء المنخفض من الماء ولكنه لم يغرق أكثر. حاولت أن تتحرّك، ولكن حركاتها لم تُجدِ نفعاً كثيراً، فقد ظلّ جسدها ينخفض أكثر.

ظهر الطفل أمامها، ولكن معالم وجهه لم تكن واضحة. شكّل ظهوره حولها خيوطاً شفافة من الماء، وموجات صغيرة. مدّت يدها لتقبض عليه، بينما ظل هو ثابتاً أمامها. لم تصل إليه أو تلمسه. اختفى مجدداً، بل ذاب مع الماء.

ابتعد سطح النهر عنها، وغرق جسدها إلى مستوى أعمق. ابتعد الضوء

وازداد الظلام. ظهر وجه آدم أمامها، ليس الوجه الذي تخلّى به عنها.. وليس ذلك الوجه الذي عاش فترة الحزن على خسارة طفلهما.. ولا أيضاً ذلك الذي خانها به. بل كان الوجه المألوف في أيامهما السعيدة.

اختنقت وأخرجت كل الأكسجين الذي احتفظت به في رئتيها دفعة واحدة. فاقدة حيلتها الوحيدة. حاولت مرة أخيرة التجديف بيديها إلى الأعلى، ولكن قواها خارت أخيراً، ومحاولتها فشلت. ضاق العالم وأصبح السطح صفحة داكنة، لم تعد تبصر أي بصيص لنور. أغلقت عينيها بهدوء، وبدأ الماء بالتسرب إلى فمها.

حينها ومضت ذكرى أخرى في ذاكرتها، لتكون هي المشهد الأخير الذي يشمل معظم تفاصيل حياتها.

جود.. سنطلق عليه جود". قال آدم بوجه باسم دافئ بدا لجوليا كأنه فصل الربيع في أسبوعَيه الأخيرين.

"وماذا لو كانت فتاة". لمس بكفه بطنها من خلف فستانها، وقال: "جوليا إذًا.. سيكون لدينا جوليتان". راقبت عينيه تحت حاجبيه المقوسين. اتسعت ابتسامته أكثر، وظهر صف أسنانه. شعرت حينها بدفء كفه يتسلل عبر جلد بطنها.

"سنكون العائلة الأسعد". رفع كفّيه الاثنتين معاً، وضمّ وجهها بهما.

أرادت أن تقول له كل تفصيلة صغيرة شعرت بها في تلك اللحظة.. أرادت أن تطلب منه ألا يخذلها. كان يجب أن يعلم بأن ما أضاعته من أيام معه وقبله لا يهم، وليست نادمة عليه طالما كان سيبقى معها. أرادته أن يعلم بأن محيطها الواسع فيه شخص واحد لطالما أراد البقاء معه أكثر من أي شخص آخر حتى. أرادت جوليا الاحتفاظ بسعادتهما تلك لتهون عليها ألم ذلك اليوم.. الذي أتى لاحقاً لتخبره بصوت حزين: "لقد خسرنا الطفل".

31

مركز ماونتنز هيل للتأهيل.

جلسات علاج جوليا:

قد لا تصدقني أيها الطبيب، لكن ذلك ما رأيته، إنه ما راودني حين غرقت. كانت تلك هي تجربة الموت بالنسبة لي، لكنها أتت سابقة لأوانها حتماً. لستُ أتخيل، ولا يمكنني أن أثبت ذلك؛ لأنه مرّ في ذهني في رأسي فقط، ولا يمكننا أن أظهره للآخرين.

صوت الطبيب: "أخبريني بالأمر.. ولو كان غير قابل للتصديق، تخيليه فصلاً من قصة خيالية تكتبينها، ولسنا هنا لنصدقها أو نكذبها، إنما نحن نريد رؤية أبعاد القصة".

في البداية كان الأمر كالذكرى بالنسبة لي، أتتني في الحلم وبدت قريبة إلى الواقع جداً، ولكنها مصحوبة بتأثيرات الحلم كالضباب والمعالم المجهولة الأخرى. كانت شمس روما في نهاية الربيع تسطع فوق رؤوسنا بحرارة ليست مؤذية جعلت خصلات شعري تلمع وهي تتحرك وجعلت وجه آدم أكثر نوراً. كنتُ أعيش تلك اللحظة السعيدة من جديد، وكأن ما يحصل معجزة. ذات الإحساس وذات المشاعر، ولحظة سعيدة أعيشها بتفاصيلها ولكن من دون دقة.

أقف في ساحة مافونا، أرتدي فستانَ الكسندر مكوين أبيض قصيراً من دون أكمام، وحذاءً ذا كعب عالٍ فضيَّ اللون، يلمع كلما سطعت عليه الشمس، له قصة أنكل ستراب، لا أذكر تحديداً علامته التجارية. كان الفستان ضيقاً من الجزء العلوي حتى الرقبة، وفي الجزء السفلي أوسع قليلاً مما جعله يرفرف مع كل حركة سريعة أقوم بها.

رأيت وجهي ببطء وأنا أفتح فمي بشدة لأضحك فتظهر أسناني بيضاء مصفوفة بترتيب. يطير جزء كبير من شعري فأرفع يدي لتثبيته، وتتوهج حينها الماسة الصغيرة على خاتمي الفضي.

"استديري". يقول آدم. أُنفِّذ فيبقي جسمي مائلاً بعد أن كان مقابلاً له. يحرك إبهامه وسبابته على عدسة كاميرة الفوجي فيلم للحظات، ومن ثم يأتي

صوت التقاط الصورة ويجعلني أرخي جسدي المشدود. أذهب لأقف بقربه بسرعة، ونرى الصورة واضعين أيدينا فوق الكاميرة، حاجبين الشمس عن شاشتها الصغيرة. أشهق مندهشة من جمال الصورة وأقول له: "تحتاج بعض التعديلات، وستكون مناسبة لأضعها خلف الكتاب".

يقول شيئاً لا أتذكره، تختفي كل الأصوات حولي وتصبح حركة فمه بطيئة، ومن ثم يختفي مع موجة غبار تغطي كل شيء.. ينقشع ذلك الغبار عن الساحة التي أقف فيها، ويتغير كل ماهو حولي ماعدا شكلي وملابسي. أبقى واقفة في صحراء رمالها تبدو قاسية لا تحركها الرياح. توزع الرمث القليل على بقع صغيرة من الأرض. وفي نهاية بعيدة ظهر خط أسود ضعيف يكاد يختفي تحت انعكاس ضوء الشمس القوي، والذي جعل بقعة سراب صغيرة تظهر لثوانٍ وتختفي. تحول الربيع فجأة إلى الصيف. تأملتُ الخط الأسود، وتبعتُ مساره بعينيّ حتى اصطدم بصري بمبنى صغير مكوّن من طابقين، يقع عند محطة انتظار تغطيها مظلة كبيرة. كانت تلك المحطة لانتظار القطار، والذي كان الخط الأسود عبارة عن سكتة. ظهرت المحطة بعيدةً، والعالم من حولي خالياً وهادئاً. مشيت بضع خطواتي انكسر معها كعب فردة حذائي اليمنى، فاضطررت إلى خلع الفردتين والمشي حافية على الرمال الدافئة وصولاً إلى المحطة.

عندما رأيت الشمس مرة أخرى وجدت أن شعاعها تحول إلى أولى درجات اللون البرتقالي، قلَّ وهجها وانخفضت قليلاً بينما كانت ساطعة منذ لحظات. عكست أشعتها لوناً ذهبياً على حبات الرمال. أحنيت رأسي متأملة المكان حولي، ومذهولة من غرابة ما حدث مع شعاع الشمس.

إنه حلم.. أدركت بأنني أحلم، والغريب بأنني رغم إدراكي أعيش الحلم ولا أستيقظ.

أعادني صوت الجرس البعيد الصادر من المحطة إلى واقعي، بل أعادني مرعوبة واضعة يدي على قلبي، والذي لم يكن يضرب بقوة كما توقعت أن أجده. حركت يدي على صدري في مناطق عدة لأتأكد، ورغم هذا لم يكن هناك أي نبض. حركت يدي على معصمي بتوتر ولم أجد أي نبض.

ضرب الجرس مرة أخرى، فأجفلتُ لصوته مجدداً وأبعدت يدي عن معصمي.

مشيت حتى المحطة الموجودة بخطوات سريعة على الرمال. كانت سكة القطار والمحطة موضوعتين في وسط الصحراء الخالية، ما عدا بعض الصخور الكبيرة البعيدة، والتي شكّلت هضاباً صغيرة.

عندما وصلتُ إلى السلم الخشبي الصغير للمحطة تسللت إلى أنفي رائحة قهوة، وقطع بسكويت الكاكاو، والذي كنا نعده عادة في المناسبات السعيدة. صعدت السلم القصير، ورميت حذائي على الأرضية الخشبية ما أن أدركتُ ألّا أحد في المحطة. كان هناك مكتب بابه الخشبي مغلق، وقد وضعت عليه لافتة معدنية ذهبية شديدة اللمعان. وبالقرب من الباب نافذة مستطيلة نحيفة ينبعث منها ضوء مصباح خافت، ولكنه كان ينير الغرفة كاملة. لم أميز أي شي من معالم الغرفة خلف النافذة سوى نصف لوح معلّق على الجدار، ثبّتت عليه أوراق بيضاء.

بحثت عن نوافذ مفتوحة كتلك التي نحجز منها تذاكر القطار ولم أجد، فعدت إلى الباب والذي كتب على لافتة محطة الآخر. فتحته بسرعة وراقبت المكان بعينين واسعتين. عبرت بخطوة ثقيلة ما أن رأيت أمامي مكتباً خشبياً وسط الصالة الفارغة تماماً من أي شيء، ما عدا ذلك المكتب واللوح الخشبي الموضوع على الجدار.

همس صوت الرجل الهادر: "تفضلي".

"أين أنا؟". سألته فجأة.

"محطة الآخر.. ماهو اسمكِ". قال وهو يبتسم، ووجنتاه مشدودتان كقطع بلاستيكية. كان يملك من الوسامة قدراً يجعل العين لا تستطيع أن تبعده عن مجال رؤيتها.

"جوليا.. ماهي محطة الآخر؟".

تجاهلني وقام بينما بقي جسده مستقيماً، فتح باباً خشبياً آخر موضوعاً في جنب الصالة، وبعد عدة دقائق عاد حاملاً ملفاً بنيّاً مغطى بطبقة جلدية. قال وهو يرمي الملف على الطاولة: "حرف الجيم، جوليا.. جوليا.." . كان يحرّك إصبعه على جدول مرسوم في إحدى صفحات الملف، الذي طبع على غلافه حرف الجيم بماء الذهب.

"لا يوجد في ملف حرف الجيم لهذا الشهر أية امرأة تدعى جوليا بمواصفاتكِ".

صرخت: "ما الذي تفعله؟ ما هذا؟ وأين أنا". رمش عدة مرات سريعة قبل أن يستدير متجاهلاً سؤالي. دقيقة واحدة عاد مصطحباً امرأة في نهاية شبابها لها وجه ظهرت عليه قليلاً تجاعيد شبه مشدودة.

قالت المرأة بصوت صدر منها كالهمس: "سيدتي لا يوجد جوليا هنا، هل لي أن أعرف اسم والدتكِ؟"

"لماذا كل هذا ما الذي يحصل؟ أين أنا؟ أجيبيني".

"أنت في محطة الآخر.. ماهو اسم والدتكِ؟". أجبتها مشيرة بيدي لها: "جين. ماهي محطة الآخر". تجاهلتني المرأة، واختفت خلف الباب فوجّهتُ نظرتي إلى الرجل الوسيم، وقبل أن أتحدث أشار بيده جاعلاً مسافة صغيرة بين أصابعه الخمسة: "اهدئي، الجميع يكون مصدوماً في البداية. تذكري آخر ما حدث لكِ فقط".

انتقلت ذاكرتي فوراً إلى الطفل أشعث الشعر الذي وقف على حافة الجسر، وفجأة إلى العتمة في قلب النهر.

صرخت: "مهلاً.. لقد غرقتُ. هل أنا..؟".

أجابني بسرعة مغمضاً عينيه، ومحنياً رأسه كأنه موظف استقبال فندق: "نعم، ميتة، ولكن الغريب بأن اسمكِ لم يكن وارداً في كشف وفيات هذا الشهر، الذين يبدأ اسمهم بحرف الجيم". انفجرت مني ضحكة قصيرة بدت وكأنني سعلت، سريعاً ما وضعت يدي على فمي معتذرة: "ما تقوله يبدو لي نكتة حقيقية".

نظر إليّ بعين مفتوحة، وأخرى بدت أضيق: "ردة فعلٍ نادرة، معظم الأشخاص يتقبلون الأمر بسلام، أو يبدؤون في بكاء هستيري. الأمر ليس نكتةٌ بل إنه واقع و..". ظهرت المرأة من خلفه من جديد مقاطعة كلامه بعد أن نادت باسمي: "سيدة جوليا تفضلي معي إلى مكتبي". أشارت لي بيدها إلى السلم العريض الموجود خلف مكتب الرجل الوسيم. مشيتُ حيث أشارت، وصعدت السلم حتى وصلتُ إلى الطابق العلوي.

"يمين، المكتب الأول يسارك". قالت ذلك ولكنها سبقتني لتفتح باب المكتب. وجدتُ رجلاً شعره رمادي بسبب الشيب، لم يبقَ من شعره الأسود سوى القليل. رفع الرجل رأسه بدايةً، ومن ثم هبّ واقفاً، ومد يده لي للتحية. طلبت مني المرأة الجلوس على الكرسي المقابل للرجل أمام مكتبها، وفعلتُ ذلك بهدوء.

كان المبنى مايزال يغرق في الهدوء، ولا يوجد سوى أصواتنا نحن الثلاثة، حتى الرجل الوسيم لم أره من جديد وبدا كما لو أنه اختفى ولا صوت له.

"جوليا كيف أتيت إلى هنا، إشرحي لي آخر ما حدث معكِ".

"الطفل.. آخر ما حدث معي هو أنني قفزتُ خلف طفلٍ وقع من فوق الجسر وغرق في النهر، وعندما قفزتُ خلفه غرقت، والآن صحوتُ هنا في هذا المكان الغريب". نظرت المرأة إلى الرجل صاحب الشعر الرمادي نظرة فيها تشكيك لما أقوله.

قال المرأة: "في الواقع يا جوليا إن موعد قدومكِ إلى هنا ليس الآن ولم يحن بعد، لذلك نحن مندهشون بسبب الطريقة التي أتيتِ بها إلى هنا. لا أفهم ما حدث معكِ، ولكن حالتك ليست الأولى. وبهذه الطريقة قبل اتخاذ أي قرار يجب أن تتم مناقشة قصيرة، ومن ثم سنتخذ القرار اللازم".

ما أن صمتت حتى شرع الرجل في الحديث: "أعلم بأن هناك على الأقل مئة سؤال في خلدكِ يدور، ولكن في حالتكِ نحن لا نستطيع شرح كل التفاصيل، فلو كنتِ من الذين اختير لهم مصيرهم لكنا مشينا في خطوات رحيلهم خطوة بخطوة، وشرحنا لهم كل ما يحدث هنا. أنت يا جوليا لا نعلم ما هو مصيركِ حتى الآن. ستتم جلسة نرجوا أن تكون قصيرة نناقش فيها حالتكِ ونطلعكِ على ما سيحدث". صمت لثانيتين ثم أضاف: "أرجو أيضاً أن تفهمي الأمور حين حدوثها".

علمت بأنه لا ينوي شرح المزيد، ولا رجاء من طرح المزيد من الأسئلة عليه، لذلك اكتفيتُ بالصمت. خرج الاثنان، ومن ثم عادت المرأة وحدها، وقالت قبل أن تخرج مجدداً: " ستتم مناقشة حالتكِ، والاطلاع على ملفكِ".

من خلال النافذة رأيتُ الشمس وقد انخفضت وأصبح لون السماء مقارباً للونها، حتى شككتُ بأنها تكاد تذوب على صفحة السماء. انتظرت وحدي في

الغرفة لوقت لم أحسبه، ولأنني منشغلة بأفكار عديدة، لم ألحظ إن كان طويلاً أم قصيراً. عادت المرأة دافعة باب المكتب فجأة، ولكن خطواتها بعد ذلك كانت باردة وبطيئة لا يكاد يصدر لها صوت.

قالت بينما كانت تجلس على مكتبها: "حسناً يا جوليا، القرار النهائي ليس هنا. يبدو أن زميلي سيأخذكِ في رحلة قصيرة ستعرفين خلالها القرار النهائي".

"القرار النهائي لماذا؟". سألتها بعصبية.

"لعودتكِ أو وحيلكِ نهائياً". قالت رامية الكلمات القليلة بوجهي كالصفعة. لم تدم الصدمة طويلاً؛ لأنني وفي غمرة ذهولي سمعت صاحب الشعر الرمادي يناديني ويطلب مني أن أتبعه. خرجنا من المبنى الصغير متجهين بين الكراسي الخشبية الطويلة القليلة الموضوعة في محطة الانتظار حتى وصلنا إلى طرف المحطة تفصل بيننا وبين سكة القطار خطوتان.

طلب مني الرجل صاحب الشعر الرمادي بينما كُنا واقفين ننتظر وصول القطار: "جوليا اشرحي لي شكل ذلك الطفل الذي تبعتِه عند النهر".

تلعثمتُ قليلاً قبل أن أجيبه: "لا شيء مميز فيه. يبدو كأي طفل كان يلهو لساعتين أو أكثر في الشارع. شعره أشعث، ويرتدي سروالَ جينز أزرق قصيراً، وقميصاً بكمين قصيرين لونه أبيض عليه بعض الرسوم. أما وجهه فلم أدقق في ملامحه جيداً".

اكتفى بإيماءة من رأسه ولم يجب علي. سمعتُ صوت قدوم القطار، واحتكاك عجلاته بالسكه الحديدية. لم يصدر أي صوت آخر ينذر بوصوله. كان لون القطار ذهبياً لامعاً جداً ويتكون من مقطورة واحدة فقط، لا مكان فيها للسائق. دخل الرجل صاحب الشعر الرمادي قبلي، وأشار إلى إحدى الكراسي المغطى بقماش أحمر لأجلس عليها، بينما اتجه هو لطرف المقطورة، وتوقف يعبث بكرة ذهبية موضوعة في منتصفها، وبعد ذلك عاد بهدوء ليجلس بالقرب مني.

قال فجأة: "جوليا حياة إنسان معقدة جداً، وشرحها ليس بالأمر السهل مهما بدت سهلة. يعيش إنسان عشر قصص في دقيقة واحدة مهما بدا فارغ، والأكثر تعقيداً من حياته هو موته. قد لا تفهمين كلامي.. أعلم ولكن لا

يمكنني أن أصرح بكل شيء لكِ، وليس هنا تحديداً. لا يعلم إنسان متى يموت أو متى يرحل عن العالم، ولكنه يرحل فجأة وفي لحظة غالباً لا يكون يدركها. للموت طرق عديدة مختلفة". صمت لوهلة ثم قال: "مهلاً.. ما زلتُ أقفز في كلماتي دون فائدة. جوليا أنت هنا لا على الأرض التي تعرفين، وجودكِ في هذا المكان يعني ببساطة أن حياتكِ على أرضكِ انتهت، وهذه تتمة قصتكِ التي إخترتِ".

"ولكنني لم أختر وجودي هنا". قلتُ.

"أعلم.. أعلم يا عزيزتي لذلك نحن نقوم بهذه الرحلة القصيرة جداً؛ لأنه يبدو بأن لبساً صغيراً حدث معكِ، لأن نهايتكِ ليست في كشوف هذا اليوم، وليس من المقرر أن تأتي إلينا اليوم.."

تحركتُ في مقعدي وسألتُ: "متى إذاً.. لست أفهم".

"لم يحن موعد موتكِ بعد.. لقد أتيت أبكر من موعدكِ المحدد. ولكن متى هو موعدكِ المحدد لا يمكنني إعلامكِ. ستعرفين اليوم القليل جداً، ولكنه أكثر مما يجب أن تعرفيه".

عاد إلى صمته، ولم أجرؤ أنا على قول شيء آخر.

وصلنا إلى وجهتنا في وقت قصير. عندما ترجلنا من مقطورتنا كان الليل قد حل، وظلام أزرق صافٍ تشع النجوم به قد خيّم على السماء. القمر كان بدراً كبيراً وقريباً. ونوره غريب يبعث قشعريرة في الجسد، وشعوراً بالنقاء. كانت وجهتنا عبارة عن محطة أخرى مزروعة في منتصف برج ذهبي لا يحيط به شيء سوى الغيوم. كانت الأرض في الأسفل عبارة عن ضباب أبيض باهت يغطي العالم، وكأنه لا يوجد في العالم سوى البرج الذهبي الذي توقفنا في أحد طوابقه.

سبقني الرجل صاحب الشعر الرمادي مرة أخرى متجهاً إلى بوابة مستطيلة طويلة ذهبية نقش عليها بلون ذهبي لكن بدرجة أفتح. فتح جزءاً قليلاً من البوابة، والتي أصبحت ضخمة عندما اقتربنا منها. تسللنا عبر الجزء الصغير المفتوح أنا وهو. في البداية كنتُ أتبعه، ولكنني أصبحتُ أمشي بمحاذاته بعد ذلك. صعدنا عبر سلم حلزوني ضخم، كان الدرابزين في جانبيه لونه بني مشذب بذهبي لامع جداً يعكس الإضاءة البسيطة الموجودة في القاعة

الضخمة والفارغة التي عبرنا من خلالها. شعرتُ بأنني أمشي في بهو أحد الفنادق الفخمة. بدا جسده يهتز، وهو يسرع خطواته في ممر واسع حتى وصل إلى نهايته، وتوقّف أمام بوابة تشبه التي عبرنا منها ولكن بحجم أصغر. كدت أعبرها خلفه، ولكنه طلب مني الجلوس على كرسي وحيد موضوع في الممر حتى يخرج من جديد.

لم أستطع الجلوس أكثر من دقيقة، بعد مرورها كنت أقف في منصف الممر على السجاد الأحمر المطرز بالذهبي. كان الذهبي ينتشر في المكان كله، على أنصاف الأعمدة البيضاء المزروعة في الجدار، وأيضا على الطاولات الرخامية ذات اللون البني الفاتح. تدلّت ثريات صغيرة في سقف الممر. تبعد كل واحدة منها عن الأخرى مسافة ثلاثة أمتار، وعلى الجدار مقابلها كانت نوافذ مستطيلة ستائرها مخملية مفتوحة. وقفت أمام النافذة والتي كانت أطول مني حتى، متأملة المنظر الخارجي الساحر. كانت الصورة أمامي تنقسم لقسمين. في القسم العلوي صفحة تركوازية غامقة تشكل فيها النجوم نقط بيضاء مشعة، لم يظهر القمر فيها هذه المرة. أما في الجزء السفلي فكانت الصورة تشكل بخاراً رمادياً أصبح داكناً؛ بسبب لون السماء وهذا ما كانت تشكله الغيوم. وقفتُ أمام الصورة متسائلة: أي نوع من الأحلام هذا؟ قريب إلى الواقع حتى أصبحتُ أصدقه. وضعت يدي على رقبتي بحركة رقيقة، احتل إبهامي الجزء الأيمن من رقبتي لوحده، بينما أصابعي الأربعة الأخرى فقد تحركت ببطء على الجزء الأيسر. أحسست بملمس جلدي الدافئ، وشعرتُ أيضاً ببرودة أصابعي على رقبتي.

لا يبدو لي حلماً.

أجفلتُ مع صوت مقبض الباب من خلفي. ظهر صاحب الشعر الرمادي والذي أجهل اسمه وعلى وجهه نظرات طفولية، بدا وكأنه قد سرق شيئاً ما، ولا يعرف كيف يدَّعي العكس. نظر إليّ نظرة سريعة من أعلى جسدي حتى أسفله، ومن ثم سألني: "لماذا لم تجلسي؟".

"هل من الضير أن أبقى واقفة؟"

"لا.. أخشى أنكِ انتظرتِ واقفة طويلاً".

حقيقة لم أشعر بالوقت ولا بالتعب، وشرحت له ذلك مبررة وقوفي هنا.

تحركنا بمحاذاة بعضنا على طول الممر حتى نهايته، ثم انعطفنا يميناً لنمشي في ممر مشابه للمر الذي كنا نمشي فيه حتى ظننتُ لشدة الشبه بأننا عدنا لمكاننا من جديد. فتح أحد الأبواب الذهبية المتشابهة في الممر ودعاني للدخول. كان الباب يؤدي إلى غرفة بدت لي أنها غرفة اجتماعات. طلب مني الجلوس على كرسي جلدي له عجلات ومسند ظهره طويل. جلس هو على يميني على طرف طاولة الاجتماعات الكبيرة.

"جوليا أنتِ تعرفين كيف تسير حياة كل شخص، على الأرض لا يوجد شخصٌ خالد، أو شخص يعود من الموت. لقد تعرضتِ لحادث غريب، ومن المفترض أن تكون عودتكِ إلى الأرض مستحيلة، لكن لقد تم إنقاذكِ بينما كان بينكِ وبين موتكِ حاجز أنحف من شعرة رأسك. يجدر بكِ أن تكوني ميتة الآن، ولكن موعد موتك ليس الآن، لقد أتيتِ في وقت أبكر. ليس مصرحاً لي بالتأكيد البوح بالموعد الأساسي، ولكن القواعد الآن تغيرت.. ستعودين ولكن أخشى ألّا يكون لديكِ الوقت الكافي".

بسطتُ يديّ على الطاولة الباردة، وسألته: "إذن: أنا ميتة الآن".

"ليس تماماً بعد نقاشي مع لجنة الوفيات، رأينا أنه من الظلم أن تأتي قبل موعدكِ، ولكنكِ في كل الأحوال كنتِ هم يرون أن موتَكِ خطؤكِ أنتِ ولكن من الظلم أيضاً أن تأتي قبل موعدكِ. لذلك قرروا تمديد حياتك أكثر. كما قلت ستعودين".

لم أفهم ما قاله رغم بساطة المعنى. راقبني الرجل وكأنه يدرك مافي داخلي، ثم قال فجأة: "هناك مفاجأة أخيرة قبل عودتكِ. اتبعيني".

مشينا أنا وصاحب الشعر الرمادي بسرعة متساوية حتى آخر الممر. تركني هو غارقة في أفكاري وسط الذهول والعاطفة اللذين كنت أعيشهما، ولم يقاطعني حتى وصلنا إلى آخر الطريق. توقفنا أمام مصعد نُقش عليه برج شبيه بالذي كنا في داخله، كما نقش حوله بعض الغيوم. كان باب المصعد ذهبياً والنقوش التي عليه ذهبية، ولم يكن هناك أية شاشة تعرض رقم الطوابق التي يمر بها المصعد. أصدر صوتاً قصيراً معلناً عن وصوله. فتح الباب فجأة ودخلنا سوياً؛ لأن الباب كان يتسع لكلينا. كان خالياً من المرايا، ولا توجد كاميرات مراقبة. أرضيته رخامية باللونين الأسود والأبيض، ولا يوجد به

أزرار. تحرك المصعد بنا واستغرقني الأمر وقتاً حتى أعرف أن المصعد كان يتحرك إلى الأعلى وليس الأسفل. وبعد مرور أقل من دقيقة فُتح من جديد على شرفة كبيرة جداً لها حافة حجرية مثبتة بأعمدة بُنيت على الطراز اليوناني. كانت الشرفة خالية تماماً ومفتوحة من الطرف الآخر.

مشينا حتى طرف الشرفة فرأيت ذات الصورة التي رأيتها في النافذة المستطيلة، إنما كانت أكبر. كنت أرى الغيم منخفضاً أكثر بسبب ارتفاعنا هذه المرة. والسماء كان شكلها رغم الجمال الذي كانت تحتويه إلا أنه يبعث الرهبة. توقفنا هنا لبعض الوقت. حتى سمعت صوت خطوات قآدمة من باب الشرفة الذي عبرنا منه. أصابني الذهول للمرة المائة في هذا المكان عندما رأيتُ أمي قآدمة من باب الشرفة، وهي تتقدم باتجاهي مبتسمة. تقبلت الصدمة سريعاً هذه المرة، في البداية ابتسمت ثم أصدرت صوتاً يشبه الفحيح لشدة الحماس، وفجأة قهقهت بصوت عالٍ وجريتُ باتجاه أمي قاذفة جسدي عليها بكل قوتي. سمعت صوت ضحكتها بينما كنت أخبّئ وجهي في حضنها.

رفعتُ رأسي فجأة باتجاه المكان الذي كان يقف عليه صاحب الشعر الرمادي، إلا أنه اختفى فجأة. وضعت أمي يدها على وجنتي برفق، وهمست لي: "عزيزتي، من الجيد أن أراكِ مجدداً. كنت أفتقدكِ".

"أمي.." أرخيت وجنتي على كفي، وأملت رأسي قليلاً: "لقد اشتقت إليكِ كثيراً".

"تعالي سأصطحبكِ في رحلة قصيرة".

وضعت يدها برفق على ظهري ومشت بخطوات موازية لخطواتي حتى حافة الشرفة. عند الدرابزين الحجري توقفت بينما رأيتُ أمي تعتليه واقفة. فتحتُ عيني على وسعها وأنا أحاول جرها لكيلا تسقط، ولكنها مدّت يدها لي لتسحبني. راقبت وجهها وشعرها البني القريب للسواد وهو يتحرك، كنا نتشابه حتى مع فارق السن بيننا. لم يتغير وجهها أبداً، مازالت التجاعيد الصغيرة حول فمها والذي كانت تبدو الشفاه أصغر من حجمه على وجهها.

أعطيتها يدي فجرتني بشكل خفيف منتظرة مني أن أتسلّق الدرابزين وأقف بقربها. فردتُ قدمي اليمنى على الدرابزين، وسحبتُ يدي من يد أمي، من ثم ثبّتُ نفسي على ركبتي وكفي، وسحبت قدمي الأخرى، وبحذر وقفتُ بقربها

بينما كانت تحيطني بذراعيها لئلّا أسقط.

اقتربت منا غيمة صغيرة أدهشني أنها مع اقترابها لم تتحول إلى مجرد بخار يحيط بنا، بل بقيت كأنها قطعة قطن كبيرة تطير. قفزت أمي قفزة خفيفة شهقتُ معها أنا، ولكنها لم تسقط بل كانت واقفة فوق الغيمة! التفتت وهي مبتسمة حتى ظهر صف أسنانها. أشارت لي بكفيها لأقفز خلفها. ترددتُ للحظات، ولكنني قفزت بعد أن أصرّت قائلة: "هيا.."

وقفتُ مترنحة على الغيمة والتي استطالت كالمطاط من تحتي، ولكن أمي قبضت على ذراعي وثبّتتني قبل أن تجلس وتدعوني للجلوس بقربها. وما أن جلسنا حتى تحرّكت الغيمة مبتعدة عن الشرفة وعن البرج الذي كنا فيه. فردت أمي فستانها من عند فخذها، وأشارت لي لأضع رأسي كما كنتُ أفعل عندما كنت طفلة.

مسحت على شعري برفق وفردته على حجرها: "لماذا لستِ سعيدة؟".

تأملتُ السماء والتي لم أكن أحتاج لرفع رأسي حتى أراها. "لا أعلم لماذا. أنا وحيدة يا أمي، وحيدة".

"سيكون لديكِ الكثيرة الآن. لم تكن الوحدة تسلب سعادتك في صغركِ، لطالما كُنتِ تعيشين في عالمكِ وحيدة، حتى في اللحظات التي تقضينها معنا، أليس كذلك؟".

تذكرتُ لحظات حياتي السابقة حين كان أكبر همٍّ عندي تافه، حين لم يكن هناك من أخشى حزنه وسعادته، وحين كانت الحياة في نظري تعنيني أنا فقط.

شبكت أصابعها بخصلات شعري: "هل ستندمين لو بقيتِ هنا للأبد، وقد أتيتِ هكذا.. فجأة".

"نعم، لم أنتهِ مما بدأت به". قلتُ، ولا علم لي ماهو الذي بدأتُه ولم ينتهِ سوى روايتي.

"إذاً لديكِ فرصة ووقت أظنه كافٍ لتنتهي مما بدأتِ به." طارت أوراق صفراء في الهواء وانتشرت في السماء، ومن بعيد كنتُ أرى رائد فضاء جسده يسبح في عدم بطريقة عشوائية، عرفته من النظرة الأولى، كان ذلك بطل روايتي.

قالت أمي: "باعتقادي.. لديكِ الكثير الآن. عودي وأصلحي أخطاءك. لا تبحثي عن السعادة التي قد تكون تحت قدمكِ ولكنكِ لا ترينها. أعطِ نفسكِ المساحة الكافية والفرصة التي تحتاجين، احزني وأفرغي ما في داخلكِ، وإذا اضطر الأمر للبكاء فلا تتآخري. دعي الأرق يتمكن من عينيكِ لبعض الوقت، وتخبطي مع تيارات الأفكار. أفرغي مافي داخلكِ من الحزن، اتركي مساحة خالية للبدايات والتجارب الجديدة".

"أمي، لا أعلم لأي نوع من الاختبارات أخضع.. ولكن أخشى أنني غير مستعدة للمواجهة".

هزّت كتفي وهي تقول: "متى أصبحتِ هكذا؟".

"منذ أن توقفنا عن قضاء الوقت معاً، لطالما وقعت في غرام الوقت الذي تكونين مصحوبة معه". قلت ودمعة انزلقت على أنفي، ووقفعت على فستانها. بينما أوراق الكتاب الصفراء تملأ السماء.

"أنجزي مهامكِ يا عزيزتي". كان هذا آخر ما قالته قبل أن أستيقظ في المستشفى.

قال صوت الطبيب: "يبدو هذا النص محبوكاً بطريقة خيالية تناسب أفكاركِ. ألا تعتقدين بأنكِ خلقتِ هذا المشهد الذي يشبه خيالكِ؛ لتعويض كل الفراغات التي كدتِ أن ترحلي عن الحياة وتتركينها فارغة؟"

قد يكون الأمر كذلك.

32

مركز ماونتنز هيل للتأهيل.

جلسات علاج جوليا:

جوليا يقول الرجل الذي آخرجكِ من هناك بأنه لم يرَ إلا جسدكِ يتهوى بطريقة تدلّ على إرادتكِ بذلك، كان الأمر يبدو كمحاولة انتحار.

لم يكن محاولة انتحار، هذا الأمر غير صحيح. لقد رأيتُ الطفل يسقط، ولكنني حين حاول إنقاذه لم أجده. عندما استيقظتُ في المستشفى في تلك الليلة. عندما عدتُ إلى الواقع شعرتُ بأن روحي كانت خارج جسدي، وكرياح باردة عادت وامتزجت بين جلدي وعظامي. كبخار أزرق خفيف ولزج عبرت أجزائي وعادت في كل خلية صغيرة في جسدي. استغرق مني الأمر وقتاً حتى صحوتُ رغم أن تلك الغشاوة الضبابية لم تزُل عن عيني بعد. لوهلة لم أعرف أين أنا، وقد أكون نسيت هويتي للحظات! كان الظلام يغطي كل شي، وضوء مستطيل نحيف يبنعث من زاوية المكان الذي فتحتُ عيني فيه. مع الغشاوة الضبابية كان الضوء في البداية قوياً لدرجة تجعلكَ تظنّ بأنكَ لو اقتربت من ذلك المستطيل النحيف قد تذهب إلى بعد آخر، ولكنه في الواقع كان مجرد باب لم يتم إغلاقه كاملاً في أحد غرف المشفى. رأيتُ آدم يقف بالقرب مني يقبض بكلتا يديه على الطرف الحديدي لسرير المشفى، يراقبني مبتسماً وقد اطمأنّ علي. لقد عدتُ.. لقد عاد هو كذلك.. إنه هنا أخيراً. ابتسمتُ كما يبتسم هو. أدركتُ أنه سيفهم لغة عيني بمجرد أن أترك عيني باتجاه وجهه. كنتُ متعبة بقدر لا يسمح لي برؤية تفاصيل وجهه، ولكنني أعلم بأنه ذكي وسيفهم بأنني أريده أن يرى عيني مباشرة. عيني المتعبة ستشرح له مدى أسفي وندمي، ومدى سعادتي بوجوده. حاولتُ رفع يدي لتمسك يده، ولستُ متأكدة إن كنتُ فعلت. في ذاكرتي أحياناً أجدني فعلتُ وقبضتُ على يده القريبة، وأحياناً أخرى أشك في أنني غفوت متعبة قبل أن أمدَّ يدي له. لم أفكر في مدى أهمية أن تقبض يدي على يده القريبة، كل ماهو هام بالنسبة لي كان وجوده من جديد.

هل كنتِ تشعرين بالذنب حينها؟

لماذا قد أشعر بالذنب؟ اعتقدتُ حينها بأنه سامحني، وعاد من جديد.

لقد قتلتِ طفلكما، وعندما علم بعد عام واحد بما قمتِ به طلب منكِ الانفصال.

تخليتُ عن الطفل؛ لأنني كنتُ أخشى من أن تستمر حياتنا معاً. كنتُ عُرضة لخياناته الكثيرة، ولكن لم أكن مستعدةً لربط حياتي معه بطفلٍ يجعل الرابط بيننا غير قابل للإزالة. كنتُ خائفة، ولا أشعر بالأمان.

لكنكِ أحببته، ولم تتركيه حتى فعل هو ذلك.

لقد فعل.. لقد فعل هو ذلك، تركني في نهاية الأمر. لم أكن قوية بالقدر الكافي لأن أتركه، ولا يمكنني الاستمرار بجدية في وجود كل تلك النزوات بيننا.

ماذا حدث في المستشفى إذاً بعد ذلك؟

غفوت لمدة أجهلها، وصحوت من جديد دون غشاوة ضبابية. ذات الظلام وذات الضوء المستطيل، ولكنه لم يكن ساطعاً هذه المرة. ميّزت أنه ضوء باب الغرفة وليس المنفذ للبعد الآخر. لم يكن آدم موجوداً. انقبض قلبي ومعدتي. شعرتُ بنضات قلبي أقوى، وودتُ لو أنهض بسرعة لكيلا يراني ضعيفة عندما يعود. أيقنتُ أين أنا ولماذا، وما الذي حدث قبل ذلك. تذكرتُ وجه أمي في منامي.

التفتُ يميناً وشمالاً باحثة عن جهاز الجرس لتنبيه الممرضين. وجدته مطروحاً على فراشي بالقرب مني. ضربتُ الجرس وبعد لحظات دخلت الغرفة ثلاث ممرضات، وبعد أقل من دقيقة أصبحوا ثلاث ممرضات وممرض ذكر واحد وطبيب كذلك.

راقبتهم بصمت قبل أن أسالهم بتعب: "أين آدم؟ هل هو في الخارج؟".

هز الطبيب رأسه: "نعم إنه هنا، لا تبذلي أي جهد ابقي مسترخية".

اثنتان من الممرضات خرجتا تاركتين الغرفة فيها أنا والطبيب والممرض والممرضة الأخرى والذين بدؤوا بإجراءاتهم العادية في قياس الضغط، وتلك الأشياء الأخرى التي يفعلها الأطباء عادة. سألتهم مرات عديدة: "أين آدم؟"

أجابت الممرضة: "لقد كان هنا، قال إنه ذاهب وسيعود".

أراحني ذلك كثيراً وفكرة عودته مجدداً، بل وجوده كانت لي كطوق نجاة رمي لي في اللحظة الأخيرة. سألتُ الممرضة ذاتها: "كيف وصلتُ إلى هنا؟". لم تجب على سؤالي بل اكتفت بإشارة تعني بأنها لا تعلم.

كان الطبيب قد خرج من الغرفة وكذلك الممرض الآخر، بعد مرور وقت قصير أصبحتُ وحيدة في الغرفة مجدداً. رقدتُ على فراشي غارقة حتى آخري في عالم أفكاري وتساؤلاتي. انتظرتُ كثيراً، وبعد مرور كل بضع دقائق كنتُ أضرب الجرس سائلة من يدخل عن آدم وجميعهم، بعضهم لم يعرفوا من أقصد، والبعض الآخر قالوا بأنه قآدم من جديد. وبعد عدة مرات من استخدام الجرس دخل الممرض الوحيد من بين الممرضات الذي قابلته محذّراً إياي من استخدام الجهاز لمجرد السؤال؛ فهم يعتقدون بأنّ هناك أمراً طارئاً يحصل، وهناك ماهو أهم.

كيف أتى إلى هنا؟ هل اتصلوا به؟ لا يعقل أن يكون مر هنا صدفة وعرف أنني دخلت المشفى.

السؤال الأهم كان: كيف خرجتُ من النهر؟

تطفو الأفكار في عقلي فكرة تلو الأخرى، كنتُ لوهلة قد نسيتُ مسألة الوقت، كانت الساعة المعلّقة فوق الباب تشير إلى أن ثلاث ساعات مرّت بعد منتصف الليل، وهو تقريباً الوقت الذي سقطتُ فيه في النهر. تساءلتُ كثيراً عن مصير الصبي، فضربتُ الجرس مرتين متتاليتين، فدخل الممرض ذاته وبدت على ملامحه معالم الغضب.

"كيف حال الصبي الصغير؟".

سألني: "أي صبي صغير؟".

"الصبي الذي كان غارقاً في النهر أيضاً، هل أنقذتموه؟ هل هو بخير؟"

"لم يكن هناك أي صبي، لقد أتيتِ وحيدة. سيدتي هل تتعاطين أي أدوية بانتظام؟ أقصد هل تراجعين طبيباً نفسياً أو شيء من هذا القبيل؟" انتظر مني إجابة، ولكنني كنتُ مشدوهة بطريقة منعتني عن النطق. "ورجاءً لا تستخدمي الجرس فهذا يُجزع الممرضين، إن كنتِ تحتاجين أي شيئ فقط انتظري الممرضة. إنها تأتي هنا بشكل دوري".

"ماكمية الجمل المتدخلة التي قلتها؟ على أي منهم يجب أن أجيب؟ إن كنتَ تقصد بأنني مجنونة أم لا؟ فالإجابة هي لا، وأنا متأكدة بأن هناك طفلاً وقع في النهر أيضاً، وإن لم تكونوا قد آخرجتموه فهذه كارثة؛ لأنه بكل تأكيد سيكون قد مات الآن".

قال بنبرة بدت غاضبة بوضوح: "إن كان هناك صبي فهذه المسألة ستحلها الشرطة، وزوجكِ لم يذكر بأن هناك طفلاً، بل رآكِ تحاولين الانتحار قفزاً من فوق الجسر".

"هو ليس زوجي، بل طليقي ولم أكن أحاول الانتحار، بل كنتُ أحاول إنقاذ ذلك الصبي. مهلاً تقول.. زوجي..".

قال: "لا يهمّ زوجكِ أم طليقكِ. هو من أتى بكِ إلى هنا".

زادت حيرتي من الدوار في رأسي ومن الصداع كذلك، فاخترتُ أن أبقى صامتة مسترخية وأن أدع الأمور تتفسر تدريجياً. ضاق الكون على رأسي وشعرت بأن غشاوة سوداء تتشكل كالنقط أمام عيني بسرعة حتى غطّت العالم وتركتني نصف يقظة.

في البداية فتحتُ عيني على وسعها جاهلة كم من الوقت أمضيتُ في غفوتي تلك، ولكن من المؤكد أن الوقت إن لم يكن قصيراً جداً فإنه طويل أكثر من المعدل الطبيعي؛ لأنّ الشمس لم تكن قد أشرقت بعد، فسأكون إما غفوتُ أقل من ساعتين، أو غفوت أكثر من نصف يوم.. وهكذا يكون من الصعب إطلاق على ما حدث غفوة.

دقّت ممرضة قصيرة سمينة رأيتها مسبقاً الباب وهي تقول: "لقد وصل زوجكِ".

ومن خلفها كان رجل نصف جسده في الغرفة، والنصف الآخر مايزال خلف الباب وهو يقول: "لا.. توقّفي.."

"من هو زوجي؟ أين آدم".

قالت الممرضة: "هذا آدم، أو هذا ما أعتقده".

قلت بدهشة: "مَن آدم؟" في ذات اللحظة قال الرجل بنبرتي ذاتها: "مَن آدم؟"

قالت: "هذا هو آدم".

قلت: "هل ستختارين لي آدم؟ هذا ليس آدم. أين زوجي".

التفتت الممرضة وهي ترفع عينيها لترى وجه الرجل: "من أنتَ إن لم تكن زوجها؟"

قال الرجل بصوت شبه نائم: "لستُ زوجاً. أنا من أنقذها. من الجيد أن أعرف أنكِ بخير، وداعاً".

صاحت الممرضة: "انتظر".

كانت أصواتنا ثلاثتنا تصدح في وقت واحد: "من أنتَ؟ أين آدم طليقي؟ لستُ آدم". صرخ الرجل فجأة: "لستُ آدم طليقي، ولا أعرفه من هو! لقد رأيتُ هذه الآنسة تسقط في النهر فقفزت خلفها.. هذا كل شيء". وأبقى عينيه عليّ لبضع ثوانٍ.

أخافتني نبرته العالية، وبعد ذلك خرجت الكلمات من فمي بصعوبة: "إنه ليس آدم طليقي، أقصد طليقي أنا وليس طليقك. اسمه آدم، وليس آدم طليقي.. لا يهم هل أنقذتُ الطفل؟" راقبتُه وأنا أرمش عدة مرات ببلاهة

سألني: "أي طفل؟" كانت الممرضة تنقل نظراتها بيني وبينه.

"لقد قفزتُ لإنقاذ طفل، ولم أكن أجيد السباحة".

"في الوقع.. لم يكن هناك طفل. لقد رأيتكِ وكنتِ تبدين كمن يبكي، وتمشين على حافة الجسر ببطء ومن ثم رميتِ جسدكِ، وسقوطك لا يطلق عليه قفزة أبداً بل وقوع".

بدا التشتيت على ملامح الممرضة، والتي عبرت من تحت ذراع الرجل تاركة إياه في مُثبّتاً الباب ومواجهاً لي لوحدنا في الغرفة. راقبها هو على طول الممر، وحروف لا تشكل أي كلمة تخرج من فمه خلفها. كان شعره غير مرتَّب وقد غطّى فكه ذقن بدت كثيفة قليلاً. وعيناه محاطتان بهالتين سوداوين. كانت له ملامح مرسومة ولكن غطاها الإهمال والإرهاق.

"أنا لا أفهم شيئاً.." قلتُ وبعد صمت للحظات قصيرة، أكملتُ: "لقد كان آدم هنا، رأيتُه".

"آنستي.. أقصد سيدتي، لا يوجد أي شخص هنا. أنا من أتى بكِ إلى هنا، وطالما أنَّ الأطباء يعتقدون بأنني أنا زوجكِ فهذا يثبت أنهم لم يروا أحداً بجواركِ سواي. نحن حتى لا نعرف اسمكِ أو هويتكِ".

سقطت الحروف مني كما لو أنها حبات خرز أفلتت من مسبحة، تأتأتُ في البداية ومن ثم قلت: "أنا جوليا.."

"سيدة جوليا، المعلومات التي ستقولينها، الطبيب والشرطة يكونون أحق بها مني".

بدا ضائعاً وهو يقف أمامي بهندامه غير المرتب. لم تواجه نظراته نظراتي مجدداً بينما كان يقول: "سأذهب لأرى الطبيب، هل ستحتاجين لشيء آخر". لكنني لم أكن بحاجة لأكثر مما مررتُ به حينها. ولم يحدث بعد ذلك أي شيء، بل تم نقلي إلى هنا؛ للتأكد من مدى قوة عقلي.

33

جلست جوليا في حديقة مركز ماونتز هيل في انتظار عودة الطبيب مع الإذن بالخروج من ذلك المكان. ما مرتُ به كان صعباً، وما بحتُ به لهم، لم يكن جزءاً يخدمهم. استطاعت أن تقنع الطبيب في نهاية الأمر بأنّ ما قالته، هو كما يعتقده ليس إلا خيالات كاتب يعتقد بأن رؤية النهاية هي ما يجعله يكفر عن ذنبه.

جلستُ في الحديقة على طاولتها وحدها، كانت تسترجع كل الأحداث التي مرّت خلالها محاولة الوصول إلى أي نقطة تجعل الأمور أكثر منطقية. يعتقد الطبيب بأن ما حدث كان حادثة انتحار ترفضها هي، ولكن وعيها يفرضها عليها، لذلك صورها خيالها على إنها حادثة إنقاذ، وليست انتحاراً خارجة عن إرادتها؛ بسبب صدمتها لخسارة آدم.

تتشابه الأحزان في كونها مدرجة تحت هذا المسمى من الشعور، وبطريقته الخاصة، هو شعور سيء.. أو عائق لشكل الحياة الطبيعية. لكنّ الأحزان لا تتشابه مهما كانت معظم التفاصيل متطابقة، فلكل حزن تجربته الخاصة. يُظهر إنسان خلاله قدرته على تفادي هذا الشعور، وإن كانت في الخوض خلاله، لكنه شيء عالق في عمق روح إنسان، وهو ماضٍ حيث يذهب حامله، لذلك لا يمكن تفاديه.. إما أن تتجاهل وجوده وتؤجّل تبعاته، أو أن تتعايش معه حتى تتجاوزه.

كل النصائح التي يلقي بها الآخرون علينا لتفادي طوق الحزن، غالباً لا تأتي بمفعولها رغم منطقيتها؛ لأن هذا الشعور لا يتلاشى بكلمات حقيقية، وإنما هو موجة عابرة. ليس إنسان إلا حجم كف اليد محشوراً في جسد يساعده على التعايس في هذا العالم، أما تلك الآلة التي تضخ الدم والمشاعر هي ما يحيا به إنسان، وليس هو من يحييها.. لذلك حين يكون الجرح موجوداً في تلك الجهة شمالاً حيث القلب، لا يعود بإمكاننا تجاهله.

نحن نحمل أحزاننا أينما ذهبنا، لكننا نحاول تجاهل صوتها أحياناً، فنتظاهر بأننا ما نزال كما يجب أن نكون، إلا أن تلك الصورة الروتينية، تحمل في داخلها ما لا يشبه صاحبها.

عبر مارك روامنو وهو رجل تقدَّم في السن، وملامحه تقول ذلك بشكل

صريح، ودخل إلى حيز الحديقة الأمامية للمركز. كانت خطواته ثقيلة، ويبدو بأنه تعمد تركها ترتخي مع الجاذبية فتغدو بطيئة. لم تكن هناك أية طاولة شاغرة في المكان. لم تتعمد جوليا مراقبة الرجل وهو يتحرك في الحديقة، لكنها أشفقت على لمعان عينيه بعد عجزه عن إيجاد مكان شاغر.

ابتسمت جوليا أمام وجه الرجل الذي عبرت عيناه فوق صورتها وهي جالسة وحدها. اغتمنت رده على تلك التحية الكاذبة، وأشارت للكرسي المقابل لها. حياها مارك ولم يعترض، على الفرصة التي أتاحتها. جر بضع خطوات بسهولة، ثم جلس، واحتراماً لها شكرها دون أن ينظر إليها مباشرة بينما هي ظلّت صامتة.

قال وهو يراقب المرضى: "لم يترك لنا العاقلون مكاناً نفرغ فيه جنوننا".
ابتسمت جوليا في البداية، لكنها أطلقت سراح الموجة التي هزت صدرها. ابتسم مارك بدوره عندما استشعر تقبلها له. كان مارك بعمر والدها، ولم يبقَ فوق رأسها إلا بعض خصلات الشعر التي زال سوادها الآن.

ردت جوليا: "يبدو أنّ الجنون أمر دارج هذه الأيام. ماذا كسب الأسوياء".

حرك مارك عينيه باتجاهها: "على الأقل ما تزال لديهم حياة طبيعية تشبه المسلسلات الطويلة".

"هل يدّعون أن خللاً ما أصاب أفكاركَ أنت الآخر؟ يبدو أن فكرة الركود لا تعجب من هم هناك في الداخل". أشارت جوليا إلى المبنى خلفها، فنقل مارك نظرته إلى هناك.

"لا أعلم ما تصنيف ما نشعر به، حزن أم جنون؟ في هذه الأيام أصبح استبيان شكل مشاعرنا الخاصة جهداً آخر". صمت مارك لوهلة، ثم قال: "لا أعلم إن كانوا يدّعون أم أنني كذلك بالفعل، لكن الأمر يبدو بالغ السوء في كلا الحالتين، لذلك لم أعد أهتم من هو الذي يقف في جانب الصواب الآن".

زفرت جوليا ثم قالت: "لا تقلق، الكل يعتقد أن الأمور تصل إلى حد اللاقدرة، عندما يرى ما يحمله في داخله".

"هل أنتِ حزينة أيضاً؟ هل ما أتى بكِ إلى هنا مجرد حزن؟"

راقبت جوليا عيني الرجل، ورأت تفاصيل مبهمة في كل طية على الجلد

الذي تجمع حول عينيه: "قد يكون الأمر مجرد حزن تحول إلى ما لا نرغب في رؤيته بعد ذلك. بالمناسبة أنا جوليا".

"لو كان لي ابنة لأطلقت عليها جوليا، لكن لي ابن واحد فقط". ترك الرجل عبرة حزينة تمر على محياه، ثم أ:مل: "وزوجتي، التي هي الآن، حيث لا يمكنني أن أعلم".

"هل أنتما منفصلان؟" سألته جوليا

أجابت مارك: "لا، بل إن كارلا اختفت من دون أثر، والكل يعتقد بأنها تعرضت لأمر ما، أو أنها هجرتني، لكنها ليست ممن يتعرّضون لأية فكرة من الاثنتين. إنها اختفت عن عالمنا ببساطة كأنها لم تخلق، ولا أحد يصدق هذا". صمت مارك وحاول رؤية ما يدل عليه تعبير جوليا. أردف فجأة: "أنا مارك".

"يسرني لقاؤكَ يا مارك".

سألها فجأة: "وأنتِ لماذا هذا الحزن أتٍ معكِ؟".

"أعتقد أنها تبعات الانفصال".

"قد يقول لكِ أي شخص آخر بأن هذه المسألة أبسط من أن تؤدي إلى كل هذا.."

قاطعته جوليا: "أُدرك هذا، ولم أختر ما آلت إليه الأمور، ولم أعترض على الانفصال".

حرك مارك يده إشارة على رغبته بتتمة حديثه: "إن لم تفقدي أي شيء فقدان لاعودة فيه، فإن من الأفضل لكِ أن تطلقي سراح الفرص للذين هم على قيد الحياة ما داموا بخير. حاولي الابتعاد عن هذا.. حتى وإن كانت المحاولات قاسية".

رفعت جوليا كفّها إلى صدرها، وربتت عليه بنعومة ثم قالت: "الألم هنا.. لا يمكننا أن نتعايش مع الأمر، أو أن نقوى عليه عندما تصبح في هذا النطاق الذي لا نقوى عليه".

"لا أطلب منكِ محاربته، بل تصالحي معه، طالما هو أقوى منكِ".

"ليت الحزن كان أسهل، ليته كان كالفرح تشعر به دون الحاجة لإدراك

تفاصيله". قالت جوليا ذلك، وتركت نسمة خريفية تعبر على جلد جبهتها، ثم أكمل: "لكن هكذا كان الحزن: أنظر إلى الأشياء فلا أجدها تشبه ما كانت عليه، أما الأصوات فماذا أُخبركِ عنها؟ إن كانت لا تشبه مافي الذاكرة، تصبح متطابقة، وقد انقسمت لذكوري وأنثوي. لم يرحل شخص، بل رحل عالمي كله. إن نجومي تراقب، والمساءات تسهر عند أفكاري. بهتت ألواني، لم يعد الأصفر، أصفراً بعد الآن. تحول كل ما أراه إلى مشهد أحادي اللون. كل شيء ممل.. رتيب، لا جديد هنا. أصبحت السماء فجأة بعيدة وقد أحنت صفحتها مني فيما مضى. والأضواء الساطعة، خفتت الآن. أما جهدي الأكبر هو جر أنفاسي، لأن الكلمات حمل ثقيل لا يمكنني أن أشبعه بالمعنى".

كاد مارك يبتسم، لكنه لم يجد في الابتسامة علاجاً. "متى وصلنا إلى كل هذا؟"

"حين اخترنا أن نبدأ.."

ظهر الطبيب فجأة، ونادى مارك قبل أن يصل إليهما. كتمت جوليا كلماتها، وراقبت مارك وهو يولي انتباهه للطبيب الذي قاطعه. دس الطبيب يده في جيبه، وقال: "أرى أن كليكما قد كون صداقة جديدة هنا".

ردّت جوليا بتعجل: "لا يمكنكَ أن تقول إنها كذلك.." شعرت بالإحراج والرفض الصريح لمارك، فقالت: "أراه للمرة الأولى، ولكننا أعتقد بأننا سنكون صديقين". تبادلا الابتسامة، ثم طلب الطبيب من مارك أن يتبعه إلى الداخل.

قال مارك قبل أن يرحل: "جلستي الأسبوع القادم في مثل هذا اليوم".

"أنا كذلك". أجابته جوليا، قبل أن تسحب حقيبتها، وتتجه إلى بوابة المركز بعيداً عن المبنى الكبير المحاط بسور أبيض مرتفع. أصبح الآن لديها من يصدق جنونها. يشبه مارك بطريقة ما والدها، وقد يكون ذلك لأنه يكتسب قالب الرجل الذي تقدمت به سنواته في الحياة. لم تشعر بالخجل من جلوسها معه، ولم تذهب أفكارها إلى أية زاوية أخرى، بل كانت مستعدة للأسبوع المقبل، وهي أخيراً تملك من يستمع إليها بعد أن عزلت نفسها عن الحياة.

ما يبقى أثناء الرحيل

34

تساءلت فيوليت: لماذا أتى الخريف ببرده قبل الشتاء. في ذهنها لم تكن هناك إلا مقطوعة خريفية حزينة دارت على مفاتيح بيانو، لم تساند نغماته أية آلة ثانية. كانت حياتها تتعرى من مظاهر العيش، وكلما شعرت بأنها تكتسي بالحياة، وجدت نفسها تقف وحيدة في النهاية.

في الصيف الذي سبق بداية العام الدراسي، عرضت الجامعة رحلة إلى الساحل لكل الطلاب المستجدين؛ بغرض أن تتيح لهم فرصة التعارف بطريقة أسهل. كان المنتجع الذي رأت ماري صوره، يشبه نوعاً ما المخيمات التي تُبنى على الشاطئ. لم فيوليت الأمر، وكان لها هذا بادراً على سبيل المتع الذي ستجدها في الحرية، بعد أن تركن دير الأخوات. لكن مهما بلغت الحرية مداها، كانت فيوليت تحمل إيمانها في جوفها.

"هل سنوافق على حضور الحفل؟". سألتها ماري، بينما تقبض فيوليت على شاشة الحاسوب المحمول بكلتا يديها. أدارت الشاشة باتجاهها مرة أخرى، وأخبرتها بأن هذا ليس حفلاً على وجه التحديد، إنما هي عطلة يقضيها الطلاب على الشاطئ، قبل أن يبدأ العام الدراسي.

ردت ماري بعد تفكير قصير: "وهل تعتقدين أن الأمر يستحق ذلك".

"أعتقد بأننا نحتاج دفعة إلى الجرأة قليلاً". أصدرت ماري صوتاً يدل على أنها تأخذ هذا الرد على محمل الجد، وهو الآن يدور في عجلة أفكارها، حتى تتمكن من تبسيطه.

"هل أجيب على الرسالة بالموافقة؟"

أجابتها ماري: "حسناً لما لا، لن تضرنا التجربة".

لكن التجربة فعلت ذلك في قلب ماري، وتسببت بخدش بسيط، لكنه سام، ومدى ذلك المرض، جعلها لا تعود كما كانت في السابق. رأت ماري عالماً لا يشبه عالمها، وحياة لا تنتمي إليها، ولن تكون هكذا في يوم من الأيام. ففي اليوم الأول على الشاطئ قابلت ماري شاباً، لم يكن فيه ما يثير الإعجاب. إلا أن ماري التي لم يتعلق قلبها بأي شيء كان يكفيها هذا الغصن الرقيق؛

لأن ذلك الشاب هو من بادرها بالتحية. اقتحمت الخيمة وجرتني لتطل فيوليت بوجهها خارجاً، وأرى الشاب الأصهب الذي يوليهن ظهره.

أخبرتهن إيما وهي فتاة ذات شعر ذهبي بأن ذلك الشاب هو رفيقها، وقبل أن تبوح ماري بإعجابها له. كان كتمان ماري لذلك الأمر خيراً لها؛ لأن إيما فتاة ذات شعبية، وتميل إلى السيطرة، لكنها بالإجمال كانت طيبة وخدومة معهن نظراً لصورة فيوليت وماري التي تبدو رجعية في عيني الفتيات.

"انسي أمر ذلك الشاب". أمرت فيوليت صديقتها.

"لا أشغل أمري به، حتى أنساه. إنه هو من بادر بالأمر".

قالت فيوليت: "وإن كان قد بادر في الأمر، فهذا لا يدلّ على أي شيء. لا تعني كلمة واحدة لطيفة أي شيء، وليست تلك التصرفات السريعة تعني وجود أي جسر خيالي بينكما".

"لم أقل أنني أريد وجود جسر بيننا".

"لكن عيناكِ ترسم شغفاً به، وهو رفيق إيما".

ردت ماري: "وهي ليست صديقتنا".

"ستصبح صديقتنا لاحقاً، وكونها ليست كذلك الآن، لا يعطيكِ الحق للنظر إلى ما تملكه". ساد السكون بين الفتاتين، لكن ماري لم تكتم حنقها البادي على محياها. أدركت فيوليت بأن هذا الغضب سيزول لاحقاً، وستتفهم ذلك؛ لأنها فتاة عقلانية، وكل مافي الأمر هو أنها تعاني من قرصة فتيل إعجاب غريب ظهر في قلب فتاة عاشت في العتمة والحرص أوقاتاً طويلة.

في اليوم التالي، كان هناك إخطار لكل الطلاب بأن الحفل سيقام في قاعة المنتجع المطلة على الشاطئ، لم يكن الحفل لأية مناسبة، وإنما أجواؤه لم تكن مشابهة لأجواء البحر التي عاشت فيوليت وصديقتها فيها في اليوم الأول. كانت فيوليت ترتدي فستاناً يغطي كتفيها، ولكن من دون أكمام لونه أبيض. أما ماري، فقد ارتدت فستاناً أكمل عريض الكمين يغطي نصف ذراعها، وطويلاً بحيث تجاوز ركبتها بمسافة جيدة.

وصلت الفتاتان إلى مدخل المبنى الرئيسي للمنتجع، وهناك ظهرت إيما برفقة فتاة شعرها قصير، كانت بصحبتهن في الليلة الماضية، ولكنّ حضورها

لم يكن ذا تأثير. قالت ما أن رأت ماري: "هل ورثتِ هذا الفستان؟" كان الفستان هدية من الأخت صوفيا، وكانت ماري سعيدة به دائماً، وتترقب الفرصة لارتدائه، لكنها في تلك اللحظة رسم الانكسار المفاجئ على محياها. قبض عليها إحباط مخيف، وجعلها محاطة بالكتمان طوال تلك الليلة. فقدتها فيوليت؛ لأنها لم تكن معتادة على اختفاء الفتاة أوقات طويلة عنها.

عادت للجلوس بجوار فيوليت قبل أن يحين وقت تناول العشاء وقالت: "أخبرتُكِ بأنه يبادر بالتقرب".

"من هو؟ صديق إيما؟" سألتها فيوليت بانشداه.

"أجل لقد أراد مني أن أرافقه على الشاطئ". قبل أن تنهرها فيوليت عن التفكير بتلك الأمور أكثر، اقتحم الشاب المكان، وإيما بجواره. كان منظرهما كفيلاً بأن يحبط أفكار ماري، ويختصر كل كلمات فيوليت التحذيرية. لم تتناول ماري العشاء بعد ذلك، وفي الليل نامت بهدوء بجوار فيوليت التي لم تطرح عليها أية كلمة.

في اليوم الثالث لم تبذل الفتاتان أي مجهود للانخراط بمجتمع الطلاب الموجود في الرحلة. أدركت ماري بأنها لا تناسب هذا النمط، كما أدركت فيوليت بأنهما أنضج من هذه الحرية التي ألقاهن الدير فيها. رقدتا على رمال الشاطئ قبيل الظهر، وتركتا الشمس تضرب وجناتهما.

"هل تعتقدين أن الشمس هنا تختلف؟" أتى صوت ماري بالسؤال.

لم تجب فيوليت فوراً بل تركت السؤال يتناغم مع الوهج الأحمر خلف جفنها المغلق، والذي يشكل طبقة حارة على عينيها. كان جسدها يرتخي مع الرمال كما لو أنه يذوب فيها. قالت: "أعتقد بأنَّ الشمس تختلف حسبما نراها نحن. يمكنها أن تكون شمسنا الخاصة إينما رحلنا، لكننا نعتاد على فعل ذلك مع القمر؛ لأنه لا يحرقنا".

سألتها ماري: "وكيف نحمل شمسنا معنا، إذا كانت حارقة".

سمعت ماري صوت حركة الرمال تحت جسد فيوليت، ثم أتى صوت صديقتها يقول: "من لا يخاف التنين، يستطيع ترويضه". أصدرت ماري همهمة تعجب.

35

رحّب الظلام بفيوليت وماري، حين سحبتا المفتاح من قفل الباب، ودفعتاه إلى الداخل. كان الهواء الدافئ، في قلب العتمة كما لو كان يخبرهما بأن المكان يفتقد وجودهما. بعد قضاء أيام قليلة فيه، أصبحتا جزءاً من هذا السكن، وتنتميان إليه.

رمت فيوليت حقيبتها عند الممر المقابل للمدخل، فعادت ماري لتحمل حقيبة فيوليت، وحقيبتها هي كذلك. رمت فيوليت بنظرة عتاب قصيرة، لكنها لم تكن حقيقية. شكرتها فيوليت بينما كانت ترمي بجسدها على الأريكة المقابلة للتلفاز في غرفة المعيشة الصغيرة.

لم تغير ماري ملابسها، بينما كانت فيوليت تستلقي بكسل تحت السقف الذي يضيء بنور الغروب. خرجت ماري بخطى هادئة من الغرفة، وقالت: "سآخرج قليلاً، لن أتآخر". رفعت فيوليت جسدها عن الأريكة وهي تبذل مجهوداً للتخلص من الكسل، ثم تسألها عن وجهتها. ردَّت ماري: "لا أعلم قد أشتري بعض الأشياء التي تلزمني للدراسة".

"لكننا اقتنينا كل شيء".

ردَّت ماري بعجز: "أعلم، لكنني أحتاج لقضاء بعض الوقت في الطريق وحدي".

"هل تريدين مني أنْ أرافقكِ؟" سألتها فيوليت. لكن ماري رفضتْ بلطف، وخرجت بعد ذلك.

ذهبت الشمس، واقتحم نور المبنى المقابل لسكنهما غرفة المعيشة. لكن ذلك الضوء لم يكن كافياً. عجزت فيوليت عن الانتظار في العتمة، فنهضت لتشعل مصابيح غرفة المعيشة. أدركت أخيراً بأنها ما تزال ترتدي ملابسها منذ الصباح فاستحمَّت، وعندما خرجت اكتشفت بأنّ ماري ما تزال في الخارج. لم تستطع الانتظار فأعدَّت لنفسها وجبة خفيفة تكفيها هي وحدها، وتناولتها في صمت على المائدة الصغير الموجودة في المطبخ.

في المساء، وبعد أن كادت تفقد صبرها، سمعت صوت باب السكن يُدفع، فنهضت لترى صديقتها التي عادت، ووجها خالٍ من التعابير، ولا يمثل أي

شعور. سألتها فيوليت: "هل أنتِ على ما يرام؟"

"أجل". أجابت ماري باقتضاب، ثم أردفت: "أنا على ما يرام؟" لكن وجهها لم يكن يوحي بذلك، أو حتى بعكسه، وهذا ما أثار حيرة فيوليت. سألتها فيوليت إن كانت تريد تناول الطعام، فأجابت ماري: "لا أشعر بالجوع، تناولتُ الطعام فور نزولي من هنا".

لم يكن الهدوء الذي عاد بالتدريج إلى قلب ماري، هو ذات الهالة التي تحيط بها لتصورها، بالشكل الاعتيادي لها. كان هناك أمر آخر يجعلها مختلفة، كما لو أن روحها غرقت في بركة ما لا تستطيع فيوليت رؤيتها. أدركت فيوليت بأنها لا تستطيع الحكم على هذا الأمر وحدها، وأن لا أحد يعرف صديقتها بقدرها، وهي عاجزة عن تحديد التغيير. فكرت فيوليت في صديقتها دون توقف، وعلمت بأنه لو كانت الأخت صوفيا معهما لأدركت التغيير. وحده الوقت يستطيع إيضاح الأمور، ويعطي التفسير، مهما طال السير معه.

في المساء نادت ماري صديقتها، فأجابت فيوليت من تحت لحافها بصوت غير محدد بأحرف. فسألتها الأخرى: "هل تعتقدين بأن الله يحمي الدير".

"ماذا؟" فكّرت فيوليت في الأمر، بل كانت الفكرة الأكبر هي سبب السؤال! "إنه يحمي كل مكان... هو موجود في كل مكان".

تأملت ماري السقف المغطّى بلون العتمة، وغاص الجزء الخلفي من رأسها في الوسادة براحة أكثر. "لكن هل حصل، وأن فقدت هذا النور الذي اقتبسناه من التعاليم في الدير. هل شعرتِ بأنكِ غير قادرة على تحديد صور الأشياء التي يجب أن نراها عليها. أشعر بشيء غريب، كما لو أنّ إيماني وأفكاري يسيران في طريق مظلم، وأن كل هذا يجتمع في صورة تشبهني.. لكنها وحيدة جداً".

تحركت فيوليت في فراشها لتتمكن من رؤية الشكل الذي يتخذه جسد ماري تحت اللحاف، ثم قالت: "لكنكِ لستِ وحيدة. تذكري كل دروس الأخوات هناك.. بل إننا معاً. إيماننا بالأشياء يندرج ضمن الأمور التي نحن ملزمتين باتباعها، لكننا لا نراها، وهذا اختبار الثقة الأصعب في الأمر كله. لذلك يكون هناك ما يشبه الوتد في حياتنا يثبت على ما نجمعه من معتقدات".

أردفت بعد صمت قصير: "ونحن هذا الوتد في حياة بعضنا".

سألت ماري مجدداً بصوت هامس: "لكن.. ألا تعتقدين بأن للشيطان سطوة أكبر في هذا العالم الحر؟"

"ماذا؟" أجابت فيوليت باندهاش. "لا طالما تحملين نور الخالق في أعماقك، لن يكون لظله عليكِ تأثير. لاتفكري بهذه الأمور بل تناسي التفكير فيها، وإلا فإن دوامتها لن تنتهي. كُنتِ الأعقل دائماً، والأكثر اعتدالاً من كل فتيات الدير، لا تسمحي لبريق حياة مزيف أن يصوّر لكِ كل المخاوف الوهمية بشكل قريب للحقيقة؛ لأنه حتى الأحلام ستكون أكثر قابلية للتصديق من تلك الأوهام السامة".

لم يكن لدى ماري أية إجابة، لكنها كانت تسمع صوت الظل الذي تسلل إلى عقلها، يهمس فيه الآن. حاولت أن تتبع ما أمرته به فيوليت.. تجاهلت بقدر ما تستطيع، لكنه كان يلقي الوعود الجميلة دون توقف. في النهاية نامت فيوليت، وقد أرخت كل أفكارها، وتركتها تتداعى، أما ماري فقد عادت لبحيرة أعماقها، وغاصت فيها من جديد دون أن تدرك صديقتها هذا.

36

"لم أجدها، حياة كاملة اختُصِرت بهذا الحدث". كان أعضاء النادي يراقبون وجه فيوليت وهي تتحدث، بينما تحاول جاهدة عدم النظر في وجه أحد منهم. "اختفت في الأسبوع الثاني من بدء دراستنا، وكأنها يوماً لم تكن في حياتي، أو لم ترسم لها هي حياة. عندما استيقظتُ في تلك الليلة، لم أكن متأكدة إذا ما كان حفيف الستائر الرقيقة التي تتحرك بسبب الهواء، هو ما أيقظني، أم أنَّ اختلافَ عالمي بلحظة فقدانها هو ما غيَّر توازني فلم يعد النوم نوماً بعد ذلك. فتحتُ عيني فرأيتُ كومة اللحاف المجعدة، مطوية على جانب واحد، والوسائد تبوح بالرحيل دون مجاملة. نهضتُ بحثتُ عنها في كل شبر من السكن، كما لو أنها مشبك صغير وقع مني، لكنني لم أجد أثراً لها، ناديتها وانتظرتُ بزوغ الفجر قد يأتي النور معها، لكن النور أتى وهي في العتمة".

سأل ماركوس ماقصة فيوليت التي بدأت تفقد قدرتها على التماسك: "هل هربت؟"

"لا أعتقد ذلك، بل إنها لم تفعل، ولم تفكر يوماً في ذلك. قد تكون هربت من نفسها، وفقدت روحها السبيل للوصول إلى جسدها، لكنها لم تهرب وتتركني". عادت الذاكرة بفيوليت إلى ذلك اليوم. كانت الستائر الشفافة تتحرك بين سريرها وسرير ماري، وكلما ارتخت بدت لها، كما لو أنها تسخر منها، وتقول: ليست موجودة، ماري ليست هنا. سحبت فيوليت رأسها من الوسادة، وأدركت وجود خطب ما.

نهضت فوراً متجهة إلى دورة المياه، لكنها عندما طرقت على الباب، لم تسمع أي رد، وعندما دفعت الباب لم يكن مقفلاً بالمفتاح. واجهها الظلام والسكون معلنين أن المكان خالٍ مما كانت تتوقع أن تراه هنا. بحثت في المطبخ، واالشرفة الضيقة، ولكنها لم تجد أثراً لماري.

عادت إلى غرفتهما، وراقبت النافذة مرة أخرى، متسائلة: لماذا هي مفتوحة؟ هرولت لتطل عبر النافذة، فدفعتها نسمة من نسمات بداية الخريف إلى الخلف، وتركت أثراً رطباً على وجنتها. تلفتت فيوليت يميناً ويساراً، وحاولت النظر عبر خصلات شعرها الأحمر التي تطايرت بينما هي تطلب عبر النافذة. ماذا كانت تتوقع أن ترى؟ ماري عالقة في الهواء! أو أنها تطير! لم يكن

هناك شيء، ولا جسد تحطمت عظامه على الأرض الحجرية في الأسفل. لا شيء.. ماري ليست موجودة. أغلقت فيوليت النافذة، وسارت بضع خطوات إلى الخلف، بينما وجهها يراقب النافذة. أصبحت في منتصف الحجرة، تراقب الزجاج وقد احتضنته الستائر الشفافة. خرجت من الحجرة، وتركت الباب مفتوحاً، وجلست تحت ضوء مصباح جانبي في غرفة المعيشة.

اتَّحد ضوء المصباح الصغير مع ضوء الفجر، ومن ثم بدأت الشمس تطغى على نور المصباح، حتى همّشت وظيفته. غفت فيوليت، وارتخى رأسها، ثم استيقظت مصحوبة بصوت شهقتها. ماذا رأت؟ لا تتذكر. إنها تستطيع أن تبحث عن ماري، لطالما كانت قادرة على البحث عن الأشياء المفقودة، وتحديد مكانها. طالما يوجد رابط معرفة بين فيوليت، وأي شيء آخر، فهي قادرة على تحديد مكانه. أغمضت عينيها، وتركت روحها تمتزج مع الهواء، حتى ظنّت ألّا وزن لها. غاصت في ظلامها الخاص، وراحت تبحث في صندوق فيوليت الخاص عن ماري. لكن لا أثر للفتاة. لا يوجد أي شيء تعرفه فيوليت، لا تستطيع تحديد مكانه على هذه الأرض، إلا ما حدث كان استثناءً فماري، لا يمكن تحديد مكانها. وهذه فكرة خرافية مخيفة، توحي بأنّ ماري لم تعد جزءاً من عالمنا.

هل ماتت؟ لا، فحتى من ماتت من الأخوات في الدير تستطيع ماري تحديد مكان قبرها. ماري على قيد الحياة، وهي تشعر بكيانها، ولكن لا روح، ولا نبضات قلب؛ لأن روحها ضاعت منذ لحظة تركهما للدير، أما نبضات قلبها فقد اختفت الآن!

عندما أتى الصباح، وقبل وقت استيقاظ الأخوات، اتّصلت فيوليت بالهاتف الأرضي المخصص للدير، لكن لم يجبها أحد. كررت ذلك مراراً دون توقف، حتى أتاها صوت أنثوي ناعس وحانق يسألها: "من هناك؟"

"يجب أن أتحدث إلى الأخت صوفيا". أمرت فيوليت المرأة الأخرى.

لكن الصوت الأنثوي أجاب بكسل: "لم تحن ساعة استيقاظ الأخوات بعد، اتّصلي بعد ساعة من الآن". كادت أن تغلق الخط لولا أن فيوليت نهرتها عن ذلك.

"أرجوكِ إنه أمر بالغ السوء. إنني فيوليت، لقد كنتُ في الدير تحت رعاية

الأخت صوفيا، ويجب أن أتحدث معها الآن". لم تبدِ الأنثى الغريبة أي اهتمام، لكنها أخبرتْ فيوليت بأنه لا يوجد ما يمكن القيام به. رجتها فيوليت بصوتٍ ارتجفَ فجأة: "أرجوكِ.. إنني أرجوكِ، هذا الأمر ليس هيناً. فقط أيقظيها، وأخبريها إنني فيوليت، وهي ستتفهم". كانت فيوليت تدرك وجود بعض الفضول في قلب المرأة، ولكن ما يحدث معها أمر لا تفسير له، ولا يمكن إلقاؤه كمعضلة، ولن يتفهم خوفها سوى الأخت صوفيا. تركت فيوليت رقم هاتف السكن مع الأخت، وطلبت منها أن تطلب من صوفيا التواصل معها حالاً، وكان لها ذلك بعد مرور ثلاث عشرة دقيقة، مرّت ببطء على فيوليت.

"فيوليت". نادت الأخت صوفي بصوت مليء بدفعة أنفاسها. "ماذا هناك يا فتاتي؟"

"إنها ماري. استيقظتُ فلم أجدها هنا".

"هل هي مع أحدهم؟ أو هل ماري معتادة على الخروج إلى وقت متآخر؟"

"لا، ماري لا تخرج إلا برفقتي. ليس لديها أصدقاء حتى". صمتت فيوليت قبل أن تقول بيأس: "أخت صوفيا. يمكنني أن أشعر بمكان أي أحد أعرفه في هذه الأرض إلا ماري.. ليست موجودة في مكان قريب، أو حتى بعيد، إنها ليست هنا بعد الآن".

"ما الذي يعنيه هذا؟" سرت ثانيتين لم يسمع خلالها سوى صوت أنفاس صوفيا وفيوليت، ثم سألت بعدها صوفيا: "هل هناك ما لا أعلمه؟ هل هو الأمر ذاته الذي كانت تهذي به ماري طوال الأسابيع الماضية؟"

"لا أعلم. لستُ أدرك أي شيء". ما تزال فيوليت تحمل روح السذاجة تحت كل تعاليم الدير، والمدرسة، وحتى الحياة الجامعية التي تخوضها الآن، وفي زلزال صغير كهذا يتحرك في أعماقها، لا بد أن تتحرك تلك السذاجة، و تعيقها عن التفكير.

لم يكن نور الشمس، هو ما جعل فيوليت تدرك أن الصباح قد حان، بل الانتظار، هو ما جعلها تلتفت فجأة، فتكتشف أن ضوء الصباح قد التصق بالزجاج. اقتربت من النافذة العريضة في غرفة المعيشة، وراقبت الشارع وقد دبّت فيه الحياة، مع بداية اليوم. خلف الزجاج كانت تسمع أصوات المارة، والسيارات كذلك، وهي تحارب الزجاج الذي يعزلها عن المدينة، وتحاول

الوصول لأذنها. لم تحسب الوقت الذي ظلت فيه واقفة أمام الزجاج، لكنها لم تبتعد، إلا حين رأت سيارة الدير الفضية العتيقة، تتوقف أمام المبنى، والأخت صوفيا بردائها الأسود تترجل منها. كانت فيوليت تستطيع أن تتخيل خطوات صوفيا وهي تدبّ في الأرض، وإحساس الأمومة، يدفعها لرفع الطرف الأمامي من الفستان، والسير بوجه تجمّدت تعابيره.

استدارت فيوليت، واتّجهت إلى باب السكن، ثم خرجت لتقف عند حافة الدرابزين الحديدي المحيط بالسلم. رأت شبح صوفيا الصغير مقارنة بالنوافذة والسلم تسير قاطعة مربعات ضوء الشمس التي سقطت من النوافذ على عتباته الحجرية، تاركة أثراً ذهبياً باهتاً اكتساه بعض الغبار في البهو.

عندما كادت صوفيا أن تصل إلى الطابق المقصود، رفعت رأسها، وراقبت فيوليت التي تقف قابضة على الدرابزين، كما لو أن الجاذبية سترفعها عن الأرض.

"ألا توجد أية أخبار؟" سألت صوفيا، وهي تخطو على العتبة الأخيرة.

أجابت فيوليت: "لا" وهزّت رأسها ببطء لتؤكد الإجابة بإحساس الغرابة الذي أتى بتأثير في صدر الأخت صوفيا. تخطت صوفيا فيوليت وسارت إلى داخل السكن.

سارت فيوليت خلفها بخطوات بطيئة، وعندما عادت إلى السكن لم تجد الأخت صوفيا موجودة، بل سمعت صوتها في أرجاء السكن يقول: "ألا تعرفين أصدقاء قد تكون برفقتهم؟"

"أخبرتُكِ بأننا لم نكوّن صداقات حتى الآن". تجاهلت صوفيا الإجابة، وراحت تبحث في أدراج ماري عن أي شيء يدل على مكانها، أو على سبب ما حدث معها. نادت فيوليت: "أخت صوفيا". لكن صوفيا استمرت في البحث، فكررت فيوليت: "صوفيا". كان في صوتها شيء من العجز، واليأس.

"ماري ليست موجودة".

"هل هناك شيء لا تريدين إخباري به، لا تخافي مني، فأنا سأقف في صفكما ولو كنتما على خطأ".

لمعت عينا فيوليت، واستمر الصمت حتى تكوّمت دمعة توهجّت كفتيل

صغير، ثم سقطت على الأرضية الخشبية، تاركة بقعة صغيرة بالكاد مرئية. ارتجفت شفتا فيوليت، وقالت باستسلام: "أنا أستطيع تحديد مكان أي أحد أعرفه، أنتِ.. وحتى باقي الأخوات، لكن الآن ماري ليست موجودة".

أرادت صوفيا أن تخبرها بأن هذا هراء. ارتجف صدر الأخت تحت عباءتها السوداء، ونظرت بغضب تجاه فيوليت، وهزت رأسها، كأنما هي ترفض ما تقوله، ثم أشرق وجهها وهي تقبض على أمل أخير: "سنخبر الشرطة، سيجدونها".

37

تحركت عينا فيوليت عبر وجوه كل أعضاء النادي، ثم عادت لتواجه ماركوس، وهي تعترف: "لم يجدها أحد، بل لم يجد أحد أي طرف يقود إلى ماري، أو حتى اشتباه لما حدث لها. كأنما هي لم تكن يوماً هنا".

سألت المرأة ذات الشعر المجعد: "لكن، تلك القدرة.. أقصد إن كانت موجودة.." قطبت فيوليت جبينها؛ لأنها التمست تكذيب المرأة لها. "ألم يتغير أي شيء، مع تلك القدرة، ألم ترسل لكِ أية إشارات بخصوص الفتاة".

نهضت فيوليت، وسارت باتجاه المرأة ذات الشعر القصير، وفردت كفها طالبة من الغريبة أن تسلمها يدها. رفعت المرأة ذات الشعر المجعد القصير، كفها الصغير المجعد، وسلمته لفيوليت. قبضت فيوليت عليه، وتنفست بضع لحظات، ثم سألت المرأة ما اسمكِ: "كاميلا.." أجابت المرأة بتردد وهي تراقب ماركوس، وتطلب منه التدخل. كانت تستنجد بالحضور؛ لأنها لا تفهم ما الذي تفعله فيوليت.

همست فيوليت، ولكن الهدوء جعل همسها مسموعاً للجميع: "هل كُنتِ في جنوب البلدة بالأمس؟"

أفلتت المرأة ضحكة عدم تصديق، وأصبحت عيناها حلقتين مشعتين لشدة دهشتها. "هذا صحيح، كنتُ في جنوب البلدة أزور شقيقتي الصغرى".

"يمكنني أن أعرف أين ستكونين غداً، من دون أن ألمس ذراعك، ولكنّ هذا يتطلب مني جهداً هائلاً. هذا ما يجب أن يحدث مع ماري، ولكن بسهولة لأننا مرتبطتان برابطة لا يفرقها في هذه الحياة إلا اختلاف الدم، لكنني الآن لا أجدها. يبدو أنه من المخيف قول ذلك وتأكيده حتى لذاتي، لكنني أشعر بأنها لم تعد في عالمنا، وليست ميتة في الوقت ذاته".

شهقت كاميلا، وسيطر الصمت والجمود على وجه الآخرين، أما ماركوس فقد زمّ شفتيه بعد أن قال: "هذا فعلاً يبدو مخيفاً. لكنّ ما قمتِ به تواً يا فيوليت أمر غاية في الدهشة، والغرابة". حرّكت فيوليت كتفيها، وكادت أن تشكره لكنه لم يقل سوى الحقيقة، ولا يستحق الشكر عليها.

عادت فيوليت إلى كرسيها الخالي من جديد، وجلست تاركة الصدمة

تستغرق وقتها بين المجموعة الصغيرة المجتمعة في مرآب سيارات قديم يتسلل البرد إليه من كل ثغرة.

انتهى اللقاء في نادي الأرق، وخرجت فيوليت التي أصبحت خلال بضعة أسابيع، كما لو أنها شابة جرَّبت كل أشكال الحياة. كان بخار الماء الكثيف قد جذب السحب الرهلة، وكون طبقة ضباب على على شبكة طرق المدينة، ولم يترك للرؤية، إلا هالات الضوء الباهتة. كانت تسير حسب الاتجاهات، ولا يهمها تحديد معالم الأماكن.

عادت لسكنها، وتسللت إلى فراشها من دون أن تترك للنور أي سبيل لدخول الغرفة، كانت تريد للظلام أن يحجب عنها الجانب الآخر المخصص لماري، حتى لا يعتصر الألم الممزوج بالخوف قلبها، قد تكون قادرة على تحمل الألم أو الخوف على حدة، لكن اتحادهما كان أقوى منها، ولولا وجود نادي الأرق وحديثها الحر معهم لكانت جُنَّت الآن.

غفت فيوليت وهي لا تدرك بأنه تحت حاجب النافذة المستور بالستائر، كانت العين الصغيرة قد بزغت على الجدار، وراحت تراقب الظلام، ورغم عدم رؤيتها لفيوليت، إلا أن تلك العين لم تعجز، أو تسأم من البحث.

بعد مرور ساعتين، وقبيل ساعات الصباح، استيقظت فيوليت، وفي دماغها صوت ماري يغني. لم تكن تلك إشارة منها؛ لأن فيوليت حتى الآن لا تستطيع تحديد مكان صديقتها. كان الغناء ذكرى عالقة أعطاها الحزن قوّة على الحضور من جديد.

سارت فيوليت إلى دورة المياه، وفتحت الخزانة المعلقة فوق المغسلة، فأزاحت المرأة وجهها المعكوس أمام عينيها، وأظهرت لها رفَّين صغيرين يحملان الأدوية. سحبت علبة الأقراص المنومة، والتي كان تأثيرها بالكاد فعالاً. ابتلعت قرصاً واحداً، وعادت إلى فراشها محاولةً العودة إلى ظلام النوم.

راحت فيوليت ترمش بنعومة مستغرقة وقتاً منتظماً في فعل ذلك. انتظرت مفعول القرص عليها، لكنها طوال الوقت الذي كانت تفكر فيه، كان الوقت يصبح أصعب حركة من ذي قبل.

"الشياطين حقيقية". أخبرتها ماري من قبل كما لو كان هذا اكتشافها

الخاص.

"هناك أشياء أخرى كثيرة حقيقية، وقد تكون الآن أكثر خطورة من تلك الشياطين التي تعتقدين بأنها تتربص بنا، ونحن لا نملك شيئاً". هذا ما أجابت به فيوليت. لكنّ ماري لم تكن تصغي إلا لفكرتها، وهذا ما يثبته نظرها المتّجه بعيداً عن شريكتها في السكن. حذّرتها فيوليت: "هيا، أبعدي هذه الأفكار عن ذهنكِ. إنها مصنوعكِ للأخوات في الدير، أما نحن فقد تخلّصنا من تلك السياج المحيطة بنا".

ابتسمت ماري أمام وجه فيوليت، لكن فيوليت أدركت بأن الفتاة تبتسم؛ لأنها لا تدرك ما قالته فيوليت. لم تطلب فيوليت تبريراً لتلك الابتسامة، بل شعرت بالامتنان لصديقتها؛ لأنها تبذل مجهوداً في الابتعاد عن مخاوفها الخاصة، وإن كان ذلك عن طريق تمثيل دور لا يمت لواقعها بصلة.

"لكنني.. أعتقد". ابتلعت ماري ما تبقّى من كلمات وأخفت صعوبة ذلك عن وجهها. رفعت فيوليت حاجبيها، كأنما تطلب من صديقتها جر ما تبقى من اعترافها. قالت ماري أخيراً: "أراه. بل أنا أشعر به أحياناً". ساد صمت قصير توقعت فيوليت خلاله أن تبرر ماري ما قالته تبريراً يبعدها عن هذا الجنون، الذي تظن أنها تفهم معناه على لسان ماري. "أعتقد بأنه يحاول التخاطب معي، يهمس لي بأشياء.."

قاطعتها فيوليت: "أشياء ماذا؟"

رأت فيوليت الاعتراف يغوص في وجه ماري. تغيرت كل معالم وجهها، وعادت إلى كلها الطبيعي بعد لحظات من التفكير. أرادت فيوليت أن تصر على ماري بالاعتراف، لكنها لا تودُّ أن تكون سبباً آخر في الضغط على صديقتها التي كانت تتحوّل شيئاً فشيئاً.

38

أنا بعيدة الآن.

خطَّت جوليا تلك الكلمات على الورقة التي طلب منها الطبيب أن تكتب عليها، ثم خرج من الغرفة تاركاً جوليا وحيدة لبعض الوقت. كان المكان يشبه محطة تزورها جوليا، وتتعرف عليها لبعض الوقت، من ثم تتركها للأبد. ليس مكانها، ولا تنتمي إليه. ليس هذه الجدران الأربع إلا غرفة علاج في مصحّ ماونتنز هيل.

تقترب الكلمات، وتكاد تندفق على رأس القلم الذهبي الذي يملكه الطبيب شخصياً. لم تشعر جوليا بشدة قبضتها على القلم، ولا بارتجاف يدها حين عادت للكتابة.

بعيد رغم ذلك تبدو لي أكثر من قريب. لماذا أصبح كل شيء غير صحيح يتمحور حولكَ، ولماذا غدت كل الأشياء الجيدة مرتبطة بأرضكَ البعيدة الآن. كأننا موعودون في قضاء السعادة عليها، وحين رحلتَ نفيت من الجنة. لا أعلم كيف يسير الوقت في هذا الابتعاد، وما الجميل في الفراق الذي رحلنا إليه؟ أخبرني ما الجميل في الرحيل الذي ذهبتَ إليه، وهروبي الذي اخترته.

أنا الآن أدرك أخطائي، وأتمنى لو كان هناك لحظة أخيرة يمكننا ترميم ما انهار خلالها.. أو على الأقل مصادفة تجمعني بكَ، يمكنني خلالها أن ألقي كلمتين تتركان صدى الندم في أذنكَ.

عندما التقينا اعتقدنا أن نهاية حلقات مسلسلنا المأساوي في الحياة هي تحت السقف الذي يربط حكايتينا لتتحدا عبر قصة واحدة أبطالها نحن. ظننتُ بأنني وجدتُ السعادة، وهذا ما يرغب به إنسان حتى لحظة الفناء.. أليس كذلك؟

لماذا على الحكايات أن تنتهي، ولماذا يجب أن نختار نحن الذكرى؟ لكن حتى في حكايتنا لم أختر أنا الذكرى الأخيرة، وليتني أستطيع العودة لكي أمحو الجزء الأخير، وتكون حتى في رحيلكَ لا تتذكر إلا الضحكات التي لم نخجل ونكتمها يوماً. وددتُ لو أن حبي يصل بكَ إلى مرحلة الغرور، فلا تجد من يصنع لكَ عرشَ حبٍّ مماثلاً له، وتعود مهما ابتعدت، لكن هذا ضعف جعلكَ أقوى مني، فسقطتَ من بين نظراتك للحياة. أردت أن أصنع ذكريات لا يمكن

استبدالها بأخرى، ولو كانت أفضل منها لكن لا تشببها. لكن ما الذي تركناه؟

أنا أفقد من أجلك الكثير، والآن أفتقدكَ.. لكن ما الذي حصل؟

أفلتت جوليا القلم أخيراً فوق الورقة، وانتظرت في الغرفة حتى عاد الطبيب من جديد، فوجدها تجلس في سكون لا تنتظر شيئاً. سحب الطبيب الأوراق من تحت يدها، فوجد عليها ما يشبه الصدوع، إلا أنها لم تتلف كانت التجاعيد التي تجعل الورقة كجدار قديم، موجودة لكنها لم تشوه شكل ولا أية كلمة مما كتبته جوليا. "شجاعة منكِ أن تتراجعي عن ذلك في آخر لحظة". جلس الطبيب على كرسيه، وراح يقرأ ما كتبته جوليا. كانت تشعر بالخجل، ولا تقوى على رفع بصرها تجاهه؛ لأن تلك الأوراق كانت تُعرّي شعورها بالذنب. وهذا ما أدركه الطبيب ما أن انتهى، فسألها: "أنتِ تشعرين بتحمل المسؤولية حتى الآن؟"

"لأنني بالفعل أنا من بدأ بإشعال ذلك الفتيل".

علق الطبيب: "لكن لماذا هذا الاعتراف بالضعف".

"لا أملك ما أخشى من إشهار ضعفي لأجله. إعلان الاستسلام مريح أحياناً، وخصوصاً إذا كانت معركتكَ مع المشاعر". تأملت جوليا لمعان عيني الطبيب الذي كان يراقبها بشغف، وهو سعيد بذكائها، وبمراوغتها. يدرك الآن بأنها لن تحتاج للعلاج طويلاً لأنها ذكية، ومحاولة الانتحار لم تكن إلا انفجار باطني فقدت قدرتها على التحكم بنفسها أمامه.

"بعض الأخطاء تقع، ولا تعود معنا الممحاء لإخفاء ذلك، كأنها طُبِعت بحبر دائم. الوقوف أمامها تأخير موذٍ، ومحاولة إزالتها إتلاف إضافي للأوراق. لا يبقى أمام مقترفها إلا قتل طرف من إحساسه، وتجاوزها ببساطة".

سألته جوليا بسذاجة تعمَّدتها؛ لأنها تريد من الطبيب أن يسترسل في إجابته المريحة لها: "ما الذي يعنيه هذا؟"

"أعني يا جوليا ما فهمته. تجاوزي الأمر؛ لأن الوقوف أمامه لا يوذي إلا ناظركِ أنتِ. آدم لا يرغب في المضي في هذا الطريق، وروح الجنين.. لن تعود. أنتِ مذنبة، ولكن هذا الذنب لم يعطِّل حياة آدم، ولم يعقكِ عن أداء مهامك".

أتى ذكر جنين جوليا بتأثير مخدر، أصاب أفكارها بالشلل. كان ذكر هذا الذنب أقوى تأثيراً من حكايتها مع آدم وطلاقهما الذي زرع الألم في قلب جوليا. "لكنني أنا من اختارت هذا الأمر". ترددت جوليا قبل أن تلقي قنبلتها الصغيرة: "أنا.. أنا قتلتُ طفلنا قبل أن يرى الحياة".

تشابكت أصابع الطبيب قبل أن يقول: "أنتِ خائفة. لا يجدر بي أن أقول هذا، ولكن تأتي لحظات الخوف بشعور أسوأ مما فعلتِ. أنتِ أردتِ ترك سبيل للخلاص مع حياتكِ بآدم لأنه يخونكِ، وذلك الجنين كان حبلاً قوياً يربطكِ به للأبد. هناك من يقتل إنساناً آخر بسبب الخوف، بل هناك من قتل أخاه بسبب هذا الشعور. إن الخوف أقوى المشاعر تأثيراً على الفرد؛ لأنه ببساطة يجرده من مفاهيمه ومشاعره.. بل إنّ الخوف يجرد المرء من نفسه".

سرقت الذكريات جوليا من واقعها، وعادت بها إلى اليوم الذي رافقت به صديقتها سارة إلى مقر التصوير الذي يعمل به آدم على تحضير عمل جديد، وأحدث من الفيلم المقتبس من روايتها الخاصة. كانا قد تجاوزا معاً حاجز النجومية، وأصبح نجمهما ساطعاً في كل الأرجاء.

سارة هي من سلّطت الضوء على خيانة آدم الأخيرة لجوليا، وفي تلك الأثناء كانت جوليا حاملاً بطفلهما الأول. وهي من أقنعتها أيضاً بالتخلص منه؛ لأنه سيقيدها بهذا الرجل الخائن.

"جوليا" أعادها صوت الطبيب إلى الواقع. "إنه أيضاً خائن فكري بالأمر بهذه الطريقة الطفولية أحياناً. سواء كنتِ قد حملتِ بذلك الطفل أم لا، إنه خائن.. تلك الخيانة كانت ستترك أثر خدوشها على قلبكِ إلى الأبد، وما حدث هو ما كنتِ تتوقعين الوصول إليه حين تخلصتِ من الجنين. لا أعني بأن قتل الجنين فعل صائب، ولكنكِ كنتِ تؤمنين بالوصول إلى تلك النتيجة، وهاهي وصلت أسرع من توقاعتكِ. هذا كل الأمر".

انتهت جلستها مع الطبيب، وهمّت جوليا بالنهوض بعد أن تلقّت عدة نصائح سريعة منه. كان هذا لقاؤها الأخير به، وجلستها العلاجية الأخيرة في المصح. لم يغيّر الحضور إلى هنا أي شيء، لكنها على الأقل كانت تجد من تتحدث إليه. كانت خلال الأسبوعين اللذين تليا حادثة انتحارها، لا تستطيع النوم إلا ساعات قليلة، وتقضي النهار وحيدة دون أن ترسو على أي نشاط تقضي يومها

فيه. لم يكن أمامها سوى قراءة الكتب، وحين تواجه جوليا صفحاتها كانت تشرد بعيداً عن طريق القصص المكتوبة على الأوراق. لم يكن أمامها إلا العجز أمام الوقت، والانتظار.

دلَّها الطبيب على أسماء بعض الأدوية المنومة الأقل تأثيراً، لكنّه نصحها أن تتعايش مع هذه الفترة؛ لأنها إن لم تكسبها أشياء جديدة فهي لن تؤذيها. أما تلك الأقراص فطلب منها أن تلجأ إليها عند الضرورة؛ لأن الوقت الذي ستهرب فيه من الحياة، لن يعوضه أي شيء آخر.

ليست كل التغييرات اختيارية؛ لأن هناك دائماً احتمالاً مفترضاً على إنسان في كل جانب يقف أمامه. لكننا على الأقل الجانب القادر على التفكير مهما كانت شروط اللعبة، ولكل شخص القدرة على تسيير خطوط التغييرات التي يقع بها في حياته.

صافحت جوليا الطبيب، وكانت هذه المرة الأولى خلال فترتها العلاجية القصيرة، ثم تركت مكتبه متجهة إلى المخرج حيث كان الباب يتوهّج؛ بسبب شعاع الشمس في آخر الممر.

دفعت جوليا الباب وتجاوزته وصولاً إلى السلم الحجري القصير، وقبل أن تهبط رأت مارك يجلس وحيداً على ذات الطاولة يجلس مولياً إياها ظهره. وطأت قدماها على العشب، وسارت باتجاهه. لم تعرف جوليا كيف يجب أن يبدأ الترحيب معه، دون أن تشعره بالخوف. تقدمت حتى أصبحت مرئية بالنسبة له. اعتدل مارك في جلسته، وحياها بدوره.

"كيف هي أحوالكَ اليوم؟" سألته جوليا.

"لا شيء جديد. أنا بخير كما أنا في كل يوم أمضيه في حياتي، ولا مهرب آخر أمامي منها حتى الآن". سحبت جوليا كرسيها وجلست بجواره. "وأنتِ كيف يسير العلاج معكِ".

ابتسمت جوليا وهي ترى المرج أمامها أوسع مما كان في نطاق رؤيتها سابقاً. جرّت نفساً طويلاً، ثم قالت وهي ترفع كتفيها وتبتسم: "انتهى علاجي. لم أقنعهم بأنني لم أحاول الانتحار، ولكن على الأقل لم يسجل ذلك كقضية بحقي، ولن أتعرض للعقاب من أجل ذلك. يظهرون بعض التعاطف معي على الأقل. ماذا عنكَ أنت؟"

سعل مارك مرة واحدة قبل أن يقول: "هذا الأمر لا ينتهي. يعتقدون أنني مجنون حتى الآن، رغم شح بوادر ذلك. لكن هم أدرى بالنهاية أفكارنا ملك لهم، ليست لنا". ساد صمت قصير، اختفى خلاله حماس جوليا. أدرك مارك ذلك فقال: "لا أقصد تثبيط حماسكِ، لكنني سوداوي، منذ أن فقدتُ زوجتي وأنا هكذا".

"لا عليكَ، تستطيع قول ما تشاء".

"شكرا لكرمكِ". قال مارك ذلك وهو ويرفع حاجبيه بطريقة مبالغ بها.

"لا أنام، أعتقد بأنني يوماً بعد آخر أفقد قدرتي على النوم. أعطاني الطبيب وصفة لبعض الأدوية أرجو أن تأتي بمفعولها معي الآن، لكن يخيفني الغموض الآتي إذا ما حدث عكس ذلك".

أصدر مارك همهمة طويلة، ثم زفر بقوة: "أعاني من الأمر ذاته. كانت الأدوية تنجح في البداية، لكن الآن الكوابيس هي ما يتربص لي ما أن أغلق عيني". رفع مارك ساعة يده ونظر إليها قبل أن يقول: "أعتقد أنه وقت جلستي، بل إنني متآخر بعض الشيء. اسمعيني يا جوليا. دعيني أراكِ غداً في مقهى سن رايز إن كنتِ تعرفينه".

ردت جوليا فوراً: "أعرفه، بل إنني أعيش على بعد شوارع قليلة منه".

"هذا جيد، إذا غداً في السادسة مساءً". قال ذلك دون أن ينتظر منها إجابة، ورحل باتجاه مدخل المبنى الأبيض.

39

تردد صوت كوني فرانسيس في الأرجاء، لكن جوليا لم تتمكن من تحديد مصدر ذلك الصوت. كانت واجهات المحال في الشارع نشيطة، وحركة الأشخاص حولها لا تهدأ. لم تكلف جوليا نفسها عناء تفادي الأشخاص، بل كانت تتحرك في سرعة منتظمة. تركت للغرباء مهمة تفاديها، وهذا كان يحيطها ببعض البلاهة. لم تبذل مجهوداً في إسقاط نظرها على أيٍّ من جوانب الطريق، بل كانت تمشي وهي ترى الطريق أمامها، حتى ظهر الطفل الذي أعاد كهرباء الحياة لجسدها. كان الطفل يسير بهدوء بجوار أمه، التي نقلت اهتمامها إلى الطريق بعيداً عنه.

توقفت جوليا لثانيتين، وراقبت الأمر تجر الفتى بعيداً. غطى ثلاثة شبان مجال رؤيتها، وحجبوا جسد الطفل عن نظرتها، لكنها أسرعت خطوها، وتفادتهم لترى قمة رأس الأم تبتعد. قالت جوليا لنفسها: إنه هو الطفل الذي قفزت خلفه في النهر.

تذكرت جوليا فجأة اتهام الجميع لها بالانتحار.

بدأت تهرول فوق الرصيف، واصطدمت بكتف الشاب الأول بين الثلاثة الذين حجبوا عنها رؤية الأم وطفلها. لم تتوقف، بل التفتت لتشير بإشارة اعتذار له، ثم استأنفت حركتها. انعطفت الأم التي كانت المسافة الفاصلة بينها وبين جوليا تتقلص، وسحبت الباب الزجاجي لمحل قطع الأثاث الصغيرة. تبعها الطفل بكسل. وصلت جوليا، وظلّت واقفة خلف زجاج الباب، ومن فوق اللافتة الخشبية التي تحمل كلمة فتوح ألقت نظرة سريعة على الفتى، ثم جرت الباب ودخلت خلفهم.

تجاوزت جوليا رف التماثيل الخشبية، وكانت رائحة النشارة العالقة في المحل تحرك أنفها. رأت الطفل يقف وحيداً، فاقتربت منه، وانحنت باتجاهه، ثم قالت: "إنه أنتَ من جديد. ها أنت ذا، لم تُصب بأذى".

التفت الطفل وراقب عيني جوليا مباشرة، ثم سألها: "لا أعتقد بأننا نعرف بعضنا".

"بل أنا رأيتكَ عند الجسر وقد قفزتَ في النهر في تلك الليلة. إنه أنتَ".

تراجع الطفل خطوة واحدة إلى الوراء، ثم قال: "سيدتي، أعتقد بأنكِ تقصدين شخصاً آخر. إنني أراكِ لأول مرة في حياتي اليوم". راقب الطفل عيني جوليا مباشرة، ومن دون أية مساعدة أدرك وحده بأنها تدعى جوليا، بل كان يستطيع رؤية والدها ويعرف كنيته كذلك.

"إنه.." ترددت جوليا، وشعرت بأنها تنشر الذعر في قلب الطفل.

"هل اسمكِ جوليا؟"

كادت جوليا أن تشهق، ثم قالت: "أنتَ تعرفني؟! كيف تعرفني؟"

ابتسم الطفل فخوراً بذاته: "أنا أعرف أي شخص من خلال رؤية عينيه. إنها معجزة سرية، لن تصدقها أمي، لذلك لا تخبريها، لكنني محق حين قلت بأنني لم أركِ إلا الآن. هذا لقاءنا الأول يا جوليا".

قاطعهما صوت أنثوي: "أندرو هل أنتَ بخير؟" اقتربت المرأة وهي تلقي نظرة ممزوجة بالغضب والدهشة على جوليا وطفلها. "ما الذي يحدث يا أندي". رأت جوليا وجه أندي وطابقت اسمه على هيئته. التفت الفتى إلى والدته، وأشار برأسه إليها نفياً. استقامت جوليا، واصطنعت ابتسامة على وجهها.

"إنه يشبه ابن شقيقتي الكبرى، لذلك توقفتُ لألقي التحية". ظلّت إمارات الحيرة على وجه والدة أندي. "لم أره منذ وقت طويل جداً، إنه الحنين". أظهرت والدة الفتى صوتاً شبه مكتوم بدلاً من التفهُّم.

قال الفتى: "أنا أندرو.. أندي، يناديني الجميع بذلك".

"وأنا جوليا". سحبت جوليا كفّها لتصافح والدة أندي، ثم قبضت على كف الفتى وهزتها في الهواء. تحركت بضع خطوات على الباركيه، وحذاؤها يصدر صوتاً يدل على حركتها بينما هي تتراجع دون أن تشيح بوجهها عن الطفل، الذي لم يُخفِ ابتسامته عنها. لوَّحت بيدها للفتى ولأمه التي ظلّت مشدوهة تراقب جوليا بحذر. دفعت جوليا باب المحل بظهرها، وخرجت مندفعة إلى الخلف. لكنها اصطدمت بحاجز ما، فكادت أن تسقط إلى الخلف، لولا أن هناك قوى قبضت عليها وثبّتت جسدها. أرخت جوليا جسدها المشدود بين تلك الذراعين اللتين ثبتاها. أطلقت صرخة قصيرة، وكتمتها معها شعورها بالأمان.

تجاوزت عيناها واجهة المحل، وأصبحت مقابلة للسماء، شعرت حينذاك بأنها تطير. ظهر وجه ذكوري قريب منها حجب معظم صورة السماء عن بصرها، أدركت جوليا فوراً بأنه هو من أنقذها من السقوط.. وهو سبب تعثرها أيضاً.

ابتعدت جوليا عن ذراعه، ودفعته بعيداً عنها: "ماذا هناك؟ ابتعد عنّي".

"لم تكن هذه عبارة الشكر المتوقعة". قال الرجل الغريب.

"شكر ماذا؟ أشكرك لأنك أنقذتني من سقوطي الذي تسبب به وقوفكَ هنا".

عقد الرجل يديه وقال: "أو تسبب به سيركِ إلى الخلف، لأنني كنتُ أعتقد طوال سنوات حياتي أن الأشخاص يسيرون إلى الأمام وليس عكس ذلك".

أرخت جوليا إحدى قدميها على الأخرى، ووازنت جسدها: "وما شأنك في طريقة سيري؟ إنها هواية جديدة".

"حسناً.. حسناً، لا شأن لي، ولكن حين تدفعين الباب وتخرجين دون النظر إلى من يقف خلفه، أعتقد أن هذا يُقحمني في الأمر رغماً عني". لم تجد جوليا جواباً، بينما الرجل الذي كان يتبعها متعمّداً شعر بالنجاح؛ لأنه استطاع إقناعها بأنّ وجوده هنا لم يكن مقصوداً.

"أنتَ هو من اصطدمتُ به قبل منذ قليل. لقد تبعتني!" كشفت كذبته.

"لا" أُنكر الرجل.

"لقد رأيتكَ مسبقاً، لكن أين؟" حاولت جوليا أن تبحث عن أية ذكرى تحمل وجه الرجل. لم تكن هذه المرة الأولى التي تلتقي بها بهذا الرجل، ولكن متى التقت به، ومكوثها في هذه المدينة لم يدم إلا أياماً قليلة. إنها تتذكّر ملامح وجهه وقد كانت مختبئة خلف ذقن أثقل مما يحيط بوجهه الآن. "مهلاً، أنتَ.. في المستشفى".

"نعم. أنا من أنقذكِ في تلك الليلة. وفي الواقع تبعتكِ إلى هنا عندما رأيتكِ تهرولين. لا أعلم أية كارثة تنوين القفز عبرها الآن، لذلك تبعتكِ".

"لا يوجد كوارث الآن". أشارت جوليا بيدها إلى المحل، أرادت أن تخبره عن الطفل الذي لم يصدق أحد وجوده، ولكن إذا كان أندي ينكر ما قام به،

فكيف لهذا الغريب أن يصدق، وهو الذي رأها ترحب بالموت. "هل ظننتَ بأنكَ ستصبح بطلاً للمرة الثانية؟ أم هو الفضول؟"

"لستُ بطلاً، ولا فضولياً. لكنني أعتقد بأنكِ مصحوبة بهالة المخاطر، وقلقتُ من أن يكون هناك أمر آخر جديد الآن. قد يكون في الأمر بعض الفضول، ولكنني لستُ ما تتخيلين". رأى الرجل الهدوء يعود إلى وجه جوليا، فقال ليكمل هجمته المرتدة: "ثم إنني لا أجد أي داعٍ لكل هذا الغضب".

راقبت جوليا الرجل وقد أصبح أقصر قليلاً، وفي ملامحه من الحياة، أكثر مما كان موجوداً حين رأتُه في المستشفى. "لستُ غاضبة في الواقع، إنما شعرتُ ببعض القلق، ليس إلّا". تحرّكت جوليا أمام واجهة المحل، فتحرك الرجل الغريب بجوارها دون أن تتولد لديها رغبة في رفضه. أما الرجل فقد وجد قدمه تساير جوليا في المشي دون إرادة منه؛ لأنه اعتقد بأنها لم تنهِ حديثها.

سارا بسرعة متساوية، وكانت نظراتهما تلتقيان بتوتر، وكلاهما لا يعرف كيف يفسّر غرابة اللقاء الثاني. قال الرجل: "اسمي إيفان". فنطقت جوليا باسمها هي الأخرى. كرر إيفان: "جوليا... كيف هي أحوالكِ الآن يا جوليا؟"

"أتقصد بعد أن رأيتني أحاول الانتحار".

هزّ الرجل رأسه إيجاباً، لكنه نطق بـ: "لا. أقصد.."

"لستِ مضطراً إلى الكذب. أنتَ تقصد ذلك، وأنتِ فضولي أيضاً. لقد كذبتِ مرتين". كان هذا غضب متعمّد لم يشعل في إيفان أي نفور منها، بل أدرك بأن لديها من اللين ما يجعله يسايرها أكثر.

"أنتِ مدينة لي بكذبتين، سأغفرهما لكِ".

"من الجيد أن يكون هناك من يتقبل الكذب، وأنتَ كريم فقد أهديتني كذبتين". ابتسمت جوليا فظهر صف أسنانها العلوي. لم يتمالك إيفان نفسه فأطلق حرية ابتسامته. تجاوزت جوليا المحل الذي كان أندي موجوداً فيه، وبسهولة سقط الفتى من أفكارها. عرض عليها إيفان شرب القهوة بعد أن تجاوزا عدداً قليلاً من المحلات الصغيرة. ترددت جوليا قبل أن تقول: "أوافق على ذلك".

سحب إيفان الكرسي الخشبي الصغير المواجه للطريق، وأشار لجوليا حتى تجلس عليه، ثم تجاوزها ليجلس على الكرسي المقابل لها. لم يكن الكرسي مريحاً، لكن لم يعترض أي منهما على البقاء هناك. كان الهواء البارد تحت دفء الشمس يبعث على سكينة أفكار جوليا، أما إيفان فقد كان يتطلع إلى الكثير من الإجابات. لكن جوليا أحبطت آماله وهي تقول: "إن كنتَ تعتقد بأننا هنا، لأبوح لكِ بحكاية مأساوية أدّت بي إلى محاولة الانتحار فأنتِ مخطئ. أعلم بأنّ فضولكَ يدفعكَ لذلك، لكن لا شيء لدي لأخبركِ به". ثبتت جوليا يديها على الطاولة، ثم قالت: "ثم إنني لستُ مضطرة لأن أروي لكَ أي شيء".

زفر إيفان، ثم قال: "لماذا هذه الشكوك موجودة، لستُ مهتماً بالأمر، ولا أتطلّع لسماع حكاية حزينة".

"ليست حزينة".

ثبّتَ إيفان بصره على جوليا ثم قال: "ماذا إذاً".

مدّت جوليا سبابتها لتشير إلى إيفان مباشرة: "أرأيتَ أنَّكَ مهتم".

"مانوع هذه الاختبارات؟"

"ليست اختبارات، إنها غريزة كل إنسان. لن تغير حكايتي أي شيء، ولا أعتقد بأنها ستكون جديدة عندما تسمعها، لكنني أردت أن أثبتَ لك بأنكَ ولو كنتَ غير مهتم، فأنكَ لن ترفض سماع الحكاية".

ابتسم إيفان بمكر وقال: "ومن قال بأنني سأرفض".

أشاحت جوليا بوجهها وقالت: "ولن أقبل بالحديث عني. لستُ هنا لأفعل ذلك".

"لسنا أعداء، ولستُ مضطرة لذلك بالفعل يا جوليا". ساد صمت طويل، لم ينتهِ حتى وصل فنجانا القهوة إلى طاولة جوليا وإيفان. راقبت جوليا إيفان وهو يرتشف القهوة، وعيناه تحدقان في قلب الفنجان، ثم ارتفعت رموشه لتكشف عن عينيه اللتان راحتا تحدقان بها دون سبب.

أخفضت جوليا عينيها إلى فنجان القهوة الذي لم تمسّه بعد، ثم قالت دون رجاء للحصول على تصديق إيفان: "لم أُقدم على الانتحار في تلك الليلة،

بل لقد رأيتُ طفلاً يقفز في الماء". لم تتغير ملامح إيفان، وكأنه يعرف هذا الحدث مسبقاً. "لقد رأيتُه اليوم في ذلك المحل مع أمه، لكنه لم يتعرّف عليّ، ولم يرني مسبقاً".

أعاد إيفان الفنجان إلى مكانه، وأسند مرفقيه على الطاولة هو الآخر، ثم اعترف وكأنه يرجوها أن تكفّ عمّا تفعله: "يا جوليا، إنني لا أعرفكِ، ولا أجد سبباً للكذب. لقد رأيتكِ في تلك الليلة قبل حتى أن أقفز لإنقاذك. رأيتكِ تتسلقين حافة الجسد، وترخين جسدكِ في الماء. لم يكن هذا النشاط الذي يملكه المنقذون موجوداً، ولم يسبقكِ أي حد إلى ذلك الجسر. لو أمكنني أن أعيد تصوير المشهد أمامكِ، وأجعلكِ ترينه بنفسكِ لاتفقتِ معي".

ارتجفت شفتا جوليا، وهي تقول: "لكنني لستُ مجنونة. أنا حزينة.. محبطة، هاربة، أحمل في داخلي كل ما يجعل إنسان محطّماً، لكنني لم أصل إلى مرحلة الجنون.. صدّقني!".

"لا أعرفكِ لأحكم على هذا أيضاً". راقبها بطرف عينه، وأطلق نصف ابتسامة.

"لتحترق في جهنم". قالت جوليا مُكشّرة.

"هل أنتِ سريعة الغضب على الدوام؟ إنني أمزح".

"لا أعرف إلا الغضب. ثم من أنتَ لتمزح معي؟"

"ألا تعرفين من أنا؟" هزّت جوليا رأسها نفياً بغضب. "إذن: تعرّفي عليّ". وراح يضحك بينما راقبتُه جوليا من دون أي تعبير مرسوم على محياها. شعر إيفان بالحرج؛ لأن ما قاله أتى بعكس النتيجة المتوقعة، ولم يساهم في إذابة الجليد بينه وبين جوليا. "في الواقع أنا شرطي، انتقلتُ إلى هنا منذ ما يقارب العام. توفيت والدتي قبل ذلك ولم يعد بإمكاني البقاء هناك".

"أنتَ أيضاً هارب من قصة ما، يبدو أنّ هذا المكان منفى البائسين".

أجاب إيفان: "في الواقع لستُ بائساً. طلبوا مني العمل هنا، ولم أرفض ذلك أو أسعى لتبديل الأمر. وجدتُ في الأمر فرصةً للتجديد، لذلك وافقتُ على الأمر، وأتيتُ إلى هنا".

دفعت جوليا خصلات شعرها التي كانت تتوهّج تحت ضوء الشمس إلى

الخلف. راحت خصلات شعرها تلوح في اتجاه واحد، كما لو أن شعرها شعلة نار يحاول الهواء إخماد ألسنتها. "انتقلتُ إلى هنا، قبل شهر واحد".

سحبَ إيفان الهواء ببطء، ثم قال: "لماذا أنتِ هاربة".

"أعمل على كتابة قصة ما، ورأيتُ في انتقالي إلى هنا تجديداً لأفكاري. قد يساعدني هذا في إنجاز مشروعي الجديد". كذبت جوليا كذبتها الأولى؛ لأنها لا ترغب في خوض مأساتها مع إيفان.

"لكنكِ في المستشفى ذكرتِ آدم".

"أوه حسناً، لم يتبقَّ أمامي الآن سوى كذبة واحدة. أجل في الواقع، انفصلتُ عن زوجي، وكانت النهاية أقوى مما توقع كلانا، لم أحتمل البقاء في الجانب الذي يحمل تفاصيل علاقتي به، لذلك انتقلت إلى هنا". أغلق إيفان طريق الأسئلة التي في عقله، ولم يطرح المزيد منها؛ احتراماً لخصوصية جوليا.

في آخر جزء من عصر ذلك اليوم، عادت جوليا سيراً إلى منزلها. أخبرها إيفان بأن طريقهما واحد، لذلك سيرافقها حتى تصل، من ثم يستأنف هو طريقه. أنشب الخريف أصابعه في البلدة من كل أطرافها. تساقطت أوراق الأشجار، ومع الرياح كانت الأوراق اليابسة تتحرك وصولاً إلى أقدام جوليا وإيفان، فتتهشم تحتها مصدرة صوتاً أخفته الرياح عن آذانهم. وصلت جوليا إلى منزلها، وفي تلك اللحظة تردد إيفان قبل أن يخرج مذكرته الصغيرة من جيب معطفه. ويسألها: "هل ستحتاجين رقم هاتفي؟ لا أقصد أن أكون وقحاً، ولكن يمكنني أن أقدم الدعم دائماً بصفتي صديق.. مجرد صديق".

هزّت جوليا النصف العلوي من جسدها، وهي تقول: "لا يتطلّب الأمر كل هذا".

"أعني هل نستطيع تبادل أرقام هواتفنا، لن تساندنا المصادفات دائماً".

سحبت جوليا الورقة من يده، وفردت كفّها طلباً للقلم، فأفلت إيفان القلم على بعد مسافة قصيرة من يدها ليهبط على راحة كفها بعد أجزاء من الثانية. راقب وجه جوليا المتجهة نحو الورقة تثبتها في الهواء. "هذا هو رقم هاتفي، لكن أرجو ألّا تجعلني أندم على ذلك".

"لستُ ممن تتخيلين صدقيني".

هزّت جوليا رأسها، ثم اتّجهت نحو معبر السياج المحيط بمنزلها. التفتت لترى إيفان يسير، لكنه ما أن ابتعد خطوتين نادته مرة أخرى. توقّف وراقبها من خلف السياج القصير. "هل أخبرتني بأنكَ لستَ ممن أتخيل حين ظننتُ بأنك آدم؟" قهقهت جوليا بكسل.

ضحك إيفان بخجل، ثم اعترف: "أعتقد ذلك".

"حسناً، وداعاً". ودّعها هو بذات العبارة، ومضى في طريقه.

عندما حلَّ المساء، حاولت جوليا بجهد بالغ الخلود للنوم. لكنها عجزت حتى باغتها النوم فجأة مطبقاً بظلامه على عينيها. في تلك اللحظة كانت ترى الظلام واضحاً، وكأنها ليست نائمة، إنما هبطت في قاع أسود لا نهاية له. أمامها كان هناك وميض يراقبها دون أن يتوهّج، أو حتى يشير إليها بأي خطر. بل كانت عين واحدة مضيئة في تلك العتمة تراقبها بثقة وبرود.

فتحت جوليا عينيها، لتجد الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل بساعة واحدة. كانت جوليا نشيطة وبعيدة عن الكسل الذي قد يعيدها إلى النوم، تمنّت في تلك اللحظة لو أنها حصلت على الأقراص المنومة قبل أن تعود إلى المنزل، فهي بحاجتها الآن، لم تعتقد بأنّ هذه الحاجة ستأتي سريعاً.

40

لم يزر النعاس عيني جوليا طوال ساعات الصباح في ذلك اليوم، أما في النهار فكان الوقت خلالها بالكاد يسير. أدركت جوليا بأنه لا أحد يستطيع مجابهة الوقت إذا ما اتَّحد معه الفراغ والوحدة؛ لأنكَ حين تنتظر مفاجآت الوقت يبدأ بإدراك قيمته وتغيير مساره عنك. يجب أن تبحث عمّا تقضي به وقت فراغها، وعمّا يساعدها على النوم أكثر. لم تتذكر جوليا منامها، ولا تفاصيل نومها في الليلة الماضية، أمضت يومها الذي لم يميزه سوى شعورها بالإرهاق؛ لقلة ما نالته من الراحة.

لم تنسَ جوليا موعدها مع مارك في مقهى سن رايز اليوم؛ لأنه هو النشاط الوحيد الذي كانت تنتظر وصول موعده، والشي الوحيد الذي تترقب وصوله طوال الأيام الماضية. وقبيل الموعد المحدد خرجت جوليا من المنزل لتقضي ما تبقّى من الوقت الفارغ في الطريق.

عندما وصلت إلى المقهى الصغير، لمحت جوليا شبح مارك يجلس ومعطفه الأسود مثبت على طرف الكرسي المجاور له. كان مارك مغطّى بالسواد تماماً، ولا يمكنها رؤية أي لون مختلف فيه إلا رأسه الذي كانت قمته بيضاء يشوبها بعض اللون الرمادي.

تجاوزت جوليا الزجاج اللامع، ودخلت المقهى فوجدته شبه خالٍ من الزبائن. خلعت معطفها، وحملته بيدها حتى وصلت إلى الطاولة التي كان يجلس عليها مارك. استقام ظهر مارك، وظهرت إشراقة في عينيه.

"لم تتآخري، في الموعد تماماً".

دفعت جوليا خصلات شعرها فعبر بعض الهواء بينها، ثم جلست. "وكأنّ لديّ ما يشغلني عن لقائنا".

"من المحزن أن أشعر بأنني احتياطي، ولولا الفراغ لما كنتِ هنا. لكن الهامّ الآن هو حضوركِ، وأنا مسرور لأجل هذا يا ابنتي". أهدته جوليا ابتسامة رقيقة حقيقية.

استدارت جوليا في مقعدتها، ووجّهت نظرها إلى النادل حتى يأتي إليهما. واجهت مارك من جديد، ثم سألته: "على ذكر الأبناء، كيف هو حال ابنكَ؟"

رأت جوليا كتفي مارك يهبطان، وهو يفقد بعض الحماس. "لا نتواصل كثيراً في الآونة الأخيرة. نحن لا نجد تفسيراً لما حدث مع والدته، هو يلقي عليّ بعض اللوم، كما أنه غاضب لأنني لا أملك إجابة حول اختفاء كارلا. لكنني في الواقع عاجز عن تقديم أي شيء، ولا يمكنني أن أشرح له بأنّنا في المركب ذاته؛ لأنه يراني حاملاً لحلول كل العقد.. لا أرغب بتخييب ظنّه، لذلك أتركه لموجة مشاعره".

"أعتقد بأنه كبير ليفهم بأن الأمر قد أفلت من يدكَ، كما هو ليس بإرادته. لا يمكنه لومكَ على اختفاء زوجتكَ، لمجرد أنك أنتَ من كان موجوداً حين حدث ذلك، بينما هو يعيش خارج البلاد، ولا يتحمّل مسؤولية ما حدث. بل إنّ أحد منكما لا يحمل المسؤولية؛ لأن ما حدث لم يكن باختيار أي شخص منكما".

أجاب مارك بعد تفكير: "أُدرك هذا يا عزيزتي، لكن هو يعتقد بأن هناك ما أخفيه عنه".

وصل النادل ليسجل طلب مارك الذي لم يتناول شيئاً حتى تصل جوليا، وجوليا شتّتها الاختيار فطلبت قهوة سوداء مُكرّرة ما قاله مارك.

"عيناكِ، لا تبوحان إلا بالأرق".

"لم أنم جيداً". اعترفت جوليا.

"إنها بداية الأمر، وهو يسوء.. يمكنني أن أشعر بقدوم هذا. لقد عانيتُ من هذا الأمر، حتى وجدتُ من يمكنه أن يفهم ما أقول، دون أن يربطني بالجنون أو بالهذيان".

تشوشت أفكار جوليا، كانت نوعاً ما تفهم ما يقوله، ولكنه تجفل من الجانب الخفي في كلماته. "أنا أيضاً يتهمونني بفقدان السيطرة، رغم أنني لم أكن كذلك، ولست ممن يفقدون زمام الأمور بسهولة، لكنهم يعتقدون بأنني جننتُ وحاولتُ الانتحار".

همس مارك: "ولو صدقوا، فأننا نفضّل تكذيب الآخرين لمجرد التقليل منهم".

لا إرادياً همست جوليا معه: "ما الذي يعنيه هذا؟"

"أعني بأنني وجدتُ حلاً يستطيع تخفيف حمل ما نعانيه في هذا العالم.

أشخاص يسمعونكِ ويتفهمون حزنكِ ويصدقون غرابة ما تعبرين فيه. قد يكون ذلك الطفل الذي رأيتِه حقيقياً، ولكن كونه لا يرتبط بطبيعة عالمنا، يجعل الآخرين لا يصدقون".

تذكرت جوليا أندي، وكانت متأكّدة بأنّ الطفل صادق حين أخبرها بأنه لا يعرفها، لكنها حاولت إنقاذه قبل أن تلتقيه على أرض الواقع. كان الأمر غريباً ويجرها إلى أكثر إلى ما يقوله مارك لها. "من هم؟ ألهذا طلبت رؤيتي اليوم؟"

دنا مارك منها، ثم هزّ رأسه إيجاباً قبل أن يقول: "نادي الأرق".

41

سريزا تفهم الرحيل الآن، وتدرك بأن للحياة جانباً مليئاً بالمفاجئات، كما يراها البعض وهي تقف على جانب غامض لا يرغب أحد في القفز إليه. القصص كالعملات المعدنية، لها وجهان، أحدهما يراه الآخرون، وآخر تراه أنتَ وحدكَ، وتدرك تفاصيله الحقيقية.

لا تنام، تدرك سريزا هذا ما أن ترى وجهها في المرأة. تسير في ركود حكايتها بحذر؛ لأن الجراح المنثورة على أرضها الداخلية ما تزال حديثة، ومهما طال الوقت بها فهي تبقى حديثة. لم تسأم، ولم تجد العلاج بالملل. ظنّت بأنّ السأم سيأتي في نهاية المطاف، لكن هذا غير حقيقي. الأحزان تبتلع صاحبها، وتصبح أقوى كلّما طال مكوثها بالقرب منها. لم تقوَ سريزا على الاعتراف بالهموم الهلامية في قلبها، لخالتها دوروثي، ولكنها لا تمنع نفسها، من ترك غبار الحزن يحيط بها بجوار دوروثي.

عندما تستحضر سريزا صورة شقيقتها في ذهنها، فهي تراها كما كانت قبل أن تصيبها كل تلك الأوهام التي حوّلتها إلى كائن آخر. الصورة الرقيقة لجوليان المراهقة ما تزال في بريقها الموجود في عيني سريزا الطفلة. تقدمت سنوات سريزا، وأصبحت شابة، أما جوليان فهي ما تزال عالقة في ذلك الشكل الذي كانت عليه قبل أن يصيبها المرض ويبقى معها لكل تلك السنوات. رأت سريزا جوليان تقترب منها، وتجلس على طرف الفراش، وفي عينيها ارتسم ألم كبير لم تعرف سريزا معناه. كان هناك جانب كبير فارغاً من فراش سريزا، مسّدته بكفها حتى تتيح لجوليان الاستلقاء عليه. لم تقترب جوليان، أو حتى تغيّر مكانها. جلست مولية سريزا ظهرها، ثم أدارت رأسها لتراقب سريزا عن كثب رغم الظلام المحيط بالحجرة. أرادت سريزا أن تحتضن شقيقتها، أن تحرك يدها على خصلات شعرها، لكن الأخرى رفضت؛ لأنها ببساطة خيال، والأشباح لا يفعلون مثل هذه الأمور العاطفية. رحل الطيب الذي ظنّت بأنه مطبوع في عينيها لا في هذا العالم، اختفى كما لو أنه لم يظهر من قبل.

نهضت سريزا من فراشها، وارتدت آخر ما كانت ترتديه قبل خلودها إلى النوم. كانت ثيابها أوسع من المفترض أن تكون عليه، وهذا سيسمح للجو البارد بالتسرب إلى أطرافها، لكنها لم تكترث كثيراً. كانت الكنزة الرمادية تعطيها مظهراً أسمن مما هي عليه، لكن سروال الجينز كان يظهر نحافة

ساقيها دون أي تغيير في شكليهما. خرجت من المنزل بهدوء دون أن تترك للباب فرصة بإصدار الضجيج الذي قد يوقظ دوروثي من نومها. سارت بين صفي المنزل تحت ظلام مدينتها الصغيرة، والتي كلّما قارنتها بأيام الطفولة، شعرت بأنها كانت تعيش في عالم مختلف، وانتقلت إلى هنا منذ سنوات قليلة، إلا أنها لم تفارق هذه المدينة، ولم تقضِ حتى ليلة واحدة خارج هذا المحيط الصغير. كانت أقرب صيدلية، تتطلب منها مسيرَ ثماني دقائق بخطوات سريعة نشيطة حتى تصل إليها، إلا أن التأخير لن يكلفها شيئاً، كانت تلك الصيدلية تعمل على مدار الساعة.

ظهر الثعبان الأزرق المضيء فوق لوحة الصيدلية، وهو يومض بلون أزرق ثم يختفي، أما مصباح الكأس الذي التفّ حوله الثعبان لم يكن يعمل. دفعت سريزا الباب ما أن وصلت، وسرت في أطراف أصابعها البرودة التي تجمّعت فوق زجاج الباب. تحركت اللافتة المعلقة على الباب، وبدأت تضرب الباب، ثم تتحرك بحرية في الهواء. تقدمت سريزا حتى وصلت إلى الطاولة الوحيدة التي كانت تفصل بين البائع وبينها.

"ذلك الدواء، لا يأتي بأية نتيجة". قالت وكأنها تنتظر من الشاب أن يفكر معها بحلٍ آخر. راقبها البائع، وشعر ببعض الجزع عندما رأى تأثير ما تقصده سريزا على عينيها. بدا له بأن الفتاة لا تنام أبداً، ولم تكن هكذا قبل أيام عديدة حين سألته عن دواء مناسب.

"هذا غير معقول، إنه أنسب حل. لا أرشح أدوية أقوى منه للزبائن، ولا يعودون غالباً".

قالت سريزا بإحباط: "لكنني استثناء، ها قد عُدتُ".

"هذه ليست مشكلتي أنا لتتخاطبي معي بهذا الشكل".

قالت سريزا بغضب: "لكنكَ أنت من رشحه لي. أعطني شيئاً أفضل مفعولاً منه. إنني بالكاد أنام".

"إنْ كنتِ تبحثين عن أشياء أخرى". تردد الشاب قبل أن يقول: "محظورة.. فأنا لستُ الخيار الأنسب. أعتقد بأنّكِ تعانين من مشاكل أخرى يجب علاجها".

لكمت سريزا الطاولة الخشبية بحركة صبيانية، ولم تكلف نفسها عناء الصمت عن الزفرة التي أصدرتها وهي تقترب من البائع: "اسمع يا هذا، إنْ اتّهمتَني بأشياء كهذه مرة أخرى، فلن أتردّد عن تمزيق عنقكَ. كل ما هناك أنني أعاني من مشكلة في النوم، لا يصل الأمر إلى هذا الحد. وإذا كان لدي أية مشكلة عليّ علاجها لفعلت ذلك، قبل أن تقدم لي نصيحتكَ المبتذلة".

لم يشعر الشاب بالخوف من تهديد سريزا، فهو يدرك بأنه أقوى منها، لكنه يشفق عليها؛ لأنها لم تصل إلى هذه الحالة العصبية إلا وهي بالفعل تعاني من مشكلة ما. عرض عليها دواءً أقوى مفعولاً، لكنه يخلي مسؤوليته مما قد يأتي معه من تبعات. نصحها ألّا تستخدمه إلا وقت الحاجة؛ لأن كثرته ستؤذيها. وضعه لها في كيس بلاستيكي أبيض، وقبض من يدها سعر الدواء، ثم راقبها تخرج وهي تتسلل، كما لو أنها تهرب من شخص ما يراقبها. في الواقع لم يكن هناك من يتبع سريزا، أو يراقبها حتى لكنها هي من كان يشعر بذلك، وكلما سارت تحت جنح الظلام، كانت تشعر باقتراب مراقبها منها. كان الطريق خالياً، وكل الزوايا التي أمكن لعينيها أن تنظر خلالها كانت خالية، والهدوء يعزز هذه النظرية. لم يكن هناك من يتبعها، لكنها شعورها بالخوف هو ما ولّد لديها هذا الجزء من الشك. عزت سريزا الأمر لنومها، هو ما يتسبب لها بالقلق، فهي بالكاد تنام ساعتين متواصلتين، ولا يمكنها الحصول على أكثر من ذلك. كلّما أغمضت عينيها، وعادت إلى الواقع رأت من ماضيها ما حاولت أن تشيح بذاكرتها عنه. إن الماضي لا يزول، ولا يرفض تحدي اللحاق بها، وهو ما كان يراقبها على الدوام، وليس الغريب الذي تتخيل. لم تحشر سريزا أصابعها في مقبض الكيس، كانت تقبض على العلبة وهي في جوف الكيس. تجعد الكيس بيدها، ولم تكلّف نفسها عناء الحرص.

وصلت إلى المنزل، دفعت الباب الذي لم يكن مقفلاً بالمفتاح، وسارت فوراً إلى غرفتها. كانت ر غم كل التوتر والإرهاق الذي تشعر به، تحمل نشوة المغامرة الباردة العالقة على ثيابها وأطرافها. تسللها خارج المنزل دون أن تعلم دوروثي، والسير تحت سماء الليل، شكّلا لها مغامرة غريبة وفريدة، لا تحظى بها عادة.

قبضت على طرف الكيس، وقلبته رأساً على عقب، وتركت العلبة تهوي منه، وترسو على فراشها. تَبِع العلبة سقوط قطعة بيضاء صغيرة مجعّدة.

ميّزت سريزا فوراً أنها ورقة؛ لأن هناك جانباً منها مايزال كما هو، ولم يتأثّر بسبب قبضتها. أبعدت اهتمامها عن العلبة المستطيلة، وسحبت الورقة التي كانت تعتقد بأنّها وصل شراء الدواء، لكنها كانت غير ذلك. فردّتها، وحاولت تقليل التجاعيد بقدر المستطاع.

هل تعاني من مشاكل في النوم، ولا تستطيع النوم جيداً؟

هذه دعوة خاصة للانضمام إلى نادينا السرّي

"نادي الأرق"

ثم أتت الدعوة المطبوعة على الورقة البيضاء، ببيانات مطبوعة بخط صغير، شكّلت إحداثيات النادي الحالية. وفي الهامش دُوِّنت ملاحظة بخط صغير، ولكنه داكن ومميز:

ملاحظة: هذا التجمُّع سرّي، عليكَ إظهار البطاقة عند وصولكَ إلى النادي، أو التخلّص منها إن كانت رغبتكَ عكس ذلك.

42

لم تستخدم سريزا الدواء الجديد. كانت الورقة البيضة ملقية على طاولة المرآة في حجرة نومها. راقب عيني سريزا الورقة بنصفها العلوي المجعّد مرات عديدة، ولم يكن هناك أيّ احتمال آخر في أن يكون شخص آخر غير ذلك العامل هو من دسَّ لها الورقة مع الدواء. لكنّها رأت في عينيه نفوره منها، وأدركتُ بأنّ هناك شرارة اشتعلت بينهما فجأة، ولن يحاول الإصلاح في أي شيء يتعلق بها هي. ثم أن سريزا رأت العامل يضع الدواء ولم يكن في يده سوى تلك العلبة المستطيلة، ومن ثم المال الذي قدَّمته له. لم تحاول الاستمرار في إيجاد أي استنتاج، بل تحوَّلت أفكارها باتجاه الدعوة. ما معنى ذلك؟ وما هو هذا التجمُّع الذي يدعوها للانضمام إليه؟ هل لكونها لا تعاني إلا من بعض المشاكل في النوم؟ وهذا ما يسمى بالأرق، ولن يستدعي الأمر أن تلجأ إلى تجمُّع سرّي لا تعلم ما قد يكون توجُّهه ليحل لها هذه المسألة الغريبة.

استيقظت دوروثي، وكما كانت العادة.. وجدت سريزا مستيقظة قبلاً منها. كانت سريزا قد أعدَّت الإفطار لكليهما، ولم يكن ذلك بفارق توقيت كبير بين هبوط دوروثي إلى الطابق العلوي، وبين إعداد الطعام. أخبرتها دوروثي بأنّها ليست ملزمة بفعل أمور كهذه.

"لكنني أشعر براحة أكثر حين أقضي وقتي في فعل أمرٍ ما". بررت سريزا.

فأجاباتها دوروثي: "لكن هذا يشعرني بأنني ضيفة، أكثر مما أنا عليه بالفعل".

ابتسمت سريزا، لكن تلك الابتسامة لم تشرق عينيها الذابلتين: "لكنكِ لستِ ضيفة، ولن تكوني كذلك أبداً. لستُ أفعل هذا بداعي الواجب، إنما هو الحب. ثم إنّ الأمر ليس أكثر من إعداد مائدة، وأنا معتادة على فعل أمر كهذا وحدي".

تقدمت دوروثي واحتضنت وجه سريزا: "لكنّكِ لستِ وحدكِ بعد الآن. نحن هنا لنقف بجانب بعضنا".

احتضنت سريزا يدي دوروثي المحيطتين بوجهها ثم سألتها: "لماذا كان علينا انتظار حلول الكارثة، لنصبح بهذا القرب؟ أين كنا قبل ذلك؟"

"هنا.. كنا هنا، في هذه الحياة، ولكن هذا هو المنحدر الذي أسقطنا باتجاه بعضنا".

في ساعات الصباح الباكر، تفادت دوروثي وسريزا وقت ازدحام الأسواق، وانشغال الأشخاص بالذهاب إلى عملهم، وزارتا السوق، من دون أية حاجة إلى ذلك. كانتا بحاجة إلى الخروج من المنزل العبق بأصوات الماضي، ولم تجدا أمامهما سوى حجة السوق لتكذبا بها على بعضهما. سارت دوروثي بنشاط عبر أزقة السوق المكشوفة، بينما سريزا كانت تسير خلفها بكسل، وكلما التفتت دوروثي بحثاً عنها رأت الفتاة تتبعها وهي بالكاد تبدو قوية. كانت الفتاة تذبل يوماً بعد آخر، وخلال فترة قصيرة كانت تذوب بين يدي دوروثي، ولا تملك الأخرى شيئاً لحل تلك المعضلة.

سألتها دوروثي: "أ مازلتِ تواجهين المشاكل ذاتها مع النوم".

"أعتقد ذلك". لكن الاعتقاد هذا كان ساذجاً ومضحكاً، تراجعت لتعترف: "في الواقع، نعم. إنّني لا أنام بشكل جيد". أصبحت خطوات دوروثي بطيئة لتجاري بها سريزا. راقبتها بعينين دافئتين، لاتخلوان من عاطفة الأم، بل في الواقع كانت دوروثي أكثر عاطفة من والدة سريزا.

كأن الزمن توقف عند تلاقي عيني سريزا ودوروثي، ثم فجأة وجدت سريزا نفسها تهوي إلى الخلف حتى استقبل الحجر القاسي ظهرها، والجزء الخلفي رأسها. أتت الضربة قوية، ولأنها لم تكن متوقّعة كانت المفاجأة دافعاً لألم أكبر. لكن جسد سريزا كان مستسلماً للسقوط. رمشت سريزا مرة واحدة فكان الحشد يغطي السماء الباردة فوق زقاق السوق. رمشت مرتين فوجدت وجه خالتها الضبابي يعبّر عن الخوف، والفم الدائري يطلق صرخة غير مسموعة بالنسبة لسريزا. رمشت مرات عديدة، فوجدت الظلام يحيط بها، وضوء حاد يومض في زاوية عينيها.

رفعت سريزا جسدها، وأطلقت تنهيدة فنهضت خالتها لتقترب منها وتأمرها: "لا تتحركي سأنادي الطبيب". هي في المستشفى إذاً، آخر ما تتذكره هو السوق.

عادت دوروثي وحدها، فسألتها سريزا بصوت متقطع: "ما.. ما الذي حدث؟"

"لقد وقعتِ بينما كنا نسير في السوق. إنه خطأي ظننتُ بأن هذا سيساعد، لكن ما كان عليّ آخراجكِ وأنتِ بالكاد تتلقين الراحة. أنا الملام الوحيد على هذا". كان يمكن لسريزا تمييز بريق عيني خالتها، والذي لا يعبر إلا عن الندم.

"لا عليكِ. كم مضى على فقداني للوعي؟"

أدركت خالتها سبب السؤال، فأجابتها بصدق: "ثلاث ساعات، ونصف الساعة تقريباً". لم تنل سريزا هذه الراحة المتواصلة منذ انتحار والدتها. وصل الطبيب، وعلى عكس ما توقعت سريزا، كانت أنثى بدت جادّة، وعلى عجالة أخبرت سريزا بألّا مشكلة ظاهرة عليها حتى الآن، والأمر الوحيد الذي يعزى إليه ما حدث هو إرهاق الفتاة. ولم يكن لدى سريزا مجال لإنكار ذلك، أو حتى تهوين الأمر؛ لأنَّ السواد المحتشد تحت عينيها يعترف بالأمر اعترافاً تامّاً.

التفتت الطبيبة إلى دوروثي، ثم سألتها: "هل أنتِ والدتها؟" تعلّق رأس دوروثي بين حركتي الإجاب والنفي. لم تفهم الطبيبة تلك الإشارة فحرّكت حاجبيها.

"أنا خالتها، والدتها توفيت منذ أسابيع قليلة".

"أوه، آسفة لذلك!". نقلت الطبيبة عينيها لسريزا، ثم أعادتها باتجاه دوروثي، وسألتها: "هل يمكنكِ مرافقتي؟" وافقت دوروثي على ذلك، وبعثت بنظرة لسريزا، تطلب من الفتاة خلالها، أن تتحلى بالصبر. تفهمت سريزا الأمر، وتركت لخالتها حرية الذهاب، ولكنها لم تقوَ على كتم الفضول الذي انتابها فجأة.

على السقف، كان جسد والدتها موازياً لها. فردت الأم ذراعيها، كما لو أنها تطير في الهواء أمام تلك الصفحة السوداء. راقبت سريزا والدتها التي كان في عينيها ما يبوح بخوف حزين. كانت الدموع تحتشد في عين الأم اليمنى، وتشكل بحيرة صغيرة لا قاع لها. اتخذت الدموع الشفافة شكلاً مخروطياً، ثم تهاوت قطرة صغيرة عابرة من السقف، وصولاً إلى جبهة سريزا.

ارتعش جسد سريزا للحظة واحدة، ثم رفعت كفها لتمررها فوق القطرة التي استقرّت فوق جبهتها. همست: "أمي". لكن تعبير وجه الأم لم يتغيّر. راقبت ابنتها، ثم تركت جسدها يهوى باتجاه جسد سريزا. كان مشهد الانتحار يتكرّر

أمام سريزا التي لم ترَ والدتها إلا وهي ترجوها في ذلك اليوم.

اقترب طيف الأم، ثم اتّحد مع جسد الفتاة، وتلاشى بعد ذلك. شعرت سريزا بالاختناق، فأحاطت عنقها بكفيها، وراحت تتنشق الهواء وتخدش عنقها بينما تحاول سحب القدر الكافي من الهواء. رفعت رأسها عن الوسادة، وانفجرت في البكاء ما أن اقتحم الهواء رئتيها. أتت الصدمة متآخرة، وأدركت سريزا بأنَّ والدتها رحلت الآن. هذا الحزن الهائل لم يزرها وهي تدفن والدتها، هي الآن تدرك بأن نهاية فصل والدتها قد مرّ دون أن تعيشه كما يتطلب الموقف.

*

سمحوا لسريزا بالخروج من المستشفى في المساء، لكنّها لم تتجه إلى المنزل فوراً، بل طلبت من خالتها أن تجلسا في أي مكان قبل العودة إلى المنزل. اعترضت دوروثي على الأمر، لكن سريزا أصرَّت، وفور خروجها من المستشفى قطعت الطريق المقابل لمدخل المستشفى قاصدة الحديقة الصغيرة المقابلة لمبنى المستشفى.

تبعت دوروثي سريزا بعجز. لم تستطع أن تثنيها عن الأمر، ولم تجد حلاً سوى مسايرة الفتاة. كانت الحديقة القديمة الموجودة أمام المستشفى خالية من الزوار، بل لم يكن فيها أي شيء يميزها عن أي مكان آخر مكشوف. جلست سريزا على أول كرسي فارغ وجدته في طريقها، وجلست دوروثي بجوارها.

"ما الأمر الآن؟"

أجابت سريزا بإصرار: "لا شيء، لا أريد العودة إلى المنزل فوراً".

"إذا استمر ربطكِ للأمور الحاضرة بالماضي، فإن هذه المعاناة لن تنتهي. لا يمكننا اختيار الماضي يا سريزا، لكننا نتحكّم بالواقع على الأقل، لذلك لا تدعيه يتراكم أكثر خاصة وأنّكِ فقدتِ السيطرة عليه سابقاً".

جمعت سريزا شعرها القصير فوق رأسها، ثم أفلتته بكسل، وهي ترخي رأسها إلى الخلف: "ليتني أستطيع التحكم بالأمر كما يجب، لكن فقدان السيطرة هذا يصبح أقوى مني".

"عندما مات زوجي في ذلك الحادث، ظننتُ بأن حياتنا المشتركة ستبقى ذكرياتها حاضرة في ذهني طوال ما تبقّى من أيامي. كانت ذكرياتنا المشتركة

أكبر من أن أستبدلها بأخرى أعيشها وحدي بعده. لكن ها أنا ذا الآن أمضي في طريقي، وأحاول التصالح معه، قبل أن يرغمني هو على القبول به".

لم تستشعر سريزا يوماً حزن دوروثي، لكنها الآن تدرك بأن هذه إنسانة القوية تهرب من حزنها الخاص هي أيضاً، وأن العاطفة التي تقدمها لها، ليست إلا تعويضاً عن رهبة الوحدة. كانت دوروثي أيضاً أنانية من زاوية أخرى، ولا ترغب في مخالطة حزنها وحدها، لذلك لجأت إلى سريزا التي تعيش في قلقها الخاص هي أيضاً.

هطل المطر ما أن غابت الشمس، وراح يضرب زجاج نافذة حجرة سريزا بنعومة، كما لو أنه ينبهها بأنه هنا من أجلها، لكي يغطي ضوضاء الحزن المحيط بها. لكن سريزا لم تولِ ذلك الهدير المحيط بالمنزل أي انتباه. كانت تراقب الورقة الموضوعة أمام المرأة، وترى في خيالها خيارين عليها أن تختار أحدهما.

إرهاق سريزا، وفضولها.. وخوفها كذلك، دفعاها للاختيار الأوضح، وهو زيارة ذلك المكان، وإلقاء نظرة خاطفة عليه إذا ما كان الدخول إليه يخيفها. انتظرت حلول المساء حتى تندفع خارج المنزل تحت المطر، وتستقل سيارة دوروثي متَّجهة إلى ذلك العنوان، وصوتها الباطني يردد بصيغة السؤال: نادي الأرق؟

43

لم يُغضب سريزا مقدار الوضوح الذي يتيحه الزجاج الأمامي للسيارة. كان المطر يهطل على الزجاج بقدرٍ كافٍ لأن يحجب الصورة، ويجعلها ضبابية لامعة. أما المساء فكان عاملاً مساعداً لكي يجعل العالم المحيط بها مجرد ألوان لامعة تداخلت ببعضها. بدأ هطول المطر يقلّ تدريجياً، إلا أن أصبح الأمر مقتصراً على رذاذ يرسو بنعومة على نوافذ السيارة. راقبت سريزا المكان، ورأت بعض الضوء يتسرب من تحت الباب العريض الذي يشكل مدخل المرآب. هي لا تملك الشجاعة للدخول، أو حتى التأكد من هذا المكان. كانت تجلس خلف المقود، وتراقب المدخل متجاهلة شعورها بالبرد الرطب الذي بدأ يتسلل إلى الداخل. توقفت السيارة على بعد مسافة أمتار قليلة من المدخل، وكانت تملك ما يكفي من الشجاعة لكي تتركها عرضة لمرأى الجميع على الطريق، إلّا أنّ الرصيف كان خالٍ من المارة.

طرق أحدهم الزجاج بنعومة، فقفزت سريزا من مكانها، وأدارت مقبض النافذة لتحرّكها نزولاً. اختفى الحاجز الضبابي، أصبحت الصورة أكثر وضوحاً. كان من يقف أمامها هي فتاة أصغر مراهقة تجعد شعرها الأحمر بسبب الرطوبة. راقبت الفتاة وجه سريزا الخائف، ثم سألتها: "هل أنتِ بخير؟" تجاوزت نظرة سريزا جسد الفتاة، وراقب ظل رجل آخر كان يقف عند مدخل المرآب، ونظرته مصوَّبة نحو الفتاة الصهباء، كان يترقب الفتاة، وليس سريزا. أدركت سريزا بأن الفتاة، والرجل الغريب ينتميان إلى هذا المكان. لذلك آخرجت الورقة المطوية، وأعطتها للفتاة الصهباء. تكفّلت الفتاة الصهباء في اكتشاف ماهو مكتوب داخل الورقة، ثم أعادت طيّها، وقالت لسريزا: "أنتِ في المكان الصحيح، هذا هو العنوان. يمكنكِ الدخول معنا". ظهر الخوف على وجه سريزا بوضوح. راحت تفرك أصابعها بالمقود، تستمد الحرارة من ذلك، لكن الأمر لم يفلح. حاولت الفتاة بعث الطمأنينة في قلب سريزا قائلةً: "لستِ مضطرة لفعل ذلك، إذا كنتِ تشعرين بالخوف. هذا كان شعوري أنا أيضاً في المرة الأولى".

"هل أنتِ.." لم تدرك سريزا ماهو المصطلح المناسب، فقالت: "قديمة؟"

ابتسمت الفتاة الصهباء، وكررت: "قديمة؟ هذا يبدو مضحكاً. لا لم أبدأ بارتياد النادي إلا منذ مدة قصيرة".

دارت فترة صمت قصيرة. فصاح الشاب الواقف عند المدخل: "فيوليت. هل كل شيء على ما يرام؟"

التفتت فيوليت لتنظر إلى الشاب من خلف كتفها: "لقد تلقَّت هذه الفتاة دعوة هي أيضاً. لكنني أعتقد بأنها ليست متأكدة من رغبتها". استدارت فيوليت لتواجه سريزا، وتقول: "لا يمكن لأية كلمة أن تلغي هذا الشعور، التجربة وحدها هي ما يفعل ذلك. لا يوجد في الداخل أي أمر هام، نحن نتحدث فقط.. نتحدث عن النوم، الأرق، ومخاوفنا الخاصة".

همست سريزا: "عن أي نوع من المخاوف تتحدثون؟"

"تلك التي لا يصدقها أحد". راقبت سريزا عيني فيوليت التي لا توحي بأي اكتراث، فقالت الأخرى: "إن الجو بارد هنا، ولا أعتقد بأنّ الانتظار مناسب. نحن نتحدث عن أحزاننا، مخاوفنا، كما لو أنّ هذا فريق دعم". تداخلت الكلمات في فم فيوليت فاختصرت الأمر في سؤال أخير: "هل تعانين من الأرق؟"

رمشت عينا سريزا مرتين متتاليتين، قبل أن تجيب: "أجل، في الواقع لهذا أنا هنا".

"إذاً هيا. إن لم تعجبكِ التجربة يمكنكِ عدم العودة من جديد. تجربة واحدة لن تفقدكِ شيئاً". كانت فيوليت تقول ذلك بدافعٍ إنساني؛ لأنها ترى لدى سريزا جانباً مشابهاً لها. الخوف والإرهاق المرسوم على محياها، كلّ ذلك يشبهها قبل أسابيع قليلة فقط.

أطفأت سريزا محرك السيارة، وسحبت المفتاح لترميه في جيب معطفها الخفيف. فتحت الباب، ورأت فيوليت خلفه تبتعد خطوة واحدة للتيح المساحة الكافية لسريزا. سايرتها سريزا بخجل؛ لأنها بدت طفلة أكثر من كونها جبانة. اصطنعت فيوليت ابتسامة تحاول خلالها أن تهدم الحاجز الرقيق بينهما. "أنا فيوليت، أعتقد بأنكِ سمعته يناديني". أشارت فيوليت بيدها إلى الشاب الواقف بجوار المدخل، ثم قالت: "وهو ماثيو".

"سيريزا، أنا سريزا". أطلقت سريزا ابتسامة مزيفة بدورها، ولم يكن الدافع منها رد الابتسامة، إنما تخليص نفسها من شعورها بالقيود المخيفة.

عبر الثلاثة المدخل الواسع، في الآن نفسه. تجاوزهم ماثيو، وهو شاب بدا في سن مقارب لسريزا، وأكبر ببضع سنوات من فيوليت، بشرته قمحية، لا يميز وجهه سوى فكه العريض، وحاجباه العريضان، اللذان يرسمان شكل الوداعة في عينيه. كان شعره الأسود هو الآخر قد تجعّد، واكتسى ببعض اللمعان بسبب المطر. ابتعد تاركاً فيوليت بصحبة الزائرة الجديدة، وذهب إلى أعضاء النادي المحتشدين بجوار ماركوس.

نهض ماركوس من بينهم، وتجاوز صف الأشخاص المقابلين له متجهاً إلى فيوليت وسريزا. مدّ كفه ليصافح سريزا، فأعطته كفها، رغم عكس رغبتها بهذا. حرّك كفه القابض على يدها، ثم أفلتها. أعطته فيوليت الدعوة المطوية، فنقل بصره إليها لثوان، ثم أعادها لسريزا.

"أنتِ أيضاً تلقيتِ دعوة؟ يبدو أن نادينا يمضي في الاتّساع أكثر". قال بمرح.

ردت سريزا: "أرجوا ألّا يكون في هذا ضير".

"لا، أبداً. بل نحن سنكون سعداء طالما هدفنا هو مساندة بعضنا البعض". استدار مشيراً بيده إلى الحشد، تماماً كما فعل ليجعل فيوليت تنضم إليهم. "غالباً لا يملك زوار المرة الأولى، الشجاعة للتحدث أمامنا، إننا نتفهّم ذلك، وأرجو أن يكون نقاشنا هو ما سيعطيكِ الدافع لذلك في المرات القادمة". قطعا خطوات قليلة وصولاً إلى المجموعة التي كانت تراقبهما. التفتت وقال موجّهاً كلماته إلى سريزا بصفة شخصية: "الأهم هو أن يبقى هذا الأمر سرّياً، سواء كنتِ تودين الاستمرار، أم لا".

لم تشعر سريزا بالتهديد خلال كلماته، بل كانت توحي بالرجاء أكثر. "أتفهَّم ذلك. سيبقى الأمر سرّياً في الحالتين".

44

يوماً بعد آخر، أدرك بأن النوم هو عنصر من الملذات التي تهرب بكَ إلى حيز، لا يعود فيه انتظار الوقت مجهوداً. لكنني الآن ملقاً في الواقع أكثر، ومساحة الواقع تزداد وتلتهب فضاء النوم كالنيران. لا أنام، ولم تعد قدرتي على النوم طبيعية كما هي في الماضي. ليست لدي أية أسباب يمكنني أن أعزي كل العبث الذي في داخلي إليها. هنا أنا أشير إلى وجود العبث، أعترف به. هذه الفوضى تشبه بمقدار كبير الحزن، إلا أنني أبتعد عن الحزن بقدر ما أستطيع أن أفعل. لكنني كل ما مضيت بعيداً أجدني أعود إلى لافتة كياني الداخلي، والتي تنبهني إلى أن ما حملته في الماضي مايزال معي. ما معنى كل الأشياء القريبة، غير أنها محاولة للارتباط بكَ؟ أليس كل ما نراه هو انتماء لنا بصورة ما؟ أنت ترى الطريق فيصبح جزءاً من الشريط الذي تراه أنتَ، ويعود خياراً لك، إما أن تتجاهله، أو أن تسلكه. لكننا غالباً لا ندرك مسألة الاختيار، بل نمضي دون وعي إلى الجانب الأكثر ميلاناً في الحياة، وعندما نجد أنفسنا قطعنا شوطاً طويلاً، ندرك بأن الأمر كان اختيارياً.

فيما يخصني أنا، كنت رغم أني واقع في الحقيقة، إلا أنني أغرق في نفسي يوماً بعد آخر. كنتُ أبتلعني في ذاتي، وأجد أنّ المخرج يصبح بعيداً كلّما استمر الوقت في المضي هكذا. لم يكن الواقع هكذا إلا لأنه ارتبط بالوقوع، وأنا لأهوي على أرضه القاسية، وهي تنقلني إلى نفسي التي لا أجد سواها في محيطي الموحش، وكملجأ أخير كنتُ أحتمي في داخلي، إلى أنْ ابتلعتُ نفسي دون عودة.

اعتادت تريز أن تسألني: "لماذا نشعر بالخوف؟"

فأجيبها: "لأن هذا يذكّرنا بطبيعتنا إنسانية".

كانت تردّد اسمي بنبرة استهزاء: "ليو" وينتهي صوتها بمد حرف الواو. "ألا تخشى أن يكون هناك من صنع هذا الشعور.. منذ القدم مثلاً؟ ألم تعتقد يوماً بأن هناك من أحاطنا بذلك لئلا نستمر في المضي بطبيعتنا". كانت تنفث الدخان فيشكل غيمة صغيرة، سريعة الزوال أمام وجهها. لا تراقبني بل تراقب السقف دون أن تحدد ما يجب أن تراه؛ لأنها كانت في كل فراغ ترى ما لا يراه غيرها. لم أشعر يوماً بأن هذا نوع من الجنون يحاول سرقتها مني، بل كنتُ

أعتقد بأنّ عالماً يطفو إلى الخارج ويطغى عليها، وأرى في ذلك شجاعة منها؛ لأنها لم تسمح لعالمها بأن يبتلعها، كما يحدث الآن معي، بل أطلقتُ العنان لما في داخلها، حتى يطغى على الواقع. كانت الفرضيتان قاسيتان عليها، لكنها اختارت الجانب الأسهل، دون أن تدرك بأنّ لذلك عواقب على من يحيط بها، ولأنني أعتقدتُ بأنني الأقرب، كنتُ أول من جرفه سيل عالمها الباطني.

"تريز، لا تتعلقي بهذه الأفكار أكثر. أطلقي سراح نفسكِ منها".

تركت وجهها يرتخي على جانبه الأيسر، وابتسمت لي قائلة: "ليت الأفكار هي ما يتركني، لكنها لا تفعل". ولن تقوم بذلك؛ لأننا نحن من يملك عقولاً، وليست الأفكار. كانت الذرات البيضاء للمخدر ما تزال تطبع أثرها على الطاولة المقابلة لنا. حريٌّ بنا أن ننهي الأمر منذ وقت طويل، لكننا لم نفلته من أيدينا، كما لو أن جلد راحة أيدينا قد ذاب فوق النار، وامتزج بالرماد. تجاوزنا الحد في السوء إلى أن وصل الأمر بنا إلى حد الموت.

كنا نضحك رغم الحزن، نشعر بالحب، رغم أننا أضعنا المستقبل. كان يكفيني الواقع الذي يجمعني بها.

أعادني رنين الهاتف إلى الواقع، فرأيت الأرقام الغريبة تنبهني إلى أمر ما لا أدري إن كان يدعو للحماس أم للخوف. أجبتُ بحذر، ولم أُفلت أي جزء من صوتي.. انتظرت الطرف الآخر يجيب: "ليو، هل أنتَ هنا؟" حاولتُ أن أطابق الصوت بكل صور الأشخاص الذين أعرفهم.

"تشارلي؟"

"أجل، أنا هو. يمكنكَ أن تحفظ رقمي في هاتفكَ الجديد". كنتُ سأفعل هذا حتماً، لكنني كنتُ أغمر نفسي بالدلال الذي يقدمه لي صديقي القديم. "هل سأراكَ مرة أخرى، أم أنكَ تعلن الانسحاب من جديد". سمعت صوت ضحكته القصيرة، وأزعجتني صراحته الممزوجة بالمزاح.

"سأكون مسروراً للقائك. عليكَ إنقاذي مما أنا واقع فيه". وافق دون أن يشير إلى فضوله في معرفة ما أنا به، وحددنا وقتَ اللقاء في هذا اليوم. لم أنقطع عن عادتي اليومية في الأيام القليلة الماضية. كنتُ أجري كل يوم قبل شروق الشمس، ومن دون أيّ اعتبار للبرد الذي كان يشتدّ في كل ليلة أكثر مما يسبقها.

أجري حتى الحدف الذي يغطي الجرف، وأراقب لمعان أبراج المدينة على الطرف الآخر، ثم أعود متفادياً الزقاق الذي كنتُ أرى القط الأسود فيه كل مرة. كنتُ أرى القط في أماكن عديدة خلال جولتي الرياضية. في بعض الأحيان أراه يسير بمحاذاة الطريق، وكأنه يخشى عجلات السيارات. وفي أحيان أخرى أجده ينتظرني عند أي منعطف. كان قطاً أسود لا يميزه أي شيء، ولكنني أستطيع تمييزه مُزيحاً فكرة أن يكون قطاً آخر يشبهه. كنتُ أطلق عليه اسم بلاك، وأتخيله مطّلعاً على أحاديثي الخاصة التي أطرحها على نفسي، دون أن يكون لها أي صوت مسموع.

وفي الأيام الأخيرة كنتُ أبدأ جولتي مصحوباً بعلب صغيرة تحتوي على طعام قطط، وما أن أراه، حتى أفرغ مافيها على بعد مسافة قصيرة منه، وأكمل رحلتي تاركاً إياه ينعم بما أهديته.

في المساء تلاقينا أنا وتشارلي في مقهاه، لم نضع أية خطة للخروج من هناك. كان يجد الوقت للجلوس معي، رغم الازدحام البسيط الذي كان يملأ الطاولات. ترك مهمة خدمة الزبائن للفتى الشاب الذي يعمل معه، وقد أصبح برفقته اليوم فتاة أخرى بيضاء شاحبة البشرة.

"لا تبدو على ما يرام؟" سألني بأبسط صيغة ممكنة ليستدرج مني الأسباب. كان ينتظر مني اعترافاً ما، ولكنني لا أملك أي سبب لما أنا فيه. كيف أبرر ما أبدو أنا عليه؟ اليوم، بأي صوت نستطيع إطلاق سراح ما يجول في خواطرنا؟

"إنني لا أنام. بالكاد أجمع ساعات قليلة للنوم". لا أعلم كيف تطوّر تقلُّص ساعات نومي ليقتصر على الساعات الثلاث، أو ما يزيد عليها قليلاً. لكن ذلك التطور كان يزداد بسرعة مبتلعاً عالم أحلامي، وراحتي. أما الواقع فأصبح مزيجاً من الوحدة، والذكريات.. وبعضاً من أوهام الماضي. يأتي كل ما صنعته أنا الآن، كما لو أنني فتحت فوهة النار لتلسع ألسنتها جسدي.

"إن هذا أمر طبيعي يا ليو. أنتَ تنتقل من عدة مراحل صعبة، إلى مرحلة أبسط وأسهل. قد لا نستطيع بسهولة، تقبّل خلو مرحلتنا الحالية من المصاعب، وخصوصاً عندما تجعلنا الحياة نعتاد على الانزلاق في الحفر الصغيرة. نحن ببساطة لا نثق بالحياة، ويدهشنا الهدوء".

رمقتُه بعينين حادتين مصطنعاً نظرتي: "متى أصبحتَ حكيماً؟"

"مذ أن كسرتَ قلبي". قال وهو يهبط بكفّه على صدره. غرق كلانا بالضحك فجأة. "هل ترغب بكوب قهوة؟". رفضت ذلك وحجتي هي النوم، لم أكن راغباً بما قد يزيد الأمر سوءاً. "هل الأمر بهذا السوء حقاً؟ أعني، هل يلقي بكَ هذا في دائرة المعاناة، أم أنكَ تشعر بأنها مجرد مرحلة عابرة؟"

"بل إنني مرهق.. لا يمكنني احتمال الواقع وهو في حدوده المناسبة، كيف أفعل هذا وقد تجاوز أوقات راحتي وابتعادي عن العالم؟" أصدر تشارلي صوتَ مفاجأة، ثم ربَّتَ على كتفي.

"لماذا لا تراجع أي طبيب مختص في هذا الأمر؟"

أشحت بوجهي إلى الشاطئ الذي كان يمتصّ ألوان الغروب: "لم أشعر بأن الأمر سيؤول إلى هذه الجدية المخيفة".

"ولكنْ إذا كان الأمر يؤدي بك إلى الضرر، فلمَ لا؟" لم أكن أحمل معي أي رد مناسب لتلك الفكرة؛ لأنني ببساطة لا أرفضها، ولست أقبلها. كنت أحتاج دفعة أخرى منه لأوافق على هذا الأمر. قال هو ليحسم الأمر: "أعرف طبيباً قد يساعدنا في حل هذه المشكلة، لماذا لا نحدد موعداً لمقابلته".

استغرقتُ لحظات في التفكير، وأنا أحاول الوصول بخيالي إلى الشاطئ، والذي لا يبعد عني إلا مسافة قصيرة: "سأترك تدبير هذا الأمر لكَ إذاً". راقبتُ حماس المسؤولية يظهر في عينيه وهو يوافق.

"أما الآن ما رأيكَ في تناول وجبة بحرية لا يضاهيها أيّ شيء؟" رمقته بنظرة توحي بعدم رغبتي، لكن تشارلي أصرَّ: "إن المكان لا يبعد سوى دقيقة سيراً على الأقدام. إنه المطعم المجاور لي، لن تتناول محاراً بنفس المذاق الذي يقدمونه به". وافقتُ ونهضت تابعاً خطواته. عُدنا إلى داخل المقهى وصولاً إلى المدخل الأمامي. وبعد أن خرجنا انعطفنا يميناً باتجاه المطعم المجاور للمقهى.

بدا المكان خالياً من الخارج، لكنّنا حين دخلنا لم نجد إلا ثلاثة أشخاص يشغلون طاولة واحدة، وما تبقّى من الطاولات كانت متاحة لنا للاختيار بينها. جلسنا بجوار النافذة عند الطرف الآخر للمطعم، وهذا أتاح لي رؤية الشاطئ

مرة أخرى، ولكن من زاوية أسوأ مما كان المقهى يتيح لي.

لم يكن المكان سيّئاً، أو يسلب مني الشعور بالراحة؛ لأنني لم أكن أملكه منذ أن بدأ يومي. اختار تشارلي ما ستناوله كلانا، وكانت الأطباق مشتركة بيني وبينه. وحتى لحظة وصول الطعام أعادني تشارلي إلى مهامي هنا.

"ألم تفكر فيما ستفعله هنا؟"

"أعتقد بأنني سأتولى شؤون مكتب والدي. هذه رغبة والدتي".

رفع حاجباه باهتمام: "هذا يبدو مناسباً، أعتقد بأن العمل سيخفّف عنكَ هذا الفراغ، ويبعد عنكَ طيف ما تشعر به الآن. ألم تفكر في هذا الاحتمال؟"

أجبتُه فوراً: "بلا. أعتقد بأنّ الفراغ هو سبب كل هذا، لكنها الذكريات... هي ما يتسبَّب بكل هذا، إنّها منبع كوابيسي خلال النوم حتى".

"العمل سيملي هذا الفراغ، بل إنه سيبعدكَ عن كل هذه الذكريات حتى. لن تجد الوقت لاسترجاعها". لم يكن تشارلي يدرك شكل ذكرياتي التي ولدت بعد أن بهتت صداقتنا. كانت مرحلة الآدمان - بالنسبة لي- حاجزاً عازلاً عن كل ما هو طبيعي في حياتي السابقة.

على الرصيف الأملس الذي يفصل بين صف المباني الصغير، وبين رمال الشاطئ، كان عدد المارة يقلُّ تدريجياً مع حلول المساء. كان يمكنني أن أراقب خطوات المارّة وهي تتجاوزنا وصولاً لأي مقهى تشارلي، كما أستطيع رؤية الغرباء يعبرون وصولاً إلينا ثم يتجاوزننا دون الانتباه إلى وجودنا خلف الزجاج.

هناك على الرصيف الآخر رأيتها تعبر دون أن تبدو مشابهة للأشخاص الواقعيين الذين يحيطون بها، إنها تريز، كان تعبر مرتدية معطفها الجلدي القصير. تعبر مولية إيايّ ظهرها، لكنها لم تبخل عليّ بالتفاتة تتأكد من خلالها بأنّ من رأته هو أنا. نهضتُ دون تفسير لذلك، وسرتُ باتجاه الباب الخلفي المفتوح. خرجتُ تابعاً إياها، وأنا أخبر نفسي بأن وجودها هنا يكاد يكون مستحيلاً.

ابتسمت لي، وانغمست بين الغرباء.. ثم اختفت تماماً.

45

اتّخذ كل شعور في داخلي موضعاً غير مناسب، مسبباً لي الألم. كان الحزن أقرب إلى ما أشعر به ويعيق كل أفكاري. كان الألم امتداداً لحزن أكبر، والعكس صحيح، كدائرة مغلقة ينتهي أحد الشعورين مع بداية الآخر. كل الأسئلة، والاحتمالات التي لم تستمر في طريقها، كانت تتحول إلى الألم. كل التوقعات التي لم تأتِ بنتائجها، كانت سبباً لحزن آخر. لحظات الانتظار، كانت تخنقني بعتمتها، وهذا يستنقص من حياتي. في النهاية تتحوّل كل الرغبات إلى هدف واحد، وهو الاستسلام.

أحاول النوم، ولكنني أعجز دائماً. أحد أشكال الخيبة: أن يصبح النوم وسيلة انتقال إلى اليوم التالي، كما لو أنه فاصل زمني يمتلك القدرة على إعادة ما تفقده أثناء اليوم. لكن الوقت عجلة مترابطة، والأحداث لا تتقاطع مع الوقت فيها، ما حدث اليوم لا يستبدل خلال الهروب عن الواقع.

بينما أنا أغرق كان عدد الوجوه المحيطة بي يتقلّص، وعلى الرغم من أنها كانت قليلة، إلا أنني كنتُ أحاول جاهداً الوصول إلى أي أحد يمكنني الالتصاق به، وتفادي هذا التيار. لكننا ننسى بأننا معنيون بأنفسنا فقط، ولا ننتمي للآخرين بأية طريقة، لذلك لا يجب أن نبني أمالاً على مشاعر الآخرين؛ لأنها شيء مرتبط بهم تجاهنا، فهي امتداد لهم في النهاية، ولا تعنيهم خيباتنا في النهاية.

استيقظتُ في الثالثة فجراً، وكان البرد يزداد يوماً بعد آخر، وفي هذه الليلة وصل أقصى ما شعرتُ به هذا العام. خرجتُ أجري تحت جنح الليل. ولم أتوقع أو حتى أقلّل من سرعتي في جولتي لهذه الليلة. كنتُ أجري فوق ما يمكنني تحمُّله. لم تفارق عيناي الواقع إلا بعد أن حاولت الوصول إلى النوم وأنا مستلقٍ في سريري لثلاث ساعات متتالية، وعندما تجاوزتُ منتصف الليل نمتُ أخيراً، استيقظتُ مرات عديدة مصحوباً ببقايا أصوات تخاطبني، ومن بينها كان صوت تريزا، وهي تناديني باسمي الكامل: ليوناردو.

أستيقظ، وأشهق في كل مرة، شهقة مكتومة باحثاً عن دفقة هواء تعينني على اكتساب النشاط الكافي لفهم ما جرى، وللفصل بين واقعي، وبقايا أحلامي.

رأيتُ بلاك يقف تحت ظلٍّ شكّلته زاوية جدار إسمنتي متهالك. لم أنتبه لوجوده؛ لأنني كنتُ أجري، وما أن رآني حتى بدأ بالمواء بجانبي. لم أكن أحمل معي طعاماً له، فتجاوزتُ القط الذي خرج كما لو أنه كان جزءاً من الظلال وتفرع منها الآن. راح يجري تابعاً خطواتي، ولم أدرك أنه كان يجاريني في السرعة، إلا عندما التصق جسده الدافئ بقدمي.

خفَّضتُ سرعتي، وقلتُ كما لو أنه سيفهم كلماتي: "أنا آسف يا صديقي، لكنني لا أملك طعاماً اليوم. ثم إنني لا أشعر بأنني على ما يرام. لستُ بأفضل أحوالي اليوم. أعتقد بأنني تجاوزتُ مرحلة محاربة نفسي، وعندما بدأت بوضع هدنتي مع الحياة، حاربتني هي". لكنني فكرتُ ما أن صمتت. ما الذي يجعلني أشعر بكل هذه المشاعر الآن؟ بطريقة أنانية قلتُ لنفسي، ما رحل يمكن تعويضه، وإن كان ذلك يتضمَّن.. تريز. وبَّخني صوت خفيّ في داخلي، واعترف لي بأنني ما أزال شريراً كما كنتُ. لكنني أجبتُه: هيا، كُنتَ عقلانياً... أنت ابنٌ لعائلة أكثر من ميسورة، بل ثرية، وتملك حياة يتمناها الآخرون، ما الذي يجعلكَ تشعر بهذه الخيبة؟ بل ما الذي يجعل خيباتكَ بهذا الحجم الآن؟

ما هو الذي يحدد حجم خيباتنا؟ هل هو ما نفقده بعد الفشل؟ أم أنه الاختلاف الذي يجعل حياتنا لا تشبه ما كُنا نعتقد بأننا محاطون به طوال سنوات البداية، وصولاً إلى هذه الخيبة؟ ركلتُ الأرض بقدمي، وكأنني راغبٌ بدفعها إلى الأسفل أكثر، وسرتُ صعوداً باتجاه الجرف. اختفى بلاك، ولم يعد يسايرني، بل أعتقد بأنه لم يحتمل ما أنا به من بؤس.. أو ربما هو يراني إنساناً أبله!

وصلتُ إلى طرف الضاحية، وقابلتُ أضواء المدينة. ذلك اللمعان الذي يحتوي الحياة الراقدة الآن، ذلك اللمعان الذي لم يُبقِ إلا الأسرار، والأسى مستيقظ حتى الآن. كل تلك الحكايات هناك، أين هو بؤسي بينها، وكم يختلف عنها؟

تكرار، هذه الأنشوطة، تعيدني إلى ذات البداية مصحوبة بذات الشعور. تبهتُ السعادة كلّما تكررت. لكن الحزن يثبتُ وجوده بطريقة أقوى كلّما مررنا به.

تلاشى الظلام، وأتى النهار ليبعد كل تلك الصور الشاعرية عن ذهني. اتصل بي تشارلي في ساعة متآخرة من الصباح؛ ليخبرني بأنه بالفعل تخاطب مع صديق له، وسأله عن طبيب مختص لهذا الأمر. كان ذلك الصديق قد عانى الأمر ذاته بعد أن فقد عائلته في حادث سير، وبدأ بمراجعة طبيب نفسي مختص.

"لكنني أعتقد بأنني تجاوزتُ مرحلة الحاجة إلى طبيب نفسي".

أجابني تشارلي على الطرف الآخر: "دعهُ هو يحكم".

"حسناً". وافقتُ بسهولة، وطلبت منه إرسال البيانات لي، وأنا سأزور الطبيب بنفسي في أقرب فرصة. كنتُ صادقاً في ذلك الأمر؛ لأن معاناتي كانت تزداد بقدر أكبر مما اعتقدتُ بأنني قادر على مجابهته. أغلق تشارلي الهاتف، وبعد مرور دقيقة واحدة أصدرَ هاتفي طنيناً يعلن عن وصول الرسالة المرفقة ببيانات الطبيب.

قمتُ بنسخ الرقم المرفق برسالة تشارلي، وتردَّدتُ قبل أن أضغط على زر الاتّصال. أجابني صوت أنثوي مُعرباً عن كوني اتصلتُ بعيادة الطبيب كولن. أخبرتها بأنني أتّصل بهم بعد ترشيح صديق ما لهذه العيادة، وأعطيتهم اسم تشارلي وصديقه الذي كان يتعالج عند الطبيب.

"انتظرْ لحظة واحدة من فضلك". انتظرتُ وقد كُتِم صوت أنفاسها، والضوضاء المحيطة بها. بعد دقائق قليلة عاد صوت الضوضاء البعيدة، وعاد صوتها الأنثوي أيضاً ليقول: "هل تريد تحديد موعد يا سيد.."

"ليونارد.. ليو. هل باستطاعتي مقابلة الطبيب قريباً؟"

"لقد تحدثتُ معه، وأعتقد بأنه يستطيع إعطاءك الأولوية؛ بسبب تلك المعرفة المشتركة". قالت لي فشعرتُ بالخيبة؛ لأنني قد أشغر مكان شخص آخر لمجرد كوننا مرتبطان بمعرفة بعيدة جداً، وليست هامّة. وافقتُ على تحديد موعد قريب فقالت لي: "هل يناسبكَ اليوم، أو غداً؟

ترددتُ قبل أن أسألها: "هل من الممكن تحديد موعد اليوم؟"

"أجل، هذا ممكن. يمكنكَ اللقاء به، ولكن سيكون هذا مساءً".

ظهر الاندفاع في صوتي: "هذا ملائم جداً".

***

رأتني أمي عصر ذلك اليوم وأنا أهمُّ بالخروج، ورغم الفضول في نظرتها والذي كان يتعدّى الرغبة في معرفة وجهتي، إلا أنني تجاهلتُ ذلك الفضول، وخرجتُ متجهاً إلى المرآب. كنت أعلم بأن والدتي تراقبني من خلف زجاج النافذة، كما لو أنّ عينيها خلف ظهري مباشرة. لم أكن بحاجة للالتفات للتأكد من ذلك، ولا أريد أن أكشف أمرها فأظهر كما لو أنني أخشى مراقبتها لي. لا أحمل معي أي سرّ خطير، لكن لا رغبة لي بإخبارها بأمر الطبيب الآن. لا يجب أن تعتقد والدتي بأنّ هناك جزءاً مني عالق في مرحلة الماضي، ولا يقوى على تجاوزه.. سيسبب هذا لها خيبة جديدة.

قدتُ سيارتي حتى وصلت إلى المستشفى الوطني، وكأنّ الطريق إلى هناك يبعدني عن مكتب الطبيب ضعف المسافة، إذا ما قررت العودة في الموعد المحدد، لكنني أملك الوقت الكافي لزيارة المستشفى الوطني، ومن ثم العودة للقاء الطبيب. لم يكن الطريق مزدحماً؛ لأنَّ الوقت بالكاد تجاوز ساعة الازدحام التي تتبع انتهاء وقت العمل. لم تتركني أفكاري الصاخبة طوال الطريق، ورغم محاولاتي لأن أضع الأمور ضمن تسلسل يُبَسِّط مخاوفي، إلا أنني كنتُ أجدني خائفاً من أمور عدّة، وهذا خوف لايمكن إنكار وجوده؛ لأنه كان يأتي بنتائج أقوى مني على جسدي. انقبضت معدتي، وكانت يدي الحرّة بعيداً عن المقود ترتجف كلّما نظرت إليها.

عندما وصلتُ إلى وجهتي في نهاية الأمر، راقبتُ لمعان الشمس على الزجاج الأسود الداكن، والذي بدوره راح يعكس شكل السماء، ولكن بصورة أكثر عتمة. ركنتُ سيارتي بعد أن تجاوزت سياج المستشفى، تاركاً بيني وبين المبنى الرئيسي، مسافة جيدة يمكنني أن أقطعها سيراً على الأقدام، وقد يكون مجهود وصولي إلى الداخل كفيلاً بأن يزيح شعوري بالخوف.

تركتُ سيارتي بين صف السيارات الأخرى، والتي كانت قممها تلمع تحت وهج شمس العصر التي كانت تهبط مع مرور الوقت. قطعتُ المسافة الخالية وصولاً إلى المدخل الرئيسي. انقضى وقت طويل منذ أن زرتُ هذا المكان آخر مرة. لكنني ما زلتُ أحمل ذات الشعور كلّما اقتربتُ من قلب المبنى الضخم.

عندما دخلت إلى المبنى، لم يكن من الصعب عليّ أن أعرف مكان الغرفة

التي أحتاج الوصول إليها. كانت الممرضة التي رأتني قبل عام من الآن، وتدرك مقدار صعوبة وصولي إلى هناك، هي ذاتها من استقبلتني. فاجأها وجودي في المستشفى، ولم تستطع أن تكتم ابتسامتها، إزاء عاشق قديم مخلص لرفيقة روحه الموجودة هنا.

كانت عيناها الغريبتان عني تسألاني: أين كنتَ؟ هي لا تدرك وجودي طوال تلك الأيام في المصح، ولن أخبرها؛ لأن معلومة كهذه إن لم تُصعِّب الأمور فهي لا تهمها. "لقد كانت والدتها هنا قبل قليل، لكنني أعتقد بأن الغرفة خالية. سأسمح لكَ الآن برؤيتها، كما كنتُ أفعل ذلك سابقاً". راقبتني بقلق ثم طلبت مني: "لكن عِدني بأنكَ لن تجلب المتاعب إلى هنا".

"إنني أعدكِ بهذا، كما كنتُ أعدك سابقاً".

سارت قبلي إلى الجناح المقصود، وهي تسبقني دون أن تلتفت سألتني: "هل ارتبطتَ بأخرى؟"

"لا. لم يكن هذا سبب غيابي".

● التفتت أخيراً وقالت: "قد يكون من الصعب علينا أحياناً التمسُّك بمن لا يجاهد بفعل ذلك. لكننا لا نفقد الأمل بالأشياء التي تفلتُ يدنا دون إرادة منها". ابتسمتُ رغماً عنّي. اختصرت معاناة عام كامل بجملة واحدة، وكانت تلك العبارة قادرة على إزاحة حمل ثقيل شعرتُ به لأيام.

وصلتُ وتوقّفت لتراقب الممر، وعندما تأكدتْ من عدم انتباه أحد إلينا، دفعت باب الحجرة، وأشارتْ لي بالدخول. شُلّت خطواتي أمام الباب، ولم أجرؤ على جرّ قدمي إلى الداخل. أشارت لي بإصرار، ففعلتُ وإحساسي بأنني مرغم يتزايد في صدري.

تجاوزتُ الجدار الفاصل عن قلب الحجرة، فسقطت عيناي فوراً على جسد تريز الهزيل تحت كومة اللحاف الأبيض. كانت تذبل أكثر بعد كل زيارة، لكن مع فارق الوقت بيننا، بدت لي تريز إنسانة مختلفة لم يتبقَّ منها سوى عظام اكتست بجلد رقيق شاحب. آلمني هذا، بمقدار ما آلمتني رؤيتها عاجزة بعيدة عن عالمي. هي ليست معي رغم أنها أمامي، وأنا عاجز عن أن أصبح معها وإن كانت رغبتي في ذلك تفوق أي شيء. لا يهمني أين هي الآن، ومهما كان شكل الظلام الذي يبتلعها.. لم تخفت رغبتي في اللحاق بها إليه.

راقبتُها ولم يكن هناك سوانا في الغرفة. أردتُ أن أخاطبها في أفكاري، أن أجعلها تسمع ما يجول في فضائي الباطني، ولكنني أشكُّ بقدرتها على الوصول إلى أعماقي، وهي ليست في واقع يقربها مني.

"لقد عدتُ. أنا هنا مرة أخرى. لم أكن يوماً راغباً في الرحيل، ولكنْ كان لابدّ أن أرمي نفسي في هذه الحياة مهما كان الثمن.. لأجل أمي، وشقيقتي أيضاً. إنها العائلة يا تريز هي ما يجعلني أقبض على هذه الحياة أكثر" رحتُ أستنشق نفساً متقطّعاً قبل أن أقول: "وأملي بأن تعودي إليّ، هو ما يجعلني أحاول البقاء أكثر. متى ستعودين؟"

تذكرتُ ملامحها عندما ابتسمت لي وأنا في ذلك المطعم. ليست هي لكنهما متطابقتان تماماً. كانت تلك صورة صنعها خيالي؛ ليواسي حنيني إليها، إنما هي راقدة أمامي عاجزة عن تغيير حتى خطوط ذرات الهواء في هذا العالم.

اندفع الباب فجأة، فأجفلني اندفاع مَن كان خلفه. رأيتُ عينين تراقبانني بغضب وبدهشة، وقبل أن يتمكّن عقلي من تمييز شكل من كنتُ أراها، سألتني المرأة: "ما الذي تفعله هنا؟" ميّزتُها أخيراً، كانت تلك والدة تريز. بدأتُ رويداً رويداً أتخيَّل حجم النار التي ستشتعل بيننا.

"أنا.. أنا".

"أنتَ ماذا؟ ما الذي تفعله في حجرة ابنتي؟ بل كيف دخلتَ إلى هنا؟ لن ترحل حتى يأتي رجال الشرطة، أو يقدِّم لي أحدهم تفسيراً لوجودكَ هنا". كانت تتنفس بغضب يزيد باتجاهات مختلفة مع كل خطوة.

"لم أتِ لإلحاق الضرر بأحد، أنا فقط راغب برؤيتها".

"ضرر؟". صرختْ، ثم عادت نبرتها الطبيعية: "أيّ ضرر تتحدث عنه، لايوجد أكبر مما ألحقتَ بها من ضرر. ليس هنالكَ إلّا الموت.. الموت الذي أفلتكَ وحاول أن يُنشِب أصابعه في روح ابنتي. ليته كان أنتَ لا هي".

ارتجف صوتي وأنا أقول: "كنتُ أتمنّى هذا. ليته كان أنا"

تحركتْ مبتعدة عني، وعادت باتجاه الباب، سحبته وبدأت تصرخ: "أين أنتم؟ ليأتِ أحدكم إلى هنا".

طلبتُ منها: "اهدئي.. اهدئي. اعتقدتُ بأنني رأيتُها، هذا كل مافي الأمر. ظننتُ بأنني رأيتُ تريز بالأمس، وأنا هنا لأتأكّد من هذا". لم تغيّر كلماتي من انفعالها، ولم تأتِ بأية نتيجة. وما الذي سيحدث إنْ وجدتُها كما بدت هي بالأمس. هل سأعيدها إلى ذلك العالم الذي تجاوزتُه أنا بأعجوبة. هذا ما ستعتقده والدتها الآن.

إرتخت ملامحها، وسألتني: "رأيتَها؟ أين.. أين". أي أمل كاذب تريد التشبُّث به هذه المرأة المسكينة؟ كيف أخبرها بأن ذلك قد يكون وهماً مطابقاً للحقيقة بدرجة تثير الخوف؟ لا يمكنني أن أرمي إليها أي أمل كاذب. "أنا أراها أيضاً". ساد الهدوء بيننا، ارتخت يداها المعلّقتان بالهواء. "أراها، ويعتقد البعض بأنني جننتُ. أراها في الطرقات، أراها بين الآخرين". هل من الممكن أن يكون كلانا يعاني الأوهام ذاتها؟ كلانا كان يحبُّ تريز ولكن طريقة حبّنا تختلف.

سُهاد الغرباء

46

ألقى المُهرّج العرض المتنقّل مُدَّعياً بأنه السيد ثلاثاء. كان يرتدي بدلة بيضاء لها أزرار جانبية، وما يغطي عينيه كان نظارة زجاجية تتوهَّج رغم الظلام فتحجب شكل عينيه عن الأطفال الجالسين. في بداية العرض، كان الأمر مملاً؛ لأن جيمي لم يأتِ إلى هنا لرؤية عرض الدمى المتحركة. ظنّ الطفل بأنّ الأمر بدائيٌّ جداً، ولا يستحقّ الانتظار. لكن الفقرة الأولى انتهت، وكشف السيد ثلاثاء عن نفسه أمام الأطفال. كان جيمي يجلس وحيداً في القاعة المظلمة؛ لأنَّ كل طفل كان مصحوباً بشخصٍ آخر، كان البعض قد حضر العرض مع والديه، وهناك من أتى مع بعض الأصدقاء، لكن جيمي كان وحيداً.

الفقرة الثانية قدم خلالها السيد ثلاثاء عرضاً لألعاب خِفّة كانت أخطر من أن يراها الأطفال، ولكن أحداً لم يكترث لخطورة تلك المشاهد، ولمدى تأثيرها على عقول الأطفال. أصبح الطفل شغوفاً بما يراه، تخطَّى بعض القوانين، وتمادى الآن في رؤيته لتلك المشاهد الخطرة دون علم والدته. بكل تأكيد لن يغضبها الأمر؛ لأنها ببساطة وافقت على ذهاب جيمي إلى العرض المتنقِّل.

لم تكن القاعة الصغيرة مزدحمة. شُيِّدت تلك القاعة داخل غيمة مخروطية الشكل، بدت كما لو أنّها تكرار مبتذل لأشكال السيرك القديمة. لم يكن هناك أي سيرك، بل اقتصر الأمر على ما يقدمه السيد ثلاثاء المضحك ذاك.

يعتقد جيمي دائماً أن حدود الحياة لا تتعدى والدته، ومهما ابتعد عند ذلك الحد مع أصدقائه، أو أي شخص آخر، فإن والدته تظهر خلف كل الجدران؛ لأنها ببساطة تحتويه بمشاعرها الخاصة. جيمي طفل وحيد انتقل مع والدته إلى بلدة صغيرة تكاد تكون غير معروفة على الخرائط، بعد أن انفصلت والدته عن والده؛ بسبب خلافات عديدة، كان شرارتها الأولى هو الانحدار الاقتصادي الذي نشأ بعد أن خسر الأب وظيفته. فكَّرت والدته دائماً، بوالده، وكل الاحتمالات التي كان من الممكن أن تبقى بينهما لو كان أفضل قليلاً، كانت ستُعزي بقاءه معه لأي صفة أخرى. لكن والدته بحثت، ولم تجد أي أمل آخر يبقيها متعلّقة بوالد طفلها الوحيد لأجله. خسرت العائلة كل شيء، ولم يتبقَّ إلا

وظيفة الأم الحديثة، التي كان مدخولها بالكاد يكفيها هي والطفل الذي أحبّته أكثر من أي شيء آخر في الحياة. ضَعفَ الرابط الموجود بين جيمي ووالده، لكن علاقته بأمه الآن لم تتغيَّر، ما زالت تحبُّه كما كانت تفعل، وتحاول ألّا تريه الفرق بين حياتهم السابقة، وحياتهم الأكثر بساطة الآن. أما جيمي بدوره فهو فتى طيب يتفهم ما تعانيه والدته من صعوبة. كان ذكاؤه يفوق سنَّه بسنوات قليلة.

تعي والدة جيمي وجود حزنه بين الحين والآخر؛ لأنه لا يوجد إنسان لا يشعر بغرابة التغيير مهما كان نوعه. لكنّ جيمي يستطيع تجاوز الأمر من خلال قدرته السرّية الخاصة. كان الطفل يبني أحلامه، ويعيشها أثناء النوم كما يشاء. يبني تفاصيل عالمه القصير أثناء نومه، ويعوّض كل ما لا يجده في الحياة هناك. لم يخبر أحداً بهذا الأمر، ولا حتى والدته. كان لديه إيمانٌ غريب بأنّ الأسرار إذا ظهرت إلى العلن فإن بريقها ينطفئ.

في مناماته الأخيرة كان يرى صوراً مختلفة للسيد ثلاثاء، أحياناً كان يضحك للفتى وتصبح عدستا نظارته أكثر بريقاً رغم أنّ قبعته الدائرية تحجب الضوء عن الزجاج. وأحياناً أخرى، كان السيد ثلاثاء يلهو معه ويصنع له متاهات وهمية يتجاوزها جيمي في كل مرة. لذلك حين أتى عرض السيد ثلاثاء إلى مدينته الصغيرة المنسية، شعر بأن معجزة زارتهم هنا. هل تنبَّأ الطفل بقدوم هذا الرجل الخارج. لم تكن هناك أية إعلانات لهذا العرض؛ لأنّ السيد ثلاثاء اكتفى بوضع لافته واحدة بالكاد واضحة، يعلن فيها إنشاء خيمته هنا، وأنّ مدة العرض لن تطول أكثر من يوم واحد. عرض واحد لا أكثر، لا يجب على الطفل أنْ يفوّته.

المدهش هو أن تذاكر العرض كانت مجّانية، لم تصدق والدته ذلك، فرافقته إلى مكان الإعلان، ثم حصلت له على تذكرة بنفسها، قبل يوم واحد من بداية العرض. كان الرجل الذي يعطي التذاكر أصلعَ بديناً ومعظم ما يتكون منه وجهه هو وجنتان تبتلعان كل الملامح الأخرى. يرتدي الرجل كنزة صوفية قديمة ملونة بالخطوط البنية والسوداء. أعطاهم التذكرة الوحيدة بسرور، وكأنه لا يصدق بأن هناك زوّاراً لهذا العرض.

سألته والدته: "لماذا هذا العرض مجاني؟" لكنها لم تسمع منه أية إجابة؛ لأنه كان بعيداً عنها يخمّن ما إذا كان السيد ثلاثاء يشبه أحلامه أم لا. تركت

والدته التذكرة معه، ما أن وصلا إلى المنزل، وبدءاً من تلك اللحظة أصبح الوقت يمضي بطيئاً جداً حتى وصل الطفل إلى الخيمة التي يقام فيها العرض في المساء التالي.

أصبح جيمي متأكّداً من أنه هو السيد ثلاثاء، يقف هناك. بريق عينيه يتّجه نحو الطفل، ثم يُزاح عنه لينتشر بين الحشد الصغير. لقد رآني! قال الطفل لنفسه بفخر، وهو فخور؛ لأنه مرئي لأحدهم، وإن كان غريباً كالسيد ثلاثاء الغامض.

انتهت كل الفقرات في النهاية، ابتلع السيد ثلاثاء سيفه، ونفثَ النار من فمه. اختفى وظهر من بين الحشود كمهرج أبله لا يملك أية حيلة. تأكّد الصبي من أن أحلامه كانت أعظم تجاه هذا الرجل الغريب. ترك أندي كرسيه وخرج وسط الغرباء تاركاً الخيمة وراءه. سار عائداً إلى بيته لكنه وجد الظل الأبيض لرداء السيد ثلاثاء واضحاً. اقترب منه، فابتسم له الرجل الغامض.

"ألم يعجبكَ العرض؟"

"بلى". أجاب الطفل، ثم اعترف: "نوعاً ما". مايزال الزجاج الدائري لنظارة السيد ثلاثاء يلمع. راقبه جيمي مترقّباً أيّ ردّ فعل منه. لم يقابل وجه جيمي سوى ابتسامة بلهاء مرسومة على وجه الرجل. "أراكَ في أحلامي".

"وأنا أيضاً، أراكَ في أحلامك". لقد ذكر أحلام جيمي، وليس أحلامه الخاصة هو. مما أكّد للطفل بأن هذا الرجل الغريب يقتحم أحلامه، وأنه حين كان يراه هناك، كان ذلك حقيقياً. أي أنه قطعة حقيقية في ذلك الوهم.

"أحلامي. هل ترى أحلامي معي؟" سأله الطفل.

أجاب السيد ثلاثاء: "أحياناً أقتحم أحلامكَ. يعجبني ما تبنيه فيها، وأحبّ أن أسير في متاهاتك الخاصة. إن ما تقوم به ممتع ويعجبني أن أكون موجوداً فيه. لكنني أخشى يا صديقي جيمي، ألّا تعود قادراً على الوصول إلى الأحلام من جديد". لم يفهم جيمي معنى ذلك، وأراد سؤاله عن الأمر لكنه لم يفعل؛ بسبب عدم تأكُّده من الرغبة في الوصول إلى الحقيقة المرتبطة بالخوف.

"أنتَ تعرفني؟ تعرف ماهو اسمي".

"ألم أخبركَ بأنني جزء من أحلامكَ التي تصنعها بنفسك حين تنام. يمكنني

أن أعرف عنك ما أحتاجه. أرجوا ألّا يكون هذا مدعاةً للخوف؛ لأنّ الخوف الآن لن يغير شيئاً. أنا صديق، ولستُ عدواً" . لم يكن من الصعب على جيمي أن يستشعر الخداع في صوت الرجل الغريب. تلاشى فجأة فضوله حيال هذا الرجل، وحلمه في حضور عرض السيد ثلاثاء، لقد تحوَّل إلى كابوس بلحظة سريعة. أصبح أعظم طموح عند هذا الطفل، هو الابتعاد عن هذا المكان، وترك غرابة هذا الرجل خلفه. أراد جيمي الوصول إلى المنزل بأية طريقة، لكنه كان يخشى انفعال الرجل الغريب فجأة.

"عليَّ أن أذهب" . لم يحرِّك ذلك أي شعور في السيد ثلاثاء. فنبهه جيمي: "والدتي تنتظر عودتي" .

قهقه الرجل، ثم عاد إلى هدوئه سريعاً: "أخشى أنّ عليها عدم القيام بذلك" . هنا انفجر الرعب في قلب جيمي. تولّدت في داخله رغبة في البكاء، لكنه لن يفعل هذا الأمر كإعلان عن خوفه من هذا الغريب. لن يجعله ذلك يتمادى بسبب ضعفه.

دفع جيمي السيد ثلاثاء، وبدأ بالجري، دون أن يأبه لما قد يعتقده الرجل. كان جيمي يجري بكل قوته دون توقف، ينعطف في أي طريق دون التفكير إلى ما قد يؤدي إليه هذا الطريق. عندما أصبح الطريق خالياً، توقّف فجأة، وحاول سحب أنفاسه. كانت تلك الحركة بمثابة إعادة تعبئة طاقة.

"تبدو سريعاً جداً" . كان الصوت يتحدَّث بطريقة مُستهزئة. التفت جيمي ليجد السيد ثلاثاء خلفه، يبتسم كاشفاً عن أسنان مصطفّة بطريقة جميلة. في تلك اللحظة ازداد بريق زجاج نظارته. أدرك الطفل بأنّ محاولته في الهرب رغم صعوبتها، إلا أنّ كل جهده فيها قد ضاع الآن.

"ما الذي تريده مني. دعني وشأني" .

تقدّم السيد ثلاثاء، ولكن أقدامه لم تكن تلامس الأرض. كان يطفو أمام الطفل، ويقترب منه ببطء. عجزت قدما جيمي عن الحراك. كان ينتظر السيد ثلاثاء حتى يصل إليه. أخبره حدسه الطفولي، بأنَّ هناك أمراً خطراً لا يمكن تجاوز حقيقته الآن. لم يعد بمقدوره تخيُّل الغد، أو الأوقات اللاحقة.. أصبح يرى النهاية الآن.

اقترب السيد ثلاثاء أكثر منه ثم قال: "أريد أحلامكَ يا فتى" .

47

منذ لقائه الأخير بجوليا، مايزال إيفان يستحضر صورتها الباهتة في رأسه. رغم كل الحزن المحيط بها إلا أنّ هناك شيئاً ما كان يفتنه بها، يجعله يستحضر خيالها بصورة وقحة. عاش معها لحظة بطولية جعلته يشعر بأهميته، ورغم أنّها لم تعترف له بأنه صاحب فضل في عودتها إلى الحياة، إلا أنه يعتقد بأنّه في يومٍ ما سينبثق هذا الشعور في داخلها. أراد أن يبتعد عنها، أن ينساها.. لكن النسيان يتفادى من بحاجة إليه. ما تزال جوليا تزور أفكاره، ورغم كل العوائق التي تمثّل نذير الشؤم بينه وبينها، إلا أن غريزته الرجولية تشير بسهامها إلى تلك المرأة التي توحي أفعالها بالجنون. هناك ما يجعلها مختلفة في عينيه. لا تحمل في هيكلها أية أنوثة تجتذب الرجال، كانت جلفة قاسية معه، يشوب إنسانيتها بعض الغرابة. أراد أن يزيح كل تلك الأفكار، ولا يحتفظ إلا بصورة المنقذ التي تتطابق مع كونه شرطياً، فهي تجعله فخوراً بنفسه أكثر. أما جوليا تلك التي لا يميزها إلّا سحر خفي لا يستطيع تحديده، هي ضعف جديد، كلّما ازداد تفكيره بها، ازداد لين قلبه. إنه بحاجة إلى القوة يوماً بعد يوم، لأنه شرطي مجدٌّ في عمله ويحتاج إلى جدار القهوة هذا.

لماذا هي، ما المختلف فيها؟ جوليا.. أعاد استحضار اسمها في ذهنه.

أعاد رنين الهاتف الأرضي إيفان إلى واقعه الكئيب. لقد أصبحت المدينة أكثر ضيقاً وعتمة بعد أن ذاع خبر اختفاء الطفل جيمي فيها. كان إيفان يتفادى الخوض في تلك القصة تاركاً إيّاها لمن هو أبرع منه. مرَّ وقت طويل قد يكون ممتدّاً إلى وقت مرض والدته، كان إيفان خلاله يبتعد عن القضايا المعقّدة.

سحب إيفان السماعة، ثم أجاب بصوت أصدره دون أن يفتح شفتيه. "إنه أنا، لماذا لا تجيب على هاتفكَ الخلوي، أو حتى الرسائل التي وصلت إليكَ". قلب إيفان الهاتف على ظهره، فأضاءت الشاشة منبّهة إياه بوصول مكالمات لم يستجب لها، ورسائل ما تزال مغلقة.

"لم أنتبه لذلك. أعتذر". كانت نبرة صوته توحي بالتهذيب، والصبر كذلك.

"نحن بحاجة إليكَ هنا. لقد وجدوا الصبي أخيراً". تحرَّك شيء ما في قلب إيفان. اعتقد بأنّ الأمر سيطول لكنهم وجدوه أخيراً. تبخّر الحماس، وازدادت العتمة حوله، بعدما استوعب نبرة الرجل على الطرف الآخر. "يجب أن تأتي

إلى هنا لترى هذا بعينكَ قبل أن يغيّر رجال الأدلة الجنائية كل شيء".

"أين أنتم يا جيمس؟" سأله إيفان دون أن يسحب نفساً يكفي لطرح هذا السؤال.

"في المنارة. إننا جميعاً هنا". تساءل إيفان عن سبب وجودهم هناك. تلك المنارة القديمة لم يقترب منها أحد منذ وقت طويل؛ لأنّها لم تعد مَعلَماً هاماً في البلدة، ثم إنها أوقفت نشاطها قبل عدة أعوام. انتهت المكالمة دون حصول إيفان على أي جواب آخر. نهض متبعداً عن الهاتف، جذب معطفه البني الداكن، وخرج من شقّته الضيقة

على عالم كان الحصار فيه أقل قليلاً من شقته. كان الطوق الضيق موجوداً في قلب إيفان؛ لأنّ الوحدة تجبره على الإحساس بذلك، وهو يعتقد بأنه لو كان لديه من يشاركه حياته، لكان تجاوز كل هذا الظلام المليء بذكريات قضاياه.

قاد سيارته وصولاً إلى طرف البلدة حيث كانت المنارة القديمة. كان ظلام الليل يبتلع قمة المنارة، وقربه منها يمنعه من رؤيتها بوضوع وهي فوق تلك الأرض غير المتساوية. كان ما يراه هو جدارها السفلي حيث كان يلمع عاكساً أضواء سيارات الشرطة.

ترك سيارته، واتّجه إلى قلب المناره، حينها رآى جيمس يبتعد عن المدخل، ويتّجه إليه. "من الجيد رؤيتكَ هنا". قال جيمس ذلك رغم أنه مايزال بعيداً عنه. "الأمر بالغ السوء يا إيفان".

"الصبي مقتول؟" سأله إيفان محاولاً تمالك الأمر.

"واقتلع القاتل عينيه أيضاً". ظنّ إيفان بأنه سمع صوته يهمس مناجياً الله، لكنه لم يكن متأكّداً إنْ كان هذا الأمر باطنياً أم ظاهرياً. تجاهل إيفان وجود جيمس وتجاوز جسده العريض إلى المنارة. ناداه الرجل الآخر: "انتظرْ، عليكَ تمالُك نفسكَ". لكنّ إيفان تجاهل الأمر، واتّجه إلى حيث احتشد رجال الشرطة. هناك وجد الصبي معلّقاً بحبال رُبِطت في درابزين سلّم المنارة الحلزوني. كانت الحبال مشدودة حول جسد الصبي، وبين القضبان الحديدية الصدئة. لم يُنزل أحد الصبي، وهذه ليست مهمّة رجال الشرطة حتى.

كان وجه الصبي مُشوَّهاً، ونصفه العلوي مخفيّ تماماً تحت طبقة سوداء

جافّة شكّلها الدم. كان فم الصبي مفتوحاً كما لو أنّ آخر ما قام به هو الصراخ. فكّر إيفان بعائلة الصبي.. ماذا لو رؤوه هكذا؟ كيف سينسى مَن أحبَّه شكله وهو على هذه الهيئة المفزعة. سأل دون أن يوجّه كلماته لأحد: "ماذا عن عائلته؟"

أجابت شرطية يراها إيفان للمرة الأولى: "لم يكن هناك مَن يبحث عنه سوى والدته، وهي تعيش هنا وحدها. أعتقد بأنّها انفصلت عن زوجها مؤخّراً، وقالت بأن والده سيكون هنا من أجل مهمة البحث. قضي الأمر الآن، ووجدنا الصبي، لكن لم نخطرها بالأمر حتى الآن".

سألها: "ومن سيفعل هذا؟" هزّت كتفيها دلالة على أنّها لا تعلم.

"نحن". التفت إيفان ليرى جيمس يقف مواجهاً له. "أنا وأنتَ. نحتاج إلى طرح الأسئلة عليها أيضاً".

"لكنني.. أنا لستُ.."

ردّ عليه جيمس: "لكنك انخرطت بالأمر فعلاً. همّتكَ، وغضبك يخبرانني بأنّك ستبقى ضمن هذا". أدرك إيفان بأنّ صديقه وزميل عمله محقّ. هو معهم وأصدر موافقته دون أن يعي ذلك. في تلك اللحظة عادت جوليا إلى ذهنه، وفكر في أنّ تلك الغريبة قد فارقت خياله فجأة، وهذا أمر لم يحدث منذ لحظة لقائهم الأخير. لماذا تعود الآن؟ يجب أن ينساها، لماذا هوسه الغريب بها يبدأ الآن؟

***

"تقول والدته بأنّ ليس للفتى أصدقاء، بل إنّ الوقت القصير الذي قضوه منذ انتقالهم لم يسعفهم في تكوين أية معارف هنا". شرحت الشرطية الشابة لإيفان، بينما كانا يقفان عند طرف الرصيف الحجري الذي شُيّدت فوقه المنارة. "آخر ما فعله الطفل، هو حضور عرض متنقّل أتى إلى المدينة. قالت: "إنّ العرض كان مجّانياً، وهذا يبدو لي غريباً. كيف لعرض مُقبل أنْ يعوّض تكاليفه بتوزيع تذاكر مجّانية". دسّت الشرطية يديها في جيبي بنطالها، ثم أكملت بكسل: "لا أعرف ما شأن هذا باختفائه، لكن طالما كان هذا آخر نشاط قام به الطفل، فأنا أعتقد بأنّ الأمر غامض. لم يكن للعرض الذي ذهب إليه أي إعلان. قالت والدته بأنه أراها إعلاناً واحداً فقط، وعليه صورة

لشخص يدعى السيد.. ثلاثاء".

عقد إيفان حاجبيه ثم سألها: "ثلاثاء؟ كيوم الثلاثاء؟"

"أجل.. تيمُّناً باليوم. لم نجد أية سجلات توحي بإنشاء فعالية كهذه. لم نحقِّق في الأمر أكثر، ولكنْ لو استفسرنا أكثر قد نجد نتيجة. لا يوجد أيّ إعلان، وحتى ما رأته والدة الطفل لم يعد موجوداً".

سألها إيفان: "لا يجب أن تتركوا أية ثغرة، ولو كان هناك شك ضئيل في أنها قد تكون مرتبطة بهذه الجريمة. لكن إذا ما الرابط ما حدث، ووجود جثة الصبي هنا؟ لا هل نقلت جثته إلى هنا؟ أم أنه كان مايزال حياً، عند وصوله إلى المنارة؟"

ردّت الشرطية: "كل المؤشرات الأولية، توحي بأنه مات هنا، ولم ينقل من مكان آخر. والدليل على ذلك النزيف الذي أصابه، طريقة جريان الدماء مبدئياً توحي بأنه نزف وهو مكيف في تلك الطريقة. هذا أيضا يوحي بأمر آخر، وهو أن سبب موته هو اقتلاع عينيه بينما مايزال حياً". شعر إيفان بالحرارة تتدفّق في داخله، وشعر بتلاشي شعوره بالبرد.

"كيف سيكون علينا أن نخبر والدته بكل هذه التفاصيل؟ هل ستكون متماسكة لسماع كل هذا؟" لم يكن إيفان يحمل صورة تخيلية لشكل والدته، لكنه استطاع تخيُّل المشهد. ليست هذه المرة الأولى التي يواجه فيها صعوبة العواطف، لكنه الآن لا يشعر بالأمان، ولا بالقوة.

48

انتشر الخبر فوراً، ولكن من دون أية تفاصيل في البلدة التي كان أندي يعيش فيها. كان ابتعاد الفتى عن الأصدقاء أمراً يجعله يبدو أكبر مماهو عليه بطريقة غريبة. أصبح شريك أسراره وأفكاره الوحيد، هو وصديقته جيسي. كان للفتى حدس مسبق بكل الرعب المحيط بهم. لكنه لا يحمل أي دليل أو صورة ثابتة لما يجري حوله. يوم واحد تمّ إعلان الخبر فيه، كان كفيلاً بأن يجعل والدته إنسانة أخرى أكثر حرصاً على الصبي. لم يعد بإمكانه الخروج كما كان يفعل في السابق، لكنه يجد الفرص أحياناً لرؤية جيسي في أماكن مزدحمة.

لم تصل إليه كل الإشاعات المتعلقة بالصبي بصورة صحيحة، لكن العنوان الغريب لعرض السيد ثلاثاء أثار الرعب فيه. إنه يعرف ذلك الرجل، وهو صديقه.. هذا أرعب الطفل أكثر، سيكون هو إذاً الهدف التالي. لكنّ أندي شجاع، ولن يُصدِّق أكاذيب ذلك الرجل أبداً، ولن يعطيه الفرصة للنيل منه، كما هو الأمر مع جيمي المسكين.

"أليس هذا هو الرجل الذي قابلكَ في الطريق؟" سألته جيسي برعب.

"إنه هو، لكن لم يبدُ لي بأنه خطير وقاتل. رغم كل الغرابة المجنونة المحيطة به، كان يبدو وديعاً وصديقاً. هل أنا في خطر الآن؟ أم أنَّ كل تلك مجرد إشاعات؟" ذلك العرض الذي سمع والدته تتحدَّث عنه، لماذا لم يسمع هو عنه؟ لماذا لم يكن موجوداً هناك؟ لم يتحدّث أي شخص آخر عن الأمر، كما لو أنه حلم راودَ جيمي وحده. "مهلاً! لماذا يكون هو القاتل؟ إنه يقدِّم عروضه، والطفل ماتَ بعيداً عن ذلك العرض. لماذا هو متَّهم الآن؟"

"هل تعتقد بأنه بريء؟" سألته جيسي، وهي تلتهم قطعة حلوى.

"قد يكون كذلك".

"وقد لا يكون". كانت صديقته تحارب الطمأنينة الموجودة في قلبه، وتعيد إحياء شكوكه.

لا يملك أندي حالياً أية طريقة يمكنه من خلالها التأكُّد من كل تلك المخاوف التي لا تراوده وحده، وإنما تراود والدته، وصديقته جيسي حتى. تنتشر الأخبار، وتتحول إلى قصص أخرى لا تنتمي إلى المنطق أبداً، لكن بمختلف حجم

المصداقية فيها، كانت كالهواء الذي يزيد من اشتعال النيران في صدر الفتى.

راودت أندي طوال الليالي الماضية كوابيس غريبة. تكرّر الأمر عليه كل يوم، دون توقف، لكن في كل ليلة يكون الحلم مختلفاً. لم يتجدَّد لقاؤه بالسيد ثلاثاء، لكنه كان يفكر فيه دائماً؛ ليس لأنه كان يظهر في أحلامه، بل كانت أحلامه بعيدة تماماً عن كل ما يشبه صورة ذلك الرجل الغريب.

قرّر أندي أن يكرّس كل مجهوده لدروسه، ولعائلته ولصديقته الوحيدة. لم يقابل السيدة الغريبة التي أخبرته أنَّ اسمها هو جوليا من قبل. كان ظهورها غريباً، وبدت كما لو أنها تعرفه تماماً، لكن ذلك الحادث، كان محض مصادفة، ولا يستحقّ تجديد التفكير به أكثر.

لقاؤه التالي مع السيد ثلاثاء، كان في منتصف أسبوعٍ بارد، بدأت فيه نسمات الشتاء عبورها الصريح على بلدتها، كما زارتهم الغيوم جالبةً موسم أمطار خريفية قصير، ليحل البرد على أرض بلدة أندي بشكل فعلي وطويل. كان من المفترض به أن يخلد للنوم، لكنَّ ساعة النوم عبرت دون أن يشعر بها وهو قابض على رواية الأمير الصغير. كانت قطرات المطر تهطل على نافذته بنعومة، لذلك عندما سمع صوت الضربات الحاد ميَّزه، وأدرك بأن هناك من يصنع له هذا النداء خلف الزجاج. رفع ناظره عن الكتاب الصغير في يده، وراقب الزجاج المُعتم، فرآى بريق العينين المختبئتين خلف زجاج النظارة.

لماذا لا يشعر بالخوف؟ لماذا هو مندفع باتجاه النافذة؟ سحب أندي مقبض النافذة وجرَّها إلى الداخل. فظهر السيد ثلاثاء يقف خلف مربع النافذة الذي يتيح لأندي رؤية العالم الخارجي. "إنه أنتَ؟ كيف تعرف عنوان بيتي؟" ابتعد أندي خطوة للوراء عن النافذة.

أظهر ثلاثاء ابتسامة وديعة ثم قال: "ألم نصبح صديقين؟ أنا ذكي وأعرف ما أريد. كما تعرف أنتَ ما تريد من خلال النظر إلى أعين الآخرين؟" فكّر أندي في أنّ السيد ثلاثاء يدرك وجود قدرة أندي العجيبة ويؤمن بها. وهذا لم يتسبَّب في إشعال فضوله أو خوفه. إنما هو مسرور؛ لأن هناك من يؤمن بقدرته.

"أين كُنتَ طوال هذا الوقت؟ لماذا أنتَ هنا الآن؟" فكّر أندي في سره: العرض؟ ذلك الصبي؟ جريمة القتل التي نشرت الذعر في قلوب السكان؟

"إنني موجود. يعتقد البعض بأنني مخيف، لكنني لستُ كذلك يا أندي.

أنا لستُ قاتلاً كما يظن الآخرين، وتعتقد أنتَ؟ أرى ذلك في أفكاركَ. إنني صديق، هذا أمر مؤكَّد، ولن أُقدم على ضرر أحد". هزّ أندي رأسه وفكّر في السبب الذي يجعله يصدِّقه. هل يثق به لأنه يؤمن بقدرته؟ بعد الصمت القصير، بدأت رقبة السيد ثلاثاء بالتمدد كغصن عريض ينمو بسرعة. أطلّ برأسه إلى داخل غرفة أندي، بينما جدسه ثابت في الخارج. كتم أندي صراخه، وكبت شعوره بالخوف؛ لأن الخوف سيجعل الرجل الغريب أقوى منه. تراجع أندي عدة خطوات إلى الخلف، وسمع لرأس السيد ثلاثاء باقتحام غرفته. أصدر السيد ثلاثاء همهمة إعجاب: "هذا هو عالمك الصغير إذاً؟ كم يبدو هذا المكان لطيفاً. هذا ليس غريباً على طفل مميّز مثلك أنتَ. أتعلم أمراً؟ هناك أشخاص مميّزون في هذا العالم، لا يسيرون في خطّ التشابه مع الآخرين، لكنهم لم يحصلوا على إيمان الآخرين بقدراتهم. عدم وجود الإيمان هذا يجعل كفَّتي الميزان متوازنتين؛ لأن الثقة تحوّلهم إلى أشخاص أكثر خطورة وإيماناً بأنفسهم، وهذا الإيمان البالغ يتحوَّل إلى ما يشبه الغرور. الثقة هي مفتاح خزانة قدرات إنسان، وأنتَ حتى الآن لم تملكها. لكنكَ تدرك بأنّك مميز في كل الأحوال".

"أنا؟" شعر أندي بأنه ضاع بين فهم ما يقال، وبين عدمه.

"أنتَ، وتلك الغريبة جوليا.. أتتذكرها؟" جوليا! فكّر أندي: ما شأني بتلكَ المرأة؟ شعر أندي بغضب طفيف؛ لأنّ على هذا الغريب الذي يقتحم برأسه غرفته، أن يدرك بأن تلك المرأة لا تنتمي لعالم أندي.

"لكنني لا أعرفها". فسّر أندي.

"لكن هذا لا يمنع كوني أعرفكما كليكما. وما يجمع بينكما هو التميّز والاختلاف". تراجع أندي بضع خطوات إلى الخلف. وطلب بصوت متقطّع من السيد ثلاثاء أن يخرج من غرفته. "ألسنا صديقين؟". هزَّ

أندي رأسه نفياً، كان جسد الطفل يقترب من الجدار، وهذا يعلن نهاية رحلته. هدَّد أندي بالصراخ، لذلك توقفت حركة رأس السيد ثلاثاء. "لقد رفضتَ صداقتي، وهذا سيأتي بعواقب أخرى عليكَ أن تتحمَّلها أيها الطفل الذكي.

تقلّصت رقبة السيد ثلاثاء، إلى أن عادت إلى حجمها الطبيعي. تحلّى أندي

بالشجاعة، وأغلق النافذة بينه وبين الرجل الغريب. وفي تلك اللحظة تحديداً اختفى الرجل مع ظلام العالم الخارجي. تساءل الطفل: هل هذا حلم؟ منام آخر كالتي يراها كل يوم؟ أدركَ أخيراً مدى حجم الرعب الموجود في هذا المشهد.

49

تمكَّن أندي من الخلود إلى النوم بصعوبة في تلك الليلة، وما أن أغمض عينيه، حتى بدأ الظلام يتلاشى بداية عرض سينمائي. أتى النور تدريجياً ليدرك أخيراً بأنه وحيد في حجرته، وأنّ ظلاماً قرمزياً يشبه نور سماء الليل الملبَّدة بالغيوم يملأ المنزل. رآى أندي نفسه يقف بجوار السرير، كما لو أنه غريب لا ينتمي إلى جسده. كان يتحرَّك بطريقة عشوائية، ويبحث عن شيء هو نفسه لم يكن يعلم ماهيَّته تحديداً. خرج من غرفته وراح يبحث عن والديه. نادى بطريقة لا إرادية: "أمي.. أبي". لكن ليس لندائه أي صوت رغم كونه حقيقياً. لم يكن هناك أي صوت في أحلامه، وكل ما يقال كان يدرك وجود صوته في هنة أثناء النوم.

اخترق نور أتى عبر السلم مصدره الطابق السفلي، معلناً وجود أحد في الطابق السفلي. هبط عبر السلم إلى هناك، فتلاشى النور وحلّ الظلام مرة أخرى. عبر الممر الفاصل بين المطبخ وبينه رآى أندي جسداً أسود هلامياً يرتدي قناعاً أسود يهيم في المطبخ دون هُدى. كان الجسد طويلاً ويتَّخذ شكلاً هرمياً. ما أن شعر ذلك الشبح بوجود الصبي حتى التفت إلى الباب وتحرّك باتجاه أندي.

جرى أندي مبتعداً عن المطبخ، وكان هناك صوتٌ باطني يخبره بأنّ اللعبة قد بدأت الآن، سيطارده هذا الشبح ويلعب معه لعبة الاختباء حتى يقبض عليه، وما أن يقبض عليه حتى ينزع منه روحه. لذلك أسماه أندي بطريقة طفولية الشبح آكل الأرواح. هذه هي قوانين الكوابيس. أصوات ليست مسموعة، وألقاب لا تعلم من يحددها، وقوانين دون وجود من يضعها. اختبأ أندي في معمل الفخار الخاص بوالدته، وتحت جنح الظلام كان ينتظر رحيل الشبح آكل الأرواح. عمّ الهدوء فجأة فظنَّ أندي بأنه أصبح وحيداً، لكن ما أن أطلَّ برأسه حتى رآه يتحرّك في المنزل مرة أخرى.

صعد إلى الطابق العلوي متّجهاً فوراً إلى فوراً إلى غرفة نومه، ترك الباب مفتوحاً خلفه، جلس متكوِّراً حول نفسه عند الطرف الآخر من سريره. تلاشى الضوء العابر من الباب، وهذا يعلن عن وصول الشبح إليه. كان الشبح الأسود يقترب منه، ويفرد ذراعه للقبض على أندي، لكن الواقع خلَّصه. استيقظ الطفل وتلاشى ذلك المنام المظلم.

هل السيد ثلاثاء ينفّذ تهديده الآن؟ لا.. إنّ ذلك الرجل غير حقيقي، لا يجب أن يفكّر أندي به الآن!!

***

"هل أنتَ بخير يا أندرو؟" لم يستطيع أندي أن يُخفي شحوبه؛ لأنّ ما اتّسم به من أفكار غريبة كان هو ما يسيطر عليه وليس العكس. سألته والدته هذا السؤال، وهي ترى بوضوح أنّ أندي لم يعد كما اعتادت أن تراه عليه. حاول الطفل أن ينفي كل شكوكها؛ لأنها لن تصدق أية كلمة مما سيخبرها به. "كُنتَ تتحدث أثناء نومكَ في الليلة الماضية، يبدو أنّ بعض الكوابيس راودتكَ. أيقظتُكَ عدّة مرات".

تظاهر أندي بالخجل، لكنه كان قلق من أن تكتشف والدته خوفه: "لا أتذكر هذا".

"أ مايزال صديقاكَ يضايقانك؟" هزّ أندي رأسه نافياً؛ فهو لم يعد يراهما بعد الآن. لديه صديقته جيسي، وصديقه الغريب السيد ثلاثاء، والذي كان يفرض نفسه على أندي بعد أن تحوّلت رغبته في التخلّص منه.

من المفترض أن ينهي أندي وحده هذه الرحلة القصيرة إلى متجر القرطاسية، لكن بعد جريمة قتل الطفل جيمي، لم تكن والدته تدعه يخرج وحده إلّا نادراً، ولأوقات قصيرة. ما تزال الأخبار متداولة، ولم تهدأ نيران تلك الحادثة بعد. في طريقه إلى محل القرطاسية، كانت هناك شاحنة صغيرة تحجب عنه رؤية الطرف الآخر من الطريق. كان سائق الشاحنة ينزل بعض الصناديق منها، ويحملها إلى داخل محل جديد تمّ افتتاحه حديثاً، فهذه المرة الأولى التي يرى فيها هذا الركن حيّاً.

"إنهم يفتتحون هذا المكان". قال أندي وهو يشير بإصبعه.

"أجل أخبرني أحدهم بأنه سيتحوّل إلى متجر كتب صغير". أخبرته والدته فشعر أندي بقلبه ينقبض من شدة الحماس. متجر كتب جديد هنا، كان هذا أكثر مما يرغب به في بلدته. طلب من والدته أن يتوقّفا ليلقيا نظرة على المكان.

شدّته والدته برفق من يده إلى وجهة المحل، وهو لا يشعر بالخجل من كونها

تقبض على يده وتسير معه في عرض الشارع، وأمام نظر الآخرين. توقفا عند المحل الذي لا ينيره إلّا الضوء الشمس. كانت اللافتة الخارجية تصرّح بأنه متجر كتب، ولكن المحل من الداخل كان فوضوياً والصناديق المفتوحة توزّعت في كل الزوايا. كان أندي يراقب كل الزوايا، ويتخيّل شكل المكان عندما يتمّ إنجاز كل الأعمال فيه.

ظهرت أمامهما فتاة شابة، هندامها يوحي بأنها مالكة المكان. رحّبت بهم بابتسامة، ثم علّقت بصرها على أندي ببعض الاندهاش. "نحن نتقابل من جديد يا أندي". نظرتْ والدته إليه، وفي نظرتها سؤال إنْ كان يعرفها من قبل. ثم تذكّرت فجأة بأنّ هذه هي المرأة التي قابلتها في محل التحف الصغيرة.

صافحت جوليا والدة أندي وقالت: "أنا جوليا، قابلتكما ذات مرة وأخبرتُك بأنَّ أندي يشبه ابن شقيقتي الصغير". من الجيد أنّ جوليا كانت ما تزال تتذكر الكذبة. "إنني أفتتح متجراً للكتب. أعتقد بأنّ الكل بات يعلم الآن. أحتاج بعض الوقت حتى أُعلن عن الافتتاح الرسمي". ضاقت عينا جوليا، ثم قالت: "يومان على أبعد حدّ".

"هذا رائع". قالت والدة أندي، والتفتت لترى الحماس على وجه أندي. "يحبُّ أندي القراءة جدّاً، وسيكون زبونكَ المخلص، أنا متأكّدة". أطلق أندي ضحكته، ولكن في داخله كان أبعد عن الشعور بالحماس. جوليا.. المرأة التي أخبرها عنه السيد ثلاثاء. ما الرابط بينهما، لماذا يلتقيان الآن؟

"هل تحبّ القراءة يا أندي؟" سألته جوليا.

"كثيراً. إنني حالياً أقرأ الأمير الصغير، لكنّها رواية صغيرة ستنتهي قبل أن تغمرني متعتها". كانت جوليا تصغي إليه باهتمام، لا يختلف عن اهتمام الغرباء. هذا الاهتمام يبدو مزيفاً عادة، عكس الكسل الذي تبديه والدته حين يتعلّق الأمر بشؤونه. أما جوليا فلم تكن تدّعي هذا، كانت مهتمّة بالفعل.

"انتظر لحظة". تركتهما، وراحت تعبث في الصناديق تفتح بعضها ثم تبتعد عنه. "ليس هذا.. ولا هذا أيضاً". كانت تبحث بجد، وهذا أشعر أندي بالحيرة. هتفت فجأة: "هذا هو". عادت إليه وهي تقول "أشعر بأن تشارلي يشبهكَ كثيراً في هذه الرواية". قبض أندي على الكتاب، ووقعت عيناه على العنوان فوراً. تشارلي ومصنع الشوكولاتة. لم يسمع بها من قبل، وبدت له

طفولية أكثر مما كان يتوقَّع. "لا تشعرْ بالإحباط فوراً. أهديتُها لكَ لسبب ما. إنّكَ تشبه تشارلي كثيراً، وهي رواية ممتعة وهادفة. اقرأها وسنتحدث عنها عندما تسنح لنا الفرصة".

تدخّلت والدة أندي معترضة: "لا، لا يمكننا قبول هذه الهدية. إنكِ تفتتحين المتجر الآن، ولا يمكننا أن نكلّفكِ أكثر".

"لا يوجد أيّ ضرر في هذا، إنّها رغبتي الحقيقية. الرفض ممنوع". شكرتها والدة الطفل، وشكرها هو بدوره. تلاشا إحباطه بشأن الرواية، وقرَّر بأنها ستكون رحلته التالية؛ لأنه حتى يحين موعد افتتاح المتجر سيعود بعد أيامٍ قليلة للتحدث مع جوليا، واكتشاف الرابط بينها، وبينه. أما الآن، فهو يرغب في تحريك عجلة الوقت، والوصول إلى لقائه التالي بجيسي، فهو بالحاجة إلى دعمها في مهامه.

50

متجر الكتب، كان جزءاً من العلاج، وصفته جوليا لنفسها. كان هناك غموض غريب يحيط بنادي الأرق. جلستها الوحيدة معهم. لم تأتِ بأية نتائج، لكنها على الأقل تركت في داخلها علامة استفهام تبعدها عن كل الوحشة التي كانت تفكر بها. كانت جوليا تشعر بأنها كغريب عاد إلى الوطن بعد مدة طويلة، وهو الآن يشعر بأنّ كل من يعرفهن تقدمت بهم الأيام، فأصبحوا محقونين ببعض الغرابة. إلا أنّ الواقع هو أنها هنا لا تعرف أي أحد.

لم تُخلِ صناديق الكتب، بعد لكنّها على الأقل تركت مساحة تعينها على الحركة بأريحية في المتجر، ودفعت الصناديق إلى طرف المكان. كانت خطّتها في افتتاح المتجر موجودة، لكنها عجلّت في الأمر؛ لأنها لم تعد راغبة بهذا الفراغ المحيط بها. تتواصل مع مارك بين الفنية والأخرى، لكنها ليست متأكّدة من أنّها راغبة في زيارة النادي من جديد. إنّهم يتحدثون عن الخوف.. عن الموت، وأيضاً عن كل ما لا يمكن أن يصدقه الآخرون. في ذلك المكان ينتزعون ظلامكَ ويخلصونك منه. جوليا بحاجة إلى هذا، لكنها تتساءل دائماً: ماهو ثمن خلاصي من آلامي.

الألم لا يغير أحداً، إنما قد يزيد من مناعته ضد الشعور بالحزن، ويجعله أقسى. لكن التجارب هي ما يطبع في داخلكَ الدرس الذي يجب أنْ تتلقاه. تجربة الرحيل تعلّم الآخرين معنى البقاء، ولو كان ما أنتَ باقٍ عليه ليس إلّا كومة آلام لا تستطيع مجابهتها. النهاية المفاجئة تُرسّخ في رأسكَ فكرة إيجاد الحلول؛ لأنها غالباً لا تضع الاحتمالات الممكنة إلا بعد تجاوز الحد الأخير.

أمّا جوليا في عزلتها ترى بأنّ الموت علّمها كيف تبقى. لن يصدّقها أحد عندما تخبرهم بأنّها رأت كيف كان الموت، وهي شخصياً تعتقد بأنّ ما رأته ليس إلّا مشهداً خيالياً. قد يكون هذا الاحتمال صحيحاً، بل إنه أقرب إلى المنطق حتى. لكنّ جوليا الآن راغبة في البقاء في عزلتها، ولا تريد أكثر من أن تبقى كما هي، ولو كان الحزن يطعنها بين الحين والآخر.

نحن لا نستطيع رؤية كيف تبدو حياة الآخرين خلف جدار العزلة؛ لأنّه غالباً مَن يتحكّم بشكل المشهد هو من يقف خلف الجدار. إنه يريكَ ما يجب أنْ تراه، وأحياناً أن ترى الصور كيفما أردتَ رسمها، إنما واقع هذا الأمر لن تراه

إلا بعد تجاوز حاجز العزلة، وهذا يتطلَّب أنْ تخوض حياة مَن ينتابكَ فضول نحوه.

تحرّك الباب فسمعت جوليا صوت الجرس الذي علقته فوقه يرن. ابتعدت عن الصندوق الثابت بين ذراعيها، ونهضت. حتى لحظة اكتشاف هوية الزائر كانت تتساءل هي عن الأمر. من سيأتي إليها في هذا المساء؟ أو من يعتقد بأنّها ما تزال هنا؟

"أخبروني بأنَّ هنا أفضل متجر كتب". رأت جوليا الظل يتجاوز الأضواء الليلية للطريق، ويهبط عبر عتبة الباب باتجاهها. إنه إيفان مرة أخرى.

"مَن أخبركَ لم يكذب". أهداها إيفان ابتسامة فخر، بينما هي نظرت إليه بطرف عينيها بتباهٍ، ثم انفجرت بالضحك فجأة. تلاشت رغبتها في معرفة سبب وجوده هنا، وأصبح الهامّ هو وجود مَن يكسر عليها هذه الوحدة الصامتة.

"هل تحتاجين أية مساعدة؟"

"إن كُنتَ متفرِّغاً فلن أمانع ذلك. عليكَ أن تحمل هذه الصناديق إلى الطاولة الخشبية الكبيرة؛ حتى يتسنى لي تفريغها". انحنت لتلقط أحدها، بينما فعل إيفان الأمر ذاته مع صندوق آخر قريب منه. كانت حركة جوليا أبطأ من حركته هو، لكنهما كانا يُنجزان الأمر.

هبط الصندوق من يد إيفان إلى الطاولة الخشبية، وفي طريقه إلى صندوق آخر سألها: "هل هذه رغبتكِ منذ البداية؟"

أدركت جوليا بأنه يعني المتجر. "أجل. كانت هذه الرغبة موجودة، ولكن العمل عليها كان بطيئاً. الآن أملك ما يكفي من الوقت والطاقة للقيام بالأمر". دفعت صندوقها بجوار الصندوق الآخر. التفتت إليه وسألته: "هل الأمرُ حقيقي؟ أقصد تلك الجريمة. هل هي فعلاً بهذه البشاعة؟"

"من السيء أن يتمّ تداول الأخبار. أشعر بأنّ القاتل مسرور الآن. ثم لا يجب على سكان البلدة الشعور بالخوف من الأمر. إنني أتولّى العمل على هذا الأمر مع الفريق المختص".

"لا يجب أن نخاف، ولكن علينا توخي الحذر أيضاً".

زمّ إيفان شفتيه، ثم قال: "أنتِ محقَّة، لا يمكننا أنْ نكون أنانيين، ونكتم

أمراً خطيراً يجب توخي الحذر حياله. لكنَّ الخوف سيسبِّب لنا الارتباك، ويُصعِّب علينا المهمة. إنّ الجريمة أبشع مما كُنّا نتصوَّر. والدة الطفل منهارة تماماً، وأعتقد أنّها الآن فقدت عقلها كلياً. في البداية خَسرت الأم زواجها، وحياتها السابقة. والآن طفلها. لم يتبقَ لها أي شيء تبقى من أجله". كم كانت والدة جيمي مشابهة لجوليا. هذا ما فكّرت فيه جوليا وهي تستمع لكلمات إيفان. كلاهما خسر كل شيء، ولكنّ ما يختلف هو الظروف التي تبني الأحداث.

كلاهما ليس لديهما سبب للبقاء.

أعادها إيفان إلى الواقع: "لهذا السبب لا يجب أن أتحدَّث عن الأمر. لم أرغب في بثّ الحزن أو الرعب في قلبكِ".

"كان الفضول سينهشني لو لم تخبرني". حاولت جوليا أن تزيح معالم الحيرة عن محياها، وأن تتماسك أمام إيفان، لكن محاولتها لم تكن جيدة بما يكفي. أظهر إيفان تعاطفاً أكثر معها، وكان يساعدها ملتزماً الهدوء.

"هل تشعرين بالندم لكل ما خسرتِه أنتِ أيضاً. ألا تعتقدين بأنّ هناك أية طريقة لتصحيح الأمر؟" كيف استطاع إيفان اختراق أفكارها؟ كيف أدرك بأنها تحاول رسم تطابق بين المرأة وحياتها الخاصة.

"كيف أدركتَ بأنني فكرتُ في هذا؟"

"هناك اختلاف بين الحيرة، والدهشة". لم تُصَب جوليا بالدهشة أو بالذعر. إنما أصابها الحزن: "أنتنّ النساء، تبرعن في ارتداء قصص الآخرين، ويبدو أنّ والدة جيمي زرعت تأثيرها... أعتذرُ لأنني أخبرتُكِ بالأمر".

"لا عليكَ". تركت جوليا كل ما كان في يدها، وجرّت كرسياً خشبياً لتجلس عليه، بينما إيفان أرخى النصف السفلي من جسده على الطاولة الخشبية. "سيتزوّج آدم من صديقتي الوحيدة، والتي خطَّطت بحيلها لأن تجعلني أشكُّ به. هي مَن كشفت لي خياناته، وأقنعتني بالتخلُّص من جنيني؛ لأنّ والده شخص غير متّزن عاطفياً. والآن هما يتشاركان الحياة معاً".

فكَّر إيفان قبل أن يقول الحقيقية بطريقة ذات وَقع قاسٍ: "لكن لا ينفي هذا حقيقة كونه خائناً. أمّا إنْ كُنتِ تعتقدين بأن صديقتكِ تلك تخدعه، فما زال

أمامكِ الوقت الكافي لتخبريه بالحقيقة". صمتت جوليا؛ لأنّها كانت تفكّر في هذا الاحتمال فعليّاً. نحن بحاجة إلى مَن يدفعنا لرمي الأفكار إلى منطقة التنفيذ؛ لأننا نشعر بالشك دائماً تجاه ما نريد حسمه، مهما كان الصواب فيه واضحاً.

"هل تعتقد بأنّه سيصدقني".

تماسك إيفان وهو يقول لها بضعف: "جرّبي". في الواقع كان يريدها ألّا تفعل. صمت كلاهما لفترة، ثم سألها من جديد: "هل سمعتِ عن عرض السيد ثلاثاء". أطلقت جوليا ضحكة ذات صوت يشبه الشخير. فعقد إيفان حاجبيه، لكنه لم يمنع نفسه من الابتسام من طريقتها في الضحك.

"ثلاثاء! كيوم الثلاثاء؟"

"أجل. أعتقد أنه اسم حركي للعرض". هزّت جوليا رأسها نفياً. كان الظلام يخيّم على المكان، وحتى الواجهة الزجاجية العريضة لم تعد كافية لإضاءة المحل رغم كل اللمعان الخارجي الذي كانت ترسمه. "أعتقد بأنّ هذا مرتبط بالجريمة. إنه آخر مكان زاره الطفل. لا أعرف لماذا أناقشكِ بأفكاري هذه، ولكن حدسي يخبرني بأنّ هناك ترابط. لا يوجد في سجلات البلدة أي نشاط لهذا العراض، ولا أي إعلان، رغم أنّ والدة جيمي تقول بأنها سمحت له بزيارة العرض، وهي من أحضر له التذكرة".

"ما الذي يجعل الأمران مترابطان برأيكَ؟" سألته جوليا.

زفر إيفان بإنهاك: "آخر ما كان يفعله الطفل، هو حضور هذا العرض".

"قد يكون هناك من تربّص له. لم يُقدِم أحد من هناك على إيذاء الطفل. من سيترك مكانه، وعرضه.. وحتى الجمهور الموجود للحاق به. من منهم يعرفه".

"أعتقد أنه قد يكون أحد الحاضرين. لماذا لا يوجد أي أثر لذلك العرض هنا. قد يكون ذلك المكان مخصّصاً لتجارة الأعضاء، ومسألة العروض ليست إلّا تمويهاً".

"وما الذي يجعلهم يتركون الطفل في مكانه، إن كان الأمر اتجاراً بالأعضاء".

"لكنّ عينيه مفقودتان". ساد صمت مخيف على المكان. تخيّلت جوليا شكل الطفل الذي لم تره في حياتها. بل تصوّرت ردة فعل والدته حين رأته من دون عينيه. أرادت أن تسأل إيفان عمّا كانت والدته تفعله، لكنها لم تفعل، لا تريد رسم تلك المشاهد في خيالها. كسر إيفان الصمت قائلاً: "هل يمكنني أن أدعوكِ إلى شرب شيء ساخن نواجه به برد هذه الليلة".

"هذا عرض جيّد. كنتُ سأهمّ بإغلاق المكان على كل حال". نهضت جوليا، وترك إيفان جسده يقفز من فوق الطاولة بوثبة قصيرة، ثم اتّجه قبلها إلى الخارج. حملت جوليا حقيبتها، ولحقت به، أقفلت المتجر، ورمت المفتاح في حقيبتها، وما أن استدارت حتى وجدت إيفان يراقبها بجمود مخيف. لم تعرب عن قلقها حيال نظرته، لكنها سايرته مشيرة بيدها إلى الطرف الآخر ليسيرا بمحاذاة النهر.

"لا نرغب في أن يرمي أحدهم بنفسه هناك مرة أخرى".

" لستَ مضطراً إلى تذكيري بهذا، إنني بالكاد أتجاوز هذا". عبرا الطريق، وأصبحت جوليا هي الأقرب إلى الحاجز المحاذي للنهر. "هل تؤمن بأن إنسان يتجاوز الحلقات الضيقة في حياته، دون أن يترك هذا في داخله أي اختلاف".

استغرق إيفان في الصمت وقتاً قصيراً حاول خلاله ترتيب كلمات إجابته: "لا يتغيّر إنسان إلا إذا رغب هو في تغيير جزء في داخله. الفترات السيّئة قد تساعد المرء في اكتساب خبرة أكبر، لكنها لا تجعلكَ تتحوّل من شخص جيّد إلى سيّئ، أو العكس. نحن نختلف عمّا نحن عليه، عندما تولد رغبتنا في التغيير. في النهاية الأمور السيئة عابرة، وتترك خلفها مكاناً لأمور أسوأ، أو حتى أفضل".

51

في الصباح التالي كانت جوليا منهمكة في إفراغ كل الصناديق في متجرها. خلدت إلى فراشها باكراً، بعد أن سارت إلى المنزل بصحبة إيفان. لكن بعد أن دلفت إلى المنزل تلاشى شعورها بالإرهاق، وخفّت رغبتها في النوم. كان النعاس يخدعها في كل مرة تبتعد فيها عن فراشها، وعندما تحاول النوم كانت تعجز. مايزال تحفيز إيفان يدور في رأسها، ويتحوّل إلى أمرٍ جدي مع مرور الوقت. ستقود سيارتها كل تلك المسافة الطويلة، إلى منزلها القديم، وتتحدّث مع آدم.. يجب أن يعرف الحقيقة.

حتى حلول وقت الظهيرة، أغلقت جوليا المتجر، واستقلت سيارتها المركونة أمام المنزل لتقودها مسافة تستغرق ساعة كاملة وصولاً إلى المدينة. تعمَّدت التأخير، حتى تصل مع حلول نهاية عمل آدم. كانت ستواجهه في المنزل.. منزلها سابقاً، ولن تترك له مجالاً للصد، أو التجاهل.

القلق جعل المسافة تبدو أطول مما هي عليه فعلياً، وتلك الساعة مرّت بانقباضات في المعدة كانت تعود أقوى من السابق، كلما تجاوزت جوليا لافتات تعلن المسافة المتبقية للوصول إلى المدينة. تخيّلت جوليا أحاديث كثيرةً، تلاشت جميعها عندما اقتربت من منزل آدم. لم يتغيّر المنزل، ولم تجده موحشاً مثلما ظنّت أن رحيلها سيفعل به. كانت حديقة المنزل مزهرة، وتمّ تغييرها لتبدو أجمل مما كانت عليه سابقاً. سيارة سارة كانت موجودة أمام المنزل، وهذا يعني بأنها أخيراً انتقلت للعيش في منزلها.

ركنت سيارتها بشكلٍ موازٍ للرصيف، ولكنها أخفتها عن واجهة المنزل. تعلم جوليا بأن آدم سيعود الآن، ولن تتغير عاداته أبداً. لم تقوَ هي على تغيير شيء فيه، ولن تفعل سارة ذلك. كان يؤلمها ألّا يعود هذا مكانها وهي من حلمت يوماً في أن تحاط به. ما زالت تتذكر المساء الذي اكتشف فيه آدم كذبتها عندما أخبرته بأنها خسرت الجنين. كان يصرخ بها: "قاتلة". ثم جرّها إلى الخارج، وطلب منها الرحيل دون عودة، ثم بدأت إجراءات الطلاق بينهما بهدوء.

رأت جوليا سيارة آدم البيضاء تقترب من مدخل المرآب. فأطفت محرك سيارتها، وترجَّلت منها لتواجهه أمام المدخل. توقفت سيارته، وانخفض

الزجاج. راقبها آدم بدهشة، ثم نادى باسمها: "جوليا". كانت تشعر بالحنين لطريقة لفظه لاسمها... لكن الآن ذلك الشغف لم يعد موجوداً.

"علينا أن نتحدّث". ألقى آدم نظرة على المنزل، وأدركت جوليا بأنه قلق من سارة.

"لن نتحدث هنا". لم يرفض الأمر، وهذا بعث شعور بالراحة في قلب جوليا. "اذهبي إلى الحديقة، وسنلتقي هناك". هزّت جوليا رأسها ثم استدارت عائدة إلى سيارتها. قاد سيارته دقيقة أخرى وصولاً إلى الحديقة القريبة من منزل آدم. كان آدم يقود سيارته خلفها، وهنا التقيا مرة أخرى.

أصبح آدم قريباً منها، وهذا جعل كهرباء غريبة تسري في داخلها. كان فيها مزيج غريب من المشاعر، حنين، خزي، خوف، واندفاع أيضاً. انقضى وقت طويل، منذ أن كانت تفصل بينهما مسافة قصيرة كهذه. جلس آدم بجوارها، ومعالم الثقة بدت واضحة عليه.

"ما الأمر يا جوليا؟ ماذا يحدث الآن أيضاً؟"

تردَّدت جوليا قبل أن تتكلم. لكنها شجّعت نفسها على قول الحقيقة؛ لأنها قطعت شوطاً لا يمكن العودة منه. "لماذا صديقتي؟ صديقتي الوحيدة".

"إنه الحب يا جوليا".

قالت بطريقة هجومية: "لكنكَ لا تحبها. هل هذا انتقامكَ مني لما فعلته؟ إنها كاذبة. أتيت لأخبرك بأنها كاذبة. إنها هي من كان يكشف لي خياناتك، ولقد حرّضتني على التخلُّص من.."

"جوليا". قاطعها، تمالك هدوءه من جديد، ثم قال: "جوليا، ما حدث قد حدث، ولا نملك أي سبيل لتغييره. الماضي حدث وحكايتنا انتهت الآن. لا نملك تجاه بعضنا سوى الاحترام؛ لأنّه حتى الذكريات القديمة احترقت الآن. يجب أن تمضي في حياتكِ، وتتركين مسألة الاختيار هذه لي. أنتِ وسارة لم تعودا صديقتين، وهي ستصبح زوجتي الآن. لا أفعل هذا بغرض الانتقام، إنما لإرضاء شعوري تجاهها. ليس الجنين جنينها، أنتِ من كُنتِ تملكين الاختيار، وقررتِ قتله بيدكِ".

"كيف يجب أن أصف الندم، وهو شعور يعيش بداخلي لا يوجد على أرض

الواقع ما يطابقه؟ بأية كلمات أستطيع أن أثبت لكَ بأنه لو كان بإمكاني إعادة الوقت لفعلت؟ فقدنا الكثير، ولكن لن أقبل حتى في حال افتراق حياتي عن حياتكَ أن تسقط في النيران. كنتَ جزءاً منّي، جزءاً من عالمي، ولا يمكنني إنكار وجودكَ، ولا حتى تعويضكَ ببديل آخر. لكنّني الآن.. الآن أنا أحاول إنقاذكَ".

ابتسم آدم، وتأمّل الفراغ الأخضر أمامه: "تنقذينني من ماذا؟ حياة أختارها أنا. إن كانت تلك إنسانة التي ستصبح شريكة حياتي، سيئة، أو حتى شريرة معكِ.. هي معي مختلفة. حبُّها وصل إليّ، وأُدرك بأنها لم تفعل ذلك إلا من شدّة تمسُّكها بي.. أنا أحبها، ولا أستطيع أن أنسى ما حدث بيننا. لا أقول هذا لأنّكِ قتلتِ طفلنا، وحطَّمتِ بذلك حلمي.. رغم أن هذا يجعلكِ تساوينها شراً بل وأكثر منها حتى. أقول هذا لأبرهن لكِ بأن لكل شخص شرّه الخاص، وغايته التي يبتغي الوصول إليها.. لكن السبل تختلف، والأساليب حتى. أنا أختار حياتي الآن، وأنتِ تملكين فرصاً أخرى يا جوليا". راقبته جوليا ومنعت رجفة الغضب من الظهور، لكنها لم تقبض على عبرتها التي لمعت في وسط عينيها.

كل إنسان هو بطل قصته إذا ما تمّ قياس الأمر من منظوره الخاص. حتى أولئك السطحيون ينتظرون الوصول إلى نهايتهم السعيدة في عالم مليء بالسذاجة. لكل إنسان هدف، ولو كان باطناً تبنى على سبيل الوصول إليه قصة الإنسان الخاصة. يكون الأمر أشبه بفيلم أنتَ بطله، وكل الأحداث السيئة هي معوقات قصتكَ التي تأخّركَ عن النهاية السعيدة، والتي نعتقد بأننا حتماً سنصل إليها. لكن في تلك اللحظة شعرت جوليا بأنها علامة طبعت بقلم رصاص على هامش الصفحة، والصفحة تسرد قصة حياة آدم. إنه هو مخرج الحكاية، كتابها، وبطلها حتى. كل الظروف تدور حوله، والشرور تتعلق به، والحذر عليه هو توخيه؛ لأنه وببساطه كل من حوله يرغب في وصوله للنهاية السعيدة. جوليا تشعر بالندم لخروجها من حياته، وترغب في ترميم ما انهار، أما سارة فهي تحاول تعويضه عمّا خسره.. بينما الحكاية كاملة، يعيشها هو وحده.

"حسناً، اختر أنتَ ما تريد. لا يجدي أي شي أقوله الآن. لكن تذكّر بأنني لم أتِ لمحاولة الإصلاح.. إنما لتحذيركَ مما أنتَ تهوي إليه. كُن حذراً، وأني أرجو فعلاً ألّا تصيب سهام الندم روحكَ فيما بعد". نهضت جوليا دون أن

تلتفت إليه؛ لأنها أدركت أخيراً بأن هذا السور أصبح أعلى من أن تقتحمه.

القرارات التي تتعلق بالرغبة من الصعب جداً تغييرها، مهما تم العبث في تفاصيلها الصغيرة. نحن نعمي أبصارنا عندما يتعلق الأمر بما نريده حتماً، أما العواقب فلا نضعها في الحسبان إلا بعد أن نرفع أقلامنا عن الأوراق. ذلك الوقت هو مساحة الندم الأكبر؛ لأننا نعجز عن تغيير أيٍّ ممّا رسمناه في لحظة مغمورة بالرغبات.

عندما جلست جوليا خلف المقود، راقبت مخرج الحديقة، لكنها لم ترَ آدم يخرج من هناك. كانت يدها ما تزال ترتجف من شدة لمعان تلك اللحظة، ومن شدة ما كادت أن تكون حقيقية. هل كان من الممكن المحاولة أثناء ذلك. هل كان سيسمع اعتذارها؟ لا إنه ينجرف باتجاه حياة أخرى لا تشبهها أبداً، وكل ما كانت مقدمة عليه بدعم منه، أصبح الآن يعنيها هي وعالمها فقط.

أدارت جوليا المحرك، وانتظرت لحظة أخيرة يمكنها من خلالها أن ترى آدم الحقيقي، لكنه لم يظهر. تحركّت وهي تراقب سيارته المركونة بجواره، ثم ابتعدت باندفاع عن المكان. إنها خائفة، وتشعر بأن تفاصيل هذا اللقاء تتبعها. نادمة لأنها نبشت جراح الماضي، وهي بالكاد تلتئم.

تحت شمس عصر خريفي، قادت جوليا سيارتها إياباً في الطريق الضيق المغطى بأشجار السنديان على جانبيها. لم تسعَ خيوط الشمس الذهبية العابرة بين الأغصان بالوصول إليها. كانت ظلمتها الداخلية تتفاقم، وتتسع. وصلت إلى بلدتها الصغيرة، ركنت سيارتها أمام منزلها المستأجر، ثم أرخت رأسها على المقعد. كان مكيف الهواء يدفع نسمات خفيفة إلى داخل السيارة، كان يأتي برائحة الغبار الخارجي، ولم يضايق ذلك جوليا. كانت منهكة؛ بسبب تلك الرحلة، وما زاد تعبها هو ما تحمله من شعور ثقيل في صدرها. غفت عيناها، وتحوّل النور إلى ظلام لامع يشوبه نور ذهبي.

انتشرت الأعين في ذلك الظلام، وبدأت كلها تراقب جوليا وحدها، لكن جوليا لم تكن ترى في تلك العتمة سوى ذراعيها. ظهر لها أندي من أسفل الظلام، وبدا كأنه يبتسم، لكنها عندما أمعنت النظر، أدركت العكس. إنّه يتلوّى بسبب الألم، ويرسم تعبير الابتسامة.

"ساعديني جوليا، إنّه يتبعنا". قال أندي ذلك، ثم تبع صوته ضربات

مكتومة بعيدة. التفتت جوليا حول نفسها في ذلك الظلام. من هنا يراقبها غير تلك الأعين المزروعة في الظلام.

عاد صوت الضربات، ففتحت عينيها.

استيقظت جوليا من غفوتها غير المريحة، وتحرّكت في مقعدها خلف المقود. أخفضت زجاج النافذة، وكانت أكسل من أن تتحدّث بسرعة، فباغتها الظل الموجود في الخارج: "أمعتادة على النوم في سيارتكِ، أم أنّ هناك حشرة في المنزل؟"

حاولت أن تفتح عينيها بقوة أكبر، لكنها لم تستعد كامل نشاطها. أغلقت الزجاج قبل أن تجيب، وأطفأت المحرك. ترجّلت من مكانها، وقالت بينما هي تدفع باب سيارتها: "لا أخاف من الحشرات، ولا أدري كيف استسلمتُ للنعاس. كنتُ منهكة".

تحرّك إيفان بجوارها، وقال: "إذاً لا بد أن تكوني تسيرين نائمة".

أشارت إليه جوليا بأن يتبعها إلى مدخل المنزل، وتحرّكت بخطى ثقيلة إلى هناك. أخفضت رأسها لتبحث في حقيبة يدها عن مفتاح المنزل. راقبها إيفان، ولم يعد ينتظر رداً على مزحته التي لم تأثّر في جوليا. وجدت المفتاح، ودسته في الباب، وبينما هي تديره التفتت لتقول له: "قد أفعل ذلك، وألقي في نفسي في الأنهار. ثم يعتقد الناس بأنني أنتحر. لماذا لم نضع هذا الاحتمال في الحسبان؟" أعادت نظرها إلى الباب الذي فُتِح. "عليّ أن أبلّغ الطبيب بذلك". تبعها إيفان إلى الداخل دون أن يجيب بأي شيء. أدرك بأنها ليست منهكة فقد، بل حزينة، وهذا واضح على محياها.

"هل أنتِ بخير؟"

التفتت إليه ثم قالت: "من الجيد أن أجد من يسألني عن ذلك. اعتقدتُ بأنه لم يعد هناك من يكترث". دخلت جوليا إلى المطبخ، دون أن تفكّر في مظهرها، أو شكل ثيابها المجعدة. "اسبقني إلى المصطبة الخلفية، سأُعِدُّ القهوة لكلينا ".

"شربتُ ما يكفي من القهوة".

التفتت جوليا إليه، وقالت مصطنعة جدّية وصرامة غير حقيقيّتين: "ستشرب

القهوة معي اليوم نخب خيباتي" . استدارت لتعدّ القهوة.

قال إيفان وهو يتّجه إلى الحديقة: "وخيباتي أنا كذلك" . كان صوته بعيداً، لكن جوليا لم تتجاهل عبارته، ولم تمنع نفسها من الابتسام، رغم كل ما يثقل عقلها في هذه اللحظة. سمعتُ بعد ذلك صوتَ الباب الخلفي يفتح ويغلق، ثم تبعه هدوءٌ تامّ.

حملت جوليا كوبي القهوة، وسارت بهما عبر الممر الفاصل بين المطبخ والباب الخلفي. دفعت الباب بطرف قدمها، وخرجت لتجد إيفان يوليها ظهره، ويراقب فراغ حديقتها الصغير. قالت وهي تضع الكوبين: "أتعتقد بأنَّ المنظر مناسب للتأمُّل. أم أنكَ تؤمن بأننا نجد الجمال في أعيننا" .

سحب إيفان كوب القهوة، وقال بسخرية: "بل أنا أفكر في الطريقة التي يعرف فيها إنسان بأنه وجد المكان الذي يعيش فيه. كيف ندرك بأننا يجب أن نعيش هنا؟"

"الراحة، الأمر بهذه البساطة. لكنه من الصعب جداً أن نجد الراحة التامة في كل شيء، لذلك نقبل بأكبر قدر يوافق متطلباتنا وما نملك. ثم أننا نميل إلى الملل في كل الأحوال. ما نعتقد بأنه مناسب اليوم، سنتطلع لغيره مع مرور الوقت. لا يقتصر هذا الأمر على المنازل فقط، بل حتى على الأشخاص، والأماكن، والأشياء حتى" .

"لماذا نتزوج إذاً؟ لماذا نشتري المنازل؟ لماذا نقرر البقاء في أي مكان.. أي شيء" .

ردّت جوليا: "لأننا نحبّ ماهو مضمون، منزل مضمون.. أشخاص لا يبتعدون. ما أن نكتسب الأشياء، ونتأكّد من وجودها حتى نتطلّع لما هو أفضل منه. لذلك لا يجب أن تكون مضموناً في حياة شخص آخر؛ لأنَّكَ مهما كُنتَ مطابقاً للتطلعات، فإنّ اعتقاده بأنّ الفرص التي أتت بكَ تأتي بأفضل الموجود. حتى الاكتفاء يتحوّل مع مرور الوقت إلى فضول لتجارب جديدة. لذلك عليكَ أن تعطي لكل شخص مقدار ما يستحقّ أو أقل، حتى يستمرّ في حالة تطلع إليكَ" .

سألها إيفان: "هل هذا المبدأ يقتصر على الأشخاص؟"

"بل يشمل كل شيء. لا تصلْ إلى حالة الشبع من أيّ شيء؛ لأنّكَ ستكرهه".

هبطت الشمس أكثر، وأصبحت أشعتها الذهبية أكثر خفوتاً، وزال اللمعان الموجود فيها ليسنح للسماء رسم صورة ممزوجة بالأزرق والأحمر متحدين في بعض الأطراف ليشكلا لوناً برتقالياً وجودُه معتاد مع الغروب. كان النعاس يزول من رأس جوليا ببطء. أما إيفان فقد كان يراقب الغروب، وعيناه معلّقتان على طرف الشمس. إمّا أنه يودّعها، أو يرجوها أن تبقى على ماهي عليه.

زالت اللحظة وعاد إلى الواقع بجوار جوليا، وهذا ما يهمّه أكثر من الغروب وضوئه. التفتت وكوب القهوة نصف خالٍ في يده. سألها: "ما الأمر حقّاً يا جوليا؟"

أخفضت جوليا رأسها قبل أن تجيب بهدوء: "لا أعلم. إنني حقاً لا أعلم ماذا عليّ أن أفعل. لقد ذهب إلى آدم اليوم وحذّرته مما هو مُقدِم على فعله، لكنه لم يكن يصغي إليّ. قال لي بأنه يختار هذا الأمر، وعليّ أن أختار أنا بين الأمور التي تخصّني فقط".

"وهذا أصدق ما يقال". شعر آدم بالخيبة؛ لأنها فعلت ذلك. لم تخن غيره، أو حتى شعور بالخيانة. بدا الأمر كما لو أنه فقد جزءاً هو يملكه. ليس له الحق في ذلك، ولا يوجد أيّ رابط قويٌّ بينه وبين جوليا، ليس ذلك إلا اندفاعاً ذكورياً منه، عليه أن يتغاضى عن التفكير به".

"الغريب، هو أنه يبدو وديعاً، قال ذلك برفق، دون أي هجوم أو غضب. لم يبدِ أي اندفاع".

هزّ إيفان كتفيه: "لماذا قد يبدي اندفاعاً؟ ما الذي يثير الغضب في الأمر".

"لا شيء يثير الغضب، لكن.. أحياناً إظهار الكره يأتي بعكس نتائجه. تلاشي المشاعر تجاه أمر ما يعني نسيانه بصورة واضحة؛ لأنّه حتى الكره هو تأكيد لوجود رابط، ولو كان معاكساً. الكره هو رد فعل لأمر ما، يؤكّد تأثيركَ على الأمر. أمّا مرحلة انعدام المشاعر فهي عدم اكتراث حقيقي". تنهدت جوليا قبل أن تردف: "هذا كان هو الجزء الأصعب. لم يكترث لتحذيري، ولم يعتقد بأنني أحاول إصلاح ما بيني وبينه".

سألى إيفان جاراً أحرفه: "وهل تحاولين الإصلاح أو العودة؟"

كذبت: "لا". لكنّها شكّت في أن تكون هذه كذبته. إنها تدرك الآن بأن هناك دماراً بينها، وبين آدم لم يترك للعودة مكاناً. "أحاول تحذيره فقط؛ لأنه شخص لا يستحق ما هو مقدم عليه".

"اتركيه لنفسه، وهو يتكفّل بتبعات اختياره. ما أنتِ ملزمة به، هو حياتكِ"؟

ساد الهدوء، وبدأ الظلام بتلويث شكل الغروب. طرحا أكواب القهوة الخالية، وتركا مساحة الصمت لأفكارهم، لكنّ جوليا بادرت من جديد في الانتقال. سألت إيفان: "هل من جديد في تلك الجريمة".

"أعتقد بأنّ الخوف يسود، لكننا سنصل إلى مرحلة الهدوء قريباً. لكننا لم نجد أي شيء يدلُّنا على طرف خيط في تلك الحكاية. يبدو الأمر أصعب مما تصوّرنا. لا وجود لأي دليل في مكان الجريمة".

اعترفت جوليا: "هذا يبعث على الخوف. إنني أشعر بشيء غريب".

"ليس عليكِ ذلك. إننا هنا". كاد أن يقول لها بأنه وحده هنا، وحده من أجلها. لكن يجب أن يتمالك اندفاعه الغريب، هذه أقل من أن تكون مشاعر إعجاب، الغريب هو شعوره الحقيقي تجاه جوليا.

52

لماذا وُجِدت الأحزان؟ لتصبح حصاراً خفيّاً للسعادة، وتجعل كل اللحظات الجيّدة منقوصة ببعض الخوف مما قد يغيّرها. الأشخاص السعداء هم أكثر عرضة للألم أثناء السقوط؛ لأنهم يرتفعون عن المدى الطبيعي مسافة تجعلهم يتجاوزون الحاجز الجيد للفرح، ومن ثم الغوص في الجزء الطبيعي من الحياة هبوطاً إلى الحزن. بهذه الطريقة لا يعود تغيير وضع السعادة هو ما يسبب إغتراب المرء، بل وكذلك يعينه على الألم الشعور بالحزن. يشبه الأمر المياه العميقة، تبدو أكثر ركوداً لكنها تحتوي في أعماقها على أحلك ظلام.

لم يدم غياب إيفان طويلاً عن منزل جوليا؛ لأنه عاد من جديد، لكنه لم يأتِ بسيارته هذه المرة؛ لئلّا يرتبط بأي شيء آخر يعيق حرية حركته. لا يعلم لماذا جرّته قدماه إلى هنا من جديد. راقب شكل المنزل الصغير والذي كانت أصابع اللوم تحيط به رغم جهد المصابيح الصغيرة المعلّقة على الجدار الأمامي عند مدخل المنزل. توقف إيفان بجوار السياج الخشبي القصير، قبل أن يسمح لنفسه بدفع السياج، واقتحام حديقتها، والتي هي عبارة عن عشبٍ أشعث يوحي بمظهر ذبول المكان. اقترب من الجدار الأمامي لمنزلها، لكنه تخفّى عن الواجهة الأمامية؛ كي لا يراه أحد من الجيران. حام حول المنزل بخطى باردة وهو يبحث عن نافذة مكشوفة. كانت أول نافذة مكشوفة هي تلك التي تطلُّ على الممر الفاصل بين المطبخ وباب الحديقة، لم يكن الضوء كافياً فيها، لكنّ المظهر الموحش والمُعتم فيها كافأه بأن أراه ظلَّ جوليا على الجدران الخشبية الداخلية. قفز قلبه وخاف أن تظهر بطريقة مفاجئة أمامه. انحنى خلف النافذة، ونقل بصره إلى البيئة الخارجية؛ ليتأكّد من أنه لا أحد يراقبه هو أيضاً. مرّت جوليا أمامه للحظة سريعة، كان مروراً خاطفاً، لكنه حقن إيفان بصبر أطول. لماذا كان تسأله عن جيمي؟ هل تعرف شيئاً لا تريد أن تكشفه له، هل وجودها هنا مرتبط بالجريمة؟ لا... إيفان يدرك اختلال عيون القتلة إذا ما نظر خلالها، وجوليا امرأة ضائعة في هذا العالم، لم تهبط على أرضها الخاصة بعد.

ما الذي تفعله يا إيفان؟ سأل نفسه هامساً. ثم من دون صوت، رجا ذاته: ارحلْ، اتركها هيا. لكنه لم يقوَ على ألّا يشبع فضوله، ومراقبة حياة المرأة. هذه لحظة عابرة لن يكررها، إنه يريد رؤية حياتها الخالية ليس إلّا.

دلفت جوليا إلى المطبخ، ففكّر إيفان في أنّ نافذة المطبخ ستدعله قريباً جدّاً منها، وكشف أنَّ وجوده حينها لن يكون صعباً. لكنه لم يمنع خطواته الحذرة من السير إلى هناك. أحنى جسده، وسار تحت حواجز النوافذ إلى أن وصل إلى الجانب الذي يوجد فيه المطبخ. رفع عيناه ليرى رغم إعاقة الظلام الخارجي له. كانت جوليا تبحث عن شيءٍ ما في جرارات المطبخ. رفعت رأسها فجأة، وحملت كوب ماء، أو هذا ما بدا عليه السائل الشفاف. خرجت من المطبخ بسرعة، لم تكفيه كي يتوقّع ما ستقدم عليه بعد ذلك.

خلف جدار المنزل كانت جوليا تعبر تحت إطار باب المطبخ، قبل أن يعتريها حذر غريب. ظنّت بأنّها سمعت صوتاً ما. لكنّ الهدوء هنا فعليّ، والصوت ليس إلّا في ذهنها. أكان صوتَ أقدام تدهس العشب؟ لا بل صوتَ أنفاس موجوداً خلف أذنها تماماً؟

لا.. هذه مجدر أوهام تريد إنذارها بأنها مراقبة.

عادت جوليا إلى المطبخ، وتركت الكوب الزجاجي على الطاولة ذات السطح الرخامي. تحركت باتجاه النافذة، حيث كان إيفان يقف محاولاً إحناء رأسه. ستجده الآن، ولن يجد أيّ مبرر يبعد به حقيقة فضوله تجاهها. هوى الكوب من فوق الطاولة الرخامية مصطدماً بالأرضية الخشبية. تهشّم وتحوّل إلى قطع زجاجية لامعة على الأرضية البنية. قفزت جوليا من مكانها، ولم تكتم صرختها، التي جعلت قلب إيفان يقفز. رفع رأسه غير مكترث بالحقيقة، وفي تلك اللحظة استدارت جوليا مولية النافذة ظهرها؛ لترى ما أصدر هذا الدوي. لقد تركت الكوب على حافة الطاولة وهذا بسبب تغافلها، وخوفها.

رآها إيفان وهي تنحني لتجمع الشظايا اللامعة. حثّ نفسه على الرحيل، لكنه عصى أمر الجزء القلق منه، ولم يرحل. راقبها وهي تجمع كل القطع الصغيرة، وتقذف بها في الحاوية الصغيرة، ثم تجلب منشفة صغيرة بجوار باب المطبخ؛ لتمسح بقعة الماء التي كان الخشب يمتصّها ببطء.

ارحلْ يا إيفان. قرّر أخيراً أن يبتعد بطريقة متهوّرة. تجاوز سياج حديقتها، وتركها هناك وحيدة. أما جوليا ما أن فرغت مما كان في يديها، حتى عاد إليها الشعور بالخوف، لذلك خرجت إلى الحديقة، ودارت حول منزلها؛ لتتأكّد من أنه لا أحد يقتحم محيطها الخاص.

عادت إلى الداخل، وعاد إلى قلبها شيء من الاطمئنان. بينما على الطريق المقابل لمنزلها، كان إيفان يبتعد بخطى سريعة، وهو غير قادر على نزع الفضول من دمائه. ما الذي يربط بينها، وبين إيفان؟ كان يريد أن يعرف لماذا لم يشعر بهذه القيود تقرّبه من امرأة أخرى قبل أن يرى جوليا؟!

جوليا المتهوّرة والذي يكاد أن يرى جنون أفكارها يقتحم العالم. تلك المرأة الغريبة التي ألقت بنفسها في النهر دون وعي منها، لتنكر نيتها في ذلك ما أن تعود للواقع. المرأة التي تخبره بأنها رأت كيف كان الموت، وعادت إلى الحياة من جديد.

عاد إيفان إلى شقته الصغيرة، والتي لم يكن يكترث لمقدار ما تحمّله من شعور خانق؛ لأنه يؤمن بأنه يحتاج إلى مكان مغلق يحجبه عن الألم، يستطيع فيه النوم، وتناول الطعام، وترك مصباحه مضاءً قدر ما يشاء، حين يقرأ ملفات القضايا التي يعمل عليها، لكنه الآن يجر نفسه بعيداً عن قضية جيمي، إلا أنّ خيال الطفل يطارده. ما أن تغفو عيناه حتى تظهر له المنارة بوميض قمتها خلف الضباب، وصوت جيمي يناديه لأن يأتي وينقذه.

يجري إيفان على السلم الحديدي للمنارة، ويحاول أن يصل إلى القمة، لكنّ قدماه تنشب بين فراغات العتبات الحديدية للسلم الحلزوني. يصل مرهقاً إلى قمة المنارة، فيجد الصبي يترقّبه، وفي وجهه فراغان أسودان يعلنان عن وجود عينين فيما مضى. الصبي عديم العينين، كان يراقبه، ويراه دون الحاجة إلى عين. مَن ذا الذي يحتاج إلى عينين حتى يرى الأحلام، طالما هي صنيعة ظلام النوم؟!

يشتدّ ضوء كشاف المنارة الأصفر، فيصنع خطاً ملتهباً في البحر، وشقًّاً في السماء. يبدأ الصبي الصغير في الانصهار، ثم التبخُّر في الهواء. وخلف المدى الفاصل بين السماء الحمراء، والبحر الذي اكتسى بلون الرصاص، يظهر وجه أسود كبير ليس فيه إلّا عينان تراقب إيفان كأنها الكون كله، تراقبه وهو على قمة المنارة، ولو أنّ تلك العين ترمش مرة واحدة لطارت المنارة، واختفى إيفان إلى الأبد.

يستيقظ إيفان من جديد في كل مرة يرى فيها كابوساً على صوت مروحة الهواء في دورة المياة المجاورة لغرفته، ويفكر في جوليا. إنّ هذا كابوسها،

وليس كابوسه. هو يفكر فيها؛ لأنها تستطيع خلق رابط بينها وبين الآخرين، وكأنّها خط اتّصال خيالي دائم، بينها وبين كل من يعرفها.

53

لسبب ما كانت جوليا تتفادى النظر إلى المنارة. لكن أثناء وصولي إلى متجر الكتب، فإنَّ الطريق المنحدر ينخفض أمامها، وفي نهايته يمكنها أن ترى شاطئ البحر، حيث كان النهر ينتهي. وفي طرف الصورة التي تراها وهي تسير على الطريق المائل، تصبح المنارة واضحة. يذكِّرها شكل المنارة بالطفل، كوابيسها، والأرق. كلّما رأت وجهها في المرأة رأت ذبول ملامحها، وكأنّ الموت لم يعدها إلى الحياة، بل هو قابضاً عليها، ويمتص روحها يوماً بعد آخر. إنها تريد صنع التوازن، بين واقعها الممل، وبين فضاء النوم. لم تعد ترى النوم كمضيعة للوقت، بل هو الآن مهرب سهل سريع، ومريح وهاهي حُرِمت منه. لا تكفيها الساعات القليلة جداً التي تقضيها على فراشها، قبل أن تستيقظ، وهي تشعر بلفحات الهواء أبرد مما هي عليه، حين تهبط على جسده المغطى بالعرق.

الكوابيس... إنها الكوابيس التي لا تتذكر معظمها! مَن الذي يصنع الكوابيس؟ أليست هي انعكاس روح الانسان الخائف؟ لكنّ جوليا ليست خائفة. دسَّت المفتاح في قفل الباب الزجاجي الثقيل، ودخلت إلى المحل مقتحمة خلوة ذرّات الغبار المتطايرة تحت دفقة نور الشمس. لم تشعل الأضواء؛ لأنّ صباحاً بسماء صافية كان يعطي ضوءاً مريحاً للمكان، ولن تفعل ذلك حتى يبدأ الزبائن بالتوافد إلى المكان.

لم تكن الفترة الصباحية مزدحمة، وحتى الزبائن كان معظمهم أشخاصاً بالغين، أمّا تركوا أعمالهم مؤقتاً، ووجدوا فرصة اقتناء كتاب جديد، أو سيدات يمكلن وقت فراغ في الصباح فزاروها. كان هناك أيضاً سيدات من نوع آخر.. فضوليات أردن رؤية جوليا، ومتجرها لا أكثر.

في الظهيرة كاد لا أحد يكسر خلوتها في المتجر، لكنْ مع بعد ذلك توافدَ الآباء مع أبنائهم إليها؛ بحثاً عن بعض القرطاسية، أو عن مراجع للدراسة. دفعَ أحدهم الباب بعد أن انتهت لحظات صخب الآباء، أطلَّت جوليا برأسها من خلف طاولة المحاسبة، فلم ترَ النصف العلوي للزبون واضحاً لقصر قامته، فأدركت بأنه طفل قادم وحده، من دون شخص بالغ. نهضت لترى بوضوح. كان أندي يتقدَّم ويداه تقبضان على سير الحقيبة المعلَّقة على ظهره.

"أندي، هل أنتَ وحدكَ؟". هزّ الطفل رأسه إيجاباً ثم حيَّاها. "أين هي والدتكَ؟ أعتقد أنّ هذا الوقت هو الأنسب لها كي تكون في المنزل".

أجابها دون أن يخفي إحراجه: "إنّها تعلم بأنني سآتي إلى هنا بعد نهاية اليوم الدراسي، وقد أذنتَ لي بفعل هذا. أردتُ إخبارَكِ بأنني انتهيتُ من الكتاب الذي أهديتِني إيّاه". لم يكن أندي يعلم ما الذي عليه فعله أو ترقُّبه، لكن قبل أن تجيبه جوليا، قال: "أتيتُ لشراء كتابٍ آخر، قبل عودتي إلى المنزل".

"هذا مذهل! لقد أنهيتُه في وقتٍ قياسي نظراً لقارئ في سنِّك... أنتَ طفل مميز يا أندي.". ابتعدت جوليا عن الطاولة، وجاورت الطفل. "حسناً، هل هناك كتاب آخر تتطلّع للحصول عليه؟ أم أنكَ أتيتَ بنية البحث؟"

زمّ الطفل شفتيه، وقال: "لا، ليس هناك أي عنوان محدَّد. أتطلّع إلى أن تساعديني في هذا".

"لا بأس". ابتسمت جوليا. "لنرى ما الذي سنحصل عليه اليوم؟" تقدمت جوليا، وكان أندي يتبعها بهدوء إلى ركن الكتب. تعمّدت جوليا أن تتفادى الكتب المخصّصة لمن هم في سنّ أندي؛ لأنّها تريد اختباره بكتب أخرى أكثر تقدماً. بينما كانت عيناها تجوبان الرفّ، تقدّم أندي ليصبح في مجال بصرها.

"عندما قُلتِ بأنّكِ رأيتِني، كُنتُ أعتقد بأنكِ مخطئة، لكنني لا اعتقد هذا الآن. أعتقد بأننا تلاقينا، ولكن لا أعرف بأية طريقة. إنني أراكِ في أحلامي.. أو بالأحرى في كوابيسي". التفتت جوليا إلى الطفل، وكانت مشدوهة ممّا يقوله، إنها تقترب إلى حقيقة ما. "إنني أراكِ أنا أيضاً في الأيّام القليلة الأخيرة، وأشعر بأنكِ تسمعين ما أقوله. أعتقد بأنني كُنتُ أستنجد بأي أحد، ولم أجد في كوابيسي سواكِ".

"وأنا أيضاً أسمع نداء أحدهم لي. لكنني لم أكُن أدرك بأنّ هذا هو أنتَ. لكنني في تلك الليلة رأيتُكَ عند طرف النهر. لا أدري إنْ كان ذلك أنتَ بحق، أم مجرد وهم.. لكن تلك الحادثة صنعت رابطاً بيني وبينكَ".

قال أندي بطريقة نزعته من جسد الطفولة، وجعلته يبدو وكأنّه رجل بالغ: "هناك أمر غريب. أعتقد بأنني أسمعكِ حتى من دون أن أراكِ رغم أننا لم نلتقِ قبل هذه الفترة القصيرة. هذا الأمر لا يحدث مع أصدقائي، ولا مع عائلتي".

استغرقت جوليا لحظات من الوقت وهي تتأمّل بهدوء؛ محاولةً إيجاد تفسير لما يقوله. فلو كان ما يقوله حقيقياً، فلماذا هو؟ ما السرّ في هذا الطفل؟ إنها تدرك بأنه مميّز، ولا يشبه أيّ طفل رأته، لكن هذا لا يبرر وجود هذا الرابط غير الطبيعي بينها وبينه.

"سيّدة جوليا. هذا ليس أمراً ابتكره خيالي. أنا أستطيع معرفة أي شخص في هذه الحياة ما أن أنظر من خلال عينيه، أستطيع معرفة اسمه، وعائلته، بل وحتى داخله.. أعني بهذا.." كان الطفل يشير إلى صدره، وهو يبحث عن مسمّى لما يقوله.

"روحه؟" سألته جوليا.

"أجل روحه. أنتِ تبدين أوضح من أي شخص آخر؟ هناك خطبٌ ما يتعلّق بروحكِ، ولكني لا يمنعني من معرفة هويتكِ أيضاً". حادثة الموت تلك هي ما سبَّب التغيير في روحها، هذا ما اعتقدته جوليا.

"أغلقي عينيكِ، وتخيَّلي أية صورة". فكّرت جوليا، لكنها لم تفعل ما طلبه منها. "هيّا استرجعي صورةً ما وأنتِ مغمضة العينين. أغلقت جوليا عينيها، وراحت تفكّر في بيتها القديم حيث يعيش آدم الآن مع سارا. أغمض أندي عينيه، ثم استغرق في التأمُّل لفترة قصيرة قبل أنْ يخبرها: "منزل... إنّه منزلكِ".

فتحت جوليا عينيها وقبضت على كتفيه، ثم سألته بجديّة: "كيف تفعل هذا؟" بدت لهجتها غاضبة، لكنها كانت مندهشة ليس أكثر.

"لستُ أنا مَن يفعل هذا". عقدت جوليا حاجبيها. "أنتِ مَن تفعل هذا معي. ترسلين لي صوراً، هذا ما كان يحدث في الأيام الماضية. أرى كوابيسَ أنتِ هي عقدتها.. إنها كوابيسكِ أنتِ. أرى أيضاً النهر، أرى عينيكِ تغرقان". الدهشة حطَّمت كل الكلمات، والتعابير بين جوليا وأندي. اهتزّ جسد الطفل، ثم قال: "دعيني أفعل العكس. حاولي أنتِ الوصول إليّ". أغلق عينيه، فرأت جوليا وجهَ الطفل، وعيناه ترمشان في محاولة لإتمام إغلاقها. أغمضت عينيها بعده، ولم ترَ إلا الظلام. لا شيء، لا يحدث أي شيء. انتظرت طويلاً؛ لأنَّ الصبي كان صامتاً، ولا تسمع سوى أنفاسه. بعد وقت قصير، تلاشت الظلمة، ورأت جوليا أعين الظلام تراقبها، تلك الأعين كانت في بعض كوابيسها، لكن

هذه الصور من كوابيس أندي هذه المرة.

سألته بعد أن فتحت عينيها: "أنتَ ترى هذه الكوابيس أيضاً؟" فتح عينيه، ورمش أمامها قليلاً قبل أن يهزّ رأسه إيجاباً. "أنا لا أرى هذا وحدي؟" هزّ رأسه نفياً هذه المرة. "كيف يحدث هذا؟".

"لا أعلم". اعترف الطفل.

"افعلْ هذا مرّة أخرى". أمرته جوليا، فأغلق عينيه، وفعلت هي الأمر ذاته. رأت سماءً لامعة بضوء أحمر، لم تكُن متأكّدة إنْ كان ذلك بداية الشروق، أم الغروب. كانت السماء شبه معتمة ما عدا ضوءاً أحمر فاتحاً ظهر خلف طبقة غبار مخيفة. ومضَ ضوء المنارة بنورٍ أطفل وصل إلى الغيوم، ثم تلاشى. لمعت الغيوم بذات اللون، ثم انطفأت فجأة. فتحت جوليا عينيها وأفلتت شهقة خافتة. "المنارة.. إنها هي!".

"إنها معجزتكِ هذه المرة. أنتِ من صنع هذا الرابط الذي يجعل مخاوفي واضحة لكِ". شرح لها الطفل بثقة ولدت فجأة على وجهه.

"ماذا أنتَ يا أندي؟ كيف يحدث هذا". رمت كل وزنها على ركبتيها، وأصبحت مساوية لأندي في الطول. "إن تلك مخاوفي. هل نقلتُ لكَ مخاوفي عندما صنعتُ أنا هذا الرابط بيني وبينكَ؟".

"لا أعتقد هذا.. إنها مخاوفي أنا أيضاً. هذه المرة الأمر مصادفة. إننا نملك صوراً خيالية مشتركة، لكننا نرى ذلك؛ بسبب ما صنعتِه أنتِ من جسر يوصل بين ذهني، وذهنك". فكّرت جوليا في أنّ هذا الطفل يتجاوز سنّه بعقد كامل. ما يملكه أندي من طريقة تحليل، لا يملكها من هو في سنّ جوليا.. بل إنها هي شخصياً لا تستطيع التفكير بهذه الطريقة المفصّلة.

54

لفترة طويلة جداً، كان ماركوس يعيش حياة روتينية، لا تختلف عن أي نموذج موجود في المنازل المجاورة له. كان يعمل في بنك يعد واحداً من أهم ثلاثة بنوك في بلاده، وقضى أوقاتاً طويلة يسابق الأرقام والأوراق المالية ليصبح في مصافي النخبة. لم يعتقد يوماً بأنه كان يدور في طاحون هواء داخلي، كاد أن يدمِّرَ كل جزء جوهري تمّ بناؤه في داخله. كاد أن يتدمر تدريجياً؛ لا لأنّ حياته كانت صعبة، إنما لأنّ نمط الحياة السطحية المريح، كان يثير التساؤلات فيه. لم يكن نادي الأرق موجوداً، ولم تكن تلك الفكرة واردة أبداً.. ليس قبل أن تهجره زوجته، وتأخذ حصانة ابنتيه التوءَم، وتتركه وحيداً في المنزل الجميل المكّون من طابقين، والذي بناه بنفسه، كما كان يحلم. في تلك الوحدة التي عاش فيها ماركوس كان يتجاهل شياطينه، ولا يسمع صوت أحلامه؛ لأنّها سابقاً حطَّمت جزءاً هامّاً بناه بنفسه، ولن يترك نفسه فريسة للاستسلام لما تبقّى من حياته. هو لا يشعر بالخيبة، ليس الآن، بعدمرور سنوات من الوحدة، إنما هو يشعر ببعض الملل، إلى أن جاء اليوم الذي أصبح فيه مسؤولاً عن فريق دعم نادي الأرق. لم تكن علاقته بكاميلا قوية في تلك الأثناء، فهي سيّدة مجتمع راقٍ، وزوجها واحد من أهم العملاء لديه، لكنها اعترفت له قبل أن يعترف لها هو.. بأنها لا تنام، وفي تلك الأثناء فكّر في أن يعرض عليها الخروج لشرب القهوة مساءً، ولم يعترض أحدهما؛ لأنَّ الأرق سيأكل من نومهما في كل الأحوال. كان حديثهما عن المخاوف، وعن الأرق، ثمَّ أتى الملل بمفعوله في سحب سواد مابين الكلمات منهما، لذلك تكرر اللقاء، وكانت هي بالنسبة له صديقة أكثر كفاءة وخبرة منه في الحياة؛ وهذا نظراً لتقدُّمها عنه في السنّ بسنوات عديدة.

حاول ماركوس إنقاذ المرأة التي تحولَّت من مجرد معرفة سطحية -بالنسبة إليه- إلى صديقة، ومن ثمّ أخبرته بأنَّ لديها صديقاً شاباً يعاني من الأرق، وأصبح اللقاء ثلاثياً، وأكثر نفعاً. كان هذا الصديق يدعى ماثيو، وهو شاب مهاجر يحمل طموحاً لكنّه مميّز كتميُّز أصابعه على آلة التشيللو. كانت كاميلا تحضر عروضاً لماثيو وهي من نبَّأته بأنه سيصبح شخصاً واعداً، وحين أصبح الثلاثة يتردَّدون مساءً على ذات المقهى، أخبرهم ماركوس بأنه يملك مرآباً يمكن تحويله إلى مركز تجمُّع، وإذا ما توسَّع هذا النادي بطريقة سرية،

ويمكن لتعدد الأشخاص أن يسهم في تخليص كل شخص من همومه. اختلاف القصص يجعل الإنسان يُحجِّم أحداث قصّته، ويشعر بأنها أقلّ ألماً.

رغم كون ماثيو هو العضو الثالث في الفريق، إلّا أنه لا يعلم عن ماركوس بقدر ما تعرف عنه كاميلا. لم يكن ماركوس يتحدّث عن أموره الخاصّة أو عن مخاوفه؛ لأنَّ صوت مخاوفه أصبح أقل وضوحاً بين صخب مشاعر الآخرين. كان يشغل نفسه في إيجاد حلول لهم، كما كانت تفعل كاميلا التي أصبح الحديث عن مشاكلها الخاصّة، ليس إلّا تجديداً لألمٍ يكاد أن ينام رغم تأكيد وجوده. كان النادي يتحوّل من نقاش عادي إلى ساحة لطرح القصص الغرائبية، وهذا ما تميَّز به ماركوس. كان لديه مُتَّسع يكفي لكي يصدِّق القصص الغريبة التي يرويها أعضاءُ النادي القليلون. لكنه لم يبُح لهم بجانبه الغريب هو أيضاً؛ لأنه كان يملك ظلامه الخاص، وكان ينساه حين يستمع إلى الأعضاء الآخرين.

كانت أصوات الآخرين تتلاشى ما أنْ يعود ماركوس إلى المنزل، ولا يبقى له سوى وحدته، والتي لا يمكنه الهرب منها من خلال النوم أو الأقراص المنومة. لم يعد قادراً على النوم، بل كان يستيقظ في بعض الأيام ويجد نفسه فاقداً للوعي في ممرات منزله. تركَ عمله في البنك، وبدأ باستثمار أمواله بطريقة توفِّر له مدخولاً يكفي لحياة رغيدة بسيطة. انقطع عن ابنتيه، وكان تواصله معهما يقلُّ يوماً بعد آخر، وكان يفعل ذلك؛ لكيلا يجعل صورته المطبوعة في ذاكرة طفولتهما هي صورة أبٍ هزيل يكاد يهب نحو الجنون.

في المساء، كان الصوت البغيض والمستفز يهمس له في الظلام، ويناديه باسمه، كما لو أنَّ مهرِّجاً سيقفز من علبة ورقية الآن. كان ماركوس رجلاً قوياً وقد بلغ من سنواته ما يكفيه لأن يعيش العديد من التجارب الجيّدة، والسيئة، لذلك كان يتجاهل ذلك الصوت. لكنه كان يعود بطريقة أوضح ويقول له: أستطيع تخليصكَ من هذا الأرق، يمكنني أن أعيد النوم إليكَ.

حينها نهض ماركوس، وسأل الظلام: "لماذا سرقتَ النوم مني؟"

ضحك الصوت ضحكة مكتومة: "لأنه قوتي، ظلامكم، أحلامكم، وحتى مخاوفكم.. قوة لي".

محاولات باءت بالأرق

55

رأيتُ وجهي على زجاج الواجهة الأمامية للمبنى الشاهق في المساء. ملأ الشوارع ضوء مصابيح النيون الآنبوبية، وأعمدة الإنارة الساطعة. كان الضوء يتَّحد مع البرد الضبابي الذي يضفي لمحةً زرقاء على الشوارع. بدا جسدي الطويل باهتاً وذابلاً. أما وجهي فقد اكتسى ببرودة الزجاج، وكأنني مخلوق من زجاج أنا أيضاً. من منّا هو ليو؟ أنا؟ أم أنتَ أيها الشبح الافتراضي المطبوع على زجاج داكن اكتسى بلمعان مدينة باردة حزينة؟! إنني رجل آخر يسير في طرقات مدينة وحيدة، يحمل في قلبه عزلَته، وعالماً صغيراً يكاد يتلاشى ويختفي تحت كثبان الحزن السوداء. أنا عزلة أخرى لا يشبهها شيء. لستُ أكثر من حقيبة خيبات، ومحاولات لم تنتهِ حتى يعرف الآخرون هل نجحت، أم فشلت؟ طريقي لم يكتمل، ولا أجد منعطفات الخروج من هذه القصّة لتجربة القصص الأخرى. كل هذه الأحداث ثقلتْ علي، وهذه الخيبات لا توحي بوجود النهاية، لنضع فوق مفهومها: سعادة؟ أم حزن؟ ولا يوجد ستار نسدله، وننهي عرض هذه المهزلة المثيرة للشفقة. من أنا؟ ومن هم هؤلاء الذي يقتحمون العالم ليبقوا وحيدين؟ ويصنعون لكَ عزلتكَ لا عزلتهم، يحجبونكَ عنهم، ثم يدَّعون بأنك ابتعدتَ؟ ما هذا العالم؟ ولماذا كل هذا؟ هناك غضب، وقلق، وحزن في وجوه الآخرين. أمّا أنا تغزوني هذه السوداوية، وتجتمع في أعماقي ككتلة غيوم سوداء، تحمل زخّات الدموع لتمطر على الأرض فتملأ الأزرق بسيَّالات الغرق، وينتهي هذا العالم البائس. لا أنام!! وأنا باقٍ معهم أكثر مما هم باقون مع أنفسهم. هم يرحلون، وأنا أبقى كبومٍ ليلي أراقب أطياف القصص، وأصداء الأصوات العالقة في الزوايا بعد رحيل أصحابها.

أحياناً تكون رؤيتنا لمحاولات تجاوز الأشياء أمراً محزناً. يصبح الالتفات إلى ما مررتُ به وحتى الأشخاص القريبين.. ليس إلا شعوراً بالنقص. تصبح فكرة الابتعاد مغرية، الهرب بعيداً عن كل شي.. في أغنية ما، أو في كتاب حتى.. الابتعاد في عزلة تمنحكَ الحق بالحزن، أو حتى تقبُّل سذاجة الأفكار التي تعيشها؛ لأنَّ هناك أشياء لا يدرك صعوبتها شخص سواك: تفرُّع الخيارات وتعدُّدها، تناقضها، أو تصادمها ببعض رغم صغرها، أو حتى تلاشيها. كل هذا يشعل صراعات صغيرة داخلية لا يعيشها أويسمعها شخص سواك. لكنَّكَ

حينها تدرك بأنَكَ تتحوّل إلى كتلة ضوضاء مكتومة عابرة، قد لا يراها من يعبر بجوارك؛ لأنَكَ ببساطة لا تنتمي لعالمه. تصبح مزيجاً من الاختلافات التي تحاول خلق قرار جديد متمرد، لكن هذا التمرد ببساطة هو أنتَ، هو هويتكَ.

لكنَّني حزين إلى حدٍّ أعجز عنده عن تحديد هويتي.

حزين ولا يمكنني تحديد أسباب ما أعبُر من خلاله.

اقتحمتُ الباب الذي ينتصف الواجهة الزجاجية، وجلستُ في المقهى شبه الخالي. كنتُ أحمل معي كلّ فكرة هي امتداد لي، كل شعور يرسم شكله على وجهي. جلستُ في زاوية المكان الذي أزوره للمرة الأولى وأنا أبعث سكينتي الخاصة في الأرجاء. كان المكان هادئاً، ورائحة الطعام كانت تطغى على رائحة البن المحروق. لم يكن المكانُ مجرد مقهى، بل هو مطعم كذلك. جلستُ أواجه انعكاس الطريق الخالي من خلال الزجاج. كان المساء قد تأخَّر، وقدماي تعلنان استسلامهما لمهمة الجري في كل ليلة؛ لأنَّني حمَّلتُها لأيّام عديدة ما لا تستطيعان مجاراته. قبل جلوسي أشرتُ للنادلة المسنّة، وما أنْ التفتتْ حتى أعلنتُ لها عن رغبتي بشرب القوة. جلستُ وبعد مضيّ دقائق قليلة، وضعتَ أمامي إبريق القهوة السوداء، وكوباً ورقيّاً. عندما رأتْ في عينيّ اعتراضاً على كمية القهوة، قالت: "نحن نقدّمها هكذا، فهذا الكم في كل الأحوال، والسعر ثابتٌ لا يتغير". كتمتُ اعتراضي، ووافقتُ بحركة من رأسي.

لمحتُ طيف الفتاة وهي تدفع الباب، وتعلّق بصري عليها من اللحظة الأولى. بدت الفتاة بعظمتي فكّها البارزتين، ووجنتيها النحيلتين كأنّها منحوتة لفنان غريب الأطوار، رسمها في لحظة سهوٍ وغياب عن الواقع. هل تعاني سوء تغذية؟ كان جمالها غريباً، وشعرها قصيراً يحيط بوجهه، ويغطي جبهتها، مما يجعلها صورة مطابقة لشخصية ماتيلدا من فيلم ليون "المحترف". لكنها تبدو أكبر من كونها طفلة، أو مراهقة، لقد كانت شابة هزيلة بملامح طفولية. راقبتني بعينين جامدتين، ثم نقلت بصرها بيني، وبين النادلة. رفعت الندالة حاجبيها بأسىً، وذلك أثار الشك في نفسي: هل تعرفني هذه الفتاة؟ تحوَّلت نظرتها إلى لا مبالاة، وتجاهلت وجودي، ثم انتقلت إلى زاوية أخرى أكثر وضوحاً لساحة المقهى الداخلية.

كانت تحمل بيدها كتاباً كبيراً، لم أتمكّن بسهولة من اصطياد شكل الأحرف المطبوعة على غلافه. جلست دون أن تطلب من النادلة أي شيء، وفتحت الكتاب، ثم همَّت بالقراءة فوراً. لا يمكنني تجاهل طريقتها العجيبة في الذوبان في صفحة الكتاب، وتجاهل الواقع تماماً. رفعت عينيها عن الأوراق، وراقبتني بالطرف العلوي لعينيها. بدت كأنها طالب يحاول مراجعة درسه، ويتهرَّب من أوراقه بين حين وآخر.

تفادت النادلة المسنّة الطاولة، وتقدَّمت تحمل أبريق قهوة سوداء وتسير باتجاه الفتاة. وضعت الإبريق على الطاولة، وسحبت الكتاب لتطويه، وتقرأ عنوانه: "ماذا تقرأين اليوم يا سريزا". أتى وقع اسمها بطعم غريب في مشاعري، بدا وكأنني أتذوق قطعة حلوى. كان السبب في هذا واضحاً بالنسبة لي، إنه يشبه تماماً صوت اسم تريز. "لدينا سيلين اليوم، رحلة إلى آخر الليل. إنه كتاب مُثقَل بالعنف".

ردَّت الفتاة بصوتٍ حاد يفتقر إلى الثقة: "لكنَّه جميل".

"قراءة ممتعة إذاً". ابتعدت النادلة، فأرسلت سريزا نظرة خاطفة فيها شيء من الخجل والغضب تجاهي أنا. أدركتُ بأنّني أراقبها بإمعان، وكان هذا يظهرني بصورة غريبة. أشحتُ ببصري عنها، ولكنها ما أن اندمجت مع كتابها حتى عدتُ إلى غلمراقبة البريئة.

ما زالت تفاصيل زيارتي الأخيرة لتريز عالقة في ذهني. دهشة والدتها، والمفاجأة التي تحوَّلت إلى أمل وهمي كاذب ما تزال مرسومة على محياها أمامي، رغم أنني ابتعدتُ عنها. انقضت أيام منذ أن زرتُ المعالج النفسي الذي أرسلني إليه تشارلي. كنتُ أعتقد بأن زيارتي له هي خطوتي الأولى في سبيل الخلاص من هذا الكابوس الصامت، والذي كان يقتل روحي ببطء شديد جدّاً، دون أن يصدر للمعاناة صوت. أخبرتُ المعالج بأنني عرضتُ على أفضل الأخصائيين أثناء وجودي في المصح -وكان ذلك في العام الماضي- علاجاً مكثَّفاً بالنسبة لي، حاولوا تخليصي من الإدمان، وأيضاً صدمتي في فقدان تريز التي ما تزال معلَّقة بين الحياة والموت. لا يملك هذا المعالج أية زاوية جديدة يمكنه علاجها سوى مشكلتي مع الأرق، والتي لم تبدُ لي بأنّها من تبعات ما مضى، رغم أنه يشكّ بعكس ذلك. خلال الجلسة الثانية أخبرني بأنّ تفاصيل ما أبوح به له أكبر من اختصاصه؛ لأنّه يعالج المشكلات

النفسية، بينما أنا عاجز عن تحديد مشكلتي، وربما يكون الأمر مرتبطاً بأمر صحي، لذلك قرّر تحويلي إلى صديق له، ولن يأخذ أتعاب جلستين مني، لكن الأخصائي الجديد سيحدّد معي تكلفة فصل الجلسات العلاجية الأولى.

أعطاني الطبيب بطاقة كتب عليها الطبيب غرادي ستان أخصائي نوم، وباح لي مفتخراً: "إنه بحر في هذا العلم سيخلصكَ من معاناتكَ هذه، وسيكون باستطاعته تحديد الأمر بسهولة صدقني!". في البداية كان هناك رفض في داخلي؛ لأنّ من أوليتُه ثقتي التامّة خذلني، وهذا الطبيب لا يملك أدوات المساعدة، فلماذا نؤجّل الوصول إلى المحطة الأخيرة بالعبور إلى محطات لا لزوم لها؟! عندما قرأ الطبيب شكلي قال: "تخيّل أنّ ما كُنتَ ستدفعه لي، هو أتعاب هذا الطبيب. لا تتهاون مع الأمر، أنا لا أقوم بهذا بهدف الترويج لشخص آخر، هو ليس صديقي. أنا أحاول مساعدتكَ فقط". حرّكتُ رأسي مدّعياً التصديق، رغم أنّني لم أكُن كذلك أبداً.

خرجتُ من عيادة الطبيب وفي داخلي، كانت المشاعر مضطربة ومتضادّة. جزء مني يرغب في الوصول إلى ذلك الأخصائي؛ لأنني ببساطة لم أسمع باختصاصي نوم من قبل، وجزء آخر منّي يقول لي: "لا تجعلْ الأمر ينسحب على حياتكَ مستولياً على مساحة أكبر مما يحتاج.

دَوّنتُ أرقام هاتف المكتب على لوح جوّالي، وضغطتُ على زرّ الاتّصال. أجابني صوتٌ ذكوري خشن، وأعرب عن كونه هو شخصياً الطبيب ستان. لم يكن لديه موظفون في عيادته، إذ لا يعمل فيها سواه، وهذا زاد من شكّي تجاه قدرته. أخبرتُه بأنني مرسل إليه من طرف الأخصائي النفسي، ولم يُبدِ اندهاشاً كبيراً لسماع اسم الطبيب المعالج، لكنّه أبدى حماساً تجاهي. حاولتُ أن أختصر مشكلتي بجملة قصيرة: "إنّني أعاني من الأرق دون أي سبب واضح". وتحدّد موعدي معه خلال يومين. لم أكُن مرتبطاً بأي شيء هامّ خلال الأيام القادمة، على أمدٍ طويل، لذلك وافقتُ ببساطة.

في الزاوية المكشوفة، كانت ما تزال تلك المدعوة سريزا مُنكبّة على قراءة الكتاب الذي تحمله بين يديها. رفعت عينيها لتكتشف نظرتي المصوّبة تجاهها، أظهرتْ حذراً واضحاً، وتحرّك جسدها في الحيّز الذي تجلس فيه، وكان تصرُّفها هذا يوحي بتلاشي راحتها تدريجياً. تكرّر الأمر ذاته مرة أخرى، وفي المرة التالية نظرتْ إليّ نظرة طويلة، كان فيها شيء من التحدي، لذلك

أشحتُ ببصري عنها. لم أجد أمامي بعد ذلك سوى الهروب، اكتفيتُ بمقدار ما شربتُ من قهوة، ونهضتُ حاملاً هاتفي، ثم دسستُه في جيبي، وخرجتُ إلى برودة الشارع الخريفية. راقبتُ من خلف الزجاج، فرأيتُ الفتاة تحمل قهوتها وكتابها، وتتّجه إلى مكاني. يبدو أنني كنتُ أشغل زاويتها المفضّلة، كما يبدو بأنها معتادة على الجلوس فيها.

أزحتُها من تفكيري كما لو أنّها مقتبسة من مشهد سينمائي، وهاهو ينتهي الآن.

عدتُ إلى المنزل وساعات الليل كانت قد تقدّمت، والهدوء المخيف حلَّ على أرجاء الضاحية كلها. كانت البوابة ماتزال مفتوحة، كما طلبتُ من فريد أن يبقيها. اقتحمتُ بسيارتي الحديقة، وركنتُ السيارة أمام المرآب دون أن أقحمها فيه. ترجَّلتُ من السيارة متّجهاً إلى معبر المرآب المؤدي إلى المنزل. تفاديتُ المرور في البهو، فاتجهتُ إلى السلم فوراً. لكن ما أن تسلَّقت قدمي العتبة الأولى حتى سمعتُ نداءً خلفي: "ليوناردو!". التفتتُ وقبضتُ على طرف الدرابزين؛ لأتأكّد ما إذا كان هذا صوتُ والدتي أم لا. سألتني بوجهٍ جَديّ: "أين كنتَ حتى هذه الساعة؟"

- "كنتُ أتجوَّل في الأرجاء... لا أشعر بالنعاس، كما أنّ وقت فراغي كبير".

- "مع مَن كنتَ؟" سألتني، ثم رأيتُ التراجع بادياً عليها.

أعطاني تردُّد والدتي فرصة لأقول: "أمي لستُ طفلاً".

- "أعلم لكن.." كدتُ أسمع صوت أفكارها يقول: "لكنَّ لكَ تجارب سابقة مخيفة، لم تترك للثقة أي مجال حتى وقت طويل من الآن". لا يمكنني أن أُغيِّر هذا، أو حتى أن ألومها لكونها لا تثق بي. أنا أتصرّف بطريقة غريبة، رغم أنني عُدتُ إلى حياتي السابقة توّاً.

"أمي، أنا بخير... لن أعود إلى ما كنتُ عليه صدِّقيني؛ لأنني لا أرغب بذلك لنفسي، قبل أن تكون هذه رغبة أي إنسان آخر. أنا الآن أملك شعوراً جديداً تجاه الحياة، كل مافي الأمر هو أنني أحاول ملء هذا الفراغ المحيط بي ليس أكثر. أحتاج بعض الهدوء حتى أستطيع موازنة كل ما مرّرتُ به".

بدا الامتعاض على وجهها، واضطربت ملامحها: "لكنني قلقة عليكَ".

"أعدكِ بألّا أصاب بمكروه". هزَّت رأسها بحزن، وتركت لي المجال للهروب. أنا لستُ بخير! وهذا أمر مؤكَّد، أنا أُخفي سرَ إرهاقي الذي لا يحمل تبريراً، لكنني لا أريد أن تشعر والدتي بالقلق حيالي. تركتُها في الطابق الأرضي، وصعدتُ إلى غرفتي.

ما أن فتحتُ الباب، وسلَّطتُ الضوء الرمادي الخارجي نحو داخل غرفتي، حتى رأيتُ الجسدَ الصغير ذا الأطراف الطويلة يرقد على الأرض. لم أتعرَّف على ماهية ما رأيتُ فوراً، لكنني ما أن اقتربتُ حتى اكتشفتُ بأن ما رأيتُه هو دمية روزالي. حملتها فأطلقت صوتاً مفاجئاً: "إنه أنتَ من جديد". كان ذلك ينطلق منها بنبرة غنائية ساخرة. وضعتُ الدمية الخشبية على الرف، وتركتُها نصف منحنية هناك.

56

عيادة الطبيب ستان، كانت عبقة برائحة غريبة مابين البرتقال والليمون، سببها مُعطِّر جو، لم أره معلقاً في أي من الجدران القليلة التي صادفتها حتى الآن. كان لمعظم الجدران لون رمادي فاتح، يبعث رغبة فيمن يراها بأن يفتح أوصاله، ويطلق مافي داخله من تعابير تعجز الطبيعة عن استخراجها، وما كان يسهِّل تلك المهمة هي تلك الرائحة التي تبعث على الخدر.

قبل زيارتي له، استيقظتُ مجدداً في بداية اليوم قبل حتى شروق الشمس، رغم أنني نمتُ في ساعة متأخرة، ما أن بدأتُ بجولة الجري في الضاحية، حتى بدأت الشمس بالبزوغ عبر طرقات الضاحية، إلى أن وصلت إلى حافة الجرف المُطلّ على المدينة، لكنْ بسبب زرقة السماء المنبعثة ببطء، كان لمعان الأبراج قد بهت، وساعة شغفي بذلك المنظر كانت قد انتهت. رأيتُ بلاك يسير بكسل قبل صعودي إلى الطريق المنحدر المؤدي إلى الطريق، وما أن رأني القط حتى بدأ بالمواء وبطريقة غريبة، كانت عيناه تبرقان كأنهما ستنخر في أية لحظة. أخرجتُ علبة الطعام الصغيرة، وأفرغتُها له بالقرب من شجرة صغيرة. سار القط إليها بكسل، ومن ثم بدأ يشتمُّ الطعام المتكوّم بجوار بعضه. أكملتُ جولتي وصولاً إلى نقطة النهاية، ثم عدتُ إلى المنزل، وانتظرتُ ساعات الصباح حتى يحين موعد زيارتي للطبيب.

أعتقد بأنّ طول قامة الطبيب ستان يكاد يصل إلى المترين، كان طويلاً بحيث إنه اضطر إلى الانحناء حتى تمكّن من مصافحتي. كان أسمر البشرة، صاحب صوت جهوري، ولو أنه ولد قبل عقدين من حينه، لكان قد أصبح مغنيَ جاز على غرار "نات كينغ كول". قبض على يدي بكلا كفيه، ثم دعاني إلى مكتبه. سرتُ خلفه، وأنا أفكر في مظهره الذي يبتعد جداً عن رقّة النوم، وعن أسلوب العلاج، لكنني لستُ من أولئك الذين يربطون أشكال الآخرين بقدراتهم، فأنا أفضِّل إبقاء صوته التقييمي لنفسه لا أكثر.

في مكتبه تدرَّج اللون الرمادي، وأصبح أقرب إلى اللون الأبيض، كان هناك بعض الرسومات الصغيرة لأشكال الأعين الفردية، وقابضة أحلام كبيرة معلقة على الجدار بريش ملون. لم أكتم دهشتي، أو كلمات تعبيري عن الراحة في هذا المكان. التفت إليّ، وصرَّح: "إنه الذوق الأنثوي... زوجتي هي من اختارت هذا؛ لأنّها على ثقة بأنَّ قدرتي وكمالياتها يرتبطان ببعضهما". جلستُ

بجوار مكتبه، وساد حينئذٍ صمتٌ طبيعي، قبل أن يسألني بطريقة مباغتة: "هل أنتَ متزوج يا ليونادر.. ليوناردو". هزّ كفّه أمامي في حين كان يصحح اسمي.

"ليو.. تستطيع الاكتفاء بقول هذا: (لا، لستُ متزوّجاً)". حاولتُ اصطناع ابتسامة قبل أن أقول: "لدى زوجتكَ ذوق رفيع في اختيار ما يناسب المكان، أشعر بالانتماء رغم أنّ وجودي مايزال حديثاً".

أظهر من خلال ابتسماته صف أسنان عريضة ناصعة البياض: "أرجو أن يدوم هذا الشعور لديكَ. أو على الأقل حتى نصل إلى نقطة نكفُّ فيها عن اللقاء هنا". كنتُ مسروراً؛ لأنه يحاول إظهار صدق كلماته لي، وتمنّيتُ في تلك اللحظة ألّا يكون ما يفعله مجرد ادّعاء مثالي يريد من خلاله كسب مودتي. حطّمتُ حاجز الحذر، وعاهدتُ نفسي على أن أحاول الوصول أقصى مدى معه؛ من أجل الشفاء.

"أعتقد بأنكَ أنتَ أيضاً ستجد اختلافاً مع وجود لمسة نسائية في حياتكَ". في ذلك الحين لم أتمكّن من إخفاء تعبير الخيبة عن وجهي. ارتسمت صورة تريز في خيالي، وعادت لي ذكرى وجودي في هذه المنطقة المعتمة بين حياتي وبينها. أدركَ هو شعوري المفاجئ فاعتذر.

"ليس عليكَ أن تعتذر عن شيء، إنّ هذا ما أنا هنا من أجله، بل إنّ هذا هو المنعطف الوحيد في حياتي. كنتُ مدمناً على المخدر فيما مضى، وبسبب مضاعفات الجرعة الزائدة، كاد الموت أن يودي بي أنا و.. شريكة حياتي المفترضة". خرجت الكلمات التالية بصعوبة: "وقع كلانا في غيبوبة، لكن الفرق هو أنني تجاوزتُ الأمر بعد أيام قليلة، وخضعتُ لعلاج طويل جداً ومكثّف، أمّا هي.. فلم تستيقظ بعد". زمّ شفتيه، وكان يترقّب مني البوح بالمزيد طالما كانت قوتي في إخراج سيل الكلمات ما تزال موجودة. "ما أن عدتُ إلى الوطن مرّة أخرى، شعرتُ بأنّ هناك خطباً ما، في الأيام الأولى كان نومي شبه طبيعي أو متقلّب؛ بسبب تغيير المكان، لكنني الآن وقد مرّت أيّام عديدة لا أستطيع النوم أبداً، ولا أعلم أين هو الخلل تحديداً".

"أتفهّم ذلك يا ليو. إنّ فارق التوقيت، واختلاف الأماكن التي نعتاد عليها هي عوامل شديدة الوضوح في مشكلة الأرق لدى الأشخاص. هذا يولّد ضغطاً فيزيولوجياً على الدماغ، ويتبعهُ قلق في الساعة البيولوجية يُسبّب

اختلالاً في الأنظمة الأساسية للجسد". راقبتُه مشدوهاً وأنا أحاول سبر أغوار ما قاله، فبسَّط الأمر: "أعلم بأنَّ تعريفاً علميًّاً كهذا يبدو صعباً رغم تبسيطي له، ولكنّنا ندركُ بأنَ للجسد ساعة بيولوجية محدّدة، تعمل عليها ذاكرتكَ، ووظائف الجسد الأساسية حتى. ولا يمكننا خداع الدماغ؛ لأنه يحمل ذاكرة وظيفية، ربما تكون قد تقدَّمت ساعة، أو اثنتين، أو أكثر عندما عُدتَ إلى وطنكَ، لذلك يحين الليل فيما ساعة عقلكَ ما تزال تترقّب مرور ثلاث ساعات إضافيّة حتى ترسل إشارة نومكَ، أو يصيبكَ النعاس بشكل أوضح".

كنتُ فاغراً فايَ، وأنا أحاول رسم نصّ تخيلي لكلماته: "أفهمُكَ الآن... أنتَ تعني أنَّ جسدي لو كان معتاداً على النوم في تمام العاشرة، فإنّها تساوي الواحدة بعد منتصف الليل هنا. لكن هذا قد يحدث في الأيام الأولى! خمّنتُ كون ذلك هو السبب، لكنني الآن أعتقد بأنني عشتُ هنا ما يكفي حتى يتأقلم جسدي وذاكرته مع هذا المحيط".

ردَّ الطبيب ستان: "أنتَ محقّ، أنا أحاول إيجاد قائمة الأسباب المبدئيّة، وهذا السبب مستبعد الآن. هناك تحاليل أخرى سنقوم بإجرائها، ومبدئياً سأطلب منكَ إجراء تحليلٍ للدم". كنتُ أشكُّ في سبب ذلك، وأعتقد بأنّه يظنُّني ما أزال أتعاطى المخدرات. حاولتُ نفي تلك الفكرة، لكنّ الدفاع عن اتّهام لم يُطرَح هو بمثابة زراعة شكّ. في نهاية الأمر وافقتُ، وكنتُ سأوافق على كل الأفكار؛ لأنني أريد التخلص مما أعانيه، وهناك ثقة مبدئية في قلبي تجاه هذا الرجل المجهول.

"هل استخدمتَ أية أقراص منوِّمة من قبل يا ليو؟".

أجبتُه: "مرات قليلة جداً". وقبل أن يسألني عن عددها، قلتُ له: "لا أتذكَّر متى، أو كم مرة؛ لأنني أجزم بأنَّ ذلكَ لم يتجاوز الخمس مرّات". دوَّن ذلك وهو يهزّ رأسه المصوَّب إلى ورقته.

"هل تتناول الكافيين؟"

"دائماً ما أفعل ذلك، منذ.. منذ أنْ كنتُ أتعاطى المخدر حتى". رفع عينيه باتجاهي، زمَّ شفتيه، فشعرتُ بالذنب فجأة، ثم دوّن ما قلتُه له. رأيتُه يخربش على الورقة بما لم أتمكن من فهمه. ثم راقبني وهو يتنهّد.

"هل تراودك َالكوابيس؟ ما الذي تشعر به حين تخلد إلى النوم؟ أقصد

عندما تغفو، أو فور استيقاظكَ".

حاولتُ جمع شتات الصور بأسرع وقت ممكن لأجيبه: "تراودني كوابيس أستيقظ منها مرعوباً، لكنني لا أتذكرها. حينما أغفو أشعر بأنني أطلقُ روحي خارج جسدي بسلاسة. أجد الموت بصعوبة بالغة، وأبقى في فراشي متقلّباً لوقت طويل.. لكنّ لحظة النوم الأخيرة تبدو كأنها استسلام للحياة. وعندما أستيقظ يصاحبني شعور بالاشمئزاز، وكأنَّ النوم هو أسوأ ما فُرِض عليّ، ثمَّ أكتشف بأنني لم أنم سوى ساعتين، لم تجلبا الراحة لي، بل زادتا جسدي ألماً، وإرهاقاً، بل وتسبَّبتا بتشتُّت أفكاري حتى".

هزّ رأسه متفهّماً لما أقول، ثم همس لنفسه دون أن يكون ذلك سؤالاً: "لا تتذكّر كوابيسكَ... هذا غريب أيضاً!". ثم سألني من جديد: "هل كانت الصدمة الوحيدة، أو لنقل.. الأكثر تأثيراً، هي حادثة الجرعة الزائدة؟"

"نعم، إنها تقريباً صدمتي الوحيدة في الحياة. أتت على جزئين، أولهما: هو اقترابي من الموت، بل إنّني جرَّبتُ الموت حرفيّاً. أما ثانيها فهو خسارة تريز".

"حسناً.. سأطلب منكَ أمراً أخيراً. عليكَ إجراء تحليل دم سأدونه لكَ في مختبر ما،". نهض، ونهضتُ أنا فوراً. ثانياً: "لا أريدكَ أن تقلق بشأن ما تمرُّ خلاله الآن. إنّ قاطني البلدان المتطورة أكثر عرضة لما يحدث معكَ. نحن في زمن الحداثة، والنوم يعني تأخير في سباق الحياة. بل إنّ هناك من يبغض النوم ويتحداه، دون أن يدرك بأنه يقتل نفسه".

قهقهتُ وأنا أقول: "من تراه ذلك المعتوه الذي يتحدَّى الخلاص من الأرق من واقعنا القاسي؟! إنَّ النوم هو جرعة تسليم مؤقتة من الآلام". صافحني وقال بأنَّه يوافقني تماماً، ثم ظهر صفّ أسنانه البيضاء فجأة. "حتى لقائِنا التالي إذاً". خرجتُ وأنا أفكّر بأننا رغم عدم تحديد أية نقطة هامّة في هذا اللقاء، ورغم عدم الوصول إلى أية نتائج، إلا أنَّ هناك ثقلاً تلاشى مع اعترافي القصير بشأن تريز، ومواجهتي لشعوري بالذنب تجاهها.

57

قضيتُ نصف ساعات يومي التي يتخلّلها ضوء الشمس مع تشارلي، في المقهى الذي يملكه هو، كان اليوم مزدحماً؛ لذلك لم يشعرني بالإحباط تقديمه كوبَ قهوة لي، ومن ثم تركي وحيداً. كان يلقي عليّ بضع كلمات بين حينٍ وآخر، ثم يعود لينكبَّ على أعماله. أمّا أنا فمن دون إظهار ذلك، كنتُ منكباً على مناجاة أفكاري، والتحدُّث معها. حاولتُ جاهداً أن أشغُل نفسي في مراقبة تشارلي، وهو منشغل مع الفتى الذي يسانده، لكنه ترك ما في يده، وعاد دون أن يُبدي بأنه يقصدني، لكنه توقَّف أمامي ثم سألني فجأة:

"وهل تشعر بأنه سيستطيع تقديم العون؟"

رفعتُ رأسي، وأجبتُ بغتةً: "ستان؟ يبدو مُطَّلعاً جيداً وماهراً، أتمنَّى بالفعل أن يقدِّم لي المساعدة".

سحب تشارلي الكرسي الخشبي الطويل، والذي لم يكن له أذرع، ليجلس أمامي. "ما زلتُ حتى الآن لا أفهم، كيف يمكن أن تفقد النوم بهذه البساطة؟ لا بُدّ أن يكون هناك خلل ما، إمّا صحي، أو نفسي. لكل شيء سبب".

أجبتُ باستهزاء: "أجل هذا ما نحاول فهمه أنا وذلك الطبيب.. أو أخصائي النوم، أو أيّاً يكن لم أعد أهتمّ. أريد حقاً الخلاص من هذه المعاناة. لماذا على المرء أن يبقى حبيساً في حلقات المعاناة؟ وأن يرتمي في أخرى جديدة، كلما وجد مخرجاً؟ وكأنَّ الحلقات تخلّصكَ منها لترميكَ بواحدة أوسع، يكون إيجاد ثغرة المخرج الصغيرة فيها أكثر صعوبة".

أشاح تشارلي ببصره عني، وأجاب بثقة خالية من نبرة المواساة: "لأنَّ الحياة هكذا... هذه هي العبرة من الأمر، وإنْ لم يحدث هذا فما الهدف من وجودنا؟ بل كيف نكتسب مهاراة الحياة إن لم تكن بهذه الطريقة؟".

دفعتُ كوب القهوة الورقي بأطراف أصابعي، وأنا أقول بازدراء: "ألَا توجد طرق أخرى للتعلُّم، أكثر سِلماً من هذا؟ الأمر يصبح أكثر إرهاقاً يا تشارلي. إنّ والدتي تعتقد بأنني أعود للإدمان، والشكُّ في عينيها أمر لا يمكن تفاديه". أردفتُ بعد صمت قصير: "لا أعلم كيف عليّ أن أثبتَ لها خلاف ما تعتقده".

"إنها وظيفة الأمهات. سيزول شكُّها هذا مع الوقت. ثم إن مسألة الإدمان

هذه أمر لا يمكن إخفاؤه لو كنتُ قد عدتُ إليه فعلاً، لذلك دعها تكتشف الحقيقة مع مرور الوقت".

قلتُ: "أنتَ كذلك تحمل شكّاً في هذا الأمر تجاهي. لكنكَ على الأقل ستصدّق إنْ قلتُ لكَ بأنني لم أعد للإدمان، أمّا والدتي فلن يكفيها اختيار الكلمات الأكثر صدقاً، وأنا لا أملك مفاتيح الحقيقة لأهديها إيّاها". نهضتُ من مقعدي، وحملتُ كوب القهوة الورقي، وهو نصفُ ممتلئ. رفعتُه في الهواء، وبحثُ بكلمة شكر على القهوة المجانية. أوليتُ صديقي ظهري، وما أن اقتربتُ من المخرج حتى رميتُ الكوب في سلّة المهملات، وخرجتُ مُتّجهاً إلى سيارتي، والتي هي سيارة المنزل الصغير في الواقع.

قدتُ سيارتي عائداً إلى المنزل، وقبل أن أترجّل منها جلستُ طويلاً أراقب جدران المنزل الخارجية، والتردُّد ينذرني بأنني لستُ بكامل قوتي، والضعف سيفضح أموري لو رأتني والدتي. ما الذي عليّ فعله؟ انتظرتُ قرابة الخمس دقائق، قبل أن أستسلم في النهاية، وأسحب المفتاح لأدسّه في جيبي. دخلتُ المنزل، واتّجهت فوراً إلى غرفتي. نجحتُ في تفادي والدتي، إلى أن وصلتُ إلى هدفي. اقتحمتُ غرفتي، وأقفلتُ الباب، كما لو أنني تركتُ الكون كله خلف بابي. جلستُ على السرير، وأطلقتُ العنان لذكرياتي كلها. راح صوت تريز الدافئ ينطق بكلمات الحبّ في ذهني، كذلك تردّدت ضحكاتها وصورها. أنا أفتقدها أكثر من أية رغبة قد تظهر لدى أي إنسان آخر. كان شعوري بالإحباط لعدم وجودها يقتلني أكثر، ولكن بصمت مبهم عني أنا أيضاً. كان قلبي ينبض بشدة، ولو كان يستطيع النطق لأخبرَ الجميع بأنني أفتقد تريز التي كانت هي أقصى أحلامي في يوم ماً. لكن أنا من جلب هذا الدمار، وهذا الطريق هو طريقي، وعليَّ تحمُّل العواقب.

"إنه أنتَ، إنه أنتَ، إنه أنتَ". سمعتُ صوتاً ينادي بحماس، التفتُ إلى مصدر الصوت لأجد أنَّ الدمية الخشبية هي من أصدرت تلك الكلمات، كانت ما تزال كما وضعتها على الرف نصف مائلة. تجاهلتُها، وعدتُ إلى وضعيتي السابقة. فكرّرت الدمية: "سأجلب لكَ المساعدة". بلهجة غنائية، كما لو أنّها تقدّم عرضاً مسرحياً.

مددتُ قدميّ على موضع رأسي من السرير، بينما استقرّ رأسي في الموضع المعاكس. بدأ الواقع أمامي يختفي، ورحتُ أغفو وأنا ما أزال مرتدياً ثيابي

غير المريحة. استسلمتُ للنوم برحابة، وتركتُه يسرقني من الواقع أخيراً. لكنّ منامي لم يكن يرحّبُ بوجودي خلف أسوار النوم.

رأيتُ دمية روزالي جالسة، وقدماها مفرودتان على الأرض، لكنّها كانت بحجم إنسان بالغ. رأس الدمية كان يتحرّك في دورات كاملة حول الرقبة. رأس من دون ملامح، يواجه عينيّ، ومن ثم يتحرّك ليواجه على زوايا الحجرة. أصبحت حركة الرأس بطيئة فجأة، وكان يقاوم النظر باتجاهي، لكنّه أخيراً وكعقارب الساعة أصبح مقابلاً لي تماماً. لم يعد الرأس بلا ملامح، بل إنّ الوجه الخشبي البيضاوي أصبح يملك عيناً واحدة فقط في الجهة اليمنى. كان لتلك العين جفن بلاستيكي يرمش باستمرار، ورموش سوداء انتظمت في خطٍّ مستقيم. سقطت العين على الأرض، لكنّها لم تصطدم بالأرضية الخشبية، بل كانت تهوي في فراغ أسود. اكتشفتُ بأنّها استقرّت تحتي، لم يكن هناك سوى فضاء خالٍ. هويتُ خلف تلك العين فجأةً، فاستيقظت على صوتي وأنا أشهق.

غابت الشمس، واجتاح الظلام حجرتي. نهضتُ بتكاسل، ورحتُ أجرُّ خطواتي إلى دورة المياه. رأيتُ الذبول ينهش عينيّ أكثر. كان النوم يحذرني من الاقتراب منه؛ لأنني كلّما حاولتُ ذلك أجده أكثر صعوبة من الأرق ذاته.

مايزال حنيني لتريز مزروعاً في أحشائي، كما كان يتوهّج قبل خلودي إلى النوم. تذكرتُ الفتاة صاحبة الكتاب في المقهى، سريزا. يمكن لرؤيتها أن تخفّف عني هذا الشعور؛ لعلها تغدو تعويضاً مزيفاً وبعيداً لتريز. بلّلتُ جسدي تحت سيلان المياه، وخرجتُ مقاوماً برودة الهواء الخارجي. ارتديتُ ثيابي، وتوجّهتُ إلى المكان ذاته. تركتُ سيارتي بعيداً عن مدخل المكان، وسرتُ مسافة قصيرة وصولاً إلى المدخل.

اقتحمتُ المقهى، وطلبتُ قهوة؛ لأنني لم أعد راغباً بالاحتفاظ ببقايا النعاس، التي كانت تذكّرني بالنوم البعيد. وضعت النادلة المسنّة إبريق القهوة أمامي، وتركتني وحدي دون أيّ جدال، ودون قول أية كلمة. انتظرتُ طويلاً لكنّها لم تأتِ. تجاوز الوقت الساعة المطابقة لساعة وصولها في المرة السابقة، لكنّها ليست موجودة. وبّختُ نفسي على هذه الصبيانية، ونهضتُ تاركاً نقودي على الطاولة، وخرجتُ من المكان.

عندما عدتُ إلى المنزل، ظننتُ بأنني سأستطيع تفادي والدتي مرة أخرى،

لكنْ يبدو لي بأنّها توقّعت عودتي. رأيتُها جالسة، ثمّ أشرق وجهها لرؤيتي أقتحم المكان. سألتني عن مكاني. فأجبتُها مندفعاً: "هل عُدنا إلى هذا مرة أخرى. أنتِ لا تستطيعين الوثوق بي أبداً. هل سيتركُ الماضي أثره طويلاً في نفسكِ".

صرخت في وجهي: "نعم. أنا لا أثق بكَ، والماضي لا يمحو ندوبه. مَن مِنّا تخلّص من ماضيه؟ هذا ما فعلتَه أنتَ، أنا قلقة! إنه حقّي، وهو أمر طبيعي جداً عندما يتعلّق الأمر بأولادي، بعائلتي... هل تفهم؟"

حاولتُ أن أتمالك غضبي، رغم أنّ الإحباط كان يدفعني لفعل عكس ذلك، لكنني قلتُ بهدوء: "أمي... أعطني فقط مساحتي الخاصة، إنني أتخبَّط في الواقع الذي تركتُه، وأحاول إصلاح ما علق هنا من ذكريات ليس أكثر. هذا لا يعني بأنني عدتُ إلى الإدمان. فقط أعطني بعض المساحة".

أظهرت أمي بعض وداعتها: "حسناً.. حسناً، لكَ هذا. لكن أرجوك لا حمل لي بمواجهة خيبة جديدة".

همستُ: "لا داعي للقلق يا أمي". هذه المرة هي من تركتني أقف مشدوهاً في الردهة، بينما هي ارتقت السلم، ثم اختفت من أمامي فجأة. تلاشى غضبي الذي كاد أن يظهر في صوتي وفي ملامحي، وعاد إليّ السكون مرة أخرى. تسلقتُ السلم ببطء، إلى أن وصلتُ إلى حجرتي التي كانت تتحوّل إلى سجن، مرغمٌ أنا على المكوث فيه دون نيل أية فائدة منه، غير إحاطة نفسي بالعزلة المملة.

ما أن دخلتُ إلى غرفتي المظلمة، حتى صاحت الدمية بصوتٍ طفولي: "ها أنتَ ذا من جديد". التفتُ لأرى الدمية الجالسة على الرف، فكان وجهها البيضاوي الخالي من الملامح يراقب النافذة الخارجية لغرفتي.

58

حملتُ الدمية معي في نهار اليوم التالي، وسرتُ بها دون أن آبه لمن قد يراها بيدي. خرجتُ من المنزل، وقذفتُ بها في المقعد المجاور لي. كنتُ أشعر تجاهها بنفور بالغ يدفعني إلى حرقها، لكنّني لن أفعل ذلك. بل اكتفيتُ برميها في آخر حاوية قمامة موجودة في الحي الذي أقطن فيه. سمعتُ صوت أجزاء الدمية الخشبية ترتطم بحاجز الحاوية بجانبيه كليهما، ثم تهبط إلى القاع، مصدِرة صوتَ اصطدام مكتوم. شعرتُ ببعض الراحة؛ لتخلصي منها. أغلقتُ زجاج النافذة، واستأنفتُ القيادة متّجهاً إلى عيادة الطبيب ستان.

لا يمكن تجريد النوم من صف اللوازم الأساسية في حياة الإنسان؛ لأنه يعتبر محركاً حيوياً لحياة الإنسان كالطعام والماء. إنّه مصدر طاقة الذاكرة، والقوّتين العقلية والجسدية أيضاً. معظم البالغين يبدؤون بالاعتياد على النوم ست ساعات يومياً، ممّا يقلّل من قوة الحاجز المناعي، فيؤدي ذلك إلى خطورة الإصابة بزهايمر مبكّر، أو حتى أمراض السرطان. وبطريقة تكاملية، فإنَّ اضطراب الذهن يؤدي إلى ساعات نوم أقل، وساعات النوم القليلة تؤدي إلى اضطراب ذهني أقوى، ويجعلُ ذلك المرء عرضة للاكتئاب والقلق، كما يوَّلد هذا الأمر نزعة انتحارية إذا ما تطوَّر الأمر. كانت تلك كلها تحذيرات أطلقها على مسمعي الطبيب ستان، وكأنّني أنا من عرَّض نفسه للأرق.

"إنني أتفهّم ذلك يا سيد ستان، لكنني لا أجد الحل، وهذا هو أساس المشكلة".

ازدرد ريقه، وقال: "أعلم هذا جيداً، ولكنّ الخوف سيوّلد لديكَ رغبة في هجوم معاكس". تفهّمتُ جيداً النقطة التي يريد الوصول إليها هذا الطبيب، ولكنْ ما لم أتمكّن من فهمه هو آلية ذلك. "سيؤدي اختلال النوم أيضاً، إلى تداعي النظام الغذائي، ستجد شهيتكَ للأكل مفتوحة في أوقات قد لا تكون فيها جائعاً؛ لأنّ الجسم يفقد نسبة كبيرة من وزن الكتلة العضلية، وليس من الدهون.. ولتعويض ذلك ستجد نفسكَ جائعاً معظم الوقت".

نوم أقصر، حياة أقصر. بدأت كل تلك التهديدات تلقي بتأثيرها عليّ.

"لا أريدكَ أن تقلق يا ليو، إنَّ الأرق أصبح وباءً في بلدان صناعية كبلدنا هذا. في عصر السرعة يصعبُ إيجاد الهدوء. لستَ أنتَ الشخص الوحيد

المُعَرّض لهذا، لكنّكَ أقرب إلى الهدف لسبب لا يعلمه كلانا". صمت قبل أن يلقي بصاعقته عليّ: "أنتَ لستَ مميزاً في حالتكَ هذه؛ لأنّ هناك أشخاصاً يعانون من اختلاف جيني نادر، يؤدي بهم إلى فراغ الأرق، ويفقدون مع الوقت قدرتهم على النوم تماماً، ثم يبدؤون بفقدان الوظائف الأساسية للجسد، وفي نهاية الأمر.." لم يُكمِل. لكنني خمّنتُ جيداً أنَّ نهاية الأمر هو الموت، "وإنْ تفاديتَ الموت فستلقي بعقلكَ إلى الجنون... لكنّ ذلك يستغرق عاماً، أو أقلّ من عامين.. ثم ينتهي الأمر بأن يلقى المريض حتفه".

لقد أصبتُ في تخميني الأول.

"ليو إنَّ الإنسان لا ينام؛ لأنَّ ذلك فُرض عليه، أو لأنَّ جدار النعاس يلاقيكَ في نهاية الطريق. إنَّ النوم.. أشبه بتمرين صحيٍّ مفيد عليكَ القيام به، دون تجاوز الحد المطلوب أو الوقوف قبله. عليكَ أن تنام ما يكفيكَ تماماً؛ كي تستطيع الاستمرار في استغلال وظائف جسدكَ. ثم إنَّ عينيكَ بحاجة إلى الحفاظ على وجود الأكسجين فيهما، وتلكَ نظرية بسيطة جداً".

سألتُه: "لكنْ هل حقّاً أن قلة النوم بشكل شديد قد تسبِّب الهلوسات؟"

"أجل، هذا وارد جداً. إنَّ ابتعادكَ عن النوم يعني أنَّكَ تتفادى هذه الاستراتيجية التي تميز لكَ خيالكَ عن الواقع، وأحلامكَ عن أوهامكَ الحقيقية. قد تبدأ الهلوسات بسبب قلة النوم، ثمَّ تتداخل الأفكار مع الحقيقة". ذكّرني بعد صمت قصير: "أخبرتَني بأنَّكَ في الأيام الأخيرة عانيتَ من بعض الاضطرابات البسيطة، والتي لم يكن تأثيرها عليكَ كبيراً. أريد أنْ أنوّه إلى أنَّ النوم يخدم قدرتنا على التعلُّم، والتذكر.. كما أنّه يتدخّل في اتّخاذكَ لقرارتكَ. كما أنّ النوم يضبط انفعالات المرء. هذا على الصعيد الجسدي والذهني. أمّا نفسياً، ففي النوم والأحلام نجد خلاصاً من الأفكار السوداوية، ثم إنَّ الأحلام تفرز مواد كيميائية تربط بين إدراكنا للمستقبل والحذر منه، ومعرفة الماضي، وهذا يولّد حالة إبداعية". إنَّ كلامه يشعرني بالأسف؛ لأنني أفقدُ كل هذا تدريجياً.

أدركتُ أيضاً بأنّ حالتي إذا ما استمرَّت بشكل أطول، فإنني قد أعاني من اضطرابات في سكر وضغط الدم، بالإضافة إلى ما ذكره من اختلال في نظامي الغذائي. "تشير تحاليل دمكَ يا ليو، إلى ارتفاع طفيف في ضغط

الدم، ومن المفترض أن يسبُب لكَ النوم انخفاضاً في معدل ضربات القلب، ولكنْ يبدو أنّ الأيام الأخيرة لم تكن سهلة. القلب بحاجة إلى إجازة قصيرة يخفف فيها من ضغط عمله".

المضحك فيما يخصّ هذا هو أنّ النوم يقاوم الموت، رغم أنّه يسلبكَ من الواقع. الموت رحيل، والنوم غياب، وفي كلا الحالتين، أنتَ لا تكون على أرض الواقع.

لكن الطبيب ستان شرح لي: "النوم يعطيكَ أياماً إضافية مع محفزات إبداعية أكثر. هذا هو المقصود من أنه يقاوم الموت، والأمراض المسببة له". لم يترك لي مجالاً للتفكير فيما قاله قبل أن يباغتني بسؤاله: "هل تقود سيارتكَ كثيراً؟"

أجبت باقتضاب: "لا".

"قيادة السيارة تسبّب النعاس أحياناً، ولكن هذا لا يعني أن تقودها وأنتَ في حال مزرية قد تتسبّب لكَ بالغياب عن الواقع في أيّة لحظة، نحن لا نريد أن ينتهي الأمر بحادث مأساوي يا ليو. لكن قبل عودتكَ إلى المنزل، جرِّب أنْ تطيل وقت قيادتكَ للسيارة". أخبرتُه بأنني سأجرِّب ذلك، رغم أنني كنتُ أشكُّ في فاعلية هذا.

انتهى لقاؤنا في الوقت المنسب، قبل إصابتي بالملل؛ لكثرة ما أخبرني بأشياء مخيفة، كان فهمها عصيًّا عليّ. تركتُ عيادة الطبيب غرادي ستان، وعدتُ إلى سيارتي. عندما عدتُ إلى المنزل أرسل تشارلي رسالة قصيرة يخبرني فيها بأنه سيأتي للقائي في المنزل. لم يكن لزيارته أيّ سبب هامٍّ، إنما أصبحت لقاءاتنا تزداد بطريقة مفاجئة، لكنها كانت مفيدة في تخليصي من الشعور بالقلق.

عندما ركنتُ السيارة، لمحتُ والدتي في الحديقة تجلس مع تشارلي الذي سبقني بالوصول إلى المنزل، تركتُ سيارتي أمام المرآب وتوجَّهتُ إليهما. نهضت والدتي، ورحَّبت بي مبتسمة، ثم قال: "سأترككما هنا، إذا ما احتجتُما أي شيء ففريد وبول سيكونان هنا". شكرت تشارلي قبل أن تبتعد.

"هيا اعترفْ، ما الذي كانت أمي تلقِّنكَ إياه؟".

ضحك تشارلي ضحكة صاخبة لم تترك الحديقة المفتوحة مجالاً لعودة صداها. "إنها مسرورة لعودة صداقتنا، وهي قلقة عليكَ". تنهَّدتُ فجأة، وأشحتُ بوجهي بعيداً. "إنها بالفعل قلقة يا ليو. لا يمكنكَ لوم والدتكَ؛ لأنها قلقة على ابنها".

قلتُ: "لا ألومها، لكنّها تبالغ".

أجابني: "هي لا تبالغ. أنتَ لستَ على ما يرام، لكنكَ تواسي نفسكَ في كونها لا تعلم الحقيقة. إنَّ كونها لا تعلم حقيقة ما يجري معكَ لا يعطيكَ الحق في أن تُكذّب أفكارها، أو أن تشككها في صحة ما تشعر به. وما تظنّه والدتكَ حقيقياً. أنتَ لستَ على ما يرام، لكنكَ تتفادى الاعتراف بذلك، لكيلا تشعر هي بالقلق".

قلتُ بانفعال لم أكن أقصد به أن أهاجم رأيه: "ما أكترث له حقّاً هو شعورها، لا أريدها أن تقلق!".

"لماذا كل هذا الغضب؟ إن كان ما تقوله هو الحقيقة فأنتَ لن تحتاج إلى أن تغضب؛ لأن الحقيقة تبقى على ماهي عليه مهما اختلف صوت ما نقوله. لكنكَ أنتَ تدرك بأنها ليست كذلك؛ وهذا لأنكَ أناني لا تكترث إلا بما تشعر به، وما أنتَ خلاله. أنتَ تريد أن تستعيد الثقة التي كانت موجودة قبل أعوام، والتي فقدتَها الآن، لكنكَ لستَ مكترثاً بمن حقاً يهتمّ لأمرك. تبتعد وقتما تشاء، ثم تعود لأنكَ أنتَ من يريد ذلك. تخفي الحقيقة عن والدتكَ؛ لأنكَ تعلم بأنها لا تستطيع المساعدة، ولو كان خلاصكَ بيدها سيأتي مع قلقها، لكنتَ قد بحتَ بما تشعر به الآن، لكنكَ أناني، ولن تشغل بالك أوتهدر طاقتكَ إلا مع من يستطيع تخليصكَ، وليس مع من يكترث لأمرك. يمكنكَ الهروب من مواجهة حقيقة ما تفعله، ولكنْ تذكّر بأنكَ لستَ القصة الوحيدة في هذا العالم، ولستَ محور حياة كل من حولكَ، فإذا كانت والدتكَ مهتمة؛ فهذا لأنّه لم يعد لديها سواك، لكن تذكّر بأنه سيأتي وقت، لن تجد فيه من يمكنه أن يستمع إليكَ بينما أنت تشكي له همّكَ".

هذه حقيقة... ولم أجد كلمات أحمي بها نفسي.

59

لكل شخص جانب أناني يظهر عند عبور مرحلة ما في حياته. في هذا الجزء يصبح هو الطموح الوحيد لنفسكَ، وبناء ذاتك هو العامل الذي يثبت الماضي، ويدفعكَ إلى الخوض في المستقبل. وبالرغم من أننا مترابطون مع الآخرين، لكننا ندعي بأننا ملك لأنفسنا معززين فكرة الأنانية، التي لا ينفيها حتى ارتباطنا مع الآخرين. هذا يؤكّد فكرة اختلاف معنى الآراء والرغبات أيضاً. أنا عشتُ الأجزاء القليلة الأخيرة من حياتي وأنا أعزز لنفسي حجم ثغر الهروب من الحياة، بدليل أنني لم أترك للذكريات أثراً إلا في دماغي، وهذا جعلها أقوى وأكثر اندفاعاً. لم يعد للأحزان أي أثر على أوراقي، ولا على جدران المنزل، إنما صور وأصوات تتردد كسيمفونية حزينة في ذهني، والمؤسف في الأمر أنّ سواي لا يستطيع سماع ما يتردد في أذني من كلمات، كانت هذه عزلتي، وهذه وحدتي وكلاهما يحجبان نور العالم، ويجعلان الأرض أكثر عتمة. أنا فقدتُ الاتجاهات منذ وقت طويل، وخريطة القرارات التي أحملها لم تعد ترسم سبل الخلاص أمامي، وكل ما أراه هو لمحات رعب الماضي، وأوهامٌ غريبة تتسلّل إليّ.

هناك موت.. رحيل، وعزلة. أنا وهي تحت شعاع أحمر يمتزج بضوء الشمس التي كانت تنطفئ فيصبح لونها برتقالياً، وكأنّ النيران قد اشتعلت خلف ستار السماء. كانت المنارة تضيء، بينما أنا أراقبها على بعد جزء مرتفع من الأرض. يصل ضوءها الأصفر إلى الغيوم القاتمة، فيشكل شرخاً بلون الجمر، لكنه لا يكسر عتمة الأرض. أجري هبوطاً باتجاه المنارة، حيث كان البحر يعانق الأرض، ويكاد يتّحد مع قساوتها.

رأيتُها تجري باتجاه المنارة، ولشفتيها لون حبوب الرمان، ويسيل من عينيها دمع لامع غريب، لكنها تبتسم. كان لذلك الحلم وقع سريالي في ذكرياتي؛ لأن تريز كانت تشبه رسمة خطَّها هاوٍ مجنون. اقتحمت المنارة القديمة دافعة الباب الثقيل الصدئ. كان للعالم موسيقى تشبه ما يعزفه موزارت، لكنها غير مسموعة.. أدرك وجودها؛ لأنني أشعر بها، ولأن هذا منامي، ويمكنني أن أشعر بكل زوايا هذا المشهد دون أن أراها، طالما عقلي يرسمها كلها. تركت تريز باب المنارة مفتوحاً، وتحرّكت كأنّ الهواء يحملها معه إلى الداخل. دخلت فأصبح للعالم لون رمادي شتوي خانق. راحت تتسلق السلم الحلزوني المؤدي

إلى قمّة المنارة، فتحوَّلت الرؤية إلى مشهد ضبابي، يشبه ما كُنّا نشعر به حين ننتشي بفعل المخدر. لم تكن تضحك لكنّها كانت تبتسم بود. تبعتها على السلم الحديدي، فأصدر أصواتاً غريبة كأنما هو آيل للتداعي. راح يهتم مما جعلني أتشبّث بخوف بالدرابزين الحديدي المُتَّسخ. أصبحت تريز بعيدة جداً عني؛ لأنها وصلت إلى قمة المنارة المضيئة بلون أصفر بفعل ذلك الكشّاف الذي يخترق السماء.

"سأسقط انتظريني". لم أكن مندهشاً لرؤيتها، كأنني توقَّعت ذلك.

سمعتُها تضحك قبل أن تقول: "لن تسقط... هيا".

"لكنكَ أسرع مني". أفلتُ الدرابزين، وتجاهلتُ اهتزاز العتبات الحديدية، وصعدتُ جرياً حتى قمة المنارة. فاجأني أنَّ النور الذهبي قد تلاشى، وتريز لم تعد موجودة؛ لأنَّ هذا ما تفعله الأحلام ببساطة، ترسم لنا صور الحنين، لكنّها لا تقربكَ منها، فقط تترك لكَ ما يلوّث الواقع حين تستيقظ. رأيتُ شكل البحر، فوجدتُ المياه سوداء هائجة، والأمواج غاضبة تريد أن تتسلَّق الأرض اليابسة. أما الغيوم فكانت كدخان الحرائق مزيجاً ما بين الأسود، والرمادي الداكن، والأحمر. كانت الغيوم تقترب من الأرض، حتى إنَّ السماء بدت مُتَّحدة مع اليابسة. جالت عيناي في الحيز الصغير لسطح المنارة، لكنني لم أجد تريز. سرتُ إلى طرف المنارة، وتمسّكتُ بالحاجز الحديدي، وبحثتُ عنها في الأسفل. كانت تسير باتجاه البحر، ثم ومن دون تردُّد قفزت إلى هناك.

استيقظتُ برفق، لكنني أشعر بنبضات قلبي قوية.

***

"من الطبيعي جداً أن تتدخل اضطرابات الواقع في تشكيل مناماتكَ فتظهرها على شكل كوابيس. حتى من يحظى بساعات نوم كافية، يعاني من انعكاس للقلق الذي يعانيه، وإن كان ذلك لأوقات قصيرة أثناء يومه؛ لأنَّ هذا يعتبر متنفَّساً أيضاً كالتعبير عن الغضب، أو كممارسة الرياضة لتفريغ شعور معين". أخبرني الطبيب ستان بذلك، عندما شرحتُ له معاناتي مع الكوابيس في الأيام الأخيرة.

"لكنني أمارس الرياضة". أجبتُه.

"أنتَ تملأ بذلك وقت الفراغ، جرِّب التنويع من خلال ممارسة رياضات مختلفة". لم يخطر ذلك في بالي، ولكنني أعتقد بأنّ التنويع قد يجدي نفعاً. لم أكن من هواة الرياضة سابقاً، لكنني أجد بأن الجري شبه اليومي قد بدأ برسم اختلاف في شكل عضلات جسدي، ورغم أنني ما زلتُ في البداية إلّا أنّ النتائج كانت جيدة، لولا أنّ الأرق كان يتحدّى هذه الفوائد.

"ليو، هناك أمر غريب في تحاليلك". ساد الصمت ليرى مدى فضولي تجاه ما قاله. "نحن نستطيع خداع النوم، وخداع فارق التوقيت، إنّها حيلة نجريها على أدمغتنا، تحتاج إلى بعض الحسابات البسيطة، لكننا في حالتكَ تجاوزنا هذا الأمر، ولم يعد فارق التوقيت هامّاً. لقد طلبتُ منكَ أن تعيد تحليل الدم، مع الامتناع عن تناول الكافيئن خلال الأيام القليلة الماضية. من المفترض أن يبدأ إفراز الأدينوزين في جسمكَ، منذ لحظة استيقاظكَ، ثم يقوم جسمكَ بالتخلُّص منه أثناء النوم؛ لأنّ هذه المادة هي ما يعتبرها الجسد محفِّزاً على النوم، ووفقاً لساعتكَ البيولوجية كلّما اقترب موعد نومكَ، كلما وجدتُ أنّ تراكم الأدينوزين قد بلغ حدّه ليومكَ هذا. يعمل الكافيين على حجب المستقبلات التي تُفعِّل تأثير هذه المادة عليكَ، لذلك كان عليكَ الامتناع عنه للأيام الماضية. حاولتُ معرفة مدى احتفاظ جسمكَ بهذه المادة، وتراكمها فيه في حالة الأرق. في الحالات السابقة أجد أنّ هناك اختلالاً في نظام تجميع الأدينوزين، وأجد أن بعض الأشخاص لا يملكون في جسمهم ما يكفي من تلك المادة للوصول إلى الرغبة في النوم، لذلك يبقون مستيقظين. نعطيهم عادة أدوية بديلة تعمل بآلية إرسال مؤشر شبيه بالأدينوزين ونطلب منهم الامتناع عن تناول القهوة، وحتى تلك الخالية من الكافيين؛ لأنها تحتوي على مقدار ضئيل منه. الغريب هو أنه في حالتكَ أنتَ، وحسب مواقيت يومكَ كما ذكرتها لي، إنَّ إفراز الأدنيوزين يتراكم بشكل منتظم، وينبغي أن يحمل الجسم إمارات النوم في نهاية يومكَ!".

"لم أفهم! هل هذا أمر خطير؟ هل القهوة هي السبب؟"

"لا". أحنى رأسه ثم شرح لي. "ليست القهوة هي ما يفعل ذلك، لأن تأثير الكافيين، يختلف من جسد لآخر. لكنه يرسل مؤشراً للجسد بأنّه واعٍ، رغم تراكم الأدينوزين فيه رغم أنَّ هذه المادة تسبب تراخٍ بطيء جداً في وظائف جسدكَ وتسبب النعاس، فيصبح جسدك في تحدٍ مع نفسه. لكن في حالتكَ

أنتَ تبدو مؤشرات هذه المادة طبيعية جداً. إنَّ جسدكَ يحتوي على ما يكفي منها، وإلى أنْ يحلَّ الليل سيفرز جسمكَ منها ما يكفيكَ كي تشعر بالنعاس الطبيعي، وتنام حوالي ثمانيَ ساعات متواصلة أو أقل قليلاً. رغم ذلكَ أنتَ لا تنام... وهذا غريب!".

تردّدتُ قبل أنْ أسأله: "هل سنحتاج إلى تناول أدوية تعزّز مفعول هذا الـ.." قاطعني، وكنتُ قلقاً من سماع الإجابة:

"أخشى أنّه من الصعب اللّجوء إلى الأدوية، وفي جسدكَ ما يكفي من الأدينوزين. سيأتي هذا بتأثير سلبي عليكَ، لستُ متأكداً من نتائجه، لكنّني أخشى المغامرة".

"ما الحل إذاً؟" فقدتُ الأمر فجأة.

"اللجوء إلى الحلول العادية، مارس الرياضة، اشغُلْ نفسكَ في نشاطات تجهدكَ حتى تصل إلى رغبتكَ في النوم. وليس أمامنا إلّا الانتظار". الانتظار إلى متى؟ لم يَعُد ترقُّب مرور الوقت يأتي بنتائج، وليس لديّ ما يكفي لكي أترقَّب مضيَ ما أنا فيه، فطاقتي تتلاشى.

ما تبقّى من موعدي مع الطبيب ستان، لم يأتِ بنتائج تُذكر، بل كان نقاشي معه مدعاةً للقلق، وأدركتُ بطريقة ابتكرتها نفسي، بأنني أهوي دون إيجاد حلّ ما. أنا أخسر الأوهام، وبذلك سأبقى مرمياً في الواقع.

قضيتُ ما تبقّى من يومي، أفكّر في أشياء مختلفة: تشارلي الغاضب، أمي القلقة، كوابيسي التي تتحدّى النوم، والوقت الفائض الذي لا يمضي. الوقت لا يباع، أو لعلي أستطيع التبرع بالفائض من وقتي لمن هو بحاجة إليه. يجري الناس خلف الساعات القليلة في اليوم الواحد، بينما أن أحاول الهروب منها متفادياً حقيقة التقدُّم مع سفينة العمر إلى الأمام، وأنَّ ما أهربُ منه ليس إلّا وقتاً من حياتي، سينتهي دون جدوى أذكرها بعد أن يفوتني قطار هذه الدنيا.

60

ما الذي يحجب تداخل الواقع بالحقيقة؟ أتكون تلك لحظة تصديق، تبعدنا عن رفاهية المتعة في أوهام يصنعُها لنا باطننا؛ لتخفيف وطأة جفاف الواقع. لكنْ عندما يتحوّل الواقع الباهت إلى انعكاس لأوهام مخيفة، يصبح الإنسان على شفّة حفرة من الجنون؛ لأنّه وببساطة خسر كل الملاجئ في حياته. في تلك اللحظة يبدأ المرء في البحث عن خلاص عبر مشاعر وهمية، وأشخاص مزيفين، أو عن أفكار يحيكها لنفسه، ويتسلّى بها، إلى أن يبتلعه الخيال دون عودة، أو يتلاشى عبر زحام الواقع الصاخب، حتى لا يبقى له صوت مسموع. هذا أحد وجوه الحياة التي نراها بعد أن تتقدّم أيامنا نحو الإدراك. تتلاشى سذاجة الماضي، وتصبح رؤية ندوب أحلام المستقبل أكثر وضوحاً، لذلك تبهتُ أحلامنا كلّما اقتربنا منه، ويصبح الخوف من تجاوز الحدّ والوصول إلى الفرح كابوساً إن لم نتجاوزه؛ فكسر الخيبات لن يزول؛ هذا ببساطة لأن خيبات الأحلام أصعب من خيبات أشخاص يمكن تعويضهم في تكرار القصص مع أشخاص آخرين مختلفين.

سرقني الإرهاق لفترة دامت أكثر من ساعتين بقليل، وكنتُ محظوظاً؛ لأنه لم يُعكِّر نومي القصير سوى كابوس مُرعب، لا أستطيع تذكُّره، لكنّني أسمع أصواته في ذهني. نهضتُ في الليل، وأنا ألوم نفسي؛ لأنني لم أُخَزّن هذا الإرهاق حتى موعد نومي الأساسي، فأحظى بنوم أطول. نهضتُ من سريري فهبطت قدمي على جسم غريب، انغرست أطرافه في جلدي دون أن تسبب أي جرح. لم أتمكن من رؤية ما كان تحت قدمي بسبب الظلام. أشعلتُ المصباح الجانبي لرأسي، ثم أبعدتُ قدمي؛ لأرى ما الذي كان أسفل منها. أصابني الجمود لما رأيتُه. دفعتُ الجسم الخشبي الصغير بقدمي حتى اصطدم بالحائط. راقبتُه وهو يتحرّك بخفة، ثم يهبط على أرضية غرفتي. كانت دمية روزالي هنا من جديد بعد أنْ رميتُها في حاوية القمامة بنفسي. فكّرتُ في حملها، والخروج بها؛ لأسأل عن سبب وجودها، لكن من سيفهم ما أعنيه؟

أصدرت الدمية الصوت المُسجَّل في قلبها: "ها أنتَ ذا من جديد". كانت تبدو وكأنها تخاطبني. حملتُها بغضب، واتّجهتُ بها إلى نافذة غرفتي. فتحتُها فسرت موجة باردة إلى الداخل. رميتُ الدمية بعيداً في قلب الحديقة، وأغلقتُ النافذة خلفها. انعكست على الزجاج نقاط ضوء متفرّقة كان سببها مصابيح

الحديقة، وكذلك انعكس نصف وجهي على الزجاج، بينما النصف الآخر كان مختفياً خاف لون أسود لم يصل إليه النور بعد.

كان انفراج العين الواحدة المنعكسة على الزجاج واضحاً، والسواد المرسوم تحت جفنيّ كان يزداد مُنبئاً الآخرين بإرهاقي وبتعبي. تجاهلتُ صورتي الهزيلة، واستدرتُ مُتَّجهاً إلى خزانة ثيابي. ارتديتُ ملابس أثقل مما كنتُ معتاداً على ارتدائه، وخرجت من المنزل دون أن أُحدِّد وجهتي التالية. كنتُ ما زلتُ على ظهر موجهة الهروب التي تحملني، وتلطم جسدي بجدران فارغة لا وجود لها إلا في عالمي أنا.

متى سينتهي هذا؟ هل الموت هو نهاية الأمر؟ وإن كان نهايته فهل سيكون بطيئاً بُطء معاناتي الآن؟ ضربتُ بيدي المقود المغطى بالجلد بخفّة. انعطفتُ فجأة فتحرَّك جسدي مع ميلان السيارة. اتَّجهت إلى المقهى ذاته الذي رأيتُ فيه سريزا، ولم يكن هدف ذهابي إلى هناك هو رؤيتها هذه المرة. ركنتُ سيارتي بالقرب من الباب؛ لأتفادى السير مسافة طويلة تحت السماء الباردة. اقتحمتُ المكان الخالي، وجلستُ في ذات الطاولة المنعزلة. استقبلتني النادلة عند طرف الطاولة، وقلمها بيدها يترقَّب الهبوط على الورقة الصغيرة الموجودة في يدها الأخرى.

قلتُ: "سأكتفي بالماء".

"فقط ماء!!". كان صوتها حادّاً يعرب عن الدهشة أو الاستصغار.

"سأطلب عصيراً، أيّ عصير.. ليكُن برتقالاً". زمّت شفتيها متظاهرة بعدم المبالاة. دوَّنَت ما قلتُ على ورقتها الصغيرة، واستدارت عائدة إلى المطبخ المكشوف. أحطتُ رأسي بيديَّ المعقودتين، وتركتُ وجهي يغوص في الظلام العابق برائحة ثيابي المغسولة حديثاً. غاص وجهي أكثر في الظلام، وكأنني أهبط في بئر أسود تشوبه حزمة من ضوء المصابيح البيضاء التي تنير المطعم.

كانت تريز تستقبلني في نهاية البئر الذي شكَّلتُه حول وجهي بذراعي. كان فمها مفتوحاً يظهر صفَّ أسنانها، أمّا ما تبقّى من وجهها فقد كان خالياً من الملامح –وتحديداً- عينيها.. لم تكونا موجودتين، وكأنَّ أحدهم قد رسمها بقلم رصاص، ثم قام بمحوها تاركاً أثراً رمادياً باهتاً مكان عينيها. كانت تصرخ في وجهي، ولكنْ من دون صوت. كان فمها يتَّسع أكثر، وأسنانها تختفي،

وشفتاها تتجعدان شيئاً فشيئاً. تعلّقت على شفتيها المنكمشتين ذراعان خرجتا من حنجرتها، كان هناك من يتسلّق جوفها راغباً بالخروج من فمها. الذراع الخشبية كان ذراع دمية روزالي. كانت تقاوم الجاذبية للخروج من أحشاء تريز. ظهر رأس الدمية فجأة، وفي وجهها الخشبي عين واحدة تراقبني بجمود.

استيقظتُ فجأة، فرأيت لعابي قد شكّلَ بقعةً صغيرة على معطفي الرمادي. ما أن رفعتُ رأسي، حتى رأيتُ خلف ضباب النعاس طيفاً أنثوياً يراقبني عند الطرف الثاني من الطاولة. إنها هي سريزا. انكمشتُ حول نفسي، وحاولتُ أن أخفي بقع اللعاب الصغيرة عن كم معطفي. التفتُ فوجدت عصير البرتقال بجواري على الطاولة.

"هل كان كابوساً؟"

لم أكن متأكداً إنْ كانت تخاطبني أنا، أم أنّها تسعى إلى أمر آخر. كان وجهها جديّاً أكثر مما يتطلّب الأمر. قلتُ لها: "نوعاً ما". تردَّدتُ لكنني اعترفتُ: "أعاني من هذا في الأيام الأخيرة". أشحتُ ببصري عنها، وجذبتُ كوب العصير إليّ.

"هذا واضح، عيناكَ تبوحان بالأمر". دعت نفسها إلى الجلوس، وجلست أمامي. لم يكن هناك سوانا في المطعم. وضعت كتابها أمامها، ورفعت عينيها من جديد؛ لتراقبني بحذر. "أنا أعاني من الأمر ذاته في الواقع. يمكنني أن ألتمس معاناتكَ أكثر. ثم أنكَ كنتَ تتنهد أثناء نومكَ، هل الأمر بهذا السوء بالنسبة لكَ؟"

"بل أكثر مما يمكن تصوره". أردتُ تفادي كشف همي لها، وما أحمله من سواد في جوفي. "أنا ليو، وأنتِ سريزا حسبما سمعتُ النادلة تنادكِ". هزّت رأسها إيجاباً، ولعقت شفتيها بحركة سريعة. كان التوتر بادياً عليها، كان ظهرها يرتخي، وقد حاولت أن تعيد إليه استقامته، لكنه عاد للتراخي.

"هذا صحيح أنا سريزا. أراكَ هنا للمرة الثانية يا ليو، وفي الواقع أنتَ تجلس على طاولتي المفضلة".

"لا أعتقد بأنَّ الطاولات المُفضَّلة في الأماكن العامة تبقى منتظرة أصاحبها أو من يحبها، إنها متاحة لمن يصل أولاً، ولكن إن كان هذا سبب جلوسكِ هنا، فأنا أتنازل عنها".

عقدت يديها هي الأخرى وبدتْ كمن يشعر بالبرد، لكن جمودها لم يهتز: "لستُ هنا؛ لأنني راغبة في الحصول على طاولتي، لكنني أعاني من الأرق مثلكَ تماماً، وأحاول تخطي الأمر". كان لصوتها وقع سحري غريب يشبه موسيقى أحلامي المخيفة وغير المسموعة، تلك التي أشعر بها فقط. "أعرف مكاناً يمكنه تقديم المساعدة لكَ، كما أنهم يحاولون تقديم المساعدة لي وللأعضاء يا.. ليو". ردَّدت اسمي وهي غير متأكِّدة منه، فكان له وقع لاذع.

"مكان..؟"

هزّت رأسها حماساً، وتنازلت عن جمودها أخيراً. "مجتمع سريٌّ صغير، يمكنه الاستماع إليكَ، ولكل قصصكَ المفهومة وغير المفهومة، تلك التي لها معنى، والتي ليس لوجودها هدف. هم أشخاص مثلي ومثلكَ يعانون من هروب النوم عنهم. إنني أتقدَّم بفضلهم، وأهزم معاناتي مع النوم".

أية مفاجأة جاءت بكِ يا سريزا؟ ما الذي تنتظرينه خلف هذا الوجه المميز؟

"أعلم أنَّ ما أقوله غريب، وأنا قبلكَ لم أكن عرضة للتصديق، ولكنني قابلتُهم، ورغم وجودي معهم لمرات قليلة، إلا أنَّ اكتشافهم يبعث على الاطمئنان، وهاهو النوم يعود تدريجياً إلى حياتي. لم يكن الاختلاف كبيراً، لكنني أتقدّم".

سألتُها بغتةً: "ما هو هذا المكان". كنتُ أتحدّث كمن يرجوها أن تعطيه الدواء، كانت لهفتي تشبه تماماً رغبتي في الوصول إلى المخدر حين كنتُ أتعاطاه.

"نادي الأرق"

الكتاب الثاني

نادي الأرق

1

ترى كاميلا كوابيسَ تمنعها من النوم كما كانت تفعل في السابق. عادةً ما ترى أجساداً مشوَّهة، وجثثاً متعفِّنة تنهض، وتسير لتلقي بنفسها في بئرٍ محاط بأرض فقدتْ خضارها، ومات العشب عليها، لكن ذلك البئر، كان كفوّهة تنشر الظلام على العالم، وهي تتخيَّله كعين الشر التي تراقب العالم من الأسفل. تكرّر هذا المنام، ولكن سير الجثث إلى تلك الفوهة لم يكُن يتكرّر، بل كان يبدو عشوائياً في كل مرة ترى ذلك المنام فيه. أما في المرات التي تزورها كوابيس أخرى، فلقد كانت تشعر بأنها في أفضل درجات السوء مما هي عليه فيما يتعلّق بالنوم، الأرق. لم تكن تلك المرأة تعاني من أية صدمات تسبب لها هذه الكوابيس طوال السنوات الماضية من حياتها، بل إنّ الخلل الوحيد، هو ما أصاب حياتها من داءٍ بطيء، بدأت أيامها تتشربه.. وهو الملل. كان هذا العامل يحطِّم حياة كاميلا ببرود، ويجعلها عرضةً للأفكار البعيدة، والتي لا تشبه ما يعيشه الآخرون حولها، أو هذا ما كانت تراه هي؛ لأنها لم تكن معتادة على مراقبة حياة الآخرين. في كل مرة كانت تبتعد فيها عن المنزل، بينما هي جالسة في المقعد الخلفي لسيارتهم، كانت تشعر بأنها تودع منزلها الكبير، وتظلّ تراقبه أحياناً، حتى يتحوّل إلى ظلال سوداء أمام شعاع الشمس. كانت تفكر بأنها هاربة دون عودة، وبأنّها لا ترغب في العودة، وعندما تكرَّر هذا المشهد، قررت أن تخطَّ رسالة تبلغ فيها زوجها وابنتها بأنها سئمت من كل شيء، وبأنها تحتاج إلى الغياب حيث لا تعلم هي. لكنها لا تقوى على ذلك، وتتفاجأ بشعور الخيبة الممزوجة بالطمأنينة عندما تعود في نهاية اليوم. وكأنّ أحدهم يشير إليها، ويقول هاهي مرة أخرى، قد عادت إلى هذا المكان. تبرر كاميلا ذلك بأنّها لا تقوى على ترك عائلتها والمضي بعيداً عنهم، إلى حياة شارفت على الوصول إلى المرحلة الفارغة الأخيرة. لم تكن عنصراً فعّالاً في محيطها، ولن تكون كذلك وهي بعيدة، على الأقل هي هنا زوجة وأم لابنة منشغلة وبعيدة عن كيان الأم الذي تعيشه كاميلا. كل تلك الأفكار تلاشت فجأة، ولم يتبقَّ أمام كاميلا، سوى ما تعيشه من دوامة الكوابيس، التي تجعلها

تستيقظ في منتصف الليل، دون تفسير تاركة صوراً خيالية لها، انتهت مع رحيل نومها القصير. رغم أنَّ كاميلا تعيش جزءاً من حياة زوجها المزدحمة بسبب منصبه، إلا أنّها أصبحت تشعر بفراغ مفاجئ كان يسلب الألوان القليلة جداً في حياتها. كانت تدرك بأنّها تتقدّم كتلك الجثث التي تراها في كوابيسها نحو فجوة الظلام التي ترسلها إلى الموت في نهاية الأمر. لم تكن كاميلا خائفة من الموت بقدر ما تخاف من ملل، وركود الحياة كما يحدث الآن معها. تتصوّر كاميلا، بأنَّ هناك من يتعمَّد الوقوف خلف أحلامها؛ ليشوِّه ما تراه، فيحرمها من لذة النوم التي كانت تعتبرها تعجيلاً للوقت، فقد أحبَّت كاميلا فكرة أن تغمض عينيها، فتمضي ثماني ساعات دون أن تشعر بملل الوقت وطوله. وفي يوم الجمعة كانت تستعد لحفل خيري سيقام في حديقة منزلها الكبيرة، إنّها معتادة على مناسبات كتلك. كانت تدرك بأنها وصلت مع الأرق إلى مرحلة لا يمكن تفادي وضوحها أسفل عينيها. لكن ليلة الجمعة حين نامت، أو حاولت فعل ذلك، رأت في منامها جسداً غريباً مغطى بكيس بلاسيتيكي شفاف، يحاول الخروج من هذا القيد والتخلص منه. اكتسى الجسد بلون الطحالب، والملامح كانت قد تآكلت، لكنه استطاع النهوض والسير في حديقة منزلها متّجهاً إليها. استيقظت بهدوء، دون أن تنشر قلقها في المحيط الصغير الذي يضمُّها هي وزوجها. راقبت كاميلا زوجها فوجدتُه نائماً بهدوء، وحسدته على ما يصنعه من حاجز يمنع خلاله مشاعره من استشفاف مشاعرها المخيفة.

نهضت وغطَّت جسدها بقميص النوم الأبيض الطويل، وخرجت من الغرفة متّجهة إلى المطبخ. كانت تكسر نومها مرات عديدة، وتستيقظ كما لو أنّها كانت في سباق طويل؛ بسبب ما تشعر به من عطش وإنهاك. كانت تسمع صوت إقاع موسيقي خافت في آخر الممر المؤدي إلى الجانب الآخر من المنزل. تفادت السلم، واتجهت إلى غرفة ابنتها. طرقت الباب مرتين، وعندما لم يجبها أحد دفعتُه برفق. التفتت ليديا، التي كانت تجلس محتضنة طبقاً سيراميكياً أبيض، وتراقب شاشة حاسوب محمول موضوع على فراشها.

تذمّرت الفتاة: "أمي، كان بإمكانكِ الطرق على الباب". في الماضي كانت كاميلا متساهلة مع الأشخاص في حياتها، ويصبح مفهوم التساهل مضاعفاً مع أسرتها، لكنها الآن بعد أن تسبب لها الملل بتوضيح الأفكار، أصبحت لا تطيق هذه المعاملة الجافة من ابنتها وزوجها، وتودُّ لو أنها تخبرهم بأنهم

ممنونون لها؛ لأنها لن تتخلى عنهم.

"عندما يمكنكَ السماع جيداً، من دون أن تشوِّش ذهنكِ هذه الموسيقى ستدركين أنني طرقتُ الباب. أظهري بعض التقدير للآخرين في المنزل". هزَّت ليديا رأسها قبل أن توقف الموسيقى. "ثم إنني نهيتُكِ عن تناول الطعام خارج المطبخ، غداً ستجدين النمل يحتشد حول بقايا الطعام على فراشكِ".

أظهرت ليديا علامة اشمئزاز، وهي تتخيّل الأمر. "سأتأكد من تنظيفه". صمتت وراقبت والدتها مترقِّبة رحيلها. عندما أدركت كاميلا ذلك، خرجت وأغلقت الباب خلفها.

في المطبخ كانت كاميلا تجلس محتضنة كوب الماء بكفيها، وتسترجع صور منامها في ذهنها. حاولت ربط صورها الخيالية مع ما يمكن أن يكون انعاكساً له على أرض الواقع، لكنها لم تجد أي شي يشبه هذا، أو من الممكن أن يتسبب به. إن حياتها مملة، وتفتقد إلى الحماس وإلى تجدُّد الأحداث منذ وقت طويل، لكنها تراجعت عن هذه الفكرة فجأة، وعكستها.. لماذا لا يكون الملل هو ما يسبب لها ذلك.

صعدت كاميلا من جديد إلى حجرتها، ورقدت بالقرب من زوجها راجية أن يعاود النوم زيارته لعينيها، وفعل النوم ذلك، لكن لساعات قصيرة، لم تنعم خلالها كاميلا بالراحة أبداً. لكن على الأقل كانت تلك الساعات المرهقة بعيدة عن الواقع الفارغ الذي تسير هي فيه دون الوصول إلى هدف.

في اليوم التالي، توافد الزوار إلى منزلها في وقت أبكر مما توقَّعت كاميلا، لكنها في كل الأحوال، كانت مستعدة لاستقبال الجميع. كانت تعرف معظمهم، وعندما تلقي التحية، كانت تجاهد كي يسمع ضيفها اسمه يخرج مغطى بصوتها هي. كانت ليديا أيضاً تتنقل في أرجاء المنزل، وتبدو نسخة مصغَّرة من والدتها، لكنها نسخة سعيدة. اقتنصت كاميلا الفرصة لكي تتحدث مع ليديا وحدها، سألتها إن كانت تستطيع التملُّص من الحفل والخروج.

"لكنني أرغب في البقاء هنا".

ابتسمت كاميلا بفخر: "هل هذا حقيقي؟ ألا تشعرين بالملل بين الكبار هنا؟".

"لا". ردّت ليديا. "أنا أيضاً كبيرة".

"حسناً كما ترغبين". أدهشها حماس ابنتها للحفل، والذي كانت كاميلا نفسها تشعر بأنها مرغمة عليه. راقبت كاميلا طيف ابنتها يذوب بين الحضور، ثم يعاود الظهور كفراشة تطير بسرعة بينهم. تبعتها كاميلا بثقة لتقتحم متاهة الأجساد المتجاورة في ردهة منزلها. كانت تحيي كل من تقع عينيها عليه، وتتفادى أولئك الذين أتوا قاصدين زوجها فقط، ويريدون لأموالهم أن تتحد مع أمواله.

عاودتها نوبات الإرهاق فجأة بسبب قلة النوم، وبدأت الأطراف السوداء تلتهم الصورة التي تراها عينيها. كادت أن تفقد بعض توازنها، لكن أحداً لم يلحظ ذلك. عادت كاميلا إلى طرف البهو، وسحبت حقيبتها التي تركتها هناك، وسارت باتجاه مغاسل المياه المعزولة عن البهو. دسَّت يدها، وأخرجت علبة إسطوانية صغيرة. فتحتها وأمالت الفوهة لتدفع إحدى الأقراص خارجاً. اقتحمهم أحدهم المكان مندفعاً باتجاه دورة المياه، لكنه ما أن رآها، حتى تراجع معتذراً.

"لا عليكِ، سأخرج حالاً".

كان كلاهما يعرف الآخر، ولكن معرفتهما تلك لم تكن بالقوة التي تسمح بافتعال نقاش أطول، لكن الرجل قال: "أقراص منشطة؟ هل تسبب المناسبات كل هذا التعب؟" شعر بالندم لطرحه مثل هذا السؤال، وودَّ لو أنه يستطيع التراجع عمّا قاله.

نقلت بصرها إلى يدها. لم تُبدِ كاميلا أي نفور منه، بل قالت: "إنّه الأرق. تظهر آثاره في منتصف اليوم، كم أودُّ لو أنّ هذا التعب يرافقني حتى موعد نومي، أو أن يطول معي لساعات متواصلة حتى يتسنَّى لي قطع شوط طويل مع النوم".

"إذاً أنتِ تعانين من الأرق، ولكنكِ تستعملين هذه المنشطات. أي تناقض هذا؟"

فكَّرت كاميلا في تعقيد المسألة رغم بساطة الفكرة: "في منتصف اليوم، أعاني من هذا الشعور. يصيبني الإرهاق معظم الأوقات أساساً، لكن النوم لا يطول معي هذه هي المشكلة". فكَّرتْ في عائلتها، ثم في حياتها الحالية

بشكلٍ كامل، وكان أوّل ما تبادر إلى ذهنها هو الملل الذي يطبق على حياتها كصورة جليدية باهتة تبعث الضباب حول كل شيء يمكن أن ترى كاميلا الجمال من خلال.

قال الرجل الغريب: "أنا ماركوس، وأنتِ كاميلا، أليس كذلك؟" هزّت كاميلا رأسها موافقة، وتركت الترحيب يذبل. فهمَ ماركوس القصة، وكان النص الذي يخصُّها مبتذلاً جداً، امرأة رجل غني، فقدت شغف الحياة، وأصبحت الحياة مملة، وباهتة، مرتكزة على رجل، وهو غالباً يخونها مع نساء أصغر سناً. لكن الحقيقة الأخيرة لم تكن موجودة؛ لأن العمل سلب زوج كاميلا من الخيانة حتى، وهذا أضاف مللاً من نوع آخر، حيث إنَّ العواطف في قلب كاميلا أصبحت راكدة، لا يوجد حب، غضب، أو حتى غيرهما فيه.

خرجت كاميلا إلى الردهة بصحبة ماركوس، كان يخبرها عن شعوره عندما فقد قدرته الحقيقية على النوم بشكل مريح. كان ينام ساعات كافية، لكنه كان يستيقظ بشعورٍ خانق يقتله في كل صباح، ويجعل النصف الأول من يومه مكبلاً بقيود وهمية. تعاطفت كاميلا معه؛ لأنه يعاني مما تعانيه، وكلاهما يشعر بالسوء تجاه الخلاف الأكثر رفقاً وهو النوم. عبرا إلى الشرفة الخارجية، والمطلّة على الحديقة التي كانت أقل ازدحاماً من المنزل. توقفا بقرب الحاجز الحجري الذي يفصل الحديقة عن المنزل. تأملت كاميلا ملكيتها، أو النصف الباقي أمام ناظريها، وكان ماركوس يفكّر في أنه وجد أخيراً من يقف معه في الجانب ذاته.

ماهو الشكل الذي ترسمه الحياة حولهما؟ كان الأمل كبقعة مياه، لا تتخذ شكلاً واحداً، بعض الأجزاء كانت واسعة، بحيث تترك فراغاً لا يمكن إيجاد الحدود معه، وبعض الزوايا كانت حادة، بحيث يشعر المرء عندها أنه واجه المنعطف الأخير، وأنّ قساوته حادّة جارحة، تسبب ندوباً في القلب لا يمكن لها أن تمحى.

"ألم تجرّبي أية أقراص منومة؟" سأل ماركوس، واستدار ببطء، ليواجه كاميلا التي كانت بعيدة بأفكارها عنه، لكن كاميلا نفت ذلك، وأخبرته بأنها تخشى الإدمان على هذا، أو قد تأتي بتأثير أقوى عليها؛ نظراً لسنها، وهشاشة مناعتها مع تقدُّم السن. لم يجدها ماركوس عجوزاً كما تتخيَّل هي نفسها، بل إنها امرأة أرستقراطية ما تزال تحتفظ ببعض الجمال القاسي والبارد في

محياها.

أتى دورها لتسأله هي: "وأنتَ ما الذي يمنعكَ من النوم؟"

"لا أعلم، لقد حدث الأمر فجأة، وأعجز عن تحديد سبب واضح". أخبرتُه بأنَّ الأمر مشابه لحالتها، إلا أن الفرق، هو أنَّ ساعات نومها كانت تتقلَّص، وتعود طبيعية في أيام قليلة، وكأنّ النوم يجذبها إلى حافة الجنون، ثم يفلتها. في الشرفة لم يكن سماع الضجيج الداخلي مستحيلاً رغم أن مصدره الوحيد، هو تزاحم الأشخاص، لكن ما إن هبطت كاميلا إلى الحديقة حتى أصبح الضجيج بعيداً عنها، وراح يخفت مع كل خطوة حتى تلاشى تماماً.

"في طفولتي اعتقدتُ أنَّ النوم عدوي، لكن ما أن يبلغ إنسان السن الذي يرمي به في جدية الحياة، حتى يدرك بأنَّ النوم مهرب، وأسهل مخرج يمكن اللجوء إليه. الأمر مرهق، رغم رقّة صورته، ورغم ضعف تأثيره وبُطئِه". قالت كاميلا، وكان الضعف في صوتها بادٍ أكثر من أي شعور آخر.

"لا تستهيني بهذا الأمر، إنّ الأمر خطر، وهو إذا لم يوصل صاحبه إلى الموت، فقد يودي به إلى الجنون". لم تشعر كاميلا بأي تهديد عبر كلامه؛ لأنه حقيقي، وإذا لم يقله هو فسيخبرها به أي شخص آخر يدرك مشكلتها، لكنها كانت تشعر بالراحة في التحدث مع هذا الشخص الذي لم تره في حياتها إلا مرات قليلة، وهاهي تعرف اسمه الآن فقط. سارا مبتعدين عن جدران منزلها، وكانا يتحدثان عن النوم، كأنما هو المعضلة الوحيدة في الحياة، وفي صوت ماركوس إصرار غريب على إنهاء الأمر. في الواقع كان كلاهما يعلم أن هذا الأمر ليس بالبساطة التي يمكن حلُّ صعوبتها من خلال حديثٍ مبدئي. لكنهما كانا يحاولان مواساة بعضهما؛ لأن كليهما واقع في ذات الحفرة.

لم تتأخر في العودة إلى المنزل، وانتهت جولتهما بسرعة لم يتوقعاها. كان ماركوس أحد معارف زوجها قبل أن يترك عمله كمصرفي، ويتفرغ للاستثمار فقط، وما تزال علاقته بزوج كاميلا جيّدة، والدليل على ذلك هو وجوده في منزلهما اليوم. ولدت بوادر صداقة بينه وبين كاميلا، وقررا التواصل أكثر طالما يمكنهما مساندة بعضهما في التخفيف من وطأة الأرق الذي هبط عليهما.

2

تلت الحفل أيام قليلة حظيت خلالها كاميلا بنومٍ جيد، استعادت معه جزءاً من قوتها، ومن قدرتها على التركيز، لكنها بعد مرور قليلٍ من الوقت، راودها منام غريب آخر رأت فيه تلك الجثث المغطاة بأكياسٍ بلاستيكية، تسير في ردهة منزلها، وتتّجه إلى القبو حيث كان المكان مهجوراً لأشهر طويلة، ولا يتمّ اقتحامه إلّا من أجل القيام بأعمال التنظيف. كان لمنزلها ماضٍ طويل، حيث تمّ بناؤه ممّا يزيد على النصف قرن، ثمّ تمّ تجديده قبل عقدين من الآن. كان المنزل يخصُّ عائلة زوجها، وقد انتقل أفرادها للعيش فيه بعد أن مات والد زوجها. كان المنزل أكبر مساحةً من أن يحتوي عائلةً صغيرة كعائلة كاميلا، فهي تعيش مع زوجها وابنتها في جناح واحد من المنزل، بينما كانت الأجزاء المتبقّية ما تزال خالية.

في الصباح، كان أول ما فعلته كاميلا، هو اختيار الزي المناسب للحفل الموسيقي الذي ستقيمه الأوركسترا الوطنية اليوم. كانت قد تلقّت دعوة لحضور الحفل من قبل صديقة قديمة؛ ولأنها شغوفة بالموسيقى لم يكن بإمكانها رفض الأمر. لم يكن الحفل كبيراً، أو على مستوى وطني، بل كانوا يستخدمون العازفين الأقل شهرة لهذا الحفل، ولم تتوقّع كاميلا حضوراً كبيراً له.

خرجت ليديا من المنزل باكراً، ورغم أنّ كاميلا كانت مستيقظة إلا أنّها لم تشعر بخروج ابنتها من المنزل. لم يُثِر غياب ليديا فضولَ كاميلا. كانت صورة حياتها تنهار ببطء، ولا يمكنها تغيير أيّ شيء، ولا يستطيع أي شخص آخر تغيير الأمور. بعد حرب طويلة لإثارة أي تغيير، استسلمت كاميلا للأمور السيئة، وتركت الملل يُجمد حياتها كصقيع شتوي.

تحتفظ كاميلا في ذهنها بأرشيف لكل الصور الغريبة التي تراها في أحلامها، وودَّت لو أنّ غبار الذاكرة لا يحطّ عليها، فرغم ما تحمله من رعب، إلا أنّها كانت فريدة، تلهم أي رسام. كان المنام الأخير هو الأكثر حضوراً في ذهنها، لذلك توجَّهت إلى القبو من دون سابق تخطيط لذلك. كان المكان مظلماً لكنّه مرتّب كما توقّعت كاميلا أن تجده. لا يوجد أي شيئ مميز في المكان. جزء من القبو كان يشكل مخزناً لحاجيات والد فيكتور قبل وفاته، وجزء آخر كان يحتوي على مكتب قديم، وعلى بعض الرفوف لكتب لم يهتم

فيكتور لوجودها.

تجوّلت كاميلا في المكان كأنها تحاول استكشافه رغم أنّها تعرف كل شبر منه. راقبت ما يحتويه سطح المكتب من قطع صغيرة لم يكلف أحدهم نفسه عناء إزالتها، منفضة أوراق، وسلّة أقلام صغيرة. أمّا رفُّ الكتب فقد كان يحتوي على أغلفة متشابهة لمجلدات متفاوتة الأحجام، تختلف ألوانها ما بين البني الداكن والأسود، والرمادي. بعضها كان معنوناً بأحرف ذهبية فقدت لمعناها، والبعض الآخر كان من دون أي عنوان حتى. لم يجذبها أي شيء في المكان، ولم يكن هناك ما يثير فضولها حتى. في منامها كانت صورة المكان أوسع وأكثر غموضاً، أما في الواقع، فالأمر يقتصر على ركن مظلم تحاول الشمس رسم لون ذهبي ساطع، ولكن دون جدوى. تركت كاميلا القبو واتجهت إلى السلم، لكنّها ظنّت بأنّ صوت حفيف قد تسرَّب إلى أذنها، ولكن ولبعد ذلك الصوت، كانت فكرة كونه وهماً هي الأُقرب إلى عقلها.

***

لم يحمل الحفل الموسيقي كل العظمة التي تخيّلتها كاميلا فيه، لكنه كان ممتعاً، وانتهى في وقته تحديداً. أخبرتها صديقتها بأنها ستأخذها إلى كواليس العرض؛ لمقابلة العازفين لو أرادت. لم تكن كاميلا مُهتمّة بالأمر، ولكن خوضها فيه سيقتل بعض الوقت، والذي تملك منه ما يفيض عن حاجتها.

هناكَ وجدت كاميلا ماثيو والذي عرفت منذ الوهلة الأولى، من خلال النظر إليه وهو يعزف بأنه لم يكن على ما يرام. لم يكن ماثيو يعاني من الأرق كما يحدث معها هي، بل كان الخوف يمنعه من النوم بسلام. كان ماثيو يستطيع النوم، لكن طالما أنّه لم يَبُح بمخاوفه لأحد، بل ظلّت مشاعره عالقة في نفسه، وبدأت تنعكس على أحلامه. كان هو أيضاً عضواً احتياطياً من الاوركسترا الوطنية، لكنّه بالنسبة لكاميلا كان العنصر المميز الوحيد بينهم.

"هل يمكننا أن نلتقي في مكان آخر؟" سألته كاميلا، ثم أخبرتهُ: "أنا أيضاً أعاني من الأرق مثلكَ تماماً، ويمكن لأحدنا مساعدة الآخر". وبعد أيام قليلة أصبحوا هي وماثيو وماركوس يشكلون ثلاثياً يحارب الخوف.

3

في الوقت الحاضر أصبح عدد الأعضاء في النادي يكفي لكي يسردوا قصصاً مختلفة يمكنهم سماع تفاصيلها، والخوض في إيجاد حلول لها لوقت طويل. كان الأعضاء يشكلون دائرة يتوسَّطها الفراغ في مرآب ماركوس القديم. تمكنوا من تجديده ليصبح مناسباً لتجمُّعهم، وكان الجو البارد يسبب عاملاً أقوى لبقائهم هنا. جلس ماركوس، وعلى يمينه كاميلا، ومن ثم مايثو. أما على يمين ماثيو كانت فيوليت تجلس مقابلة لليو، وعلى يمينها هي مارك، ثم جوليا، وفي النهاية سريزا، وليو، وهكذا تغلق الدائرة. لكل شخص منهم حكايته الخاصة، وخلف كل ملامح خوف من نوع مختلف.

مايزال ليو يحاول الوصول إلى الألفة مع المكان، تماماً كما تفعل جوليا، رغم أن هذه هي زيارتها الثانية إلى هنا. كان الأمر صعباً عليها بمقدار الصعوبة التي يعانيها ليو خلال زيارته الأولى. حاول أن يدرس وجوههم؛ لعله يجد بينهم شعوراً مشابهاً لما يعانيه خلال زحام الأماكن المفتوحة، لكن هؤلاء كانوا غرباء، وغير مألوفين للعالم الطبيعي الذي يعيش فيه.

قال ماركوس: "إذاً لدينا اليوم ضيف جديد". كان يوجّه نظره إلى سريزا وليو في الوقت ذاته. كان ماركوس مسؤولاً عن استقبال الأعضاء الجدد، بينما كاميلا أصبحت مع مرور الوقت عضواً قديماً، لا يكلّف نفسه عناء التدخُّل في قرارات النادي السري الصغير.

"أنا ليوناردو.. ليو في الواقع. هذه زيارتي الأولى إلى هنا، والفضل يعود لصديقتي سريزا في ذلك". بسط كفّه إلى جانبه مشيراً إلى سريزا، التي لم تحاول حتى إخفاء قلقها. "لستُ على اطلاع حقيقي على هذا النادي، ولا أعلم ما غاية وجودي هنا، لكنها تجربة في كل الأحوال".

اصطنع ماركوس ابتسامته التي أهداها للجميع، ثم قال: "أعتقد أنك وصلتَ إلى هنا، بسبب مشكلة ما. جميعنا عانينا من الأرق لأسباب تختلف من أحدنا إلى الآخر. لا بُدّ أنّ سريزا تملك سبب لدعوتكَ إلى هنا، ربما رأت فيكَ ما رأيناه فينا جميعاً. نحن نحاول مشاركة قصصنا مع بعضنا البعض، وهذا وحده كفيل في تخفيف وطأة غرابتها يا ليو.. لذلك لا تتردد في البوح بما تريده، وتذكّر أن كل ما يدور هنا سريّ للغاية".

لم يشعر ليو بالاطمئنان لذلك، لكنه حاول أن يتجاوز هذا الحاجز من أجل الانخراط في الأمر، دون التسبب بإحراج أكبر للآخرين. كان يمكنه أن يرى عدم ارتياح جوليا التي مايزال يجهل اسمها. ثقة فيوليت المزيفة، واندفاع مارك أيضاً.

"هذا حقيقي، أنا أعاني من الأرق لأيام طويلة. لجأتُ إلى معالج نفسي لإصلاح الأمر، لكنه لم يفلح في ذلك. أما الآن، فأنا أراجع أخصائي نوم، إن كنتم قد سمعتم بهذا من قبل، هو يحاول أيضاً، لكن صعوبة الأمر تتجاوز قدرة الجميع، ولا أعلم السبب". أبدت كاميلا اهتماماً كبيراً، فهي أيضاً لا تعلم ما سبب مشاكلها. "عانيتُ من الإدمان لفترة من الزمن، وبسبب خطأ.. من المضحك أن أقول خطأ؛ لأنّ إدماني كان برمته خطأً قاتلاً. لكن بسبب جرعة زائدة من المخدر، أعتقد بأنني عانيتُ من الموت، ثم بُعِثتُ إلى الحياة". عنصر آخر ينجذب إلى حديثه، وهو جوليا. لقد خاضت تجربة الموت هي أيضاً. "دخلتُ في غيبوبة دامت ثلاثة أيام، ثم استيقظتُ منها لأخضع لعلاج طويل ومُكثّف للتخلص من الإدمان. لكن رفيقتي". ساد صمت طويل، وشعر بالعار من قول رفيقتي، وودَّ لو كذب وأخبرهم بأنها خطيبته. "لم تستيقظ حتى هذا اليوم".

صنعوا جميعهم نظرة تعاطف، لكن جوليا هي من بادرت بالقول: "هذا أمر مؤسف".

"نعم إنه مؤسف" قال ليو، ثم أردف: "وأنا المذنب في هذا، أو هذا ما أعتقده. هذا الشعور لا يمكن التخلّص منه، لكني طوال عام كامل حين كنتُ أخضع لعلاجي خارج المدينة، لم أعانِ إلا من نوبات التخلص من المخدر، وهلاوس العلاج، لم يكن الأرق هو مشكلتي. أما الآن ومن دون سابق إنذار أنا أعاني من هذا الأمر، وأسير نحو هاوية الجنون أو الموت". سحب ليو نفساً طويلاً، ثم أردف وقد تخلّص من حاجز التردُّد: "الشعور بالفراغ والملل يفتحان صندوق الذكريات القديمة". ومضت عينا كاميلا ببريق غريب فجأة. أكمل ليو: "أسترجعُ تفاصيل الأمر مع تريز، وفقدانها الذي توقَّف تنفيذه ليتركها عالقة بين الحياة والموت. أحياناً أودُّ لو أنها ماتت؛ كي تتخلص من هذا الفراغ، لأنها لا تعود، وأنا مللتُ الانتظار".

تدخَّلت فيوليت أخيراً: "لماذا هذه الأنانية؟ لماذا تفقد الأمل؟"

أجاب ليو: "لأنّ الانتظار يجعلنا نقف في محطات احتمال وصول قطارها ضعيف أحياناً".

همست فيوليت في ذهنها: ماري، أين أنتِ الآن؟ ذاب الحاجز الجليدي بينها وبين ليو. كان الرجل يتسرَّب إلى عقولهم بطريقة عجيبة. الشخص الوحيد الذي كان يتفادى النظر إلى ليو كان مارك الخائف. ارتسمت صورة كارلا زوجته في ذهنه، وطرح على نفسه هذا السؤال: هل أنتِ ميتة؟ أم عالقة كتريز؟

تريز، ماري. وكارلا.. كلهن عالقات دون الوصول إلى الخلاص، أو الواقع حتى.

"الأمر أقوى مما يمكنني مقاومته، ورغم بطء حركة هذه المعاناة، إلا إنني أصل إلى حد لا يمكنني معه تفادي هذا الهجوم، أو التصدي له أبداً. تلك الذكريات المصحوبة بشعوري بالذنب خلال مرحلة الإدمان. تعمدتُ سرقة المال من حقيبة أمي مدَّعياً بأنني عُدتُ إلى المنزل من أجل البقاء معهم، وكانت تغفر لي هروبي، وتحاول الوصول إليّ؛ لتخليصي من هذا الكابوس، لكنني كنتُ أجد مهرباً آخر.. حتى وقعتُ في حفرة الموت". ساد الهدوء، وأصبح التقاط الأنفاس بالنسبة لليو أمراً صعباً، لكنّ الاعتراف للغرباء كان أمراً مريحاً، وشعر بأنّ ثقل الغبار الأسود الخانق في صدره قد أصبح أقل وزناً الآن. لم تنتهِ تفاصيل حكايته، لكنّه على الأقل باح لهم بالجزء الأصعب منها، دون أن يعلم لماذا عليه أن يثقَ بهم، أو أن يبوح لهم بما يعنيه هو فقط.

تشرّبوا جميعاً التفاصيل القليلة بهدوء تام. لكن في النهاية تسرّب صوت كاميلا كالماء فوق أرض رخامية: "أنا أيضاً لا أجد سبباً لمشكلتي. استيقظتُ فجأة بعد سنوات من حياتي الأسرية، لأكتشف بأنني أشعر بالملل. سَئمتُ من كل شيء، وهذا السأم كان شعوراً يفسد كل صور الحياة المشرقة، ويتسبّب بالعفن لكل المشاعر الجميلة. ذبلت الأغصان التي كانت تمتد لتحتضن قصتي، والآن أواجه العراء وحدي، وأشعر بأن الكل بعيد عني، بل إنني لا أملك إلا ابنتي وزوجي، وكلٌّ منهما يعيش من أجل ما يريده، هو دون الاكتراث للشخص الذي أفنى أيامه يساهم في بناء هذه الحياة. لكنني أستحقّ هذا؛ لأنني وافقتُ على البقاء خلف كواليس هذه المسرحية، والآن لم يعد الجمهور يعرفني". اجتمعت دمعة واحدة في هدب عينها الأيسر. ما أن عادت إلى

الحديث حتى سقطت الدمعة بحرية: "يعتقد الجميع بأنّ الحياة التي أعيشها جميلة، لكنّها في الحقيقة سامة. لا نعلم متى تنعطف بنا الحياة، ومتى تتحوّل جوانبها إلى زوايا مظلمة، لكنني في حالتي أنا أكاد لا أدرك حتى الطريقة، بل إنّ كل شيء قد تحوّل إلى صحراء فجأة، لم يعد هناك منظار أستطيع رؤيتها من خلاله، ولا طرقات أسير عليها، وتفاجِئني الوجهات التي سأصل إليها في النهاية".

سألها مارك: "لكن ألم تعتقدي يوماً بأن هذه هي الحياة؟! ما الذي يمكننا الوصول إليه بعد ذلك؟ لو كانت أية امرأة أخرى في مكانكِ أنتِ الآن، ما الذي كانت ستتمكن من تغيره؟".

زمّت كاميلا شفتيها، ثم قالت: "لا شيء، أنا أدركُ هذا. مشكلتي في المكان، وليست فيّ أنا".

لم يكن ليو يعرف حكاية أي شخص آخر، بما في ذلك سريزا التي اصطحبته إلى هنا؛ لأنها كانت واضحة منذ أول لقاء، هي لم تأتِ به إلى هنا من أجلها؛ بل لكي تساعده على التخلص من مشكلته. أما جميع الأعضاء الآخرين فقد كانوا يجهلون حكاية مارك. كانت جوليا هي الوحيدة التي لم تنخرط تماماً في النادي، أو بالتحدُّث فيما يتعلّق بقصتها هي، لكنّها على الأقل تعرف تفاصيل صغيرة عن قصة مارك. ما تزال تلك الأحداث مبهمة في حكايته لكنها تدرك بأنه فقد زوجته من دون أي أثر.

"مارك، جوليا، أيرغب أياً منكما في التحدث". راقب مارك عيني جوليا، ورجته هي أن يتحدث، لكنها استشعرت ضعفه، لذلك بادرت هي بالحديث.

"أعتقد أن تفاصيل قصتي ليست هامّة تماماً، بل إنّها تشعرني بالسخرية من نفسي أحياناً. أنا أيضاً أحمل جانباً مشابهاً لحكاية ليو. أعتقد بأنني جرّبتُ الموت ذات مرة، وهذا لم يكن منذ وقت طويل. لم يصدقني أحد، ويعتقد الجميع أن غيابي عن الوعي لساعات لا يعني الموت، وأن هذا ليس أكثر من خيال كاتب أراد بناء قصة يواسي بها نفسه".

رأت جوليا نظرة ودّ من طرف ليو، الذي كان ممتناً لوجود رابط آخر بينه وبين هذه المجموعة الغريبة. استأنفت جوليا الحديث قائلة: "انتقلتُ إلى مكان قريب من هنا بعد انفصالي المأساوي عن زوجي. كنتُ أتعرّض للخيانة، لكنني

لا أستطيع هجره لأنني أحبه. وأدرك أن أسفل نزواته تلك موجودة وباقية، لكنّ الأمر لم يكن كما هو عليه بعد أن أدركتُ كوني حاملاً. بنينا أحلاماً كبيرة سوياً، واشترينا المنزل الذي نطمح للعيش فيه، لكن هذا كله انهار فجأة". قاومت جوليا ألمها قبل أن تكمل سردها: "أخبرتني صديقة لي بأنَّ الطفل سيربطني به دون خلاص، والخيانة تعني الوقوف على أرض ليست ثابتة، لذلك تحوّلتُ إلى قاتلة بطريقة باردة، وتخلّصتُ من هذا الطفل؛ لكيلا أربط حياتي بحياة آدم الخائن".

نقَّلت جوليا عينيها بين وجوههم لترى نظرة اتهام في عين أي منهم، لكنها لم تجد إلا التعاطف. قال ماركوس: "نتَّخذ أحياناً قرارات كبيرة، وإن كانت خاطئة، لكنها تخلّصنا من عذاب طويل، قد يمتد لآخرين سوانا".

"لم أفكر إلا في نفسي، وعندما اكتشف آدم ما فعلته، رفض وجودنا معاً من جديد. هو يظنُّ بأنني قاتلة، ولا يمكننا أن نستمر بعد ما جرى. علمتُ أن صديقتي تلك هي من أخبرته بالأمر، وهما الآن يخططان للزواج. تلك المرأة أرادت أن تفسد حياتي فقط، ونجحت مع الأسف".

"النساء". قال ماثيو، ثم قهقه. رمقته فيوليت بنظرة تأنيب. لكن سريزا تدخَّلت: "لسنا جميعاً هكذا".

ابتسمت جوليا دون أن توجِّه تلك الابتسامة لأحد: "عندما انتقلتُ إلى هنا، رأيتُ طفلاً يلقي بنفسه في النهر، وحاولتُ مساعدته، لكنني غرقتُ". أطلقت جوليا ضحكةً سخرية قصيرة. "فور غرقي رأيتُ النهاية كحلم، لكنها كانت حقيقية. قابلتُ والدتي، وأخبروني بأن موعد موتي لم يحن بعد، وأن عليّ العودة إلى الأرض. عدتُ وأخبرني الجميع بأنَّ ما حدث كان محاولة انتحار، ولم يكن هناك أيّ طفل يخطط للانتحار، أو حتى حاول ذلك!".

سألتها سريز: "هل كان الأمر من صنع خيالكِ؟"

"من المفترض أن يكون هذا هو التفسير الأمثل، لكنني قابلتُ الطفل ذات يوم وهو برفقة والدته. لم يتعرّف الطفل عليّ، ولم يخبرني بأنه رآني من قبل، ونحن الآن صديقان أنا وهو، لكنه أخبرني بأنه لم يحاول الانتحار من قبل".

قالت كاميلا: "هل يعيش في ذات البلدة؟"

"نعم يعيش في بلدتي برفقة عائلته".

فسَّر ماركوس: "من المحتمل أن تكوني قد رأيتِه قبل محاولة الانتحار تلك، طالما أنه يعيش قريباً منكِ.. لكنكِ لا تعرفينه. أما محاولة الانتحار تلك؛ فقد كانت بسبب تراكم الأحزان، ورسمها خيالكِ على هيئة ذلك الصبي".

"هذا أمر محتمل. لكن ما أنا أكيدة منه، هو أن تجربة الانتحار جعلتني مختلفة عمّا كنتُ عليه".

4

عندما خرجت فيوليت من النادي، كان أبرز ما يطفو في ذهنها، هو مسألة الفقد. لم يكن الرحيل من ضمن مخططات الحياة، رغم كل ما تركته خلفها من محطات، إلا أنّ العزاء في ابتعادها كان هو وجود تلك المحطات. توقفتْ أمام باب المرآب العريض، وكانت قد سمحت للحظة هادئة أن تعتريها، وتجردها من كل أصوات الحياة، لتترك وضوح صوتها الداخلي هو الشيء الباقي. تبعها ماثيو، ومن دون أن يتدخل في تعطيل عالمها، وقف بجوارها، وترك الصمت يحتوي المشهد. بعد دقيقة واحدة خرج الجميع من المرآب ما عدا ماركوس الذي كان سيقف في المكان قبل رحيله. تحرّكت جوليا باتجاه الثنائي، وأدركت بأنهم يستمتعون بالصمت الهابط عليهم. لكنها لم تتردّد في كسر هذا الحاجز.

"الجو يبرد بسرعة غير متوقّعة". قالت جوليا.

علّق ماثيو: "يبدو أنّ الشتاء سيكون أكثر قساوة هذا العام". ثم رفع رأسه ليراقب السماء، كما لو أنه يرى الشتاء يهبط بتأنٍ ويحاول الوصول إلى أرضهم. راقبت جوليا حركة رأسه، دون أن تفهم المغزى منها. شعر ماثيو بالحرج، فابتسمت جوليا بتعاطف.

"لكنّ الجو جميل الآن، ألا تعتقدون هذا؟" سألتهم فيوليت. عاد الصمت وكان عودته دليلاً على الموافقة.

سألهم ماثيو فجأة: "هل تريدون مني أن أجد سيارة أجرة لكن؟"

ردّت فيوليت في أنها تفضّل السير طالما أنَّ الجو جميل. عرض عليها ماثيو أن يسايرها، لكنّها رفضت؛ لقلة ثقتها به، رغم أنَّ التعاطف بينهما يكبر بسرعة تختلف عمّا يحدث بين أعضاء النادي. تدخّلت جوليا: "لديّ سيارة يمكنني توصيلكم".

أجاب ماثيو: "سأمرُّ بصديق قريب من هنا". فالتفتت جوليا إلى فيوليت، ورمقتها بنظرة ترفض من خلالها عدم موافقة فيوليت على العرض. وافقت فيوليت على مرافقة جوليا في سيارتها، وتفرّق الثلاثي فجأة. سارت جوليا بصحبة فيوليت إلى سيارتها، بينما ماثيو سار على قدميه بعكس الاتجاه.

"أراكِ تحاولين الاعتياد على النادي". سألت فيوليت، دون أن تنظر باتجاه

جوليا. لكنّ جوليا لم تجبها حتى فتحت باب سيارتها، وجلست خلف المقود.

"أحاول الاعتياد على الأمر، لكنّه يبدو لي غريباً".

"لكنّ الحديث، أعتقد أنه يساعد. للكلمات ثقلٌ خاصٌّ نحتاج أحياناً إلى التخلص منه. بينما نحن نحمل في داخلنا ثقل المشاعر، والأفكار، فاقدين القدرة على إخراجها كشيء فعليٍّ في العالم. نستطيع تحويل الكلمات إلى صوت يقلّل من وزن أحزانها علينا". التفتت جوليا بتعجُّب إليها، وسألتها عن سنِّها بصيغة هجوميّة لكنها ليست جدية. ابتسمت فيوليت وهي تجيب: "ثمانية عشر عاماً".

"ما تزالين صغيرة على فهم هذا العمق من الأمور". ردّت جوليا وهي تدير المقود.

"الصغير هو من يحاط بعائلة ترسم له هذه الطولة من الدلال. لكنني كنتُ كبيرة منذ لحظة استيعابي لهذا العالم. هذا أمر مؤسف، لكنهُ هامّ وحقيقي. أحياناً أظنّ بأنه يجعلني أتميّز، وأحياناً أخرى أحسد من حظوا بفترة طفولة طبيعية".

لم تشأ جوليا التدخُّل في تفاصيل حياة فيوليت أكثر. لكنّها قالت: "ما أراه هو أنكِ قوية، وهذا ما يميزكِ عن العالم. وأنتِ جميلة أيضاً". ابتسمت فيوليت بخجل، وردَّدت الإطراء ذاته لجوليا، وهنا استشعرتُ أولى بوادر الصداقة بين جوليا وفيوليت.

لم تعطِ فيوليت أي عنوان لجوليا، بل اكتفت بالشرح من خلال الإشارة بكفها نحو المنعطفات. ووصلتا إلى سكن فيوليت، دون أن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. عرضت فيوليت على جوليا أن تتناول الشاي معها، لكن جوليا وعدتها أن يحدث هذا في وقت لاحق؛ لأن الساعة تأخَّرت، وكلاهما يحتاج إلى الراحة.

"هل ستعودين إلى النادي". سألتها فيوليت.

حركَّت جوليا عينيها دلالة على التفكير ثم قالت: "أعتقد هذا، غالباً".

"أراكِ قريباً إذاً". ابتسمت جوليا، ودفعت الباب لينغلق. سارت إلى بهو المبنى الذي تقطن فيه، ومن دون إثارة أي إزعاج، انزلقت سيارة جوليا فوق الطريق البارد بنعومة، حتى ابتعدت عن واجهة المبنى لتسير تحت ظلمة الليل،

وأضواء أعمدة الإنارة.

توجَّهت فيوليت إلى شقتها التي كان النفور منها يملأ قلبها كلما دفعت الباب، ولا تشعر بأنَّ وجود ماري يملأ المكان. رحلت الفتاة دون أي دليل يدلُّ على مكانها، وخلّفت مكاناً فارغاً مخيفاً. لم يكن الهدوء الذي احتلَّ مكان ماري يولّد سوى القلق. كان جهاز الاتصال في شقة فيوليت يومض معلناً وصول رسالة صوتية. ضغطت فيوليت على زر الاستماع، وأتى صوت الأخت صوفيا:

"حاولت الاتّصال بكِ، لكنكِ لم تجيبي، هل أنتِ بخير يا فيوليت؟ أعتقد بأنني سآتي لرؤيتكِ غداً، فأنا قلقة عليكِ". ثم أتت صافرة التسجيل، معلنةً انتهاء الرسالة.

أعدّت فيوليت شطيرة، وجلست في المطبخ المعتم وحيدة. كانت تفكر في النادي، وفي كل ما لم تقله هناك بعد. كان هناك كثير من الكلام لقوله، لكن الوقت كان يمضي دون إعطاء الكلمات فرصة. كانت الكلمات تغرق في قلوب أصحابها، ولا تجد أي مستمع.

أجهشت فيوليت بالبكاء فجأة، ولم تعلم تحديداً ماهو سبب شعورها هذا. النادي؟ أم ماري؟ أم الحنين إلى دير الأخوات، وصوت الأخت صوفيا؟! امتزجت كل الأحاسيس في قلبها، وفقدت إحساسها بالاتجاه الذي يسير به شعورها بالألم. لكنها في تلك الليلة نامت بسلام على الأُقل.

في صباح اليوم التالي استيقظت باكراً على صوت جرس الباب. علمت من خلال النظر عبر العين السحرية، بأنّ من يقف خلف الباب هو الأخت صوفيا. سحبت الباب فوراً، وسمحت لها بالدخول. "أحتاج إلى أن أغسل وجهي، وأغيّر ثيابي حتى".

سمحت صوفيا لنفسها بالانتقال بحرية في أرجاء الشقة، ثم اقتحمت المطبخ لتزيل بقايا طعام فيوليت، وتضع الماء في الإبريق، حتى تعد الشاي لها ولفيوليت. عادت فيوليت بعد دقائق، ورغم انتعاش بشرتها بسبب الماء، إلا أنّ عينيها ما تزالان تحملان بعض آثار النعاس.

"هل تنامين جيداً هذه الأيام؟" سألتها صوفيا.

"نوعاً ما. أفضل من السابق على الأقل". تلاشى جزء من قلق الأخت صوفيا مع رؤية فيوليت، لكن في تلك اللحظة ولد القلق في قلب الفتاة الشابة؛ لأن وجه الأخت صوفيا كان يوحي ببعض الحزن، أو القلق.. لم تكن فيوليت متأكدة.

"من الجيد سماع هذا". ردّت صوفيا.

ابتسمت فيوليت، وقالت: "ولكن ما هو السيئ سماعه".

"لا توجد أمور أسوأ مما مضى. كنتُ قلقةً عليكِ، أنتِ تبتعدين عني، في الوقت الذي يجب أن أكون فيه السند الوحيد لكِ في هذا العالم. أحياناً أواسي نفسي عندما أخمّن بأنكِ قد حصلتِ ربما على بعض أصدقاءٍ جدد، وأفترض بأنَّ هذا ما يجعلكِ تهملين التحدث معي".

تذكّرت فيوليت نادي الأرق فجأة: "لا يتعلّق الأمر بالأصدقاء الجدد. كل ما في هذا، هو أنني سأموت من الحزن، الخوف، وحتى القلق. أريد بعض الهدوء؛ لأنني لم أعد أملك الطاقة لمجابهة حزن ليس له حل".

"لماذا لا أتجاوز هذا الأمر إذاً؟" كانت صوفيا تعلن الاستسلام.

"لأنكِ تحمّلين نفسكِ مسؤولية إطلاق سراحنا من الدير، وهذا ليس ذنبكِ أنتِ".

ترددت صوفيا قبل أن تعترف بانكسار: "إن الشرطة تفقد حماسها في البحث أكثر عن ماري. لقد أخبرني أحدهم بأن القضية لا تحمل أية أدلة أبداً، كأنما تكون تلك الفتاة قد تبخّرت من الوجود دون أي أثر تتركه خلفها. لو كان هناك أي دليل صغير لأصبح ذلك الدليل دافعاً لهم، لكنهم يستسلمون الآن".

لم تتمكّن فيوليت من تحديد شعورها الخاص مرة أخرى.

رحلت الأخت صوفيا قبل أن ترتفع الشمس كثيراً في السماء، وقضت فيوليت آخر يوم في عطلة نهاية الأسبوع وهي تحضّر واجبات الجامعة التي ستسلمها في اليوم التالي. لم تخرج من المنزل، إلا في عصر اليوم، ولوقت قصير احتاجت خلاله إلى شراء مستلزمات المنزل. كان فقد ماري يقبض على قلبها بشعور خانق يصعّب عليها التقاط أنفاسها حتى. كلّما قامت بفعل ما يخصُّها وحدها، أو اشترت شيئاً يكفيها هي فقط، كانت تشعر بالذنب؛ لأنها تؤكّد

رحيل ماري أكثر. لكن قدرتها كانت تخبرها بإثبات أكبر من أي شيء، أنَّ ماري ليس لها وجود على هذه الأرض.

في الليل حاولت فيوليت أن تنام، لكن الأرق باغتها بزيارة جديدة بعد انقطاع ظنّت خلاله أنها تعود إلى الجانب الهادئ من الحياة. لم تتمكن من النوم، وكان صوت ماري يتردّد في رأسها، حتى تخلل أحلامها وبدا حقيقياً. رأت ماري تطرق على زجاج النافذة، وتنادي فيوليت من دون أي صوت مسموع. استيقظت فيوليت في ساعة متأخرة وكان هواء الخريف يشتدُّ قوةً، ويُصدِر صفيراً أسفل النافذة. رأت فيوليت الجزء المكشوف من النافذة، والذي لم يُغطِّه طرفا الستائر. كانت ماري تظهر واضحة خلف الزجاج، وهي تجلس بانحناء، وتكاد ركبتاها تلمسان الطرف الحجري الخارجي للنافذة. كان الهواء يلعب بطرف ردائها الأزرق، وكانت خصلات شعرها تتحرّك بحرية. أزاحت فيوليت الستائر، وفتحت النافذة. كان وجه ماري خالياً من بعض الملامح، لم يكن هناك عينان بل فراغ بلون جلدها، وكأنّها خُلِقت من دون عينين.

همست ماري: "فيوليت أدخليني إلى هنا. أعيديني". ثم جرّها الهواء إلى الأسفل. صرخت ماري بصوتٍ حادّ تسبب بألم لفيوليت، وقبل أن يلامس جسد ماري الأرض، استيقظت فيوليت لتجد أن الزرقة قد صبَّت لونها على السماء، وكانت بوادر الشروق تظهر ببطء. كان هواء الغرفة رطباً وبارداً في آن واحد. دفعت ماري اللحاف عنها وحاربت البرد، ونهضت لتكتشف أن حجرتها تحتوي على ضوء ليلي أكبر من المعتاد. التفتت فوجدت نافذتها مفتوحة، والستائر الرقيقة ترفرف مع نسمات الهواء التي تقتحم الغرفة.

جاء دور فيوليت لتهمس: "ماري". لكن لم يجبها سوى الصمت.

***

أرغمت فيوليت نفسها على تناول الطعام قبل الخروج من المنزل. وبناء على نصيحة أعضاء النادي، كانت تحاول الامتناع عن المنبهات؛ لكيلا تزيد من شعورها بالنشاط أثناء الليل. لكن ذلك جعلها تحارب الإرهاق أكثر من أي وقت آخر. كانت تشعر بالتعب في كل صفوفها الصباحية، وعندما تنهض من على كرسيها، كانت تشعر بليونة الأرض أسفل قدميها، وكأن الأرض هلام سيبتلعها، ويجعلها تختفي دون أثر. في منتصف اليوم زارها الصداع، واحتضن

مقدمة رأسها. كانت تقاوم رغبتها في شرب القهوة، لكنها تواسي نفسها في أنها قطعت شوطاً كبيراً حتى الآن، ولو احتفظت بهذا الشعور فإنها ستنام جيداً في المساء.

في محاضرتها الأخيرة، غلبها النعاس، وهبط رأسها بين ذراعيها المعقوفتين، ونامت من جديد دون أن تكون راغبة في الوقوع في عالم أحلامها من جديد. رأت ماري من جديد، وهذه المرة كانت لماري عينان بيضاويتان خاليتان من الحياة. كانت تسير على الشاطئ الذي زارته فيوليت بصحبتها قبل بداية العام الدراسي الأول. كانت تستلقي على الرمال الرطبة، وأطراف الأمواج تلامس طرف ثوبها الأبيض، فيتحوّل إلى شفاف ملتصق بجسدها الممتلئ. لها شفتان حمراوان، وكأنّ عصير رمان غطاهما. فتحت فمها لتخبر فيوليت بشيء ما، فسالت الدماء على خدها، ثم وجدت الطرق لتلامس عنقها.

نهضت ماري من مكانها، دون أن تترك أثراً على الرمال. استغرقت حركتها مقدار رمشة واحدة من عينيّ فيوليت. كانت تقترب من فيوليت ويصبح جلدها أكثر شحوباً كلّما تحرّكت. كانت تهمس بكلمات غير مفهومة، وليس لها وجود في لغتهم. حاولت فيوليت الابتعاد، لكنّ فضولها وحنينها أمراها بالانتظار. ثم منع الخوف قدميها من الحركة. قبضت ماري على يدها بشدّة، فشعرت فيوليت ببرودة شديدة تنحد بجلدها. صرخت، ودفعت ماري بعيداً عنها.

رفعت فيوليت رأسها، لتجد أنّ الهدوء ساد في القاعة، وكل الأعين كانت تراقبها. شعرت بالإحراج، وكادت أن تتلفّظ بكلمات الأسف للجميع، لكن الكلمات كانت أضعف. قال المحاضر من مكانه: "لقد انتهينا بالفعل يا فيوليت". انتهوا من ماذا؟ "يمكنكم الرحيل، لكن أنتِ يا فيوليت أودُّ التحدث معكِ". اشتعل الإنذار في رأس فيوليت، وهيَّأت نفسها لكلمات المحاضر.

خرج الجميع، وتقدّمت هي من المحاضر. "أعتذرُ عمّا حصل".

"ليس عليكِ الاعتذار؛ فالإنسان عرضة لمثل هذه المواقف، ولكل مِنّا طاقته. لولا أنكِ طالبة متميّزة لكُنتِ قد فهمتِ الأمر بصورة مغايرة، لكنني أثقُ بقدراتكِ يا فيوليت".

ردت فيوليت بخجل: "وأنا.. أنا أشكرك لهذه الثقة".

"هل أنتِ بخير هذه الأيام؟"

أجابت بثقة كاذبة: "أجل". شعرتُ بعدم اقتناعه، فأردفت: "أحاول أن أكون بخير".

"أتمنّى أن تكوني كذلك، ولا حاجة لأن تجهدي نفسكِ ما بين ما تقاسينه في حياتكِ، وما بين واجباتكِ. أنتِ فتاة ذكية، وكل ما تحتاجينه هو النظر إلى مستقبلكِ. ما نفقده أحياناً قد لا نجد له تفسيراً واضحاً، ولا نرى أي بوادر للعودة، لذلك يكون الانتظار مجرد تأخير". حاولت فيوليت أن تفسّر كلماته، ففسّرها هو: "أعلم ما حدث مع صديقتكِ، الأخبار تتسرب، لكن إن كان لا حيلة لكِ بالأمر، فدعي الأمور تسير بحسب ما تريده الحياة".

ارتجف صوت فيوليت معلناً استسلام الفتاة: "لكنها صديقتي الوحيدة في هذه الحياة!".

"أعلمُ أنَّ جميعنا نفقد أشخاصاً نحبهم، لكن دعي الوقت يحمل إليكِ تفسيراته، وعلاجه أيضاً". هزّت فيوليت رأسها متفهّمة ما يقوله، لكنها تشكُّ في قدرتها على تطبيقه. "والآن سأطلب منكِ أن ترتاحي، وسأعطيكِ درجة الفرض القادم دون أن تقدميه، ولكن هذه ليست مكافئة، إنما دعوة لكِ للاسترخاء".

"أشكركَ، هذا لطفٌ بالغ منكَ". تركته فيوليت، وخرجت من القاعة، لتكتشف أنَّ الممر المقابل لها قد أصبح خالياً وأنّ كل زملائها كانوا قد رحلوا. شعرت فيوليت بلسعات قارصة من البرد تحيط بمعصمها الأيسر. رفعت معصمها، فكان هناك أثر أحمر لقبضة يد غريبة. أصابع نحيلة جداً متساوية الطول، لكنها كانت أكثر من خمسة أصابع، ولا تشبه قبضة ماري الممتلئة.

***

عندما حلّ الليل، كانت فيوليت تجلس بين الأعضاء الثمانية الذي يشكلون نادي الأرق. كان النوم جافياً، ولم تقوَ على فعل أي شيء يعيد لها الشعور بالنعاس. كان النشاط يتدفّق في جسدها، بعد تلك الغفوة القصيرة أثناء المحاضرة.

رفعت فيوليت معصمها، وتحت ضوء الكشافات الداخلية للمرآب، بدا الأثر الأحمر واضحاً: "لا تخبروني بأنّ ذلك كان مجرد منام عابر ولّدته أفكاري

الخائفة. هذا أثرُ يدٍ لا يشبه يد صديقتي، ولكن هي من صنعتها في حلمي. وتلك النافذة أيضاً فتحتها لاستقبال ماري، ولكن ما أن استيقظتُ من حلمي، كانت النافذة مفتوحة بالفعل! لا أعلم ما الذي يحدث، لكن أفكاري تطغى عليّ، ويتحوّل الأمر إلى مزيج بين الكوابيس والحقيقة".

حاول ماركوس تهدئة الأمر قائلاً: "أحياناً تكون للمخاوف وطأة قوية علينا، تمكّنها من رسم أثرها على حياتنا الحقيقية".

"وماذا كانت مخاوف ماري قبل أن ترحل؟ أين تذهب مخاوف الراحلين؟"

بصوت هادئ، أجابت كاميلا: "ترحل معهم ببساطة".

"لكن ماري، تركت مشاعرها لي، تركتها في سكننا، على وسادتها.. تركتها في قلبي أنا. استيقظتُ ذات ليلة، لأجد ماري تتحدث في الظلام، وكأنّ هناك في ظلام سكننا صديقاً لها، لا تراه إلّا هي. سألتني: أين هي حدود الأشياء؟ أخبرتُها بأن الحدود هي ما نضعه نحن، أو ما نتوقّف عنده عاجزين عن استكمال رحلتنا خلال هذا الأمر".

تفادت فيوليت نظرات الجميع، ثم قالت: "سألتني ماري: "وهل للشيطان حدود؟ هل حدودنا واحدة؟" تأملتُ الظلام طويلاً قبل أن أكتشف بأنّ في لمعان عينيها رغبة في القفز إلى الطرف المخيف. هل كان صديقها المختبئ في الظلام هو الشيطان؟ أخبرتُها بأنني لا أعلم، لكنّه أمهر في تفادي الحدود الفاصلة كلها، وهو ذكي في تسبيب الاختلال في نفس كل شخص متماسك. كان عليها أن تكون أقوى لكنّها كانت تستلم".

"همست لي ماري، إنه هنا.. إنه كل شيء. يسمعنا يشاركنا أفكارنا، ويرسم أوهامنا. إنّ الشيطان هو أعيننا التي ترسم الصور، وهو قادر على تغيير الصور، وسلب ألوانها حتى. أخبرتُها بأنّ هذا هراء، وعليها عدم التفكير فيه. لم أكن أعلم أنّ شيطانها كان يغريها بنفس المفارقات الموجودة في الحياة. كانت ماري تغار من الآخرين؛ لكونهم يملكون حياة أسهل، ووعدها بكيان ما، لا أعلم إنْ كانت هي من صنعته، أم أنه هو من زارها، ووعدها بأنه سيهديها الأفضل! أخبرتني هي بهذا.. وبدلاً من تحقيق الوعود، جعلها شيطانها تذبل، وتموت كل يوم. إلى أن تلاشت دون عودة".

قالت جوليا: "إنها مراهقة في كل الأحوال، ومن الطبيعي أن يتأثّر عقلها

بأفكار سوداوية كتلك. من الطبيعي أن تلقي اللوم على غيبيات لا يمكن رؤيتها؛ لأن الأشياء الحقيقية تملك مفاهيم محدودة. نحن نحبُّ الاتكاء على أوهام لا تملك أساساً، حتى نتمكّن من تغييرها كما يتناسب مع مفهومنا الخاص، ونهرب من الأشياء الملموسة؛ لأنها تحمل هيئتها الخاصّة، والتي ستصبح في لحظة ما مختلفة عن شكل معتقداتنا".

قالت سريزا: "أنا أتّفق مع جوليا فيما تقوله. أنا أحاول تفادي أوهامي. الأوهام كالماء أيضاً تتخذ شكل قالب خوفك. لكن للذكريات أيضاً تأثيراً قوياً على رسم هالة الأوهام وتعظيمها".

تدخل ليو: "لكن هذا الأمر لا يتساوى لدى الجميع. لكل شخص قدرة يختلف مقدارها في فصل الوهم عن الواقع. أحياناً يصبح الواقع أسوأ من الأوهام والخيالات؛ لأنه يرسم المخاوف بواقع أكبر. كان للمخدر أيضاً تأثير قوي، على إفراز الأفكار على أرض الواقع بدافع أكبر".

تنهد مارك فساد الصمت، ثم سألهم: "وماذا لو أنّ الواقع سلبكَ شيئاً يهمُّكَ، وترك لكَ فراغاً تملؤه أنتَ بتفسيراتكَ الموجودة في صندوق عقلكَ.. الذي يحتوي أساساً على مزيج من الأحلام، والخيالات، والأوهام، والمخاوف. أعتقد أن هذا ما يحدث مع الفتاة".

ردّت فيوليت باندفاع: "هذا حقيقي، رحيل ماري ترك لي حرية اختيار تفسيري الخاص، وأعتقد بأنني أضعف من أن أجد التفسير الحقيقي في صندوق أفكاري الخاص، وهو مليء بالسواد، والمخاوف والمعتقدات الصعبة".

أصبحت كاميلا بعيدة عنهم؛ لأنها لم تكن بين جدران هذا المأزق. كانت تحاول إيجاد التطابق بين ما تنتمي إليه حياتها، وبين ما يرتبط بحياة الموجودين. فكّرت في صندوق الأفكار، وشعرت بأنها أضاعت صندوقها الخاص، ولم يتبقَّ في ذهنها سوى بحيرة راكدة من الملل.

قال ماركوس: "ولكن إذا لم تجدي أي تفسير يا فيوليت، أرى أنَّ الانتظار هو الحل الأكثر سِلماً". تذكّرت فيوليت كلمات المحاضر، من السهل أن يتطرّق الآخرون إلى الحلول الأسهل، ولكن عندما يدور الأمر حول حياتهم الخاصة، يصبح تطبيق تلك النظريات صعباً.

"أنا أفتقد صديقتي". اهتزت كلمات فيوليت في صوتها: "أفتقد ماري، وهذه هي المشكلة. لم أعد أشعر بفراغ غيابها، أو الهدوء الذي خلّفه صمتها. زال الخوف حتى، ولم يتبقَّ لي سوى حنيني لها".

تدخلت سريزا من جديد: "لا أحد يبقى في هذه الحياة. الرحيل أمر مفروض. إذا ما كان الموت ينتظرنا في نهاية حياتنا، فكيف لا يكون الرحيل هيّناً. جميعنا نفقد أشخاصاً أحببناهم، ولا يكون للرحيل أي تفسير، ويبقى فهم الأمور حملاً على كواهلنا نحن. لكنّنا لا نستسلم يا فيوليت". التفتت سريزا لتواجه نظرات ليو التي كانت تراقبها وفي عمق عينه كان يخبرها بأنّها محقة.

قبل أن يتأخّر الوقت أكثر، خرجوا جميعاً من النادي، ولم يتبقَّ إلا ماركوس الذي كان يقفل المكان بعد خروج الجميع. تفرّقت المجموعة كلٌّ في طريقه. كان ليو يساير سريزا، ومارك يسير بخطى بطيئة تحاول جوليا مجاراتها. أمّا كاميلا فكانت تنتظر ماركوس. فيما فيوليت وماثيو سارا في نفس الاتجاه.

أُطفِئت أنوار المرآب الخارجية، وظلّت كاميلا واقفة وكأنّها ظل أسود أمام الباب العريض للمرآب. وبعد لحظات جاورها طيف أسود أكثر طولاً، كان هو ماركوس. أغلق القفل الخارجي، ثم بدأ يسير تحت رياح الخريف بجوار كاميلا.

5

لم تكن دوروثي في المنزل، عندما استيقظت سريزا في الصباح التالي. خرجت باكراً تاركةً ورقة صفراء أُلصِقت على باب الثلاجة ببعض الميلان، كُتِب عليها بخطٍ أسود عريض: خرجتُ لبعض الوقت، وتركتُ لكِ طعامكِ. كانت دوروثي تتحوّل إلى والدة جديدة لسريزا، وكان هذا الإحساس يعوِّضها عمّا كانت تمرُّ به خلال حياتها الماضية حين فقدت والدتها وهي ما تزال على قيد الحياة. لكن ندوب الماضي لا تزول، وألم الجراح القديمة لا يمكن تجاوزه بأي أسلوب يمكن أن تجده سريزا. تناولت الفتاة طعامها وهي تجلس وحيدة في المطبخ، ولم يكن هذا أمر لم تعتد عليه من قبل. بل بدا لها أنه شعور مألوف كانت تفتقده أحياناً مع وجود خالتها دوروثي. كانت تأكل طعامها، وهي تشعر بالامتنان لوجود خالتها من جديد، وهي تفكّر كل يوم كيف يمكنها أن تصوّر هذا الامتنان على أرض الواقع.

انتهت سريزا من تناول فطورها، حملت أطباقها وغسلتها في المطبخ، قبل أن تعود من جديد إلى غرفتها، وترتدي ثياب العمل. بينما كانت منحنية تزرر قميصها، شعرت بأن هناك صوت دبيب خطوات في المنزل. وللوهلة الأولى شكّت في أن تكون دوروثي قد عادت. لكنّ الباب لم ينبهها إلى هذا، ولا صوت عجلات سيارة خالتها. ثم إنّ صوت الخطوات كان قريباً ومجاوراً لها. إنه ينبعث من الغرفة المجاورة لها. رفعت رأسها بعد أن أغلقت الزر الأخير في قميصها. وسارت بسرعة باتجاه مركز الصوت. أدركت أنّ الصوت يقودها إلى حجرة جوليان. كانت الحجرة مغلقة، ولكن ضوء الشمس كان يتسرب من أسفل الباب؛ بسبب الشباك المقابل للباب. رأت ظلاً أسود يحجب جزءاً من ضوء الشمس أسفل الباب. دفعت الباب بغضب، لكنها لم تجد شيئاً. كانت قد أزالت الغبار عن الأرضية، والجدران وقطع الأثاث، وتلك الآثار اللوزية اختفت الآن. لكن سريزا حتى الآن تفكر في حقيقة من صنع ذلك الشكل.

خرجت سريزا متجهة إلى مقر عملها، وهي لا تودُّ أن تعترف بأنّ ما فعلته كان هروباً من المنزل العبق بذكريات جوليان ووالدتها، وهاهو الآن يُظهر لها أشباح الراحلين؛ ليريها بأنّه لا مهرب لها من وجودهم. هل تسامح والدتها؛ لأنها خلّفت هذا حتى بعد رحيلها؟ أم أنّ وطأة هروب والدتها من الحياة ما تزال ثقيلة عليها؟ كانت عودتها إلى العمل هي أسهل مهرب لكل الأصوات التي

تسألها في ذهنها.

عادت إلى مكتبها ذاته، ورأت تدفُّق الشمس عبر نافذتها العريضة المطلّة على المدينة. جلست وكانت الساعة الأولى من العمل، هي تمثّل وقت تردّد الموظفين لتقديم كلمات العزاء والأسف لها. ثم تلاشى هذا الترحيب وعاد العمل إلى نمطه القديم. لم تدرك بأنها تشتاق لنافذة مكتبها إلا بعد أن عادت، وأسندت رأسها على الحاجز الدافئ الذي يمنحها مجالاً لرؤية شكل الحياة في الأسفل. كان الأشخاص بعيدين عنها، وليسوا إلّا صوراً مصغرة لبشر متشابهين.

كلهم متشابهون على الطريق في الأسفل، ما عدا ذلك الطيف الأنثوي العابر. لم يكن طيفاً واحداً وإنما اثنان. جوليان ووالدتها كانتا تعبران على الطريق موليتان ظهرهما لمقر عمل سريزا. كانتا تبتعدان ويصبح حجمهما أصغر مع كل خطوة. وقبل أن تختفيا التفتت جوليان لترمي بنظرة خاطفة بعيداً، وغير واضحة باتجاه سريزا.

ابتعدت سريزا عن النافذة، ودفعت عجلات كرسيها باتجاه المكتب من جديد. أصبح الوقت يمضي ببطء، وكان اليوم الأول يملؤها إرهاقاً، لكنّ ما تبقى من وقت العمل ساهم جداً في إبعاد أفكارها عنها. في نهاية اليوم عادت إلى المنزل لتجد دوروثي تعدُّ الغداء. كانت خالتها مبتهجة أكثر من الأيام التي كانت فيها تصطنع ذلك. رمت سريزا حقيبتها، وقالت لها: "سأغيّر ثيابي، وأعود للمساعدة".

ردّت دوروثي: "وأنا لن أرفض ذلك".

صعدت سريزا إلى غرفتها، وعندما عبرت أمام حجرة جوليان، رأت باب الحجرة مفتوحاً. تساءلت إن كانت هي من تركته مفتوحاً؟ أم أن دوروثي هي من قامت بذلك؟ هل شعرت دوروثي بشيء غريب هنا، كما حدث معي؟ سألت سريزا نفسها.

تجاهلت سريزا الأمر، وسارت إلى غرفة نومها. غيّرت ثيابها، وقبل أن تعاود النزول إلى دوروثي أخذت روايتها الضخمة التي كانت على جانب السرير، وهبطت إلى الطابق الأرضي لتتركها في غرفة المعيشة، ثم دلفت إلى المطبخ لتعاون دوروثي.

"تبدين مبتهجة اليوم، ما الذي تخبئينه؟"

ابتعدت دوروثي عن المقعد، وقالت: "يستحق هذا اليوم بهجة حقيقية. أنتِ عُدتِ إلى العمل، وأنا أحاول أن أشغل نفسي بأي أمر آخر. يكفي ما عانيناه من حزن، أليس كذلك؟"

"قد تكونين محقَّة، لكنني أشعر بأنّ هناك سبباً آخر لهذا، ماذا هناك؟"

لكزت دوروثي سريزا، ثم قالت بابتهاج: "من منّا هي خالة الأخرى؟"

قفزت سريزا من مكانها، ثم قالت: "هذا الدور ليس حكراً عليكِ، نحتاج أحياناً إلى قلب المواضع، فأنا لا أثق بقراراتكِ دائماً، لا أعلم أية كارثة تخبئين يا دوروثي.. خالتي دوروثي". ضحكنا فجأة، قبل أن تلتفت دوروثي إلى الموقد بجزع، وتحمل الطعام من فوقه.

"أعتقد أنَّ الغداء سيكون جاهزاً".

خرجت سريزا تحمل أطباقاً سيراميكية لتوزعها على مكانها، ومكان دوروثي. ثم أقبلت دوروثي تحمل الطعام بعد أن قامت بتوزيعه. كان سريزا تدور حول المائدة، بينما دوروثي تضع الطعام عليها بحذر. قالت سريزا مبتسمة بمكر دون أن ترفع بصرها: "لكنني لم أنل أيّ اعتراف يا دوروثي حتى الآن".

"حسناً، اجلسي أولاً". جلست سريزا وأصدرت همهمة تحثّ بها دوروثي على التحدُّث، قالت الأخرى: "تذوّقي الطعام أولاً". سكبت دوروثي بعض الطعام في طبق سريزا. حاولت سريزا تجاهل فضولها وتناول الطعام. لكن دوروثي كانت تراقبها بنظرة طفولية، والسر يلمع في عينيها.

"حسناً" أفلتت سريزا شوكتها، وقالت: "أخبريني ما الأمر؟".

"سأعترف. قابلتُ صديقاً قديماً لي. لم نتلق منذ سنوات، وقد طلب مني هذا الصباح أن نمارس رياضة المشي سوياً. هذا كل ما في الأمر". تلاقت نظرات سريزا بنظرات خالتها، التي كانت تترقَّب ردَّ فعل من الفتاة. انفجرتا بالضحك في آنٍ واحد.

"هكذا إذاً.. هناك رجل خلف هذا الحماس".

غطَّت دوروثي فمها بكفيها، وهزّت رأسها إيجاباً ثم قالت: "كان لقائي

به صدفة. لكنه تمكّن من التعرّف عليّ. إنه صديق لي منذ فترة الدراسة الجامعية، وحتى قبل زواجي بوقتٍ طويل كنّا نتواصل ولكن بشكل قليل، منذ أيام، وفي الأمس تحديداً طلب مني الخروج للتنزه صباحاً".

"هذا يدعو إلى الحماس حقّاً. أرجو ألّا تتهوري في مشاعركِ، كما أرجو أن يكون كما تتمنين أن يكون عليه". كان هذا شعور سريزا الحقيقي، لكن يشوبه بعض الخوف من فقدان خالتها أيضاً.

ردّت دوروثي: "ما نزال في فترة تجديد الصداقة، ليس أكثر. لكنْ لديّ شعور بالحماس لا أستطيع كبته".

"وهل هو يشعر بالاندفاع ذاته".

ردّت دوروثي فوراً: "نعم.. أعتقد، هذا واضح جداً". طعنت دوروثي كومة الطعام الصغيرة الموجودة في طبقها بواسطة الشوكة. اهتزّ جسدها بعض الشي، وكانت شفتاها ما تزالان ترسمان ابتسامة، رغم أنها لم تعد تنظر باتجاه سريزا. استغلت سريزا عدم انتباهها، وتركت الابتسامة تتلاشى عن محياها؛ لأن هذا التعبير الزائف كلّفها جهداً كبيراً. من السهل جداً ادعاء الحزن، لكن محاولة الصعود إلى مستوى أعلى مما نحن عليه كادعاء الفرح في حالة لا نملك شعوراً يدعمنا للوصول إليها، غالباً ما يكون صعباً. التظاهر بالحزن سهل، لكنّ ادعاء الفرح يتطلّب قوة أكبر.

بعد تناول الطعام، ساعدت سريزا خالتها في تنظيف المائدة، وفي غسل الأطباق، وفي حفظ القليل المتبقي من طعام الغداء. وأثناء وجودهما في المطبخ باغتت دوروثي سريزا من جديد بسؤال: "كيف كان يومكِ بعد انقطاع قصير".

"لا شيء مميّز، لكنني كرهتُ ذلك التعاطف المزيف".

قالت دوروثي: "هذا ما يجب عليهم فعله. هل كنتِ تحبذين تجاهلهم لحزنكِ".

"لا". وفكّرت في مشاعرها لو أنّ زملاءها تجاهلوا الأمر. كانت سريزا غاضبة من ذلك التعاطف المزيف الذي يحمل خلفه سيلاً من الأسئلة التي تتعلّق بوالدتها وبانتحارها. إنهم فضوليون ليس إلّا. استرجعت ذاكرتها ذلك

المشهد الذي رأت فيه والدتها من بعيد تسير برفقة جوليان. ذلك الوهم الحقيقي الذي تحدثوا عنه في نادي الأرق. هاهو صندوق أفكارها يُفتح ويبعثر كل مافيه فوق سطح عالمها، دون وضع كل شيء في موضعه المناسب.

***

تدرك سريزا أنّ مهمة النوم هذا المساء لن تكون سهلة مرة أخرى، لذلك تناولت الأقراص التي كانت قد اشترتها من الصيدلية في المرة الأخيرة، بعد أن كانت تحاول الامتناع عن تناولها. كان هناك من يُنذرها بأنّ تناول تلك الأقراص البيضاء سيؤدي بها إلى الإدمان، وفكرة الإدمان جعلت صورة ليو ترتسم في ذهنها. فكّرت في ذلك الشاب، وكيف أنّ حياته تقاطعت مع حياتها دون هدف، أو حتى جدوى من ذلك. لكنهما اليوم صديقان على الأقل، وزميلان في نادٍ سريّ يستمع أعضاؤه لجنون بعضهم البعض، ويحاولون تصديقه. إنّها أيضاً تحاول تصديق ذلك. من يمتلك جنونه الخاص، يستطيع تقبُّل كل الأفكار الغريبة.

للأقراص مفعولاً مشابهاً لأقراص الأمبين، وفي الماضي كان الأمر يساعدها جدّاً في التخلص من الأرق، لكنها كانت تستيقظ بأفكار مشلولة وبخمور قوي يعيق يومها التالي. لا تريد أن تكون مدمنة، وأن تخضع لتجربة مشابهة لتجربة ليو، ولا تريد أن يصل بها الإدمان في يوم ما إلى أن تبقى عالقة بينه وبين الحياة. إنها تملك حياة، وإن كانت لا تشبه ما تمنته سريزا، لكن لابد أن للوقت قدرة على تغيير هذه الأمور السيئة. وكما أنّ السعادة ليست دائمة، فإنّ الألم لا يدوم إلى الأبد.

دست سريزا جسدها في فراشاه، وأنتظرت مفعول القرص يعمل. أصبح الهواء أكثر برودة، وكان ضغط دمها يقل تدريجياً. بنعومة تحرك الهواء على وجهها العاري، بينما جسدها كان يستمد الدفء تحت اللحاف. تمكنت من الإفلات من قبضة الواقع بسهولة.

استيقظت من جديد، وبدا لها، أنّ غفوتها دامت لثوانٍ قليلة. لكنها ما أن نظرت إلى الساعة حتى وجدت أنها تجاوزت منتصف الليل، وهذا يعني أنها نامت أكثر من ساعة ونصف الساعة. كان هناك صوت طرقات تترك أثراً يشبه الاهتزاز بعد كل ضربة. هذا الصوت هو ما أيقظها. كان إحساس الضربات

أوضح من صوتها، والذي كان بالفعل قوياً. بدا الأمر كما لو أنّ أحدهم يركل الأرضية الخشبية بقوة. نهضت لترى ما الأمر، وتخيّلت أن تجد دوروثي تؤدي نشاطاً ما. لكنها عندما خرجت نظرت باتجاه غرفة والدتها، فوجدت الباب مغلقاً، ولا يتسرب من أسفله سوى الظلام. إن دوروثي نائمة على الأغلب في هذه الساعة.

إنها تعلم من أين يأتي هذا الصوت.. حجرة جوليان. سارت باتجاه الحجرة، لكنها لا تمتلك الشجاعة الكافية حتى تندفع باتجاه الباب فوراً. أصبحت خطواتها بطيئة، وتأخّر وصولها إلى الباب، لكن تلك الضربات لم تتوقّف بعد. أحاطت بكفها قبضة الباب، ودفعتها إلى الأسفل، لكن الباب لم يتحرك. كان مقفلاً، وهذا بدا لها مستحيلاً، لم يوصد أحد غرفة جوليان أبداً؛ لأنها كانت مهملة لوقت طويل. لكن سريزا تساءلت: هل رأت دوروثي فيها ما يخيفها أثناء نوم سريزا، فأقفلت هي الباب؟ كان هذا احتمالاً مقبولاً، لكنّه بعيد.

أصبح مقبض الباب ثقيلاً فجأة، وكان هناك قوى أخرى تتحدا سريزا، وترفع مقبض الباب. الطرف الآخر كان أقوى من سريزا، بحيث تمكّن من إعادة المقبض إلى الأعلى رغم عنادها. أفلتت سريزا المقبض، وكتمت شهقتها. نبهها صوتها الداخلي بطريقة ساذجة: هناك أحد ما داخل الحجرة.

رأت ظلَّ الأقلام أسفل الباب وشعرت بها قريبة، تحجب تيارَ الهواء المتسرب أسفل الباب والذي كان يلامس أصابع قدمها العارية. انحنت سريزا على الأرض، حتى لامس خدها الأرضية الخشبية. لم ترَ سوى ظلّين متجاورين لا يشكلان شكل قدم، لكن حركتهما كانت طبيعيّة كأي إنسان آخر. رأت الأقدام ملتصقة في الباب، ومن ثم شعرت بحركة مزعجة رغم خفوتها على خشب الباب. وضعت أذنها على الباب؛ حتى تتأكد من ماهية الصوت. كان الصوت الخشن يهمس: أمي.. أمي.. مقلداً طريقة جوليان في الحديث، لكنه لم يكن صوتها هي.

شعرت سريزا بوقع الخطوات يبتعد. فأخفضت رأسها من جديد، لترى ظل الأقدام يسير باتجاه الجدار المقابل للباب. لماذا هي ليست خائفة؟ لماذا لم تصرخ حتى الآن؟ أرادت سريزا أن تصرخ بأقوى صوت تملكه، لكنها عاجزة، وفضولية. انعدمت رؤيتها، واختفى ذلك الجسم الغريب. وضعت عينها على رتاج الباب، ومن خلال فتحة القفل، تمكّنت من رؤية الجانب الأيمن من

الغرفة، لكنّها محاطة بحلقة القفل السوداء. رأت سريزا ظلّ جوليان مكتسياً بالسواد يقف في منتصف الغرفة، ويحدق في النافذة التي كان زجاجها مكشوفاً. راقبت ظل الفتاة، وحبست أنفاسها من شدة شعورها بالخوف. كان ظل شقيقتها يتجاهل مراقبتها لها. كانت تقف مولية ظهرها للباب ووجها للنافذة. ثم فجأة بدأت تطفو في الحجرة، وترتفع رغم أن الجاذبية كان تسحب يدها إلى الأسفل تاركة أطرافها تتراخى.

دار جسد جوليان في الهواء، وأصبح وجهها مقابلاً لعين سريزا الوحيدة التي كانت تراقب جوف الحجرة. كانت عيني جوليان متوهّجتان في الظلام، وكانتا تشعان بنور أبيض واضح. وجّهت جوليان عينيها مباشرة إلى فتحة القفل، وأخذت تتحرّك في الهواء مقتربة من الباب. ابتلع الظلّ جسد جوليان، وتركها محاطة بهالة سوداء، لكنّ عينيها كانتا تراقبان الفتحة، ثمّ التصق جسدها بالباب، فابتعدت سريزا عنه. سمعت سريزا صوت حركة المقبض، ثم رأته ينخفض ببطء.

صرخت الفتاة، وراحت تزحف نحو الخلف محاولةً النهوض. فُتِح الباب وانفرج قليلاً تاركاً فسحة سوداء صغيرة. في الجانب الآخر، خرجت دوروثي جرياً إلى الممر، والنعاس مرسوم على وجهها. "هل أنتِ بخير؟، لا تقلقي إنني هنا". ضمّت دوروثي الفتاة الواقعة على الأرض، وقالت: "أنا معكِ. لا تخافي".

بكلتا يديها قبضت سريزا على ذراع دوروثي، وقالت محاولة ترتيب كلماتها: "هنا، هي.. إنها". أشارت بيدها إلى الباب. فالتفتت دوروثي لتراقب الباب المفتوح قليلاً، والذي لا يُظهِر إلّا عتمة غرفة جوليان.

"من هي؟ جوليان؟". ابتلعت سريزا ريقها، وهزّت رأسها إيجاباً، بينما كانت تراقب الباب متوقّعة خروج جوليان في أية لحظة. قالت دوروثي: "لا يوجد أحد هنا. أنا وأنتِ فقط".

أرادت سريزا أن تبرهن العكس، لكنها لا تملك أي دليل. ابتعدت دوروثي، ودفعت باب حجرة جوليان، وأشعلت مصباح الغرفة، فكانت خالية. قالت لها: "لا يوجد أحد هنا، انظري. سأترك الباب مفتوحاً لو كان هذا يُشعِركِ بأمان أكبر".

"لا، أغلقيه". نهضت سريزا، وأطفأت نور الحجرة، وأغلقت الباب كأنها تحجب كابوس جوليان العالق فيها، وذكرياتها. ابتعدت عن الباب بحذر كما لو أنه سيفتح في أية لحظة، وسيتجدّد خوف سريزا.

عرضت دوروثي على سريزا، أن تنام معها في حجرة والدتها. لكنّ لوالدتها أيضاً ذكريات سوداء، وهي لا تريد أن تتفادى كابوس جوليان، فتقع في ذكريات والدتها. هذا المنزل كله عَبِق بالخوف، وكل ما تريد سريزا نسيانه عالق بين هذه الجدران. أرسلتها دوروثي إلى سريرها، وودَّعتها كما لو أنها طفلة.

نادت سريزا خالتها قبل أن تغلق الباب، ثم قالت لها: "شكراً لأنكِ معي".

"لا تشكريني على ما أودُّ أنا فعله. هيا نامي الآن، ينتظركِ يوم طويل آخر". فكّرت سريزا في عبارة دوروثي، هل كانت تحثُّها على تحدٍّ آخر؟ هل تطلب منها الصبر؛ لأنّ هناك وقتاً طويلاً سيكون المرور خلاله صعباً؟، كما لو أنّها تعبر في الوحل؟ الوقت في كل الأحوال سيمضي لن ينتظر أفكار سريزا، وسينتهي هذا الكابوس كله في لحظة ما، لكن سريزا لا تعلم كمَّ الصعوبات الذي ستسمر به حتى ينتهي هذا الطريق.

***

"أحياناً أفكّر في قدرة بعض الأشخاص على الهروب من الماضي، كيف يمكننا الابتعاد عن ماضينا، وحياتنا الحالية مبنية فوق كل تلك الذكريات.. بل إنّ تكويننا الآن أساسه ذلك الماضي؟". لم تكن سريزا توجّه سؤالها لأي من أعضاء النادي. كانت تتحدّث كما لو أن الفراغ هو ما يحيط بها.

"يمكننا اعتبار الأمر حدثاً منتهي الصلاحية". قال ماركوس، ثم أردف: "طالما عشنا الماضي، وانتهى مفعول حضرته، يجب أن ندرك بأننا نملك وقتاً يدعى الآن، وعلينا الخوض فيه، وعدم تركه للتداعي".

ابتسمت جوليا وهي تقول: "أوافقكَ على هذا". كانت مفتونة في تلك العبارة، وهي تحاول تطبيقها بالفعل، رغم غصّة ما فعله بها غياب آدم. "قد يترك الماضي ندوبه مهما اختلف شكلها. فقدان الأوقات السعيدة يترك شعوراً خانقاً، وكذلك الذكريات المؤلمة تعطي دفعاً لتخطي الصعوبات".

أظهرت فيوليت بعض التعاطف مع سريزا: "لكن قد لايكون تطبيق

النظريات الإيجابية أمراً سهلاً دائماً. الفوضى الموجودة في داخلنا لا يصلحها شيء، ربما نحتاج لإشعال النيران في كل ما اكتسبناه سابقاً، وترك فراغاً جديداً، وإن كانت رائحة الرماد ستبقى عالقة".

قال ليو: "ما الفائدة، طالما رائحة الماضي عالقة، نحن لم نفعل أي شيء".

"مهلاً، مهلاً". تدخَّل مارك. "أتفقُ مع الفتاة في أن إلقاء النظريات سهل، ولكن أيضاً بالمقابل إنَّ تفادي كل شيء والبدء من جديد، ليس هو الحل الأمثل. قد يكون التعاطي مع الأمر بحذر وبتفهُّم هو أبسط شيء".

نظرت كاميلا إليه، وهي تجلس بكسل عاقدة ذراعيها، ثم سألته: "وهل هذا ما تفعله أنت؟" في تلك اللحظة رمقها ماثيو بنظرة خجل. كان يشعر بالخجل، كما لو أنه هو مَن ألقى حجره على مارك. هزَّ مارك رأسه بأسى بإشارة ما بين النعم، واللا.

ردَّ ماثيو في تلك اللحظة: "بلى، ما أراه هو أنَّكَ تحاول التعايش بشكل طبيعي بعد خسارتكَ". أظهر مارك ضعفه، ولم يجاهد للبحث عن ردّ.

حاولت سريزا استلام زمام الأمور من جديد، وقالت: "نحن نعيش في كل الأحوال؛ لأنّ الحياة تتطلّب ذلك، وإنْ كانت عابقة بالغموض، وبالأسئلة التي لا جواب لها. نحن ببساطة نخشى أن نقفز إلى جانب لا نعلم تحديداً كيف سيبدو شكله".

طال النقاش بين الأعضاء الثمانية، لوقت أطول. وعندما شعروا بالهدوء الذي عمّ خارج المرآب، أدركوا أنّ الساعة قد تقدَّمت بهم حتى وقت متأخِّر. نبههم ماركوس قائلاً: "لنكتفي اليوم بهذا القدر، على أن نلتقي في موعد آخر. إنني أشكركم على وجودكم اليوم. تذكَّروا بأن الغاية من وجودنا هنا هي أن ندعم بعضنا البعض".

نهضوا وسبقوا ماركوس إلى الخروج. انقسم الأشخاص الثمانية إلى أربع ثنائيات. سارت سريزا بصحبة ليو، الذي عرض عليها أن يُقِلّها بسيارته الخاصة. بينما فيوليت كانت ما تزال في نقاش قويٍّ مع ماثيو الذي كان يسايرها ملوحاً بيديه لها. في تلك الأثناء كان مارك يجلس بجوار جوليا كي تقِلّه إلى طرف البلدة، حيث كان يقع منزله. ظلَّت كاميلا داخل المرآب تساعد

مارك على إغلاق كل شيء.

للمرة الأولى تجلس سريزا في وقت كهذا بجوار رجل لا تعرفه. كانت هذه المرة الأولى التي تجلس فيها بجوار ليو في سيارة واحدة، إنها لا تعرفه إلا حديثاً، ورغم ذلك كانت تشعر بأنه الأقرب إليها من بين الأعضاء كلهم. لم تخبره كيف وجدت دعوة النادي، لكنها كانت ممتنة؛ لأنها عرضت عليه الوصول إلى هنا.

"هل تزورها؟ أقصد صديقتك".

فكّر ليو في الشخص المقصود، وعندما أدرك أنها تريز قال: "أحاول ذلك. الأمر معقد قليلاً".

"أنا أعتذر على التطفل". أخبرها ليو بأنها لا تحتاج للاعتذار. "لا أجيد نبش الجراح القديمة، لكن هذا ما طرأ في ذهني فجأة". اعتذرت من جديد ووجهت بصرها نحو الطريق. كان الصمت ثقيلاً، وودَّت لو تمدُّ يدها وتشغل المذياع، لكنها لم تملك الجرأة.

"إنّ الأمر معقد فعلياً. عائلة تريز تحقد عليّ، ووالدتها تفضّل موتي، أو موتها على رؤيتنا معاً من جديد. هناك مئة عائق بيني وبينها. يظنون بأنني السبب في وصولها إلى ذلك. لكنْ بعيداً عن الظنون هذه هي الحقيقة".

ردّت سريزا: "لا تلقِ باللوم على نفسك. ما حدث قد حدث، ولا يستطيع أي شيء في الحياة تغيير الحاضر".

"أحاول التفكير في ذلك. لقد مضى وقت طويل، على شكل علاقتنا السابق، والآن الأيام تحطُّ غبارها على كل شيء. أفتقدها.. لكنني أشعر بانسحابها البطيء عن عالمي. شعوري بالذنب أيضاً يمنعني من الابتعاد عنها، لا أستطيع تجاوزها بعد أن وضعتُها في تلك الحالة، هذا يشعرني بأنني وغد".

تردّدت سريزا قبل أن تسأله: "من منكما جرَّ الآخر على الإدمان؟"

"كانت تتعاطى عندما دخلتُ حياتها أنا".

"إذن: هي من جرّتكَ إلى هذا... فلماذا تشعر بالذنب ياترى؟! كان من الممكن أن يؤول بها الحال إلى ما هي عليه، من دون أن تدخل أنتَ عالمها. ثم

إنكَ قاسيت هذا دون اختيار منكَ".

ردَّ ليو فوراً: "كان التعاطي قراري. شعرتُ بأنَّ الحبَّ يستحقُّ أن أرمي نفسي خلال ذلك من أجله".

"ليس الاندفاع مع الحب صائباً دائماً". قال ذلك بثقة توحي بأنّها خاضت تجارب طويلة في الحب. لكن عندما سألها ليو ما إذا كانت قد عانت من قبل بسبب الحب، فأجابت: "لا، لم أقع في الحب الحقيقي بعد. لم تكن لدي أية علاقة أشعر بأنّها حقيقية. عشتُ حياتي وأنا أشعر بأنَّ الأشخاص فيها وهميون، وأنّهم مجرد إضافات لتتم القصة بطريقة مثالية".

"تتحدثين عن الحب، كما لو أنكِ عانيتِ الخيبة بسببه".

ضحكت سريزا وقالت: "ليس من الضروري أن نتألم، أو أن نمرض حتى نشعر بمعاناة ذلك".

"وهل الحب ألم؟ أم أنّه مرض؟"

قالت بسخرية: "أحياناً يكون كذلك. أرى من عانوا بسببه أحياناً". كان أول من خطر ببالها هو دوروثي، وارتسم وجه خالتها أمامها. لكنّه زال، وعادت ملامح الطريق أمامها.

"حسناً ها قد وصلنا إلى وجهتنا". قالت بمرح كأنّها مستعدة للتخلص من هذا الحجر الصغير. كانت تمسك مقبض الباب، وتكاد أن تفتحه، لكنها تراجعت لتقول لليو: "شكراً لك".

أجابها: "لا داعي للشكر". وعندما التفتت لتترجل من السيارة، قال ليو بتردد: "في الواقع كنتُ قد ذهبتُ إلى المقهى في الليلة الماضية، وتوقعتُ أن تكوني هناك برفقة ذلك الكتاب، الذي لا أعتقد بأنه سينتهي، لكن.."

قاطعته سريزا: "عدتُ لمباشرة عملي من جديد. كنتُ في إجارة بسبب وفاة والدتي. انتهت إجازتي الآن".

شعر ليو بالخزي؛ لأنه بالكاد يعرف هذا، رغم كون وفاة والدتها ماتزال حديثة العهد. "أنا آسف لخسارتكِ والدتكِ!".

أرادت أن تخبره بأنّ ليس عليه الأسف؛ لأنَّ علاقتها بوالدتها ليست كما

يتصوّر هو. لكنّها احترمت غياب والدتها وتركت للحظة عظمتها وحزنها. تراجعت وارتخت في مقعدتها، وراقبت ضوء السيارة الذي كان يُشكّل حلقتين على الطريق أمامها. كانت المنازل هادئة، والسكون يهبط على الحي كله.

"بالمناسبة يمكنكَ أن تتواصل معي عبر الهاتف، ليس عليكَ التردّد على المقهى من أجل ذلك. لو ولدنا قبل ثلاثين عام، لكان لذهابكَ إلى هناك بريق آخر. لكننا الآن في الألفية الثالثة". ضحك ليو سابقاً إيّاها في فعل ذلك. أخرج هاتفه، فأدخلت أرقام هاتفها، واتصلت به، وبينما كان الهاتف يتّصل أعادته لليو.

ترجّلت من سيارته، وشكرته من جديد. سارت باتجاه الباب فشعرت باهتزاز هاتفها من دون صوت. كان الرقم الظاهر غير مسجل لديها. أجابت مدركة أنّه هو: "سريزا تتحدث".

"نحن نتّصل من المقهى لنخبركِ بأنّ زاويتكِ سيحتلها أشخاص غرباء".

"حذّروهم من فعل ذلك، لدّي كتاب ضخم أنوي إنهاءه في إجازتي القادمة". انتهت المكالمة بعد أن تمنّى كلاهما لبعض ليلة سعيدة. دسّت الهاتف في جيبها، وفتحت باب المنزل. كانت دوروثي نائمة، بينما كان المنزل عابقاً برائحة النظافة، وقد ملأ الظلام زواياه.

في تلك الليلة نامت سريزا بهدوء مرة أخرى.

6

مايزال إيفان يبحث عن أي طرف لخيط من خيوط جريمة جيمي. ما تزال صور الطفل تلاحقه، وتتهمه بالتكاسل، وتعايره بالفشل. لكن هذا لم يكن يفشل إيفان الأول، ولم يفقد في حياتها زمام السيطرة على هذه القضية. كان رجال شرطة يفقدون عزمهم وحماسهم طالما كل الطرق التي تؤدي إلى إثباتات مغلقة. أما والدة الطفل فهي تفقد عقلها، وتبتعد عن هذا العالم مع مرور الأيام. حاول إيفان التواصل مع والد جيمي كثيراً، لكن والده لم يبقَ طويلاً؛ لأنه سافر من جديد. وعندما اتّصل به إيفان مرة أخرى، صاح به: "اسأل تلك البلهاء، لقد قتلت ابننا". ثم أغلق المكالمة في وجه إيفان؛ ليعلن عندها أنه يرفع يده من هذه القضية، وأنّ خسارة ابنه هي المعضلة، وليست الطريقة التي مات بها.

لا يعلم لماذا قاد سيارته حتى طرف البلدة، حيث يقع منزل جيمي ووالدته. كانت الشبابيك تلمع بوهجٍ عسلي بدا لإيفان وكأنه مقتبس من أيام الربيع. لكنّ الأشجار المحيطة بالمنطقة كانت تعلن عن الخريف وبقوة. راقب المنزل الخالي، والذي توحي جدرانه بفقدان الحياة فيه.

ترك سيارته على الطريق المغطى بالحصى، وسار على الأرض التي مات عشبها، وسمع وقع أقدامه فوق أوراق الأشجار الميتة، التي ساقتها رياح أكتوبر إلى هنا. وصل إلى باب المنزل، وضغط على الجرس، لكنه لم يسمع صوت أي شيء. لذلك نقر على الجرس. بعد وهلة قصيرة سمع إيفان وقع خطوات قادم من بعيد يقترب مع كل خطوة. كانت الخطوات تدبُّ الأرض بغضب. وعندما فُتِح الباب تفاجأ إيفان بالتغيير الحاصل.

ظهرت والدة جيمي خلف الباب، وهي ترتدي ثوباً طويلاً نُقِشت عليه ورود كبيرة بدا واسعاً عليها، وهي بوجهها الشاحب كان الجلد يرتخي فوقه. خسرت وزناً كبيراً في أيام قليلة. إنّها تذبل هذا ما خطر في بال إيفان، لكنها على الأقل لا تنتظر. على عكس الآخرين. نحن متورطون بالانتظار؛ لأننا لم نتعلّم يوماً بأنّ الوعود قد لا يوفى بها. بل كُنّا نعتقد بأنَّ معنى الكلمة ثابتٌ، لم يشرح لنا أحد أنَّ الإخفاقات لا توازي الانتظار في سبيل واحد.

"لقد أتيتَ، ادخلْ.. ألا تدخل؟". تنحَّت الأم عن المدخل، لكنها ظلّت تشير

لإيفان بيدها. تبعها إيفان، وابتعدت هي بخطوات مرتجفة جعلتها تبدو كأنها في العقد السابق من عمرها. عادت حاملة بعض الأوراق البيضاء. كادت أن تفردها في الهواء، لكنّها أدركت غباء ما تفعله، فسارت حتى وصلت إلى طاولة القوة في غرفة المعيشة. جلست على ركبتيها وبدأت تفرق الأوراق عن بعضها.

في كل ورقة طُبع وجه لم يكن له أي تقسيم، كأنّه إبهام أسود كبير تشكّله خطوط بيضاوية عديدة تجاورت. وفي النصف العلوي من الوجوه فراغ أبيض وهو لون الورق الأصلي. "رسمها هو، رسمها جيمي". ازدردت الأم ريقها ثم أكملت: "كان يخبرني بأنه يراه، لكنّني لم أصدق".

"من هو؟" سأل إيفان بجدية.

"السيد ثلاثاء، هو الرجل الغريب. إنه شيطان، سيبتلع الجميع، سيأخذ كل شيء معه. كان يهذي في نومه حتى، لكنني لم أصغِ إليه.. إنني لا أصغي". راحت تبكي فجأة وأصابعها بين شعرها. جلس إيفان بجوارها، وراح يحرّك الأوراق بأطراف أصابعه.

"هل تعرفون هذا الرجل من قبل؟ هل سمعتَ به؟ هل هو مشهور؟"

التفتت الأم فجأة، وقالت بغضب: "رجل، إنه ليس رجلاً. إنه لا يشبه أحداً.. هو شيطان. ألّا تفهم؟ شيـ.. طان!!". ظلّت الدموع تلمع فوق وجنتيها، لكنّها صمتت وراحت تفكّر في شيء ما قبل أن تقول من جديد: "إنه يزورني، هو يحذرني.. ويحاول التلاعب بإعصابي. يعتقد الجميع بأنني مجنونة، لكنّني لستُ كذلك".

"أنا أصدقكِ. سآخذ هذه الأوراق معي. هل تسمحين لي بذلك".

راحت الأم تنتحب بصوتٍ حاد: "خُذها، لا حاجة لي بها؟ خُذ كل شيء، لن يعود جيمي أبداً.. خُذ كل شيء".

حاول إيفان أن يساعدها على النهوض، لكنّها دفعته، وراحت تبكي بحسرة أكبر! سألها إن كان عليه الاتصال بأي شخص، لكنها لم تجبه. تركها إيفان، وسار إلى الخارج حيث ترك سيارته.

7

لم يعد لذكرى آدم ذات الوقع القوي على جوليا. لكنها تتألّم أحياناً، كلّما تذكّرت محاولتها الأخيرة لإصلاح حياته. فكّرت كثيراً في شأنها هي في حياته، أو حتى في اختياراته الخاطئة. فليخطئ، ما الذي يعنيها في هذا الآن؟ لقد أصبح متجر الكتب هو ما يستهلك وقتها، لكنَّ قدرتها على النوم كانت تخفتُ ببطء، لم يكن تأثيره قوياً عليها حتى الآن. لم تكن من الأشخاص الذين يفكّرون في الوقت، ولم تكن تخوض سباقها معه.

تعتقد جوليا أنّها الآن أجمل من أيّ وقت آخر، وعندما تنظر في المرآة تشعر برضا يتسرّب إليها، مهما حاولت أفكارها السوداء تشويهه. المقارنة بين الموت والحياة، تجعل أصغر تفاصيل الحياة هامّة، ممتعة، وجميلة حتى. كانت تتردّد على زيارة النادي مع مارك في كل الجلسات الأخيرة، وخارج النادي، كان مارك يزورها، وهو فقط صديقها الوحيد من بين الأعضاء الثمانية. كان يبدو شخصاً مختلفاً، وأحاديثه عادةً ما تكون أكثر متعة، عندما يكون لقاؤهما محصوراً في متجر الكتب الخاص بها، أو في مقهى سان رايز. كانت ترى في عيني مارك حرباً ما تزال قائمة، وهو مايزال يحاول المقاومة، مهما رسم عكس ذلك في وجهه. لا تستطيع العينان إنكار الحقيقة.

حتى الآن تجهل جوليا تفاصيل قصة مارك كاملة، لكنها لا تلحُّ عليه للبوح بها، ولا تجد في داخلها ذلك الفتيل، الذي يزعجها لمعرفة ما يريد معرفته تجاه مارك. كانت تجد فيه الإحساس بالأبوة أحياناً، وفي أحيان أخرى يكون هو الصديق الأقرب؛ لأنها الآن وحيدة دون أصدقاء. ابتعدت جوليا تاركة الجميع خلفها، والصديقة الوحيدة لها، ستصبح زوجة طليقها قريباً. لم يسعَ أحد للوصول إليها من جديد. في الماضي كان الناشر يحاول الوصول إليها في أي مكان؛ راجياً إياها أن تتمّ القصة بالجزء الثاني، الذي سيختم أحداث ملحمة الفضاء التي ألفتها هي. لكن الآن ناشرها مشغول بشغف آخر، وبأسماء براقة جديدة. لم يعد المعجبون يرسلون لها الرسائل بالقدر ذاته في الماضي. اقتنعت جوليا بما حدث، ويكفيها الآن ما تملكه، وفي وقت لاحق حين يرسل لها القدر إشارة البداية، ستعود إلى كل الحطام الذي تركته. لكنَّ جوليا حتى الآن لا تعلم متى سيعود هذا الوهج إليها.

لم تحاول الوصول إلى آدم من جديد، لكنّها تفكّر به. وفي أحيان قليلة،

تتساءل عن الحب، إنْ كان ينبض في قلبه ويتعمد كتمه هو، أم أنَّ صوت ذكرياتها لم يعد موجوداً، وفي الليالي التي كانت لا تنام فيها جيداً كانت ذكرياته تزورها بقوة أكبر. يتحدّث صوتها الخاص: هذا هو إرث كل الوعود الأخيرة، رحلنا وظلّت هي على قيد الانتظار. وكان التراث هو ذكريات فقدت صوتها الآن؛ لأنَّ الذاكرة تحمل بقايا شعور، لكنّها لا تعيد حتى صدى الصوت. أيّ انتقام هذا؟ لماذا تركنا العهود؟ نحن ندرك بأنّنا لا نلتقي، ولن نلتقي لأجدد ما زرعته، وتركته يفسد في قلبي دون أن يجد مخرجاً له.

يجب أن تنساه تماماً كما استسهل هو ذلك. يجب أن يشعر بالذنب كما تشعر هي. جوليا الآن لا تريد معرفة شكل حياته، حتى وإن كان حنينها يلحُّ عليها، كل ما تريده هو أن تسرقها الحياة. ألا تجرف الحياة من يرحلون عنّا؟ لماذا إذاً لا يصحبنا النسيان بعيداً عنهم؟ لماذا يصبح النسيان قاسياً على من يرجونه؟

لفَّت جوليا رقبتها بوشاح رقيق، كان ملمسه يؤكّد لها دخول فصل الشتاء. وكان البرد يندفع بقوة هذا العام، جاعلاً أيام الخريف قصيرة، والمساءات طالت بطريقة مباغتة. عندما فتحت باب سيارتها، ركنت سيارة إيفان خلفها، أخفض زجاج النافذة بعد أن لمحته هي. تساءلت جوليا عن سبب وجوده هنا، لكنّها عزت الأمر للمصادفة قبل أن تسمع تبريره.

صاح وهو في مقعده: "من الجيد رؤيتكِ. كنتَ مارّاً من هنا".

دفعت جوليا باب سيارتها لتغلقه. وسارت إلى طرف الرصيف. "من الجيد رؤيتكَ هنا أيضاً". فتح الباب، ودفع جسده إلى الخارج. أصبح رأسيهما يعلوان سقف سيارة إيفان.

"يبدو أنكِ مرتبطة بأمر ما".

"أجل". ارتسم الإحباط على وجهه، وظلَّ الفضول ظاهراً. "مركز التأهيل.. موعد دوري. في الواقع كان يفترض بي أن أنهي كل مواعيدي، لكنهم يريدون التأكد من شكل حياتي". ظهر التفهُّم على وجه إيفان الذي كان فاغراً فاه. "لا أعلم كيف تبدو لهم حياتي مثالية، من خلال حضوري إلى هناك، ألا يجدر بي اصطحاب حياتي على سبيل المثال؟"

"إذا أردتِ يمكننا الذهاب إلى هناك معاً، ثم نخرج لشرب القهوة، أو تناول الغداء حتى".

لم تتردد جوليا قبل أن تقول: "بما أنكَ أنتَ من ورَّطني بهذا الاتهام، وجعلتَهم يصدقون فكرة انتحاري، فأنا أوافق كتعويض لي عمّا حدث". هزّ إيفان رأسه بأسف مصطنع. ضغطت جوليا على مفتاح سيارتها حتى تغلق القفل، ثم توجّهت إلى سيارة إيفان.

قاد سيارته دون أن تُعلِمه جوليا بوجهة الطريق. فكّر في أنّها لا تبدو كمن يزور مستشفى، ولا تستعد لكآبة ذلك المكان المعزول، بل كانت أنيقة أكثر مما تبدو عليه في العادة. طرد المقارنات من ذهنه؛ لأنها كانت تشعل في رأسه غيرة وجودُها سيكون خاطئاً. قال لها ليكسر الصمت: "يصبح الجو أبرد في كل يوم".

"أجل، هذا صحيح. لا أعرف كيف سنصمد عندما يحين وقت الأعياد". تخيّلت جوليا شكل النهر في نهاية العام، وتخيلت شكل المدينة يكتسي باللون الأزرق الممزوج بالرمادي، وكيف أنّ لون الشتاء هذا سيطغى سريعاً على الجو.

وبسبب شعور جوليا ببعض القلق، لم تشعر بطول الطريق، بينما العاطفة الغريبة الموجودة في قلب إيفان كانت هي العامل الذي جعله يفقد لذة الطريق باكراً. ترجلت جوليا من السيارة، وطلبت منه الانتظار خارجاً. راحت، وسحبت معها الهدوء الذي أحاطته به. عادت ضوضاء العالم تحيط به. جلس في حديقة المستشفى مراقباً الممرضة والزائرين، وكان يلعب لعبة رجل الشرطة من خلال وجه الغرباء. جلس محاولاً تحليل ما يقوم به كل شخص لا يتمكّن إيفان من تحليل صوته، أو من سماع كلماته، وفهمها.

مضت نصف ساعة شعر إيفان معها بأنّ الانتظار هو أسوأ ما ابتليت الخليقة به. لم يكن يشعر بالملل، بقدر ما هو قلق على جوليا التي طال اختفاؤها دون أية إشارات. لم يكن يفكّر في كون هذا المكان مستشفى، وأنّ آلية العمل تتطلب العمل بأريحية.

عندما خرجت جوليا، نهض هو من كرسيه بسرعة متجهاً إليها. زال القلق الذي خرجت به من منزلها، وبدت مرتاحة أكثر. سألها هو: "هل أنتِ بخير؟ هل سارت الأمور كما ترغبين؟"

ابتسمت جوليا في وجهه ثم قالت: "سارت الأمور كما تريد الحياة. هيا

لنخرج من هذا المكان الجهنمي. لا أريد حتى المرور أمامه. هذه المرة انتهيت منه تماماً". خرجت جوليا، وتبعها إيفان وهي تتجه إلى سيارته هو.

"أنا أشعر بالأسف حقّاً لكل ما يحدث". قال لها وهو يدير المحرك.

"ليس عليكَ أن تشعر بالأسف تجاه أي شيء. أنتَ أنقذتني، ويجب أن أشكركَ. هل شكرتُكَ من قبل؟" ضاقت عينا جوليا وهي تراقبه. رفع رأسه، وزمّ شفتيه بينما هو يحرك رأسه كطفل ينفي تهمة ما. ابتسمت جوليا، قبل أن تلكم كتفه بخفة، وتقول: "حسناً يا صاح، شكراً. أنا على قيد الحياة بسببكَ".

ابتسم إيفان من دون إرادة منه. أعاد تكرار المشهد الصبياني في ذهنه، وتأكّد من أنه ينجرف باتجاه عالم جوليا رغماً عنه: "هل يمكننا الآن الجلوس في أي مكان؟"

"يجب أن نتناول غداء النصر". لم يرفض إيفان الفكرة. قاد سيارته بصحبة جوليا إلى مطعم الشاطئ. وأصبحت المنارة تطلُّ على الجانب الآخر من المطعم. لم تتمكّن جوليا من تجاهل وجودها، ولا من تخيُّل السماء التي تراها في كوابيسها وهي تحيط بالمنارة.

جلسا حول طاولة قريبة من مدخل المطعم، رغم عدم ازدحامه. كانا بحاجة إلى تيار الهواء البارد لإنعاشهما طوال الوقت. لم تنتبه جوليا إلى الملف الموجود بيد إيفان إلّا بعد أن تركه على الطاولة بينهما. كان للملف لوناً أحمر قاتماً غير عاكس. لم ينتابها الفضول لمعرفة سبب وجوده هنا، إلا بعد أن فتحه إيفان، وظهرت الرسومات المرعبة خلال لمحة سريعة أمام عيني جوليا. فكّرت في سؤاله، لكنها أجّلت الأمر إلى ما بعد اختيارهم للطعام.

"سأكتفي باختياراتكِ لأصناف الطعام يا جوليا".

"هل تعلم بأن هناك حالات تعاني من اضطراب نفسي مع تعدد الخيارات. ترفض أن يكون أمامها خيارات عديدة، أو أن تتحكَّم هي في زمام الاختيار. أعتقد بأنني أعاني من هذا مبدئياً". قالت وهي تنظر إلى قائمة الطعام، ثم أردفت: "لكنني سأختار في كل الأحوال". اختارت جوليا طبقين متشابهين لهما، شريحة لحم لكل منهما. لم يعترض إيفان، بل أخبرها بأنه بالفعل يفضل هذا.

سحب إيفان ملفه الأحمر، وجعله ينتصف الطاولة تماماً. قال لها: "أريد أن أريكِ شيئاً". فتح غلاف الملف، فظهرت الرسمة الأولى، وهي صورة لوجه عديم الملامح نصفه العلوي يتكوّن من عينين فارغتين كبيرتين. نظرت جوليا بإجفال، متظاهرة بعدم الاكتراث. لكنّ ما رأته جذبها أكثر إلى الصورة. اختفى تعبير اللامبالاة، وظهر الاهتمام.

"من رسم هذا؟" سألته.

همس إيفان: "جيمي. لا أحد يعلم هذا، والشرطة ستتحفظ على الأمر، وستدَّعي بأنه خيال طفل خائف، وحيد، يعيش في بلدة صغيرة يكتنفها الرعب. لا أريد إقحام الشرطة أكثر في دلائل وهمية تفسد القصة". كان لإيفان وجهة نظر مختلفة عن معتقد جوليا.

"قد لا يكون هذا دليلاً هاماً، لكنَّ الأمر مخيف فعلاً". عدَّلت جوليا من وضعية الورقة لتقابل عينيها. "ليس هنالك أي شيء غريب في هذه الرسمة، لكنها تبدو كما لو أنّ هذا الشيء يصرخ، لكنّه لا يملك فماً. كل ما لديه هو عينان اتَّسعتا إلى حد إظهار الخوف".

ردّ إيفان: "هذا ما شعرتُ به".

"هذا غريب!". قالت جوليا. رفعت عينيها لترى إيفان، ثم أخذت تجذب ما تبقى من صور ليست مكتملة. قرأت جوليا ما كُتِب عليها: "السيد ثلاثاء. ألم يكن هذا هو العرض المُتنقِّل". هزَّ إيفان رأسه إيجاباً. "هذا غريب، أنا أشعر بأنني أعرف كل هذا. لماذا تريني هذا؟"

"لا أحد سيصدقني. الجميع تخلّى عن الجنون الذي يقف في ظهر الحقيقة تماماً، وهم ينتظرون الحقيقة التي قد لا تأتي. لن يفعل ذلك معي سواكِ يا جوليا. لا أريد أكثر من التفكير معكِ".

"إيفان أنا أعرف كل هذا. كما لو أنني مررتُ به قبل ذلك". قلَّبت جوليا الأوراق القليلة، حتى ظهرت لها صورة عين كبيرة مرسومة بطريقة طفولية. وفي ظهر الورقة رسم منارة جدرانها مائلة، ليست متساوية، وهذا ما يمكن لطفل أن يرسمه. لكن جيمي أكبر من أن يرسمها بهذا الابتذال. كانت كلمة المنارة تصدر خطوطاً رُسِمَت بالحبر الأسود متَّجهة إلى السماء. "أرى هذا

في أحلامي. هذه الوجوه.. المنارة، كل شيء". تأمَّلت جوليا كل الصور، ثم أغمضت عينيها محاولة استرجاع كل صور الأحلام الضبابية. ظهر ظل غريب يقف في شارع مظلم. يرتدي نظارات زجاجها يلمع ببريق رغم أنَّ الظلام كان يلفُّ الشارع.

السيد ثلاثاء. إنها أفكار أندي.

"إنها ليست أحلامي وحدي يا إيفان. أعتقد بأنّ هناك من يستطيع مساعدتنا، لكنّنا لا نستطيع الوصول إليه، بل هو من يجب أن يأتي إلينا. شكوككَ ليست بعيدة عن الواقع، لكن لا تنسَ بأنها شكوك ليست أكثر من ذلك".

ضرب إيفان على الطاولة الخشبية بخفة، ثم قال: "علمتُ ذلك. أنتِ تستطيعين صنع المعجزات". تلاشى الواقع وظهر أمامها آدم، كان الصوت الذي يخبرها بهذا هو آدم وليس إيفان. انقبض قلبها فجأة، وامتلأ بحنين غريب، جاهدت جوليا لكي تكمله، ولا يظهر في عينيها أمام إيفان.

لماذا علينا ألّا نكون معاً؟

"هناك أمر لا يمكن تفسيره خلف كل هذا، ولأوّل مرة أحاول الإيمان بأشياء لا وجود لها. أشعر بالخوف أحياناً، لكنَّ هذا يجب أن ينتهي".

ردّت جوليا: "الإيمان يجعل الأشياء حقيقية، ولكن الخوف يطغى علينا". وعدته جوليا بأن يتوصَّلا إلى حلٍّ ما، لو كان للأمر ارتباط بالواقع، وطلبت منه الانتظار. لم تكن تريد إقحام أندي في الأمر. لكنّه طفل مميّز، ويعرف مقداراً يكفي؛ لكي يسدَّ فراغاً في حكاية إيفان. ثم إنّها تشكُّ بوجود خطر يحيط به. لكن كيف ستجده؟ هل سيعود الطفل إلى المكتبة؟

أغمضت عينيها، وفكرت في الرابط الموجود بينهما وبين الطفل، فكَّرت في أنَّ هذا الرابط قد يكون وسيلة اتصال ذهنية، يمكن من خلالها إرسال إشارة له بأن يأتي إليها، طالما هي لا تعرف عنوانه، ولا يمكنها ببساطة أن تطرق الباب، وتطلب من الأم مقابلة طفلها، لسبب لا يمكنها البوح به لها.

جمع إيفان كل الرسومات، وأزاحها عن الطاولة تاركاً فراغاً يكفي لوضع الأطباق القادمة فيه. تناسى كلاهما أمر جيمي والرسومات، وعادا إلى الواقع

الذي يمضي بهما الآن.

عندما خرجا من المطعم كانت ساعات النهار تتقدَّم. عرضت جوليا على إيفان أن يرافقها إلى متجر الكتب إن كان متفرغاً لذلك. لم يكن لديه أي عمل آخر يتولّى تحقيقه متأخراً، ولا أحد متحمس للعمل فيه. رافق جوليا إلى متجر الكتب، وكان خير عون لها في خدمة الزبائن. وما أن غابت الشمس حتى تلاشى قدوم الزوار في هذا اليوم. أغلقت المتجر باكراً، وبهذا تكون قد أنهت كل نشاطاتها.

"هل ستعودين إلى المنزل الآن؟" سألها إيفان.

"أجل، لم يتبقَّ لي سوى هذا الآن". أقلّها إيفان بسيارته إلى منزلها. ودَّعته هناك، ولم تنتظر طويلاً في الخارج؛ لأنَّ برودة الهواء ازدادت في المساء. هرولت جوليا إلى باب منزلها، بينما كان صوت محرك سيارة إيفان وراءها يبتعد.

امتصَّت جدران منزلها الهواء الخارجي. واكتست أروقة المنزل الصغير بالبرد. توجّهت جوليا فوراً إلى غرفتها لتبدل ثيابها. فتحت حاسوبها بعد ذلك، وراحت تتطفل على مدونة آدم. لم تجد في مدونته أي جديد، وآخر ما قام بنشره من خلالها هو إعلان خطوبته من سارا.

فكرت في تلك الحياة التي أصبحت جزءاً من الماضي. كذلك تردَّد صوت آدم في ذهنها: "أنتِ وحش... قاتلة!!". فكرت جوليا فيما يصنع الوحوش. ألسنا نحن من نصنع الوحوش، ونتصوّر مدى بشاعتها، كلما تفاقم في داخلنا شعور الخوف منها. ليست الوحوش إلا تصويراً لفكرة خاطئة نرسمها نحن تجاه أمرٍ نشعر حياله بالذنب أو بالخوف. لكننا لا نندم على الأخطاء؛ لأننا نصنعها أحياناً بغرض تشويه الواقع الذي نرفض وقوعه علينا.

أحاطت بطنها بكفّها، وأخفضت رأسها، وهي تتذكَّر لحظات الألم التي تخلَّصت خلالها من جنينها. في تلك اللحظة سمعت صوتَ بكاء طفل رضيع أتِ من ركنٍ في المنزل لا يمكنها تحديده. كان الصدى يتردّد في كل الزوايا. ارتفع الأدرينالين في دمها، وشعرت بقلبها ينبض بعنف.

من هذا الذي يلعب على أوتار الخوف والذنب ليدمرها؟

8

رحل إيفان تاركاً جوليا تسير نحو منزلها. لكن في المرآة المعلّقة في المنتصف كان يراقبها بدقة. لا يستطيع إزحتها من ذهنه. لم يقع بين خيوط الشغف تجاه أمر ما، كما يفعل الآن تجاه جوليا. لا يمكن أن يولد الحب الآن، وليس هذا إعجاباً؛ لأنه أكبر وأخطر.

نتجاوز مرحلة الإعجاب عندما يصبح الأمر مشابهاً للرغبة بالتملك. وهذا ما يحدث مع إيفان، لكنه لا يعترف لنفسه بذلك. أصبحت جوليا بعيدة، وهاهو يقود السيارة مبتعداً عن الحي الذي تقطنه، ويبتعد عن تفاصيل حياته، لكنه مطمئن؛ لأنه يحمل صورة مطابقة لها في قلبه.

رنَّ هاتفه ليزيح كل الأفكار العاطفة. بحث عنه في جيوب معطفه، ثم أخرجه من الجيب الداخلي للمعطف، أجاب فسمع صوت الشرطية الشقراء، التي لم يكن متأكّداً من اسمها: "إيفان، حدث أمراً ما".

"ما.. ما هو، مَن المتحدث؟"

"إنها أنا مادلين. شبَّ حريق في أحد المنازل، أبلغنا الجيران عن الحادثة في وقت قياسي. رجال الإطفاء سبقونا، والشرطة تتجه إلى هناك". سحبت مادلين نفساً عميقاً، وتخيلها إيفان في زي الشرطة عاصقة شعرها الأشقر على شكل ذيل حصان.

"أرسلي لي العنوان حالاً". أمرها.

"سأفعل". صمتت لوهلة، ثم كررت: "سأفعل".

أغلقت مادلين الهاتف، وبعد ثوان قليلة أرسلت إحداثيات المكان. راقب إيفان الإحداثيات، قبل أن يُدخِلَها في تطبيق الخرائط. أصبح شكله تجاه الأرقام صحيحاً. إنه يعرف هذا المكان، حتى إنه كان قد زاره اليوم. إنه منزل والدة جيمي. ضغط على مضخة الوقود بقوة، فزادت سيارته من سرعتها. أفلت هاتفه؛ لأنه يعرف الطريق.

وصل إلى هناك، فرأى وهج النيران واضحاً يلتهم نصف المنزل تقريباً. يجاهد رجال الإطفاء لعمل أي شيء. ترجّل من سيارته، لكنّ المحرك كان مايزال يعمل. تحرّك طيفه أمام خط الضوء الآتي من مصابيح سيارته الأمامية. اتّجه

نحو المنزل، وهو يسأل كل من يراه: "الأم.. هل هي بخير؟"

بعد وقت قليل تمكّن رجال الإطفاء من السيطرة على الأمر، لكنهم لم يخمدوا النيران تماماً. دخل إيفان إلى المنزل، رغم رفض رجال الإطفال. بدأ يبحث في الجزء الذي لم تأكله النيران. وجد رجال الإطفاء يحتشدون حول مائدة الطعام. حشر جسده بينهم ليجد والدة جيمي جالسة على كرسيها، ونصفها العلوي مرتخٍ على طاولة الطعام.

اقترب إيفان من جسد الأم، فرأى الدماء وقد تناثرت على الطاولة الخشبية، وبعضها سال على الأرض. كانت قبضتي الأم مرتخيتان، لكنهما تحيطان بقلمين أقحمتهما في عينيها في آن واحد.

سأل أحدهم: "هل فعلت هذا بنفسها؟"

قال آخر: "أسوأ طريقة للانتحار".

لم يتمكّن إيفان من البوح بأي شيء. تلاشت كل الأفكار، وأعاقته حرارة المكان، ورائحة الدخان الخانق من التفكير بأي شيء. رقم جسد الأم بذهول، وكان هذا آخر ما توقّع حدوثه اليوم. لا تدوم الأوقات الجميلة، ودائماً تكون النهايات هي الحدث الحاسم لكل القصص، لذلك يكون الخطأ، هو ألّا نترك مجالاً للمفاجآت.

9

آخر من طاب له التحدّث في النادي هو جوليا. كانت ماتزال تحت تأثير يومها، وحتى الجزء المرعب منه لم يعقبها عن التفكير. تمكّنت من جذب انتباه الأعضاء السبعة الآخرين. تحدّثت بثقة تامّة وهي تقول: "لا بدَّ للنهايات من أن تأتي في أي حال من الأحوال، ومهما طالت تفاصيل القصة فالنهايات قادمة. أحياناً أفكّر في عجزنا عن النوم، وأواسي نفسي بسخرية بأنني أملك الموت بأكمله لأنام، فلماذا أحارب إذاً؟ أنا أعلم بأن ما أقوله مثير للشفقة، لكنني سئمتُ تحدّي الواقع، لكي أصل إلى نهاية، قد لا تبعث بي إلى قصص أخرى".

قال ليو: "يبدو هذا منطقياً نوعاً ما. للأفكار المغايرة شكلٌ مطابق في حياتنا. لم توجد أية فكرة في الحياة؛ إلّا لأنّ هناك ما يشبهها في عالمنا. هذا ما أعتقده أنا أيضاً".

ابتسمت سريزا معقبة: "هذا يبدو أقصى أنواع الجنون، لكنه يروق لي".

شبك ماركوس أصابعه قائلاً: "لهذا نحن هنا؛ لنظهر للعالم بأنَّ الأمر الغريب الذي قد نواجهه قد لا يكون بهذا السوء والعبث. الأشياء الغريبة موجودة أيضاً، ومهما كانت الأحلام بعيدة عنا، والنوم هو السبيل الوحيد للوصول إليها، فنحن سنحصل عليها في الواقع".

أرغمتهم جوليا على الهدوء عندما تدخّلت قائلة: "ظننتُ أن ذكريات الماضي ستخيفني، لكن أتعلمون؟ أنا أواجهها اليوم. إنني أسمع بكاء طفل يلومني لأنني قتلته، وهو موجود في منزلي! لقد حدث هذا اليوم، وكأن الحياة ترفض تركي أنعم بلحظة طبيعية. لكنْ أنا أقوى من شعور خوف، يريد مني هذا الذنب الصغير تذكره. لن يحاربني أي شيء؛ لأنّ هذه الحياة قد أُهدِيت لي مرتين، وليس مرة واحدة، ولن يشوبها هذا الشعور الزائف، والنابع من أعماقي أنا. لن أصنع حتفي بيدي".

صفّقت كاميلا ثلاث مرات: "أنتِ الأقوى بيننا، أنا أعترف. لم تنضمي إلينا إلّا مؤخراً، لكن يذهني إصرارك على المحاربة". رفعت جوليا ذراعها في الهواء، وبسخرية تظاهرت بإظهار عضلات يدها النحيلة. ابتسمت لها كاميلا التي تجلس في الاتجاه المقابل لها تماماً.

كان عدد النوافذ المفتوحة في المرآب ثلاث نوافذ متوسطة الحجم متجاورة، وتقع قريبة من مركز جلوس الأعضاء. كان باب المرآب خلف ماثيو، الذي أحنى رأسه، وألقى بصره باتجاه النوافذ التي كانت تعكس رؤية غير واضحة للباحة الخارجية التي احتضنت عدداً قليلاً جدّاً من الأشجار ذات الأغصان شبه العارية. فكّر ماثيو في أن هذه الأشجار تقف هناك وحيدة، لم يتساءل أحدٌ عمّا تعانيه. هل هم أيضاً أشجار تذبل هنا. أم هم أغصان متجاورة، لشجرة واحدة تموت، وتمتص الحياة منهم؟ هل هو وحيد؟ أم أنَّ الجميع أصبحوا يعانون من الوحدة؟

لكزت فيوليت ماثيو؛ لتعيده إلى الوقع، فاستدار باتجاهها ببطء. همست: "إلى أين اصطحبتكَ أفكارك؟"

"ما أزال هنا، أو في مكان قريب على الأقل". ابتسم لها، بينما كانت هي بلا تعبير تراقب وجهه الذي كان يتحدّى برودة الجو بلونه القمحي. لم تبعد فيوليت انتباهها عن عازف التشيللو الجالس بجوارها، رغم أنها كانت تزيح عينيها عنه أحياناً. كان هو أكثر الأعضاء تفهُّماً لها، رغم أنها كانت تبدو طفلة بالنسبة له. بل إنّ سنوات عديدة كانت تصنع فارقاً بينهما، لكن لم يخطر في ذهن فيوليت أنها ستترك لهذه المساحة بينهما حق التفرقة بين عقلها، وعقل ماثيو الهادئ.

عاد الضوء إلى جوليا التي ختمت حديثها: "كنّا نتحدث دائماً عن الخوف، وعن مشاكلنا.. دعوني اليوم أطلب منكم التحلي بالقوة. أعلم أن هذا مضحك، ولولا قواكم، لما كنا مانزال جميعاً هنا. لكن دعونا نبدأ هذا التحدي الباطني". شكروا جوليا على قوتها، ما أن أنهت حديثها حتى نهضوا جميعاً متَّجهين إلى الخارج، وتفرَّقوا في أربع مجموعات كالمعتاد.

وصلت جوليا إلى منزلها بعد أن أقلّت مارك إلى منزله هو أيضاً. وفي طريق عودتها خُيِّل إليها، أنها ترى كشَّاف المنارة يومض، لكن تلك الومضات السريعة كانت تشبه رمشات العين. ثم زالت فجأة؛ مما دعى جوليا للتصديق بأنها ليست إلا وهماً.

ركنت سيارتها أمام المنزل، وفي تلك اللحظة فكّرت في إيفان، وفي يومها الطويل برفقته. شعرت جوليا ببعض الفخر؛ لأنها أخيراً استطاعت بناء مجتمع

جديد رغم كونه يتكوّن من عدد قليل من الأشخاص: أعضاء النادي، إيفان، وبكل تأكيد سيكون هناك المزيد من الأشخاص الجدد في حياتها.

تأكّدت من أن الباب موصد خلفها، وتجاوزت أقسام المنزل وصولاً إلى السلم المؤدي إلى الطابق العلوي، لكن صوت الخربشة والاحتكاك الحاد على الزجاج أعادها إلى أدراجها. دخلت غرفة المعيشة لترى النافذة لمقابلة للمدخل، لكن كل ما كنت تعرضه النافذة هو صورة الليل السوداء. استدارت لترى النافذة الأخرى، فلمحت فتيلين مشتعلين صغيرين جداً. كانت هناك عينان تومضان خلف الزجاج، لكنهما تبخرتا دون أن يكون لهما وجود.

كاد توازن جوليا أن يختل، لكنها تماسكت في آخر لحظة. فسَّرت هذا أيضاً على أنه وهم. طلبت من نفسها أن تتجاوز الأمر. وبخطى سريعة وصلت إلى حجرتها، لكنها لم تتمكن من النوم بسهولة. استطاعت أن تغفو بعد أن صاحبتها خيالات طويلة، وتصوُّر لأحداث لم تحدث بعد.

في النهاية سرقها النوم من الواقع.

"جوليا.." سمعت صوتاً حادّاً طفولياً يناديها. "إنه هنا، السيد ثلاثاء".

استيقظت جوليا فزعة، وكان الظلام مايزال يغطّي السماء كلها. النافذة مغطاة خلف ستائر ثقيلة تحجب رؤية شكل السماء عن جوليا. فكّرت في الصوت، وحاولت مطابقته بكل الأصوات التي عرفتها يوماً، لكن ذلك بدا صعباً.

"جوليا، هل أنتِ هنا؟" إن ذلك الصوت مايزال عالقاً في ذهنها.

نادت جوليا: "أندي، أهذا أنتَ؟"

"أصابها صوت خافت بعيد، مصدره كان أعماق عقلها. "إنني هنا. ذلك النداء جوليا، إنه يصل إلي". سألته جوليا فوراً إن كان بخير فقال لها الطفل: "أنا بخير، لكنه مايزال هنا، لا أعتقد بأنه سيرحل قريباً".

"من هو؟ هل تعرف ما تتحدث عنه؟"

"أجل يا جوليا، السيد ثلاثاء.. لا أعلم من هو حقيقةً. إنّه هنا".

دفعت جوليا اللحاف عنها، ونهضت من فراشها. قادتها خطواتها للسير بين

زوايا الغرفة، محاولة عدم فقدان التركيز وقطع الرابط بينها وبين أندي: "كُن حذراً يا أندي! لقد رأيتَهُ في خيالكَ... أنتَ تعرفه، لقد رأيته أنتَ أيضاً".

"لم أكن أعتقد بأنّ هذا الخطر حقيقي. لكنّ الأمر مخيف حقّاً. إنه لا يطاردني أنا وحدي".

طلبت جوليا من الطفل: "أحتاج أن أراك. لكن من الخطر الآن أن تكونَ وحدكَ".

"سأطلب من والدي اصطحابي إلى المتجر، لا تقلقي". اختفى صوت الطفل في ذهنها، واختفت كل الأفكار التي تربط بينهما. عاد الهدوء فجأة، وزالت كل مخاوف جوليا. شعرت بأنها ليست وحيدة، رغم أنّ منزلها كان يحتضنها هي وحدها.

تقدمت نحو النافذة، وأزاحت الستار عنها. كانت مصابيح الطريق تتحدّى ظلام الليل، لذلك تمكّنت جوليا، من رؤية الجسد المغطى بالسواد يقف بعيداً متفادياً بقعة الضوء التي شكّلها مصباح الطريق. لم تكن متأكّدة ما إذا كان وجهه مصوباً باتجاه نافذتها، أم أنه يوليها ظهره. كان الهامّ والمخيف في تلك اللحظة هو وجود الرجل الغريب الذي يقف خارجاً.

أغلقت الستائر وأزاحتها بعد مرور دقيقة واحدة. كان مايزال موجوداً. ابتعدت جوليا عن النافذة، وتركت حجرة نومها مُتّجهة إلى الطابق الأرضي. تأكّدت من أنّ الباب الأمامي مغلق. ثم حاولت أن تحكم خطواتها وهي تسير إلى الباب الخلفي، وأن تتأكّد من أنه مغلق.

***

لم يزدحم متجر الكتب في نهار اليوم التالي. كانت جوليا تعيد ترتيب كل الطلبيات التي يتم تسليمها للزبائن في هذا الأسبوع. كانت هي أول من قام بتوفير خدمة طلب الكتب غير الموجودة. كانت تطلبها من شبكة الإنترنت، وتتقاضى ربحاً قليلاً؛ لأنّ شحن الكتب إلى بلدتها عادةً ما يكون مكلفاً.

من دون أي إنذار مسبق، اقتحم طيف الطفل المكتبة، وتعرّفت جوليا على أندي فوراً. كانت والدته تتبعه، لكنها لم تتدخل في مساعدة الطفل على اختيار عنوان محدد. التفتت الأم إلى جوليا، وقالت لها: "هل يمكن للطفل

البقاء هنا، ريثما يختار الكتب التي يريد. سأكون في الجوار حتى ينتهي".

ردّت جوليا فوراً: "بكل سرور". وهذا ما كانت تنتظره.

"لا تزعج الآخرين يا أندي". حَذّرت الأم طفلها ورحلت. كان يمكن لأندي القدوم إلى هنا وحده، لكن بعد حادثة القتل الأخيرة، أصبحت والدته تُظهر بعض الحذر بشأنه، لكنها تثق بأنّه طفل ذكي، ويحسن التصرُّف في أسوأ الأحوال.

رفعت جوليا هاتفها فوراً، وطلبت رقم إيفان. أجابها دون أن تستمع إلى الرنين طويلاً، فأمرته هي: "إن كنتَ قريباً فلتأتِ إلى المتجر فوراً، وأحضرْ تلك الرسومات معكَ". ومن حسن الحظ كان إيفان قريباً منها، فهو في مركز الشرطة، ويعمل على تقصّي تفاصيل انتحار والدة جيمي.

قال أندي: "هل سمعتِ بالأمر؟"

"أي أمر؟" سألته جوليا.

"والدة الطفل المقتول، لقد انتحرت مساء الليلة الماضية. لم يخبرني أحد بالأمر، لكنني سمعتُ تلك الأخبار، ولم يعطني والداي أية تفاصيل عن الأمر حتى الآن". فكّرت جوليا في غرابة الأمر، لكنها لم تستبعد حدوث هذا لإنسانة فقدت كل شيء بهذه الطريقة البشعة، لكن على الأقل كان عليها الانتظار حتى ترى هزيمة الجاني.

"هناك أمر ما، أعتقد بأنه يهمنا جميعاً.. مرتبط بنا، هذا ما أخمنه". شعرت جوليا بالذنب؛ لأنّها توشك على إقحام الطفل فيما لا يجدر به أن يقاسيه. انتظرت هي وأندي وصول إيفان لوقت قصير.

دخل إيفان المتجر حاملاً ملفه الأحمر. عقد حاجبيه عندما رأى جوليا تنتظره برفقة أندي، أخبرته جوليا: "هذه هي المساعدة التي حدثتُكَ عنها". تلاقت عينا إيفان بعيني أندي. كان أندي يتعمَّق في عينيه، ويصل إلى هويته؛ لأن هذا ما يجيده هو.

"من هذا الطفل؟ كيف سيساعدنا؟" لم تكن الحيرة موجودة في صوت إيفان، بل كان هناك شيء من الحزم، وعدم الرضا كذلك.

جذبت جوليا الملف من قبضة إيفان، وفتحته على طاولة المحاسبة

المخصّصة لها. "السيد ثلاثاء، لقد رآه أندي من قبل... بالمناسبة، أندي هذا إيفان، إيفان هذا هو أندي". أشارت إلى كليهما بكفها.

ردَّ إيفان: "سررتُ بلقائكَ يا أندي، لكن ما شأنه بهذا؟"

قالت جوليا: "أعلم إن الأمر صعب، وإقحام هذا الطفل خاطئ".

قاطعها أندي: "لا بل صحيح. إنني معرض للخطر أيضاً. أنا أرى هذا الرجل كذلك".

أكملت جوليا حديثها: "لا يجدر بي فعل ذلك، ويجب أن نستغلَّ الوقت قبل عودة والدته إلى هنا". أظهرت الرسومات، وجعلت أندي يتفحَّصها. لم يندهش الطفل لرؤية الرسومات، بل كان ينظر إليها بدقة. نقَّل أندي بصره بين كل الأوراق، ثم أعاد ترتيبها.

سأله إيفان: "هل رأيتَ السيد ثلاثاء بالفعل؟"

"أجل رأيته، والغريب في الأمر هو أنه لا ينتمي إلى أي شيء". عقد إيفان حاجبيه دون أن يفهم ما يقوله الطفل.

شرحت جوليا الأمر: "إنّ لهذا الطفل قدرة عجيبة على معرفة الأشخاص. إنه يستطيع الوصول إلى أرواح الأشخاص من خلال النظر إلى أعينهم فقط". هزّ أندي رأسه مؤكّداً. "عندما قابل السيد ثلاثاء، لم يجد أي هوية لذلك الرجل".

"لم أفهم شيئاً من هذا".

تدخل أندي: "أعني، بأنني أستطيع معرفة هويتكَ. أنتَ إيفان، ووالدتكَ تدعى لورا، ووالدكَ هو سبستيان، ويمكنني معرفة أكثر من ذلك لو حاولتُ. هذا ما أجيد فعله، وما أتمكن من القيام به ما أن أنظر خلال عينيكَ. لكنّ السيد ثلاثاء ليس إلا عدماً، لا يوجد أي شيء يمكن معرفته من خلاله. بل إنني لم أجد له عينين في وجهه يمكنني النظر إليهما. هذا يجعلني أشكُّ في ماهيته".

"هل تقصد أنَّ ذلك الشخص ليس كائناً بشرياً". هزَّ أندي رأسه بإشارة ما بين النعم واللا. أخبرته جوليا، بأن هذا أمر يصعب التأكّد منه؛ لأنهم لا يعرفونه. "هذا غير معقول". قال إيفان.

أجابت جوليا: "لا تحارب شكوكَكَ الخاصة أنتَ أيضاً، فأنتَ تدرك بأنّ هذا قريب لما نراه". رفض إيفان تلك الفكرة في ذهنه؛ لأنَّ تقبُّلها يعني جنوناً حتمياً.

"أنا أراه أحياناً، وما يفعله ذلك الرجل لا يفعله أي شخص. إنه يستطيع الوصول إلى أحلامي". فكّرت جوليا في أحلامها الخاصة هي أيضاً، هل يُعرِّضها ذلك الرجل إلى التهديد. "تلك الرسومات تشبهه، الهوية واحدة بينه وبين الرسومات، لكنها تبقى مجرد خربشات. مَن الذي رسمها؟"

اجاب إيفان: "جيمي".

"ذلك الطفل المقتول؟ هذا يفسر وجود ارتباط ما. إن هذه الرسومات هي تصوّر للسيد ثلاثاء إذاً". كان إيفان مندهشاً لما يسمعه. لم يتخيّل أن طفلاً في سنِّ أندي يستطيع تفسير الأمور بهذه الطريقة، أو على الأقل التحدث بتلك النبرة. "إنني أراه، لكن لا أحد سيصدق ما أقوله؛ لأنّه أمر يشبه الجنون".

"لكن كيف تستطيع التعرُّف عليه.. عليّ أنا".

أجاب الطفل: "إنها قدرتي، كما تستطيع جوليا ربط ذهنها بذهني.. هذه قدرتها". استدار إيفان نحو جوليا وهو غير مصدق لما يسمعه... وبخيبة هزّت جوليا رأسها معترفة بذلك.

"هل هذا حقيقي؟"

اعترفت جوليا: "حتى الآن يحدث هذا مع أندي فقط، لكنني لستُ متأكّدة من قدرتي".

"سيتجاوز الأمر ذهني يا جوليا". قال الطفل بنبرة تحذير. أراد أن يكمل كلماته، لكن الباب تحرَّك بدفعة من نسمة هواء إلى الداخل. ظهرت والدة أندي، وسألته ما إذا كان قد انتهى من الأمر. ظهرت الحيرة على وجه الطفل، فهو حتى الآن لم يتمكّن من اختيار كتاب واحد.

تدخلت جوليا قائلة: "سأطلب لكَ الكتاب، سيصل قريباً".

حاولت والدة أندي أن تتظاهر بفهم ما يجري، لكنها كانت عكس ذلك. سألت جوليا: "وكم سيكون ثمن هذا؟" قالت ذلك وهي تجذب حقيبتها إلى الأعلى

لتخرج محفظتها.

"ليس الآن، حتى يصل". أخفضت الأم حقيبتها من جديد، وشكرت جوليا على بقاء أندي معها. اعتذرت عن تركها الصبي وحده هنا، لكن جوليا قال: "لم يتسبب بأي إزعاج قط. إنّ أندي مرحب به هنا دائماً، وهو صديق المكتبة".

رمقها أندي الذي جاور والدته، ومن دون أن يهمس بأية كلمة، تردد صوته في ذهنها وهو يقول: "شكراً". ابتسمت في وجهه؛ لتريه أنَّ رسالته وصلتها. رافق والدته بعد ذلك إلى الخارج، وكان إيفان يراقبهم وهم يبتعدون خلف الواجهة الزجاجية.

ساد صمت قصير يوحي بدهشة إيفان، الذي لاحق بأفكاره الصبي الصغير. تركت جوليا ذلك الهدوء يخفف من وطأة التعقيد الذي أصابه. سأل جوليا: "هل هذا حقيقي؟ هل يوجد أشياء كهذه في الواقع؟"

"لستُ متأكدة من مدى حقيقة هذا الأمر، لكن ما أعتقده الآن بأنّ هناك أمر يحاول كسر جدار الطبيعة ليرسم صورة مرعبة.. هذه الصورة تحيط بالطفل، وتعرضه للخطر، وتحاول مدّ أذرعتها إليّ. إنني أشعر بالقلق، وأتخيّل بأنه هناك من يتربَّص بي، ولا أستطيع البحث عن تفسير لما يحدث! أما أندي فما الذي يشعر به، وهو يرى هذا الشيء بعينيه؟".

شعر إيفان بالعجز، واعترف بذلك قائلاً: "أشعر بأنه لا حيلة لي أمام هذا الأمر".

- "ولماذا يجب أن تكون المنقذ أنتَ وحدكَ؟".

"لا أعلم، لكنني يجب أن أحميكما من هذا".

قالت جوليا: "جميعنا مكلفون بتحدي هذا الأمر". لقد كانت محقّة؛ لأنّ إيفان وحده لن يستطيع التصدي للأمر الذي يبدو أكبر من قدراتهم جميعاً. "ذلك الطفل يملك شيئاً ليس موجوداً عند سواه. وأنا أعتقد أنَّ تجربة الموت أعطتني قدرة الوصول إلى ذهنه، ولا أعلم إنْ كنتُ فعلاً أستطيع صنع هذا الرابط بيني وبين الآخرين".

- "يبدو لي أنَّ هذا مستحيل. أحاول تصديق الأمر لكنه ثقيل.. أتفهمين؟"

طلبت جوليا من إيفان أن يقبض على يدها. تردّد وهو يفعل ذلك، كما لو أنه يقبض على جمر. لم يتصوّر بأنه سيحيط كفها بهذه الطريق. شدَّ قبضته على يدها، حتى لا تشعر بتراخي يده؛ بسبب عواطفه تجاهها. أغلقت جوليا عينيها، وحاولت السفر إلى أعماقه هو. راقبها وهي مغمضة العينين حتى إنه لم يعد يرمش.

"أغلق عينيكَ". فعل هو الأمر ذاته. في تلك اللحظة كان كل ما يرايانه هو السواد التام، وفي لحظة مفاجئة. ظهرت صورة امرأة راقدة تلتقط أنفاسها بصعوبة. كانت تختنق، وكان صوت الاختناق واضحاً ومخيفاً. أجفلت جوليا، وأفلتت يده. بينما هو ظلَّ جامداً في مكانه.

"ما هذا؟ هذا مستحيل!". لم يجد تفسيراً لما حدث، وتساءل في نفسه لو كانت قد رأت الأمر ذاته. "والدتي.. إنها والدتي". تراخى في مكانه، خطا إلى أقرب كرسي وجلس.

"أعتقد بأنّ هذه الذكرى هي الأقوى في ذهنكَ، لذلك كانت هي أول ما قفز بيننا". شعرت جوليا بالنصر؛ لأنها برهنت غرابة ما حدث على أرض الحقيقة. كان إيفان مايزال تحت تأثير الصدمة، لكنه الآن يثق بقدرتها الغريبة، وبقدرة ذلك الصبي، وهذا يؤكد حقيقة أخرى أكثر سواداً.. السيد ثلاثاء أيضاً حقيقي.

"لم تخبرني عن حادثة الانتحار". قالت جوليا، فأعادت إيفان إلى الواقع بطريقة قوية ومفاجئة، بعث ما قالته صورة الطريقة التي انتحرت بها الأم من جديد. تلعثم إيفان، وتداخلت الكلمات في فمه. "أخبرني أندي، يبدو أنني آخر من يعلم في المدينة".

"إنَّ الخبر ينتشر سريعاً، لكنّ التفاصيل ما زالت مبهمة. أبلغنا الجار عن نشوب حريق في المنزل، وعندما أخمدنا النيران، وجدناها في الجزء السليم من المنزل منتحرة. لقد طعنت عينيها بقلمين. لكنَّ هناك أيضاً أمر غريب آخر. إن كانت قد قررت الانتحار، فلماذا تحرق المنزل؟ لسنا أكيدين مما حدث".

"لماذا تختار هذه الطريقة البشعة للانتحار؟"

شرح لها إيفان: "كل شيء يثبت محاولتها في الانتحار. قبضتاها تحيطان بالقلمين. بصمات أصابعها، عدم انغراس الأقلام عميقاً في عينيها؛ إذ إنّها لم تتحمّل الألم، فتراخت قبضتاها قبل أن تغرسهما عميقاً، ثم ماتت في نفس

المكان. لكن السؤال هو لماذا أحرقت المنزل؟ لا أحد يعلم حتى ما سبب الحريق".

سألته جوليا: "أليس من الغريب أن يحدث هذا، مع أنها كانت تتحدث معكَ قبل انتحارها بساعات؟".

"لكنها كانت تنهار أثناء الحديث، والانتحار وحده لم يكن ليدهشني، بل إنَّ الحريق هو ما لا أفهمه. كأن في ذلك رسالة ما، لكننا لا نفهمها".

"وتخلّت عن حقها في إيجاد قاتل طفلها حتى". علّقت جوليا.

"اليأس يقتل كل الرغبات، حتى الرغبة في الانتقام".

لم يكن هناك أي حدث يساعدهما في تدارك الخوف. الغموض يزداد، وكيتنف كل شيء، عزاء جوليا الوحيد هو وجود إيفان الذي يُشعرِها ببعض الأمان. لماذا هي هنا؟ تستطيع ترك هذا كله والهروب إلى أرض جديدة، ينتهي معها هذا الخوف الذي مايزال في بدايته. نهت جوليا نفسها عن التفكير بذلك، فهي شُجاعة، ولن يعيقها شعور يولّده قلبها.

10

عاد النوم إلى نمط شبه طبيعي بالنسبة لليو. كان يجري وينام ساعات تكفيه في بعض الأيام، وفي أيام أخرى كان يستيقظ فجراً، ويبدأ بالجري حول الضاحية. خسر وزناً كبيراً منذ عودته إلى هنا، وحتى معالم الجفاف بدأت تظهر على وجهه راسمة الإرهاق بصورة دقيقة. كان يرى القط بلاك يتجوّل كل ليلة في مكان مختلف، لكنه لم يتخلّف عن فتح علبة الطعام الصغيرة وتقديم مافيها للقط. ولدت ألفة غريبة بينه وبين القط الأسود، الذي لا يظهر إلّا فجراً، وكأنه جزء يخصُّ عالم ليو فقط.

نهارات يومه كان يقضيها إمّا في أشياء ليست هامة يقوم بها وحده، أو في نشاطات يحاول قتل الوقت من خلالها يخوضها مع صديقه تشارلي. كان يقضي وقته مع صديقه أكثر مما يبقى في المنزل، أو يقابل والدته. حاولت كريستين التدخل لتخفيف القلق الموجود في قلب والدتهم تجاهه، لكنه أخبرها بأنه في أفضل حال، وليس هنالك ما يدعو إلى القلق، وأكّد لها ذلك مرات عديدة. هو ليس واقع في الخطر، إنما يحاول التأقلم مع شكل الحياة هنا، لقد كان هذا هو عذره.

في الصباح عندما استيقظت والدته، وحان وقت تناول الإفطار سألته: "هل فكّرتَ في تولّي أمر المكتب".

"أجل، ولا أعتقد بأنني مستعد الآن". قال لها ذلك، وهو مستعد للعاصفة القادمة.

"متى إذاً ستكون مستعداً؟ أنتَ تخبرني بهذا دائماً، ثمَّ لا يتغير أي شيء. لا أشعر بأنكَ تفكر بالأمر حتى يا ليوناردو. إنّ هذا المال يخصُّ العائلة، وعلينا تولي الأمر بجدية، وأنتَ الشاب الوحيد في العائلة".

"أعدكِ يا أمي بأن نخوض في هذا عندما يحين الوقت، لا أشعر بأنني أهلٌ لهذه المسؤولية الكبيرة، وأشعر بالقلق، فقط قَدِّري حجم التجربة التي خضتُها، أحتاج وقتاً أتفرّغ خلاله لنفسي أنا فقط، دون تحمل مسؤولية أي شيء، أو أي قرار حتى.. هذا كل ما أريده، وهو ليس بهذه الصعوبة".

"لكن.."

قاطعها ليو: "لكن ماذا؟ أنتِ تريدين إرغامي على القيام بأي عمل يشغلني؛ حتى لا يعيدني الفراغ إلى ما تخافين منه. لن أرمي نفسي بأي مساوئ من جديد، ولن أعود إلى تعاطي المخدر يا أمي". كان ذكر المخدر صعباً ومخيفاً؛ ممّا جعل والدته تتراجع عن الحديث.

في المساء فكر ليو في إرسال رسالة عبر هاتفه لسريزا، لكن لم يكن لديه ما يحدثها عنه. تراجع عن فكرة التواصل معها، وبدلاً من ذلك اتصل بصديقه تشارلي، وسأله إن كان بإمكانه المرور على المقهى. وافق تشارلي على الأمر بسرور.

في وقت الغروب كانت السماء تكتسي بألوان مختلفة، لكن الأحمر طغى على أجزاء عديدة منها، تحت تلك الحمرة قاد ليو سيارته حتى وصل إلى المقهى. ركن سيارته، ولم يكن يتوقّع أن يجد المقهى بهذا الهدوء في منتصف اليوم، لكنّ تشارلي برّر الأمر: "لا يأتي العديد من الزبائن في منتصف الأسبوع. هذه ليست قاعدة ثابتة، لكنها تتكرر مرة أو اثنتين في الشهر". خرجت زوجة تشارلي من الباب الذي يعزل المطبخ عن طاولة التقديم، ولم يكن ليو يتوقّع وجودها اليوم معهم.

"أعتقد أنّ مزاج الزبائن غريب، يصعب توقعه". قال ليو.

لم يجب على تعليقه أحد، بل قالت زوجة صديقه: "أنتَ ليو إذاً؟ من الجيد رؤيتكَ". لم تظهر على وجهها إلا تعابير عدم الراحة، ولم يربط ليو الأمر في شخصه هو، بل خمّن أنها قد لا ترحب بالغرباء، أو بمن لا تعرفهم هي شخصياً.

قال تشارلي: "لا يكون الأمر هكذا معظم الوقت، هناك زبائن يمكنكَ توقّع طريقة تفكيرهم، وهناك آخرون يحملون المفاجآت معهم. البعض يشرب الإسبريسو مع عصير البرتقال أو ليمون حتى".

هتف ليو وعلى وجهه إمارات التقزز: "ماذا؟" نقل بصره بين تشارلي وزوجته، فهزّت الزوجة رأسها إلى الأسفل مؤكّدة، ثم قال: "لكن هذا نادر جداً. يحدث مرة واحدة في الشهر".

"هذا غريب حقّاً".

أجاب تشارلي: "بل الغريب هو محاولة ترجمة الطريقة التي يفكر بها

الآخرون".

عرضت عليهم الزوجة: "يمكنكما الخروج إلى الشرفة، وسأعدُّ لكما ما تشربانه". وافق تشارلي، وشكرها ليو، ثم خرجا عبر الباب الخلفي.

جلس الاثنان في صمت، وأثناء هذا الهدوء، أراد ليو أن يخبر تشارلي عن أمر النادي، وعن الدمية الغريبة، وعن كل القصص الغريبة التي كان يسمعها، ولكن ذلك النادي سري، وهو يريد احترام خصوصيته. أما الأمر الذي يمنعه أكثر فهو قلق ليو مما سيعتقده تشارلي عندما يسمع هذه الأحداث. في البداية الأرق وقلة النوم، والآن هذه الخرافات الغريبة.. سيبدو حتماً كشخص مجنون أمام صديقه.

سأله تشارلي: "هل توقفت عن زيارة ذلك الأخصائي؟"

"أجل، أنا لا أتمنّع عن زيارته، لكننا لا نتقدم حتى الآن".

"هل تقول لا بطريقة لبقة، أنا صديقكَ أنتَ، ولستُ شقيقَ ذلك الرجل الذي يجني منكَ المال ليعالجك".

ابتسم ليو ثم اعترف: "حسناً أنتَ تدرك بأنّها لا إذاً".

طال الحديث بليو وصديقه، وكان يلمح زوجة تشارلي تراقبهما بين حين وآخر. كانت تلك المرأة حذرة من أمر ما، وهناك احتمال كبير في أن يكون تشارلي قد أخبر زوجته بحالة ليو. صدمه ذلك الاحتمال، وتصرفات الزوجة التي كانت حذرة بمقدار يؤكد خوفها منه.

أصبح وجوده يشكل ثقلاً عليه هو شخصياً. نهض بطريقة مفاجئة، وأخبر تشارلي بأنه مضطر للرحيل، دون ترك تبرير. وأثناء خروجه لم تسهُ عنه عينا الزوجة.

سيلاحقه الماضي مهما حاول الهروب.

***

لم يجد ليو أي مهرب آخر، كانت الأسماء التي يستطيع التواصل معها قليلةً جداً. فكّر في الاتصال بشقيقته، لكنها ستحذو حذو والدته بكل تأكيد. قاد سيارته، دون أن يضع في ذهنه فرصة للعودة إلى المنزل، كان يريد الهرب من

هناك بأي ثمن. قاد سيارته وهو يفكر في مكان يستطيع الذهاب إليه.

قاد سيارته دون هدف، حلّ الليل بوضوح على الأرجاء، وأصبحت فرصة التواصل مع الآخرين بمثابة دعوة لوضع نفسه تحت حرج هو بغنى عنه. تجاوز الطريق الذي يعيده إلى الضاحية، واستدار حول قلب المدينة والمباني الشاهقة. كان شكل الحياة يذبل في الليل؛ لأن الوقت أصبح متأخراً، ولأنّ البرد كان يشتد أكثر.

تجاوز خطاً طويلاً من الواجهات الزجاجية المضيئة، وعلى الزجاج المقابل له، كان يرى مصابيح النيون تشكّل إعلانات معكوسة على زجاج سيارته. في تلك اللحظة خرجت تريز من قلب زقاق مظلم، ووجّهت نظرتها المستنجدة إليه. ضغط على المكابح بقوة، ثم حرّك سيارته لتجاور الرصيف. راقب ليو المرآة الجانبية الصغيرة، ووجد طيف تريز وهي ترتدي تنورة سوداء ضيقة، وسترة جلدية، تقترب منه بخطى سريعة. سحب مقبض الباب، وترجل من السيارة التي كانت ماتزال تعمل، ومصابيحها تتحدى ظلمة الطريق. تحركت تريز بثقة مقتربة منه.

تلعثم قبل أن يجمع حروف اسمها: "تريز".

"هذا ما فعلناه يا ليو". اقتربت مني، وأحاطت بكفيها الجليديين وجهي. "لا يمكنكَ إيجادي أبداً". أبعدت كفيها عن وجنتي، وانصهر لون عينيها، ولم يتبقَّ إلّا البياض الذي أصبع ناصعاً، ثم بعث بريقاً خافتاً أخافني، وجعلني أتراجع بضع خطوات إلى الوراء.

التوت رقبة تريز، وأصبح خلفها ينظر بذات الاتجاه الذي أنظر أنا إليه. ثم تحرّك جسدها في ذات الاتجاه، سارت مبتعدة عني تحت أضواء المصابيح. تبعتها بكل سرعتي محاولاً القبض عليها، وإثبات حقيقة وجودها. جَرت هي مبتعدة عني، لكني لم أستسلم بل تبعتُها. تفادتني مقتحمة الزقاق الثالث، والذي كان ضوء النيون الأزرق ينير جدرانه الضيقة. تعبتُها إلى الزقاق فتلاشى ضوء الإعلان، الذي كان يومض بطريقة آلية وبتوقيت ثابت.

صرخت تريز: "الظلام، لا". تحوّل صوتها الناعم إلى آخر خشن. ما أن عاد الضوء حتى تلاشت تريز، وكأنها لم تكن موجودة أساساً. رحت مع ظلام المكان، وهي تصرخ محاولة تفاديه. لماذا أخافها الظلام؟ هل الظلام يخيف

أوهامنا أيضاً؟ قبضتُ على رأسي، وودتُ أن أضربه بالجدار. ما هذا الجنون؟ لماذا لا أشفى من هذا كله؟ إن هذا لا يزول، ولا يتركني أبداً.

قد تمضي الأيام كأخرى تشبهها، يوم عادي لا يحدث خلاله شيء هامّ، لحظات ليست أكثر من نموذج لدقات عقارب ساعة تشابهت في حملها جزءاً من عمر إنسان. قد لا يخلو هذا اليوم أيضاً من لحظات نفكر خلالها بأشخاص أحببناهم، أشخاص ما زلنا نؤكد وجودهم بين صور الذاكرة. لكل يوم القدرة على إحداث تغيير ما، ولا بدّ أنَّ الوقت يحمل معه التغيير دائماً، مهما كان هذا غير واضح. لكن كل تلك المنعطفات، لا تمنعنا من اختيار ذكريات حياتنا، تلك التي تسعدنا غالباً، والتي تزرع فينا شكلاً من الأنانية، نرغب معه في زرع شعور مشابه في قلب من يبتعد عنا. نبوح حينها للآخرين: لا تنسني؛ لأن النسيان أمر مؤلم.. لأنّ تلاشينا من ذكريات الآخرين يقلل وجود المشاعر التي توصل الحياة إلينا.

عدتُ إلى المنزل في نهاية المطاف، لأنَّ ما من مكان يحتضن المرء وسوءه، سوى جدران منزله. لن يتأقلم مع جنونكَ سوى ما تملكه. هذا المنزل كان يحتويني، والليل كان يحيي شياطيني، تعود حاملة حقائب الذكريات معها، لكنها لم تكن تحمل النوم أبداً.

أبقى فيه لوقت طويل، يبني جدرانه من الدقائق القليلة، يتمدّد لساعات، أراقب ظلمة الليل عبر النافذة، وتارة أخرى أراقب سقف غرفتي الذي يحتضن الظلام. إلى أين الآن؟ لا يوجد أية وجهة تالية، أناجي أوهامي، لكنها لا تجيب، بل تعيد لي كل ما تركته، وتكتم أصوات الذكريات لتصنع لي مشاهد ليست مفهومة أبداً. الموت، الرحيل، الفقد.. الأرق، كل تلك الأشياء التي تبقيني عالقاً دون أن تفلتني. تعتريني فكرة الانتحار، كلسعة كهربائية سريعة، يبقى إحساسها لثوان، لكنها كاذبة لا يدرك وجودها شخص آخر. هل عليّ الرحيل بهذه الطريقة البشعة؟ هل يجب أن أترك مكاني فارغاً في عيني أمي، وهي تظنّ بأنني معظم ما تملك؟ لا أستطيع أن آخذها بعد كل هذا الانتظار، لكنني أيضاً لا أستطيع الخوض في هذا أكثر؛ لأن العمق كان يبتلعني ويأخذني إلى مناطق أكثر عتمة من السابق.

***

سأل ماركوس: "هل تعتقد بأنّك رأيتَها حقاً، أم أنكَ توهّمت ذلك؟"

أجبتُه: "حدث الأمر مرتين. لكن في المرة الأخيرة، كان ظهور تريز شبه حقيقي. لقد شعرتُ بملمس يدها على وجهي". رأيتُ التركيز في عيني فيوليت، وكان أكثر مما بدا في عيني سريزا. أما الآخرون فكانوا يصغون إلى ما أقوله كأية قصة مضت. "كان ملمس يدها حقيقياً.. بارداً. لكن أنا أعتقد بأن هذا مجرد خيال، كان الجو بارداً في تلك الليلة، والعوامل الخارجية تساعد على صقل أي خيال".

ردّت فيوليت: "هذا يشبه تماماً زيارة ماري عبر نافذة غرفتي. ظننتُ أنّ هذا حلماً، لكن عندما استيقظت كان الأمر أكبر من ذلك. كانت النافذة مفتوحة كما تركتها ماري حين سقطت منها. لكنني أعتقد بأن هذا وهم على كل حال".

سألت جوليا: "أليس من الغريب أن يزور هذا الوهم كليكما بطرق متشابهة؟ لماذا تلك المخاوف عالقة في ذهنيكما". فكّرت في أننا نردد قصص الخوف في هذا المكان، وبدلاً من مواساة بعضنا، نحن نقربها إلى الحقيقة ونجعل سطوتها أقوى وأكثر فعالية. لو عرضنا هذه الأحداث على طبيب لشكَّ في مصداقيتها إلى حد يزرع الشك في قلوبنا إلى أن تموت هذه التفاصيل. لكن نادي الأرق كان يجعلنا عالقين في هذه الدوامة.

ولكن ماذا لو كانت هذه القصص حقيقة، وليست أوهام مرضى؟

نهضنا جميعاً بعد أن طال حديثنا لأكثر من ساعة. حان وقت الرحيل، لذلك سرنا متجهين إلى الخارج. ودّعنا ماركوس، وسرنا أنا وسريزا وفيوليت متجاورين، أما جوليا فخرجت وحيدة. انتظرت كاميلا صديقها ماركوس حتى يطفئ أنوار المكان، ويغلق باب المرآب، ويتأكد من إغلاقه.

عرضت جوليا خدماتها: "هل تحتاجون إلى توصيلة؟"

"سيارتي معي" أخبرتُها، لكنها ظلّت واقفة. رأيتُ التردّد في عينيها، قبل أن تقطع الفراغ الذي بيننا وتعود. وقفتُ مقابلاً لها، وعلى يميني كانت فيوليت تترقب الحديث الذي سيولد الآن، بينما لم أتمكن من رؤية تعبير سريزا بوضوح.

سألتني جوليا: "هل سيضايقكَ التطفُّل يا.. ليو". نطقت اسمي كما لو أنها

لم تكن متأكّدة منه.

"أي تطفل؟ لا". أجبتُ دون وعي مني. شدّت كلمات جوليا تركيز الفتاتين.

"هل كنتَ تفكر في أنّ النادي يعزز الخوف في قلوبنا؟"

قلتُ بدهشة غير مصدق: "ماذا؟ لا.. بل نعم، هذا حقيقي".

"لا تندهش". التفتت إلى الفتاتين. ثم قالت: "هذا أمر سري، لكنني.. لا أعلم كيف يجب أن أشرح الأمر، أعتقد أن لدي القدرة على إنشاء روابط مع الآخرين، في أذهانهم". قالت وهي تشير بسبابتها تجاه رأسها. "هذا سري الصغير. لم أقصد قراءة أفكاركَ، لكن عندما فكرتَ في ذلك الأمر، شعرتُ بأنه ومض في ذهني أنا أيضاً".

قلت: "بل هذا هو ما يطلق عليه قراءة أفكار".

"لا، إنها ومضات تصبح مشتركة بيني وبين الآخرين، لكنني لا أتطفل على أفكار الغير. إن هذه القدرة العجيبة ظهرت لديّ بعد سقوطي في النهر".

قالت سريزا: "وأنا أحياناً أعتقد بأنني أستطيع التماس شعور الآخرين، لكن هذا ضعيف جداً، بل إنه قد يكون وهماً ملأت رأسي به".

ردّت فيوليت فجأة: "ظننتُ بأنني الوحيدة القادرة على هذا. ماري، وعدم قدرتي على تحديد مكانها.." هزّت جوليا رأسها محاولة تفهّم أو تذكُّر ما تقوله فيوليت. "أنا أستطيع تحديد مكان أي شخص أعرفه، لا يشبه الأمر التتبع، بل إنه كالبوصلة في ذهني".

"أنتِ أيضاً.. وأندي".

كررت سريزا: "أندي؟" بعد صمت حجبها هي وجوليا عن العالم ردّت سريزا: "يبدو هذا الاسم مألوفاً.. في أحلامي، بل هي كوابيس ليست أحلام".

"مهلاً، مهلاً". قلتُ، ثم أردفت: "أنا لا أفهم أي شيء بصورة قريبة للمنطق. في الواقع الذي نعيش فيه لا توجد أمور كهذه، ما تقولانه غريب". رمقتني جوليا بنظرة تحدٍ، بينا فيوليت أظهر معالم الاستسلام.

قالت جوليا: "هذا ما يحدث. ما الذي تعتقدينه يا سريزا".

"أنا أصدق هذا رغم أنه غريب، لكنني أصدق ما تقولينه". التفتت سريزا

إليّ وقالت: "ثم إنها علمت ما تفكّر به، دون أن تبوح به لأحد يا ليو، لا يوجد برهان أكبر. يجب أن تكون أول من يصدق الأمر، قبلي حتى".

شعرتُ بالحيرة، فقلتُ: "لا أعلم، في الواقع لستُ متأكداً".

"دعونا ننسى هذا اليوم". انطفأ نور الكشاف الخارجي للمرآب، وخرج منه ماركوس برفقة كاميلا. أكملت فيوليت: "لنمضي في طريقنا الآن، وسنخوض في هذا في المرة القادمة". وقبل أن نفترق نادت فيوليت جوليا، وسألتها: "هل مارك على ما يرام؟"

"لا أعلم. يجب أن أتواصل معه". هزّت فيوليت رأسها قبل أن تتبعني إلى سيارتي هي وسريزا.

سألتُ بدوري فيوليت: "وهل ماثيو بخير؟"

"إنه متوعّك قليلاً، أصيب بالزكام فجأة". غارت عيناها في فراغ الشارع، كأنها تتخيل صورة ماثيو، وهذا جعلني أشكُّ في مصداقية ما قالته، لكنني لم أناقشها فيه.

أغنية يوم الثلاثاء

11

"سأتحدث أنا..

لم يعد هناك من يجهل اسمي بينكم، أنا ماثيو. وجودي في هذا النادي هو الاحتمال الذي لم يكن وارداً أبداً في حياتي؛ لأنني لم أعلم بوجود مكان كهذا، حتى قابلتُ كاميلا التي عرَّفتني على ماركوس بدورها فأسسنا هذا المكان معاً، أو بالأحرى أسساه، ثمّ قاما بدعوتي للانضمام. قبل ذلك ظننتُ أنّ الكوابيس تحيا وتموت في داخل المرء، في رأسه، هنا في خياله.

ليست الكوابيس إلا واقعاً بصورة مختلفة، نُزع عنه حجاب الطبيعة، فأظهرت الأشياء أسوأ مافي داخلها. لكنني في حياتي كلها لم أكن أرى، لا أتكلم. بل أسمع، وأعزف. هكذا كنتُ، هذه هي حياتي. أتحدث من خلال أوتاري، وأسمع الموسيقى، وحتى في أصوات الآخرين كنتُ أبحث عن الوتر الذي يعزف وأستمع إليه، وهذه هي طريقة التواصل الوحيدة بيني وبين الآخرين.

هاجرنا بسبب نقص المال، وقبل ذلك كنتُ أعتقد أنّ الخوف هو أسوأ مافي الحياة. قد يعتقد البعض أن الموت هو أقصى مراحل السوء، لكنَّ هناك ما تخطّى ذلك، وهو الحاجة. لا يمكنكَ أن ترى من تحبُّهم يطلبون ما لا يملكون، ولا يمكنكَ أنتَ بكل قوتكَ أن تأتي به. هكذا كان أبي الذي خسر وظيفته؛ بسبب أزمة اقتصادية اجتاحت البلاد، وأمي لم تكن تعرف عالماً أوسع من المنزل، حتى أنها بالكاد تقرأ أو تكتب.

لا أتذكر سنوات طفولتي بشكل واضح، لكن كل ما تحمله الصور الضبابية أجد والدي فيه. في كل المشاهد القصيرة يظهر والدي. رسخت في طفولتي فكرة أنّ والدي يختلف عن أي أب آخر، لم يكن يقسو علينا أبداً، بل كان عطوفاً رغم أنه لا يملك أكثر من كلمات انتهى مفعولها ليهديني إياها.

هكذا كانت البداية قبل أن أفقد سمعي في سن السادسة. أراد علاجي بأية طريقة. لم أكن في سن يكفي كي أدرك حجم ما حدث، فمع بداية شغفي في الموسيقى راح سمعي يهجرني ببطء. لكن والدي لم يتهاون مع الأمر أبداً.

كان يحاول جني المال، لكن الحظ لم يكن حليفه؛ لأنه خسر وظيفته من دون سبب واضح، وما جناه مع الرحيل. حاول أن يضيف عليه بعض الأموال التي كان قد استدانها لعلاجي.

لم أكن أدرك أن هذا الخلل موجود في أذني، بل كل ما شعرتُ به هو بعد العالم عني، كأن الصورة كانت تسبق الصوت. مع مرور الأيام تجاوز الخلل طبلتي أذني، وأصبحتُ أشعر بأنّ العالم غريب، وبأنَّ الأصوات بعيدة عني وبالتالي أصبح سماعها مهمة صعبة.

عملت والدتي كخياطة في المنزل، وعمل والدي كل مافي وسعه لجني المال. لم يكن يحتاج المال لعلاجي فقط، بل كان ملزماً أيضاً بدفع إيجار المنزل، كما كنا نحتاج إلى المؤونة كذلك. تراكمت ديونه وهو لا يعلم، لذلك باع كل الديون إلى رجل هندي وعده بأن يعطيه مهلة طويلة مع إضافة فائدة على المال كله.

وافق والدي دون تفكير، دون أن يخمّن حتى من عساه أن يكون هذا الرجل الهندي، والذي لا أتذكر اسمه حتى، لكنني أتذكر أسنانه الصفراء، ابتسامته، وعينه اليمنى المنحرفة في اتجاه مختلف. مع وجود الرجل الهندي انتهت كل الأمور التي كانت تعكر حياتنا لأشهر قليلة.

عاد الرجل بعد ذلك مطالباً بالمال، ولم يكن والدي قادراً حتى على تأمين نصف المبلغ. أخبره الرجل بأنه لن ينتظر طويلاً، وكل ما يريده هو المال كاملاً، ولن يقبل بالنصف، وإلا فإن حياتنا ستكون في خطر. لا يملك أبي المال، وكل ما جمعه سابقاً عالج أذني فيه، وكان السمع مايزال بعيداً عنها، لكنه لم يستمر بالخفوت.

هدّد الرجل والدي مرات عديدة، وكان صريحاً في تهديده. وعندما لم يسدد والدي دينه، أحرق رجال الهندي شقتنا، وتسربت النيران إلى أجزاء عديدة من المبنى. لم ينتظر والدي الأسئلة؛ لأن الموت كان ينتظره قبل وصول رجال الشرطة، وقبل أن يحاول المحقق حلّ الأمر. لم نعطِ الجيران أي تعويض أو تفسير. تركنا كل شيء وهربنا عن طريق البحر.

لم تتقبّل والدتي وطأة الأحداث عليها فأصابها المرض، ولأنّ رحلة البحر كانت شاقة عليها، ماتت ونحن على متن ذلك المركب الصغير. رحلت والدتي

مصطحبة جزءاً من روح والدي، تركت هنا جسداً ونصف روح لرجل مهمته الوحيدة هي أن يرعى طفلاً مريضاً. وعندما وصلنا دفنّا والدتي على هذه الأرض، كأنها موطننا الوحيد قبل أن نحصل على أوراق تؤكد انتماءنا إلى هنا.

عشنا في شقة ضيقة جداً تكفينا أنا ووالدي، ولا مجال لوجود إنسان آخر معنا. ما تبقى من المال الذي دفعناه للهروب كان يكفينا لوقت قصير حتى باشر والدي العمل في محطة وقود. لم تصل إلينا أية أخبار عن الرجل الهندي، لكن وبعد أن مضت شهور قليلة بهدوء، وبدأت الطمأنينة تسكن قلب والدي، أدرك أخيراً بأنّ عمي قد قتل، وكان هذا هو جزاء الهروب من الدين. روح عمي تساوي ما استدانه والدي من الرجل الهندي، أو هذا ما اعتقده ذلك المجرم.

ورث والدي مال عمي، لم يكن مبلغاً كبيراً، لكنه كان يكفي لكي ننعم بحياة أفضل: سكن أفضل، استثمار خاص يدرُّ مالاً بسيطاً، وبالنسبة لي كان هذا يعني استمرار العلاج، وعودة سمعي إلى طبيعته، وكذلك الانتقال إلى مدرسة أفضل.

في عيد ميلادي التاسع أهداني والدي كماناً خاصاً بي، كنتُ أتعلّم العزف خارج المدرسة؛ لأنّ موهبتي لا أجد وقتاً لتفعيلها إلا في المدرسة. لكن مع وجود ذلك الكمان والذي كانت جودته عادية كانت مهارتي تتطور، قبل أن تدرك معلمتي بأنني سأتمكن من تعلم التشيللو بسرعة، كما تمكنتُ من العزف على الكمان.

مع وصولي إلى المرحلة الثانوية، كان عمل والدي قد ازدهر أكثر، وبعد مضي كل هذه السنوات، أصبحنا نعيش حياة مستقرة. في ذلك الوقت أصبحتُ متمكناً من الكمان، وكانت المدرسة الثانوية تأتي لي بفرص العزف في أماكن خارج المدرسة، وفي مناسبات هامّة، لكنني كنتُ ما أزال مغموراً، ولا يدرك قيمة موهبتي سوى والدي.

12

لم تنشأ مسافة البعد بيني وبين والدي، إلا بعد انتقالي للدراسة الجامعية. تركتُه وانتقلتُ إلى مدينة أخرى لدراسة الموسيقى، وكان هو من أصرَّ على رحيلي. لم ينقطع تواصلنا، لكن المسافة والغياب كانا كافيين لأن يُحدِثا فتوراً من جهتي أنا. لم تكن الدراسة بالسهولة الذي توقعت بأنني معها سأجد لوالدي ما يكفي من الوقت.

بعد انقضاء العام الأول، أخبرني بأنه التقى بامرأة مهاجرة تصغر والدي بسنوات قليلة، وبأنها أرملة أيضاً، وهو يرغب في أن يجعلها شريكته؛ لأنّ الوحدة كانت لا تُطاق آنذاك. عندما عُدتُ في العطلة، اعترف لي بأنه يحبُّها منذ عامين وهي كذلك، وبأنها كانت مستعدة دائماً للزواج من والدي. لكنّه كان قلقاً من غضبي، مع أنّني لم أكن كذلك أبداً، بل وجدتُ في زواجه دافعاً للحرية، وللهروب أكثر مما كنتُ أخشى فعله.

حتى ذلك الوقت لم يحدث أي شيء هامّ، أو على الأقل مختلف عن مفهوم الحياة الذي أعرفه، والذي يتوقعه معظم الأشخاص. كانت الحياة تهديني أياماً متشابهة، ونجاحاً متدرِّجاً. حصلتُ على فرصة الانضمام كعازف احتياطي إلى الأوركسترا الوطنية، وخارج ذلك النطاق، أعزف في أماكن أخرى؛ لأجني المال، ولأدخر مبلغاً جيّداً احتياطياً. مايزال والدي يمضي حياته بشكل طبيعي، دون أن يتغيّر شيء، وأعتقد بأنّ حياته الحالية تغنيه عن وجودي، لكنني أزوره من حين إلى آخر. مايزال أباً جيّداً، وأحاول أن أكون الابن الذي يستحق كل تلك التضحيات. كان للحياة مفهوم غريب في نسيان كل المعاناة عندما تسرقكَ لحظة فرح حقيقية.

عندما بدأتُ العمل مع الفرقة الوطنية مضت الشهور الثمانية الأولى على خير ما يرام. كنتُ قد انتقلت إلى سكن جديد أفضل من شقتي الضيقة، ورغم أن معيشتي لم تصل إلى معنى الرفاهية المتوقع، إلا أنه كان لديّ مايفيض عن حاجتي. لكنني كنتُ دائماً أتوقع الأسوأ؛ لأنَّ أساس حكايتي كان مدمراً، نحن لا نعيش في إطار قصة يألفها إنسان يسعى إلى بلوغ وضع الكمال في النهاية، أو يكافئ شخصية من صنع خياله بسعادة ستختفي مع إغلاق الصفحة الأخيرة للحياة. بل كنتُ أدركُ بأنَّ الحياة لن تبعدني عن كل الغموض الذي انطلقت منه.

أقود سيارتي كل يوم حتى مركز المدينة، وأعود في منتصف الليل إلى شقتي الجديدة مترقّباً النهاية التي ستنقلني إلى يوم جديد. لم أكن بائساً، ولستُ حزيناً حتى تلك اللحظة، التي سمعتُ فيها الأغنية التي غيّرت كل شيء. أخبرتني كورتني عازفة الكمان الأساسية بأنّ الموت يأتي مساء الثلاثاء، وهذا ما تبوح به الأغنية.

أغنية يوم الثلاثاء.

سألتُها: "أغنية يوم الثلاثاء؟ أهي أغنية أطفال، كتلك التي تعلمهم نطق أيام الأسبوع".

"لم يعد هناك وقت يا ماثيو لمثل هذه التوقعات السطحية. غداً يوم الثلاثاء، وأنا لم يبقَ في رصيدي الكثير لأخبركَ به، لكنها الحقيقة". جلست على كرسي البيانو، وقالت: "الثلاثاء أفقدني كل شيء، واحد تلو الآخر ذهبوا، والآن لم يبقَ سواي. كانت القاعدة هي أن تحبَّ من الأشخاص قدر ما تستطيع، وأن تراهم يموتون حتى لا يأتي الدور عليكَ أنت".

لم أفهم ما قالته كورتني التي خرجت من المكان تحمل خيبتها؛ بسبب عدم إدراكي للغزها. انصرفت كورتني، وانصرفتُ أنا كذلك. في اليوم التالي، كان يفترض بنا أن نلتقي في دار الأوبرا الوطنية للتحضير للحفل القادم. لم يكن ذلك أمراً عظيماً، ولكنّها فرصة أتيحت لنا بكل الأحوال.

لم تصل كورتني إلى التدريب. انحرفت سيارتها الصغيرة عن الطريق مصطدمة بالحاجز الحجري للجسر فوق النهر. طار جسد كورتني ووقع في النهر، ولم يعثر على جثتها أحد. رحلت هكذا ببساطة. ولم أجد الإجابة المناسبة للغز الأغنية. بل إنني في مساء الثلاثاء لم أتذكر شيئاً عن أغنية يوم الثلاثاء تلك.

لم نكمل التدريب، وبدوري أنا لم أقوَ على حضور ذلك العرض، لكنني لم أقوَ على الرفض؛ لأنني أنا العازف الاحتياطي، ولأن أيّ تأخير مني يعني تأخيراً في مسيرتي للوصول إلى مرتبة عازف أساسي. تناسينا كورتني في غضون أيام قليلة، وأجبرنا أنفسنا على تجاوز الأمر ببساطة.

الثلاثاء الذي تلى ذلك، كان هو اليوم الأخير لنا في ذلك التدريب، قبل تقديم

العرض الأساسي. تدرّبنا حتى ساعة متأخّرة، وعندما لم يتبقَّ على نهاية اليوم سوى دقائق، بقيتُ وحدي في المسرح، كان جهاز تنسيق الموسيقى متروكاً هناك؛ لأن العرض سيكون في مساء اليوم التالي.

لا تترك أية آلة قيد العمل في المسرح، لكن آلة مزج الموسيقى أصدرت صوت أغنية قديمة، ثم ردَّد صوت أنثوي مطابق لصوت جيري ساوثرن، أو على الأقل يشبه الحقبة التي كانت تغني فيها.

في مساء الثلاثاء تدقُّ ساعة الموت

تلك الكلمات، هي وحدها ما أثار تركيزي، رغم كون الأغنية أطول من ذلك، همستُ للفراغ: "كورتني". لكن تلك الفتاة لم تكن هنا؛ لأنها ماتت مساء الثلاثاء الماضي.

زارني الأرق للمرة الأولى في ذلك اليوم، وفي المساء التالي لم أعزف جيداً، وهذا ما دفع كاميلا للتخاطب معي. لكن الأمر لم يقتصر عند هذا الحد. في المساء الأول لسماعي أغنية يوم الثلاثاء، زارتني كورتني في منامي. استجابت لندائي في المسرح، وزارتني في منامي المعتم. رأيتُها تطفو وسط ظلمة منامي. كانت تغرق، ووجها تآكل حتى أصبح جزء من عظم الفك واضحاً. كانت تدندن لي بلحن أغنية يوم الثلاثاء. لا صوت في الأحلام، لكنني كنتُ أسمعها، أفهمها؛ لأنها تخبرني بأنني بدأتُ بالأمر الآن.

13

في الثلاثاء الذي تلى ذلك، كان قلق التحضير للحفل قد زال تماماً. لكن في مساء ذلك اليوم أتت الرسالة التالية باكراً جداً. اتصل بي أحد العازفين ليخبرني بأنّ قائد الفرقة الموسيقية قد لقي حتفه أثر حريق في منزله. لم يكن يملك أية معلومات أخرى عن الحادثة، غير أن ذلك الحريق شوّه جسد رئيس الفرقة، حتى أصبح التعرُّف عليه معجزة. أجريتُ بحثي الخاص، وبدأتُ بالسؤال لمدة يومين متتاليين، لأدركَ أخيراً أنّ ذلك الحديث لم يكن له أي سبب واضح. شوهت النيران منزله من دون إيجاد تفسير، أو نقطة بداية لذلك حتى. مات رئيس الفرقة وعائلته في ذلك المساء.

من المحزن أن نفقده ولأسباب عديدة، كان أولها مكانته بالنسبة إلينا، وثانيها هو أحلامي التي كان جزء منها مبنياً على وجوده، كل اجتهادي سيذهب في رأسه الذي تفحم، وسيأتي شخص آخر لا يعرفني، وعليه آنذاك أن يرى مهاراتي من جديد.

رغم كل شيء، أنا لم أنفِ وجود الرعب. في البداية كورتي، ثم رئيس الفرقة. كان الرابط بينهما هو يوم الثلاثاء. فكرتُ.. أية لعنة قد تكون أصابتني بسبب كورتني؟ ولكن هذا لم يكن حقيقياً، بل عزيتُ الأمر إلى الأوهام لا أكثر.

الأسئلة التي لا تحمل جواباً وجودها قليلٌ في الحياة، وهي غالباً لا تتقاطع مع طرق حياة أشخاص عاديين مثلنا. لكنَّ ما نقع فيه هو السؤال الذي لانجد من يحمل تفسيراً له، ولا يتقاطع السؤال مع الشخص الحامل للمعرفة، فنعتقد بأنّ المعرفة لم يكن لها وجود في هذا العالم. نحن نجد أن مهمة البحث صعبة، وأنَّ إقحام أيادينا في صندوق معتم لا نتوقّع مافي داخله أمر مخيف. ببساطة يمكن أن يكون مافي ذلك الصندوق ثعبان لدغته سامة، أو شعلة تضيء الزوايا المعتمة في داخلنا. لكن حين نقع بين ضيق الجدران لا نعود قادرين على التفكير بتفسير، بقدر ما تتجه رغبتنا نحو الخلاص.

زارتني كورتني مرتين بعد أن مات قائد الفرقة الموسيقية.

في زيارة كورتني الأولى، رأيتُها تعزف على كمانها الخاص، وتبكي رغم أنّ عينيها قد نزعتا من مكانهما، ولم يبقَ سوى لحم أطرافه سوداء تيبّس الدم

فوقها. وفي المنام التالي، رأيتها في النهر تطفو مرة أخرى، وبجوار جسدها كان قائد الفرقة يغرق ويمد يده لها. أدركتُ بأنّ ما أراه منام قبل حتى أن أستيقظ. ما أن استيقظتُ حتى شعرتُ بشيء غريب، كان الإحساس بكل شيء في ذلك المنام حقيقياً، لا أعلم إن كان جسدي قد نقل الواقع إلى المنام.. أم أنَّ أجواء حلمي خرجت إلى الواقع.

تجاوزت الساعة منتصف الليل، وأدركتُ أنّ ما أيقظني لم يكن جزعي من ذلك الكابوس، بل صوت المذياع الذي يتردد صداه في غرفتي، حاملاً نبرة أنثوية ناعمة، تردد أيام الأسبوع بمزيج من الحزن والحماس. يوم الثلاثاء، مساء الثلاثاء.

نهضتُ من فراشي متجهاً إلى المذياع الموجود في شقتي، وأطفأتُه. لم أطرح على نفسي التساؤلات المتعلّقة بذلك، حجبتُ الخوف عني، وطردتُ كل الأفكار بحزم؛ لأنني وحيد، وسيتربص بي الخوف ويتمكّن من قلبي بسهولة تامّة، وأنا بغنى عن ذلك.

مضى أسبوع آخر، لم يحدث خلاله أي شيء. بيد أنني في إحدى الليالي عندما كنتُ أتدرب على التشيللو في المنزل، سمعتُ رنين الجرس بعد أن طالت المحاولات، والتي لم أكن أسمعها بسبب صوت التشيللو. نهضتُ تاركاً الآلة بالقرب من مكاني، واتجهتُ نحو جهاز الرد القريب من باب الشقة.

أجبتُ وأنا أضغط على زر الرد: "نعم، من هناك؟".

أجابني صوت رجل: "نحن جيرانكَ.. هل أنتَ من يعزف في هذه الساعة؟"

"إنه أنا.. أعتذر لأنني.."

قاطعني الرجل: "ليس عليكَ الاعتذار، عزفكَ جميل جداً، استمر في فعل ذلك، وأعزف لنا أغنية يوم الثلاثاء". أبعدتُ إصبعي عن زر الرد، وابتعدتُ عن مكبر الصوت، كما لو أنّ ناراً تندفع منه. تنفستُ بصعوبة، وشعرتُ بأن استنشاق الهواء غدا مهمة صعبة؛ لأنني قلبي كان ينبهني بنبضات قوية، وعقلي يفكّر في احتمالات عديدة، وأنفاسي كانت آخر ما فكرتُ فيه.

ما معنى الخوف؟ أعتقد بأنه عدم قدرة إنسان على تحديد شعوره الحالي.

ما هذا الذي رمتني به كورتني؟ كيف يمكنني أن أتخلّص من الأمر. كان

عليّ أن أبقى على اعتقاد بأنّ ما أمرُّ به ليس إلّا وهماً.. لكنْ إن كان هذا خيال فهذا يعني بأنني أقترب من الجنون، كما يعتقد كل فرد في نادي الأرق أنّ قصته وهم، وأنه ينجرف نحو الجنون.

الجنون هو تصديق الخوف، أو التعامل مع الوهم على أنه جزء من تفاصيل الحياة، ولكن كيف يمكنكَ أن تقبض على الماء، إنْ لم تضعه في كوب، وحتى إن فعلتَ ذلك فإن الواقع هو أنكَ تمسك الزجاج بيدك، لا الماء. وهذا يجعل مفهوم الحقيقة خفياً خلف حاجز شفاف يجعلكَ تراها ولا تمسكها بيدك.

في عصر اليوم التالي زرتُ سكن كورتني، ولم تكن تلك سذاجة مني بأن أذهب إلى هناك، رغم علمي بأنها لن تكون هناك أبداً. انتظرتُ أسفل المبنى حتى خروج أحد الجيران، وعندما رأيتُ امرأة في منتصف سنها، تقدَّمتُ إلى المدخل واستوقفتُها سائلاً: "عذراً، هل تعرفين كورتني عازفة الكمان التي تقطن هنا".

لم تستغرق في التفكير لحظة واحدة، بل أجابت: "آه، تلك الفتاة. مَن يبحث عنها الآن؟". قالت "الآن" وكأنها تخفي عبارة أنَّ الأوان قد فات على السؤال عنها.

"أنا.. إنني صديق لها، وعازف أيضاً".

ردت عليّ المرأة: "تلك الفتاة البائسة، لقيت حتفها في حادث سيارة، طار جسدها إلى النهر، ولم يعثر أحد على جثتها حتى الآن. كم هي مسكينة كورتني! كانت ودودة قبل أن تذبل".

"تذبل؟" رددت العبارة.

"أجل، بدت في الآونة الأخيرة منعزلة عن الجميع، وخائفة. لكن لا يمكن لومها ما رأتهُ يصهر الحجارة".

سألتُها بفضول أخير، وفي نبرتي جهل؛ علّه يشعرها بمدى أهمية معلوماتها، ووجودها في تلك اللحظة: "ما الذي رأته تلك الفتاة؟ لم تخبرنا بأي شيء، رغم أنها صديقة".

"صديقة! كيف لا تعلم إذاً؟ لقد ماتت عائلتها بالكامل، سقطوا فرداً تلو الآخر. في البداية احترقت والدتها، وأصيب والدها بحروق أدَّت إلى موته بعد

أسبوع واحد. ثم ماتت شقيقتها التي تعيش خارج البلاد بعد مضي شهر واحد. يقال بأنّها انتحرت".

"هل تعرفين الأيام تحديداً التي حدث بها ذلك".

ردّت بملل: "كيف لي أن أعرف؟ لقد توفيت والدتها في يوم عيد ميلاد ابني". فكّرت كثيراً، ثم أخبرتني التاريخ بالتحديد. ابتعدتُ عنها، وأخرجتُ هاتفي الذكي؛ لأرى رزنامة التواريخ. يصادف يوم وفاة والدتها يوم الثلاثاء أيضاً.

لم أكن أعرف عن كورتني أكثر من اسمها، كنيتها، وعنوان سكنها الذي حصلتُ عليه من أرشيف الفرقة الموسيقية. حاولتُ البحث عبر الانترنت عن أية معلومات تخصُّها، وبعد جهد طويل، وبحث في عدة أسماء متشابهة، تمكّنتُ من الوصول إلى مدونتها الخاصة، والتي لم أجد فيها أية معلومة.

لم أتمكن من الوصول إلى أية أخبار عن وفاة شقيقتها، طالما لم تكن في البلاد، بل وحتى إن الصحف لم تكن لتكتب عن ذلك. لا أعرف اسم شقيقتها، وحاولتُ البحث عنها بين من يلاحقون مدونة كورتني، لكنني لم أتوصل إلى أي شيء. في نهاية الأمر استسلمتُ، وتواصلتُ مع صديقٍ لي عملَ في سلك الشرطة، وطلبتُ أية معلومة تخصُّ هذه الحوادث المتعلّقة بحياة كورتني. لم أكُن راغباً في إقحام أي شخص في تفاصيل حياتي الغريبة، لكنني بحاجة إلى المعرفة أيضاً. لن تغيّر تلك المعلومات أي شي، لكنني أردتُ التأكُّد من ارتباط الحوادث بيوم الثلاثاء. وبالفعل عندما أجابني صديقي، أخبرني بأنّ شقيقتها انتحرت خارج البلاد في تاريخ صادف يوم الثلاثاء.

أخبرني صديقي بأنّ منزل عائدة كورتني احترق، ولم يتوصَّل أحد إلى سبب واضح لذلك. التهمت النيران كل شيء أثناء نوم العائلة. والجميع ماتوا في يوم الثلاثاء، كورتني، والديها، شقيقتها، وحتى رئيس الفرقة الموسيقية.

سرقتني الأفكار من الواقع لأيّام عديدة. لم يحدث معي أي شيء غريب. حاولتُ التماسك كثيراً؛ لكيلا أرى حياتي على غير الشكل الذي اعتدتُ البقاء عليه، وأيضاً لا أختلف في نظر من يعرفونني. أرادتُ البقاء قويّاً أمام الجميع. حاولتُ التركيز على التدريب، ورغم أنّ تركيزي قد اهتزَّ في الآونة الأخيرة، إلا أنني حاولتُ العودة وبقوة. تمكنتُ من لفت انتباه رئيس الفرقة الجديد، وحاولتُ

بذل مجهود كبير؛ لكي أنافس على مكانة أعلى مما أنا به. كنتُ أرفض بعض فرص العزف في الخارج، ولذلك قلَّ مدخولي، لكنني لم أكن أهتم؛ لأنّ إنفاقي للمال أصبح أقل.

حاولتُ أن أعيد بنيان حياتي، لكن في ذلك الثلاثاء، وقبل بداية فصل الخريف، اتّصلت بي زوجة والدي؛ لتخبرني بأنّ أبي مفقود. وبطريقة لا إرادية ربطتُ الأمر بهذا اليوم. انطلقتُ بسيارتي إلى منزل والدي، وبعد قيادة استغرقت وقتاً طويلاً، وصل بعد رجال الشرطة الذين احتشدوا حول منزله.

أول ما تناهى إلى سمعي هو عويل زوجة والدي. دخلتُ إلى المنزل فصاحت بي بصوت مهزوم: "لقد وجدوه في البحيرة، سقط هناك.. لقد مات والدكَ، سقط في البحيرة". همس صوت في داخلي، بأنه لم يفعل، بل هي لعنة يوم الثلاثاء تعود من جديد.

هذا هو ما حدث حتى الآن".

14

انتهى اللقاء في نادي الأرق، ولكنّ هناك ما منع جوليا من النهوض، وعندما أجبرت قدميها على ذلك، كان الرحيل مهمة مستحيلة. راقب جوليا ماثيو الذي كان برفقة فيوليت طوال الوقت، وهي عاجزة عن الوصول إليه وحده. لذلك قررت أن تتقدم إليه، وأن تبوح بما تريد أمام فيوليت.

خرجت من المرآب، وانتظرت تحت ظلام الليل حتى يخرج هو وفيوليت، أزعجها ألّا تدرك فيوليت حاجتها للتخاطب مع ماثيو على انفراد، ولم تكن جوليا لتخجل من منع الفتاة عن البقاء معهما، لكنها لا تريد أن تُنشِئ أية مشاعر سلبية بينها وبين الموجودين في النادي.

راقبها ماثيو بعينين حائرتين، فقالت هي: "مسألة يوم الثلاثاء تلك، أعتقد بأنني أكثر من يؤمن بها من بين كل الموجودين". عقد ماثيو حاجبيه، فهو يعتقد بأن واجب كل أعضاء النادي، هو الإيمان بالقصص الغريبة. أردفت جوليا: "أعني إيماناً حقيقياً يا ماثيو. هل تتذكّر جريمة قتل الطفل جيمي؟ كان ذاهباً إلى عرض السيد ثلاثاء، وهذا الاسم يبدو غريباً بعض الشيء، أو مضحكاً، ولكنّ تلك الجريمة تُبدي بأنه فرع صغير وبعيد، لكنه ينتمي لشجرة يوم الثلاثاء هذه كلها".

"ما الرابط بينهما. أعني مسألة يوم الثلاثاء، قد تكون أمر يعني حياتي، ولا ذنب لذلك الطفل فيها". أجاب ماثيو فشعرت جوليا بسذاجة تفكيره، وفكرتها في آن واحد.

قالت فيوليت: "هذا منطقي. بل يبدو لي أمراً ملموساً. اختفت ماري يوم الثلاثاء، والسيد ثلاثاء هذا الذي تقولين بأنّ حضوره قد خَلَّف جريمة قتل، وكذلك كل الحوادث في حياتك كانت قد وقعت في يوم الثلاثاء. هناك خطب ما في هذا اليوم!".

"أو هناك رابط يجمع بين تفاصيل حياتنا، وهذا احتمال بعيد حتى الآن. هل يمكنكَ أن تعطيني اسم كورتني وكنيتها؛ لأجري بحثي أنا أيضاً". ظهر التردد على وجه ماثيو، وكاد أن يرفض؛ لسبب لا يعلمه. "الأمر يفوق ما تتوقَّعه، ولا يقف عند حدود شكٍّ وحيد".

"حسناً، سأفعل". أجاب ماثيو، وأخرج قصاصة ورقية، كتب عليها اسم

كورتني وعائلتها. ثم سلّمها لجوليا. "تبدو لي الروابط ضعيفة، لكن لنرى ما الذي قد يحدث".

دسّت جوليا القصاصة في جيبها قبل أن تقول: "إن لم يخدمنا هذا، فلن يضرنا. لنرى إلى أين ستصل كل هذه الخيوط الصغيرة".

قال فيوليت: "أنا أؤمن بكل هذا الاحتمالات، وأرجوا أن تطلعيني على كل ما تصلين إليه. حدسي يخبرني بحقيقة اعتقادكِ رغم كون الأمر ضعيفاً حتى الآن. لا بد أن نصل إلى نقطة ما". وجّهت جوليا إلى فيوليت نظرة موافقة، لكنها لم تجبها بأية كلمة. استدارت واتجهت إلى سيارتها، ثم ذهبت تاركة النادي خلفها.

قادت جوليا سيارتها متّجهة إلى المنزل، وبينما هي تقود أخرجت هاتفها لترسل رسالة نصية إلى إيفان: لديّ بعض الأخبار الجديدة. ثم رمت هاتفها على المقعد الجانبي الفارغ، وعادت بتفكيرها إلى ماثيو. كلما ازداد عدد المقربين، كلما أصبح الموت أبعد عنك.

حتى لا تقترب منكَ لعنة يوم الثلاثاء، عليك أن تحيط نفسك بالآخرين. ألهذا هو عضو من أعضاء النادي؟ هل يريد أن يجعل من الأعضاء جدراناً يتحصن من خلالهم من لعنة يوم الثلاثاء تلك ويؤخر وقوعها؟ أم أنَّ هذه طريقة تصوّر الخوف في حياته هو؟

***

"أوافقه الرأي، ما الذي يجعلكِ تظنين بأنّ هناك رابطاً بين كل هذه القصص المختلفة؟". سألها إيفان الجالس خلف طاولة المحاسبة الخشبية.

أجابت جوليا، وهي تعيد إغلاق صندوق المال: "يوم الثلاثاء.. الحرائق. ألم يكن سبب الحريق في منزل والدة جيمي مجهولاً؟ هل تراها انتحرت كما حدث مع والد ماثيو؟". تجاوزت جوليا الطاولة الخشبية لتجلس قبالة إيفان، الذي راح يبحث عن تبرير سريع لذلك.

"والد ماثيو لم ينتحر، بل هم يشتبهون بذلك".

قفزت جوليا من مكانها لتقول: "أو قد يكون هذا مشابهاً لما حدث معي، لكنه لم يجد من ينقذه، فظنوا بأنّه انتحر، أو وقع في تلك البحيرة".

"لنقل أن هذا حقيقي، لكن والدة جيمي طعنت عينيها بالأقلام، ولم تحترق".

أجابت جوليا: "لكن منزلها احترق دون سبب واضح. لو كان الحريق قد التهم جثتها، لما اعتقد أحدكم بأنها انتحرت. هناك ما جعلها تُقدم على فعل ذلك، ولكي يخفي قدرته الشيطانية أراد حرق المنزل. هناك قوى تهدد أكثر من حياة واحدة في هذه البلدة".

صمت إيفان قبل أن يقول بتردد: "هذا.. هذا يبدو طفولياً".

"وحقيقياً".

"كل شيء يتداعى أمامي". قال معلناً استسلامه. "لا أستطيع السيطرة على شيء، وأشعر بأنني طيف يعبر بجوار هذا العالم دون خوضه". كان يفقد سيطرته على كل الأمور التي اعتاد على أن تكون هي جزء منه، وليس عكس ذلك. كان ذهنه فارغاً إلّا من كلمات قليلة متبقية تشرخ مافيه من فراغ؛ لأنه لا يملك شيئاً في داخله. "أضعتُ سنوات من عمري في فراغ، ومن ثم في العمل، ثمَّ فقدتُ والدتي، والآن لم يبقَ لديَّ شيء يمكنني أن أشعر بالانتماء إليه". هو ليس حزيناً، لكنه لم يكن يشبه الآخرين.

سألته جوليا: "ولماذا كنتَ تخفي كل هذا؟".

"لمن أستطيع البوح به؟" فكّرت جوليا بسؤاله، ولم تعرف كيف عليها أن تخفف عنه ذلك. لا سبيل للكلمات الآن، ولكي تتخطى حاجز الانفعال أخبرته بأنها معه، وستبقى موجودة. فأجاب: "أعلم هذا يا جوليا. لا تشبهين تلك الأشباح التي تهيمن على حياتي، وتهمس لي دون أن تحاول انتشالي من هذا الهدوء".

"من الجيد أن تدرك قيمة وجودي". غمزت ممازحة إياه.

استغرق إيفان بعض الوقت حتى يتشرب ذهنه نبرة المزاح تلك، لكنه ابتسم مُتأخّراً، ولم ترَ جوليا ابتسامته، بل وخالجها شعور بالندم لاندفاعها. حاول هو تدارك الموقف، فشكرها على وجودها، وما أراده حقّاً هو أن يعبّر لها عن مدى إعجابه بها. كان ممتناً لتعاطفها، ولخوفها اللذين سمحا له بالوجود هنا رغم تأخُّر الوقت. شعر إيفان بالسعادة؛ لكونها تحتاج وجوده؛ ولأنه الشخص الوحيد

الذي تشاركه أفكاره.

"أودُّ أن أخبركَ بأمرٍ ما". صمت إيفان؛ كي يعطيها مساحة للحديث. "تلك التفاصيل، ألم تتساءل عن مصدرها؟ أقصد قصة يوم الثلاثاء هذه؟!". نظر إيفان نحو السقف متظاهراً بالتفكير، ثم أجاب بالنفي كاذباً. ردّت جوليا: "نادي الأرق".

كرّر إيفان عاقداً حاجبيه: "نادي الأرق؟" ارتعش رأسه بسبب غرابة هذا الاسم.

"إنه فريق دعم سري، ليس لديّ الحق بالبوح بوجوده، لكنني أعترف لكَ الآن، لأنني أثق بكَ".

سألها: "أي نوع من النوادي هذا؟"

"إنه مكان نلتقي فيه ونناقش قصصنا الغريبة. في الواقع تبدو أحاديثنا غريبة، لكننا نشعر فيه ببعض الراحة، وهو لا يحثنا على القيام بأي شيء". فكّرت في سذاجة الطريقة التي بررت فيها كل شيء له. لم يتبقَّ في تلك اللحظة سوى نظرة فارغة تعبر عن فقدان القدرة على الفهم. "أنه يشبه نوادي الدعم التي تخصصها الكنيسة، أو المراكز الصحية، أو مركز إعادة التأهيل، لكن الفرق الوحيد هو أنّ من أسس هذا النادي، هو مجموعة من الأصدقاء".

سألها إيفان: "من هم هؤلاء؟ هل تعرفينهم؟ كيف وصلتِ إلى هناك أعني؟" أزاح عينيها عنه، وحاول عدم النظر إليها، حتى لا يوحي لها باندفاعه. لم يكن هذا تحقيقاً، وهم ليسوا في مركز الشرطة.

"أعرف شخصاً هو مَن عرفني على هذا المكان. في البداية شعرتُ بأنه مكان غريب، ولكن الآن أنا أشعر بأنهم يقدّمون الدعم لبعضهم، أو على الأقل يستمعون. لكن هناك شيئاً واحداً غريباً".

"ما الغريب؟" قال بقلق، وكان يخشى أن يكون هذا السؤال سبيلاً إلى مضايقتها.

"هناك روابط خفية بين الجميع، وأوضحها هي مسألة الثلاثاء". قالت جوليا الاسم، من دون أن تحدّد إن كان يرتبط باليوم، أو بالأغنية، أو أنه يرتبط في السيد ثلاثاء الغامض. فهمَ إيفان فوراً ما كانت تعنيه، لكنه لم يجد أية إجابة

واضحة؛ لأنه يسمع هذا الكلام منها هي فقط، وهو لم يخُض هذه الأحداث معها.

روت له جوليا كل شيء، ليس لأنه كان يسألها، أو لترضي فضوله؛ بل لأنها تثق فيه. كانت جوليا تحتاج إلى شخص آخر تحكي له عن هذا الجانب الغريب رغم ارتباطه بالسرية. أخبرته عن مارك والمستشفى.

"لم يستغرق هذا وقتاً طويلاً، ورغم ذلك أنتِ تشعرين بالراحة حيال هذا الأمر.. أقصد النادي، ومارك هذا، وكل الأشخاص هناك". ذكر لها "مارك" بطريقة أبوية، وحاول أن يرخي جسده المتوتر، لكنه عجز.

"لم يَمضِ وقت طويل على معرفتي بكَ، وأنا أثق بكَ أيضاً".

ردّ باقتضاب: "وهل تثقين بكل من ترينهم؟ هذا لم يعد يفعله الأطفال حتى!".

"لا". ردّت جوليا بحزم، ثم قالت: "أثق بمَن أراه أهلاً لهذا". كان صوتها حاداً عندما ختمت هذا النقاش الذي تبعه الصمت وأثر كلماتها. حاولت جوليا تقبُّل اندفاع إيفان، لكنها كانت تغضب كلّما فكّرت في الأسئلة، وهو كان يغضب، كلّما تخيّل الجانب الذي تعيشه هي، ولا يعلمه هو.

15

قاد ماثيو سيارته، وحاول أن يلحظ وجود فيوليت بجواره، ويستبدل بها ذكريات الصمت التي كان يعيشها في كل مكان. لم يكن الهدوء مصدرَ إزعاج يوماً، وبالنسبة له هو، بل كان الهدوء فرصة لصنع موسيقى خيالية يرسمها في ذهنه. لكن الآن.. الهدوء هو مصدر المفاجآت.

"لا تترك الأفكار تسرقكَ يا ماثيو، أفكارنا الخاصة لا حدود لها. لن تكفّ عن فعل هذا، حتى تسرقكَ الحياة من لحظات التفكير، أو يصنع لكَ الصداع جدارَ العجز. سَيطِرْ على ذلك، وتحلَّ بالقوة التي كنتَ تبدو عليها".

يدرك ماثيو مدى اهتمام فيوليت بأمره، قبل حتى أن تعرف حكايته، وهاهي تجلس بجواره اليوم، ولا تخاف من أن تصيبها لعنة الثلاثاء وهي قريبة منه. قال لها: "كنتُ أتحلّى بالهدوء، ولكن أعتقد بأنني فقدتُ القوة منذ وقت طويل.. بل ربما لا أكون قد اكتسبتُها سابقاً".

"لا تساعد كلمات المواساة دائماً؛ لأننا نرددها لأنفسنا كمواساة من أشخاص آخرين. كل ما عليكَ فعله، هو البحث في أعماقكَ عن حلٍّ لكل هذا".

قال ماثيو: "ليس الحل في داخلي، لا يمكنني إنكار وجود هذا الكابوس. عليّ إيجاد حلٍّ لهذه اللعنة، بهذه الطريقة سيزول كل شيء، وستعود حياتي إلى طبيعتها". لا يمكننا أن نتعامل مع المشاكل دائماً على أنها جزء من تفاصيل حياتنا، وأنها مرسومة مع أحداثها منذ البداية. هناك ممرات نعبر خلالها، ولا ندرك بأنها ضيّقة، ولا يكون الحل للخروج منها منبعثاً من أعماقنا، بل علينا إيجاد المنعطف الصحيح للخروج.

وصل ماثيو إلى المبنى الذي تقع شقة فيوليت فيه، والتي كانت ماري تشاركها إياها فيما مضى. ترجّلت فيوليت من السيارة، ولوّحت له مودعة. مضى هو في طريقه، وعاد الصمت ليطبق على عالم ماثيو. هو يفتقد والده رغم أنّ الموت كان بالنسبة له الحرية التامة بكل مافيها من راحة وألم. لم يكن موت والده الغامض مؤلماً كرحيل والدته، لكن كلاهما كانا جزءاً من روحه، ولقد فقدهما الآن، وفقدَ بعض ألوان الحياة، وما تبقّى له كان جزءاً حرّاً تماماً.

كسر الصمت صوت تمزق منبعث من الراديو. لم يكن يعمل، لكنه كان

يبعث صوت محطة لا إرسال فيها. راحت الموسيقى تمتزج من بعيد مع صوت التمزق المزدحم. ضغط ماثيو على زر التشغيل فانبعث الضوء من المذياع، لكن الصوت كان ما يزال موجوداً. ضغط ماثيو مجدداً فاختفى الضوء، ولم يتلاشَ الصوت.

كان الصوت بعيداً يردّد: في مساء الثلاثاء تدقُّ ساعة الموت.

ضغط ماثيو على المكابح بقوة، وركن سيارته على جانب الطريق، ثم أطفأ المحرك. اختفت كل الأصوات. ظلام تام، وهدوء.. هذا هو كل ما يحيط بماثيو. ردّد في داخله، كل عبارات اللعن، وأثناء خوفه لم يكن قادراً على التحكُّم بأية كلمة يقولها.

إنه الكابوس يعود الآن، يعود من جديد، ولا يدري ماثيو من الذي سيشاركه في هذه اللعنة الآن!

16

في نهاية الأسبوع، يصبح منزل كاميلا فارغاً معظم الوقت، لا يكون هناك سوى الخدم الذين يتخفّون إما في غرفهم الخاصة، أو في المطبخ، وإن لم يكونوا هناك، فهم ينجزون أعمالهم. ليديا ليست في المنزل، ولم تُخطر والدتها بخروجها، ولا تعلم كاميلا أين هي ابنتها الآن. كذلك فيكتور لم يكن موجوداً، وهو يعود في وقت متأخّر غالباً. كانت كاميلا تقضي يوم الجمعة وحيدة، فحتى الأصدقاء لم يعودوا متفرغين لقضاء الوقت معها كما في السابق. في شبابها لم يكن لديها العديد من الأصدقاء، وهذا ما ندمت عليه عندما تقدمت بها السنوات، ووصلت بها إلى هذه اللحظة.

غير نادي الأرق، لم يكن هناك ما يجعل كاميلا تشعر بكينونتها؛ لأنها كانت دائماً تعتقد بأنها مكشوفة للآخرين، ويمكن بسهولة قراءة تفاصيل حياتها، وتوقّع أفعالها. أغراها وجود هذا الجانب السري، وأحبت الخوض فيه أكثر. لكن كل تلك الجوانب الخفية، لم تحاول أن تطغى على حياتها، وتقتل الملل. هي في الشتاء، وهم في الصيف عالقون.

يعزز الفراغ صدى الأصوات التي نخفيها في داخلنا، ويجعل الأفكار أوضح مهما كانت صعبة، أو حتى سيئة، بما في ذلك فكرة التخلي. لأوقات طويلة، نحن نعيش برابط مصنوع من المشاعر يقيدنا بالآخرين، وحتى إذا حان وقت الابتعاد فقد تكون هذه اللحظة رغم سهولتها مستحيلة. لا يكمن لكاميلا الآن أن تتخلى عن عائلتها، وعن كل ما جاهدت من أجله بصمت في السنوات الماضي. لكن الملل كان يسيطر عليها وقد غطى جليده زوايا حياتها كلها.

حاولت أن تقضي وقت الفراغ وهي تشغل نفسها بأشياء عديدة، لكن لم تفلح جميعها في كسر الملل. لم يجب ماركوس على رسائلها؛ لأنه كان منشغلاً هو الآخر في اجتماع ما. لا تعرف أعضاء النادي جيداً، ولم تخطط يوماً لتقوية الرابط بينها وبينهم، بل كانت تفضّل أن تكون تلك السرية هي ما يجمعهم.

مضى المساء ببطء، لم يكن هناك ما يجب عليها أن تفعله كفرض عليها، أنهت واجباتها القليلة لذلك اليوم، ولم يتبقَّ إلّا كم من الوقت لا تعرف في أي اتجاه يجب أن تنثره. عادت إلى السرداب القديم، وهذه المرة كان لديها من الوقت والفضول ما يكفي لكي تبحث في الأدراج، وفي الخزانات الصغيرة،

والتي لم تكن تحتوي على أي شيء يثير اهتمامها.

سارت بخطوات باردة أمام رفوف الكتب الطويلة، والتي لم تكن تحتوي على عدد هائل من الكتب، لكن بالنسبة لكاميلا التي لا تهوى القراءة، ولا جمع الكتب، كان هذا العدد كبيراً. بعض الكتب كان قديماً ومغطى بغلاف ورق مقوى لا يحمل عنواناً أو نقوشاً، والبعض الآخر كان يحمل عنواناً مذهَّباً، أو حبراً أبيض يرشدها إلى محتوى الكتاب. بعض الكتب كان سياسياً، وهناك كتب أخرى تتحدث عن تاريخ بلادهم، وهناك ما لم يكن يحمل أي عنوان.

استوقف كاميلا كتاب مغطى بغلاف أسود خشن، بدا قديماً، لكنه مايزال سليماً. لم تجد عليه أي عنوان، كل ما طبع عليه هو نقش لحلقة مغلقة، وفي منتصف تلك الحلقة نقطة كبيرة مما يكسبها شكل قرنية العين، وفوق تلك الحلقة نُقِشت ثلاثة خطوط بالطول بطريقة طفولية، تصوَّرت كاميلا هذا النقش على أنه عين ذهبية فوقها ثلاثة رموش. كان رسماً مبتذلاً للعين، لكن لم يكن له أي معنى واضح. قبضت كاميلا على طرفي الكتاب، وتصفّحته متجاوزة عدداً عشوائياً من الصفحات، فوجدت نفسها فوراً في منتصف الكتاب، والذي كان أقرب ما يكون من المخطوطة المكتوبة باليد، لا بالآلة الطابعة، لكنه لم يخلُ من الكلمات المطبوعة عبر آلة قديمة. نظرة خاطفة على الكتاب، تكفي حامله ليدرك أنّ عمر هذا الكتاب يتجاوز عمر الحاسوب.

بقلم حبر رسمت أعين عديدة على هوامش صفحات كثيرة، لكن هناك صفحات قليلة خلت من الرسوم المضافة للصفحات بعد طباعتها. مرّت كاميلا على صور لأشخاص تغطيهم أردية طويلة، وصور أخرى لأعين كبيرة. اعتقدت أن هذا الكتاب هو كتاب علوم، أو كتاب طبي قديم، لكن فضولها دفعها لقراءة مابين الأسطر.

مررت إصبعها على عنوان كبير مكتوب بحبر داكن: طائفة

شعرت لوهلة بأنّ صور الأشخاص ذوي الخوذات المخروطية يوحي بطابع ديني، وبدلاً من أن تكون في قبو منزلها، أدركت أنها أسفل معبد قديم وأنها تكتشف أسراره الآن. هناك صور لحالات علاج، وصور طبية لعمليات علاجية. تساءلت كاميلا في سرّها، أي طائفة هذه؟ لم تكن متأكدة من نوع الزي إن كانوا أطباء، أم أنهم تيار ديني خفي قديم؟! على أزيائهم الطويلة

رُسِمت أعين لا تختلف عن تلك التي على الغلاف.

حرّكت كاميلا العديد من الصفحات، فوجدت الحبر الحديث يطبع عبارات غير واضحة على هوامش الصفحة:

أعينهم ترى، ونحن نبصر

نرسم العالم بين الأهداب

مررت كاميلا يدها على الكلمات الحديثة، هي متأكدة من عمر هذه الطباعة العشوائية لا يضاهي عمر الكلمات التي طبعت على الورق القديم. هناك من طبع كلماته الخاصة فوق هذا الكتاب، وطالما هو يخص والد فيكتور، فلا بد أن يكون هو الشخص الذي تعنيه شكوكها الآن. سرت موجة كهربائية في إصبعها، وكأنّ روح الكلمات وخوف من كتبها يتسرب إليها هي.

قد لا تراهم، لكنّ العين لا تكذب

انظر إلى أعينهم وستعرفهم

في الجزء الأخير من الكتاب طُبِعت العديد من الصور التي توحي من جديد بالطابع الديني، ولكن هناك صوراً لقرنيات غريبة الشكل، وبعضها يحمل فتيلاً خافتاً في داخله. هناك صور بدت لعمليات طرد الأرواح، وتكرّرت عدة مرات أثناء مرور كاميلا عليها. أغلقت الكتاب، ونظرت إلى الرمز الموجود على الغلاف القوي. أعادت فتح الغلاف، وراحت تلقي نظرات خاطفة على الصفحات الأولى.

تشرق شمسنا، وكذلك هم

شمسهم سوداء لا نراها

أما شمسنا تحرق الأرض

جميع العبارات كانت تميل إلى حاسة النظر، وكلها توحي بالبصر، لكن كاميلا لم تفهم أي شيء من ذلك. تركت الكتاب على مكتب والد فيكتور، وراحت تبحث بدقة أكبر بين الأدراج، كان هناك العديد من الأشياء القديمة التي مايزال يحتفظ بها، ولكنها لم تُثر شكوك أحد يوماً. أقلام، وقدّاحات، وبعض الخواتم القديمة. كلها كانت قديمة، ولا توحي بأي شيء غامض، إلّا

أحد الأقلام الذهبية، حمل نقشاً أسود مطابقاً تماماً للرمز الموجود على غلاف الكتاب.

هذه الطائفة حقيقية إذاً، هل كان والد فيكتور منهم؟ لا يرحل الجميع حاملين خباياهم؛ لأن هناك أسراراً لا تنتمي إلى أصحابها، بل هي أكبر، وأكثر انتماء إلى هذه الأرض، ولا يمكن دفنها مع من كان جزءاً منها. لم تترك كاميلا الكتاب في القبو، بل أخذته معها، وتركته في الجرار المجاور لرأسها بعيداً عن عيني زوجها، والذي لو رآه لم يكن ليهتم.

***

"ما الذي كنتَ تعرفه عن عمل والدكَ يا فيكتور؟" سألت كاميلا زوجها على مائدة الإفطار في اليوم التالي، لم تكن تريد أن تتخاطب معه في هذه الأمور أمام ليديا، لكنها لن تجد فرصة أخرى للحصول على الإجابات منه سوى الآن. كان الطعام عالقاً في فمه، وكان مايزال يمضغ. تردّد قبل أن يجيبها بأنه لا يعرف الكثير.

"تجارته التي نعمل بها نحن الآن، ولا أعلم أكثر من ذلك. لماذا تسألين عن هذا؟"

ردّت كاميلا: "يعتريني الفضول أحياناً حيال والدكَ".

تدخلت ليديا: "أنا أحياناً أودُّ معرفة المزيد عن جدي، لكنّه مات قبل أن نتمكّن من ذلك".

"لا يوجد ما يجب أن تعرفونه عنه، وهو لا يستحق الذكر، أفضل ما قام به هو هذا النعيم الذي نعيش به، ومنزلنا الحالي، غير ذلك لا يوجد ما يجب أن نذكره به". رمقت كاميلا زوجها بنظرة استياء، بينما لم تهتم ليديا، وهمّت بالنهوض متّجهة نحو باب المنزل.

حين أصبحت كاميلا بصحبة زوجها بمفردهما قالت له: "لم يكن عليكَ أن تتحدّث عنه هكذا أمام الفتاة".

"هذا ليس هامّاً، وما قلته حقيقي، لا يهمني أمره، ولا يهمني إن كانت ابنتي ستحترمه".

نهضت كاميلا وهي تقول: "ليس هي من عليها أن يحترم والدكَ، بل واجبها

أن تحترم والدها والذي هو أنتَ، وأنتَ تربها ببساطة أنّ احترام الأب ليس ضرورياً. تجعلها بهذا تستسهل فكرة التمادي عليك، ولا تستغرب يوماً ما إن كانت صورتك العظيمة قد خفتت في عينيها".

ردّ فيكتور بغضب: "الأمر مختلف".

"أخبرها هي أنَّ الأمر مختلف، هي مراهقة لن تفهم تلك التفاصيل". ورحلت دون أن تنتظر منه أية إجابة. عادت كاميلا إلى حجرتها، وراقب النافذة حتى خرج زوجها من المنزل، ثم أخرجت الكتاب الذي لا يحمل عنواناً، وقرّرت أن تتصفحه من البداية.

17

لم تكن ليديا ابنة أنانية أو عاقّة حتى، لكنها كانت تعيش صخبها الداخلي، وتملك منه ما يكفي لأن يحجب عنها، صوت العالم المحيط بها. كانت مشغولة في ترتيب عالمها الخاص، ولم تنتبه يوماً لمشاعر والدتها التي كانت تبتعد عن الواقع، وتنسحب داخل موجة الملل، ولم تدرك بأن والدها بعيد عنهما، ومنشغل بأعماله الخاصة.

قادت الفتاة سيارتها حتى وصلت إلى الحرم الجامعي، وكان من المفترض لهذا اليوم أن يكون كأي يوم دراسي آخر، لا يميزه أي حدث، أو هذا ما كانت تتوقعه، حتى يبدأ الوقت بوضع الأحداث في حكايتها. لم تكن تعاني من قلة النوم، أو من الصداع، أو حتى أية أمراض أخرى. لكن الصداع الذي اعتراها فجأة، كان مثيراً للشك، وطوال اللحظات القصيرة التي كانت فيها بكامل وعيها، كانت مندهشة بسبب هذه الموجة المفاجئة.

راحت الضوضاء المحيطة بها تبتعد، وأصبح الأشخاص المحيطون بها مجرد صور ضبابية تمتزج ألوانها ببعض مشكّلةً حولها غيوماً داكنة تحجب عنها الرؤية. لم يكن هناك سوى طيف واحد واضح، ظل أسود يتجاوز سور الجامعة ويقترب منها. شكّت ليديا وهي تترنح في مكانها بأنّ هذا السواد، ليس إلّا ظلاً قد انسلخ عن صاحبته. ومضت عينا الجسد الأسود الذي أخذ يشق الضباب وصولاً إليها.

سقطت ليديا على الأرض، وكادت أن تفقد الوعي، لولا أنّ الصوت الأنثوي أعادها إلى الواقع: "تماسكي، هيا لا تفقدي الوعي". ضربتها الفتاة على وجنتيها، فعاد وعيها من جديد. حاولت ليديا أن ترفع جسدها، وتراقب المكان المحيط بها.

لم ترَ ذلك الظل، لكنها قالت: "كان هنا، إنه هو من فعل.."

راحت الفتاة التي ساعدت ليديا على النهوض تتلفّت، لكنها لم ترَ شيئاً غريباً، فسألتها: "من هو؟" لكن عيني ليديا ظلتا حائرتين، ولا تملكان أية إجابة. راقبت ليديا الفتاة ذات الشعر الأحمر الداكن والذي يميل إلى السواد، لكنّ ضوء الشمس فضحَ لونه الحقيقي.

"ساعديني على النهوض".

قالت الفتاة الأخرى: "هيا". ثم أمسكت يد ليديا. "أعتقد بأنكِ لم تتناولي طعامكِ هذا الصباح، يمكنني أن أُحضر لكِ بعض.."

هزّت ليديا رأسها، وقاطعتها: "بل تناولت طعامي".

"إذاً بعض القهوة قد تساعد، أليس كذلك؟" وافقتها ليديا الرأي، وسارتا معاً إلى ردهة المطعم الكبيرة الموجودة داخل الحرم الجامعي. طلبت الفتاة من ليديا أن تجلس ريثما تحضر هي القهوة. غابت الفتاة لعشر دقائق كاملة، ثم عادت تحمل زجاجةَ ماء واحدة، وكوبي قهوة تمت تغطيتهما من الأعلى، ولكن خيط البخار كان يتسرب من فتحة الشرب.

"شكراً على القوة، وعلى الماء أيضاً".

ابتسمت الفتاة الصهباء، ذات الشعر الداكن: "لا تشكريني. بالمناسبة أنا فيوليت". رفعت ليديا عينيها بدهشة لتراقب وجه الفتاة المرهق، والذي رغم ذلك لم يفقد جماله.

"أنا ليديا. سررتُ بلقائك يا فيوليت". ساد صمت قصير رفعتا فيه كوبي القهوة، وما أن فرغتا قالت ليديا بفضول: "أنت هي الفتاة.." هزّت فيوليت رأسها دون أن تنظر في عيني ليديا.

"نعم أنا هي صديقة ماري". أجابت فيوليت؛ لتسكت فضول الفتاة.

ردّت ليديا بأسف: "ما حدث يدعو للأسف!". ثم راحت تجمع خصلات شعرها خلف رأسها، وتبحث عن بقع الغبار العالق على ملابسها لتمسحه.

"نعم وللفضول حتى، لكن الأقسى من ذلك أن نكون ما نزال تحت تأثير الجهل التامّ حيال ما حدث".

حاولت ليديا أن تواسيها قائلة: "لا بدّ للوقت أن يحمل الإجابات معه".

"ربما" ثم راحت فيوليت ترتشف القهوة من كوبها، فقلدتها ليديا. طال جلوسهما، وفتح الحديث الصغير ذلك، المجال لأحاديث أخرى، وما أن انتبهت ليديا لساعتها حتى أخبرت فيوليت بأنها مضطرة للذهاب إلى محاضرتها. حذّرتها ليديا من فعل ذلك إذا كانت ما تزال تشعر بالتعب، لكن ليديا نفت شعورها بذلك.

لم تكن أي من الفتاتين تخطط لأن تكون صديقة الأخرى، وحين مضت ليديا كانت قد نفت صورة فيوليت من ذهنها، لم تكن تدرك بأن الأيام القادمة ستجمعها بتلك الفتاة أكثر.

ما تزال فيوليت تجلس على الطاولة ذاتها، تراقب كرسي ليديا الفارغ، وتفكّر في قدرتها تلك والتي تعمل للمرة الأولى دون إرادتها، كانت بعيدة عن مكان ليديا، لكنَّ تلك الإشارات نبهتها إلى مدخل الحرم الجامعي، وحين انطلقت بدافع الفضول، وجدت ليديا تستلقي على الأرض دون سبب واضح، ما أن رأتها حتى زالت تلك الإشارات.

ما الذي رأته تلك الفتاة، ولم تخبر فيوليت به؟

18

لم تجد ليديا تفسيراً لما حدث لها اليوم، ولكن للأبدان أحياناً أفعال لا يتوقَّعها صاحبها، وقد تكون رد فعل لأي شيء آخر لم يصل وعيها إليه. لم تخبر عائلتها بالأمر، ولم تجد أي داعٍ للتفكير فيه مرة أخرى. قضت ساعات يومها كأنّ ما حدث لم يكن قد وقع بالفعل.

عادت إلى المنزل ولم تقضِ إلا وقتاً قصيراً مع والدتها قبل أن تخرج في المساء مرة أخرى، كانت قد اتفقت مع صديقتين لها على اللقاء في مطعم يقع في قلب المدينة، أحبَّت ليديا الزحام المختلف هذا، والذي لا يشبه ما تمرُّ خلاله في الجامعة. بل كان هذا الزحام يحمل بهجة الأشخاص واندفاعهم، ويجعل أحياناً القصص واضحة على وجوههم.

جلست هي على طرف الطاولة المقوَّسة وعلى يسارها صديقتيها. كان الموسيقى تزداد صخباً، لكنها لم تكن تزعج الجالسين، أو تعيقهم عن مهمة اختيار الطعام حتى. لكن الموسيقى استطاعت سرقة تركيز ليديا، فأصبحت كلمات صديقتيها تتلاشى قبل أن تصل إليها. كانت ترى الفتاتين وكأنهما مجرد صورة لأشخاص يتحدثون، لكن الصوت كان ينتشر في اتجاه آخر دون أن تسمعه هي.

رأت ليديا بين أضواء المكان الظل الأسود ينبعث من بين الأجساد التي تعبر في الممر الضيق. لم يكن هناك من يصطدم به، ولا أحد يراه، كان يراقبها وهو لا يملك إلا عيناً واحدة في جانب رأسه، وفي قلبها فتيل مشعل كسراج بعيد جداً.

"هل ترون ذلك الشخص؟" سألت لكنّ صوتها لم يصل إلى آذان الفتاتين.

"هيه.. هل ترونه". استدارت فرأتهما تتحدثان، ولم تلتفت أيٌّ منهما إليها. حاولت أن تتجاهل وجوده، لكنّ مظهره الغريب، وظهوره الثاني كانا يسببان الرعب، وهذا الخوف لا يمكنها تجاهله.

"سأرحل". صرخت.

فسألتها صديقتها: "ماذا؟"

"أقول سأرحل". أجابت ليديا.

"إلى أين؟ بل كيف سترحلين؟" لم تجبها ليديا بل نهضت مبتعدة عن الطاولة، ولم تفكر حتى تلك اللحظة في الوسيلة التي ستعيدها إلى المنزل، فسيارتها بقيت في مرآب المنزل. خرجت من المطعم، وهناك ما ينذر لها بالخطر، فكّرت في أنها تحتاج لأن تنجو من أمر ما.

أصبح الصخب بعيداً بعد أن تجاوزت ليديا الباب. سارت بخطوات سريعة دون أن تثير شكوك من يراها. التفتت لترى الطيف الأسود يتجاوز حشد الأشخاص الذي دخلوا المطعم. دون أن يروه. تجاوزت هي الرصيف دون أن تعاود النظر إليه، وأشارت لأول سيارة أجرة، لكنها لم تكن شاغرة، فتجاوزتها.

مايزال الظل الأسود يقترب منها. قطعت الشارع دون أن تعير أهمية للسيارات المارّة في الطريق. قفزت بين السيارات حتى وصلت إلى الجانب الآخر من الطريق. وصلت ليديا إلى الرصيف المقابل، فألقت نظرة خاطفة على مكانها السابق، فوجدت الظل يقف دون أن يقطع الطريق خلفها. هرولت مبتعدة عن مكانها دون أن تنظر، كان هناك إحساس غريب بأنّ ذلك الطيف الأسود موجود خلفها. استدارت نصف استدارة، فلمحته يسير خلفها. لم تفهم كيف قطع الطريق بهذه السرعة. أرادت الصراخ، ولكن ما جدوى إهدار هذه الطاقة دون فائدة، كان عليها أن تستجمع كل قواها في قدميها.

رُكِنَت سيارة صغيرة على جانب الطريق، وفُتِح الباب لكنّ ليديا لم ترَ الشخص الذي فعل ذلك، لكنها سمعت صوتاً يناديها: "ليديا، إلى هنا". كان اسمها يعني لها طوق النجاة، وهذا الذي يناديها يدرك وقوعها في مأزق. رأت ليديا فيوليت تجلس بجوار السائق، ودون أن يعتريها الفضول لمعرفة سبب وجودها مرة أخرى بالتزامن مع ذلك الشبح، فتحت الباب الخلفي، ورمت جسدها.

"كيف.. كيف وصلتِ إلى هنا. لا تخبريني بأن هذه مصادفة". سألت ليديا موجهة السؤال لفيوليت، فهي لا تعرف المرأة الأخرى التي تقود السيارة. تحرّكت السيارة مبتعدة عن الظل الذي مايزال يقف دون هدف كالتمثال في الطريق.

"ليست مصادفة، بل هناك ما نبهني لمكانكِ. لكن أخبريني مِمَّ كُنتِ تهربين؟"

قالت المرأة التي تقود السيارة: "ذلك الشيء.. الذي كان يتبعكِ.."

"هل ترينه أنتِ أيضاً؟.. هل هو حقيقي؟ أظننتِ أنني قد جُنِنتُ؟". كانت ليديا تتنفس بصعوبة وهي تتحدث، فخرجت الكلمات غير واضحة من فمها.

"أي شيء؟" سألت فيوليت.

***

"اتصلت بي فيوليت، وأخبرتني بأنها تشعر بهذا الأمر من جديد. الأمر.. أقصد قدرتها الغريبة. لم يكن هناك من يؤمن بوجود هذه الأمور الغريبة سواي أنا وهي، وكان يمكنني أن أشعر بما تشعر هي به؛ لأن قدرتي الخاصة هي التواصل مع عقول الناس، أو أرواحهم.. لستُ أعلم. أخبرتني عنكِ وعمّا حدث اليوم في الحرم الجامعي، وعادت قدرتها إلى العمل، ونبهتها إلى مكان وجودكِ". قالت جوليا وهي الأكبر بين الثلاثي الجالس حول الطاولة.

"قدرة.. مكان.. لستُ أفهم أي شيء". ردّت ليديا.

تدخلت فيوليت، وأشارت بيديها؛ حتى تجذب انتباه ليديا، وتمنع جوليا من الحديث: "أنا أعتقد بأن لديّ قدرة تميزني، وهذا أمر يشبه الجنون نوعاً ما، ما زال هذا يدهشني، لكنَّ تلك القدرة حقيقية. أستطيع معرفة مكان الأشخاص في أي مكان. لكن أنتِ رغم أنني لا أعرفكِ إلّا أنّ هناك تنبيهاً ما في رأسي أرسلني إلى مكان وقوعكِ في الحرم الجامعي، ثم مرة أخرى حدث هذا، وكانت الإشارة إلى ذلك الطريق حيث كنتِ تحاولين الهرب".

عندما انتهت فيوليت قالت جوليا: "وهناك بعض الإشارات التي أستطيع أنا من خلال قدرتي على إيصالها أو استقبالها من الأشخاص، وهذا الأمر ينجح الآن مع فيوليت، وهي من أرتني ما حدث، واصطحبتني إلى مكان وجودكِ. لا أعتقد بأنّ فيوليت ترى ذلك الظل الأسود، لكنني رأيتُه في ذكرياتها الخاصة، بينما هي لا تراه رغم كونه في ذكرياتها هي. وقبل قليل رأيتُه يقف في الطريق، وهذا غريب.. لكنني أرى شيئاً مماثلاً له يقف عند منزلي أحياناً، أو حتى يطلُّ من النافذة".

"مهلاً". اختنقت الكلمات في فم ليديا، لكنها دفعتها قائلة: "هذا جنون.. جنون حقيقي. لا يملك البشر قدرات كتلك!".

"لكننا نملك الآن". قالت فيوليت. "وجوليا تقول بأنها ترى ما ترينه أنتِ".

"هذا غير معقول!".

سألتها جوليا: "ماهو غير المعقول بالضبط؟"

"كل ما تقولانه. طريقة دخولكما إلى حياتي الآن".

"نحن أيضاً لا نصدق هذا، لكنني أحاول التصديق؛ لأنني أشعر بأنّ خللاً ما يحدث في هذه الأرض. فيوليت أيضاً تؤمن بما يحدث، وها نحن نرى الحقيقة تظهر، وأنتِ إحدى الرسائل التي تثبت ما يحدث". أرادت جوليا أن تخبرها عن نادي الأرق، وظنّت بأن غرابة ما يحدث يجب أن تدفعها للانضمام إلى أرشيف النادي، لكن الفتاة لا تعاني من الأرق، ولا ذنب لها لتخوض هذا الجنون، بل يكفيها ما هي به الآن.

"لا أستطيع تصديق هذا". قالت ليديا بنبرة استسلام تشبه البكاء.

علّقت فيوليت: "ولا نحن حتى، لا نريد تصديق الأمر. لكن هناك ما يحدث، ولا نملك له تفسيراً حتى الآن". نظرت فيوليت بفخر تجاه جوليا، وكانت تلك النظرة تعني بأنها ما تزال في جانبها الغريب، وأنهما تطاردان ما يشبه الوهم.

" لنفترض بأنّ هذا الأمر حقيقي، كيف عليّ أن أصدق ذلك؟".

أجابت جوليا: "ما رأيتِه، وما أراه أنا كذلك، ألا يكفي؟ قدومنا إليكِ دون أن يكون هناك ما يربطنا ببعض، أليس هذا دليلاً كافياً؟". ظهر التردد في عيني ليديا، فقالت لها جوليا: "أعطني يدكِ؛ كي نحاول إثبات ذلك".

سلّمتها ليديا يدها من دون تردُّد هذه المرة. فطلبت منها جوليا أن تسلّم نفسها لهذا العالم، وتغلق عينيها. وكذلك فعلت جوليا، فعادت ذكرى الحرم الجامعي التي حدثت في صباح هذا اليوم أمام كلٍّ من جوليا وليديا، وكأنها شريط تتم إعادة عرض محتواه. رأت ليديا ذلك الظل الأسود يقترب منها، وهو يخترق الضباب الذي يظلّل عينيها، كما رأته جوليا في عيني ليديا.

أفلتت جوليا يد الفتاة وهي تسألها: "هل هذا يكفي؟"

الضوء الأخير

19

تحدَّث مارك وهو جالس بين الأعضاء:

"اختفت المنارة لثلاثة أيام تقريباً.

أجل ما أقوله صحيح، لم يختفِ منظر الخليج من خلال البلاد كلها، فعلى مدى المسافة المحيطه به كلها، ومن كل البلدات، امتداداً من بداية القوس المحيط بالماء حتى نهايته، كان كل شيء كما هو. العاصفة اشتدَّت في كل أنحاء الدولة، هذا صحيح ولا أستطيع أن أخفي مدى سوء حالة الطقس في ذلك اليوم، ولكن في البلدة االشمالية، والتي لن أضطر لذكر اسمها لسبب ما غير هامّ، كان مقياس السوء أكبر.

المنارة اختفت على مدى ثلاثة أيام، ولم يهتم أيُّ أحد لذلك، بل إن الجميع كان يعتقد بأنَّ الضباب قد حجبها، وظلّلها عن أعين كل الناظرين، ولكن أي ناظرين كانوا هناك؟ طقس كهذا لا يُرغَب في السير تحت سمائه مكشوفاً إلّا من أراد الخلاص، ولا أحد يبحث عن خلاصه من هذا العالم، وهو أقرب للمرء من أنفاسه. اطلُب الموت وستجده أسرع المجيبين.

تنبؤوا بتلك العاصفة، رغم أن كلمة عاصفة تبدو أكبر من أن نطلقها على شكل الطقس في ذلك اليوم، فغضب السماء وبروقها لم يدوما إلّا ليلة واحدة، وفي باقي الليالي كان الضباب هو ما يحتضن الأرض والخليج بشكل أكبر.

تقع المنارة على ضلع مرتفع نسبياً عن الأرض، وهذا ما يجعلها واضحة من خلال التل المنخفض الذي تقع عليه بلدتنا، أما طريق المخرج من البلدة فكان يقع في انخفاض بين الضلع والتل، مما يجعله أشبه بالوادي، الذي يختفي في الظلال ليلاً، ويبدو داكناً في النهار. يمكنني أن أرى المنارة ليلاً ونهاراً حتى، وبكل وضوح.

في البداية أصبحت مجرد ظل داكن خلف طبقة رمادية، شكلها شبه مخروطي قائم فوق قمة سوداء قابعة تحت غيمة ضبابية داكنة. تومض في النهار، ولكن الضوء يختفي ما أن يمتزج بضوء الشمس، أما في الليل يشعُّ نور ساطع يناجي السماء، ويحلّق محاولاً اختراق نورها. قبل بداية العاصفة،

وصلت أولى آخر السفن التجارية معلنة وصولها بصافرة عميقة غاضبة، انبثقت من قلب الخليج، وابتلعت أزقة المدينة صداها. كُنا معتادين على مثل هذه النداءات، ونميّز حجم السفن من خلال قوة الصافرات، ولكن هذا يخذلنا أحياناً؛ فبعض الأصوات خادعة.

في الليلة الأولى أيقظنا صوت نحيب الرياح المتسرب تحت خشب النافذة، استيقظتُ في منتصف الليل، بعد أن غطّيتُ فيما يشبه الغفوة، ولكنه أعمق قليلاً.

سألتني كارلا: "هل أيقظكَ صوت الرياح؟ هل تعتقد بأن العاصفة ستشتد؟"

استغرقتُ لحظات؛ كي أستوعب تفاصيل الواقع الكبيرة: منزلنا، صوت الرياح، وسؤال زوجتي. حرّكتُ جسدي، لكنني لم أبتعد عن مكاني فوق فراشي.

أجبتُها: "لستُ متأكّداً، هل مايزال الوقت مبكراً على هبوب العواصف؟".

تثاءبت وهي تحاول الاستلقاء مجدّداً، ثم قالت: "لا نستطيع توقّع الطقس هنا أبداً".

هي محقة في هذه اللحظة، ولأول مرة أدرك بأنني هنا لا يمكنني توقع أي شيء يتعلق بالطبيعة التي كوّنها الخالق في هذه الأرض. لفظني فراشي، ولم أتمكّن من العودة كما كنتُ. شعرتُ ببعض النشاط الذي دفعني إلى النهوض في غرفة نومنا، وهي الغرفة الأكبر بين ثلاث حجرات في منزلنا الخشبي المكوّن من طابق واحد وعلية صغيرة.

قد يدهشكَ قولي إذا قلتُ لكَ بأنّ المنارة كانت تنادي في ذلك اليوم، ليس ضوءُها المتّجه إلى السماء هو ما ينادي، بل إن لها صوتاً أنثوياً ينادي. ولا أعلم إن كان الرعب مرتبطاً بالأنوثة، أم أنّ المنارة هي التي كانت توحي لي بأنها أنثى، لذلك كان صوت النداء يشبه صوت المرأة. لم تَقُل المنارة شيئاً. بل همست بفكرة في رأسي، ولو طلبتِ مني تحديد صوتها، فسأقول لكِ بأن هذا مستحيل. لكنني قررتُ مطابقة الصوت بصوت ماري-لويس داميان، حتى لا تبقى منطقة الغموض في الصوت عقدة غامضة تقضُّ مضجعي.

اشتعل الضوء مُشكِّلاً شرخاً عريضاً في ظلمة السماء المائلة للون القرمزي، بمزيج من الرمادي الذي شكله الضباب. بدأ الضوء يخفتُ شيئاً فشيئاً، والظل المخروطي الطويل للمنارة، كان يتبخَّر ببطء، ويمتزج ببخار الجو ويتحول إلى ضباب.

"إنها المنارة!"

سألتني كارلا بكسل: "المنارة؟ ما بها؟"

نهضت، ودفعت اللّحاف عنها، ثم استأنفت الحديث: "ما الذي يجعلكَ تقف مقابلاً للنافذة هكذا؟ عُد إلى فراشكَ؟"

"المنارة تتلاشى".

دفعت اللحاف أكثر، وقالت بينما هي تنهض من سريرنا القديم: "أتحاول التذاكي علي؟ لا تختفي المنارات".

تقدَّمت، واقتربت مني حتى أصبحنا نقف متوازيين متجاورين أمام النافذة التي لا يكفي عرضها جسدينا معاً. راقبنا معاً، وكان المنارة ماتزال هناك، أو ما تبقّى منها مايزال في مكانه، لكنَّ جزءاً كبيراً منها تبخَّر خلف غيمة الضباب. شهقت كارلا بصوت أنثوي حاد، بدا كأنه صادر من فتاة مراهقة.

"المنارة؟ ما الذي يحدث. إنه الضباب، أليس كذلك؟"

ليست هذه أول موجة ضباب تضرب البلدة، ولم تختفِ المنارة بهذه الطريقة. كانت تتلاشى بطريقة مثيرة للغرابة المخيفة؛ لأن ما يخرج عن المألوف بالنسبة لنا، يكسر المعنى الاعتيادي للأشياء، وهذا يشكل تغييراً، والتغيير يعطي انطباعاً بالخوف في وهلته الأولى.

إلى أين يذهب كل ما يغيب عنّا؟ خطر ببالي هذا السؤال حين تضاءَل ظل المنارة، حتى كادت تختفي تماماً. وبعد أن اختفت تماماً، أصبح السؤال: أين هي المنارة. قُبيل ساعات الصباح أصبحت الرؤية معدومة في الخارج، ومع انبلاج الفجر، أصبحتُ موقناً بأنَّ هناك أكثر من المنارة مما لم يعد موجوداً في مكانه، كمنزل جارنا غاف الذي يقع بجوار المنحدر إلى الوادي.

لم أتمكّن من النوم وقت حلول الظلام. أما كارلا فقد كانت تغطُّ في غفوات قصيرة، وتستيقظ؛ لتتأكَّد ما إذا كنتُ ماأزال قلقاً حيال الأمر، وتواسيني

بعبارات لا تأثير لها رغم كونها واقعية كـ:

"لا داعي للقلق، إنّها مجرد عاصفة". أو تقول لي: "إنّ المسألة، مسألة وقت وستكتشف بأنّ كل شيء طبيعي، وما من داعٍ لكل هذا القلق".

وعندما شعرتُ بالملل أمرتني: "اخلُد إلى النوم الآن".

"اتركيني وشأني". قلتُ بصيغة وديعة، ففعلت ما أردتُه منها.

بدت الحياة طبيعية في الخارج، لم ينتشر الشعور بالدهشة، صراخ، أو سؤال عمّا يجري. بل إنّ كارلا التي شهدت هذا الحدث الغريب معي، وضعت له مبرراً أقرب إلى المنطق الذي تعرفه، لتُبعد الذعر عن قلبها، ولم تبدِ أيّ اندهاش لما رأته.. كنتُ متأكّداً بأنّ ما حدث أثار استغرابها، وكان ذلك واضحاً من خلال نبرة صوتها الحادة، ولكنها قمعت مشاعر الخوف؛ لأنّها تصل خوفها بمشاعري، فيصبحان امتداداً لبعضهما. لم يكن هذا التصرُّف يبدر منها في مواقف الخوف المشابهة لهذا الموقف، بل في كل مرة كانت تشعر بأنَّ خوفها سيزيد من اشتعال خوفي، كحادث ابننا قبل سنوات، عندما كانت قدماي لا تحملاني أمام المستشفى، بينما هي أصبحت امرأة لا تُقهر فجأة، بينما زوجتي التي أعرفها هشة ضعيفة، ومليئة بعاطفة تلين قوتها في كل مرة.

أنا شخص بلغ من العمر ما يجعل تصديق مثل هذه الأشياء أمراً مثيراً للسخرية، ولكن زوجتي لم تصدِّق أو تكذِّب ما رأته معي، وإنما تجاهلته؛ لأنه أمر لا تأثير له. ماذا لو اختفت المنارة حقاً؟ لن يغيّر هذا شيئاً عليّ أو عليها هي.

20

انقطع اتصال البلدة عن العالم الخارجي، ولم يعد هناك أية وسيلة. كان الأمور تبدو لنا، كما لو أننا عُزلنا عن الكوكب بأكمله، لا نستطيع التواصل مع أحد خارج حدود تلك البلدة، ولا يمكننا استقبال الرسائل. كل الأسر الصغير فقدت القدرة على التواصل مع من يعرفونه خارج البلاد، كما عجزتُ أنا عن التواصل مع أبنائي الثلاثة. حاولنا إيجاد أية وسيلة، والحقيقة هي أننا لولا تلك العاصفة وشعورنا بالخطر، لما كنا لنلح على التواصل مع العالم الخارجي بهذه الطريقة. لكن أحياناً يدفع الخوف على مدّ أيدينا إلى من هو خارج الحفرة؛ حتى نشعر بأننا نجاريهم بالشعور بالأمان.

في المساء، ورغم قسوة الهواء، كنا نتنقل بين المنازل غير آبهين باحتمال اشتداد العاصفة أكثر. أردنا أن نجد من يملك أية معلومات مغايرة عمّا لدينا. تناسيتُ المنارة، ولم أفكر في مظهرها الغريب، ولأنها كانت بعيدة لم يكن بوسعي السير والتأكُّد من كونها موجودة أم لا. لم يكن بمقدوري سؤال أحدهم؛ لأن ذلك سيجعلني أبدو مجنوناً.

ذهبنا أنا وكارلا إلى منزل غاف وزوجته في المساء، كنتُ أشعر بالأمان لسيري معها رغم حال الطقس، وهي تستمد الأمان مني، وكانت هذه الدائرة الكاذبة تستمر في حمايتنا أنا وهي معاً.

فتحت زوجته الباب وبسرعة أشارت إلينا بالدخول، ولم تتوقف حركة يدها وهي تدعونا، كأنها تريد حمايتنا من وحش يحاول اللحاق بنا. "الطقس يثير الريبة اليوم، خروجكما من المنزل يعتبر شجاعة".

سألتها كارلا بنبرة مزاح: "هل تطردينا من المنزل بطريقة لائقة؟".

قالت زوجة غاف بصوتها والذي كان بطبيعة حاله متهدِّجاً: "لا تكوني بلهاء يا كارلا".

"لن أكون أنتِ".

صاح غاف من بعيد: "ما أدراكما بأحاديثنا يا نساء؟ إنكما تتحدثان وكأنكما نحن".

صاحت زوجته: "اصمُت أنتَ، إنّنا امرأتان مستقلتان، نتحدّث كما نريد".

ضحكنا نحن الأربعة في الوقت ذاته.

قالت كارلا: "الاتصال بالخارج مقطوع في منزلنا".

ردّ غاف دون أن يظهر: "كذلك في منزلنا، وعند الجميع تقريباً. يبدو أنّ العاصفة هذه المرة لن ترحم أحداً". فكّرتُ بالعودة إلى المنزل قبل أن تشتد العاصفة، ويصبح السير إلى المنزل مستحيلاً. لكنني رأيتُ كارلا تختفي خلف زوجة غاف، فرحتُ أبحث عن غاف بدوري أنا.

رأيتُه يجلس وصندوق صيانة صغير مفتوح أمامه، كان يعبث بمذياعه القديم، والذي كنت دائماً ما ألقي عليه النكات؛ لأنه لا يعمل معظم الوقت. لم يكن غاف يفعل ذلك إلا بداعي ملئ فراغ الوقت الذي لديه، ولأنه في طقس كهذا كان يصعب عليه الخروج، فهذا ما كان يقضي وقته به.

"أما يزال الرجاء في قطعة الخردة هذه موجوداً؟ أم أنّكَ مؤمن بأنّ كل شيء قابل للتصحيح".

قال وقد أخفض رأسه باتجاه المذياع المطروح أرضاً: "لا، أعتقد بأنّ هناك محاولة أخرى لكل شيء، إلّا معكَ أنتَ لا تجدي المحاولات أيها الكسول الهرم. يمكنني أن أجد شيئاً مفيداً في قطعة الخردة هذه".

سألته: "ما الذي ستجده هنا، هل ستحوّل المذياع إلى مكوك فضاء؟"

أغلقَ ظهر المذياع، وعلّق: "ربما، من يدري؟" ثم نهض حاملاً المذياع؛ ليعيده إلى مكانه. كان ذلك الجهاز عتيقاً، ورغم تطوّر الأجهزة الحديثة، وسهولة استخدامها، إلّا أنّ غاف كان أحد الأشخاص الذي مايزالون متعلقين بكل ما يرتبط بطفولتهم وبمرحلة شبابهم.

عادت زوجته ومعها كارلا. كانت زوجة غاف تحمل أكواب الشاي بيديها، بينما كارلا تسايرها وتهمّ بالحديث. توقفتا ما أن وصلتا إلينا. راحلت كارلا تراقب ما يقوم به غاف، أما زوجته فقد رمقتني بنظرة استسلام، وهي تراقب ما يقوم زوجها به.

قالت زوجة غاف: "ما الطائل من هذا؟ كيف ستتأكّد من مهمتكَ، ولا يوجد هنا أيّ اتصال؟"

ردّ غاف: "الهامّ في الأمر هو أن يعمل هذا الجهاز". ضغط زر الكهرباء،

فأظهر المذياع صوت ضربة سريعة، رافقها صوت شبيه بالتمزق، وبعد ذلك سكون تام. غيّر غاف التردد مرات عديدة، كان التشويش يأتي ثم يختفي ليعود السكون ثقيلاً.

"ها هو يعمل الآن؟"

قالت زوجته بسخرية وهي تطرح صينية أكواب الشاي: "لنرى كيف ستستفيد".

"هل رأيتهما؟، دائماً ما تقتل عزيمتي". ضحكت هي بدورها، وتشبثت بذراع كارلا التي ظهر المرح على وجهها، وفي تلك اللحظة بدا وجهها أمامي لامعاً براقاً، كأنها عادت إلى مرحلة الشباب من جديد. كان ذلك الضوء المحيط بوجهها، والمشهد البطيء يحملان طابعاً من الحزن والخوف، كأنَّ تلك اللحظة كانت تنذر بحدوث شيء ما.

ترك غاف المذياع يعمل، لعل السكون هو ما كان يزعجه، فلم نجبره على كتم طاقة المذياع. لم نكن ندرك بأنه مايزال يعمل بل ابتعدنا عنه متجهين نحو مجموعة أكواب الشاي الموضوعة على الطاولة، ثم جلسنا متقابلين. سألت زوجة غاف: "كم تعتقدون أنّ العاصفة ستطول ؟"

أجابتها كارلا: "لا أعتقد بأن هذا الحال سيطول، ثم ليس هناك حتى الآن ما ينذر بالخطر. السكان هنا يحبون المبالغة أحياناً". رغم كون الجزء الأخير حقيقياً، إلّا أنّ خوف جيراننا كان حقيقياً، وليس مصطنعاً، وانعزالنا عن العالم اليوم كان يضاعف حجم الرهبة.

"هل هناك.. مَن يسمع..؟" رأيتُ زوجة غاف تقفز، وكوب شاي الذي كانت تحمله كارلا بيدها كان يرتجف؛ بسبب الصوت الذي قاطعنا جميعاً. نبضات قلبي أصبحت أكثر قوة فجأة. التفتنا جميعا نحو المذياع الذي كان يصدر صوتَ تمزُّق، وصوتاً مكتوماً لإنسان بعيد، يحاول التحدث بصعوبة، لكن الكلمات لم تكن مفهومة.

"نكرّر النداء.. لا أحد.. المنا.. كرر ..هـ.. يسمعني؟ العاصفة هنا.."

سألتهم: "هل قال المنارة؟ هل هذا النداء من عمال المنارة؟" رمقني غاف بنظرة حائرة، أما زوجته فقد رفعت كتفيها. لم أكن متأكّداً من صيغة ذلك

النداء، لكنه بعث في قلبي عجز الصوت الذي كان يناجي. لكن ماذا لو كان هذا استطلاعاً من قبل قوات الدفاع، أم تراهم يحاولون الاطمئنان على أحوال السكان؟ لكنّ العاصفة حتى الآن لم تشتد إلى هذا الحد الخطر.

ردّ غاف: "لا أعتقد، ولكن ألم يكن الاتصال مقطوعاً؟ قد تكون لدينا فرصة للتواصل مع الأبناء، يبدو أن الاتصال يعود أحياناً". سار نحو هاتفه الخاص ثم رفعه باتجاه السقف، لكنه أخفضه من جديد، وقال بيأس: "ليس هناك أية إشارة".

ترك غاف هاتفه على الطاولة، وسار نحو هاتف المنزل، ضغط على زر الإغلاق مرات عديدة، ثم هزَّ رأسه نافياً وجود أي اتصال. استدار وهمس لنا ثلاثتنا: "هذا غريب!".

قالت كارلا والتي كانت دائماً تقرِّب التفسيرات المنطقية لنا: "قد تكون هذه الإشارات داخلية، طالما هم في المنارة، قد تكون وسيلة تواصلهم محدودة داخل نطاق البلدة".

قالت زوجة غاف: "هذا معقول، فهذا الاتصال لم يأتِ من الخارج، بل قريب". لم أتقبّل ذلك التفسير، لكن غاف سلّم لهما حبل التفهم، ولم يعترض على ما قيل.

21

أثناء طريق العودة، كان الهواء قد اشتدَّ أكثر، غدا مصحوباً ببعض الضباب الذي غطَّى الرؤية قليلاً. في الطريق كانت كارلا أقل شجاعة، وتسير قريبة مني جداً، وتتشبث بيدي أحياناً. لم تعد مصابيح الطريق القليلة الموزَّعة على طول الشارع تعطي النور الكافي لنسير، ونحن متوقعين ما قد نراه أو يعترض طريقنا.

قلتُ كي أكسر صمت الطريق: "المنارة، ليست موجودة".

"لا تبدأ بهذا الجنون من جديد". هذا الاعتقاد هو أكثر ما أخافني، وجعلني أتردّد عن البوح بأي شيء، وعندما تأخرتُ لم أجد سوى الردّ ذاته. قد يستطيع الوقت تغيير المفاهيم، لكنّ الشك بصحة الأمور لا يغيره إلّا البرهان.

"ليست مرئية، لا يمكن رؤيتها". حاولتُ التبرير.

ردَّت كارلا بحزم: "نحن بالكاد نرى الطريق، كيف لكَ أن ترى المنارة من هذه النقطة". ورغم أنها كانت محقّة إلا أن المنارة كانت دائماً واضحة، أو على الأقل إنّ إشارات الضوء الصادرة منها تثبت وجودها. فكرتُ في أنّ هذا الاعتقاد المجنون راسخ في ذهني أنا فقط، وعليّ إزالته.

دخلنا إلى المنزل بعد الرحلة القصيرة، والتي جعلها الخوف أطول، أشعلت كارلا أضواء غرفة المعيشة وتبعتُها أنا، ثم جلستُ بكسل على الأريكة الكبيرة. قالت لي: "لنجربْ الاتصال بـ.."

قلتُ لها: "لم يجربوا هم الاتصال حتى قبل العاصفة، لماذا تريدين الآن القيام بذلك؟"

ردّت بسرعة: "لأنهم أبنائي، سأجرّب أنا الاتصال بهم، لا أحتاج للمساعدة". ابتعدت عني مُتَّجهة إلى الهاتف، ثم قالت فجأة: "شكراً لكَ". تجاهلتُ استياءها، وذهبتُ إلى المذياع الذي نملكه، والذي كان أحدث من مذياع غاف، وقمتُ بتفعيله، ورحتُ أغيّر تردُّد المحطات.

الفضول.. وحده هو ما دفعني إلى ذلك. شعرتُ بأن النداء الذي سمعتُه في منزل غاف، كان صادراً عن شخص يستغيث، ولأنه مرتبط بالمنارة فهذا كان يزيد شكوكي وفضولي حتى. لا يوجد أي اتصال، لم أسمع سوى صوت

تشويش بعيد يشبه الصرخات الممتزجة ببعض.

هناك صوت أشخاص يتحدثون، لكنني لا أستطيع الاقتراب منه، أدرتُ المفتاح كثيراً فسمعتُ أحرفاً متقطّعة تحاول تحدي التشويش المزعج. أخفضتُ الصوت حتى كتمتُه نهائياً، لكنّ صوت التشويش كان يعود بقوة أكبر. رأيتُ ظلاً يهبط على المذياع المقابل لي، وعلى الحائط. ازداد التشويش بطريقة مخيفة، ومزعجة جداً ظننتُ بأنّ الجيران البعيدين سيسمعونه. عبثتُ بمفاتيح المذياع لكن حجم الصوت لم يتغيّر.

استدرت إلى الخلف فوجدتُ كارلا تقف وعيناها على المذياع، وفمها مفتوح على قدر اتساعه، وبدلاً من الصراخ، كان صوت التشويش والتمزُّق يخرج من حنجرتها هي. ارتعبتُ، وحاولت النهوض عن الأرض ولكنني عجزت. لم أكن متأكدة من مصدر الصوت إن كان هي أو المذياع حتى. سحبتُ سلك المذياع فهبط سكون مفاجئ على المنزل.

سقطت كارلا أمامي على الأرض، وارتخت معالم وجهها. زحفتُ إليها وأنا أنادي: "كارلا.. كارلا. هيا انهضي.. ماذا جرى لكِ؟" رحتُ أهزُّ جسدها، لكنها لم تكن فاقدة الوعي، بل كانت عيناها مفتوحتين تراقبان السقف، وترمشان بطريقة غريبة بعد أن فقدت هي السيطرة على أعصابها.

قالت: "المنارة.. الضوء.. لا يمكن رؤية الضوء".

"ماذا؟ كارلا هيا انهضي". عادت إلى سكونها، ونهضت من بين ذراعي فجأة، ثم تلفتت محاولة فهم ما حدث. كانت تهذي، وتقول أشياء لم تتذكرها بعد أن نهضت عن الأرض. لا أملك تفسيراً لما حدث، والقلق منعني من البحث عن تفسير لذلك.

نمتُ في تلك الليلة، وما رأيته في منامي هو المنارة وقد عادت من جديد، وخلفها صفحة السماء مظلمة، والمنارة تبعث ضوءاً ذهبياً، حاول اختراق صفحة السماء. استيقظتُ وأنا ألوم نفسي على كثرة التفكير في ذلك. لم أشعر بالراحة أثناء نومي، رغم أنّ ذلك المنام لم يكن مزعجاً. لم أرَ كابوساً، لكن مشهد المنارة، وذلك الضوء المنبعث منها حملا في داخلي شعوراً بعدم الراحة.

حاولت الرياح اختراق نوافذ المنزل، وكانت تصدر صوت صفير مزعج يوحي

بالوحشة بين حين وآخر. رأيتُ كارلا كانت نائمة بجواري، ولم يعكِّر صفو نومها أي شيء. دفعني شعور ما لإيقاظها، لكنني عزفتُ عن ذلك، ونهضتُ لأحضر ما أشربه.

بعد أقل من ساعة استيقظت كارلا، وللمرة الأولى، لا أراها بالهمة التي كانت هي عليها دائماً، فحتى مع تقدُّمها في السن، كانت ما تزال تملك من العزم ما يكفيها لأن تبدأ يومها، وكأنه الأهم أو الأخير بالنسبة لها، لكنها في ذلك النهار استيقظت فاقدة لنشاطها.

إنَّ تعدُّد الاحتمالات متهاهة أخرى، من الصعب على الإنسان خوضها، لهذه يكون القادم خفيّاً؛ لأننا كلما توقَّعنا الأشياء الجديدة سيجرنا السيل إلى ربط الأحداث ببعضها أكثر، وفي التالي سنضطر إلى الخروج من تيار الوقت والواقع، وبدلاً من عيش الواقع والذي من المفترض به أن يكون ركيزة الوقت اللاحق، نبدأ بوضع احتمالات وهمية، وفرضيات تجعل من المستقبل سراباً نسير إليه، ومن الواقع أمراً هامشياً لا ينتمي إلينا.

22

"ما الذي تفعلينه يا كارلا؟"

"أسمعهم.. أسمعهم". كانت توليني ظهرها، وتجلس وقد أرخت ركبتيها على الأرضية الخشبية، أمّا رأسها فقد كان منحنياً بالقرب من المذياع الرمادي الحديث. صمتت ولم تعطِني أية إشارة أخرى، والمنطق الذي كانت تربطه بكل شيء غريب، لم تعد مهتمة به.

"الأرض باردة، وستؤلمين ركبتيكِ هكذا. ثم من هم الذين تسمعينهم، لا يوجد أي اتصال، هل نسيتِ؟" ما زلتُ تحت تأثير المشهد الغريب في الليلة الماضية، وأحياناً يزورني صوت النداء الذي سمعتُه في منزل غاف، لكنني أحاول إبعاد أفكاري عن تلك الأصوات الموحشة.

"إنهم يتحدَّثون، ألَا تسمع؟". أدارت مفتاح الصوت ببطء، فراح صوت التشويش يرتفع رويداً رويداً. أدارت نصف وجهها إليّ، ورمقتني بزاوية عينها الحادّة، وهناك على شفتيها نصف ابتسامة خبيثة. كان ذلك الوجه لا يشبه وجه كارلا أبداً. لم تكن هي.

"لا يوجد أي صوت. ثم إنّ هذا مزعج. أطفئيه الآن". لكنها فعلت العكس، بل رفعت مستوى الصوت حتى أصبح مزعجاً بطريقة لاتحتملها أذني. صرختُ: "توقفي حالاً". لكنها لم تفعل. سرتُ إليها وأطفأتُ المذياع بنفسي، ثم سألتُها: "ما الأمر؟ ماذا بكِ".

"إنهم ينادون.. وحيدون لا أحد يراهم، لا أحد يسمعهم. هذه العين البائسة لا ترى شيئاً". قالت وهي توجِّه إصبعها بالقرب من عيني: "لا يمكنكَ رؤيتهم، لذلك على الأقل حاولْ سماعهم. ألا يخيفكَ هذا الصراخ؟ إنهم يطلبون النجدة؟"

"من هم؟" كارلا، من هم؟"

"الأشرار. إنهم يتوبون، لكننا لا ننسى، لا نعتق. من يقع في حفرة الخطيئة لا يرى النور، بل تصبح شمسه سوداء إلى الأبد". أصبحت زوجتي مجنونة، كانت تهذي. ما حدث بالأمس، بدّلها بامرأة أخرى لا أعرفها. أخافني صوتها، نظرتها الحادثة شلَّتني تماماً.

"توقفي عن هذا الهراء. لا يوجد أشرار هنا".

صاحت بصوت خشن: "بل كانوا هنا. الآن هم بيننا يا مارك.. يروننا؛ لأن أعينهم ترى كل شيء". ضاقت عيناها، وراحت تحركها في كل الزوايا بخوف وهي تهمس بطريقة طفولية: "يرون كل شيء.. كل شيء". سارت نحوي ثم قالت: "أمّا أنتَ فلا ترى، وأنا أسمعهم فقط".

جلست على الأرض وراحت تنتحب فجأة وهي تقول: "مساكين.. لم يخفف أحد من ألمهم. لا يهتم أحد بآلام الآخرين؛ لأننا في رحلة بحث عن السعادة، لكن عندما يصبح الألم في داخلنا نحن، فإننا نكرره، ونعيد سماعه دائماً".

انتشلتُها عن الأرض، وحاولتُ أن أحتضنها، لكنها كانت تقاوم ذلك، وتحاول دفعي بعيداً عنها. سارت إلى غرفتنا، وأغلقت الباب تاركة إياي وحيداً في غرفة المعيشة. جلستُ مستسلماً بجوار النافذة، لم أجد ظل المنارة بعد. كان الضباب الأبيض كثيفاً في الخارج، ومنع عني رؤية أي شيء بعيد عن منزلي بوضوح.

لم أحاول التواصل مع أحد خارج البلدة، ولم يكن هناك من يحاول التواصل معي. أو لعل أحدهم فعل لكنه عجز عن الوصول إلينا. خرجتُ من المنزل رغم قلقي بشأن كارلا التي كانت تتصرف بغرابة. زرتُ مكتب البريد؛ لأرى إن كانت لديهم أية وسيلة للتواصل مع العالم، لكنّ كل المحلات كانت مغلقة في نهار ذلك اليوم.

عندما عُدتُ إلى المنزل، كانت كارلا ماتزال حبيسة غرفتنا، وأدركتُ بأنها لم تتناول أي شيء في ذلك اليوم. دفعتُ الباب فوجدتُها تجلس على طرف السرير، تتأمل النافذة التي كانت تبعث ضوءاً باهتاً. سألتها: "ألا تشعرين بالجوع؟" لكنها تجاهلت سؤالي.

سرتُ إلى داخل الحجرة، وجلستُ بجوارها.

"كارلا، ما الذي يحدث؟ هيا أخبريني".

"لا أشعر بالجوع". قالت.

"لكنكِ لم تتناولي أي شيء حتى الآن". تجاهلت تعليقي، بل كان وجودي لا داعي له؛ لأنّها لم توجّه نظرها إليّ حتى. راقبتُ النافذة التي لم تكن تُظهِر إلا

صورة ضبابية خالية من المعالم.

"سأعِد الطعام لنا، قد يشعركَ ذلك ببعض الرغبة في تناول الطعام". قلتُ، لكنها لم تستجب لي مرة أخرى.

رغم أن خبرتي في الطهي، وأعمال المطبخ لم تكن كبيرة جداً؛ لأنَّ كارلا اعتادت القيام بالأمور التي تخصُّ المطبخ، إلا أنني حاولتُ في ذلك اليوم. طوال وجودي وحدي، كنتُ أحاول مطابقة صورة هذه المرأة بزوجتي، ما الذي غيرها هكذا فجأة؟ لم يكن تحوُّلها هو الأمر المقلق الوحيد، بل إنَّ سرعة حدوث ذلك كانت تخيفني.

***

"إنها كارلا، لا تريد الخروج من غرفتها. لم تأكل أي شيء منذ الصباح". قلتُ وأنا أدعو غاف وزوجته إلى الدخول. أخبرتني زوجته بأنها ستدخل إليها، وأومأت لي بنظرة اختصرت عبارة: إننا نساء ونفهم بعضنا البعض. عندما اختفت رافقتُ غاف إلى غرفة الطعام، وجلسنا حول المائدة الخالية.

"يا رجل هكذا هن النساء، لا يغير السن شيئاً". حاولتُ أن أبتسم، لكن ما رسمتُه على وجهي من تعبير، كان ذابلاً، وأنا أدرك ذلك دون أن أرى انعكاس وجهي حتى. "هيا هوِّن عليكَ، لا شيء يدعو للقلق".

أخبرتُه بأنني أتمنّى ذلك فعلاً، ثم شرحتُ له: "هناك تغيير غريب، هذا لم يحدث طوال حياتي معها". رحت أروي له ما حدث بالأمس عند المذياع، ثم أخبرته عن صباح اليوم، وعن العبارات التي كانت تهذي بها.

طال الوقت قبل أن تعود زوجة غاف، ويجذب الكرسي المجاور لزوجها وتجلس عليه. كان المصباح الهابط فوق الطاولة بالكاد ينير وجوهنا نحن الثلاثة، وسطح المائدة.

قالت زوجة صديقي: "لا أعلم ما بها، تبدو لي مستاءة. هل حدث أي أمر بينكما؟".

"لا". قلتُ لها، ثم أردفتُ: "آخر حديث طويل تبادلناه كان في طريق عودتنا من منزلكم، لم أضايقها بأي شيء. ربما لأنني رفضتُ أن أتَّصل بأبنائنا؟ لا، لم يكن هذا يحزنها، هذه ردة فعلي تجاه الأمر دائماً، ولم تكن تحزن".

تنهدت زوجة غاف، ثم قالت: "حاولتُ التحدث معها، لكنها بالكاد تردُّ بصوت لا معنى له. حاولْ أنتَ التحدث معها مرة أخرى. لا بدَّ وأنَّ هناك سبباً لما يحدث". سأفعل، أخبرتُها بذلك، ومن دون أن تطلب هي مني، كنتُ سأفعل ذلك حتماً.

رحل غاف وزوجته، وتركاني وحيداً غارقاً في سكون منزلي، وعتمته مع تهديدات العاصفة التي كانت تخدش نوافذ المنزل الصغير. سرتُ في الممرات القليلة بين ظلمة الجدران وبرودتها، أحاول جمع قواي للتحدُّث مع كارلا مرة أخرى.

23

سطع النور الذهبي على زجاج نافذة غرفة نومنا. ضرب الضوء، وكان الزجاج الندِيُّ يقاوم قوته، لكنه اخترق غرفتنا كما لو أن سيارة قريبة تسلّط ضوء كشافها على النافذة. أزعجني الضوء وعكر صفو نومي. استيقظتُ قبل حتى أن أبحث عن تفسير لوجود هذا البريق، بحثتُ عن كارلا التي تركت مكانها فارغاً.

غطَّت موجة ضبابية العالم، وكان الضوء قوياً وساطعاً، ويشتد كلما حاولتُ جمع تركيزي. أدركتُ بأنني في منام، وأنّ الواقع بعيد عني. رأيتُ كارلا وهي مجرد ظلّ غير واضح، تقف بجوار الزجاج، وتراقب العالم الخارجي، والضوءَ الشبيه بالشمس يهبط على وجهها بقسوة. لم تكن تلك شمساً؛ لأنَّ سماء الليل ما تزال تحتضن السماء.

"كارلا عودي إلى الفراش". كان هذا يشبه بداية القصة، بينما كنتُ أراقب أنا المنارة، وهي راقدة.

قالت لي بصوت واثق: "سأكون هناك. يجب أن أذهب إلى هناك الآن".

أرخيتُ رأسي على الوسادة، وكان النعاس يدفعني للعودة إلى النوم أكثر. "إلى أين أنتِ ذاهبة؟" سألتُها، وكان جفني يهبط على عيني ليسرقني من هذا المنام، ويعيدني إلى الواقع، لكنني هِمتُ في عالم أسود مابين الحلم، والواقع.

"سأذهب إلى المنارة". لم أجادلها؛ لأنني كنتُ أغطُّ في نومي، وحاسة السمع كانت تتلاشى. سمعتُ صوت باب المنزل وهو يفتح، وصوت الهواء يخترق المكان، ثم تلاشى كل شيء.

استيقظتُ على الواقع من جديد، وشمس النهار الباهتة تنير حجرتنا. كان الجو بارداً، والرطوبة تشوب الهواء. نهضتُ وكانت غايتي إيجاد زوجتي. لكن ما أن تجاوزتُ حجرة نومي حتى رأيتُ باب المنزل مفتوحاً. ما حدث بالأمس إذاً لم يكن حلماً، بل كان واقعاً. كانت الرياح شديدة حشرت أصابعها في مدخل منزل.

رأيتُ غرفة المعيشة، وكيف كانت الستائر تترقص أمام النوافذ المغلقة بفعل التيار الداخل من الباب. خرجتُ لأتفقد المكان حول منزلي، لكن لم يكن

لزوجتي أي أثر. عدتُ لأبحث عنها بالداخل، رغم يقيني من عدم وجودها، وبالفعل لم أجد لها أي أثر.

رحلت كارلا إلى المنارة كما أخبرتني، لكن المنارة لم تكن هناك.

عدتُ إلى المنزل، وارتديتُ ملابس أثقل من تلك التي أرتديها، وقطعتُ طريقي باتجاه المنارة. كانت المياه قد وجدت مسلكها إلى الطريق، فغطته، وحجبته عن المنارة. لم أكن أستطيع العبور إلى هناك سيراً على الأقدام؛ لأن الطريق كانت تالفة. ولم تكن كارلا لتفعل ذلك لوحدها.

خطرت في بالي أكثر الأفكار رعباً، هل جرفها السيل؟ يقع منزلنا في بقعة مرتفعة، وبالتالي لم يكن السير ليسبب الضرر للأرض المحيطة بنا، بينما الطريق المؤدي إلى الشاطئ، فقد كان غارقاً بالمياه. لم أجد أي حل، وكانت الرياح تعيقني عن الوقوف. تسلَّقت الطريق صعوداً من جديد متجاوزاً الحقول الصغيرة الفاصلة بين منزلي، وبين الطريق العام. اتَّجهت إلى منزل غاف فوراً، وطرقتُ الباب مرات عديدة دون توقف.

فتح لي الباب والجزع بادٍ على وجهه، قلت له: "لا أجد كارلا، أخبرتْني بأنها ستذهب إلى المنارة، لكنني لا أرى المنارة، والطريق العام غارق بالمياه، أخشى أن يكون قد أصابها مكروه".

"مهلاً، اهدأ. هيا تعالَ إلى الداخل، وسنرى ما الذي يمكننا فعله". دخلت دون تردد، وشرحتُ الأمر من جديد له ولزوجته. أخبرتهم كيف تركت المنزل، ولم أكن أعي بأنّ ذلك حقيقي. "لكن كان كشاف المنارة يضيء غرفتي، وكانت هي تراقبها، ثم أخبرتني بأنها ستذهب إلى هناك".

"أضواء المنارة لم تعمل منذ وقت طويل". أخبرتني زوجة غاف قاطعة أملي بربط ما رأيتُه بالحقيقة.

"لكن.."

قاطعني غاف: "لا تقلق، سنجدها، لكن عليكَ أن تهدأ أولاً".

قلتُ بغضب: "لا يمكنني، زوجتي.." حاولتُ أنْ أشرح عدة أمور في ذات الوقت، لكنني عجزتُ في نهاية المطاف، فكرَّرتُ: "لا أستطيع. عليّ إيجاد كارلا الآن".

أعدتُ تفاصيل ما رأيتُه في الليلة السابقة، لكنني لم أجد في ذاكرتي إلّا صوراً ضبابية لما أعتقد بأنه كان مناماً. حقيقة رحيل كارلا بهذه الطريقة، كانت هي ذاتها الحقيقة التي تنبهني بأنّ تغيّر الأمور المفاجئ لم يكن طبيعياً أبداً.

***

ساعدنا بعض الجيران في البحث عن كارلا في البلدة، لكن أياً منهم لم يتمكن من تجاوز الطريق الغارق بالمياه، قالوا لي بأنها لن تتمكن أيضاً من تجاوز الطريق، لذلك لا بد لها من أن تكون قريبة، لكننا لم نجدها. حلّ المساء بسرعة، وكان الوقت يعاند مجهودي في البحث عنها. كان الظلام يتعاون مع العاصفة في تصعيب المهمة، وبدأ الجيران يملون من هذا. عندما أحسُّوا بخطر البحث عنها في الليل انحسبوا ببطء، حتى لم يبقَ معي في النهاية سوى غاف الذي أخذني لإلى منزلي من جديد.

قال غاف لزوجته: "عليكِ البقاء في المنزل، في حال أتت كارلا إلى هناك".

"لماذا ستذهب إلى هناك؟" سألته زوجته.

فردَّ عليها هو: "ابقي هناك تحسباً لأي موقف، وأنا سأعود في وقت لاحق".

أخبرتُه بأنه يستطيع الرحيل، لكنه لم يرحل. حلّ الليل وكان عجزي عن الخروج يزرع بي رغبة في البكاء كالأطفال. لا أريد أن أتهالك أمام غاف، ولا يمكنني أن أفقد قوتي الآن، فأنا أحتاجها للبحث عن زوجتي. هل أصاب الجنون كارلا؟ أم أنَّ خرفاً مفاجئاً هبط عل رأسها؟

24

لم أتمكن من النوم أبداً، وعندما كانت تتعب قدماي من الترحال جيئةً وذهاباً كنتُ أجلس مستسلماً. أردتُ الاتصال بأبنائي الثلاثة وإخبارهم بما حدث، لكنَّ الاتصال كان مايزال مقطوعاً. لحسن الحظ أنني لم أتمكن من الاتصال بهم في ذلك الوقت.. هذا ما فكرتُ فيه؛ لأن كارلا ستعود، ولن أجد أية منفعة من بث القلق في قلوبهم.

لكن كارلا لم تعد إلى المنزل بعد ذلك أبداً.

طلع نور الفجر الأول ممتزجاً مع لون العاصفة الفضي المحيط بالبلدة، أردتُ الصراخ، حاولتُ الخروج مراراً، لكنني لو استمريت في عزمي هذا، كنتُ سأموت أنا أيضاً. كيف ستبقى كارلا حيّة في وجه هذه العاصفة المخيفة. انتظرتُ، وكانت عقارب الساعة تدقُّ مرة كل ثانية، والثانية بطول ساعة. رحل غاف، والمنزل أصبح خالياً إلّا مني ومن صوت الأشباح الذي تشكله الرياح المتسربة. لا بد أن الجميع قد أزال معضلتي من قلبه الآن، وهم مطمئنون في منازلهم بعيداً عن نسمات العاصفة القاسية.

هبط رأسي حتى أصبح في مستوى أخفض من كتفي، وسرقتني غفوة سريعة كان تأثيرها أقوى من قلقي، ومن انتظاري حتى. استيقظتُ من جديد على صوت التشويش المألوف. كان الصوت ينخفض ويعلو ممتزجاً بصوت احتكاكٍ حاد. إنه المذياع مرة أخرى، يعمل دون أيّ تدخل مني. حاولت النهوض عن الأريكة المنخفضة وحدي، لكنني عجزتُ. رُحتُ أستمعُ إلى صوت المذياع، وموجاته التي كانت تتغير دون تدخل أية قوى بشرية.

"هل يسمعنا أحد.. نحن عالقون هنا. لا يمكننا رؤية شيء، لقد اختفى الخليج والبلدة كذلك". نهضتُ بسرعة، فارتطم جسدي بالأرض بقوة، حاولتُ أن أزحف على ركبتي، وفي داخلي كنتُ أصيح: إنني محقٌّ. "هل من أحد هنا؟ حوِّل.. نداء.. نـ.."

انقطع الاتصال وساد الصمت لوهلة قبل أن يكسره صوت مألوف جداً: "مارك؟"

ناديتُ بنبرة مبحوحة: "كارلا.. أين..؟"

"أنا هنا الآن، معهم. نحن جميعاً هنا. لا أعلم متى سنعود، وقد لا نعود، لذلك لا تنتظر". كانت هناك أصوات أخرى تعكر وضوح صوتها. أصوت أشخاص يلهثون.. يعانون. "لا تنتظر يا مارك، لكننا في النهاية سنلتقي حتماً. لا تشرق الشمس هنا؛ لأنها سوداء، والسماء هنا في أصفى أحوالها حمراء. لكنهم لا يزعجوني أبداً".

انقطع الاتصال في نهاية الأمر. وعبر النافذة رأيتُ المنارة تومض مرتين، أو ثلاث لم أكن متأكّداً، لكن ذلك الوميض، كان هو الضوء الأخير.

في اليوم الثالث للعاصفة، كان الأمر أسهل علينا جميعاً، لم يتبقَّ إلا رياح تحاول مقاومتنا، لكنها عاجزة، لا أمطار، وحتى الطرقات كانت تمتصُّ المياه التي غرقت بها. حاول أهل البلدة أن يصلحوا ما تمّ إتلافه في اليومين الماضيين، وكانوا ناجحين في ذلك، إلا أنّ أحداً منهم لم يُعِد لي كارلا، ولم يشكُّوا في غرابة رحيلها.

عادت المنارة للظهور من جديد، وأول ما فعلتُه هو أنني ذهبتُ إلى هناك. كان الغريب أن باب المنارة كان مفتوحاً، ولا يكون هكذا في العادة. دخلتُ إلى هناك وبمشقة بالغة تسلَّقتُ سلم المنارة حتى نهايته. لم أجد أي أثر لحارس المنارة، وأملي الأخير، هو أن أجدهم في الأعلى.

استغرق مني تسلُّق السلم وقتاً أطول، وفي النهاية وصلتُ إلى قمة المنارة ولم أجد أي شيء. كان زجاج الحجرة الأسطوانية مهشماً، والهدوء يخترق المكان من كل الجوانب. أجهزة الملاحة، والرادارات كانت ماتزال ممدودة بالطاقة، وأضواؤها منثورة على سطح الطاولة. لكن لا أحد هناك.

تجاوزت الزجاج المهشم حتى وصلتُ إلى الحاجز الحديدي باتجاه الخليج. رأيتُ الأمواج تتحرك بغضب، وهي ما تزال تحت تأثير العاصفة، والسماء رمادية داكنة بسبب الغيوم الثقيلة. نظرتُ إلى الأسفل، فلم أقوَ على الوقوف هناك؛ بسبب ما رأيتُه. تشبثتُ بالحاجز بقوة، وقد بدأت ركبتاي ترتخيان.

رأيتُ جسد حارس المنارة، وهو ملقى على الأرض، والوضعية التي كان عليها، تخبرني بأنه سقط من هذا الارتفاع.

عدتُ إلى الداخل بصعوبة، وقدماي تطحنان الزجاج المهشم فوق الأرضية الحديدية. كانت الأوراق الصفراء قد تناثرت في المنارة بطريقة عشوائية،

وكلها تحمل خربشات لا معنى لها، وكلمات استغاثة كتبها أشخاص عجزوا عن إيجاد مخرج، فتركوا ما يوحي بأنهم كانوا بحاجة إلى المساعدة قبل رحيلهم.

أبلغتُ الشرطة عن ذلك فوراً، وحين أتوا منعونا جميعاً من استكشاف أية معلومة تخصُّ ما حدث. لم يجد أحد الحارس الثاني أبداً. لقد اختفى دون أثر كما حدث مع كارلا، وهم يشكُّون في أنهما قد هربا معاً، لكنّ كارلا كانت تفوقه سناً.

كل الأوراق وتسجيلات الرادار، تمّ التحفُّظ عليها، ولم يكن السؤال عنها يحمل أية إجابة. أنكر رجال الشرطة وجود تلك الأدلة المجنونة والغريبة، ووصفني الجميع بأنني مجنون، وبأنني أتخيّل ذلك بسبب ما حدث مع كارلا.

كارلا رحلت دون عودة، وأنا لم أعد أنا منذ ذلك الحين. انعزلتُ عن العالم بينما كنتُ أحاول إيجاد الإجابات. لم يخدمني إلحاحي في السؤال، بل جعل الجميع يتهرَّب مني، ويراني بصورة أخرى لا تنتمي إليّ أبداً.

الآن أنتم جميعاً تعرفون حكايتي، ولا أطلب منكم تصديق تفاصيلها، لكن هذا ما عشتُه أنا".

25

الصمت الذي ملأ المرآب البارد كان مخيفاً. وصور الليل التي غطَّت النوافذ زادت من رهبة اللحظة وعظمتها. شعرت جوليا بأنَّ لون الغسق غطَّى العالم كله، وأنّ هذا الوقت يعزلهم عن عالمهم الحقيقي، لكنها كسرت الصمت معترفة: "تلك المنارة، أراها في أحلامي. الوصف الذي وصفتَه أنتَ، وكذلك الألوان".

تدخل ليو: "أرى السماء وهي حمراء، كما لو أنَّ دخاناً ساماً يغطيها. أرى الضوء الساطع منها يحاول اختراق عتمة السماء والغيم". راح ليو يحاول استعادة صورة المنامات المتفرّقة في خياله. يتذكّر صورة المنارة بوضوح، ولا يعلم لماذا كان يراها، فلا توجد أية ذكرى تربطة بالمناراة، ولكن مَن ذلك الذي يستطيع اختيار كوابيسه بنفسه؟ تلاقت عينا ليو بعيني جوليا، وكان الاتّفاق، واتّحاد الأفكار واضحاً بينهما.

قال مارك مندهشاً: "ماذا؟ هل ترون المنارة حقّاً، إن ذلكَ المكان ملعون.. ملعون حقّاً. لا يمكن تجاوزه، وأنتم تثبتون هذا لي الآن". ضغطت جوليا على كتف مارك؛ لأنها كانت الأقرب منه، وأخبرته بأنّها تصدقه.

"أنا أيضاً أرى المنارة في أحلامي". قالت فيوليت بصيغة حذرة.

قفزت سريزا: "وأنا كذلك". تبادل الأشخاص الثمانية نظراتهم، ولم يصدق أيٌّ منهم قوة هذا المصادفة وتأثيرها عليهم جميعاً. شعرت فيوليت بالانتماء لسريزا، وكلتاهما نظرتا إلى مارك بمواساة، أردفت سريزا: "هذا غير معقول! أنا أرى المنارة التي تحدَّث عنها، ولم أعتقد بأنّ هذا المكان حقيقي، بل ظنَنتُ بأن التفاصيل هي من صنع خيالي".

ردّت فيوليت: "ولا أنا حتّى، لكنّ هذا غريبٌ حقاً".

سألهم ماثيو: "هل ما أفهمه الآن حقيقي؟ هل تقولون بأنكم جميعاً ترون المنام ذاته، وهو جزء مما عاشه مارك؟ أنا لا أقول بأنني لا أصدق الأشياء الغريبة؛ لأن حكايتي غير قابلة للتصديق حتى، ولكني أليس من الغريب أن يتكرّر هذا المنام في حياة خمسة أشخاص؟".

قال ماركوس: "يقولون: (إنّ البرق لا يضرب البقعة ذاتها مرتين)، لكن هذا

غير صحيح؛ لأنه هذا حدث بالفعل. ما الذي يمنع المنام، من الانتقال إليهم".

قالت جوليا مُفَسّرة: "هذا يؤكد وجود رابط بين القصص كلها، هذا ما كنتُ عاكفة على تفسيره. الآن أنا أقترب من حقيقة وجود قصة غريبة تجمع بين الأشياء كلها، هناك نقطة تلاقي في قصصنا جميعاً".

"هذا صحيح". جذبت كاميلا انتباه الجميع فجأة: "شمس سوداء، هذه العبارة تكررت على مسامعك في حادثة اختفاء كارلا زوجتكَ يا مارك، أليس كذلك؟"

"هذا صحيح". أجاب مارك.

"وأنا قرأتُ تلك العبارة مرات عديدة، في أحد الكتب. ذلك الكتاب غريب، وهو لا ينتمي لأيّ كاتب، بل إنني وجدته في مكتبة والد زوجي، وهو جزء من إرثه لنا. أقرب وصف لمحتوى ذلك الكتاب هو الغرابة، وفيه تكررت عبارة الشمس السوداء، وكانت تلك العبارة هي دلالة على طائفة غريبة".

سألها مارك: "طائفة؟ لم تخبرينا بذلك من قبل".

"طائفة الشمس السوداء، لم أجد تفسيراً لذلك، ولا ارتباط له بما نفعله هنا، لكنني الآن أفهم. يحتوي الكتاب على إشارة لحركة غريبة، لم تكن دينية أو سياسية، هي حركة سرية متعددة الاتجاهات. في البداية كانوا يدَّعون محاربة الشيطان، أو هذا ما فهمته حتى الآن. ثم اتّجهت الحركة إلى إقحام الطب في حربهم السرية تلك، وهدفهم الأول هو إغلاق أبواب الشيطان المؤدية إلى عالمنا. يعتقد أتباع الشمس السوداء أنه مع بداية الخلق، كان للشيطان شكل الحياة الذي نسير فيه نحن الآن ذاته، هم يحاربون الإنسان، لكن طالما أنهم قوة خفية، لا سطوة لها على وجود الإنسان الفعلي على الأرض، فهم أضعف منّا رغم قدراتهم المتعددة".

كرر مارك: "الشمس السوداء".

سألها ماركوس: "أفهم كيف يرتبط هذا بعبارة ذكرت في قصة مارك، ولكن كيف يمكن للقصص كلها أن تترابط؟ هذا ما لا أستطيع فهمه جيّداً حتى الآن".

تدخّلت جوليا قائلة: "جريمة القتل التي حدثت.. أعني الطفل جيمي الذي

قُتِل في المنارة، ألم تكن هذه إشارة مشابهة لقصة مارك.. أعني وجود المنارة؟ كان الطفل شغوفاً بشخصية خيالية لا يعرفها أحد سواه، وهو السيد ثلاثاء، والذي يرتبط اسمه بيوم الثلاثاء الوارد في أغنية الموت بالنسبة لماثيو".

"بل كان الثلاثاء يوماً جذرياً في حياة العديد منا". قالت فيوليت. ثم أكملت: "اختفت ماري في يوم الثلاثاء. حادثة الانتحار التي حدثت لكِ كانت في يوم الثلاثاء، موت والدة جيمي كما أخبرتِني يا جوليا، كانت يوم الثلاثاء".

"انتحر والدي في يوم الثلاثاء كذلك". قالت سريزا كأنها تكشف أعظم أسرارها.

قال ليو: "هذا هو وجه الترابط بين القصص كلها". التفت ليو إلى كاميلا بعد أن قال عبارته، وسألها: "ذلك الكتاب، هل يحمل أية تفاصيل تدلُّ على ارتباط الطائفة بهذا اليوم".

قال ماثيو: "مهلاً يا أصدقاء، لا توثّقوا صلة القصص بحكاية هذه الطائفة لمجرد أنها ذُكِرت في كتاب، فقد لا يكون وجودها حقيقياً حتى".

ردَّ عليه ليو: "أنتَ أكثر شخصٍ عليه تصديق هذه الحكاية يا ماثيو".

تدخل ماركوس قائلاً: "أنتَ محقٌّ يا ليو، لكن لا تدَعوا عمق الغرابة في القصص يسرقكم من المنطق".

"يمكنني النظر في هذا أكثر". حسمت جوليا النقاش فجأة. "سأكشف لكم جميعاً سريَّ الآن. يمكنني أن أرى مدى ترابط رؤيتنا لتلك المشاهد جميعها. ليو، سريزا، فيوليت، مارك، وأنا لنشكل دائرة صغيرة مغلقة".

تدخلت فيوليت: "لا تفعلي هذا الآن".

أجابت جوليا بسؤال: "لماذا لا؟ نحن نواجه شيئاً لا نعلم ما هو، يجب أن نكشف كل ما نملكه، وإلا سنقع ضحية هذا الجنون. أعلم أنَّ ما أقوله غير منطقي للجميع، كما بدت قصة موتي وبعثي من جديد لامنطقية، لكنْ إن لم يكن كلامي حقيقياً، فنحن لن نخسر شيئاً". سحبت جوليا نفَسها قبل أن تكمل: "أنا أملك قدرتي الخاصة، وخلالها يمكنني الاتصال بـ.. لا أعلم ما هو تحديداً.. أرواحكم، أو أذهانكم، لكنها ستخدمنا الآن".

علّقت كاميلا قائلة: "ما تقولينه غير صحيح، إنْ لم يحدث شيء، فطريق عودتنا من هذه المعتقدات لن يكون سهلاً أبداً. إنْ جذبنا الظلام، فلا أعتقد أنّ الطريق إلى النور سيكون سهلاً".

قال ماركوس: "لكن ماذا لو كان الظلام حقيقياً؟ ما الذي سيحدث لو كان ما تعتقده جوليا حقيقياً، بينما نحن نتجاهله؟". أراد أن يخبرهم عن خيبات حياته، وعن الوساوس الشيطانية التي تزعجه، لكنه لم يكن يقوى على مجابهة الأمر.

سأل ليو، وكانت كلماته موجَّهة إلى جوليا: "وكيف سنتأكَّد من أن هذا حقيقي، أقصد قدرتكِ؟"؟

"لنجرب" ردّت جوليا. فسحب ماثيو كرسيه، وقامت كاميلا بأمر مماثل، بينما ماركوس الذي قلَّدهم، ظلّ قريباً منهم يراقب ما تفعله جوليا بفضول. ضاقت الدائرة، واقترب الخمسة الباقون من جوليا. أغلقوا الدائرة شابكين أيديهم، كما لو أنهم مقدمين على طقس استدعاء الشيطان من أسفل الأرض.

"أغلقوا أعينكم، واتركوا التيار الداخلي يجرفكم معه". أمرتهم جوليا.

سألتها فيوليت: "جو، هل أنتِ متأكِّدة؟ هل هذا سينجح؟"

"لستُ أكيدة، ولا أظنُّ بأنه سينجح لكنني أحاول على الأقل. هيا أغلقي عينيكِ". فعلت فيوليت ذلك. غاص الخمسة في ظلامهم الداخلي، وتركوا تيارات أفكارهم تسحبهم، ولم يدركوا بأنها اتحَدت جميعها في ذهن جوليا. ارتسمت فجأة صورة واحدة، رأوها جميعاً في أحلامهم، ما عدا مارك؛ لأنه الوحيد الذي رآها على أرض الواقع. كانت المنارة بعيدة، والرياح شديدة تحيط بها. السماء محقونة بلون يشبه الدماء قبل أن تتلوث. كانت المنارة تومض بضوء شبيه بالنبضات، قبل أن ينبعث الضوء باستمرار نحو السماء.

أصبحت الصورة مقلوبة فجأة. أصبحَ المحيط الهائج يحلُّ محل السماء، والمنارة كأنها تنبعث من السماء باتجاه الأرض. أما السماء الفعلية فقد أصبحت أسفل الصورة. فكّرت جوليا بقطع السلسلة، وبإفلات الأمر. لم تكن متأكدة من مشاركة الأربعة الآخرين لها ذات الصورة، لكنها كانت خائفة بمقدار يمنعها من التفكير بهم.

26

"جوليا، هل أنتِ هنا؟" لم تميّز جوليا إن كان من يسألها سريزا أو فيوليت، كان ذلك مجرد صوت أنثوي مليءٍ بالخوف. شعرت جوليا بشلل الأحرف في حنجرتها، لكنها ردّت بالإيجاب. لم يصل صوتها إلى مسامعها، فشكّت في أنها تمكّنت من النطق. سألها الصوت من جديد: "هل جميعنا هنا؟".

"لا أعلم". ردت جوليا. وكادت تسأل عن هوية الشخص الذي يحدثها.

"سريزا، جوليا. أنا هنا أيضاً. ما الذي يحدث؟ لماذا العالم مقلوب هكذا؟". كانت كلمات فيوليت مرتجفة، وهي لم تكلّف نفسها جهد إخفاء الخوف في صوتها. لم يردَّ عليها أحد؛ لأن الجميع كانوا تحت تأثير اللحظة حتى الآن.

قال مارك: "إنها المنارة، هذه هي بلدتي، لكن أين الأرض؟ لا منازل هنا حتى". في تلك اللحظة فكّرت جوليا فعلياً في ترك كل شيء والعودة إلى الواقع، لكنّها اكتشفت بأنها عاجزة عن إفلات تلك الصورة لقد علقت هنا.

"إنّ هذه الصورة هي ذاتها التي تتكرّر في كوابيسي. نحن نعيش داخل ذكرى هذا الكابوس، أم أنّ هذا مجرد كابوس آخر يجمعنا؟!". يتدفّق المنام راسماً صوراً ترغمكَ على الخوض فيها، بينما ينبغي أن تختار الذكريات مدى قوة جريانها إليكَ.

"لا يمكنني العودة إلى الواقع". قالت جوليا، وصاحبَ كلماتها صوتُ اشتداد الرياح. ضاقت الفراغات التي كانت موجودة بين الغيوم، فاختفى آخر ضوء للشمس وعمّ الظلام. أصبح البحر أسود، وأمواجه شديدة تنخفض نحو السماء، ثم تعلو لتغطي المنارة.

"جوليا، تحكّمي بالأمر". أمرتها سريزا. فكرّرت فيوليت الأمر عليها.

"لا أستطيع. لا يمكنني تغيير أي شيء".

علّق مارك من جديد: "ربما لأنّ هذا ما كُنّا عالقين فيه، إن الأمر يستدعينا من جديد، وهو أقوى منّا. ما أن أتمّ مارك كلماته حتى برزت عدة أعين من بين الغيوم. تلك الأعين لا تغطيها جفون، وليس هناك أية رموش تعلوها. كانت تراقبهم من الأسفل.

لم تتمكن جوليا من رؤية نفسها، ولا ذراعيها حتى. بدت كأنها جزء من الفراغ، أو حتى الهواء الذي يسير في هذا المكان. حاولت البحث عن أيٍّ من الأربعة الآخرين، لكنها لم ترَ أحداً منهم. فكَّرت في طلب النجدة؛ لعل عجزها يصبح واضحاً بالنسبة لماركوس، أو مَن مايزال واعياً على أرض الواقع.

اقتربت المنارة من مجال رؤيتهم والذي كان متشابهاً بالنسبة للخمسة الموجودين في ذلك المكان. كانت قمة المنارة مكشوفة، والجزء المغطى بحواجز زجاجية كان واضحاً. رأت جوليا العين الكبيرة المحشورة داخل القمة الزجاجية، والتي كانت تتحرك بطريقة عشوائية، ولكنها ثبتت عليهم وهم يقتربون من المنارة.

كل تلك الأعين، إنها ذات الإشارة التي كانوا يرونها في أحلامهم. فكَّرت سريزا في الآثار المطبوعة على أرضية غرفة جوليان، كانت مشابهة لشكل الأعين الموجودة في السماء. هل يُعقل أن تكون مرتبطة بالأمر هي الأخرى؟ فُتِح باب المنارة، وأنجرفوا إلى الداخل جميعهم دفعة واحدة. كان الظلام يعمُّ المكان، ولكن ما أن اعتادت أعينهم على المكان، حتى بدأ السلم الحلزوني يصبح أوضح.

فكّر ليو فيما أوقعه في كل هذا، ولم يجد أيّ تفسير يربطه بما يحدث. كان يراقب السلم الحلزوني الفضي الذي أصبحوا يعبرون منتصفه. كان السلم الحلزوني يحيط بها، والظلام يغطي كل شيء، وفي نهاية الطريق كانت عين واحدة كبيرة تراقبهم وهم يقتربون منها. تمالك ليو نفسه، ولم يسمح لشجاعته أن تهتز.

أول من استسلم للخوف كان فيوليت، بدأت بالصراخ، فتبعتها سريزا التي كانت تستمد شجاعتها من الآخرين. بدأت الدائرة تنهار بعد أن صرخت جوليا: "هذا لا ينتهي".

انكسرت تلك الحلقة بعد أن دفع ماركوس كرسي جوليا فسقطت، وارتطم ظهر كرسيها بالأرض. كذلك فعل ماثيو مع ليو، بينما كاميلا كانت تحاول سحب مارك بعيداً عن الدائرة. سألهم ماركوس: "ما الذي حدث؟"

قال ليو: "علقنا هناك، لقد علقنا في ذلك الحلم".

"اعتقدنا بأنكم ستموتون بتلك الطريقة، وأنتم متشابكو الأيدي". علّقت كاميلا.

قال ماركوس: "هذا حقيقي إذاً، قدرة جوليا حقيقية". حاولوا جميعاً إعادة تنظيم الدائرة. كانوا مايزالون تحت تأثير ما رأوه، وما تزال العودة إلى الواقع بالنسبة لهم نجاة في اللحظة الأخيرة. عدّلت جوليا من وضعية الكرسي قبل أن تجلس عليه، بينما فيوليت كانت شاردة تحاول تنظيم أنفاسها، وفي ذلك الوقت استسلمت سريزا لدموعها.

ليو هو أقرب شخص لسريزا، وقبل أن تجذب هي شفقة الموجودين بدموعها، قال لها بسخرية: "أعتقد بأنّ خلف هذه الملامح القاسية، إنسانة أكثر قوة".

جففت سريزا الدموع القليلة التي بللت وجنتيها قبل أن تجيب: "لا تسخر مني، كِدنا نموت، هذا أسوأ من كوابيسي حتى".

"اسمعوني جميعاً". قالت جوليا بصوتٍ عالٍ. "هل تصدقون الآن بأنّ هناكَ خطب ما، وهذا الخلل يشمل أكثر من شخص واحد. الأحلام تبقى أحلاماً، والواقع هو ما نعيشه، لكن الآن اختلطت الكوابيس مع الواقع، وهذه ليست إلا بداية الأمر".

سألها مائيو: "وما الحل لهذا؟"

"لا أعلم" أجابته جوليا.

قال ماركوس محاولاً أن يستلم زمام الحوار من جديد: "لا بدَّ أن لهذه المشكلة سبباً ما، وطالما أنّ هناك سبباً، لذا يجب أن يكون لدينا حلّ أيضاً. علينا البحث في هذا أكثر".

"نبحث في ماذا؟" سألها ليو.

"فيما يجمع بين أحلامكم". ردَّ عليه ماركوس.

أرواح الضباب

27

دائماً ما يكون هناك جانباً خفياً منّا، نطويه كما نطوي صفحة من كتاب، لكننا لا نستطيع تجاوزها أبداً، بل نحن نحبُّ النظر إليها من حين إلى آخر، والعودة إلى تفاصيل ما ترويه تلك الصفحة. غالباً ما يكون هذا الجانب يملك من حقيقتنا ما يكفي لكي يظهر للآخرين، كم نحن أشخاص قبيحون في الواقع، أو أطيب مما كانوا يتصورون هم! تلك التوقعات ليست ثابتة بالضرورة؛ ولهذا فهي مجرد توقعات. نحن لا نتخطّى ما نخفيه بسهولة، وإنْ تظاهرنا بالقدرة على ذلك، فإن الإحساس الباطني بالذنب يكون مؤلماً، والمتعة المصحوبة بسرية الأمر تترك فراغاً مملاً في حياتنا.

قُدتُ سيارتي تحت ضوء الغسق حتى وصلتُ إلى المقهى الذي قابلتُ فيه سريزا للمرة الأولى. على عكس العادة كان موعدنا أبكر من وقت اللقاءات غير المتعمَّدة سابقاً. ركنتُ سيارتي، وآخر نور للشمس كان مايزال ينعكس على الزجاج. أقفلتُ الباب، وسرتُ إلى مدخل المطعم، لأجدها تحتضن كوبها بكفيها، وتجلس مراقبةً المدخل متوقعةً وصولي.

راقبتُ صورتها المرسومة بدقة، طرف تنورتها الواسعة واضح بجانبي الكرسي الذي تجلس عليه، شعرها الذي يغطي رأسها بتحديدٍ مبالغ فيه، كان أكثر ترتيباً من كل المرات السابقة التي يكون فيها مجعداً. بدت أكبر سناً مما كانت في السابق. أدهشني مدى دقّة الملاحظة المتعلّقة بتلك الفتاة، وأنا صريح ومتصالح مع ذاتي، وأدرك بأنني معجب بها، أحبُّ قوتها، هدوءها، ورقتها حتى. ما زلتُ أتذكّر كيف بكت فجأة في نادي الأرق، متخلية عن حاجز القسوة الذي تختبئ خلفه دائماً.

استقبلتني بابتسامة، وراقبتني بينما أنا أسحب الكرسي المقابل لها وأجلس. أُنيرت أضواء الطريق في الخارج، واتَّحدت مع خيوط الغسق، لتشكل لحظة شاعرية تمنَّيتُ لو يمكننا الآن التشبُّث بها أنا وهي، لكنني أدرك بأنها لن تدوم.

"كيف حال نومكَ؟" سألتني قبل أن ترغب في معرفة أحوالي أنا شخصياً. كان سؤالها محدداً، كأنها تشير بإصبعها إلى مشكلتي الوحيدة.

"في بعض الأوقات أحظى بنوم يعوُضني عن كل التعب، وفي أوقات أخرى تطاردني الكوابيس. لقد انقضت أيام قليلة منذ آخر لقاء لنا في النادي، وأشعر بأنَّ عاماً كاملاً قد مرّ منذ ذلك الحين. أحياناً أخبر نفسي بأنّ الموت يدنو مني، لا أعلم أين هو الخلاص من هذا".

ابتسمت محاولةً إخفاء الأسى عن وجهها لكنّها فشلت. حركّت كوبها قبل أن تقول: "الحال واحد. أنا أيضاً لستُ أعيش أفضل أوقاتي. لكنّ كل شيء عابر، أليس كذلك؟"

"لا أعلم أيّ حزن تخفين خلف هذا الوجه، لكنكِ على الأقل سمعتِ من القصص ما يكفي كي تكوني بخير". قلتُ محاولاً التخفيف عنها.

أجابت هي: "لا يفكُّ الحزن عقدة الحزن، هو فقط تخفيف عن مشاعرنا. فكرة مقارنة الأحزان هذه مثيرة للسخرية، كان الأحرى هو أن نبذلَ طاقتنا في إيجاد حلّ لمشكلاتنا، وليس البحث عن مشكلة أكبر نراقبها، وننسى خلالها ما نعيشه نحن".

"أحياناً تجعلنا الخيبات في حالة هدنة قصيرة مع ذواتنا؛ لكيلا نشعر بالنقص، رغم أننا ندرك الاختلاف بين الآن وسابقاً. نحن نفضّل الادعاء بعدم وجود هذا الهبوط المفاجئ، لذلك نتعلّق بأقل الصفات؛ لنخفي هذا الاختلاف. لكن عشمنا المتسرع هذا يكون أحياناً خيبة أخرى تعزز حجم المعاناة". سادت حالة صمت بيننا، كسرها نادل شاب أراه للمرة الأولى هنا. أتى ليأخذ طلبي. أخبرتُه بأنني سأكتفي بكوب قهوة، قلتُ ذلك مشيراً إلى كوب سريزا. نظر النادل خلاله، ثم دوَّن على الورقة ورحل.

سألتني سريزا: "هل عائلتكَ بخير؟"

"عائلتي؟" أدهشني سؤالها عنهم، كما لو أنها تعرفهم. "هم بخير، يجب أن تتعرفي على شقيقتي كريستين. إنها نسخة أخرى من والدتي. لديها ابنة تدعى روزالي، أراهن بأنكِ ستحبينها". اكتفت سريزا بأنْ هزّت رأسها أمامي.

"وأنتِ... كيف هي أحوال دوروثي؟"

"إنها تقابل أحدهم". ابتسمت سريزا بمكر. "تقول بأنّه صديق، لكنّ هناك شيئاً ما في عينيها، يخبرني بأنّ الأمر أكبر من ذلك، لا أعرفه، ولم أتعرف

عليه بعد، لكننا سنتقابل قريباً".

ضحكت قبل أن أسألها: "ألَا يشعركِ هذا بالغيرة منه؟"

"جداً" اعترفت، ثم قالت: "لكنّني أتمنّى لدوروثي أن تكون سعيدة، وهذا أهم من شعوري الطفولي".

تحدثت سريزا عن خالتها، وعن أشياء أخرى لم أكن أصغي إليها، فلم أدرك ما كانت تقوله؛ لأنني أمعنت النظر في ملامحها التي كانت في بعض الجوانب تبدو مشابهة لتريز. هل كان العالم يعاقبني، ويكرّر الأمر معي بأنْ يرسل سريزا في طريقي؛ لتجدد مشاعري من جديد. هل أخون تريز الآن؟

في الوقت الذي كنتُ أتعاطى فيه، كنتُ أحاول الغياب عن العالم دون أي سبب واضح. كنتُ أعاني من الذوبان وأنا على أرض الواقع. أحياناً نندفع للوجود في كل التفاصيل، ولا ندرك مدى ضوضاء هذا الانتشار، إلا عندما نحاول جمع شتاتنا من جديد، فيصبح الغياب هو الحل الأمثل. نغيب عن التفاصيل، عن الآخرين، عن الأشياء التي لا تساهم في ترميمنا من جديد بعد أن تداعينا.

لم أفكر في أنني أرحل، جميعنا كنا نرحل، دون أن نترك لوعودنا أحداً.

"ليو.." أصدرتُ همهمة تؤكّد عودتي للواقع. "هل لي أن أسألكَ؟" حرّكتُ رأسي موافقاً. "هل تفتقد تريز؟"

"نعم.. لستُ متأكداً من شعوري، أعتقد أنّ حقيقة ما أشعر به، هو الندم على ما حدث، لكنني أستمر في حياتي دون أي حنين. أعلم أن هذا أنانية مني. لكن أعتقد بأنه لو عادت تريز إليّ، كنت سأبتعد، وأتركها تعيش الواقع بسلام، وإن كانت سترمي بنفسها في النار، سيكون هذا قرارها. أنا أشعر بالذنب فقط".

"هذا قاسٍ، لكنه منطقي". لا أعلم إن كانت تقول ذلك من منظور عام، أو أنَّ هذا ما كانت تشعر هي شخصياً به. لكنّ كلماتها لم تؤثر بي؛ لأننا نرى الأمر من جانب واحد.

طال الوقت، وعندما أدركتُ بأنه انقضى منه ضعف ما ظننتُ بأنه فات، أدركتُ بأنّ الوقت معها ممتع، وأحاديثها مفيدة بطريقة خاصّة، لا يمكن

تحديدها. خرجنا من المقهى سائرين بضع خطوات تحت الظلمة الباردة. سألتُها قائلاً: "دعيني أُقِلّكِ بسيارتي".

"لا". صدمني رفضها القاطع، لكنها أردفت: "سيارة دوروثي معي الآن. أشكركَ على عرضك".

قلتُ لها، وأنا أعني ما أقوله: "لا بل أنتِ من التي يجب شكرها".

سألتني هي: "على ماذا؟" مرّت نسمة باردة جعلتها تنكمش حول نفسها، وتضم ذراعيها، ما تزال قسوة البرد الحقيقية قادمة، وما نعيشه الآن، ليس إلا الثلث الأول من هذا الفصل. أرخت ذراعيها منتظرة إجابتي، والتي أظنّ بأنها تعرفها.

"على وقتكِ معي، شكراً لأنكِ أتيتِ".

نظرت هي مباشرة في عينيّ، وكأنها تتشرب امتناني الحقيقي من روحي. "أنتَ تعلم بأنني أشعر بمشاعر الآخرين، وهذا لا يحدث إلّا نادراً جداً، وأحيانا أشكُّ بأنه حقيقي. لكن الآن الزمن يتوقّف، يتجمّد تحت هذه البرودة اللطيفة والحادة في آن واحد". ساد الصمت لبضع ثوان كان خلالها التقاط الأنفاس جهداً ثقيلاً.

"سريزا.."

قاطعتني قائلة: "كانت الصورة تنهار، ورغم كل الحطام الذي أقحمتني فيه الحياة، لم أشعر بأن النهاية وشيكة، بقدر ما كنتُ أشعر بها في الأونة الأخيرة. ثم أتيتِ أنتِ، ظهرتِ فجأة، وعلى وجهكِ ارتسمت عبارة سرية تقول لي بأنَّ النهايات أيضاً تحمل خلفها فصولاً أخرى. كانت صورتكِ الحزينة تظهر، وتقول لي بأنه ما من داعٍ لهذا الحزن". عقدت حاجبيها، ونظرت نحو الشارع وهي تسأل: "لماذا هذا الحزن؟ لكنْ الآن أفهم لماذا؛ لأنني نسيتُ بأنَّ للحياة وجوهاً أخرى يمكن النظر نحوها، ومأساتي أعمت عيني عن كل شيء يمكن رؤيته".

"تأكّدي بأنني دائماً هنا، حتى وإن كنتُ أغرق، فلا أمل من محاولة النجاة، ولن يأتي وقت أكفُّ فيه عن مَدِّ ذراعي لكِ يا سريزا". قلتُ ذلك، وهبَّت النسمات من جديد لتشهد على كلماتنا. انكسرت وحشة الليل تحت بريق أضواء ظهرت فجأة. أدركتُ بأنّ العتمة كانت في عيني فقط.

28

"كيف هو حال قلبكِ؟" سأل إيفان من دون أن ينظر إلى جوليا. رفعت هي رأسها عن كومة الكتب التي كانت بين ذراعيها، وارتسمت على وجهها إمارات التعجب من نبرة السؤال التي وُجِّهت إليها. التفتت لتسأله عن سبب طرحه السؤال هكذا، وفي اللحظة ذاتها حرّك هو عينيه باتجاهها هي. هزّت رأسها من دون معنى، فقام إيفان بتقليد حركتها. فابتسمت دون إرادة منها.

أجابت بصوتٍ تملؤه العاطفة: "لا أعلم، نسيتُ كيف يشعر قلبي؛ من شدّة ما كنتُ منشغلة بمخاوفي، وبخيباتي. مطاردة الأوهام مرهقة يا إيفان". نظر إليها بخيبة، فأدركت بأنه لم يكن يريد سماع هذا منها.

قال لها: "كيف حال قلبكِ؟ هل استسلم". تلاقت عيناهما للحظات طالت، وكان الضوء الوحيد الموجود في المتجر لا يكفي كي يوضّح مدى دفء ملامح كلٍّ منهما. لم يتعجّل إيفان، ولم يحثّها بعينيه على أن تجيب، بل كان يدرك بأنها ستحكم الاختيار.

"لم أستسلم أبداً". اعترفت، ثم أخفت ابتسامتها.

يحدث أن يضيع قلبكَ بين اتجاهات المشاعر المختلفة، أو أن تُفقِدَه التجارب قوته السابقة. في تلك اللحظة قد تتوقف أنتَ عند تحديد نوع العاطفة الذي يتناسب معكَ؛ لأن الحياة بطريقة حركتها تصبح هي العجلة التي تسيّركَ. لكنكَ تعود فجأة لتكتشف بأنّكَ أهملت مساحة كبيرة، أو تركتها لفراغ كان عليكَ أنتَ تعبئته بأي شعور آخر. تلك اللحظة هي الاعتراف الأقرب لحاجتكَ على شحن طاقتكَ من جديد من أجل المحاولات الجديدة. تتحول الخيبات السابقة من عدو إلى دافع للخروج من الممر المعتم الذي عبرتَ بيأس فيه. قد لا تعود كما خططتَ لأن تبقى عليه طوال الأوقات القادمة، أو أنّكَ قد لا تستطيع تحديد الشبه بين صورتكَ السابقة، وبين ما تحوّلتَ إليه اليوم، لكنكَ تصبح مختلفاً. هذا التحوّل قد ينقلكَ إلى نقاط أخرى أكثر قسوة، أكثر طيشاً، وأكثر عاطفة حتى، والسبب في هذا هو وقوفكَ في نقطة البداية، والتي في مراحلها الأولى تحاول تجاوز الألم، ثم تأتي مرحلة الاكتشاف، والتي تشعر خلالها بأنّ كل من في العالم بعيد عنكَ، وأنّ دافعاً خفياً يحثكَ على اكتشاف محيط جديد، وبالتالي يرسلك هذا التغيير إلى نمط طبيعي جديد، تجد خلاله

الهدوء، لكنكَ أنتَ لا تحمل بالضرورة الصورة الهادئة التي اعتاد العالم رؤيتكَ بها.

"سنخرج من هنا". قال إيفان بصيغة آمرة.

"الطقس بارد في الخارج". تحججت جوليا. "إلى أين سنخرج؟" سألته وهي تفكر في التراجع عن حجتها تلك.

"سنذهب إلى مكان قريب من هنا، أنا متأكّد من أنكِ لم تكتشفيه بعد. طالما أنكِ جديدة هنا فأنا متأكد من ذلك. هيا ارتدي معطفكِ، وأنا سأكون في سيارتي". قال كلماته، وخرج بعجلة إلى الخارج، دفعَ الباب، فسمعت جوليا جرسه يتحرك، ثم رأت طيف إيفان يسير بمحاذاة الرصيف، وصولاً إلى سيارته المركونة أمام المتجر. جذبت هي معطفها، وارتدته. شعرت بانقباض في معدتها، لكنّها تجاوزت هذا؛ لأنها متحمّسة لمعرفة ما ينوي إيفان فعله. خرجت بعده، وأقفلت المتجر، ثم اتّجهت إلى سيارته.

***

لم تكن جوليا قد زارت هذا الجزء من المدينة، بل إنّها لم تكن تعلم بأنها تحتوي على مدينة ملاهي. كان المكان قديماً وشبهَ مغلق، ولكنّ إيفان أخبرها بأنه يعرف حارسَ هذا المكان، وهو مَن سيتدبّر له أمر دخولهما إلى هناك. لم تكن جوليا تعلم بأن في هذه المدينة أرجوحة كبيرة، يمكن من خلالها رؤية وجه المدينة كاملاً.

سحب لها حارس المكان فتحة السياج التي تؤدي إلى الداخل، حيث كانت العجلة الكبيرة محاطة بألوان عديدة. كانت المصابيح التي تنير المكان قديمة، لكن بعضها كان مايزال يتوهّج حتى الآن. تبعها إيفان، وسحب لها حاجز المقصورة المكشوفة، ثم طلب منها الدخول قبله. أصبحت برودة الجو أشد مع شعور جوليا بالتوتر. دسَّت يديها في جيبي معطفها، وانتظرت أن يتبعها إيفان في الجلوس. أغلق الحارس المقصورة، ثم هزّ رأسه لهما؛ لكي يستعدا. سار مبتعداً عنهما، واقترب من جهاز التحكم، ثم أطلق حرية العجلة، وتركها تتحرّك ببطء. تقدمت المقصورة بهما، ثم ارتفعت عن سطح الأرض مقتربة من ظلمة السماء. في البداية شعرت جوليا بالقلق، لكنْ ما أن بدأت صورة المدينة بالظهور أمامها، وبرزت الأضواء تدريجياً حتى تلاشى الخوف. أَسرها المنظر،

وكان سحره يبقيها بعيدة عن الواقع.

"لم أكن أعلم بوجود هذا المكان".

ردّ إيفان: "لأنّه سريّ للغاية". رمقته جوليا بنظرة تساؤل، فقهقه قبل أن يفسر لها: "هذه الحديقة قديمة، إنهم يجرون لها بعض التعديلات خلال الأشهر الماضية، ولم يتبقَّ سوى أيام قليلة حتى تعود إلى العمل. حصلت على فرصة دخولها قبل الآخرين، قد يبدو هذا طفولياً، لكن هناك شغف يجمعني مع الملاهي، فهي تذكرني بوالدتي".

أصبحا في منطقة بعيدة عن الأرض، بحيث بدا كل ما يرونه عليها صغير الحجم، والسماء كانت بسوادها توحي برهبة غريبة، العزاء الوحيد كان هو بريق المدينة في الليل. سألته جوليا: "هل تفتقد والدتكَ بعد كل هذا الوقت من الغياب؟"

"إنها والدتي يا جوليا، لا يعوّض غياب الأم أي شخص آخر في العالم، لا بديل لها، وحتى قبل رحيلها كنتُ أدرك بأن معركة مشاعري تجاه فقدها خاسرة"، تذكرت جوليا والدتها، ورغم أنها لم تتأثر بوفاة والدتها بهذه الطريقة، إلا أنّها تذكرت تلك الفرصة الأخيرة التي جمعتها بوالدتها في ذلك المكان.. الآخر. لا تستطيع جوليا تمييز، إذا ما كان ذلك مناماً، أم واقعاً، لكن في مجمل الأحوال، هي ممتنة للقدر الذي أدى بها إلى هناك، وإنّ كان في جنونها شيء جيّد، فهو لقاؤها بوالدتها.

"هل كانت علاقتكِ بوالدتكِ جيّدة؟" سألها إيفان، فهزّت رأسها موافقة من دون تقديم أي تفسير. أردف هو: "لم تتحدثي عنها قط". راقب تعبير وجهها، وخمَّن بأنها ستتوعكُ قليلاً أمام كذبها، لكنها لم تكن تكذب، وهذا يعني أن ما قالته حقيقي، ولا يوجد أي خلاف بينها هي ووالدتها.

"لا أملك ما أخبركَ عنه. كانت علاقتي بأمي تشبه شكل العائلات الأخرى، وكذلك أبي. لا يوجد أي شيء يميز تلك العلاقة سوى الذكريات التي مايزال تأثيرها فعّالاً معي أنا فقط، ولو تحدثتُ عن الأمر لما ظهر لكَ بذات البريق الذي أتخيله به. كانت أمي طيبة دائماً، وحتى اللحظة الأخيرة هي الشخص الوحيد الذي لم يحاول التخلّي عني".

تحركت العجلة ببطء أكثر، وهي تشق طريقها بين الأرض والسماء. "كل

علاقات البشر، يجمعها رابط واحد على الأقل، بما في ذلك الأخوة. دائماً هناك عائد من هذه العلاقة، وإن كان ذلك يتفادى المعنى السيِّئ لمصلحة الآخرين. وحدها الأم هي مَن تُستثنى مِن هذا المفهوم؛ فهي لا تنتظر شيئاً، وتمنح عاطفتها لأبنائها دون شروط".

هبطت العجلة، ثم شقَّت طريقها نحو الأعلى في جولة ثانية.

"ماذا عن آدم، الآن أعني؟" عبر اسمه في داخلها بطريقة غريبة. لم تتوقع سؤاله، وكان ذكر آدم هو آخر ما ترغب فيه. لم تستغرق جوليا كثيراً في التفكير، قبل أن تخبره بأنها لا تفكر فيه، أو هذا ما تتمكن من فعله في الأيام الأخيرة بسهولة.

"تسرقكَ الحياة من همومكَ، إنْ أرادت ذلك. تيارات الحياة كثيرة، ونحن من يمتنع عن القفز في أحدها". قالت جوليا ذلك وهي تبعد عينيها عن إيفان، وتراقب أضواء المدينة البعيدة من جديد.

قال لها إيفان: "لا تقاومي هذا الشعور. أشعر بالاستياء لوجود ذكراه هذه، ولكن إنْ كانت مقاومة هذا الشعور ستؤذيكِ، فانجرفي معه ببساطة".

"لا أريد، أنا أتعافى الآن، وهذا حقيقي".

شعرت جوليا باندفاع إيفان في هذا الموضوع، ولو أنها لم تهرب منه لخاض فيه أكثر. فكّرت في الهروب منه، واختارت حديثاً آخر، كانت متأكدة من أن إيفان لن يخرج من شباكه. قال له: "لقد توصَّلتُ إلى اكتشافات جديدة فيما يتعلق بمسألة الثلاثاء".

شعر إيفان بالاستياء؛ لابتعادها عن محور الحديث، لكن فضوله دفعه لسؤالها عن التفاصيل. روت له جوليا ما حدث مع الأعضاء الأربعة الآخرين في النادي، وما كانت تملكه كاميلا من معلومات، والأهم من ذلك كله، أخبرته عن ليديا، وكيف ربطت فيوليت بينها وبين تلك الفتاة.

"حدث هذا كله، وتخبريني الآن؟ لا أشعر بأنني أميل نحو هذا النادي أبداً. يحمل الأمر علامة استفهام كبيرة يا جوليا". لم تتجاوب جوليا مع كلماته، بل على العكس ظهر تعابير الاعتراض على وجهها.

"ثِق بي، إنني أصل إلى نقطة لا يمكنني الرجوع بعدها. هناك خطر

يُحدِق بليديا، وأعضاء النادي حتى. لا تنسَ أندي أيضاً، هو ضمن كل هذه الأحداث".

انتهت الجولة الثالثة والأخيرة، وترجلا من المقصورة، وأكملا رحلتهما سيراً إلى بوابة الحديقة. سألها إيفان: "أنتِ تقولين بأنكِ تشعرين بالخطر؛ لأنك ترين ما رأته ليديا، هل يمكنكِ تحديد مكان ذلك الشيء؟"

"لا، أنا قد لا أستطيع، لكن فيوليت تملك القدرة على تحديد أماكن الأشياء. العائق الوحيد، هو عدم قدرتها على رؤية ذلك". كان لذلك الطيف الذي رأته جوليا يتبع ليديا، ويراقب منزلها عقدة خاصة لم تتمكن من إيجاد أي حل لها.

"هل تعلم أمر؟" هتفت جوليا، "ذلك النادي، لو جمعنا كل قدرة، وحاولنا النظر من زاويتها الخاصة، قد نصل إلى نقطة معينة". شرحت ذلك بطريقة طفولية، أصبحت خلالها خطواتها تشبه القفز.

اعترض إيفان قائلاً: "هذا النادي، هو ما يضعكِ أمام الفوهة. ليس هذا فيلماً لمجموعة أبطال خارقين، وليس الواجب محاربة الشر الذي لا تعرفونه حتى الآن".

"بلى، واجبنا أن ننجو من هذا. هناك مَن يعبث في أحلامنا، ويجعلنا نموت ببطء". تأمَّلت جوليا جملتها الأخيرة، ولم تتوقع أنْ تجدَ التفسير بين كلماتها. هناك من يعبث في أحلامهم، والأرق هذا قد يكون هو من يتسبب به لهم.

"من هو يا جوليا؟ لماذا يفعل ذلك؟" سألها إيفان.

"لا أعلم". أجابت. "لكنني سأعرف هذا حتماً".

29

"ليو" همس أحدهم يناديني، لكن غير الظلام لا يوجد أي شيء. هذا السجن الأسود يحيطني بنشوة غريبة، ويبعدني عن كل ما يمكنني الارتباط به بطريقة فعلية. حاولتُ تمييز ذلك الصوت، لكنني عجزت في البداية، حتى ظهرت أمامي تريز بوجهٍ لا عيون فيه. بدلاً من العينين كانت هناك مساحة خالية بلون الجلد.

"تريز" ناديتُ بصوت أشبه بصوت السؤال.

قالت لي: "أنا عالقة هنا". كان شعور الخدر يشبه تماماً ما يحدث عندما أتعاطى المخدر، لكنه محقون بقدر أكبر من الخوف هذه المرة، لا يمكنني مقاومة ذلك أو العودة منه. كنتُ أنجرف إلى عمق السواد ببطء.

تمزق جلد تريز، وظهرت لها عين واحدة، بينما عينها اليمنى بقيت مخفية. كانت عينها قاسية، ولا تشبه ما تكون عليه في الطبيعة. فكَّرتُ في كل الوقت الذي انقضى دون أن أرى جفنها مفتوحاً. أفتقدها، أفتقد فكرة وجودها أكثر. لكنها الآن ليست حقيقية، وغير موجودة. أشعر بالذنب؛ لأنها مسجونة في تلك العتمة بسببي، لكن في الواقع هي مَن رمتني في تلك الحفرة، هي مَن جرَّتني إلى التعاطي، وأبعدتني عن الأشخاص الذين أحببتهم قبل أن أراها.

اقتربت مني، وأرادت أن تدسّ يدها في صدري، وكلما اقتربت كنتُ أشعر بأنّ هناك ما يُسحَب من أعماقي. اختنقتُ، وغطّى الضباب وجه تريز، لكن تلك اللحظة لم تدم طويلاً. ظهرت جوليا من العدم، وحاولت أن تجرني إلى الخلف.

قالت جوليا: "إنه كابوس، هذا ليس حقيقياً. استيقظ هيا". فتحتُ عيني لأجد نفسي في سريري، وقد ابتلَّ جسدي بعرقي. تنفستُ بصعوبة، كان الألم ينبض حيث كانت تريز تحاول أن تنشب أصابعها. حاولتُ جرَّ جسدي من فوق سريري، ونهضتُ بصعوبة. دفعتُ حاجز نافذتي، ورحتُ أسحب الهواء الخارجي البارد إلى رئتي. لا يمكن أن يكون هذا حلماً.. وألمي مايزال موجوداً! خلعتُ قميصي، ورأيتُ الموضع الذي كان يؤلمني. ما تزال آثار يد تريز عليه.

سمعتُ رنينَ هاتفي آتياً من خلفي. فنهضتُ عن الأرض، وسرت إليه. كان المتصل هو جوليا، لم تكن علاقتي بها قوية، ولم تتطور إلّا بعد الحادثة الأخيرة في النادي. كنتُ أصدقها في مسألة الرابط الخفي بين الأحداث، وها

نحن نتعاون الآن.

أجبتُ: "جوليا، هل هذا حقيقي؟ هل كنتِ هناك؟"

"ليو.. كان ذلك كابوسكَ. لم تكن تلك تريز، لستُ متأكّدة من هوية مَن كان هناك، لكن ذلك الشيء يريد أن يؤذيكَ. عليكَ أن تكون حذراً أكثر، ويجب عليكَ أن تميّز بين الواقع والحلم". أصبح صوتها بعيداً فجأة، لكنه كان واضحاً بما يكفي.

"كنتُ أدرك بأنَّ ذلك كابوساً، لكنني لم أقوَ على التحكم به".

سمعت صوتها الناعس يقول: "الرابط الذي بيننا سيمكنني من الوصول إليكَ!، سأكون معكَ إذا ما حدث أي شيء، وما تزال لدي بعض الخطط". أردتُ سؤالها، لكنَّ الوقت لم يسعفني؛ لأنها ودعتني وطلبت مني التحلّي بالحذر في الأوقات القادمة.

قبل طلوع الشمس، خرجتُ للجري كما كانت العادة. الهواء البارد كان يتسبّب باختناقي أثناء الجري، لكن تلك البرودة كانت تعطي جسدي شيئاً من الانتعاش. اندفعت بسرعة أكبر متجاوزاً طرقات الضاحية. عبرتُ صعوداً إلى الجرف المُطِلّ على المدينة، وهناك اعترض القط بلاك طريقي.

رأيتُ البريق في عيني القط في ذلك اليوم، وكأنّ هناك فتيلاً نارياً في داخلها. راقبني القط، وراح يتقدّم نحوي بخطوات سريعة. لأول مرة أراه ينظر إليّ بتحدٍ، بدا وكأنّ ذلك الجسد أكثر من حيوان أليف. ابتعدتُ وحاولتُ تفاديه، لكنه راح يتبعني والفتيل الذي في عينيه لم ينطفئ. كنتُ أجري وهو يجري خلفي، والبريق الذي في عينيه يصبح أكثر حدّة من السابق.

قفز القط من خلفي في لحظة مفاجئة، وشعرتُ بجسده يلتصق بظهري. رأيتُ أطرافه تتحرك في الهواء بقوة، استدرتُ، ولكمتُ جسده بيدي، فخدش ظهر يدي خدشاً صغيراً. ارتمى جسد بلاك بعيداً عني، اختفى البريق الموجود في عينيه، وتلاشى لونها. نهض القط، وجرى مبتعداً عني.

"اللعنة". قلتُ، وأنا أرى ظهر كفي الذي طبع عليه القط ذلك الخدش الصغير.

***

"ما تقوله يا ليو غريب". قال تشارلي كلماته تلك بانفعال. "لا أعلم لماذا تصرُّ على رمي نفسكَ من هذه الشرفات الغريبة، أيُّ نادٍ هذا؟ ولماذا عليكَ أن تكون موجوداً فيه، ولا مع الطبيب الذي يستطيع علاجكَ ممّا أنت فيه".

للوهلة الأولى شعرتُ بالندم على اعترافي له بأمر النادي، وعلى كشف ذلك السر. لم يشجعني ردُّ الفعل هذا على الاعتراف بكل ما مررتُ به أثناء وجودي في النادي، لكنني شعرتُ بضرورة البوح بما أعرفه له: "أعلم بأنّ هذا الأمر غريب يا تشارلي. العالم بالنسبة لكَ هو منزلكَ وهذا المقهى.. إنه كل الأمور البسيطة التي تعرفها أنتَ الآن. لكن في ذلك النادي علمتُ بأنّ ما أعانيه لا يقتصر عليّ وحدي. هناك أشخاص آخرون واقعون في ذات الشرك".

قاطعني سائلاً: "لماذا أنتم تحديداً؟ لماذا لا يحدث هذا الأمر إلا لكم؟ كيف اجتمعتم؟" فكّرت في تلك الأسئلة، ولم أجد لها إجابة. بل إنني بحاجة إلى البحث عن معنى ذلك. لماذا نحن؟ كيف اجتمعنا؟ هذه المصادفة الغريبة لا تفسير لها.

"ليو، ما تفعله الآن، هو جنون آخر لا يمكنكَ توقُّع طريقه".

"لماذا تصوِّر الأمر على أنه جنون؟" سألته. "تخيَّل بأن هذا النادي، هو نادي دعم آخر يتبع لأي مركز تأهيلي".

"لو كان يتبع لأية جهة، لكان هناك إشراف عليكم. ما ترويه أنتَ جنون، وهذا النادي يلقيكم في الجنون أكثر، ولا يساعدكم على التخلص منه. إنه يعزز الأشياء التي تخافون منها، ولا يطلب منكم التخلُّص منها". كانت هذه الجزئية حقيقية، ولتشارلي نظرة من زاوية أخرى، لم أرها أنا إلّا الآن. "لو كان هذا النادي تابعاً لأية جهة، لكان الأمر يسير تحت حرص أكبر، أما الآن مَن الذي سيحاسب لو وقع أي خطأ؟"

"لا تقلقني أكثر، أرجوكَ يا تشارلي. هناك جانبٌ قدمي عالقة فيه، وجانب آخر حَذِر. الأمر مُعقَّد.. صدقني!".

اعترض قائلاً: "ليس معقداً. اذهب إلى طبيبكَ، واترُك ذلك المكان". لم أعِدهُ بأنني سأفعل، لكنني وافقتُ على ما قاله، وفي أعماقي كنتُ معترضاً. ما زلتُ أشعر بالخطر، ولا أستطيع تجاوز الأمر بهذه السهولة. استغرق لقائي بتشارلي حيزاً زمنياً كبيراً من يومي. شرحتُ له خلال هذا اللقاء العديد من

تفاصيل النادي، ولم أكُن أتوقَّع منه هذا الرفض لفكرة نادي الأرق. أدركُ بأنه قلقٌ بشأني، ولكنّه لا يرى الأمر كما أراه الآن.

عدتُ إلى منزلي في نهاية المطاف، وبدلاً من أن يصيبني الأرق، رحتُ أقاوم النوم بصعوبة، فكرة أن تصبح كوابيسي مكشوفة كانت تخيفني، رغم أنها ما تزال أشبه ماتكون بالوهم حتى الآن. غفوتُ على وسادتي في نهاية الأمر، واستيقظتُ من جديد، وأنا أشعر بأنّ هناك جمرة تشتعل داخل كفي. رفعتُ يدي لأرى الجرح الذي سببه بلاك بيدي. كان الجرح ينزف على شكل خطٍّ دماء رفيع، ثم بدأ الجلد ينشقُّ ببطء مسبباً لي ألماً فضيعاً. برزت عينٌ صغيرة من ذلك الشق، ثم أخذت تتحرّك بطريقة عشوائية.

استيقظتُ فجأةً في ذات المكان، وكأنّ المشهد يتكرَّر. رفعتُ كفي، فرأيتُ الجرح كما كان دون أي وجود لتلك العين الصغيرة فيه.

30

العاطفة التي ولدت في قلب دوروثي، كان لها عبقٌ خاص في المنزل، وتمكنت من الوصول إلى قلب سريزا أيضاً. كانت سريزا تشعر بالحماس ذاته الموجود في قلب خالتها، وكانت تساندها في مسألة الرجل الجديد الذي ظهر فجأة في حياتها. لم تكن دوروثي تعيش أفضل أيامها، لكنها بالطبع لم تكن سيئة. كانت الحياة تسير بها في نمط واحد متشابه، يتكرّر في نطاق أربعٍ وعشرين ساعة. أما الآن هي لديها مهمتها، بينما سريزا تغرق، لا يمكنها أن تقف وتشاهدها فقط.

حددت دوروثي هذا اليوم، لتدعو فيه دانيال إلى منزل شقيقتها حيث تعيش هي الآن برفقة سريزا. لم يعترض دانيال الذي لم يخفِ إعجابه بدوروثي. هو الآخر فاته من أيامه الكثير، والعديد من الفرص تسرّبت من بين أصابعه، وها هو يحاول الآن أن يقبض على السعادة الدافئة التي يظن بأنها موجودة خلف وجه دوروثي.

استعدت سريزا للأمر جيداً، وكانت متأهبة، وتترقب اليوم الذي ستقابل فيه هذا الرجل حتى تطلق عليه حكمها الخاص هي، لم تكن سريزا أنانية، ورغم شعورها بالحاجة لدوروثي، إلا أنّها لن تستكثر هذه الفرحة عليها. رتّبت سريزا أمور اللقاء مع دوروثي، ولم يقل حماس إحداهما عن حماس الأخرى.

قبضت سريزا على هاتفها الذكي، وكتبت رسالة قصير موجهة إياها لليو: "سيأتي اليوم، أشعر بأحشائي تتقلص، لا أعلم كيف ستتصرف دوروثي اليوم". رأت السهم في أعلى الشاشة، يشير إلى أن المحتوى تم إرساله. ضمت الهاتف بقوة، كما لو أن ليو في داخله.

شعرت بالهاتف يهتز فرفعته لترى الشاشة. ظهرت كلمات ليو على الشاشة: "عليكِ أنتِ أن تستلمي زمام الأمور، طالما أنّ هذه هي لحظتهما. لا تفسدي الأمر". ابتسمت سريزا، وراحت تتحرّك في الغرفة جيئةً وذهاباً. كانت تفكر فيما ستكتمه.

رفعت هاتفها من جديد وكتبت: "سأحاول أن أصلح الأمور من خلف الكواليس". ضغطت زر الإرسال. كانت تسمع صوتها الخاص يقرأ رسالتها، وتترقب ردّه هو.

"يمكنني تقديم الاستشارات لو أردتِ ذلك". جاء ردُّ ليو.

كتبت له: "لن أتردّد في طلب هذا منكَ". كتبت ذلك دون أيّ تخطيط مُسبَق. ضغطت زر الإرسال. أهملت الهاتف رغم أنه كان مايزال بين أصابعها. خرجت من حجرتها متّجهة إلى الطابق السفلي، فوصل ردّه هو.

"سأكون موجود دائماً".

كتبت له هي: "دائماً". تمنَّت لو أنه يرى المكر على وجهها.

ردّ عليها فجأة برسالة من كلمة واحدة: "دائماً". ثم ساد الصمت بينهما؛ لأنّها انشغلت في تحضير الطعام مع دوروثي. طلبت سريزا من دوروثي، أن تذهب لتهتم بمظهرها، بينما هي مَن ستكمل مهمة إعداد الطعام، والتي كانت على مشارف النهاية.

اختفت دوروثي لوقت لم تحسبه سريزا، لكنه كان يكفي كي تنهي تجهيز الطعام. فاجأها صوت الجرس، والذي مرّ وقت طويل دون تسمعه؛ فهما لم تعتادا على الزيارات بهذه الطريقة، أو بالأحرى في هذا الوقت من المساء. سارت سريزا إلى الباب، وفتحته متوقعة وجود دانيال. لم يكن لديها أيّ تصوّر مسبق عنه. تحت ضوء المصباح المعلق فوق باب المنزل بدا دانيال أنيقاً مع وجود الشيب الذي غطّى رأسه، لكن ملامحه ما تزال تحمل ملامح الشباب المتقدّم التي تحملها دوروثي.

"دانيال؟" سألته سريزا، وهي تدفع الباب نحو الداخل.

ابتسم لها، ثم قال: "لا بدّ أنكِ سريزا. نعم، أنا دانيال. هل دوروثي..؟" بحثت عيناه في الحيز الضيق المكشوف خلف سريزا. أشارت له سريزا بالدخول، فوجّه خطواته نحو الداخل.

"دوروثي هنا، ستظهر بعد قليل. سأقدّم لكَ ما تشربه ريثما تصل هي. هل هناك ما تفضله أنتَ؟". سألته وهي تشير إليه بالجلوس في غرفة المعيشة، ووجهها مصوب نحو المطبخ.

"في الواقع، أُفضّل أن أشرب القهوة". أحبَّت سريزا صراحته التي لا تبدو مندفعة، سهّل عليها مهمة اختيار ما سيشربه. أعدّت له القهوة، وفي تلك الأثناء سمعت صوت دوروثي وهي تحيي دانيال بود. خرجت حاملة فنجان

قهوته، فرأت دوروثي تقف قبالته، وبينهما طاولة القهوة المستطيلة.

سألت دوروثي: "هل ستشرب القهوة، قبل تناول الطعام؟"

ضحك هو وقال: "أحتاج إلى هذا، ولم أخجل من طلب ذلك. لكن لا تقلقي لديّ متّسع كبير لوجبة العشاء". جلست دوروثي في طرف آخر لكنه مجاور لدانيال، بينما كانت سريزا تجلس قبالة كلٌّ منهما. تفصل بين زاويتها وبينهما مسافة تكفي كي ترى تعبير كلّ منهما في تلك اللحظة.

قال دانيال: "حدثتني دوروثي عنكِ كثيراً". أشاحت دوروثي بوجهها النابض بالخجل. بينما ابتسمت سريزا وهي تراقب خالتها التي بدت أصغر سناً مما كانت تبدو عليه في العادة. تأتي العواطف أحياناً بطريقة لا يمكن مداراتها، بل تتحدّث العين بها بلغة صريحة لا تملك أية أحرف.

"سأعدُّ أنا المائدة". قالت محاولة الهروب. فشعرت سريزا بأنّها في مأزق لأنّها علقت مع دانيال، لكنها تذكّرت فجأة بأنّ المغزى من هذا اللقاء هو أن تتعرّف هي عليه. تركتها سريزا ترحل، وتختفي دون أن يبقى منها سوى صوت حركتها البعيدة.

قالت سريزا: "إنها تحدّثني عنكَ كذلك".

سألها دانيال بفضول: "حقاً؟! هل تتحدث عني معكِ. أعني.. هل ما تقوله في صفّي أنا؟"

ضحكت سريزا من الطريقة الطفولية التي ألقى بها السؤال: "أجل، إنها سعيدة بعودة الرابط بينكما. أخبرتني بأنكَ صديق قديم". هزّت سريزا رأسها على طريقة السؤال؛ لأنها تريد منه التأكيد.

"هذا حقيقي". اعتدل في جلسته، ثم قال متخذاً مجرى آخر للحديث: "إنها تتحدّث عنكِ أنتِ أيضاً، كما لو أنكِ الشيء الوحيد الذي تملكه هي". ظهر تعبير لطيف على وجهه وهو يبعد بصره عنها.

"وهي تمثل لي كل شيء، ولا أرغب في رؤيتها على غير ما تبدو عليه اليوم. أحبُّها أكثر من أي شيء آخر؛ لأنها الرابط الوحيد لي في هذا العالم.. لا أعرف كيف يمكنني شرح هذه المسألة". تلعثمت سريزا، وضاعت الكلمات منها.

"إن دوروثي تستحقُّ الأفضل في كل شيء". قال دانيال، فأيَّدته سريزا. ثم قاطعتهما دوروثي بدعوتها لهما إلى المائدة التي أصبحت جاهزة حينئذٍ. تمهّلت سريزا في حركتها؛ لتعطي دانيال فرصة المضي قبلها إلى مائدة الطعام. كانت تراقب سرّاً الكيمياء البادية في طريقة تواصله مع دوروثي. بدت دوروثي قلقة ومحرجة، لكن هذا الحاجز أعطاها بريقاً جميلاً، بينما دانيال كان يتصرّف بلباقة في المنزل، وبلطف أكبر مع دوروثي، بينما كان يتعامل مع سريزا بطريقة رسمية، كما كان أكثر حذراً في اختيار كلماته أثناء الحديث معها.

"اجلسا سأسكب لكما الطعام". أمرتهما دوروثي، لكن سريزا اعترضت، وأخبرتها بأنّ هذه المهمة خاصة بها. جلست دوروثي في الجهة المقابلة لدانيال، تاركة الطرف لسريزا. سكبت سريزا الطعام في طبق دانيال أولاً، ثم أخذت طبق دوروثي الخالي من يدها، وسكبت لها ما اختارت تناوله، وفي النهاية حملت طبقها، وعبرت به إلى كرسيها.

بعد مضي وقت قليل من شروعهم في تناول الطعام، سألت سريزا: "لم تخبرني يا دانيال، ماذا تفعل؟"

ابتلع دانيال الطعام، وكان أكثر حذراً فلم يوجّه نظرته إلى دوروثي، بل قال ما إن سنحت له فرصة الحديث: "أنا طبيب أسنان، أعمل في عيادتي الخاصة". أخفضت سريزا عينيها، وهزّت رأسها برضا، وهي تراقب الطعام الذي يعتلي ملعقتها. ثم أعربت عن رضاها بكلمات قليلة بثَّت في قلبه الراحة. كانت تشعر بأنها هي والدة دوروثي، وليست الأخرى هي خالتها، والأكبر سناً منها.

قضى الثلاثة وقتاً طويلاً على المائدة بعد أن شعروا بالشبع؛ لأن سلسلة الأحاديث التي خاضوها جميعاً، كانت تشغلهم عن فكرة النهوض. بعد شعور دانيال بالراحة، بدأ بكشف جانب من شخصيته الحقيقية، والتي أحبّتها سريزا. أصبحت دوروثي أكثر جرأة خلال حديثها معهما. ملأ المكان جوّ من الحماس والدفء الغريب. لم تكن سريزا تضع في حسبانها احتمال دخول الغرباء إلى حياتها بهذه الطريقة، بل كانت العزلة القديمة والتي دامت لسنوات هي كل ما تعرفه. أما الآن، فهي تشعر بأنها تخوض حياة طبيعية.

اهتزّ هاتفها على الطاولة مشيراً إلى وصول رسالة. رفعته لترى اسم ليو، ومحتوى الرسالة كان: "هل كل شيء على ما يرام؟". انسحبت من حديثهم

الثلاثي للحظات، وأخفضت رأسها نحو الشاشة المضيئة، لتكتب:

"الأمور تسير على أفضل نحو". ختمت جملتها بصورة رمزية لإبهام مرتفع.

***

انتهى اللقاء، ولم يبقَ في المنزل سوى دوروثي وسريزا. ودّعتا دانيال، وراقبته سريزا من خلف الستائر، رأت الصورة الضبابية لجسده يقطع المسافة الفاصلة بين الباب، وسيارته المركونة أمام المنزل. جلس خلف المقود، ثم انطلق فجأة مبتعداً عن المنزل.

ما تزال دوروثي تحت تأثير سحر تلك اللحظة، لكنّ سريزا أعادتها إلى الواقع، وهي تربت على كتفها قائلة: "لدينا ما يكفي من الأطباق، لنسهر على غسلها". استدارتا نحو المائدة، وبدأت دوروثي بحمل ما تستطيع حمله من الأطباق.

قالت دوروثي لسريزا: "يمكنني القيام بهذا وحدي، يكفي ما بذلتِه من جهدٍ اليوم".

"دوروثي لا تكوني سخيفة، نحن معاً في هذا، بل في كل شيء". حملت سريزا بعض الأطباق، وسارت خلف دوروثي إلى المطبخ. وضعت الأطباق في المغسلة، بينما اختفت دوروثي لتحضر ما تبقّى من أطباق.

قالت دوروثي: "كيف وجدتِ دانيال؟" ثم اختفت عيناها بعيداً عن سريزا. كان خجلها حقيقياً، ومطابقاً لما كان عليه حين كان ذلك الغريب في منزلهما.

فتحت سريزا صنبور المياه، وتركت الشلال الصغير ينساب فوق الطبق السيراميكي: "أعتقد بأنه لطيف، ولكن يهمني ما تعتقدينه أنتِ أكثر، أنتِ تعرفينه، وتقابلينه أكثر مما أفعل أنا، أليس كذلك؟"

"أعلم، ولكن أحتاج إلى تقييمكِ".

ابتسمت سريزا بمكر، وقالت: "أخبرتُكِ، إنّه لطيف. هذا هو رأيي الحقيقي. لم أشعر تجاهه بأي غموض أبداً".

هتفت دوروثي: "هذا شعوري تجاهه دائماً".

فكّرت سريزا، في شعور دانيال تجاه ما حدث اليوم، بل الأهم من ذلك هو

شعوره تجاه دوروثي، خافت سريزا من أن تكون خالتها، هي الأكثر اندفاعاً تجاه ذلك الرجل. لا تريد سريزا أن تتخيّل مدى الاستياء الذي سيصيب دوروثي، لو حدث أي ترتيب مغاير لما خطّطت له هي.

خلدتا إلى الفراش بعد انتهاء مهمّة تنظيف المائدة. نامت سريزا، وهي ما تزال تحرّك في ذهنها احتمالات نجاح علاقة دانيال، ودوروثي، وكانت تتمنّى لو أنّ هذه السعادة، تكون بالفعل من نصيب خالتها. تخلّت سريزا كذلك عن شعورها بالأنانية تجاه هذه العلاقة، وكل ما تريده الآن هو راحة دوروثي.

استيقظت وظلمة الليل تضرب نافذتها، وكان الضجيج الذي عكّر نومها بعيداً عنها. تصوّرت جسماً معدنياً يتحرّك، لم تتمكّن من تحديد مصدر الصوت، أو ما الذي يسبب هذا الصوت. تقلّبت في فراشها، وحاولت تجاهل ذبذبات الصوت التي تظهر وتختفي، وكذلك الاهتزازات البعيدة.

دفعها الفضول إلى أن تزيح لحافها، وتنهض من مكانها محاولة تحديد مكان الصوت أكثر، اعتقدت في البداية بأنه آتٍ من الخارج، لكنها كانت تشكُّ في مكان واحد لا يمكن لأي شيء غريب أن يحدث إلا فيه. حجرة جوليان. خرجت من غرفتها، وأعاقها ظلام الممر عن رؤية مقبض الباب وهو يهتّز، كما لو أنّ أحداً ما يحاول كسره من الطرف الآخر.

تردّدت قبل أن تمضي إلى باب الحجرة، لكنها سمعت صوت والدتها ينادي: "سريزا.. لا تخبري أحداً بالحقيقة". فكّرت سريزا في الحقيقة التي يجب عليها أن تخفيها. "حَذّرني من إخبارك، والآن هو يحذّرك.. لا تخبريهم!". استدارت سريزا، وكانت غايتها هي التوجُّه إلى غرفة دوروثي، لكنها ما أن التفتت حتى وجدت جوليان تقف أمامها، وتقطع عليها الطريق إلى حجرة والدتها القديمة حيث تنام دوروثي الآن.

رفعت جوليان رأسها تحت الضوء الرمادي الوحيد في الممر، فرأت سريزا، إنّ عيني شقيقتها غيرُ موجودتين، بل كان مكانها تجويف أسود فارغ. لم تكن جوليان تسير، بل تركت قدمها ترتفع عن الأرض بضعة سنتيميترات، وبدأت تطفو باتجاه شقيقتها.

"ابتعدي عني، أنتِ لستِ حقيقية".

قالت جوليان بصوتها الطبيعي: "لا أريد أكثر من عينين. كان يريد عيناي،

والآن حان دوركِ أنتِ".

عينان؟؟ فكرت جوليا في تلك الإشارة.. العين.. نادي الأرق. سلسلة ترابط الأحداث تصبح أكثر وضوحاً مع مرور الوقت. طفا في ذهن سريزا سؤال أكثر سذاجة، وبساطة من كل ما يحدث لها الآن: هل هذا واقع، أم حلم.

تقدّمت جوليان من شقيقتها أكثر وهي تقول: "إن كنتِ تعتقدين بأنّ النوم هو المهرب الوحيد، فهو منبع الكوابيس أيضاً". أكّدت لها جوليان بأنّ هذا منام، وليس واقعاً.

"سريزا، أخرجيني من هنا.. أخرجيني". قالت والدتها وهي تصرخ مستنجدة من خلف باب حجرة جوليان. كشفت جوليان عن أسنانها، وراحت تضحك بطريقة تشبه الصراخ. لم تكن تلك ضحكة شريرة، أو حتى تعبيراً عن النصر، بل كان الغرض منها ترهيب سريزا.

لمع فتيل صغير في عيني جوليان، وبدأت تتلفت في المكان، وتسأل: "مَن هنا؟" حركت سريزا عينيها في المكان؛ لأنه لا يوجد سواها هي وشقيقتها هنا. لا يوجد أي دخيلٍ آخر على هذا المنام.

"سريزا إنّ هذا كابوساً، وليس حقيقة. أنا معكِ هنا". أتى صوت أنثوي مُطمئناً.

سألت سريزا: "جوليا، أهذه أنتِ؟". ظهرت جوليا في الممر خلف سريزا، ووقفت بجوارها. "أنتِ في أحلامي، لكن كيف؟" من خلف سريزا ظهر ليو. كان الثلاثة يقفون في مواجهة جوليان التي كانت عيناها تشعان بفتيل خافت.

"إنها قدرتي". أجابت جوليا".

تقدمت جوليان بسرعة خاطفة، وقبضت على يد سريزا، وحاولت جرّها، لولا أن ليو جرّ الفتاة من الجهة الأخرى. عَلِقت سريزا بين ذراع ليو، والتي كانت جوليا تسانده وتصرخ في آن واحد، وبين ذراع جوليان التي كانت تحاول الهروب من الظلام نحو سريزا.

صرخت سريزا بسبب الشعور بالحرق الذي كانت ذراع شقيقتها تسببه لها. تقدم ليو باتجاه جوليان محاولاً دفعها بعيداً، لكنه قبل حتى أن يلمسها، صرخت وقفزت بعيداً عنهم، ووقفت في بقعة مضيئة بنور رمادي خافت، كانت

جوليان عالقة ما بين الثلاثة الواقفين أمامها، وبين عتمة الممر.

أصبحوا الآن هم الطرف الأقوى في هذا الكابوس.

قالت جوليان محذّرة ليو بلهجة أشبه بالتهديد: "أيها الميت، ابتعد عني. أنت فارغ.. فارغ". لم يفهم أياً منهم ما قالته جوليان، لكنها اختفت فجأة، وأنهت ذلك الكابوس، وأعادت سريزا إلى الواقع من جديد. نهضت سريزا من فراشها، وهي تشعر بألم في رسغها. أضاءت المصباح الجانبي، ومدّت ذراعها تحت الضوء لترى أثراً أحمر، على شكل ذراع.

كيف فعلت ذلك وهي في ذلك الكابوس. فركت سريزا المكان الذي كان يحرقها، لكن هذا لم يقلل من مقدار الألم. فكّرت في أن من رأتها في الكابوس لم تكن جوليان، وذلك الصوت لم يكن صوت والدتها حتى. هناك من يستخدم مخاوفها ليعيق مهمة النوم. ما كانت تعتقده جوليا، وتحذر نادي الأرق منه صحيح إذاً.

أما ليو وجوليا، هل حقاً كانا في كابوسها؟ كررت سريزا في ذهنها المشهد الأخير، وعاد صوت جوليان يردّد: "أيها الميت". ما معنى ذلك؟ لماذا خافت من ليو؟

أصدر هاتفها صوتَ وصول رسالة. سحبت سريزا هاتفها الموضوع فوق الطاولة الصغيرة، وقرأت كلمات ليو: "هل استيقظتِ؟" فردّت عليه بالإيجاب من خلال رسالة قصيرة تحتوي على كلمة واحدة.

أصدر هاتفها صوتاً آخر: "سأكون عندكِ".

31

طلبت مني جوليا أن نلتقي، لم تكن تقطن بالقرب من الضاحية، ولكنها قريبة من منزل سريزا. حدّدت هي مكان اللقاء، ووافقتُ أنا. كنتُ أخطط أن أصطحب معي سريزا إلى هناك، رغم أنّ الوقت كان قد تأخّر. لم نفكر في مدى غرابة وجودنا معاً في هذه الساعة، فالخطر المحدق بنا حجمه يتضاءل، ولا نستطيع محاربته.

لم يكن ذلك كابوسي، لكن تلك الفتاة نعتتني بالميت، لا أفهم كيف أدركت هذا، تجربة الموت تلك والتي لم أنكر وجودها أبداً، هناك من يؤكّدها. جوليا أيضاً خاضت تجربة الموت، وهي تملك قدرتها الخاصة والتي تمثل لنا الآن طوق النجاة.

وصلت إلى منزل سريزا، وأرسلت إليها رسالة تعلمها بأنها في الأسفل. بعد مرور دقائق قليلة ظهرت هي عبر الباب الأمامي، وهرولت تجاه سيارتي. تحدَّثت بصعوبة وهي تقحم نفسها بالجلوس على المقعد المجاور لي: "سأتجمّد من البرد". وكان الهواء بارداً بالفعل، فالنسمات التي عبرت أثناء دخول سريزا كانت باردة جداً. أغلقت الباب، فعاد الدفء تدريجياً.

"سنلتقي بجوليا". أخبرتُها.

سألتني هي: "الآن؟" لم أُجِبها، بل قدتُ سيارتي متجاوزاً الحي الذي تقطن فيه سريزا. "ليو، هل كان ذلك حقيقياً؟ الكابوس.. هل كنتَ هناك؟"

لم ألتفت إليها، لكنني قلتُ: "أجل، إنها قدرة جوليا، هل تتذكرين؟" رفعت يدها لتريني الأثر الذي تركته شقيقتها على رسغها. ضغطتُ زرّ المصباح العلوي الصغير في السيارة، فرأيتُ الكدمة بوضوح. "حدث هذا في كابوسي أيضاً، وأنقذتني جوليا من الأمر".

"هذا يحدث معها هي، ثم أنتَ، والآن أنا. من التالي؟"

قلتُ لها: "جوليا تعتقد بأنَّ أعضاء النادي كلهم في خطر".

دفعت سريزا خصلات شعرها القصيرة الشعثاء عن وجهها، فظهرت ملامحها الناعسة، والتي تدلُّ على عدم اكتفائها من النوم. "كيف وضعت هي هذا الاحتمال؟ إن ما تقوله جوليا معقول، بل إنها الأذكى والأسرع إدراكاً للأمور

بيننا، لكنني ما زلت أجهل الطريقة التي تصل بها إلى كل تلك الاحتمالات".
أنا أيضاً أجهل الأمر، أُدرك بأنّ قدرة جوليا الغريبة مَكّنتها من الوصول إلى احتمالات عدّة، لكن هناك بعض الأسئلة المتفرقة، تمكّنت هي وحدها من إيجاد الرابط الخفي بينها، لكن الواقع، هو أننا ما نزال جميعاً تحت غيمة الخطر والغموض دون أن نجد أية إجابة. لا أحد يعلم حقيقة ما يحدث، ولا يوجد أي بناء علمي أو منطقي للأحداث، وكلّما اقتربنا من إيجاد الحل، نبتعد عن النهاية، ونقع في فوهة الأسئلة من جديد. أسئلة، أجوبة مفقودة، وهذا الغموض كله يعيدني إلى شعور مشابه لذلك المكان.. المصبح من جديد، والشعور بألم العلاج. في ذلك الوقت كنتُ عالقاً بين الجدران البيضاء أفكّر في احتمالية الموت والبقاء، الفراغ الذي نبقى عالقين فيه. أفكر في الحلول والعقد، وأحاول الوصول في لحظات الراحة إلى جواب حول كل من يضع هذه الخطط. لماذا نحن؟ هل نختار تفاصيل القصة التي نعيشها، أم هي مرسومة ونحن من يقع فيها. هذا هو القدر، وهذا ما يجب علينا أن نتقاطع معه، لكنَّ الحلّ غالباً ما يكون خفياً، ومهمة الخلاص تكمن في البحث عن إجابة لذلك.

لكن أين المخرج عندما تقع في فراغ، لا يمكنكَ إيجاد بدايته؟

وصلنا إلى المقهى الذي حددته جوليا للقاء. كان الإعلان النيوني المعلّق فوقه يومض كل مرة بلون مختلف. وينطفئ تارة ليسحب ضوءه عن الرصيف. رأيتُها تجلس خلف الواجهة الزجاجية، لكنها لم تكن وحدها. أقلقني هذا، كما رأيتُ القلق على وجه سريزا، لكنها لم تمانع في التقدم نحو المكان.

دخلنا إلى المقهى، فنهضت جوليا، ونهض الرجل الغريب الذي تغطي لحيته تعابير وجهه. كان يبدو جديّاً أكثر مما يفترض به، لكنه حيَّانا بود، ولم يُخفِ استغرابه من وجودنا هو أيضاً.

قالت جوليا وهي تشير إليّ: "هذا ليو". ثم حركّت يدها، وأشارت نحو سريزا، وقالت: "وهذه هي سريزا". التفتتْ نحو الرجل الغريب، وقالت: "سريزا، ليو، هذا هو إيفان، إنّه صديقي". لم تظهر معالم الراحة على أيٍّ منا، فتدخّلت جوليا؛ لإصلاح الأمر من جديد.

"ثقوا بي جميعاً". لكنّ كلماتها لم تساعد كثيراً، ولم تصهر الجليد بيننا، وبين ذلك الغريب، الذي كانت نظراته توحي بالحذر مِنّا، لكنه على الأقل يثق

بجوليا، أو هذا ما رأيتُه أنا.

أنا بدوري كنتُ أثق بها، تجربتي معها في إنقاذ سريزا، كانت إثباتٌ أقوى من إنقاذها هي لي. كنتُ سأتبع أفكارها؛ لأنها هي الوحيدة التي أتت بالنتائج المطلوبة حتى الآن. لا أعلم إنْ كانت سريزا في أعماقها تثق بجوليا، حتى بعد أن أنقذتها هي الأخرى من ذلك الكابوس. لم تُظهِر سريزا أي اعتراض، بل كان الامتعاض الوحيد بادٍ على وجه الغريب المرافق لجوليا. جلسنا نحن الأربعة، وكان البرد أشد من أي وقت آخر في هذه الساعة المتقدِّمة من الليل. راقبتُ وجه جوليا كان ينبض حيويةً، رغم أنّها كانت تعاني من الأرق تماماً، أما سريزا فمايزال النعاس قابضاً على ملامحها. التفتتُ إلى الواجهة الزجاجية التي عكست نصف وجهي، فرأيتُ ملامحي ذاتها لم تتغير.

أعادتني صورة وجهي إلى المرآة المعلّقة على الجدار الأبيض في دورة مياه المصح. تذكّرتُ كيف لكمتُها وقبضتُ على الشظايا محاولاً الانتحار في شهري الأول هناك، لولا أنَّ الممرضين أخرجوني من هناك عنوة. نحن نبحث عن النهايات، وغالباً يساندنا الفضول في اكتشاف ما بعد النهاية، تأتي فكرة الموت على أنها آخر المطاف، ونُقدِم على اختيار ذلك معتقدين بأننا سنجد نوعاً من الراحة الأبدية في ذلك. لم أفكر في أنَّ انتحاري سيرمي بي إلى جحيمٍ غير متناهٍ. لكن هذا لا يُطبَّق في كل الحالات، فهناك أشخاص يبحثون عن النهاية، لكنها عندما ترتبط بالموت، يرفضون وجودها. هذا ما تفعله الأوقات السيئة بكَ، إنها ترمي بكَ في منعطف لن ترى من خلاله إلا النهاية، دون الاكتراث لنوع ما قد تؤول إليه حكايتكَ.

"أعتقد بأنّ وجودي في النادي قد صنع رابطاً بيني وبينكم جميعاً. أنا وفيوليت في البداية، ومن ثم كابوس ليو، وبعد ذلك تمكّنتُ من نقل ليو إلى منامك أنتِ. أنتما الأقرب لبعضكما من أعضاء النادي، وهذا الشيء يطاردنا واحد تلو الآخر. حتى الآن لا أعلم من سيكون الشخص القادم، ولكن علينا نحن الثلاث مواجهته". كانت تلك كلمات جوليا التي خرجت بعجالة.

قاطعها الرجل الغريب: "لن تفعلوا ذلك وحدكم، سأكون معكم".

اعترضت جوليا قائلة: "لا، أنتَ من عليه أنْ يبقى على أرض الواقع. ستمثّل لنا الوتد الثابت هنا. إذا ما أصيب أحد بأي مكروه، فلن يصدق أحد حقيقة ما

نعيشه، وأنتَ الوحيد الذي يملك صوتاً حقيقياً. ثم إنني لا أريد إقحامكَ في هذا".

قال إيفان: "كِدتُ أصدق، لولا آخر جزئية مما قلتِه. لن أبقى مكتوفَ الأيدي مكتفياً بمراقبتكِ وأنتِ تواجهين ذلك الشيء".

"لا تتسرّع، لن نقوم بأي شيء حتى الآن". قالت له جوليا فعاد الرجل إلى حالة السكون السابقة. وراحت جوليا تشرح: "تلك التي في الكابوس، ليست شقيقتكِ؛ فالموتى لا يعودون. إنّ هناك من يستخدم مخاوفنا ضدنا. أعتقد أنّ هذه هي قدرة الشيطان في رسم الشر، في البداية يبدأ بهدم حاجز الإيمان، ومن ثم يزرع الخوف، حتى يقفز على أغصانه. إنه يكاد يسلبنا الشمس، ويترك لنا شمساً سوداء، لا نعود قادرين معها على رؤية النور".

سألها ليو: "ما هي الخطة التالية؟" راقبته سريزا، ثم حرّكت رأسها، وراقبت عيني جوليا، مترقّبة إجابة.

قالت جوليا: "في هذه الحكاية العديد من الجوانب. يشبه الأمر قطع الأحجية، ولكل شخص قطعته الخاصة. إيفان يملك قطعته التي تتعلق بجيمي وجريمة القتل، وأنا وأندي نملك صورة من زاوية أخرى".

سألت سريزا: "من هو أندي؟"

"إنه طفل تعرفتُ عليه في البلدة، وهو يرى السيد ثلاثاء، أو يرى جانباً مما نعيشه، ويملك كذلك قدرة فريدة من نوعها لا تقلُّ أهمية عن قدرتي أنا أو فيوليت".

همست سريزا: "وأنا أملك قدرتي كذلك". قالت ذلك وهي تخفي نظراتها عن جوليا، ومن ثم توجهها لي. "ذلك الكائن، كانت لديه مشاعره الخاصة". لم يفهم أيّ مِنّا معنى العبارة، لكنّ وجه جوليا أشرق فجأة.

سألها إيفان: "مشاعر، هل هذا الشيطان.. أو أيّاً يكن، لديه مشاعر؟"

أجابت سريزا: "هذا ما شعرتُ به، كان قوياً في البداية... جوليان كانت قوية، بينما أنا وحدي هناك. لكن عندما ظهر ليو، واقترب منها كان ذلك أعظم خوف شعرت به، ومن شدّة خوفها تمكّنت من الإحساس بشعورها بسهولة، وأنا عادةً لا أتمكّن من تفعيل هذا الأمر بسهولة".

همست جوليا: "أفهم الآن لماذا نعتت جوليان ليو بالميت، وصرخت به ليبتعد. لكن ما معنى أن تناديكَ بالميت يا ليو؟ لماذا خافت منكَ؟ أو خاف منكَ ذلك الكائن؟"

قلت: "لأنني تعرضتُ لتجربة الموت مثلكِ أثناء تعاطيَّ للمخدر". رأيتُ الجزع يظهر على وجه إيفان، فقلتُ هامساً: "قبل أن أتعافى من التعاطي. هل تذكرين تفاصيل قصتي؟".

"أجل أتذكّر، لكنني أيضاً تعرضتُ للموت، ولم تخف جوليان.. أو ذلك الكائن أياً كان مني!".

قلتُ لها: "لقد توقَّف قلبي في تلك الليلة، لم يكن الأمر مجرد حادث اقترب فيه من الموت، بل مُتُّ بطريقة فعلية ثمَّ عدتُ إلى الحياة". شرحتُ لها عن الطريقة التي كانت دمية روزالي تتهرب فيها مني، وعن القط الذي هاجمني. "كانت عينا القط شبيهتان بعيني جوليان في كابوس سريزا".

قال إيفان: "هل هذا الكائن يستطيع أن يسكن الحيوانات أيضاً؟"

قالت سريزا: "لقد سمعتُ بأنّ للشياطين قدرة على ذلك، وبسهولة أكبر من الاستحواذ على جسد البشر. لكن هذا ليس منطقياً، ونحن لسنا قساوسة لنتحدث عن الأمر كما لو أنّ هناك فعلاً شيطاناً يطاردنا".

قالت جوليا: "لا نستطيع إنكار وجود الأشياء لمجرد كوننا أضعف منها، بل علينا التحلّي بما يكفي من قوة لمواجهتها، وإن كانت معركتنا ضدها خاسرة".

أمرَتنا جوليا من جديد: "علينا جمع كل التفاصيل التي نعرفها. كل من يعتقد بأنه يملك قطعة من تلك الأحجية عليه أن يبوح بها لي. لا بدَّ من أن تكتمل الصورة؛ حتى نتمكّن من معرفة ما نواجهه الآن".

32

جلست سريزا على كرسيها المعتاد في النادي يجاورها ليو، وعلى الجانب الآخر كان مارك يجلس، وكان أكثر من بدا عليه الإنهاك في تلك الليلة. كانت الياقة الصوفية المرتفعة أوسع من أن تقبض على عنق سريزا، فارتخت كاشفة عن جزء من عنقها النحيل، أما شعرها القصير فقد طال، حتى كاد يلامس طرف الياقة الصوفي. كانت سريزا تراقب جوليا التي لا تبعد عنها إلا قيد مقعد واحد. حثَّتها جوليا على الحديث من خلال نظرة تشجيعية. سحبت جوليا طرفي معطفها، وغطَّت قميصها الأسود، ثم هزّت رأسها من جديد، حتى تسمح لسريزا بالانطلاق.

"أنا سريزا.. جميعكم تعرفون هذا، وتعرفون تفاصيل قصتي، أو السبب وراء مُصابي. لكن لكل قصة قطع أثقل، يصعب خروجها مع التفاصيل الأولى، ويصعب البوح بها، ليس لأننا لا نثق بالمتلقي، أو بمدى قدرته على التصديق؛ بل لأننا لا نقوى على استرجاع التفاصيل.

لكل قصّة جانباً يخصُّنا وحدنا، نبعده عن الآخرين.

لطالما كانت جوليان مثالاً أرغب في أن تتقدّم سنواتي فأصبح نسخة مطابقة له. لا يهمُّ مدى حجم الهالة الشريرة التي تحيط بها، ولم أرَ يوماً بأنَّ أنانيتها فعل خاطئ إلا عندما كانت تؤذيني، لكنني في ذلك الوقت لم أكن أستطيع إدراك معنى الشر.

لم تكن شقيقتي جوليان تدرك بأنَّ سبلَ المتعة التي كانت تجري خلفها في كل الأيّام الماضية، ستلقي بها في دربٍ آخر لا يشبه ما كانت تطمح إليه. لكن هذا ما يفعله الفضول، وإذا ما انجرَّ خلفه إنسان متناسية ما يخوضه الآن، فإنه سيجد نفسه بعيداً عمّا كان يريده في نهاية المطاف.

لم تكن جوليان تؤمن بالأشباح وبقصصهم، لكنَّ الملل والفضول لمعرفة حقيقة وجودهم جعلاها تجرِّب تخطيّ الحاجز الفاصل بيننا وبين كل تلك الحكايات الهلامية. كانت مهووسة بذلك اللوح الخشبي، وبعد أن كانوا يجربون الأمر مرّة كل أسبوع، أصبحت تكرّر الأمر كل بضعة أيام.

أعادت تجربة الأمر معتقدة بأنه يتيح لها التواصل مع الموتى. وفي أحد الأيام كانت تجلس في حجرتها، وتجرِّب التواصل مع شيء لا أعلم ماهيته.

لكنها كانت تحرّك اللوح، ثم تهمس بالإجابات التي تظهر قائلة: "تمارا؟ هل هذا هو اسمكِ؟".

سكن الثلث الذي يشير إلى الأحرف، وسكنت حركة يد جوليان، قبل أن تسأل: "تمارا هل أنتِ ميتة الآن؟" تحرّك اللوح بينما أنا أراقبها من خلف الباب نصف المفتوح، فجوليان لاتكترث لاكتشافي ما تفعله. "مرض؟". تحرّك السهم دون أنْ أُدرك ماهي الإجابة.

دام الأمر لأكثر من ساعة، مللتُ أنا قبل انتهائها، وتركتُ جوليان وحيدة في حجرتها، بينما عدتُ إلى الطابق الأرضي وحدي. لم تكن والدتي في المنزل في ذلك اليوم، وهذا ما جعل جوليان تتجرَّأ وتُخرِج اللوح غير مكترثة لأمر باب حجرتها. لم أكن أمثّل لها أي تهديد أو خطر. والدتي هي الحاجز الوحيد الرادع لرغبات جوليان، وحتى والدتي لم تكن دائماً قادرة على كبح جماح جوليان.

جلستُ في ذلك المساء أشاهد التلفاز محاولةً قضاء وقتي بأي شيء يكسر هذا الملل. سمعتُ صوت خطوات جوليان تدبُّ على الأرض، فاستدرت على الأريكة باتجاه السلم؛ لأرى ما إذا كانت قادمة إلى هنا أم لا. كان ضوء التلفاز الأبيض ينعكس على الجدار حيث كنتُ أنظر، لكنّه اختفى فجأة؛ لأنّ هناك ظلاً يحجبه، وهذا يعني أنّ هناك ما يقف بيني وبين التلفاز. كان الظلّ واضحاً على الجدار، وهو يخفي جزءاً كبيراً من الضوء الأبيض. إنه خيال امرأة طويلة، وذراعاها طويلتان، لقد كانت تتحرك وكأنها غصن شجرة.

صرخت جوليان فجأة، فقفزتُ من فوق الأريكة، ولم آبه بوجود الظل. اختفى الظلّ، وسكنَ صوت جوليان. لم أملك الجرأة على الصعود إليها، وهي لم تظهر إلا بعد مرور دقائق من السكون. هبطت مهرولة على السلم، وكانت تقول: "إنّها هنا.. إنها هنا".

سألتُها بصوت طفولي: "من هي؟" لم تجبني. سألتُها مجدداً: "تمارا؟"

توقفت عن الحركة، واستدارت نحوي. سارت إليّ بخطى ثقيلة، ثم قبضت على ذراعي بغضب وهي تقول: "هل كُنتِ تراقبينني مجدداً؟ ألم أطلب منكِ التوقف عن فعل ذلك؟". رفعتُ ذراعي بقوة، وعندما شعرتُ بالألم وقفتُ على أطراف أصابعي؛ لأُجاري طريقتها في جذب ذراعي.

"توقفي.. أنتِ تؤلمينني!". أرخت ذراعها لكنها لم تفلتني. كانت تراقبني

بوجهٍ فيه مزيج من الخوف والغضب، حيث كان كلا هذين الشعورين يكمّلان بعضهما في قلب جوليان. لقد أخافتني، كما أنّ العمق الذي في نظرتها تلك أشعرني بأنّه ابتلع جزءاً من روحي.

أفلتت ذراعي، واختفت دون أن أراها في تلك الليلة. انتظرتُ وحدي في المنزل، وعندما عادت والدتي في نهاية اليوم، لم أملك الشجاعة لإخبارها عمّا حدث، ولا عن السر الذي تخفيه جوليان عنها، ولا حتى عن خوف شقيقتي. ما زلتُ أشعر بالندم؛ لأنني لو تحدَّثُ في تلك الليلة، لكان من الممكن أن أنقذ جوليان قبل أن تسوء أحوالها أكثر.

33

في البداية بدأت جوليان تتغيّر بطريقة بطيئة، لكن ما أن اتّضح ذلك، حتى انجرفت هي في تيارٍ سلبها نفسها، وجعلها تبدو كأنها شخص آخر. لقد أصبحت حادّة الطباع وعصبية، كما أصبح مزاجها متقلباً بطريقة مريبة، وفقدت شهيتها، ثم بدأت بالنحول يوماً بعد آخر.

أصبحنا لا نراها كثيراً، أمّا الوقت الذي كانت تقضيه في المنزل، كانت تمضيه وهي جالسة في حجرتها، التي لم تكن تخرج منها إلّا عندما تجبرها والدتي على تناول الطعام معنا. كانت تتناول ما يكفيها كي تبقى على قيد الحياة، ثم تختفي من جديد. لم تنتبه والدتي إلى الأصوات التي كانت تصدرها، بل أنا وحدي كنتُ أسمعها تنتحب أحياناً، وتارة أخرى كانت تضحك في حجرتها. وفي بعض الأحيان أسمعُها تئنُّ بقهر، دون أن أصل إلى معرفة السبب الفعلي لما تفعله.

في إحدى الليالي سمعتُها تبكي بكاءً متواصلاً دون توقّف. هرعتُ إلى أمي، وقلتُ لها: "جوليان تبكي في حجرتها، كما أنّها تتحدث مع الفراغ".

نظرت والدتي إليّ، ولم تصدق ما أقوله، ثم قالت لي: "ما الذي تقصدينه؟ لماذا هي تبكي؟"

"لا أعلمْ، اصعدي إلى غرفتها". فعلت والدتي ذلك، وليس بغاية التأكُّد من الأمر، بل كانت تريد أن تثبت لي أن ما أعتقده أنا غير حقيقي. تبعتُها أنا إلى الطابق العلوي، ولم تمانع هي؛ لأنها تريدني أن أكون موجودة لحظة إنكار الواقع لما قلتُه أنا لها.

وصلنا إلى باب غرفة جوليان، وكانت بالفعل ما تزال تبكي. كادت والدتي أن تدفع الباب، فابتعدت أنا؛ حتى لا تدرك جوليان أنني أنا من وشى بها. اقتحمت والدتي حجرتها، وهي تسألها بنبرة قلقة: "لماذا تبكين يا جوليان؟"

اندفعت جوليان نحو الباب، وقد توقّفت عن البكاء، لكنّ صوتها كان مايزال يرتجف بينما هي تقول: "لا شيء، فقط اتركيني". قاومت والدتي اندفاع جوليان. لكنّ الأخرى كانت أقوى من والدتي، فدفعتها خارجاً، وأغلقت الباب بعنف أمام والدتي.

صرخت والدتي: "ستندمين على هذا يا جوليان". التفتت إليّ وأهدتني أنا معالم الغضب، ثم ذهبت تاركة إياي واقفة في الممر المقابل لحجرة جوليان. سرتُ إلى حجرتي، وجلستُ فيها وحدي محتضنة خوف اللحظات التي مضت. لم تكترث والدتي للسبب الذي جعل جوليان تبكي، ولا لخوفي أنا في تلك اللحظة.

في الليلة التالية سمعتُ نحيب جوليان مرة أخرى، وأنا أمرُّ من أمام باب غرفتها. أخبرتُ والدتي من جديد؛ لأن صوت بكاء شقيقتي كان أعلى في ذلك المساء. في البداية امتنعت والدتي عن التدخل؛ لأنها كانت ما تزال غاضبة من جوليان.

بعد مرور ساعة أخرى اشتدّ بكاء جوليان، فتدخَّلت والدتي أخيراً، وتنازلت عن غضبها. طرقت الباب مرات عديدة، وهي تنادي: "جوليان... ما الأمر؟ هيا افتحي الباب". وعندما عجزت، استعطفت جوليان قائلة: "ما الأمر يا عزيزتي؟ دعيني أساعدكِ".

استسلمت جوليان، وفتحت الباب.

"أمي، إنّها تتحدّث معي". لم تفهم والدتي من هي تلك، لكنني أدركتُ بأنها كانت تقصد تمارا صديقتها الميتة، أو الصديقة الوهمية. "إنها مسكينة، لقد ماتت، وهي تتحدّث معي الآن".

"من هي؟" سألتها أمي. "من التي ماتت؟" سألتها أمي، فشرحت لها جوليان أمر اللوح. راقبت أمي الممر، فجرت جوليان إلى داخل الحجرة، لكيلا أستمع إلى ما يقال. سرتُ إلى جانب الباب، ولم أترك قدمي تحجب الفراغ الموجود تحت الباب حتى لا تكتشف والدتي وجودي.

سمعت جوليان تقول لها: "إنها حقيقية، هي ميتة، وتطلب مني الذهاب لأرى طفلتها".

"لماذا لا تذهب هي؟"

"لأنها ماتت يا أمي. قتلها المرض، وليس بإمكانها ذلك". قالت جوليان، وقد عادت إلى البكاء: "إنها مسكينة، ولا تستطيع فعل أي شيء. يجب أن أساعدها".

"هذا جنون يا جوليان. ما الذي سنقوله لزوجها؟ لعائلتها؟ أو للطفلة؟ هذا إن كانوا حقيقيين. هل سنطرق الباب، ونخبرهم بأنّ شبح والدتهم يرسل إليهم تحياته. كُفّي عن هذا، وتجاهلي الأمر يا جوليان. تجاهليه".

رجعت جوليان والدتي: "دعينا نذهب إلى هناك فقط، ونلقي نظرة من بعيد، ستتأكّدين بأنّ هناك طفلة، دعينا فقط نطمئنُّ أنها بخير".

"وماذا بعد ذلك؟" صرخت والدتي. "هل ستعودين لهذا الشبح، وتخبرينه بأنّ الحياة ما تزال تسير على يرام، وتطلبين منه أن يرقد في سلام. هل سأراقبكِ وأنتِ تدّعين هذا الجنون، وأبقى مكتوفة الأيدي. علينا علاج هذا الأمر، ويجب على ما تفعلينه أن ينتهي".

قالت جوليان: "سينتهي بعد أن نرى الطفلة".

***

لم تعترف لي والدتي بحقيقة وجهتها هي وجوليان. أغضبني الأمر في ذلك الوقت، لكنني لا أستطيع أن ألومها، فرغم قسوتها معي إلا أنها لا تستطيع أن تقحمني في هذا الرعب؛ لأنني كنتُ طفلة في ذلك الوقت. في الواقع لو كنتُ أنا في مكان والدتي لفعلتُ الأمر ذاته.

حين عادت والدتي في المساء بدت عليها الحيرة، جلست طوال ما تبقّى من اليوم على الطاولة الصغيرة في المطبخ. أدركتُ من الخوف الظاهر على وجه أمي، بأنّ ما قالته جوليان كان حقيقياً. كانت شقيقتي أكثر سعادة في ذلك اليوم، وظهرت عليها معالم الراحة، والتي لم نرها منذ وقت طويل.

في المساء، وبينما كانت جوليان في حجرتها، سمعتُ والدتي تتحدث عبر الهاتف وهي تردّد: "نعم.. هذا صحيح، ما قالته الفتاة حقيقي. لا يمكنني تصديق ذلك". بعد لحظات انهارت والدتي، وراحت تبكي وهي جالسة والهاتف في يدها. "لا أعلم ما الذي عليّ أن أفعله. أشعر بالخوف عليها، وأخاف منها كذلك".

تركتُ والدتي، وصعدتُ لأراقب جوليان، لأنَّ وجودها في حجرتها بعدما حدث يدعو للارتياب. ظننتُ بأنّ الأمر سينتهي هنا، لكنها ما تزال على طبعها ذاته. سمعتُها تتحدّث بصوت يشبه الفحيح من خلف الباب: "كانت هي، لقد

كبُرت الآن". ضحكت بعد ذلك بصوت مرتفع.

شعرتُ بالخوف من ذلك، وتراجعتُ مبتعدة عن الباب، وأنا أسمع وقع خطوات جوليان تقترب. فتحت الباب وراقبتني بعينين باردتين. لم تقل أي شيء، بل ظلّت تراقبني، وقد علت وجهها نصف ابتسامة. كان هذا التعبير يظهر على محياها للمرة الأولى.

"كنتُ.. لقد.." تلعثمتُ، وأنا أبحث عن عذر يكتم غضبها قبل أن يولد.

أمرتني بلهجة غاضبة: "ارحلي من هنا". كدتُ أتحرّك لكنني عجزت، فصرخت بصوت امرأة بالغة: "هيا ابتعدي!". جريت إلى غرفتي، وأنا أمسك دموعي من أن تنهمر. لم تكن تلك دموع حزن، بل كانت بسبب الرعب الذي عشتُه.

شعرت بالخذلان؛ لأنني أرى والدتي عاجزة عن إيجاد حلٍّ لهذه المشكلة، وأنا التي اعتقدتُ بأنّ دور الأم يشمل حلَّ كل المشاكل في الحياة. لكن الحقيقة كانت عكس ذلك. الأمور كانت تزداد سوءاً، والأيام القادمة كانت أكثر عتمة من السابق.

34

استيقظتُ من نومي في وقتٍ متأخّر من الليل، وكأنّ هناك صوت احتكاك غريب آتٍ من حجرة جوليان. لم أجد أي تفسير لذلك الصوت، ولم أتخيّل حتّى مصدره، لكنّ الصوت كان قريباً، ممّا جعلني أتخيّلها وهي تخذش الباب بأظافرها. نهضتُ من فراشي، وتوجّهتُ إلى حجرتها. طرقتُ الباب برفق؛ حتى لا تستيقظ أمي، وهمستُ لها من خلف الباب بأن تفتحه لي. تجاهلت جوليان وجودي، ولم تُجِب على ندائي.

"جوليان، ستغضب أمي إنْ استيقظتِ".

صرخت بصوت خشن لا يمكن أن أتخيل أي فتاة أخرى تملك صوت مشابه له: "إبتعدي عني". كدت أسقطت بينما أنا أقفز مبتعدة عن الباب. شعرت بأن قواي خارت، ولم يعد بإمكاني الهروب من تلك البقعة التي قفزت إليها.

خرجت والدتي من حجرتها، وخصلات شعرها تغطي بعض الأجزاء من وجهها. تحرّكت دون وعي منها، وخرجت إلى الممر. راقبتني وأنا أقف خائفة امام باب غرفة جوليان. سألتني بغضب: "ماذا فعلتِ؟" لم أجب على سؤالها، فكرّرته عليّ بصيغة أكثر جدية: "ما الذي تفعلينه هنا؟"

"إنها هي.." قلتُ ذلك، ولم أقوَ على شرح ما يحدث. كان إصبعي يشير إلى باب حجرة جوليان، دون أن أترك أيّ تفسير لما حدث. رأيتُ الغضب يشتعل في عيني والدتي، وخلف باب غرفة جوليان عاد السكون، كأنها لم تكن موجودة هناك.

"عودي إلى غرفتكِ حالاً". انطلقت قدماي، ورحت أجري في الممر، حتى تجاوزت باب غرفتي، دفعتُه خلفي، وارتميتُ على سريري على الفور. اختبأتُ تحت فراشي، وكان هذا الأمان الوحيد الذي أملكه، ورغم كونه سوراً هشاً ومزيفاً من الإحساس بالأمان، إلا أنني لم أكن أملك غيره.

لا أعلم كم مرَّ من الوقت قبل أن أستسلم للنوم مرة أخرى. نمتُ بصعوبة، وأنا أشعر بالجو الخانق تحت اللحاف الذي كان يغطي جسدي كله. لم أشعل أضواء حجرتي، بل كنتُ مكتفية بالظلام الذي من خلاله كنتُ أخفي كل الصور المرعبة. لم يكن النور بالنسبة لي هو ما يمحو المخاوف، بل الظلام هو ما يحجب الرؤية فيخفي كل المفاجآت. وحتى إن كانت مخاوفنا قريبة، أحياناً

يكفينا أن نخدع أنفسنا بتفادي النظر إليها مباشرة.

استيقظتُ من نومي على صوت أشبه بالفحيح. كان هناك ضوء رمادي يتسرّب إلى غرفتي، أزحتُ اللحاف فتحرّكت نسمات باردة على وجنتي المغطاة بالعرق؛ لشدة ما حجبتها باللحاف. راقبتُ الباب الذي ينبعث منه الضوء وأنا أتساءل عن كونه مفتوحاً. كان صوت الهمس غير المفهوم قريباً مني جداً. بحثتُ في الظلام فوجدتُ جوليان تجلس محتضنة أطرافها، وتتّخذ زاوية الغرفة كملجأ لها. كانت تهمس وتراقب الزاوية المقابلة لها. بسطت جوليان سبابتها، وراحت ترسم أشكالاً في الهواء لا أعرف ماهي تحديداً، تارة تبدو لي كأنها ترسم أحرفاً في الهواء، وتارة أخرى يتّخذ الشكل الذي ترسمه وقتاً طويلاً. كانت تهمس بالتزامن مع ما تفعله، بأشياء غريبة لا تنتمي لأية لغة سمعتها من قبل.

سألتها بجزع: "جوليان.. ما الذي تفعلينه هنا؟" فكّرتُ في أمي وغضبها إذا ما حدثت أية مفاجأة جديدة، فهي لا تلوم جوليان على أي شيء؛ لأنها تعتقد بأن شقيقتي تفتقد للعقل الآن، أمّا أنا فكانت تحمّلني مسؤولية كل الأخطاء، حتى تلك التي لا صلّة لي بها.

أدارت جوليان وجهها إليّ، فلمعت عيناها تحت الضوء الرمادي الآتي من الباب. ابتسمت، وكشفت عن مجموعة كبيرة من أسنانها. قهقهت، ثم كتمت ضحكتها بكفيها. وبطريقة غريبة زحفت إلى خارج الغرفة كما لو أنّها لا تملك أقداماً. نهضتُ خلفها وبسرعة كبيرة، اندفعتُ نحو الباب، ودفعتُه لأغلقه خلفها.

***

مرّ الصباح التالي بهدوء تامّ، واعتقدتُ خلال ذلك الوقت أنّ جوليان كانت نائمة. لم تصدر أيّ صوت، ولم أرَها إلّا بعد أن عدتُ من المدرسة حين أجبرتها والدتي على تناول الغداء معنا. جلسنا حول المائدة نحن الثلاثة، وكان هناك مُتّسع لشخص رابع، وكان الكرسي الرابع فارغاً، لكنْ جوليان لم تكفّ عن النظر إليه.

سألتها والدتي: "لماذا لا تشرعين بتناول الطعام؟ ألم يعجبكِ ما أعددتُه؟" كانت نبرة والدتي تخاطبها كما لو أنها طفل صغير، وجوليان كانت تتصرف في

بعض الأحيان على ذلك النحو المثير للأسف. أصدرت جوليان صوتاً غريباً من خلف شفتيها المغلقتين، فبدت وكأنّها تنتحب.

"ما الأمر يا جوليان؟ أخبريني". تجاهلت جوليان والدتي، وراحت تراقب الكرسي الفارغ.

أشارت جوليان باتجاه الكرسي الفارغ، وقالت: "إنها هنا معنا، وهي لا تحبُّ هذا الطعام".

سألتها والدتي بسذاجة، وكأنّها لا تعلم من هو المعني: "من هي التي معنا؟"

قلتُ وأنا أجرُّ أحرف ذلك الاسم من فمي: "إنّها تقصد تـ.. تمارا". التفتت جوليان إليّ، ونظرت إليّ بغضب. لكمت الطاولة بطريقة مفاجئة، فقفزتُ مجفلة، وكذلك فعلت والدتي قبل أن تضمّ يديها إلى صدرهان وتحاول أن تتنفس بقوة أكبر.

نهضت جوليان وتركتنا وحيدتان على المائدة. أنّبتني والدتي: "غبية، ما كان عليكَ ذكر هذا أمامها". ثم نهضتْ هي، وتركتني أمام طبقي أجلسُ وحيدة على الطاولة. لم أتمكّن من تحديد الخطأ فيما حدث. كانت جوليان تتحدَّث عن تمارا، وتخبرنا بأنها هنا، لكن ذكري أنا لاسمها أفسد الأمر!

35

لا أحد يرى سقوطكَ؛ لأنّ هذا أمر داخلي ينتمي للمرء وحده، وهو ليس شعوراً مشتركاً. قد نعتقد بأننا نملك جزءاً حقيقياً يمكن أن نسقط عليه، من دون أن نخاف من الابتعاد عن هذا العالم. لكننا ما أن نقع حتى يصبح العالم مجرد وهم. ندرك حينها بأنّ لكل شخصٍ هبوطه الخاص، وبقعته التي سيقف عليها من جديد. لا تجمعكَ أرض واحدة مع الذين سقطوا، لا يبقى لدينا سوى الإيمان للنهوض من جديد. أمّا عندما تشعر بأنكَ عاجز عن النهوض وتجاوز هذه المرحلة، فضع احتمالاً في أن يكون هذا التأخير مرتبطاً بمحيط الخاص، مهما كنتَ تبحث عن الحلول في داخلكَ، أنتَ تحتاج أحياناً إلى من يتشرَّب هذه الطاقة التي في داخلك، ويفرغكَ منها. في تلك اللحظة قد تدرك بأنكَ بحاجة إلى اكتشاف مشاعر جديدة، أشخاص جدد، تجارب جديدة.

أصبحتُ في تلك المرحلة أكثر انشغالاً بدراستي، ولم تكن المدرسة حقيقة هي ما يستهويني، بل الابتعاد عن الواقع بقدر ما أستطيع، فالمنزل كان يشكل لي كابوساً من نوع آخر، والعالم الخارجي هو أماني. وجدتُ في الرسم مهرباً آخر، وكانت معلمتي في المدرسة هي أوّل من اكتشف ذلك. طلبت مني -دون إدراك منها لأحوالي في المنزل- أن أجتهد أكثر في الرسم، طالما كنتُ أمتلك هذه الموهبة. لكنني لم أعمل على تطوير ذلك، كل ما كنتُ أمكله هو أوراق الدفاتر التي أكتب فروضي عليها، وأقلام الرصاص.

أصبحت والدتي مهملة، لم تهملني وحدي، بل تركت نفسها تتداعى هي الأخرى. كانت جوليان هي كل ما تفكر والدتي فيه، وإنقاذها من تلك الأوهام التي تنهش عقلها كانت مهمة والدتي التي تخوض طريق الحياة من أجلها. لم يعد وجودي في المنزل يشكل أية أهمية لها، بل كنتُ عبئاً آخر لا لزوم له. كنتُ أجاهد لحل فروضي المنزلية وحدي، ولا أخجل عندما يكون ما أفعله خاطئاً؛ لأنني فخورة بالتجربة فقط. لم أحاول تطوير مهارتي في الرسم، ولم أطلب من والدتي مساعدتي؛ لأنها لا تستمع إليّ أبداً.

أدركت المعلمة ما يحدث، فحتى مظهري لم يكن كباقي الفتيات، فوالدتي لم تعد تهتم لذلك؛ ظنّاً منها بأنّ مجهودي وحده كان يكفي. سألتني المعلمة إن كنتُ قد عملتُ بنصيحتها، فأخبرتُها بأنني لم أفعل ولا أستطيع ذلك. وبعد مناقشة حالتي مع باقي المعلمين أدركوا بأنني أعاني من الإهمال في المنزل،

وأنَّ عليهم التأكُّد من ذلك من خلال التواصل مع والدتي.

اتّصلت المدرسة بعد أسبوع من ذلك بوالدتي، وأتت من دون أن يكون لي علم بذلك. أخبرتهم والدتي عن مرض جوليان، وبأنّها هي تعاني في المنزل من أجل إصلاح كل شيء. اعترفت والدتي بفقدانها السيطرة على الأمر. عرضت عليها المعلمة أن تهتمّ هي بموهبتي في الرسم، حتى أتجاوز المرحلة الابتدائية، بينما تبقى مهام البيت هي الجزء المخصَّص لوالدتي.

أخبرتني والدتي بالأمر عندما عدتُ إلى المنزل، ولم تكن تؤنِّبني على ما حدث، فهي تعلم بألّا دخل لي بذلك. كانت تبكي وهي جالسة على الريكة وتقول لي: "أنا آسفة على ما يحدث!". لم أفهم ما تقصده، لكنّها ظلّت تكرِّر أسفها، وهي بعيدة عني.

في المساء ثار جنون جوليان من دون أي سبب، وهدمت كل وعود والدتي بالتغيير ليعيدها ذلك إلى الاستياء من جديد. كانت جوليان تصرخ في غرفتها بطريقة عنيفة، ممّا جعلنا نعتقد بأنّ هناك من حاول اقتحام المنزل. جرينا أنا ووالدتي إلى غرفتها، فرأيناها على الأرض تتلوى كما لوأنها كانت تتألم، لكنها لم تكن كذلك بل كانت تقاوم حركاتها. كانت تتحرّك، وتقاوم ما تقوم به في الوقت ذاته.

قبضت والدتي على جسدها المُلقى على الأرض، فدفعت هي والدتي، ورغم سرعة وخفة حركتها، إلا أنّ والدتي ترنَّحت وسقطت على الأرض. لم أكن أملك الجرأة للاقتراب منها. كان مظهرها غريباً، والغضب بادٍ على وجهها من قبل أن نقترب منها.

صرخت والدتي بصوتٍ واحد لفترة طويلة: "توقفي..!" لكنّ جوليان لم تكن تصغي إليها نهائياً. زحفت والدتي على الأرض، وحاولت أن تجذب جوليان إليها، لكنّ الأخرى دفعتها من جديد، وزحفت مبتعدة عنها.

"اتركوني أقتلها". قالت جوليان تلك العبارة بصوت لم يكن صوتها، ولم أفهم إن كانت تلك تمارا تهدد بقتل جوليان، أم أنَّ ما كان يحدث هو العكس. لطمت جوليان وجنتيها، وراحت تجرُّ شعرها. قبضت والدتي على ذراعها، وحاولت أن تخفضها، لكن جوليان كانت قوية. رفعت ذراعها، وراحت تعضُّ يدها ووالدتي تراقب الأمر بعجز.

لم يكن هناك أي وقت للدموع أو حتى للاستسلام. لم تتوقف والدتي عن محاولاتها في إيقاف جوليان عمّا تقوم به. أحاطت أمي جوليان بذراعيها، وطوَّقتها بشدة حتى عجزت الأخرى عن القيام بأي شيء.

صرخت جوليان بصوتٍ خشن: "ابتعدي عني أيتها الحقيرة.. دعيني أقتلُها، وأتخلَّص منها".

قالت والدتي: "تمارا؟ هل أنتِ تمارا؟" زال الغضب عن وجه جوليان، ولم يعد هناك أيّ تعبير يعتلي ملامحها. هدأت تدريجياً، ثم دخلت في حالة سكون تامّ. ساعدتها والدتي على النهوض، وأخذتها معنا إلى الطابق السفلي، لم تنتبه والدتي لوجودي معهما. احتفظت عيناي بذلك المشهد، وكررتُه في ذهني مراراً. كنتُ متأكدة من أن تلك الفتاة لم تكن جوليان شقيقتي أبداً، بل إنّ جوليان رحلت منذ وقت طويل، وما تبقى هنا هو روح شريرة لا تنتمي إلينا أبداً.

جلست جوليان بجوار والدتي على الأريكة الكبيرة في غرفة المعيشة. استسلمت والدتي أمام الدموع، وتركتها تنهمر بحرية، بينما هي تقبض على ذراع جوليان التي لم يعد لديها من القوى ما يكفيها كي تتحدث حتى. كانت وجنتها حمراء، وذراعها تحمل أثر العضة وبعض الدماء، وشعرها أشعث يحيط برأسها.

"دعيني أساعدكِ يا جوليان". حثَّتها والدتي، لكن جوليان المقصودة بهذه الكلمات لم تكن موجودة، ولم تكن تستمتع حتى لما تقوله أمي. سقطت دمعة أخرى على رداء أمي، وهي ترى هذا العجز يهدم كل ما حاولت أن تبنيه هي. "جوليان". نادتها أمي، لكنَّ الأخرى لم تلتفت حتى إلى والدتي.

تسللتُ بعيداً عنهما، وحاولتُ أن أنسى ما أراه؛ حتى لا يترك تأثيره عليّ في تلك اللحظة، لكنني لم أكن أعلم أنّ هروبي وقلة شجاعتي سيتركان أثراً لا يُمحى في قلبي، وكل الذكريات المتعلّقة بجوليان كانت راسخة في ذهني، ولا تُمحى أبداً.

عدتُ إلى حجرتي، وبقيت وحدي في الظلام من جديد، وكان هذا هو الملاذ الأخير في العالم. لن ينقذني العالم الخارجي، ولا والدتي، ولا حتى جوليان التي رحلت تاركة جسداً لا روح فيه.

***

"سريزا". ناداني الصوت؛ ليعيدني من النوم إلى الواقع. هزّتني أصابع أحدهم، وشعرتُ بها تدفع كتفي بقوة. "سريزا". ناداني ذاتُ الصوت هامساً هذه المرة، ففتحتُ عيني لأواجه ظلام حجرتي. شعرتُ بأنفاس أحدهم خلفي، وبحرارة جسد قريب مني. سمعتُ صوت حركة الشخص الجالس خلفي، قبل أن أشعر بها. "هيا انهضي". أمرني الصوت. فاستدرتُ ببطء لأواجه ابتسامة جوليان، وهي تجلس على طرف سريري.

"لماذا ما تزالين مستيقظة؟" سألتُها فضحكت دون اكتراث لارتفاع صوت ضحكتها في هذه الساعة، بينما لمحتُ والدتي نائمة. أدارت جسدها من جديد نحوي، وظلّت تراقبني صامتة، فسألتُها: "ماذا هناك؟"

"لا يجب أنْ ننام يا سريزا؛ فالنوم يعطيهم مساحة أكبر. إنهم ينافسوننا على الواقع؛ لأن الحصول عليه صعب، لكنّ النوم يعطيهم القوة، لذلك لا يجب أن ننام". كنتُ خائفة من ملامحها ومن صوتها، وكل حركة تقوم بها كانت تخيفني. أردتُ أن أنادي والدتي وأستنجد بها، لكنّ هذه لحظة نادرة، لا تتكرّر دائماً حيث تتخاطب جوليان معنا.

رحلت جوليان تاركة إياي وحدي من جديد. أكملتُ نومي بصعوبة قبل أن أستيقظ مرة أخرى في الصباح. أعدَّت والدتي لي رقائق الذرة كفطور قبل أن أذهب إلى المدرسة، وأثناء تناولي الطعام، اعترفتُ لها: "أنا أخاف من جوليان. إنّها لا تتركني أنام، وتفعل أشياء مخيفة دائماً".

لم تتصوّر والدتي بأنّ لحظة السأم هذه قادمة، ولكنّها أتت الآن: "لا تقولي هذا. إن شقيقتكِ ليست على ما يرام، وأنتِ أكثر من عليه أن يدعمها. إننا عائلتها لا يمكننا أن نتخلّى عنها". لم أطلب أن نتخلّى عنها، ولم أعرف كيف عليّ ترجمة هذا لوالدتي. إنّني أعترف لها بخوفي فقط. ظهر اليأس على وجهي، ولم يكن هذا ما توقَّعته، استسلمت والدتي حين رأت تعابير وجهي، ثم قالت: "أنا أخاف كذلك، لكن لا شيء يمكنني القيام به".

تركتني والدتي من جديد لنفسي، وما كان عليّ إلّا الاعتياد على الأمر؛ لأنه لا مخرج من هذا المأزق سوى بالتعايش معه.

36

طلبت والدتي من أحد القساوسة التدخُّل في الأمر أخيراً، وهي التي لم تكن يوماً متديِّنة، أو حتى تؤمن بهذه الأمور الغيبية. لكنّ والدتي في تلك الأيام كانت يائسة، وتريد أيّ طوق نجاة تتعلّق به حتى لا تغرق نهائياً، وتترك كل شيء خلفها، بما في ذلك عائلتها الصغيرة. اصطحبتني في عصر أحد الأيام معها إلى الكنيسة؛ لأنّها كانت نادراً ما تتركني في المنزل وحدي مع جوليان. لم تكن أمي تشعر بالقلق حيال إبقاء جوليان وحدها في المنزل؛ لأن جوليان كانت لا تظهر معظم الوقت، وأغلب ساعات يومها كانت تقضيها نائمة.

وصلنا إلى الكنيسة، وفي تلك الساعة كانت خالية، وكان هناك من دلّ أمي على الشخص المقصود. دخلنا إلى هناك من بابٍ جانبي حتى نقابل القس. ألقت أمي عليه التحية باحترام، وهو كان مستعداً لاستقبال قصتها المُثقلَة بالسواد.

"إنها ابنتي يا أبتِ، لم تعد كما هي، إنها ليست على ما يرام". قالت والدتي ذلك بلهجة الرجاء. نظر هو إلى عينيّ المترقبتين، ثم ابتسم قبل أن يعرض عليّ الخروج واللعب في الباحة. قالت له والدتي: "إنّها تعرف كل شيء، بل هي ترى عاقبة ما يحدث كل يوم. مسكينة هذه الطفلة، إنها أكثر من يعاني ويخاف بسبب ما يحدث".

"مهلاً.. مهلاً". أشار بيده لوالدتي، ثم قال لها: "اشرحي لي الأمر بهدوء".

"إنها ابنتي الكبرى، تدعى جوليان. لا أعلم كيف حدث الأمر وماهي بدايته، لكنها تغيّرت فجأة مدَّعية بأنها ترى روح امرأة ماتت أثر مرض ما، وتلك المرأة تدعى تمارا. طلبت مني ذات يوم أن أصطحبها لترى ابنة تمارا، وبالفعل كانت التفاصيل التي تقولها حقيقية، ووعدتني بأنّ تمارا سترحل بعد ذلك، لكنها لم ترحل أبداً، بل إن الأمر ازداد سوءاً".

تدخلتُ أنا فجأة وقلتُ: "أنا أعرف كيف بدأ الأمر. إنّه ذلك اللوح الخشبي". شرعتُ أشرح لهم قصة تلقيها للوح، وطقوسه التي كانت تجريها.

علّقت والدتي: "لماذا لم تخبريني بالأمر منذ ذلك الحين".

قاطعها الأب: "ما حدث قد حدث، وهذا هو القدر لا يغيّره أحد. لا أعتقد بأنّ هناك من يرى أرواح الموتى؛ لأنها تجاور الله، ولا تبقى هنا. وما يُقال ليس إلّا خرافات. قد يكون ذلك مجرد شيطان يريد العبث بعقلها، مختلقاً قصّة تمارا تلك، أو أنه يتقمَّص دورها". سأل القس والدتي: "هل يمكنكم إحضارها إلى هنا".

أجابت أمي: "لا، إنها لا تخرج من المنزل. حتى الطعام نحن نجبرها على تناوله".

بعد تفكير قصير قال الأب: "سأزوركم أنا إذاً. أتركوا عنوانكم لي، وسآتيكم غداً".

عندما عُدنا إلى المنزل، لم نجد جوليان في أي مكان، كانت حجرتها مفتوحة، وما تبقّى من ضوء الشمس كشف لنا فراشها الخالي. بحثتُ مع والدتي في كل أرجاء المنزل، ولم نجدها. كادت والدتي أن تنهار وهي تؤنّب ذاتها على ما فعلته. بحثت مراراً في المنزل، وكانت تنادي باسمها بصوت غاضب، لكن جوليان لم تظهر.

أمرتني والدتي: "ابقي هنا، سأخرج وأبحث عنها في الحي، أما أنتِ فابقي هنا، ولا تخرجي أبداً". فعلتُ ما طلبته مني، وراقبتُها بينما هي تخرج من الباب الأمامي، وقد ابتعد ظلها عن النوافذ. جلستُ وحدي في انتظار عودتها ومعها جوليان، ومرّت الدقائق في البداية بطيئة.

سمعتُ صوتَ أنفاس حادّة آتياً من خلفي، استدرتُ فرأيتُ جوليان تقف خلفي، كان حاجز الأريكة يحجب عني رؤية نصف جسدها. قالت وهي تمعن النظر فيّ: "أعلم ما فعلتموه أنتِ وهي". لم أتجاوب معها، لأنّني كنتُ أترقّب المفاجأة.

اقتربت جوليان وهي تقول: "سأقتلكِ أنتِ؛ حتى تتعلّم هي ألّا تتدخل في شؤوني، لماذا لا يمكنكما تركي وحدي؟ ما أطلبه ليس كثيراً". تقدمت بضع خطوات مني. نهضتُ بسرعة من فوق الأريكة، ابتعدتُ عنها. تساءلت عن وقت عودة والدتي، ولوهلة اعتراني اليأس؛ لأنها لم تخرج منذ وقت طويل.

تجاوزت جوليان الأريكة وهي تقول: "أيتها الفأرة الصغيرة سأخنقكِ بيدي. لن تتخلصوا مني أبداً". درتُ حول طاولة القهوة، وكذلك فعلت هي، والغضب

واضح على وجهها. انتهزتُ فرصة ركودها، وجريت نحو السلم متجهة إلى حجرتي.

دفعتُ الباب لأغلقه لكنها تصدَّت للأمر، ودفعتُه بعكس الاتجاه. كانت تصرخ من دون أن تقول أي شيء على وجه التحديد. كانت أقوى مني بكثير، ولم أتمكَّن أنا من إغلاق الباب، لذلك ابتعدتُ وتركتُ الباب يندفع بمقدار قوتها هي. سقطت جوليان على الأرض، فقفزتُ فوق جسدها باتجاه الباب من جديد. كادت أن تقبض على قدمي لولا أنني كنتُ سريعة. رأيتُ ذراعها تقبض على الهواء، وقدمي تتفاداها.

جريتُ إلى الطابق السفلي من جديد، وفتحتُ باب المنزل، وخرجتُ إلى الشارع الخالي. كانت الشمس تغرب وتهدي لوناً أحمر داكناً للسماء. لم أرَ والدتي في أيٍّ من جانبي الشارع، ولم تتبعني جوليان إلى الخارج. بقيتُ وحدي وقدمي تمتص برودة الرصيف، وبعد أن شعرتُ بالتعب، جلستُ على المصطبة الأمامية بانتظار عودة والدتي.

ظهرت والدتي في نهاية الطريق، وعندما رأتني أقف في الخارج، بدأت تجري نحوي. سألتني عن سبب وقوفي هناك، فأجبتُ: "جوليان في الأعلى، قالت بأنها تعرف ما فعلناه، وبأنها ستقتلني".

"هل عادت؟"

قلتُ لها: "لم تخرج من المنزل".

"هل أخبرتِها عن زيارتنا للكنيسة؟"

"لا يا أمي لم أخبرها، هي قالت لي بأنها تعرف ما قمنا به، دون أن تحدد ماهو الأمر، وبعد ذلك بدأت تتبعني وهي تهدد بقتلي". تجاوزت أمي ما قلتُه، وكأنّ لا أهمية لذلك، ولا حتى لشعوري بالخوف. دخلتُ إلى المنزل، وتركتني أقفُ في الخارج. سمعتُها من خلف الباب تنادي جوليان.

تبعتُها إلى الداخل، وسمعتُ صوتها في الطابق العلوي، فتبعتُها إلى هناك. اختفت جوليان من جديد، فراحت والدتي تناديها مراراً. أخبرتُها أنني تركتها في غرفتي أنا. فبحثتْ عنها في حجرتي ولم تجدها.

وقفنا هناك أنا وأمي عاجزتين أمام ما يحدث. لكنّ جوليان خرجت من تحت

سريري زحفاً، واتّجهت نحونا أنا وأمي. دفعتني أمي خلفها، ووقفت هي أمام جوليان التي كانت تبتسم بمكر.

قالت لها جوليان: "أنتِ هنا. هل تبحثين عني؟ لماذا تبحثين عني، وغايتكِ الحقيقية هي التخلص منيِ؟ هل تكرهانن إلى هذا الحد؟"

قالت أمي بغضب: "لأنني أريد ابنتي".

"لن أتركها لكما، بل سأقتلها، أو أقتلكما أنتما". راحت جوليان تشدُّ خصلات شعرها. تلوت وهي على الأرض، وبدأت تصرخ بغضب. "أمي ساعديني. خلصيني من هذا!". في تلك اللحظة عاد صوت جوليان الحقيقي، بل عادت هيئتها للظهور على ذلك الوجه.

حاولت أمي أن تقبض عليها، لكنها صفعت أمي بقوة، ومن ثم قفزت عليها. صاحت بي أمي: "أحضري لي حبلاً. هيا يا سريزا". خرجتُ من الغرفة تاركة أمي تحت رحمة جوليان، وقصدتُ المخزن لأجد حبلاً لوالدتي بأسرع وقت.

37

سأل ماركوس موجهاً السؤال لسريزا تحديداً: "وماذا حدث في اليوم التالي؟ هل زاركم القس؟"

"أجل، لقد أتى في اليوم التالي، ولم تكن والدتي قد ذاقت من النوم إلا لحظات قليلة. كنّا عالقتين مع جوليان وغضبها الثائر. أبقتها والدتي مقيّدة، وحاولت أن تقسو على نفسها حتى تبقيها كذلك. كانت الحقيقة التي تجبرها على أن تبقي جوليان مقيّدة، هي أنّ الفتاة التي أمامها ليست جوليان ابنتها.

أتى القس وطلب أن يقابل جوليان فوراً، وتحدث معها، لكنها لم تستجب، وعندما تلا عليها صلاته ثارت من جديد، وحاولت التخلص من قيودها. عاد القس لوالدتي، وأخبرها أن هذا بالفعل شيطان يحاول الاستحواذ على جوليان.

"سأغيب حتى المساء، وأعود من جديد، وسنرى ما الذي يمكننا فعله". هذا ما قاله القس قبل أن يغادر منزلنا، ويعود في المساء ومعه حقيبته. طلب مني أن أتركهم، وألّا يبقى معه إلا والدتي لتسانده، وكان في فرقته راهبة واحدة تسانده في مهمته.

رحل في المساء، ولم تجدِ زيارته أيّ نفع، لكن والدتي قالت لي بأنه سيعود غداً، وكلّ يوم لو تطلب الأمر. أمّا جوليان المسجونة في حجرتها فكانت ترفض تناول الطعام، وكلما قدِّمت لها والدتي الطعام، كانت تلقي عليها الشتائم، وعندما تتركها والدتي كانت تصرخ من دون توقف، حتى تنفد طاقتها.

عاد القس في اليوم التالي، وعلى مدار اليوم كان يحاول تخليص جوليان من ذلك الشيطان على حد ما قال هو. لم أصدقه، لكنّه نجح في نهاية الأمر. أنقذ جوليان، دون أن أرى كيف حدث هذا، ولم تخبرني والدتي بالتفاصيل أبداً. شُفيت جوليان مما كانت به، وعادت الأمور بعد مرور أيام إلى نصابها القديم. عادت الحياة لتدبُّ في روح والدتي تدريجياً، وكانت جوليان تتصرف بطريقة طبيعية".

سألها ماركوس من جديد: "إذاً عالجتم الأمر أخيراً؟"

أكملت سريزا الجزء الأخير من قصتها قائلة: "لكن شفاءها لم يدم. بعد مرور سبعة أعوام عادت فيها الحياة إلى صورتها الطبيعية، استسلمت جوليان

لأفكارها من جديد، ولستُ متأكدة إن كان ذلك الكيان قد عاد إليها أم لا. لكنها كانت تنعزل، واستمرّ هذا الأمر لأيام قليلة بعد أن قضت سبعة أعوام طبيعية تماماً. وفي إحدى الليالي ومن دون مقدمات انتحرت جوليان في حمام حجرتها، تاركة رسالة، تخبرنا فيها بأنه عاد".

سألها ماثيو: "من هو الذي عاد؟ هل كانت تقصد ذلك الشيطان؟"

أجابت سريزا: "لا نعلم. لكنَّ هذا ما كرَّرته والدتي قبل أن تموت. قالت بأنه عاد، ولا يريدها أن تخبرني بالأمر، وهي الأخرى انتحرت بعد يوم واحد من إخبارها لي بالحقيقة، وفي منامي طلبت مني ألّا أتحدّث بالأمر، لكنني الآن أخبركم به، ولستُ خائفة".

فكّرت جوليا بوجود الرابط الذي يجمع قصتها بالنادي، لكنّها لم تجد أي شيء، سوى وجود ذلك الكيان الشرير، والذي كان يشبه ما يطاردهم، لم تكن الفكرة في تكرار الأمر بالنسبة لها، إنما بوجود ظلٍّ خفيٍّ يحاول التسبب لهم بالضرر. لكنّ الربط بين جانب سريزا وجانبهم لم يكن منطقياً.

سألها ماركوس: "وأنتِ يا سريزا، هل تعرضتِ لأي شيء في الفترة الأخيرة؟"

قالت هي: "بعد رحيل والدتي، كنتُ أشكُّ بأنّ هناك بعض الأمور الغريبة تحاول اقتحام حياتي، لكنها ليس شبيهة بما عاشته جوليان، أو والدتي. في الحقيقة أنا لا أعلم ما الذي عانت منه والدتي؛ لأنها كانت على ما يرام حين انتقلت إلى دار الرعاية بإرادتها".

حاول ماركوس تحليل جوانب قصة سريزا كلها، وكان هذا ما يفعله مع كل حكاية يسمعها، كان الجميع يصغي إلى تفاصيل حكايتها، ما عدا جوليا التي كانت بعيدة ترسم تحليلات خاصة بها. كان ليو يولي اهتمامه التامّ لسريزا، لكنه ما أن لاحظَ شرود جوليا حتّى اشتعل فضوله لمعرفة ما كانت تفكر به.

38

علق مفتاح باب شقة ماثيو في القفل، حاول دفعه مرات عديدة قبل أن يفتح الباب، وأول ما تبادر إلى مسمعه هو صوت الموسيقى. لم يكن ماثيو مهملاً إلى الحد الذي يجعله يترك دارة الكهرباء شغّالة في شقته وهو خارج. كانت الساعة قد تقدَّمت إلى وقت لم تعد فيه الحركة واضحة في الحي. كان الهدوء يعمّ المكان، والجو البارد يمنع المتشردين من السير في الطرقات العارية.

اقتحمهم ماثيو المكان فأصبح الصوت أكثر وضوحاً. كانت تلك هي الأغنية ذاتها.. أغنية يوم الثلاثاء. ازدادت سرعة نبضات قلبه، واتّجه فوراً إلى المذياع ليقطع الطاقة عنه، لكنَّ ما أذهله هو أنّ الجهاز لم يكن موصولاً بالكهرباء. دفع ماثيو الجهاز بقوة، وتركه يقع على الأرض. راح يركل الجهاز بقوة، قبل أن تتلاشى طاقته، ويجلس في النهاية على الأرض بجوار الشظايا التي لفضها المذياع.

همس لنفسه: "ليس مجدداً، لا يجب أن يحدث هذا". كان هناك من سيموت، لكنه لم يعرف، وهو الآن لم يعد لديه أي شخص مقرّب حتى يقلق بشأنه. بزغت من قلب العتمة صورة فيوليت في ذهنه، فأخرج هاتفه وطلب رقم هاتفها.

رنين، ثم صمت.. يعود الرنين، ولكن لا مجيب. انتظر حتى انتهت مهلة الاتّصال. ثم أفلتَ الهاتف، وراحت أطرافه كلها ترتجف من القلق. التقط هاتفه من جديد، وطلب رقم جوليا؛ لأنها بمثابة القائد الآن، أكثر حتى مما كان عليه ماركوس صاحب النادي.

استمع إلى الرنين القصير قبل أن تجيب جوليا، قال لها قبل أن يسمع صوتها: "جوليا، إنّها الأغنية من جديد، هذا ليس التحذير الأول".

إنتهزت جوليا فرصة التقاط ماثيو لأنفاسه، قالت له: "تمهَّلْ، لا تقلق سيكون كل شيء على ما يرام".

***

لم تشعر فيوليت أبداً بالضيق من سكنها الصغير الذي كانت تتشاركه مع ماري، لكن في تلك الليلة الباردة، كان الوضع مختلفاً. ساور الفتاة شعور بأن

هناك عشرات الأشخاص في المنزل، وبأنّ برودة الطقس في شقتها أشد مما هي عليه في الخارج. كانت نافذة غرفتها مفتوحة والستائر ترفرف، كما بدت عليه في منامها الذي رأت فيه ماري.

شعرت فيوليت بالقلق، وباتت أكثر يقيناً من أن هناك دخيلاً في المكان، لكنها لا تراه، ولا تستطيع حتى سماع أيّ صوت صادرٍ عنه؛ لتحدد مكانه. سارت إلى النافذة بحذر، وأطلّت إلى الخارج؛ حتى تتأكّد ممن قام بفتحها، لكنها لم ترَ شيئاً يدلُّها على ذلك. لم تشعر حتى بالظل الذي ينتصف الغرفة، ويراقبها بعينين مشتعلتين بفتيل صغير. أغلقت النافذة، وعزت الأمر إلى خلل في قفل النافذة. ما أن ثبّتت النافذة حتى رأت انعكاس الضوء المنبعث من العين التي كانت تراقبها. صرخت، واستدارت في آن واحد، لكنها لم ترَ أيّ شيء.

أولت فيوليت ظهرها للنافذة وابتعدت عنها، لكن النافذة فُتِحت من جديد وببطء، تاركةً الهواء يتسرب ويلامس ظهر فيوليت. لم تملك الفتاة الجرأة للعودة إلى هناك وإغلاق النافذة. بل إنّها كانت بحاجة إلى الهرب من هنا. سمعت صوت ماري تهمهم، لكنه كان بعيداً. تلك الهمهمة كانت غريبة تشبه غناء الحوريات، تنبعث من كل زوايا المنزل.

نادت فيوليت: "ماري، أهذه أنتِ؟" لكن الأخرى لم تتوقّف عن الغناء. أدركت فيوليت بأنّ بقاءها هنا لن يأتي عليها بأي نفع، وكل ما عليه فعله هو الخروج. سارت إلى باب شقتها الصغيرة، وحاولت فتحه، لكن المقبض كان شديد البرودة، ولم تتمكن فيوليت من جرّه أو حتى تحريكه.

ضربت الباب براحة كفها مرات عديدة، وكانت تستنجد بأي أحد، لكنها لم تحصل على إجابة بعد. ظهر الظل من جديد وهو يتجاوز باب حجرتها. كان يقترب منها بعينين كبيرتين فارغتين تشكلان الرأس كله، وفي قلب كل عين فتيل بعيد جداً.

صرخت فيوليت: "النجدة". ارتجف صوتها أكثر وهي تنادي: "ليساعدني أحد". ثبّتت قدمها على الجدار، وقامت بهزّ المقبض بقوة حتى انفتح الباب أخيراً. جَرَت فيوليت على سُلّم المبنى العريض، التوت ساقها فتدحرجت على السُّلّم مرات عديدة، لكنّها حاولت النهوض والسير على ساقها التي كانت

تؤلمها.

ظهر الظل في نهاية السلم وكان ينخفض ليتبعها. جاهدت كي تصل إلى الطابق الأرضي، وما أن اقتربت من العتبات الأخيرة، حتى سلّمت جسدها للجاذبية، وتركته يهوي على حتى تصل إلى نهاية السلم. لم تعد فيوليت قادرة على سماع أي شيء، أو حتى على تحريك جسدها. كل ما كانت قادرة على فعله، هو أن ترى صورة السقف البعيد، وهو غير واضح في عتمة المبنى.

ظهر وجه أمامها ليحجب عنها رؤية السقف. ناداها الرجل: "فيوليت". ابتسمت وهي تتعرف على ملامح ماثيو. قبضَ هو على جسدها، فشعرت بالألم أثناء محاولته رفعها عن الأرض. "لا تستسلمي، سأخرجكِ من هنا".

***

لم يخطر في بال جوليا، أن تطلب المساعدة إلّا من شخص واحد، وكان هو أسرع من سيلبي نداءها. رفعت هاتفها وطلبت هاتف إيفان. تكرّر الرنين ثلاث مرات متتالية، قبل أن يجيب هو بصوتٍ كسول: "ما الأمر يا جوليا؟". شعرت جوليا بالذنب؛ لأنها تسرقه من وقت راحته، وهي تدرك بأنّ إيفان ليس الشخص الذي يدلّل نفسه بساعات نومٍ كافية، أو بطعام مُشبِع حتى. كرّر إيفان اسمها بنبرة السؤال: "جوليا؟"

"هل أيقظتكَ؟ أنا آسفة لهذا!".

قال لها فوراً: "لا تعتذري لهذا. هل حدث أي شيء جديد؟"

قالت له: "لستُ متأكّدة، ولكن أشعر بأنَّ هناك خطراً ما قادم. تحدّثتُ مع ماثيو، وأخبرني بأنّ تلك الأغنية ترسل تحذيرها له من جديد. لا أعلم ما الذي يحدث تحديداً، لكنني أشعر بوجود الخطر كذلك".

قال هو بصوته الناعس: "لا تقلقي، سأكون عندكِ قريباً". سمعت جوليا صوت حركة لحافه، ونهوضه قبل أن يُغلق الخط. عاد إليها الشعور بالذنب تجاه إيفان، لم يكن عليها أن تُقحِمه في هذا، لكنها لا تشعر بالأمان مع أعضاء النادي، بقدر ما تشعر به مع إيفان؛ فهو أكثر شخص يمكنها الاتّكال عليه.

انتظرت إيفان في شرفة منزلها، وما أن وصل حتى نهضت هي لتستقبله. لم

تكن قلقة من اجتماعها به في مثل هذه الساعة، كان ما يقلقها هو ما حدث مع ماثيو. قال لها قبل أن يصل: "الجو بارد، لماذا تنتظرين هنا؟"

"لم أنتبه لبرودة الجو في الواقع". كانت مُحقّة فأفكارها كانت تأخذها بعيداً عن الواقع. دعته جوليا إلى داخل المنزل، وطلبت منه الانتظار في غرفة المعيشة ريثما تعدُّ له القهوة. لم تكن غرفة المعيشة مُضاءَة إلا بواسطة مصباح صغير جانبي يعطي جواً كئيباً على المكان.

تركت جوليا الماء يغلي، وأخرجت الفنجانين اللذين سيشربان بهما القهوة، لكنها بدلاً من تثبيتهما على الطاولة فقد أسقطتهما أرضاً؛ لأنها فقدت توازنها؛ بسبب الأصوات التي تسرّبت إلى ذهنها. تحطَّمَ الفنجانان، وهرع إيفان إلى المطبخ؛ حتى يتأكّد من أن جوليا بخير.

"ما الأمر؟ جوليا، اجلسي هيا". جذبها لتجلس على الكرسي الخشبي المجاور لطاولة المطبخ. تحرّكت بالتوافق مع حركات إيفان؛ لأنها لم تكن موجودة معه، بل كانت تتبع ذلك الصوت الذي يسرقها إلى بقعة أخرى. أصوات صراخ، رياح، وأمواج بحر قوية. رأت السماء الحمراء من جديد، والمنارة كانت تبعث بضوء قوي إلى السماء. على اليابسة المحيطة بالمنارة القديمة كان هناك شخص يسير، لكنّ جوليا تراه من بعيد، وكان بُعد المسافة يجعل ذلك الشخص صغير الحجم.

رأت جوليا ظلّ الرجل يتقدّم من المنارة، ثم يتجاوز مدخل المنارة المفتوح. عادت إلى الواقع لتجد إيفان يحيط بكتفيها، ويهزها حتى تفيق من هذه النوبة. شهقت جوليا وهي ترى إيفان أمامها، لم تعرف كيف يمكنها تفسير ما رأته، لكنّها قالت دون أن ترتب أفكارها: "مارك.. المنارة".

39

يستغرق مارك في وصوله إلى المنزل وقتاً أطول من باقي أعضاء النادي. أصبح يرتاد نادي الأرض بسيارته الخاصة، رغم كونها قديمة الطراز بعض الشيء، لكنّها كانت تفي بالغرض. فيما سبق كانت جوليا تتكفّل بهذه المهمة، وكانت هي أقرب أعضاء النادي إليه. أما الآن فمارك لا يرغب في أن يشكّلَ عبئاً ثقيلاً يُفرَض كالواجب عليها، هي، لذلك قرّر أن يرتاد النادي بسيارته الخاصة.

تخلّت الشرطة منذ وقت طويل عن قضيته، ولم يعد هناك من يسانده في مهمة البحث عن زوجته، فحتى صديقه غاف أصبح أكثر حياديّة مع تحذيرات زوجته، وقرروا الابتعاد عن هذا الجنون الذي ينشره مارك في كل مكان. لم يكن مارك يكترث لتلك التغييرات. زاره أولاده في بداية المشكلة، وحاولوا إيجاد حلٍّ مناسب، لكنهم بعد مرور أشهر قليلة سئموا من البحث عن والدتهم؛ إذ لم تظهر أية نتيجة حول ذلك حتى الآن، ولأنّ هناك مهامّ تنتظرهم في بقاع بعيدة عن هذه البلدة الميِّتة. سافر أبناء مارك من جديد، وتركوه وحده، وكان نادي الأرق هو المخرج الوحيد من كل تلك الوحدة.

عندما عاد إلى منزله في تلك الليلة، جلس إلى المائدة، وسمح للوقت أن يمضي حتى تجاوز موعد نومه بكثير. هناك مراحل من الاستغناء، تصبح فيها رفاهية الوقت مجرد حمل زائد، لا يعود يتهمُّ الإنسان أثناءها إلى أي اتجاه تشير العقارب، ولا يفلح خلالها التقيد بالمواعيد في تغيير أي شيء. كل ما يستطيع المرء فعله هو الاكتفاء بذاته، والتعايش مع هذا الملل الموجود في داخله.

جلس مارك ولم يحاول كسر الهدوء، بل ترك ضربات عقارب الساعة الكبيرة تقوم بذلك. من خلف ستائر نافذته ومضَ ضوء باهت يعرفه مارك تمام المعرفة، إنه كشّاف المنارة. يتذكّر مارك بأنّ ضوء المنارة لم يعد يعمل منذ وقت طويل، وحين أخبرهم بأنه كان يراه قبل اختفاء كارلا، لم يصدقه أحد؛ لأن جميع أهل البلدة شَهِدوا بأن ضوء المنارة لا يعمل.

نهض وسار إلى النافذة، أزاح الستارة فرأى المنارة تومض تحت السماء الصافية. ابتسم لأنها موجودة وواضحة، وليس كما كان يظنّ حين اختفت

كارلا. اعتقد مارك بأن تلك إشارة من زوجته تخبره عبرها بأنها قريبة منه، وكان محقّاً في ذلك نوعاً ما.

سمع صوت رنين الهاتف خلفه، فتحرّك بضع خطوات وصولاً إليه، رفع السماعة وألصقها بأذنه تاركاً البرودة تقرص جانب وجهه، ثم سمع الصمت الآتي من الطرف الآخر. كسر صوت كارلا الصمت: "مارك، هل تسمعني؟"

"أجل، إنني هنا يا كارلا". كان يتوقّع هذا، ويعلم بأنّها ستعود. لا يقاسي إنسان عقاباً بطيئاً أشدّ من الانتظار. وها هو هذا التعذيب الذي عاشه بعد رحيل كارلا ينتهي.

"تعالَ إلى هنا. كُن معي دائماً". قالت بصوت وديع.

سألتها: "في المنارة؟ هل أنتِ هناك؟" أصدرت هي صوتاً من خلف شفتيها المغلقتين تؤكّد فيه وجودها هناك. طرح مارك السماعة بالقرب من الهاتف دون أن يغلقها، وسار نحو باب منزله. ترك الباب مفتوحاً خلفه، ومشى باتجاه المنارة.

***

"هل أنتِ متأكّدة من الطريق؟" سأل إيفان الذي كان يقود السيارة.

أجابت جوليا: "لقد أوصلتُه بنفسي إلى هنا مرّات عدّة". أخبرها مارك بأنّ هذا المكان هو ذاته حيث وقعت جريمة قتل جيرمي، لم يكن الطفل يقطن هنا، لكن جثته وُجِدت في هذه المنارة. "هذا رابط آخر يقوّي ما أقوله، أو أحاول اكتشافه".

دلّت جوليا إيفان على موقع منزل مارك، وحين وصلا ترجّلت من السيارة، وقبل حتى أن يتسنى لإيفان فكّ حزام الأمان. هرعت نحو الباب المفتوح، ثم استدارت وصاحت: "باب المنزل مفتوح". أراد أن ينهاها عن الدخول إلى هناك، لكنه لم يستطع؛ لأنها اختفت في ظلام المنزل.

تبعها إيفان إلى الداخل، وسمع صوتها وهي تنادي: "مارك؟ هذه أنا، جوليا... هل أنت هنا؟" بحثت عنه في أرجاء منزله المكوّن من طابق واحد، لكنها لم تجده.

"لنخرج من هنا". أصرّ إيفان على خرجوهما من المنزل، فتبعته جوليا دون

اعتراض.

وقفت جوليا بجوار سيارة إيفان قبل أن تهتف: "المنارة". طرأت هذه الفكرة في ذهنها فجأة، ورغم عدم اقتناع إيفان بما كانت تقوم به إلا أنه سايرها في الأمر، واصطحبها بسيارته إلى المنارة.

رأوا باب المنارة القديمة مفتوحاً، وهذا ما زاد القلق في قلب جوليا، واليقين لدى إيفان. ترك إيفان محرك سيارته يعمل، وترجل ليجاري سرعة جوليا في حركتها إلى هنا. كانت المنارة خالية، ورائحة الرطوبة، والصدأ تنبعث منها. لم يجدا أي أثر لمارك، وهنا خاب ظنُّ جوليا في قدرتها التي أتت بها إلى هنا.

قال إيفان: "لا شيء، لا يوجد أيٌّ ممّا اعتقدتِه يا جوليا". لكن جوليا لم تتجاوب مع ذلك التأنيب، بل كان رأسها موجَّهاً إلى الأعلى دون أية إشارة. أدرك إيفان بأنّ هناك خطباً ما في الأعلى، فرفع رأسه ونظر في ذات الزاوية. كانت هناك كتلة سوداء يغطيها الظلّ، تتأرجح وهي مقيدة بالسلم الحلزوني.

"لقد شنق نفسه". همست جوليا وهي ترفع يده نحو جسد مارك، الذي يتدلّى من الحبل في حلقة السلم الرابعة. كان جسده مايزال يتأرجح في نطاق ضيق، مما يعني بأنه لم يقم بهذا منذ وقت طويل.

40

استيقظت فيوليت في الغرفة، فكان أول ما استقبلته عيناها، هو شبح الأخت صوفيا. أغمضت عينيها مراراً، واستلمت للوحدة التي كانت تشعر بها، قبل حتى أن تفكّر في أي مكان هي الآن. التفتت مجدداً، فرأت وجه الأخت صوفيا يبتسم بحنان لها.

"هل أنا في المستشفى؟" هزّت الأخت صوفيا رأسها إيجاباً. "أين هو ماثيو؟"

أجابت الأخت صوفيا: "أصدقاؤكِ كلهم في الخارج". فكّرت فيوليت" مَن هم أصدقاؤها؟ لا أحد يعلم بوجودها هنا سوى إيفان، لكنْ كيف علمت صوفي بالأمر أيضاً. فكّرت فيوليت في أن مارك أخبر كل من تعرفهم هي بالأمر. لكن لا يبدو لفيوليت بأنّ صوفيا تدرك حقيقة ما حدث لها.

"هل تشعرين بأي ألم؟" سألتها الأخت صوفيا.

"نعم، جسدي كله يؤلمني".

"سأطلب من الطبيب أن يعطيكِ بعض المسكنات، لكن لا تقلقي أنتِ بخير، كل ما تشعرين به هو بسبب الرضوض القليلة التي في جسدكِ، ولحسن الحظ لا توجد أي كسور كما يقول الطبيب". شعرت فيوليت بالامتنان لنفسها؛ لأنها تخلّصت من ذلك الشبح دون أن تصاب بأذى بالغ. راقبت الأخت صوفيا فيوليت بنظرة دافئة، شكّت فيوليت في أنها كانت ستتلقّاها من أمها الحقيقية. لم تكن صوفيا قد بلغت من العمر ما يكفي حتى تعيش دور الأم فهي ما تزال شابة وصغيرة السن على ذلك، لكنها كانت تملك من العاطفة ما يكفي لاحتواء فيوليت.

"سأنادي أصدقاءكِ". قالت صوفيا ذلك، لكنها قبل أن تنهض منعتها فيوليت.

"أنتِ كل أصدقائي، بل كلّ شيء أملكه. أنتِ.. ماري، كان هذا عالمي، وما تبقّى من عالمي الآن هو أنتِ. لم تكوني يوماً مضطرة لأن تؤدي هذا الدور". صمتت فيوليت، واكتفت من تحديقها في سقف الغرفة، فجعلت عينيها تواجهان عيني صوفيا الغارقة في دهشتها. "لكنكِ ما تزالين تؤدين دور

الأم، دون ملل حتى".

قال الأخرى وهي تقبض على كفّ فيوليت: "لأنكِ أيضاً كل ما أملك". لمعت عينا فيوليت بسبب الدموع التي غطتهما. وكذلك حدث مع صوفيا التي تركت دموعها تهبط دون اكتراث بالأمر. "لن أشعر بالملل يوماً؛ لأنني معكِ، ولن يأتي يوم أكون فيه على قيد الحياة وقد تخليتُ عنكِ. الرابط الذي بيننا لا يقلُّ عن رابط الأمومة بشيء، أنتِ هي ابنتي، ومهما واجهت إنكاراً للأمر فلن أشعر بغير ذلك".

خرجت الأخت صوفيا من الغرفة، وبعد أقل من دقيقة واحدة، دخل الغرفة شاب توقعت فيوليت أن يكون ماثيو، لكنه لم يكن هو، بل كان ليو، وبجواره كانت سريزا تسير. سألتها سريزا: "ما الذي حدث؟ حتى ماثيو لا يعرف حقيقة ما حدث، لكنّه بطل الشهر لإنقاذكِ".

"لا أعلم ما الذي حدث تحديداً، لكن في شقتي رأيتُ شيئاً غريباً، كاد ذلك الـ.. لا أعرف ماهو، أن يقتلني. هربتُ من المكان، وفي اللحظة الأخيرة ظهر ماثيو لينقذني مما حدث".

قال ليو: "يقول إنها تلك الأغنية، الإشارة تتجدّد، وكان يعتقد بأن المقصود بتلك الإشارة هو أنتِ. لكن في الواقع كانت تلك الإشارة حقيقية، والموت أتى". لكزته سريزا، وهمست له: "ليس الآن".

"ما الذي حدث؟" سألت فيوليت. لكن لم يجبها أيّ منهما. كررت السؤال بلهجة أكثر صرامة.

قالت سريزا: "إنه مارك.. لقد انتحر. وجدته جوليا في المنارة بعد أن شنق نفسه".

***

لم تلاحظ كاميلا التغيير الذي طرأ على ابنتها فجأة، بل استغرق الأمر مرور أيام قليلة، حتى لاحظت أن ليديا لا تخرج من المنزل إلا في وقت الدراسة، وأنها كذلك قد فقدت الروح التي كانت تدفعها لخوض الحياة دائماً. بالكاد تجلس معهم، ولا تأكل إلا القليل، وعيناها كانتا تبوحان بالكثير. أدركت كاميلا بأنّ هناك خطباً ما في حياة ابنتها، وليديا بدورها أرادت الاعتراف

لوالدتها بكل شيء، لكنّها شكّت في أن والدتها ستصدق أي شيء ممّا ستقوله هي.

مرّت علاقة ليديا بفتور تجاه والدتها، وهي الآن تعلم بأنها لم تبادر يوماً للقبض على كفّ والدتها وتأكيد وجودها. كانت والدتها وحيدة دائماً من دون زوجها، ومن دون ليديا كذلك. لكن الفتاة تشعر الآن بأنّها استيقظت على واقع غريب، وبدأت ترى كيف تبدو الحياة في منزلهم دون أي تزييف. راقبت ليديا والدتها وهي تأكل بهدوء، أمّا مكان والدها فقد كان فارغاً هذا الصباح، فكّرت حينها بأنّ هذه هي الفرصة المناسبة للبوح بما شعرت به، لكنّ الكسل واللامبالاة المرسومين على وجه والدتها كبحا هذا الاندفاع.

نهضت والدتها عن الطاولة، وعبرت أمام ضوء النهار المنبعث من النوافذ الطويلة في غرفة الطعام، ثم اختفت دون أن تبوح بأية كلمة لليديا. ظلّت الفتاة وحيدة أمام طبقها نصف الممتلئ. تلاشت رغبتها في تناول الطعام تماماً. لكنّ ليديا لم تقوَ على النهوض فوراً، بل تركت يديها مرتخيتين على الطاولة، وظهرها منحنياً إلى الأمام، بينما كانت عيناها تراقبان الجدار العريض أمامها.

في تلك الأثناء، عادت كاميلا إلى غرفتها في الطابق العلوي، واستغلت عدم وجود فيكتور لتخرج الكتاب الذي يخص والده وتعاود القراءة فيه. كانت الشعارات المرسومة في الكتاب كثيرة، ولم تدرِ كاميلا أيُّها يمثل الطائفة التي اكتشفت هي وجودها.

رأت شعاراً كبيراً يشبه ذلك المطبوع على الغلاف، وهو عبارة عن حلقة تتوسّطها نقطة كبيرة، وتحيط بها مثلثات صغيرة، لتشكل ما يشبه الشمس، وفي قلبها عين. كما كُتِب بخطٍ غير واضح أسفل الصورة: عين الشمس

ازدادت حيرة كاميلا تجاه الأمر، هل هم ما يطلق عليهم الشمس السوداء؟، أم هم عين الشمس؟ لم يعجبها أن تتخذ دور المحقق، ولا تملك الطاقة الكافية لتخوض في تاريخٍ لا جذور له، لكنّ الملل كان يجعلها تفعل ما لم تفكر به يوماً، وبداية ذلك كانت في نادي الأرق حين قررت تشكيل ذلك المكان مع ماركوس صديقها.

بعد وقت طويل قضته كاميلا مع الكتاب اكتشفت بأن هذا الكتاب يسرد تاريخ طائفة، ولكن بصورة عامة من دون التدخُّل في تفاصيل ما كانوا يقومون

به. الهدف الأساسي من وجود هذه الطائفة كما كان مذكوراً في الكتاب، هو محاربة الجانب الآخر والمعتم من العالم.

حتى تكسر مرآة العالم السوداء

هذه العبارة كانت تؤكد النظرية التي قامت عليها هذه الطائفة، لكن لا يوجد تاريخ يحدد ولادة هذه الطائفة، ولا حتى هوية من شكَّلها، إلا أنها عاصرت أزماناً كثيراً، وكان لها مهام متوالية على امتداد القرنين الأخيرين. وكل العمليات موثقة برسوم، وتواريخ أحياناً، والعمليات الأخيرة وُثِّقت بصور، لكنّ الكتاب لا يضمّ أية عمليات جديدة بعد نصف القرن العشرين. أي أنه لم يقم أحد بتأريخ الأحداث التي تلت الحرب العالمية الثانية. لكنّ كاميلا ليست متأكدة ما إذا كانت تلك الطائفة قد انتهت، أم أنها ما تزال موجودة. لكن طالما أنَّ والد فيكتور يملك علامات على وجودها، فقد يكون هو عضواً فيها، أو على الأقل فإنَّ تلك الأشياء تؤكّد استمرار وجودهم.

تختلف عمليات تلك المجموعة الغريبة من طرد شيطان تلبس ببعض الأشخاص، إلى اكتشاف أوكار للشياطين، وأماكن قديمة كانت تُعتبر معبراً لهم إلى الواقع الذي نعيش فيه. لم تصدِّق كاميلا تلك التراَّهات، ولو كانت في نادي الأرض قد رأت العجب، فهذا لا يربط أي شيء في الحقيقة.

41

سأل الشرطي: "هل هذا كل ما حدث؟"

ترددت جوليا قبل أن تفكر في تأكيد كذبتها، لكنها أجابت في نهاية المطاف: "نعم. كررت الأمر كثيراً. أنا ومارك صديقان، وفي ذلك اليوم لم أشعر بأنه على ما يرام، بدا لي مختلفاً وأكثر يأساً، كان يتكلم عن كارلا زوجته كما لو أنه سيقابلها. في البداية لم أعتقد بأنه كان يقصد هذه الطريقة.. لم أعلم بأنه ينوي الانتحار، لكنه ما أن رحت حتى بدأتُ أسترجع الحوار وطريقة التعابير، وبعض التلميحات المبطنة في كلامه، أدركت بأنه ينوي فعل أمراً ما. اتصلتُ بإيفان صديقي، وطلبتُ منه أن يكون معي؛ لأنه شرطي، ويمكنني أن أشعر بقوة أكبر بوجوده". كان إيفان يقف بين جوليا وبين المحقق الذي كان يوجّه الأسئلة إليها، وحين ذكرت جوليا جملتها الأخيرة، شعر هو بالفخر، وتناسى أنها كانت تكذب.

سألها الشرطي مرة أخرى: "تعبتِه إلى المنزل، أم المنارة؟"

"لم أعلم بأنه هناك.. في المنارة أقصد".

"لكنكِ وجدته هناك في النهاية".

تدخل إيفان قائلاً: "ذهبنا إلى منزله، وعندما وجدنا الباب مفتوحاً والمنزل فارغاً، طلبت مني جوليا أن نبحث في المنارة؛ لأنه كان دائماً ما يتحدّث عنها ويذكر أشياء غريبة تتعلق بها".

سأل الشرطي عاقداً حاجبيه: "أشياء؟"

بررت جوليا: "إنه يتلقّى العلاج في مصح نفسي، لأنّ اختفاء زوجته أثرَّ عليه بطريقة ما". ختمت جوليا كل الأجوبة، ولم يعد لدى المحقق أي سؤال، شكرها على صبرها، وأذِن لها بالرحيل. عبرت جوليا مكتب المحقق، وكان ضوء الفجر قد انعكس على زجاج مركز الشرطة باعثاً لوناً قاتماً كئيباً. عبرت جوليا الباب الرئيسي، وخرجت تسير باتجاه الطريق، في تلك الأثناء خرج إيفان وتَبِعها بخطوات سريعة: "إلى أين ستذهبين الآن؟"

"سأعود إلى منزلي" أجاب جوليا على سؤاله والإنهاء واضح في كلماتها.

"سأُقِلكِ إلى هناك بسيارتي. انتظريني" فعلت جوليا. بينما اختفى إيفان، وعاد للظهور عبر الشارع بسيارته. جلست جوليا بجواره، وأغلقت باب المركبة؛ لتحتمي من برودة الجو.

"ما زلت غير قادرة على تصديق ما حدث. أشعر بأنّ هذا حلماً سأفيق منه الآن. تخطّى الأمر مرحلة الخطر التي كنتُ أتصوَّرها وأحذِّركم منها. هذا الشيء يتحرّك فعلياً الآن".

قال إيفان: "أو قد يكون مارك هو من استسلم".

"لأنه ضعيف. كان ضعيفاً من الداخل، ولا يبوح بما يشعر به، لقد ظلّ صامتاً طوال الوقت، ورغم أنّه معنا، لكنّ روحه لم تكن كذلك". أجهشت جوليا في البكاء بطريقة مفاجئة. "كان صديقي الأقرب من بينهم، ولا يمكن أن أتخيّل كرسيه فارغاً بعد الآن. هو من عرّفني على ذلك النادي، والآن هو يستسلم".

أوقف إيفان سيارته على جانب الطريق، وحاول أن يبحث عن كلمات يواسي بها جوليا، ولكن قبل أن يبوح بأي شيء رنّ هاتف جوليا مُظهِراً اسم ليو على الشاشة. أجابت جوليا فوراً، وبعد صمت قصير التفتت نحو إيفان، وقالت: "لقد تعرّضت فيوليت لحادث في شقّتها. إنها في المستشفى الآن".

***

بدأت الشمس بالغروب، وكانت تبعث بشعاع رقيق، على نافذة غرفة فيوليت في المستشفى. ما تزال الأخت صوفي موجودة، لكنها كانت تخرج من الغرفة كلّما احتشد أصدقاء فيوليت حولها. لم تكن صوفيا تعرفهم، لكنها لم تشك في هويتهم، أوفي طريقة معرفة فيوليت بهم، ولو علمت لكانت منعتهم من الوجود.

في الغرفة أحاط ليو وسريزا بجانب واحد من السرير، أما في الجانب الآخر كانت جوليا تقف بمفردها. كانوا جميعهم يعلمون بما حدث مع مارك؛ لأن جوليا أخبرت ليو والذي بدوره نقل الخبر لهم جميعاً، من لم يسمع بالأخبار الجديدة حتى الآن، كان ماركوس، وكاميلا.

تضاءل عدد أعضاء النادي إلى الثمانية الآن، ولم يكن العدد يعني لجوليا أي

شيء، ما يعنيها هو رحيل مارك، والطريقة الغريبة التي أدركت بها ما سيقوم به.

سألتها فيوليت: "كيف حدث ذلك؟"

"إنها قدرتي". أجابت جوليا مختصرة كل التفاصيل التي تلت إشارة قدرتها.

قالت فيوليت: "لقد فقدتُ أثره أنا أيضاً، وشعرتُ بزواله. يحزنني ألّا أجده في هذا العالم". كانت فيوليت تعني قدرتها، وهي الآن لا تستطيع تحديد مكان مارك؛ لأنه رحل عن هذا العالم ببساطة.

علّقت سريزا: "هذا يعني أن دافع الانتحار هذا لم يكن نابعاً منه هو؛ بل إنّ هناك ما دفعه إلى فعل ذلك".

فسرّت جوليا الأمر قائلة: "بل لقد كان مارك ضعيفاً، ولكنّ هناك من كان يلعب على أوتار ضعفه، فحاول الإيقاع به، ونجح في نهاية الأمر".

42

تركتُ سريزا وجوليا برفقة فيوليت في الغرفة. خرجتُ دون أن يعلم أحدهم أين هي وجهتي التالية. لم أخطط للابتعاد عن المستشفى؛ لأن مقصدتي هو الطابق العلوي. كانت تريزا ما تزال ترقد في حجرتها الجديدة، ولم يتغيّر مكان وجودها الأخير.

سألتُ عن الممرضة التي كانت تساعدني دائماً في الدخول، وعندما وجدتُها أخبرتني بأنّ الأمر صعب الآن. رجوتُها: "لتكُن هذه المرة الأخيرة". تمهّلتُ وطرأت في بالي فكرة أخرى قبل أن أقول لها: "صديقتها ترقد هنا في المستشفى، وهي مريضة أيضاً، وتودُّ لو أنها تراها". كنتُ أعني ما قلتُه حين قلتُ بأنّ هذه المرة ستكون الأخيرة. فكّرتُ في استغلال وضع فيوليت للوصول إلى تريزا، ولكن كيف سأتفادى سريزا في هذا كله؟

قالت الممرضة: "هذا مستحيل!... شخصان؟ لا يمكن أن أفعل ذلك. لا يمكنني أن أُدخِلكَ أنتَ وحدك حتى. أنتَ تدرك خطورة الأمر بعد ما حدث في آخر مرة دخلتَ فيها إلى هناك". كانت الممرضة تتحدّث بلكنة جديّة.

قلتُ: "إنها صديقتها. أعِدُكِ بأننا سنزورها لآخر مرة".

"من أجل صديقتها فقط". فكّرتُ في أنّه لم يتبقَّ أمامي سوى إقناع فيوليت في الأمر. تركتُ الممرضة وطلبت منها أن تعطيني بعض الوقت، وسأعود إليها في وقت لاحق قبل أن تنتهي ورديتها. عدتُ إلى حجرة فيوليت، ولحسن الحظّ، لم أجد جوليا وسريزا هناك.

سألتُ فيوليت وهي نصف مستلقية على فراشها، وتحاول النهوض: "أين الفتيات؟"

"ذهبن إلى كافتيريا المستشفى".

قلتُ لها بصوت مليء بالخوف: "أحتاج أمراً ما". عقدت فيوليت حاجبيها متسائلة عن حاجتي. "تريز ترقد هنا، وأخبرتُ الممرضة بأنكِ صديقتها وتودين رؤيتها".

سألتني فيوليت: "تريز؟ هل هي تلك.. أعني صديقتكَ القديمة؟"

"أجل". قلتُ. "إنها هنا في الطابق العلوي، وفكّرت في أنّ قدرتكَ قد تساعدني في الحصول على جواب حول حالتها تلك. هل يمكنكِ ذلك؟" ساد صمت محيّر بيني وبينها. استغرقتُ في التفكير قبل أن توافق.

سألتني: "الآن؟ أستطيع النهوض". لم أكن أريد أن أبدي وقاحة، لكنني لم أعترض على محاولتها النهوض بل ساعدتها على ذلك. خرجنا من غرفتها، وكانت تملك من النشاط ما يجعلها تسير كما لو أنها لم تُصب بأي أذى. ظهرت بعض الكدمات حول رقبتها، والتي لم تكن واضحة بينما كانت هي مستلقية.

التفتت فيوليت إليّ لأدلها على الطريق، فأشرتُ لها نحو المصعد. سرنا إلى هناك. ضغطتُ على الزر، وبينما أنا أنتظر وصوله، قلتُ لفيوليت: "آسف لإقحامك في هذا!".

قالت لي: "لا عليكَ، ثم إننا أصدقاء. لكنْ لا تخبر سريزا في الأمر؛ لأنني أعتقد بأنها معجبة بكِ، وسيضايقها أن تعلم بأنّ ما يحدث بينكما مجرد احتمال".

قلتُ محاولاً الدفاع عن نفسي: "لن أخبرها بكل تأكيد". وصل المصعد ودخلنا إليه. أكملتُ ما قلته: "ثم إنني لا أفعل هذا بداعي الحنين التام، إنما بدافع الفضول؛ لأنّ شعوري بالذنب مايزال موجوداً". كان الكذب يشوب كلامي، لكنني لم أكن متأكداً. هل أخون تريز الآن، أم أنني أتهرّب من مشاعر إعجابي بسريزا عبر العودة إلى تريز؟

أدخلتنا الممرضة إلى حجرة فيوليت، وقالت: "دقيقتان، ولا يوجد ثانية إضافية". شكرتها فيوليت بامتنان بالغ حتى تتقن دور الصديقة، وتقنع الممرضة فيه. كانت فيوليت ترى تريز للمرة الأولى، ولم تُبدِ على وجهها سوى تعبير الأسف على حال تريز. أما أنا فأصابني الذهول، وشعرتُ كما لو أنني أراها للمرة الأولى في حياتي. كان هذا الشعور يتجدّد كلما فكّرت بها، أو حاولت الوصول إليها.

"مسكينة، ما تزال هذه الفتاة شابة. من المؤسف أن تنقضي إيامها وهي هكذا!". آلمتني كلمات فيوليت، ولم تدرك هي تأثير ما قالته عليّ، لكنني لم أعلق على الأمر.

سألتها: "هل ستستطيعين فعل ذلك معها".

أجابت: "لا أعلم. في الواقع إنّها هنا، كيف سأحدّد مكان وجودها بينما هي أمامي، وهذا ما تراه عيناي، ويخبرني المنطق به". أخبرتُها بأن جسدها هنا، لكنها ليست موجودة.

قالت فيوليت: "دعني أحاول، لكنني لا أعدكَ بشيء". لم أُعلّق؛ حتى نستثمر ما تبقّى من الوقت.

راقبت فيوليت تريز بتمعّن، قبل أن تغلق عينيها، وتسحب نفساً طويلاً. رأيتُها تحاول البقاء ساكنة، لكنها كانت تتحرّك في مكانها كلما سحبت الهواء إلى رئتها. عقدت فيوليت حاجبيها، كأنها ترى شيئاً خلف جفنها المغلق. طالت الثواني قبل أن تفتح عينيها شاهقة.

سألتها: "ما الأمر؟ ما الذي حدث؟"

"إنها.. إنها". اختنقت الكلمات في فمها، استنشقت نفساً آخر، قبل أن تقول: "ليست هنا، وليست بعيدة. كل ما رأيتُه هو الظلام. يحيط بها الظلام والعديد من الصور.. أعتقد بأنها ذكريات". لم أفهم ما قالته لي، ولم أتمكّن من تحديد سؤالي القادم، لكنها أكملت: "صور تظهر وتختفي، وظلام يبتلعها. رأيتُ صورتكَ أنتَ أيضاً.. أعتقد بأنها ما تزال عالقة في اللحظة الأخيرة، عندما كنتما تتعاطيان المخدر".

"لا يمكنني وضع صورة خيالية لما تقولينه". قلتُ لها.

"لأنّ ما أقوله شيء لا يمكن شرحه. إنه أمر مخيف، لكنني أعتقد بأنها تتعايش مع هذا الرعب الداخلي الذي علقت فيه. لكن بكل تأكيد هي ليست قريبة من هذا المكان، حيث نقف أنا وأنت وجسدها يستلقي أمامنا".

43

هطل المطر بطريقة مفاجئة رغم أنّ الغيوم أنذرت بذلك. غيّرت كاميلا طاولتها، وانتقلت إلى داخل المقهى برفقة ماركوس. جلسا على طاولة قريبة من الشارع، مما لم يمنع الضوء الفضي الداكن من الوصول إليهما. أنار الضوء الضيل في عصر ذلك اليوم، وجه كاميلا، بينما كان مراكوس يجلس مترقّباً ما ستقوله.

قالت هي ما أن اتّخذتُ وضعية الجلوس المناسبة: "هل تعتقد بأن المسؤولية تزداد تجاه النادي؟"

سألها: "نادي الأرق؟"

"لا، نادي الفروسية. كم نادي نرتاد يا ماركوس؟ بالطبع أعني نادي الأرق. الوضع هناك يزداد خطورة وغرابة. إنّ الجنون يصيبنا جميعاً، وأشعر بأنّ هذا الهراء الذي يقولونه، حقيقي".

"بعضه يوحي بأنه حقيقي، والبعض الآخر، لا أشعر بأنه كذلك". أخبرته كاميلا عن كل الاكتشافات التي وجدتُها في مكتبة والد فيكتور، وبعضها كان يشير إلى قصص الأعضاء، والبعض الآخر كان بعيداً كل البعد عنها، لكنها حتى الآن لا تؤمن بحقيقة ما وصلت إليه.

"أنا كذلك لا أشعر بأن هذه الأمور حقيقية. ليكن ما توصلتِ إليه سرّاً، ولاتطلعي أعضاء النادي عليه حتى لا تزداد الأمور سوءاً إن أردتِ رأيي، ويمكننا أن نحاول إبعادهم عن كل تلك القصص المرعبة التي بدأنا بها، وفتحنا المجال لسردها في النادي".

قالت كاميلا: "ماذا سيكون غرض النادي إذاً؟ تشارك القصص يقلّل من حجم غرابتها، والبوح بها يقرّبها من الواقع. لا يمكنكَ دفن حكايات الآخرين لمجرد كونها غريبة. كل لسان يحتاج إلى أن يروي حكايته طالما أصبح وزنها ثقيلاً على قلب صاحبها".

سألها ماركوس بيأس: "ما الذي تريدين الوصول إليه إذاً؟"

"دعنا ندرس ما توصّلنا إليه، ونحاول ربطه بالقصص كما فعلت جوليا، وفي النهاية يمكن أن نثبت أنّ ما يحدث غير حقيقي أو من الممكن أن يصل بنا إلى

تفسير منطقي. قصص الأشباح هذه لا يمكنني الاقتناع بها".

تحرّك ماركوس في كرسيه محاولاً الإشارة إلى النادل، ثم سألها: "وما الذي توصّلتِ إليه في تلك المكتبة؟"

"تلك الطائفة الغريبة أعتقد بأنها تدعى عين الشمس، وهي تحارب الشر كما يدعون، وأشعر بأنّ لها ارتباطاً بحياتي بطريقة ما".

"لماذا لا يكون الأمر مجرد خيال شخص هاوٍ، يجمع التفاصيل الضائعة في التاريخ؟ هذا ما كان يفعله والد زوجكِ". عقد ماركوس يديه أمام كاميلا، وانتظر منها أن تتقبّل تفسيره.

اعترضت هي قائلة: "إحساسي يخبرني بعكس ذلك. أشعرُ بأنّ والد فيكتور يعرف أكثر مما تبوح به هذه الكتب. تقول الطائفة بأنها تربط أعضاءها عن طريق الدم، وهذا الرابط يبقى موجوداً في سلالة كل من يرتبط بهم، وهذا يشير إلى فيكتور وابنتي، إذا ما كان ظنّي صحيحاً، ووالد زوجي كان عضواً في تلك الحركة السرّية".

"وماذا إن كانت كلها حكايات شكّلها أشخاص مجانين؟".

ردت كاميلا: "حينها سأتراجع عن اكتشاف الأمر يا ماركوس. منذ أن وجدتُ الكتاب، وظروف عائلتي تزداد سوءاً. ابنتي ليست على ما يرام، ولا أشعرها بأنني اكتشفت ذلك، حتى لا أثبتَ لنفسي حقيقة الأمر. لكن هناك خطبٌ ما بالفعل، حياتي ليست كما هي الآن".

***

لم تفهم ليديا سبب كل التغييرات التي طرأت على حياتها، لكنها باتت تشعر بالخوف طوال الوقت، وكان هذا الشعور يؤذيها أكثر مما كان عليه الأمر في البداية. لا تستطيع الخلود إلى النوم بسهولة، وحين تنام لا يطول بها الزمن حتى تجد نفسها مستيقظة، والشعور بالقلق يساورها.

في ذلك النهار الغائم رأت ليديا فيوليت في الجامعة، فسألتها قبل أن تلقي عليها التحية: "هل تعرّضتِ لحادث؟"

"أجل" قالت فيوليت، ثم أردفت: "من الجيد أنني وجدتُكِ. أعتقد بأنني رأيتُه"

سألتها ليديا: " رأيتِ من؟" لكن فيوليت لم تجبها، بل طلبت منها أن ترافقها إلى مكان يمكنهم الجلوس والتحدث فيه. انتقلتا إلى مسرح الجامعة، وكان المكان هناك هادئاً، لا أحد سواهما فيه. "هيا أخبريني بالأمر".

"رأيتُ ذلك الظل الذي كان يتبعك. لقد ظهر لي في شقتي ظل ما، وحاول أن يقتلني، لكنني هربتُ من شقتي، وسقطتُ على سلم المبنى الذي أقطن فيه. ليس هذا كل ما حدث، بل إنّ لي صديقاً انتحر بطريقة غريبة في تلك الليلة".

قالت ليديا: "الأمر حقيقي إذاً. أشعر بالقلق طوال الوقت، أراقب كل الزوايا؛ خوفاً من أن يكون ذلك الشيء يتربص بي. لا أعلم ما الذي عليّ فعله؛ لأتخلص من هذا يا فيوليت. الأمر مرعب!".

ساد صمت من جديد في المكان؛ لأن فيوليت كانت تدرك بأنها لا تملك كلمات تواسي بها ليديا، أو تقلّل من حجم خوفها، ففيوليت تشعر بالخوف أيضاً. اشتعل مصباح المسرح فجأة، كان موجهاً إلى الستار الأحمر، وليس باتجاه المدرج حيث تجلس الفتاتين.

احتضنت ليديا يد فيوليت، وحاولتا النهوض معاً، قالت ليديا: "من فعل هذا؟ هذه ليست مزحة". لكنّها أدركت بأن الأمر ليس مزحة فعلاً؛ لأنها رأت طرف الظل الذي كان يتبعها يخرج من خلف الستار. هزّت يد فيوليت حتى تنتبه للأمر؛ لأنها لم تعد قادرة على نطق أي حرف.

"يا إلهي!". قالت فيوليت ذلك. "احمنا يا إلهي من هذا الشر، أبعد عنا الشرور والظلام". كانت فيوليت تضغط على يد ليديا. لكنّ كل تلك الكلمات لم تردع ذلك الظل الذي تسرّب من بين طيات الستار، وأصبح في زاوية المسرح بلمح البصر، ثم تحرّك فجأة ليسير بين الكراسي. تشكّل للظل وجه فيه عينان خاليتان، وفي عمق العينين فتيل خافت جداً.

صرخت ليديا، لكن فيوليت حسمت الأمر، وسحبت يد الفتاة كي ترغمها على الجري خلفها. هربتا عبر الممر الضيق بين الكراسي، حتى وصلتا إلى الطرف الآخر من المسرح. دفعت فيوليت الباب، لكنه لم يُفتَح. "ساعديني". تحرّكت ليديا لتساعد فيوليت في دفع الباب. كان جسد فيوليت يؤلمها، وهو أضعف من أن يدفع الباب العالق.

فشلتا في فتح الباب، لذلك تراجعت قبل وصول ذلك الطيف إليهما. أمرت ليديا فيوليت: "اتبعيني، لديّ خطة". دخلت إلى غرفة التحكم الموجودة خلف المدرج، لم تكن ليديا ذات خبرة في الأمر، فطلبت من فيوليت: "ابحثي عن مفتاح الطاقة. يجب أن نُطفئ كل الأنوار".

سحبت فيوليت المفاتيح الموجودة بطريقة عشوائية، تحرّك ستار المسرح. كاد ذلك الطيف أن يصل إليهما فدفعت ليديا الباب، وأقفلته. "هيا يا فيوليت حاولي أسرع".

سحبت فيوليت المفاتيح بطريقة عشوائية حتى انقطع الضوء عن المكان بطريقة مفاجئة. ساد الهدوء بعد ذلك. ألقت فيوليت نظرة من خلال النافذة الزجاجية، ورغم عتمة المكان لم تشعر بأية حركة في الخارج. كما أن باب غرفة التحكم ظلَّ موصداً.

"هل رحل؟" سألت فيوليت.

"لستُ متأكدة. لكنني أعتقد بأنّ هذا الشيء يخشى الظلام. في أول مرة رأيتُه لم يتبعني إلى داخل الزقاق المظلم، وصاح عندما أصبح يسير تحت الظلام. ثم أنه كان يسير بحرية في وضح النهار، عندما التقينا أنا وأنتِ للمرة الأولى".

44

وصل ستة من أعضاء النادي إلى مرآب ماركوس، أمّا الكرسيان الفارغان فقد كانا متجاورين، وهما ينتميان لمارك ولجوليا التي أخبرتهم بأنّ معها ما يجب أن تطلع أعضاء النادي كلهم عليه. لم تخبرهم جوليا بأنّ هناك ضيوفاً سيأتون معها، وكتمانها الأمر ولّد الحيرة في قلب الأعضاء. وحدها فيوليت التي كانت تعرف ما تنوي جوليا القيام به؛ لأنها هي من شجّعتها على الأمر.

حاول ماثيو أن يكتم أساه، وهو يفكر في أن نبوءة أغنية يوم الثلاثاء قد تحققت، وبفعل فقد رحل مارك الآن. كان يلوم نفسه؛ لأنه جلب هذه اللعنة إلى هنا. لكن لم يكن أي من أعضاء النادي ينظر إليه بهذه الطريقة، بل لم يربط أحد منهم لعنته بموت مارك. على الكرسي الموجود بجواره كانت فيوليت تجلس مترقّبة وصول جوليا حتى تضع قطعة الأحجية وتزيد وضوح الصورة أكثر. على الجهة المقابلة لماثيو وفيوليت، جلس ليو، وكان يفكّر في تريز، وما قالته له فيوليت عن مكان وجودها، وبجواره كانت سريزا تفكّر، وتحاول تخمين المكان الذي وصلت إليه أفكار ليو.

سمعوا صوت محرك سيارة يكسر سكون الليل المحيط بالمرآب، وبعد ذلك سطع الضوء الأمامي للسيارة أسفل باب المرآب الكبير. اختفى الضوء، وعاد السكون من جديد. بعد مرور دقيقة واحدة اقتحمت جوليا المكان، وصاحت: "بصحبتي صديقان". لم يكن هناك أي متّسع لأعضاء النادي، حتى يفهموا ما تعنيه جوليا.

تجاوزت جوليا الباب، وتركت مجالاً لإيفان حتى يدخل خلفها، وفي النهاية تبعتهم ليديا. نهضت كاميلا من كرسيها، وهي تقول: "ليديا؟" راقبتها فيوليت باندهاش؛ لأنها كانت تعرف الفتاة.

سألتها فيوليت: "هل تعرفين ليديا؟" تقدّمت جوليا ورفيقاها مقتربين من الأعضاء المحتشدين.

جاوبت كاميلا: "هل تمزحون معي؟ إنها ابنتي". في تلك اللحظة نهضت فيوليت من مكانها، وقلدها ماركوس. "ما الذي أتى بها إلى هنا؟ كيف تعرفون ابنتي؟" لم تكن كاميلا غاضبة، إنما كانت مستغربة مما يحدث.

اقتربت جوليا منهم، وحاولت فهم الأمر سائلة: "هذانِ صديقان جديدان،

إيفان و.."

قاطعتها كاميلا: "وليديا ابنتي؟"

ردّت جوليا بتعجب: "ابنتكِ؟" التفتت إلى ليديا التي كانت تراقب والدتها بجزع، وتحتمي خلف جوليا. لم تكن تتوقّع هذا، ولم تجد أي تفسير لوجود والدتها في هذا المكان. "لم أكن أعلم بأنّ ليديا ابنتكِ يا كاميلا". وكانت جوليا محقّة.

سألهم ماركوس: "لماذا هما هنا؟ ما شأن ليديا بهذا الأمر؟" كان ماركوس يبدي الغضب في صوته.

تدخّلت فيوليت قائلة: "إنهما جزء من هذه الحكاية. إنّ ليديا ترى ما نراه أنا، جوليا، ليو، وسريزا.. بل وحتى ما قتل مارك له علاقة بالأمر". راقبت فيوليت الخوف وهو يظهر على وجه كاميلا. "هذا حقيقي، إنهما الآن منخرطان في هذه الحكاية دون إرادة منهما.

أرادت ليديا التراجع، والهروب لولا أنّ جوليا قبضت على ذراعها وحثّتها على البقاء. قالت جوليا موجهة حديثها للجميع: "الدهشة، لن تغيّر شيئاً. لم أكن أعلم بصلة القرابة بين ليديا وكاميلا. وجدنا هذه الفتاة أنا وفيوليت، وكانت واقعة في خطر غريب لا يقل عن مقدار ما يحدق بنا. قدرة فيوليت دلّتها على مكان الفتاة، وهما زميلتان في الجامعة".

قالت كاميلا موجهة الحديث لابنتها فقط: "ليديا. هل هذا حقيقي؟ هل تعرضتِ لأي أذى؟" هزّت الفتاة رأسها نفياً كجواب عن السؤالين. "كنتُ أعلم بأنها تعاني خطباً ما، لكنني لم أتصوّر بأنها تعاني من هذا أيضاً، لم أتخيّل بأنها ستؤول إلى هنا في نهاية المطاف. كنتُ أعتقد بأنها مشكلة عادية في الدراسة أو بين صديقاتها". قررت كاميلا فجأة أن تفضح ما طلب منها ماركوس أن تخفيه: "الكتاب! إنه هو.. ذكر بأنّ الطائفة تورّث عضويتها لنسل الأعضاء، وليديا هي المقصودة، لستُ أنا؟ لكن لماذا لم يكن فيكتور؟"

طلبت جوليا من الجميع أن يعودوا إلى أماكنهم، ثم حثّت كاميلا على أن تشرح لهم أمر الكتاب أكثر، ولم تكترث لوجود ليديا بينهم، وكأنَّ لابُدّ لليديا أن تعرف كل الحقائق؛ حتى تستطيع حماية نفسها هي أيضاً؛ لأن الخطر قريب منها كما هو شأن باقي الأعضاء.

شرحت ليديا كل ما تعرفه من جديد عن وجود الطائفة، وصلتها بجد ليديا. أخبرت ليديا الجميع عن مهمات الطائفة والتي من المحتمل أن يكون اسمها هو عين الشمس، وفي النهاية أخبرتهم بأن تاريخ هذه الحركة السرية مبتور.

قال ماثيو: "قد يكون الاسم مناسباً أكثر، هم ينتمون إلى النور أو إلى الحقيقة هذا ما يرمز إليه عنوان هذه الطائفة".

رغم خوف ليديا من وجودها في هذا المكان مع والدتها، لكنّها قالت في النهاية: "ذلك الشيء الغريب لا ينتمي إلى الظلام، لأنه يخافه. إنه أقوى تحت النور". كانت ليديا تجلس بجوار والدتها، وعندما انتهت من جملتها مدّت والدتها ذراعها لتحتضن ذراع ليديا. لو كانت تعلم بأنّ ابنتها عرضة لهذا الخطر لضحَّت بكل شيء من أول لحظة وحاولت حمايتها، لكنها لم تتأخّر كثيراً عن فعل ذلك.

قالت جوليا: "هذا حدث في كابوس سريزا، والذي تمكنّا من دخوله أنا وليو. لقد خافت جوليان من الظلام وتلاشت". صحح لها ليو بأن ذلك المخلوق لم يكن جوليان، وإنما يتَّخذ تلك الصورة؛ لأنها نقطة ضعف سريزا. قالت جوليا مرة أخرى: "هذه منافية لقصص الرعب، التي تعيش فيها الأشباح وسط الظلام، ذلك الشيء يخاف الظلام".

قال ليو: " ربما يجعل الظلام ذلك الكائن خائفاً، وما يفعله ليس إلّا ردّ فعل لخوفه".

قال ماركوس باستياء: "هذا يكفي. ما تقولونه جنون.. جنون. عليّ تذكيركم بأنّ هذا النادي سري، وأنتم كسرتُم القاعدة، وهذا أمر لا يمكنني تجاهله، والآن أنتم تعزّزون هذه الترهات، وتدَّعون بأنها حقيقية".

ردّت كاميلا: "أنتَ لا تريد أن تصدِّق ما يحدث. ابنتي في خطر. جميعنا عرضة للخطر والخوف طوال الوقت، وأنا أصدق بأنّ هذا حقيقي. عليكَ تصديق الأمر". رماها ماركوس بنظرة تأنيب؛ لأنّها تخلّت عن موقفها السابق، وأصبحت في صفّ الأعضاء.

قال ماركوس: "علينا إيقاف الأمر".

تدخل ليو: "نوقف الأمر، ونتبع مارك واحداً تلو الآخر؟ هل نستسلم؛ لأننا

فقط لا نرى صورة الشر المحدق بنا؟ وإنْ كان ما نعيشه غير قابل للتصديق، إلا أنّه خطر، واحتمالية تأثيره علينا كبيرة يا ماركوس".

"هذا يكفي. لقد بدأتُ بهذا الأمر، وعليّ إيقافه الآن. هذا النادي سيدمرنا!".

التفتت كاميلا إلى ماركوس وقالت: "هل تتخلّى عن النادي؟"

ردّ ماركوس: "هذا هو الحل الأفضل للجميع".

قالت جوليا: "لا يمكنكَ فعل هذا بكل بساطة. من أجل مارك على الأقل".

نهض ماركوس، وقال غاضباً: "ذلك الرجل مجنون.. معتوه. تخلّص من حياته البائسة؛ لأن أفكاره تأثّر عليه، لا لكونه يرى الخطر يحدق به. افهموا الأمر".

قاطعته جوليا من جديد: "هذا يكفي يا ماركوس. إنّ مارك صديقي، ولن أسمح لكَ بالتطاول عليه؛ لأنه غير موجود. لا أستطيع التخلي عن حقّه بعد موته، ولن أكفّ عن البحث في حقيقة الأمر حتى ينتهي هذا الكابوس. لا يمكنني أن أقف مكتوفة اليدين، وأن أراقب أصدقائي وهم يتحطمون تباعاً".

"افعلوا هذا وحدكم. أنا أنسحب، ولن يكون هناك تجمُّع في مرآبي". نهضوا جميعاً، ولم يعترض أيٌّ منهم على انسحاب ماركوس من هذه القصة. تركوا المرآب، وخرجوا إلى الشارع.

جمعتهم جوليا من جديد تحت سماء الليل، وقالت لهم: "سنلتقي من الآن وصاعداً في متجر الكتب الخاص بي، وهناك سنحاول إيجاد أيّ جديد يتعلّق بهذه القصة. وأنتِ يا كاميلا، سأطلب منكِ أن تعرضي ذلك الكتاب علينا". وافقت كاميلا دون تردّد.

انسحبت كاميلا برفقة ابنتها من المجموعة، وخلال سيرهم إلى مركبة كاميلا، قالت مؤنبة ابنتها: "كان عليكِ إخباري بالأمر. لن يكون هناك مَن هو أكثر حرصاً عليكِ منّي أنا".

ردّت ليديا: "كنتُ خائفة، ما عانيتُه غير قابل للتصديق. لكن الآن عليكِ أنتِ أن تشرحي لي ماهو هذا المكان".

ابتسمت كاميلا، وهي تقول لليديا: "إنه نادي الأرق. سأشرح لكِ الأمر ونحن في طريقنا إلى المنزل".

كان الثنائي الذي انسحب بعد كاميلا وابنتها هما: ليو وسريزا. وعدا جوليا بأن يلتقيا بها في متجر الكتب، ووافقا فوراً على الانخراط في الخطط الجديدة، والتي لم يكونا يعرفان حتى ماهي، بل إنّ جوليا لا تعلم ماهي الخطوة التالية حتى الآن.

كذلك فعل ماثيو، وسار برفقة فيوليت بعيداً عن جوليا وإيفان. وحين لم يبقَ سوى إيفان الذي لم يكن لوجوده أي تأثير قال لها: "هذا أمر لا يصدق!".

"بل عليكَ تصديقه الآن، والآن تحديداً يا إيفان. أنتَ العضو الأقوى في فريقنا الآن. لم أخبرهم بما تعرفه تماماً حتى لا أفسد مهمتكَ، لكنكَ أنتَ من عليه أن يعرف كل أجزاء القصة".

قال لها: "أقدّر هذه الثقة يا جوليا، وتأكدي بأنني في جانبكِ دائماً، لكنني أخشى أن يكون الأمر مبالغ في تقديره، وما قاله ماركوس صديقكم هو الحقيقة".

"لا تقُل ذلك، وأنتَ من رأى أطراف هذه الحكاية بعينه. علينا الوقوف في صفّ واحد حتى ينتهي هذا الكابوس. مرّ وقت طويل منذ أن نمتُ دون التفكير بأي شيء، لا أتذكّر آخر مرة نمت فيها، وكان ماخلف جفني سواد تامّ ومريح. هذه الأمور ترميني هنا أكثر من جانب الراحة".

"جوليا، تأكّدي بأنني معكِ حتى النهاية".

قال هي: "هذا ما أنا متأكّدة منه يا إيفان".

الذكريات المحطمة

45

والدة أندي لم تخبر طفلها بما حلّ بوالده فعلياً، لكنّ أندرو كان يعلم بأنّ والده مريض؛ لأن الجميع صرّح بذلك، وأولهم والده، ومن ثم والدته. طال حرصها الشديد عليه بعد موت الطفل جيمي الغريب، وما تزال تحاول إبقاء الطفل في المنزل معظم الوقت. حاول أندي أن يستشف من والده أية معلومة عن المرض، حتى لو اقتصرت على اسمه، لكن كل ما قالته والدته هو أنّ والده سيكون على ما يرام، وأنّ الشتاء فقط هو ما يُتعبه، ولأن البرد هذا العام كان شديداً، فلا بدّ أن يكونوا حريصين على عدم الخروج. أطالع أندي والدته، ولم يكن هذا بداعي العلاقة التي تتطلب منه أن يكون هو من يؤدي المهام، والأم هي التي تأمر؛ بل لأنه كان حريصاً على أن تكون الأمور على خير ما يرام. أراد أندي أن يتعافى والده، وإن كان لا يعطيه من وقته ما يكفي، لكنْ يكفيه أن يعلم بأنه لا يعاني.

بذل أندي مجهوداً أكبر في أيام الدراسة الأخيرة قبل عطلة عيد الميلاد، ولأنه كان مايزال طفلاً، فإن عطلته كانت تبدأ باكراً. مرّت أيام طويلة لم يضايقه السيد ثلاثاء فيها أبداً، وفي تلك الأيام كانت جوليا قريبة منه، إنّه هو أكثر من يؤمن بالرابط الموجود بينهما، ويدرك بأنها تستطيع الولوج إلى ذهنه متى ما أرادت هي أو هو ذلك. وفي أحد الأيام الرطبة وقبل أن يشتدّ البرد، نام أندي في غرفته، وفور نومه استيقظ ليجد أن نور مصابيح الطريق موجّه إلى غرفته وأنه يعكس ضوءاً لامعاً يكفي لجعله يرى ماهو قريب منه. أما العالم الخارجي فقد كان غارقاً في ظلام الغيوم التي كانت تصبُّ مافي جوفها كرذاذ خفيف على الأرض. غطّى الرذاذ الشارع المصفوف بالحصى الناعم، وأصبح الطريق يعكس بشكل أكبر صورة السماء القاتمة. رأى أندي السيد ثلاثاء يقف تحت بقعة ضوء مصباح الطريق، وبيده عملة معدنية يرميها ويلتقطها في حيّز قصير. لمعت نظارته الزجاجية بوميض غريب كان واضحاً للطفل رغم بعد المسافة. اختفى نور المصباح، واشتعل المصباح الأقرب لمنزل أندي، فظهر السيد ثلاثاء، تحت بقعة الضوء التي تشكّلت حديثاً. تكرّر اختفاء الضوء وولادته مرة أخرى، فأصبح الرجل الغامض قريباً من منزل أندي. لم يخف أندي، أو حتى يبتعد عن النافذة؛ لأنه يدرك بأنّ هذا لم يكن سوى حلماً سيفيق

منه قريباً.

"صديقي العزيز.. أيها الطفل الذكي، ها نحن نتقابل من جديد". خرج صوت السيد ثلاثاء كنغمة موسيقية. بدا المشهد لأندي كما لو أنّ هذا الرجل الغامض يؤدي مسرحية استعراضية.

أراد أندي أن يغلق النافذة التي كانت تقحم هذا الرعب إلى نفسه، كما أنها تسمح للهواء الرطب ولرذاذ المطر بالدخول إلى غرفته. لكنّ دفتي النافذة لم تكونا موجودتين. تراجع أندي، وفكّر في الهرب من حجرته، لكنه لم يجد الباب فيها! لم يكن الطفل يريد الاستسلام للخوف الآن، لا بُدّ من وجود حلول، هذا ما كان يراه في المسلسلات الكرتونية، وفي الأفلام. لا ينتصر الشر دائماً؛ فالخير يملك اليقين بالبقاء، والخير دائماً لديه السلاح الأقوى وهو الإيمان.

زحف أندي تحت السرير، وراح يراقب العالم من خلال الضوء المتدفّق إلى المساحة المتاحة أسفل السرير. لكنّ جوانب السرير هبطت، فأحاط الظلام بأندي من كل جانب. ثم اكتشف بأنه محبوس في قفص مظلم معلّق في سلسلة طرفها ثابت بين أصابع السيد الثلاثاء، والذي غدا ضخماً جداً.

قال السيد ثلاثاء: "الأطفال هم الأنقى، وتشكيل خيالهم بالنسبة لي هو أسهل عملية؛ لأنهم يملكون طاقة خيال كبيرة. عندما يكبر الإنسان يفقد قدرته على التخيُّل؛ لأن الواقع يصبح هاماً أكثر بالنسبة له، ويغدو النوم واجباً يبعده عن الأحلام. أمّا أنتَ أيها الطفل الذكي، فإنّك تملك أفكاراً صافية لا مثيل لها، يمكنني أنْ أصنع بها أسوأ كوابيس البشر، إذا ما سلبتها منكَ".

"لكنني لم أؤذيكَ". قال أندي العالق في القفص الأسود.

"وهل تستطيع فعل ذلك؟" سأله السيد ثلاثاء.

تدخل صوت أنثوي فجأة: "قد لا يستطيع هو فعل ذلك، لكنني أنا أستطيع". حاول أندي أن يتعرّف على الصوت، لكنه عجز، كرّر الصوت: "ليو، هل أنتَ هنا؟"

أجاب صوت ذكوري: "إنني هنا؟"

سأل أندي: "جوليا؟ أهذه أنتِ؟"

"أجل يا أندي، وعليكَ أن تستيقظ الآن".

ضحك السيد ثلاثاء فجأة، وأفلت السلسلة ليهوي القفص في الظلام، ثم قال: "إنه الرجل الميت من جديد، سأترككم هذه المرة، لكن لا تعتقدوا بأنني لن أقوَ على الوصول إلى خيالاتكم. أنا دائماً موجود في نهاية المطاف".

استيقظ أندي من جديد في غرفته، لكنّ النافذة كانت مفتوحة كما هي في حلمه، والرطوبة تركت تأثيراً مزعجاً على بشرته. بدا الواقع مشابهاً تماماً لمنامه. بحث الطفل الناعس عن جوليا في ذهنه: "جوليا أ ماتزالين معي؟"

"نعم أندي إنني هنا". كانت جوليا في منزلها وحيدة، وقطعت الرابط الذي يوصلها بليو، كانت متّصلة بأندي، وكان الرابط بينهما قوياً. "أعتقد بأنني أفهم الآن يا أندي ما سرُّ كون الرابط الذي بيننا قوياً. إنّ ذهنكَ هو الذهن الأصفى بيننا".

شرح لها أندي: "ليس تماماً. بل لأنّ خيالي قادر على إرسالي بعيداً، وذلك الشيء الغريب يريد خيالي؛ لأنّ الأطفال برأيه يملكون خيالاً خصباً، يستطيع هو من خلاله صنع الكوابيس.. أو الأحلام التي يريدها. إنه يتغذّا على الخيال والأحلام يا جوليا، ولا يمكنه التأثير علينا في أرض الواقع، بل إنَّ سلاحه هو الأحلام".

سألته جوليا: "لكن لماذا لا يؤذينا فوراً؟" كانت جوليا قد نسيت بأنّها تتخاطب مع طفل لا سيطرة لها على الأفكار التي تطرأ في ذهنه. بل إنَّ أندي يملك أجوبة أذكى من البالغين، وهو قادر على ربط الأحداث بطريقة تشبه طريقة جوليا.

"إنه لا يريد قتلنا، بل يريد إخافتنا يا جوليا". لم تفكّر جوليا في هذا من قبل، ولكنها وضعت حتى هذا الاحتمال في الحسبان؛ لأنّه قريب جداً. "جوليا إنه يريد أن يخيفنا حتى يصنع أسوأ ما في خيالنا، وبالتالي يستغلّ هو هذا الخيال الأسود في صنع أسوأ الكوابيس. ليست غايته أن يؤذينا أنا وأنتِ فقط. بل أعتقد بأنه يريد تشكيل خطر أكبر على العالم من خلال دمج خيال البشر بالواقع".

"هذا منطقي يا أندي، لكننا لا نملك أساساً لهذه الأفكار".

قال لها الطفل: "فكّري في الأمر، إنّه يريد خيالنا، وأعتقد بأنه يصطاد الأطفال الأذكياء بنظره، أو الذين يملكون أكبر قدر من الخيال".

قالت جوليا: "أو الأشخاص الذي يملكون قدرات كقدراتنا أنا، وأنتَ، وفيوليت".

"مَن هي فيوليت؟ ومن هو ليو الذي كان معكِ في حلمي؟"

أجابت جوليا: "سأشرح لكَ هذا الامر قريباً؛ لأنهما جزء من هذا أيضاً، هناك أشخاص متورّطون معنا في هذه الحكاية يا أندي، وأعتقد بأننا حلقات متفرقة نشكّل معاً سلسلة واحدة، وهذه السلسلة تتحدّى كائناً غريباً يدّعي بأنه يوم الثلاثاء". ابتسم أندي عند ذكر ذلك التشبيه، وشعر بالحماس أيضاً؛ لأنه سيكون عضواً من فريق يتحدّى كائناً شريراً يتغذّى على أحلام الآخرين.

46

"وهل تتواصل معكَ جوليا طوال الوقت يا أندي؟ أم هي صديق خياليّ؟" . سألت جيسي التي لم تحاول أن تخفي غيرتها من الصديقة الجديدة التي تؤدي دور البطولة مع أندي. لم تعرف جيسي من تكون جوليا هذه، ولم تحاول معرفتها، بل جل ما كانت تريده، أن تسرق هذه الصديقة الجديدة أندي منها.

"ماهو الصديق الخيالي؟" سألها أندي.

"إنه بيلي، كان صديقي قبل عدّة سنوات، لكنه لم يكن حقيقياً، بل أنا من صنعته لنفسي حين لم يكن لديّ أصدقاء حقيقيون" .

أظهر أندي امتعاضاً من تلك الفكرة وقال: "جوليا ليست خيالية، بل هي صاحبة متجر الكتب الذي أخبرتكِ عنه، لكنّها مثلي تماماً تملك قدرة خاصة. قدرتها هي التواصل معي، أو رؤية مافي ذهني أحياناً، وهي من أنقذتني من السيد ثلاثاء الغامض ذاك" .

"وهل هي أعزُّ صديق لديكَ الآن؟"

قال أندي: "لا تكوني مغفلة. أنتِ هي صديقتي، وإنما جوليا تشكّل الفريق الذي من خلاله سنهزم ذلك الكائن الشرير يا جيسي" . ساد الهدوء، وراح الطفلان يراقبان صفَّ الأشجار الطويلة التي كانت تحجب الطريق، والتي أيضاً أبهتَ الشتاء لونها. تسرَّبت خيوط الشمس من بين أغصان الأشجار، وحطَّت على حافة الطريق حيث كانا يجلسان.

"أندي، هل ستنتقلون إلى ذلك المنزل حقّاً؟"

"أجل" . أجاب الطفل. "قبل نهاية الأسبوع سنكون هناك. ذلك المنزل صغير، وتقول والدتي إنّ الانتقال إليه خلال العطلة سيمنح والدي شعوراً بالتجديد، كما أنه سيساعده على الكتابة أكثر. إنّ المكان ليس بعيداً عن هنا، بل هو في أعلى البلدة، يمكنكِ في وقت قصير جداً أن تصلي إلينا" .

"طالما لن تتركوا البلدة، فلماذا تنتقلون إلى هناكَ إذاً؟"

أجاب أندي: "لا أعلم. تقول والدتي بأنَّ قضاء عطلة عيد الميلاد هناك سيكون أجمل. كما أننا هناك سنكون بعيدين عن الزحام الموجود هنا، بحيث

يستطيع والدي الحصول على بعض الراحة فيتعافى أسرع. وهو يحتاج بعض الهدوء؛ حتى يُتِمّ ما يكتبه الآن".

كذبت جيسي: "فهمتُ الآن".

"يمكنكِ زيارتنا في أي وقت. المكان قريب من هنا".

هتفت جيسي: "حقاً؟"

"هذا ما قالته والدتي حين اعترضتُ على رحيلنا المؤقت إلى هناك".

"سأطلب هذا من والدتي". تخيَّلت جيسي المكان في أعلى البلدة، وكيف سيكون الشتاء هناك آنذاك. لكنها أيضاً لا تريد أن تحظى بوقتٍ قليلٍ مع أندي فقط في هذه العطلة؛ لأنه سيسافر بينما ستبقى هي وحيدة.

عندما عاد أندي إلى المنزل، استقبلته والدته ويداها ملطختان بالصلصال. عادت والدته لأعمال النحت، وكانت تحاول أن تنجز أكبر قدر منها، قبل أن تنتقل لقضاء العطلة في المنزل الصغير في أعلى البلدة. قالت لأندي: "عليكَ تحضير ما تحتاجه، لم يبقَ أمامنا الكثير من الوقت يا أندي".

"حسناً يا أمي". قال لها أندي ذلك وهو يسير إلى حجرته. وما أن أصبح وحيداً فكَّر في الكتاب التالي الذي سيقرأه، ثم راودته فكرة غريبة جعلته يخرج من غرفته فوراً، ويذهب إلى معمل والدته.

"أمي". نادها أندي. ثم طلب منها: "هل يمكنني زيارة متجر الكتب".

حذَّرته أمه: "سيحلُّ المساء قريباً، ولا يمكنني ترككَ تخرج وحيداً".

"لكننا سننتقل إلى منزل العطلة، ولا أملك أيّ كتاب جديد. سيكون لديّ وقت فراغ كبير هناك، وليس لدي كتب جديدة لأملأ وقت فراغي من خلال قراءته". كان أسلوب الطفل في التحايل مكشوفاً. لم تعترض والدته على ذهابه إلى هناك، لكنّها كررت طلبها في أن يلتزم الحذر مرات عديدة حتى تجاوز الطفل باب المنزل، فلم يعد يسمع صوت والدته.

قطع أندي مسافة طويلة مابين بيته وصولاً إلى طرف المدينة بجوار النهر، حيث كان متجر جوليا موجوداً هناك. اقتحم أندي المكان، وكما توقَّع وجود جوليا تجلس خلف الطاولة الخشبية. نهضت فور رؤيتها له وسألته: "هل أنتَ

وحدكَ هنا".

"أجل، لا أعتقد بأنني سأستطيع زيارة المكتبة مرة أخرى قريباً، لذلك أتيت. سأقضي عطلتي في منزل مستأجر في أعلى البلدة مع والداي".

علّقت جوليا: "تبدو هذه العطلة مميّزة إذاً".

"لستُ متحمساً كثيراً لذلك، لكنني أتطلّع إلى التغيير. أتيتُ لاقتناء كتاب جديد، حتى أقضيَ عطلتي في قراءته". سُعِدت جوليا؛ لأنه أوحى لها بأنه يريد أن يقرأ ما تختاره هي. خرجت من مكانها خلف الطاولة، واتّجهت إلى رفوف الكتب؛ حتى تختار له ما سيقرؤه.

قال لها أندي بينما تولي هي انتباهها للكتب: "والدي ليس على ما يرام، لكنني لا أعلم ما الذي يعاني منه. تعتقد والدتي بأنّ العطلة ستساعد في تحسين حالته، لذلك سنكون هناك منعزلين عن البلدة".

راقبت جوليا أندي بأسف، ثم قالت له: "هذا أمر مؤسف حقاً! أتمنّى أن تتحسن حالته فوراً". نسيت لوهلة مهمّة اختيار الكتاب، وكل ما كانت تحاول فعله هو مواساة الطفل.

سألها أندي فجأة: "هل أنتِ كاتبة؟ تقول والدتي بأنكِ كتبتِ رواية شهيرة سابقاً".

تردّدت جوليا قبل أن تعترف: "أجل". حاولت أن تستحضر تلك الذكرى في ذهنها من دون صورة آدم. "توقفتُ عن الكتابة لبعض الوقت، لكنْ لديّ عمل واحد نال شهرة واسعة".

"هل أستطيع اقتناءه؟"

أجابت جوليا: "لا أعتقد بأنّ لديّ أية نسخة منه. دعني أرى". سارت جوليا حتى المخزن الصغير الموجود خلف رفوف الكتب، وفتحت الصناديق بحثاً عن النسخ التي نقلتها إلى بيتها الجديد. لكنها لم تجد إلا نسختها الخاصة من الرواية. تردَّدت قبل أن تخرجها وتعطيها لأندي. "إنها نسختي الخاصة. هي الوحيدة الموجودة هنا".

"ألن يزعجكِ أن أستعيرها؟".

"لا، أبداً". أخبرها أندي بأنه سيقرأها، ثم يعيدها إلى هنا. في تلك الأثناء عادت جوليا لتبحث له عن كتب أخرى. التفتت إليه فجأة، ثم قالت: "هل تستطيع البقاء هنا لبعض الوقت؟"

سألها الطفل: "ليس طويلاً، لكن لماذا؟"

47

كان هناك ستة أشخاص في المكتبة بالإضافة إلى أندي: جوليا، إيفان، ليو، فيوليت، ماثيو، وسريزا. شعرت جوليا بأنها محظوظة؛ لأنها استطاعت جمع معظم أعضاء نادي الأرق بأندي، وبهذا تكون قد قرَّبت قطع الأحجية التي في خيالها ببعض.

قالت لهم جوليا: "إنّ أندي طفل فريد، وهو من استطاع أن يجمع معظم خيوط اللغز لي، وهو الآخر يملك قدرته الخاصة. يستطيع أندي معرفة هوية كل شخص، أو إلى ماذا تنتمي روحه من خلال النظر إلى عينيه". قال أندي إنه سبق له لقاء الطفل في كابوس أندي. وكان إيفان بالفعل يعرفه، أما فيوليت وماثيو، فهما يرايان أندي للمرة الأولى.

سألته فيوليت: "هل حقاً تستطيع فعل ذلك، هل يمكنكَ أن تعرف هوية كل من تراه؟"

"أجل". أجاب أندي، ثم أردف: "ما عدا السيد ثلاثاء، لم أتمكّن من تحديد هويته، وفي الواقع الأمرُ يتكرّر مع هذا الرجل، لكنه ليس مماثلاً للسيد ثلاثاء". أشار أندي باتجاه ليو.

"هل تعني أنكَ لا تستطيع معرفة هوية ليو؟" سأله ماثيو.

"ليس تماماً، بل لا أتمكن من رؤية روحه بوضوح، لكن السيد ثلاثاء ذاك، لم يكن له أي وجود. لا يمكنني رؤية أي شيء من خلال النظر إليه".

سألته فيوليت: "وماذا بالنسبة لي؟" راقب أندي عينيها لبضعِ ثوانٍ، وراقبه كل الموجودين وهو يفعل ذلك. غاص نظره في عيني فيوليت، وتمكّن من الوصول إلى صورة مطابقة لها تماماً لكنها كانت أكبر سناً. "ماذا؟" سألته فيوليت التي طال بها الانتظار، وبدأ القلق يساورها.

"أرى ما تنتمين إليه" قال لها أندي.

"وما الذي رأيتَه؟" سألته.

"جودي. تلك المرأة التي رأيتُها هي والدتك. اسمها جودي، وهي تشبهكِ بقدر كبير". شعرت فيوليت بالغيض؛ لأنّ أندي تمكّن من رؤية ذلك، بينما هي

لم تره. أحاط بها الأسى، والشعور بالعجز. سألته: "هل تعرف كيف أجدها. أي شيء يدلني عليها؟"

"لا أعرف". قال أندي.

تدخلت جوليا بينهما، وقالت: "دعونا نعيد تنظيم الأمر بيننا، فأرى ما رآه أندي، وأنقله إليكِ يا فيوليت". وافقت فيوليت وشكّلت جوليا دائرة تضمّها هي، وفيوليت، وأندي. أعاد الطفل ما رأه في عيني فيوليت، وظهرت المرأة الصهباء الشبيهة بفيوليت في أذهانهم ثلاثتهم.

همست فيوليت: "اسمها جودي إذا؟"

"ماذا؟" سألها ماثيو، وهو يبعدها عن جوليا وأندي.

قالت له فيوليت: "رأيتهُا، وأعرف كيف أجدها من خلال قدرتي. لكن هل ستعرف هي بأنني ابنتها؟"

"لقد تخلّت عنكِ يا فيوليت" قال لها ماثيو، ثم أكمل: "ليس عليكِ الحصول على إجابة قد تؤذيكِ".

اعترضت فيوليت قائلة: "لكنني أستحقُّ تلك الإجابات مهما كانت قاسية". ثم أشاحت ببصرها عن ماثيو، لتجد الجميع يراقبونها. جلست على الكرسي الوحيد المقابل لطاولة جوليا. أبقت صورة والدتها في ذهنها؛ حتى لا تنساها، وحاولت من خلال قدرتها تحديد مكان تلك المرأة.. جودي.

"يجب أن أذهب يا جوليا". قال لها أندي، وحمل الكتب التي اختارتها له جوليا. ترك المتجر بعد أن ودَّع جوليا وأعضاء الفريق الذي سيساندهم هو في التخلص من الكيان الشرير الذي يطاردهم.

قال ليو: "إنّ هذا الطفل فريد، لا يشبه أي كائن آخر رأيتُه". أكَّدت جوليا على كلامه. في تلك الأثناء كانت فيوليت بعيدة عنهم، وماثيو يحاول تخليصها من فكرة والدتها التي ظهرت فجأة بفعل أندي. رحل ليو بعد رحيل أندي، وعرض على فيوليت وماثيو أن يُقلّهم بسيارته فوافقوا على ذلك.

لم يبقَ في المتجر سوى جوليا وإيفان. "أنتِ تزيدين اتساع الدائرة بشكل مخيف يا جوليا، لا يمكنكِ ربط كل شيء ببعضه؛ لأن العقدة في النهاية ستكون أكبر من قدرتنا على حلّها".

"لكن يا إيفان لن تكون صعوبة العقدة أكثر خطورة مما يحدق بنا. السيد ثلاثاء ذاك رأيناه جميعاً، ولا يمكننا أن نتشارك الجنون ذاته، لأننا أعضاء هذا النادي فقط. الأمر صعب جداً". عرضت عليه جوليا أن تريه الأمر من خلال قدرتها، لكنّ إيفان تردَّد قبل أن يوافق. لم يفعل هذا بداعي الفضول؛ وإنما لعجزه في رفض ما طلبته جوليا.

قبضت جوليا على ذراعه، وطلبت منه أن يستسلم لذهنه، وأن يغوص فيه؛ حتى تنقله إلى ذاكرتها، والتي فيها كان وجه السيد ثلاثاء في حلم أندي، ثم نقلته إلى الظل الشبيه بالسيد ثلاثاء الذي كان يراقب منزلها في الليل.

"هل رأيتَ؟ جميعهم شخص واحد. هناك من يتربّص بنا، ولا نعلم لماذا يفعل ذلك. هذا الكائن هو من قتل جيمي ووالدته، وقتل مارك أيضاً. هذا ما نعلمه نحن، وبكل تأكيد هناك ما يقوم به، ولم نصل إليه بعد". شرحت له جوليا نظرية أندي للأمر، وكيف أن هذا الكائن يريد بثَّ الخوف في قلوبهم؛ لأن هذا يجعله أكثر قوة، ويمكنه أن يستخدم الخوف في صنع الخيال؛ لأنه كائن يعيش في الخيال وليس في الواقع.

48

بعض الأفعال التي نقوم بها في حياتنا، تُطبَع في صفحاتنا بحبر لا يُحمَى، لا يمكننا أن نتغاضى عن وجوده، أو حتى أن نتراجع ونلغي ما تركناه على صفحاتنا. تترك تلك الأفكار لوناً قد لايكون بالضرورة عنصراً مكملاً للقصة، فهو أحياناً يشوهها. لكنّ تلك الأفكار لا بدَّ من وجودها حتى تنقلنا إلى السطر التالي، وبفعلها نحاول الوصول إلى نهاية صفحة من حياتنا.

"لا تراجع بعد هذا يا فيوليت". قال ماثيو الجالس خلف المقود. لم تكن هذه سيارته، لكنه حصل عليها حتى يسافر بها مع فيوليت مسافة ساعتين ونصف وصولاً إلى المنطقة التي تقطن فيها والدتها.

"وأنا لا أريد التراجع، بل الحصول على إجابة مهما كانت غير متوقعة أو قاسية حتى". لم يشعر ماثيو بالتعب لطول مدة قيادته للسيارة، بل كان التعب من نصيب فيوليت التي استنزف الترقب كل طاقتنا.

"هل أنتِ متأكدة من المكان؟"

"هذا ما رأيتُه في ذهني عندما بحثتُ عنها. أعلم أنَّ هذا جنوناً، وقد لا تصيب قدرتي في حلّ الأمر، لكنني على الأقل يجب أن أصل إليها. لن تفقدنا المحاولة أي شيء". أصرّ ماثيو على البقاء معها في هذه اللحظة، وهو من أتى بفكرة نقلها إلى هذا المكان، الذي تعتقد فيوليت أنّ والدتها تعيش فيه.

تعتبر هذه المنطقة مشروعاً للفقراء، منطقة صغيرة محاطة، فيها شاحنات صغيرة تشبه المنازل، يقطن فيها من لا يملك مأوى أو مالاً. دلّت فيوليت ماثيو على المكان تحديداً، وركنوا السيارة أمام منزل صغير جداً مطليٌّ بلونٍ أبيض باهت، تقشَّر ليظهر تحته لون الخشب الأصلي.

"هل أنتِ متأكّدة؟"

تنهدت فيوليت، ثم قالت: "ماثيو، عليكَ أن تُمِدَّني بالقوة، وأنتَ تفعل العكس تماماً".

"هيا إذاً لنحصل على الإجابة". أطفأ ماثيو المحرك، وانتظر فيوليت حتى تسبقه وتترجل من السيارة. طلب منها أن تطرق هي الباب، وسيكون هو بجوارها. فعلت فيوليت الأمر متسلّقة العتبة الصغيرة، ثم طرقت الباب

الخشبي برقة.

سمعت فيوليت وقع الخطوات المتعجِّلة خلف الباب، ثم فتحت امرأة صهباء الباب. لاحظت فيوليت الشبه الذي توقعت رؤيته فوراً، لم يكن ماثيو قد رأى صورة جودي في خيال أندي، لكنّ فيوليت أخبرته عن الشبه، وها هو يراه فعلاً.

لم تلاحظ جودي شبه الشابة التي تقف أمامها بها.، لكنها راقبتها متسائلة عن سبب وجودها أمامها. سألتها فيوليت: "جودي؟" لم تبدِ المرأة أيّ تفاعل. "هل أنتِ جودي؟" كان السؤال بداعي تمهيد الطريق بينها وبين المرأة، لكن فيوليت كانت متأكّدة من أنها هي.

"هل أنتِ من محصليّ الديون؟" سألتها وهي تتجاوز بنظرتها كتف فيوليت، وتراقب ماثيو الواقف بجوارها.

- "لا".

"مَن أنتما إذاً؟" سألتها جودي قبل أن تدقِّق في وجهها، وتلاحظ الشبه. كانت جودي تقف محيطة المدخل بجسدها النحيل، وبدها تسدُّ طريق الدخول. راقبت فيوليت ذراع جودي، ورأت الوشم المطبوع عليها. حلقة تتوسطها نقطة، وفي الجانب العلوي ثلاثة خطوط، تشكّل رموشاً عريضة. هذا ما وصفته كاميلا عن شعار تلك الطائفة الغريبة.

"أُدعى فيوليت، وهذا ماثيو. أعتقد بأنكِ أمي". قالت فيوليت ذلك من دون أية مقدمات. عقدت جودي حاجبها كما لو أنّها تلقّت شتيمة، لكنها أرخت ملامحها فجأة، وظهرت الرقة على وجهها. لم تكن قد استوعبت الأمر بعد، لكنها ما أن لاحظت الشبه هي الأخرى حتى بدأت تتفهّم.

"كيف.. كيف وصلتِ إليّ؟" سألتها جودي.

"لا يهمّ، أتيت من أجل معرفة والدي، والسبب الذي جعلني أبقى بعيدة طوال هذا الوقت". كان لدى فيوليت من الثقة ما يوحي بأنّ الإجابات ستكون بحوزتها خلال هذا اللقاء. لكن جودي أظهرت استياءها من تلك اللهجة، ولم تُتِح الفرصة لفيوليت حتى تتمادى.

"ليس لديّ أية إجابات. إنّ قدومكِ إلى هنا هو الخطأ الأكبر. أنتِ أفسدتِ

كل شيء الآن. قد تفهمين يوماً ما لماذا حدث هذا كله، وإن لم تفهمي فهذا لن يضر. عليكِ أن تعرفي بأنّ ما حدث لم يكن بداعي البغض والكره، إنما للحرص".

صرخت فيوليت: "حرص؟ أيّ حرص؟ أن أبقى من دون عائلة؟ إن كنتِ قد تخليتِ عني فهذا لا يهمني، لكن والدي.. أين هو الآن؟". ارتعش جسد فيوليت أمام جودي، وسبّب لها تداعي شعور الفتاة بلين داخلي، جعلها تدعوها إلى منزلها الصغير العبق برائحة المطر والتراب.

جلس ماثيو بجوار فيوليت، وعلى الجانب الآخر جلست جودي. قالت جودي ما أن جلست أمامهما: "لم أعتقد يوماً بأنكِ ستملكين من الذكاء ما سيدلّكِ على طريقي. ظننتُ بأنني ألقيتُ بكِ في نهر، ليبعث بك إلى حياة أفضل يا.."

أجابت فيوليت: "فيوليت، هذا ما أطلقوه عليّ في الدير".

- "لم تسنح لي الفرصة لإعطائك أيّ اسم. أرسلتُكِ باكراً إلى هناك من دون ترك أيّ أثر يدلُّ على مكاني. كيف وصلتِ إليّ؟".

- "قدرتي. هل تملكين أنتِ قدرة أيضاً".

"قدرة؟" لم تفهم جودي ما قالته فيوليت. طالبتها بالمزيد من الشرح، ففعلت فيوليت الأمر شارحةً لوالدتها كيف أن لها قدرة على معرفة مكان أيّ شخص طالما استطاعت رؤيته.

"أنتِ لا تملكين أية قدرة إذاً؟" سألت فيوليت جودي، ثم وجّهت سؤالاً آخر قبل أن تحظى بالإجابة: "ذلك الوشم.. إنها طائفة، أليس كذلك؟ هل أنتِ عضو فيها".

ظهرت الدهشة على وجه الأم. أخفت جودي ذراعها، ثم ثبّتت ظهرها على طرف المقعد. طرحت الشمس ضوءها على خصلات شعر جودي الدهنية اللامعة. "الطائفة.. هذا الوشم.. إنه.."

سألها ماثيو: "إنه شعار لحركة سرية، وأنتِ تضعينه على ذراعكِ".

-"كيف علمتم بهذا أيضاً". سألتهم جودي، لكنّ الصمت كان هو الجواب. دام السكوت لوقت طويل، لم يتوقعه أيٌّ منهم. جوليا تقترب من الحقيقة، وهم الآن يرون طرفاً منها. تلك الطائفة فعلية موجودة، وهي تجمع بين ما يحدث

وبعيشه أعضاء النادي، وبين شرٍّ خفيٍّ يحدق بهم.

"هل أنتِ عضو من طائفة ما؟" سألت فيوليت، ثم أردفت بصيغة الرجاء: "هناك شرّ يحدق بنا. لا أريد أن أعرف أية إجابة سوى الطريقة التي علينا أن نتفادى بها ما نعيشه".

"أي خطر؟ أنا لا أفهم أي شيء".

علّق ماثيو: "بل إنّكِ تفهمين. إن كُنتِ قد تخلّيتِ عن فيوليت مرّة، فأنتِ تعيدين الكرة، وتتركينها للموت. هناك شرّ يحدث بنا، ولا نجد حلاً للتصدي له".

استسلمت جودي قائلة: "هذا الأمر قديم جداً، وقد انتهى الآن. عين الشمس مجموعة سرية انتهت مع مرور السنوات، والآن لم يعد لها وجود رغم أنّ لها تاريخاً يمتد لأكثر من قرن واحد. أنا.. والدي، ووالدكِ حتى، ننتمي لها. الشر لم ينتهِ، لكنّ قوة الطائفة انتهت. انبعثت أنواع الشر مراراً، وهم مَن قتلوا والدكِ".

قالت فيوليت: "والدي ميّت؟"

أجابت جودي: "قبل أن تولدي أنتِ. لقد مات وأنا حامل بكِ. علمتُ أن الشر سيطاردني أنا وأنتِ. ستكونين حمل يعيق حركتي وسيطالنا الموت معاً، ولا يمكنني التضحية بحياتكِ، وأردتُ أن أعيش. خمّنتُ بأنكِ لو لم تعلمي بالأمر لكان تفادي الشر أسهل بالنسبة لكِ، لذلك تركتكِ في الدير؛ حتى تتاح لكِ حياة مختلفة عمّا عشتُه".

راقب ماثيو ردّ فعل فيوليت، لكنها لم تبدِ أي تعبير. ظلّت فيوليت ثابتة في مكانها، تحاول ترجمة ما تقوله والدتها. كل تلك السنوات التي عاشتها لم تكن إهمالاً، وإنما نوع سيّئ من أنواع الحماية.

- "هل لأعضاء الطائفة أية قدرة خاصة كما حدث معنا؟" سألتها فيوليت.

- "هل معكم أنتم أكثر من شخص واحد؟ أعني أصحاب القدرات؟" حرّكت فيوليت رأسها إيجاباً، فقالت جودي: "لم نكن نملك أية قدرات، بل كان هناك القليل ممن تميزوا بذلك. هذا قد يحدث مع أي شخص، وليس من المشترط أن يكون عضواً في الطائفة".

قال ماثيو: "إن كان الأمر غير شائع، فكيف لعدة أشخاص من ذوي القدرات الخاصة أن يلتقوا في مجموعة واحدة عن طريق المصادفة؟"

ابتسمت جودي بسخرية قائلة: "لأن هناك من يريد أن يجمع العصافير بجوار بعضهم، حتى يطيح الحجر الواحد بهم جميعاً. هناك مَن تعمّد تقريبكم حتى يستثمر قواكم". تنهد جودي، ثم قالت فجأة: "يكتب القدر، ولا يحمينا منه إدارة ظهورنا له. التغاضي عن الشر لا يمحو وجوده. ما حاولتُ حمايتكِ منه ها هو ينتظر في نهاية المطاف".

سألتها فيوليت: "هل هذا موجود منذ وقت طويل؟ أعني هل تعرفين ماهو هذا الشيء الذي يطاردنا؟"

"لا أعلم ماهو، ولستُ أقصد شيئاً واحداً. إنما أعني أنتِ أكثر قابلية لرؤية الشرّ من غيركِ، هذا يسري في دماء كل أعضاء الطائفة، وكل أنواع الشر تستهدف الأقوى أولاً".

سأل ماثيو مقاطعاً جودي: "هل هذا يعني، بأنّنا من سلالة هذه الطائفة".

"ليس تحديداً، لا أعرف من أنتم تحديداً، لكن من المحتمل أن تكون فيوليت هي العضو الوحيد بينكم".

همست فيوليت: "وليديا أيضاً".

قالت جودي بتعجُّب: "اثنان؟ أظنُّ بأن من يحاول مجابهتكم أقوى بكثير مما تتصوّرون".

قال ماثيو بسخرية: "هذا ما نعتقده نحن أيضاً. الأمر يزداد سوءاً كل يوم، ولا نستطيع فهم ما يجري، أو حتى طريقة مواجهة هذا. ذلك الشيء يتسّرب إلى أحلامنا، ويحاول تدمير عامل النوم بالنسبة إلينا، وعندما نعود إلى الواقع، نجد بأننا لا نملك من الطاقة ما يكفي. نحن نقترب من الجنون بسرعة غريبة".

49

توقفت السيارة السوداء أمام منزل صغير يتكّون من طابقين، كما أنّ المساحة الخارجية المخصصة له كانت كبيرة، وبعيداً عن المنزل الكبير والذي يتفرّع منه هذا المكان الصغير، والذي يعد منزلاً للضيوف في ذلك المكان الكبير الخالي من السكان. لم يُكلّف استئجار هذا المنزل عائلة أندي الكثير. بل كان السعر المخصّص لقضاء العطلة رمزياً، لا يسبب اختلال كبيراً في ميزانية العائلة. المبلغ الذي دفعه والداه كان في نظرهم يساوي فرصة قضاء العطلة هنا.

كان والده يجلس في المقعد الخلفي بجوار والدته، وقد ارتدى ملابس أثقل بكثير مما كان يرتديها أي رجل آخر رآه أندي أثناء الرحلة إلى هنا. راقب أندي قمّة المنزل المستطيل، وأحبَّ شكل القمة المدبَّب، وخلف لونها القاتم، كانت السماء تسمح لبعض الأشعة الفضية الممزوجة بخيوط ذهبية بالتسرب. فكّر أندي في أنّ الشمس ما تزال تحارب الشتاء وترسل إليهم بعض دفئها في هذه الأوقات، إلا أن البرد كان قوياً.

طلبت والدته أندي من والده أن ينتقل فوراً إلى الداخل. "وأنتَ يا أندي، ستساعدنا في نقل الأشياء". وافق الطفل وبالفعل ساعد سائق السيارة، ووالدته أيضاً في نقل الأشياء إلى ردهة المنزل.

قال الأب: "من الجيد أن نظام التدفئة هنا فعّال، ولم تقتحم البرودة هذا المنزل".

سألهم السائق الواقف بجوار الباب: "هل ستحتاجون أي شيء آخر؟" شكرته والدة أندي، فعرض عليهم: "يمكنكم الاتّصال بي في أي وقت. كما أن المنزل عند طرف العزبة خلّاب، لا تفوتوا فرصة رؤية البلدة من خلال الحافة الموجودة هناك".

"لن نفوت ذلك. شكراً لكَ". ابتسمت والدة أندي في وجهه حتى أدار هو ظهره لها وعاد إلى سيارته. عندما أغلقت والدة أندي الباب اختفت ضوضاء الهواء الناعمة المنبعثة من الخارج. كان الأب جالساً في غرفة المعيشة يحاول إزاحة الوشاح المحيط برقبته، بينما والدته كانت تجرُّ الحقائب عبر الممر.

ذهب أندي إلى الطابق العلوي؛ كي يكتشف أركان المنزل، ورأى أنّ الطابق

العلوي كان يتألف من حجرتين فقط، الأولى كانت أساسيّة وواسعة، كان متأكّداً من أنها لوالديه. أما الأخرى فكانت تكفيه، لكنَّ شكلها المستطيل كان يعطي إيحاءً بأنّها ضيقة. أعجبته قطع الأثاث الخشبية الموزَّعة في الغرفة، وشعر بالهواء الدافئ الذي كان يتحدَّى النور الفضي المنبعث من النافذة، والذي يوحي بالبرودة.

"أندي، هيا تعال إلى هنا كي تساعدني". سمع صوت والدته البعيد يناديه من جديد. خرج من الحجرة جرياً، ثم هبط عبر السلم إلى الطابق الأرضي. "ساعدني في حمل هاتين الحقيبتين إلى الأعلى، سنفرغهما في غرف نومنا".

"سأجرُّ أنا الحقيبة الكبيرة يا أمي".

لكن والدته رفضت قائلة: "لا، سأحمل أنا الحقيبة الأكبر، وعليكَ أنتَ بالأخرى الأصغر حجماً".

في المساء كانت والدة أندي في المطبخ تعدُّ الطعام، وكان والده يجلس في غرفة المعيشة، ولا يُسمَع في الشقة من أصوات سوى صوت لوح مفاتيح حاسوب والده، وصوت حركة والدة أندي في المطبخ. أحاط والده جسده بلحاف ثقيل، وكان رأسه مغطى بقبعة صوفية أخفت حجم رأسه الفعلي. شعر أندي بالملل، فطرح الرواية التي كانت بين يديه، والتي كان اسم جوليا مطبوعاً على غلافها، ودلفَ إلى المطبخ ليجد والدته وقد أولته ظهرها.

"امي" ناداها أندي، فأصدرت هي همهمة، دون أن تلتفت. "لماذا نحن هنا بعيداً عن المدينة بينما والدي مريض؟ ألا تخشين أن يصيبه مكروه، ولا يكون بالجوار من يساعدنا؟".

التفتت والدته أخيراً، وظهرت ابتسامة لطيفة على شفتيها. "لن يحدث هذا غالباً. نحن هنا؛ لأننا بحاجة للتجديد والهدوء، وإن حدث أي أمر طارئ، فإن الإسعاف لن تتأخّر في الوصول إلى هنا. المكان لا يبعد عن قلب المدينة سوى نصف ساعة. ولا بد من أنَّ هناك خدمات قريبة من هنا أيضاً. لا أريد أن تقلق يا أندي، أو أن تفكر حتى في أمر كهذا".

خرج أندي من المطبخ عائداً إلى كتابه المطروح على الأريكة المقابلة لمكان جلوس والده. جلس هناك متنعّماً بالدفء، وأطراف أصابعه كانت تتحسّس جانب الورق الخشن نوعاً ما. كانت القراءة تمثّل المخرج أو المهرب حين لا

يعود الواقع يكفي أو يلائم ما يشبه الأحلام. إنه نوع من الانعتاق لا يمكن فهمه إلا عبر التعايش معه. وقف هو فوق هذا السور، وترك الكلمات تنقله إلى خارج المجرة حيث يجد تجارب جديدة لم يعشها، وبعضها لا يمكن أن يُعاش على أرض الواقع أبداً.

الربع الأول من رواية جوليا كان عسيراً على الفهم، لكنْ ولأن رابط الصادقة بينهما كان قوياً، لم يسمح أندي لنفسه بالاستسلام رغم صعوبة كلمات هذه الرواية. لقد طلب منها أندي نسخة من الكتاب، وأعطته هي نسختها الخاصة، لن يخذلها بعدم العبور نحو خيالها الموجود في هذا الكتاب.

لم تتواصل جوليا مع أندي بعد انتقاله إلى هنا، أو حتى قبل وقت قصير من انتقاله. تركتهُ حُرَّ الأفكار، وأعطته مساحة يرتاح فيها من حمايتها المشذّدة على أفكاره. كان يتساءل عمّا تفعله، أو عمّا إذا كانت جوليا تنجر مهمة الإنقاذ وحدها دون إقحامه.

نادتهم والده لتناول الطعام هو ووالده. استجاب أندي للنداء من المرة الأولى؛ لأنه كان يشعر بجوع بالغ، بينما لم يسمع والده صوت زوجته، وفي المرة الثانية للنداء صاح بهما بأنه آتٍ، لكنه لم يُزح نظره عن شاشته التي تعكس ضوءها على وجهه، وفي النداء الثالث استسلم متنهِّداً.

جلس الثلاثة على المائدة الصغير الموجودة بجوار مدخل المطبخ، ورغم ضيق المكان إلّا أنّه كان أنيقاً بطريقة خاصّة. سكبت الأم الطعام في أطباقهم ثلاثتهم، ثم جلسوا يأكلون بصمت، حتى سأل الأب: "ألم يكتشف هذا القط الفضولي المكان بعد؟"

ابتسم أندي قبل أن يقول: "لم أكتشف إلّا الحجرتين الموجودتين في الطابق العلوي".

قالت الأم: "لديه العطلة كلها حتى يكتشف فيها هذا المكان. لكن عليه أن يكون حذراً".

"سأكون حذراً يا أمي". فكّر أندي في أن عليه الاقتصاد في مهامه؛ حتى لا تنتهي كلها دفعة واحدة، فيصيبه الملل في النهاية.

سأل الأب من جديد: "مانوع الكتاب الذي كُنتَ تقرأه؟"

"رواية، إنها الرواية التي كتبتها جوليا صاحبة متجر الكتب".

سأله الأب من جديد: "لقد أصبحت صديقة لكَ إذاً؟ ماذا عن جيسي؟"

"جوليا ليست صديقتي تماماً، إنما تساعدني أحياناً في وقت القراءة. جيسي هي صديقتي الفعلية".

كرّرت الأم: "الفعلية"، ثم رفعت حاجبيها بسخرية. "بالمناسبة يمكنها أن تأتي إلى هنا قبل حلول عيد الميلاد. يمكنها أن تقضي بعض الوقت معنا".

"أخبرتها بذلك، لكنها قالت بأنها ستسأل والدتها".

علّق الأب: "يمكننا الاتصال بوالدتها، وطلب الأمر منها؛ كي تأتي في نهاية الأسبوع إلى هنا، وتقضي بعض الوقت معنا. لن تتاح لها الفرصة في فعل ذلك إذا ما اقترب عيد الميلاد". أثنى أندي على الفكرة، وكذلك وافقت الأم عليها.

انتهت العائلة من تناول وجبة العشاء، وطلبت الأم من أندي أن يأوي إلى فراشه؛ لأنّها رأت التعب بادياً على وجهه. عرض عليها الطفل: "يمكنني أن أساعدكِ في تنظيف المائدة".

قالت الأب بسخرية: "دع أعمال النساء لي، وأنتَ عليكَ أن تأوي إلى فراشكَ الآن".

"كنتُ أعرض المساعدة فقط" قال أندي مبتسماً. ثم نهض من كرسيه متّجهاً نحو السلم، ثم إلى حمام غرفته حتى يغسل أسنانه قبل النوم. ولم تستغرق مهام ما قبل النوم وقتاً طويلاً منه؛ لأنه أدّاها كلها بكسلٍ بالغ. سار أندي إلى فراشه المجاور للنافذة المطلّة على المنزل الضخم والذي ينتصف العزبة. كانت نافذة واحدة من بين النوافذ المعتمة تنبض بضوء أصفر خافت. راقبها أندي، فرآى طيف امرأة تعبر أمام النافذة، ثم تُسدل الستار ليختفي بعد ذلك الضوء المنبعث من النافذة.

لم يكترث أندي للأمر. بل أزاح غطاء السرير، واندسّ تحت اللحاف؛ ليحتمي من البرد. أرخى رأسه على الوسادة، ثم استرجع مشهد المرأة عبر النافذة البعيدة. تذكّر بأنّ المنزل الكبير كان خالياً من السكان، فمن تلك المرأة التي رآها؟

50

في الصباح التالي، كان أندي هو أول من استيقظ. وجد مكان جلوس والده في الليلة الماضية نظيفاً وخالياً من كل ما كان والده يحيط نفسه به. الهدوء يعمّ المكان، وضوء الشمس يقتحم المنزل من خلال كل النوافذ المواجهة للشرق. وجد أندي كتابه الذي تركه فوق الأريكة موضوعاً فوق طاولة القهوة الخشبية الصغيرة. فكّر في استئناف القراءة، لكن المنزل الخارجي تحت نور الصباح الصافي أغراه أكثر.

خرج من المنزل بعد أن ارتدى معطفه، وراح يتجوَّل حول البيت الصغير الذي تستأجره عائلته. فكّر في جوليا، وفي أصدقائها الذين قابلهم في متجر الكتب، ثم فكّر في جيسي وما كانت تفعله في الليلة الماضية، لكنه لم يتمكّن من الوصول إلى تخمين مناسب. فكّر أندي في أن يتّصل بها، لكنّ الوقت كان مايزال باكراً، وبكل تأكيد ستكون نائمة في هذه الساعة، لذلك ألغى فكرته تلك.

ساقته خطواته بعيداً عن المنزل، راح يمشي على الطريق الترابي القديم المحاط بالعشب الميت من الجانبين، إلى أن صار المنزل بعيداً عنه، وأكثر ما كان واضحاً من صورة المنزل الصغير هو القمم المدببة. كان المنزل المستأجر نموذجاً أصغر بكثير من المنزل الفعلي في العزبة. كان المنزل البعيد ضخماً، وله منظر مخيف في الليل، لكن ذلك لم يؤثّر في أندي، ولم يمنع خطواته من السير إلى هناك.

لا يملك أندي تقديراً حقيقياً للمسافة التي قطعها وصولاً إلى المنزل الأساسي، لكنه عندما استدار لم يتمكّن من رؤية المنزل المستأجر، إلا كصورة بعيداً ضئيلة الحجم. كان المنزل الكبير باهتاً مغطى بالغبار، وهذا ما لم يبدُ عليه من بعيد. الباب الكبير كان قد تبدَّل لونه بفعل الطين والغبار، أمّا النوافذ فكان ما حطّ عليها من عوامل الطقس يمنع الرؤية بوضوح من خلالها.

لم يطرق أندي الباب بل حاول دفعه، لكنه كان موصداً. سار حول المنزل مستغرقاً وقتاً طويلاً؛ بسبب حجمه الكبيرة، بحث أندي عن أي باب آخر، ولم يجد إلّا باباً خلفياً مشابهاً للباب الأساسي. حاول أندي أن يدفعه، لكنه كان مغطى بالغبار والطين، حتى شرفة المنزل كانت مُغبرَّة، وتركت أقدام أندي

أثرها عليها. لا يوجد أيّ أحد هنا، وهذا الغبار يؤكّد عدم دخول أحد أو خروجه من هنا. هل تلك المرأة تعيش في الداخل موصدة على نفسها الأبواب، ولم تخرج منذ وقت طويل؟ فكّر أندي في هذا السؤال، ووجد أنه غير عقلاني أبداً.

عاد أندي مهرولاً في وضح الصباح؛ فهو لم يكن يتحمّل فكرة وجود شبح امرأة خلف جدران هذا المنزل. لم يكن الخوف ناشئاً من فكرة وجود كائن غريب، فالسيد ثلاثاء كان بالنسبة له أقصى مراحل الغرابة، وإنما شعر بالخوف؛ لأنه تطفّل على سكون هذا الشبح القاطن هنا.

وصل إلى منزل الضيوف، ودفع الباب سامحاً للنور بالتدفق خلفه إلى الداخل. انعكس ظلّه طويلاً على الأرضية الخشبية. في تلك اللحظة أتى صوت والدته وهي ما تزال تهبط السلم: "أندي، أهذا أنتَ؟"

"نعم يا أمي، لقد كنتُ في الخارج".

ظهرت أمُّه أمام السلم فجأة، وقد بدا النعاس واضحاً على وجهها. قالت له: "شعرتُ بالقلق عندما لم أجدكَ في فراشكَ. هل نمتَ جيداً؟"

"أجل، لقد نمتُ بما يكفي لأحصل على هذا النشاط". ابتسمت الأم، وتركته في مكانه متّجهة إلى السلم من جديد، صاحت آمرة أندي أن يغلق الباب؛ حتى لا يتسلّل البرد إلى المنزل.

جلس أندي بصحبة الرواية على شرفة المنزل الصغير، وبجواره كوب حليب ساخن تركته والدته قبل أن تختفي في الداخل من جديد. كانت تنتظر والده حتى يستيقظ فيتناولون الإفطار مجتمعين. تسرّب إلى أندي شعور بالخوف؛ لأنّ الملل بدأ يتسرّب إلى حياته هنا، وهذه المغامرة ما تزال في بدايتها. فكّر فيما يستطيع فعله في الأيام القادمة، لكنه لم يجد أية خطة ذات معنى. لم يُنهِ أندي الربع الأول من رواية جوليا؛ لأنها كانت أثقل مما كان يقرأه سابقاً، ومليئة بالخيال الذي لم يصل هو إلى مرحلة فهمه، لكنها كانت تتحوّل من كتلة مملة، إلى قصة ممتعة بعد أن ظهرت الشخصيات الأساسية كلها.

"أندي، سيكون الطعام جاهزاً. تعال إلى هنا، هيا". سمع أندي نداء والدته من خلال النافذة. طوى غلاف الكتاب، واتجّه إلى الداخل حيث كان والده ينتظره جالساً على المائدة.

في انتظار وصول الطعام سأل أندي والده: "أبي، هل هناك من يعيش في المنزل الكبير؟"

"لا، هذه العزبة شبه خالية إلّا من الحراس الذين تركهم المالك الجديد حتى لا يقطع دخلهم. لكن لا أعتقد بأنه انتقل إلى هنا؛ فالمكان خالٍ حسبما أخبرونا". تفهَّم أندي الغموض الموجود في الإجابة فوراً. هناك خطب ما عليه أن يفهمه. لكنّه لن يملك الجرأة لدخول المنزل وحده.

في عصر اليوم وصل حارس العزبة، وبيده كيسين منتفخين. لم يكن بحاجة للطرق على الباب؛ فأندي كان قد استقبله عند الشرفة. سأله الطفل عن هويته، فأخبره بأنه أحد حرّاس العزبة، وبأنّ هناك من ترك هذه الحاجيات لعائلته. هبط أندي عبر عتبات الشرفة، وباشر بحمل الكيسين، لكنَّهما كانا ثقيلين.

"لا يمكنكَ حملهما بمفردكَ. سأحملهما أنا".

رفض أندي: "لا تقلق، يمكنني نقلهما إلى المطبخ وحدي".

علّق الحارس: "لا تكُن عنيداً! دعني أساعدكَ على الأقل". في تلك اللحظة فتحت والدة أندي الباب، وتقدَّمت نحوهما وحملت بدورها الكيسين. شكرت الحارس على مساعدته، وتركت أندي يقف بجوار الحارس.

حاول الحارس أن ينسحب لولا أنّ أندي استوقفه: "مهلاً... هل هناك من يعيش في المنزل الكبير؟"

أجابه الحارس فوراً: "لا، لماذا؟ هل رأيتَ أيّ شيء غريب يحدث هناك؟" سأله الحارس، وقد ظهرت على وجهه ابتسامة ماكرة. لم يستطع أندي تخمين ما إذا كان الحارس يتكلّم بجدية أم لا.

"أعتقد بأنني.. لا في الواقع، لا شيء غريب".

قال الحارس: "حسناً أنتَ تعرف بأنه قبل ما يقارب النصف قرن حدث أمر هنا، لا بد من أنّ البلاد كلها تعرف المأساة التي حدثت هنا. على مر نصف قرن، عاشت ثلاث عائلات أخرى، لكنّ أياً منها لم يبقَ طويلاً. المالك الحالي هو من استمرّ في ملكية المكان مدة أطول من سابقيه؛ لأنه لم ينتقل إلى السكن في المنزل الكبير". رحل الحارس دون أن يعطي أندي مجالاً لأي

سؤال آخر.

لم يفهم أندي لماذا كان الرجل يعطيه أطراف الخيوط، بينما يحجب عنه الإجابة الفعلية، لكنّ هروب الرجل كان كما لو أنه اقترف ذنباً ما، ممّا زاد الفضول في قلب أندي. عاد الطفل إلى منزله، وفي وقت الظهيرة شعر أندي بأنّ عقارب الساعة قد توقفت عن الحركة، أو أنّ الزمن كان عالقاً بهم في تلك باللحظة.

عرضت عليه والدته أن يسيرا على الطرف العلوي للأرض، حيث يمكنهما رؤية المدينة من هنا. وافق أندي قبل أن تنهي والدته إلقاء العرض عليه. ارتدى كلٌّ منهما معطفه، وسارا إلى هناك بعكس اتجاه سور العزبة. شعر أندي بأنهما خرجا من الزمن، وانتقلا إلى الحقبة الفيكتورية التي كان يقرأ عنها في الروايات. رأى أنّ في العزبة عدة منازل، ولا يقتصر الأمر على منزلهم الصغير فقط، لكنّ أوضح مبنى من بينهم هو المنزل الكبير.

عندما وصلا إلى الطرف العلوي، كان هناك حاجز قصير عبارة عن حجارة مصفوفة بطريقة غير منظّمة يمنع وصولهما إلى الجرف، لكنّ أندي تمكّن من رؤية الخليج من خلال هذه القمة، كما كان قادراً على رؤية الطرف الساحلي للمدينة. على الطرف الآخر شُيّدت المنارة القديمة على بقعة صغيرة من اليابسة، تمّ بناؤها لتشكل شبه جزيرة صغيرة الحجم.

"تأمّل هذا المنظر...كم هو ساحر!". قالت له والدته.

أجاب الطفل المذهول: "لا يمكننا رؤية منزلنا من هنا". انفجرت والدته بالضحك معتقدة أنّ طفلها يقول ذلك بجدية، لكن أندي كان يمزح مزحة طفولية ليس أكثر.

عاد الطفل لتأمل المنظر، وفكّر فجأة في أن تلك المنارة تظهر له أينما ذهب، إنها محور هذه المدينة، بحيث يمكنكَ رؤيتها أينما ذهبت. هذه هي ذات المنارة التي رآها في كابوسه ذات مرة.

51

يمكن أن يولد الخوف في قلب إنسان بطريقة، قد لا تستغرق الوقت الطويل ذاته الذي يولد فيه الحب، أو يجد فيه المرء السعادة في نفسه؛ لذلك يكون تحريك أوتار الخوف أسهل وأسرع تأثيراً، لكنّ أثر الخوف لا يدوم، بقدر ما يدوم تأثير الحب، لذلك يكون تحطيم العواطف أكثر إيلاماً من أن تنشر الخوف في قلب أحدهم. الخوف شعور متوقّع، لكنّ فقدان السعادة هو شيء قد لا يتوقعه إنسان، ولا يضع خططاً احتياطية لتفاديه؛ لأننا في الأوقات الجيدة لا نفكر في تفادي الحفر التي لا نراها، أو حتى تلك التي نكون على علم بأننا سنسير في طريقها. لذلك عندما تفكّر في إلحاق الأذيّة بالآخرين لا تهددهم بما يخيفهم، بل حاول أن تزيح الراحة بعيداً عنهم.

حاول ماركوس الاتصال بزوجته السابقة ثلاث مرات طوال ذلك اليوم الغائم، وفي المرة الرابعة، بينما كانت يجلس والهاتف على أذنه، والمطر يتَّحِد مع صوت الرنين، أجابت: "ماذا تريد الآن؟"

"عليّ أن أرى الفتاتين. يجب أن تسمحي لي بذلك".

ساد الهدوء ممّا فلم يكن سوى صوت المطر مسموعاً وهو يضرب زجاج النوافذ. قالت فجأة: "هل جُننتُ؟ لقد منعتكَ المحكمة من ذلكن ولا يمكنني أن أسمع لكَ برؤيتهما".

صرخ ماركوس: "عليّ أن أراهن". أقفلت زوجته المكالمة، تاركة إيّاه وحيداً لا يساوره سوى الشعور بالغضب، والإحباط أحياناً. سطع ضوء المساء الخارجي على وجهه، وتركت قطرات الندى ظلّها عبر الزجاج على وجهه، وهو جالس على الأرض.

عادت الأصوات تولد في رأسه من جديد. كتم أذنيه، وردّد لنفسه: "تجاهلْ.. تجاهل". فكّر في نادي الأرق، وفي أنّ ذلك الحشد كان يمنع كل الأصوات من الانبعاث في خياله من جديد.

لستُ مجنوناً.. ردّد ماركوس في نفسه، لكنّ ذلك الصوت لا يخفف وتيرة الأفكار، ولا يقلّل وقعها علينا. يمكنكَ أن تواسي نفسكَ بكلمات من السهل أن يختارها الآخرون، لكنّك وأنتَ تعلم مدى عجزكَ يضيع معناها.

رمى ماركوس الهاتف بعيداً عنه، وكتم غضبه بقدر ما يستطيع. ترك جسده يرتخي على الأرض الباردة، وبأسى حاول أن ينسى الواقع، وأن يذهب بعيداً.

تجعل الوحدة أصوات الحزن أكثر وضوحاً، وليس عليه أن يبقى وحيداً، لا بدَّ له أن يرى من يزيح عنه تلك الأصوات التي في ذهنه، لا بدَّ أن يتغيّر هذا؛ لأن هذا الحال سيرسله إلى قلب الجنون لا محاله.

وصلت كاميلا إلى حيث طلب ماركوس أن يكونا. رأته يجلس وحيداً على مقعد خشبي لا يختلف عن المقاعد الأخرى في الحديقة الكبيرة. ازدادت سرعة خطوات كاميلا عندما تعرفت عليه، ورأته يجلس مولياً ظهره لها. لم يدرك بعد بأنّها هنا، وعندما اقتربت فاجأته بقولها: "أقلقتني يا ماركوس. هل أنتَ بخير؟" التفت إليها، ولكنّه لم يجب على سؤالها. استغرقت كاميلا وقتها في الدوران حول المقعد، والجلوس على الجانب الفارغ منه.

"لا أعلم إن كنتُ بخير يا كاميلا، أم لا!".

سألته: "هل لهذا علاقة بالنادي؟" فركت كاميلا يديها، وحشرت أصابعها في فراغات يدها؛ بسبب برودة الطقس. انتظرت إجابته، بينما كان هو يفكّر في السبب الفعلي لما يشعر به الآن.

"لستُ متأكّداً، لا... ما أشعر به أعتقد أنّ سببه هو كل الخيبات الماضية، حياتي تدمّرت، وليس لديّ ما أمضي من أجله". التقط ماركوس أنفاسه، ثم أكمل: "لا يتعلّق الأمر بالنادي، فما وصل إليه الأمر من جنون، لا يشعرني بالندم على ما فعلتُه".

"لكنّنا أصدقاء يا ماركوس. لا يمكنكَ التخلي عنّا. ولو كُنّا قد أصبنا بالجنون، فهذا يدفعكَ أكثر للبقاء معنا، وليس للتخلّي عنّا؛ فقط لمجرد كون ما نعانيه لا يناسبكَ. إنْ كنتَ ترانا فارغين فأنقذنا".

أجاب بغضب: "إنني أحاول فعل هذا. لديّ من الجنون في رأسي ما يكفي.. الوساوس التي أسمعها في كل وقت تكفيني، ولا مجال هناك لجنون آخر لا يعنيني. إنني أعاني، ولا أجد السبيل لحل هذه المعاناة. أحاول أن أُظهر تماسكي، ولكنّ هذا التمثيل استغرق جهدي كله، والآن نفاد قوتي يسهل عملية التداعي، وأجدني أتهالك بسرعة غريبة. حاولتُ أن أبدو طبيعياً.. متماسكاً، ولكنني ضعيف".

تركته كاميلا يفرغ مافي نفسه من غضب، ثم قالت بصوت لا يشوّه سكون المكان: "هل نسيتَ بأنّنا معكَ؟ ألم تعد تدرك بأنني أنا معكَ أينما سرقتكَ أفكارك؟ إننا صديقان، وهذا واجب الصداقة".

"هذا.. هذا ما كان يدفعني للانتظار يا كاميلا. أنكِ معي. ربما أكون قد نسيتُ بأنّنا أصدقاء، ولكن ليس هذا طعناً بوفاء هذا العهد. إنما لأنّ مشاعري لا تشبه الصداقة أبداً، انتهت هذه المشاعر، وحلَّ محلها الحب".

أصبح صوت مرور النسمات الناعمة أوضح، وحفيف الأشجار البعيدة بدا قريباً. سمعت كاميلا صوتاً بعيداً يصرخ، ثم يضحك بمرح. هذا الهدوء لا يحمل في جعبته إجابات، وهذه السكينه لا تتيح للصوت الداخلي فرصة. شعرت برعبٍ حثّها على إبعاد بصرها عن ماركوس. استغرقت لحظات في التفكير، وبدا الوقت كأنّه ساعة كاملة. حسمت أمرها في النهاية، وعلّقت قائلة: "عليّ الذهاب".

حاولت النهوض، لكنّ ماركوس منعها قائلاً: "انتظري، أنا.. أنا آسف يا كاميلا. انسي ما قلتُه".

شعرت كاميلا بالخوف؛ لأنّ الليل من حولها كان أكثر حلكة، ورائحة التربة التي هطل المطر عليها غدت أوضح لأنفها. "يجب أن أذهب يا ماركوس. يبدو أنكَ لا تتذكّر بأنني متزوجة، وبأن لديّ عائلتي".

"لم أنسَ هذا، وهذا ما منعني من الاعتراف".

"لكنكَ اعترفتَ". نهضت، وسارت مبتعدة عن المقعد عدة خطوات. تبعها ماركوس مكرّراً اسمها، لكنّها لم تجبه. قبض على رسغها وحاول أن يستوقفها. التفتت برعب، لكنها أخفتهُ بمعالم الغضب. "ابتعد عني.. اترُك ذراعي، ولا تحاول منعي! هل تفهم؟" خرج صوتها خشناً كما لو أنه صادر من حنجرة رجل. ترك ماكروس يدها، وراقبها تسير مبتعدة عنه.

حثّت كاميلا نفسها على أن تنسى الأمر، لا يمكنها التفكير فيه، ولا يمكن أن تسمح لهذه الكلمات بأن تتسلّل إليها؛ لأنّ جدار الحياة الطبيعية لديها متهالك. لا يمكن أن يستغل ماركوس مللها من حياتها، في إفساد كلما بنته. وإنْ كانت كاميلا تشعر بالملل من كل التفاصيل السابقة، فهي ليست خائنة،

ولا يمكنها أن تتحوّل إلى تلك المرأة، حتى وإن كانت تشعر ببعض المشاعر الغريبة تجاه ماركوس.

52

اتّصلت جيسي بهاتف المنزل الذي استجارته عائلة أندي، وأخبرتهم بأنّها ستصل إليهم قبل عطلة نهاية الأسبوع بيوم واحد. لم يكن ترتيب الأيام هامّاً بالنسبة لها، ولكن عائلتها لا تملك الوقت لأخذها إلى هناك. دفع هذا الخبر أندي إلى الشعور بالحماس، وأمضى الأيام دون سماع الصوت الذي يتذمَّر في داخله؛ لأن صديقته ستصل قريباً وسيعوض وجودها فراغ كل الأيام الماضية.

حاول الطفل في اليومين اللذين سبقا وصول جيسي أن يستكشف المكان. اكتشف الجزء الغربي منه، كما زار الجزء المرتفع من الأرض مع والدته، والذي كان يطلّ على المنارة، أما في اليوم التالي عاد للمرور بجوار البوابة الكبيرة، حيث كان سور البوابة محاطاً بالأضواء طوال الوقت.

رأى أندي الحارس الذي نقل الحاجيات إلى منزلهم قبل أيام، وأستوقفه قائلاً: "هيه أنتَ. لم تكمل لي قصة ذلك المنزل". استدار الحارس، ونظر إلى أندي بلا مبالاة.

"لا تدع فضولكَ يدفعكَ للخوض في قصص لا معنى لها يا فتى. لا يوجد أية قصة يمكن أن أرويها".

سأله أندي: "مَن شيّد هذا المنزل؟ من هو صاحبه الأساسي؟"

"لكل مكان تاريخه، وفي كل تاريخ حكاية ما. تمتد حكاية هذا المكان زمناً أطول من أن أتذكّره، لكن اللعنة أصابته بعد ذلك الحادث الذي تدمرت فيه عائلة ويلسون. لا أريد تحريف تاريخ تلك الأحداث، ولا أريد أن أزرع الخوف في قلبكَ فتؤنّبني عائلتك على ذلك، لذلك أنصحكَ بنسيان ما قلتُه في ذلك اليوم".

هزّ أندي رأسه في تفهُّم، لكن الصوت الداخلي كان يخبره بأنه لن يستطيع نسيان الأمر. بل دفع هذا الغموض الطفل لاكتشاف الأمر أكثر مما كان يودّ في السابق.

لم يخبر أندي والدته بكل تلك التفاصيل، طوال الأيام القليلة التي قضوها في المنزل الصغير، بل احتفظ بفضوله لنفسه. لقد وجد الطفل في الأمر مغامرة تستحق كل هذا العناء، ولا يريد لحرص والديه أن يمنعه عن معرفة

قصة المنزل. مايزال حتى الآن يتذكّر طيف تلك المرأة التي ظهر له أمام النافذة، وهناك ما يخبره بأنّها شبح؛ لأنها لن تستطيع البقاء في ذلك المكان المهجور لو كانت بشراً. وفي هذه القصة لم يكن هامّاً أن يؤمن أندي بوجود الأشباح أم لا، بل هو يؤمن بما يراه فقط.

وصلت جيسي قبل نهاية الأسبوع بيوم واحد، وفي اليوم الذي أقلّتها سيارة عائلتها إلى المنزل، كان الطقس دافئاً على عكس الأيام القليلة الماضية، ورغم ذلك أجبرتها والدتها على ارتداء معطف مطر جعلها تبدو ضعف حجمها الطبيعي، وقمّته المزينة بالفراء كانت تغطي النصف السفلي من وجهها. كان أندي يترقّبها عند الشرفة الصغيرة، وما أن رآها حتى هبط هاتفاً بصوت لا يشكّل أية كلمة.

قالت والدة جيسي: "عزيزي أندي، أين هي والدتكَ؟" لكنّه قبل أن يجيب فتحت والدته الباب، وخرجت لترحّب بوالدة صديقة أندي، والتي جعلها هذا الرابط تشكّل علاقة لطيفة معها.

تخاطبت المرأتان فيما كان أندي يرحّب بصديقته، وما سمعه أندي بوضوح هو الجملة الأخيرة التي قالتها والدته لوالدة جيسي: "لا تقلقي، سيكونان بخير".

هتفت والدة جيسي بينما كانت تعود إلى سيارتها: "عندما يجتمعان لن تستطيعي توقُّع ما سيفعلانه". وجّهت الأم كلماتها لجيسي فجأة: "وأنتِ يا جيسي كوني لطيفة، هل تسمعين؟"

"حسناً". قالت جيسي دون اكتراث لكلمات والدتها. رحلت والدتها، دون أن تشعر جيسي بذلك، ولم تسمع حتى صوت العجلات وهي تدور بسرعة على الطريق الرملي المؤدي إلى منزل الضيوف. أمرت والدة أندي أن ينقل الطفلان حقيبة جيسي إلى الأعلى.

حمل أندي الحقيبة التي وضعت فيها جيسي مستلزماتها، بينما ساعدته هي في دفع الباب حتى يدلف هو إلى الداخل. سارا إلى السلم دون أن يتحدّثا بأي شيء، وما أن عبرا الممر الضيق، ودخل أندي إلى غرفته حتى طرح الحقيبة وقال: "سأتركِكِ تنامين على السرير، بينما سأنام أنا على الأرض". هزّت جيسي رأسها، لم تعترض أو تشكره حتى. راحت الفتاة تستكشف الحجرة،

وتنقل بصرها في كل الزوايا.

"المكان هنا جميل يا أندي".

ابتسم الطفل ثم قال: "هذا ما تراه والدتي أيضاً".

التفتت جيسي إليه وقالت: "وما الذي تقوله أنتَ؟ ألا يعجبكَ المكان هنا؟" أخبرها أندي بأنّه على عكس ما ظنَّت، فهو يحبُّ المكان، لكنّه يشعر ببعض الملل. لكن طالما أنَّ البقاء هنا يخدم والده، فهو لن يرفض أن يبقى هنا ويقاسي الأوقات المملة.

"هل تشعرين بالجوع؟" سألها أندي.

"لا، لقد تناولتُ فطوري في المنزل قبل أن نأتي إلى هنا. على ذكر الجوع، كيف تحصلون على الطعام هنا؟ هل يوجد أيّ سوق قريب". سألته جيسي بطريقة طفولية ساذجة.

قهقه أندي قبل أن يجيب: "نحن لا نسكن على قمة جبل، أو في الصحراء. السوق قريب من هنا، ويمكننا طلب أغراض البقالة من الحارس، وهو سيحضرها إلى هنا". شعرت جيسي بالحرج؛ بسبب ما فكرت به هي.

ناداها أندي الذي كان يقف بجوار النافذة، وما أن اقتربت، حتى أشار إلى المنزل الكبير الذي كان يبدو بوضوح من خلال النافذة، وسألها: "هل ترَين المنزل هناك؟" أصدرت جيسي صوتاً يدلُّ على أنّها تفعل. "إنّه منزل المالك الأصلي، وهو مهجور، لكنْ أتعلمين ماهو الغريب؟ لقد رأيتُ امرأة تقف بجوار النافذة في أول ليلة قضيتها هنا".

تنهّدت جيسي ثم قالت: "أندي.. لا تفعل هذا مجدداً. لماذا تهوى اختلاق القصص المخيفة؟ لا تجعل الأفكار المخيفة تطاردكَ إلى هنا".

فكّر أندي في هذا الاحتمال، ماذا لو كان ما رآه وهماً فقط؟ أو ماذا لو كان هذا كابوساً آخر من كوابيس السيد ثلاثاء، ويريد أن يتلاعب من خلاله بعقل الطفل الصغير؟ لم ينسَ أندي بأنَّ ذلك الرجل الغامض هو عدوّه، ويريد أن يسلب منه خياله.

"جيسي، إنّ للمنزل قصة غامضة. لا أعلم ما الذي حدث تحديداً، ولكنّ الحارس يتحدّث كما لو أنّ مأساة أصابت المكان، ودمّرت الحياة فيه. هناك

ثلاث عائلات سكنت في المنزل، ولم يبقَ أحد منهم طويلاً. المالك الحالي هو أطول من ترك هذا المنزل في عهدته؛ لأنه لم يسكن فيه بعد".

أثار هذا الجانب من القصة فضول جيسي، ولكن الجزء العقلاني من تفكيرها أراد أن يرفض. وقعت عيناها مباشرة على عيني أندي، ورأت صدق إحساسه بهما. سألته: "وكيف سنعرف أصل هذه الحكاية؟"

"لستُ أدري. دعينا نستشكف ذلك بأنفسنا".

53

لم تشعر كاميلا بدخول ابنتها إلى الحجرة المكشوفة من الجانبين، والتي كانت عادةً ما تجلس فيها لتقرأ كتاباً، أو لتجري محادثة هامّة مع أشخاص مختلفين. لم تستجب كاميلا لنداءات ابنتها الخافتة، وكانت الأخرى تحاول ألّا تعكّر صفو هذا الهدوء على والدتها. هناك شيء لا يمكن تحديده كان قد تغيّر في مشاعر ليديا. تدفّقت العاطفة في قلب الفتاة بطريقة مفاجئة، وأصبحت أقرب إلى أسرتها ووالدتها تحديداً.

"أمي.. أمي". استعادت كاميلا تركيزها، وتلاشى المشهد الذي كانت تراه. تلاشت ذكرى ماركوس وهو يعترف لها بحبه، وكذلك تبخّرت احتمالات ضعفها مع تلك الكلمات.

"ما الأمر؟" سألتها كاميلا بلهجة غاضبة، لكنها لم تتعمّد التحدُّث بهذه النبرة. لكن ليديا لم تهتم للأمر كثيراً فهي تشعر بتشتت والدتها في هذه الأيام. جلست ليديا بالقرب من كاميلا، واحتضنتها دون أنْ تتحدّث بأي شيء. كرّرت كاميلا هامسة: "ما الأمر؟ ماذا هناك يا عزيزتي؟"

"لا شيء، كنتُ أفكر فقط في كل الأوقات التي قضيناها، دون أن نحرص على تفادي الأوقات الصعبة في المستقبل. ففكرة أنّ العائلة شيء مضمون في الحياة تبدو سهلة، لكنّ صعوبة تخيُّلنا بعيدين عنهم تغيّر كل شيء. لا أتصوَّر أن يحدث أمر سيِّئ لكِ".

طوّقت كاميلا ابنتها بذراعيها. "هناك أمور من السهل اللجوء إليها؛ لأننا نعتقد دائماً بأنّها باقية: العائلة.. الأصدقاء، وأشياء كثيرة، يشبه وجودها الماء، ومهما ابتعدت فلا بُدَّ للغيوم أن تأتي بها يوماً ما. لكننا لا نفهم المقدار الحقيقي للأشياء، إلّا عندما تنقطع أمطارها عن أراضينا. من الجيد أن تفهمين هذا، ولكن التفكير في احتمالات المستقبل يدمّر الواقع يا ليديا. لا تفكّري في أمور لم تحدث بعد".

"أمي.." نادت ليديا وهي في حضن والدتها.

- "ماذا أيضاً؟"

- "أنا آسفة؛ لأنني لم أكُن ما تصورتِ. آسفة؛ لأنني قضيتُ كثيراً من

الوقت، وأنا أتصرّف بأنانية. كنتُ أشعر بكل لحظات الفراغ الموجودة في هذا المنزل، وفعلتُ كما فعل والدي، لم أكلّف نفسي عناء تغيير أي شيء".

نظرت كاميلا لابنتها، ودفعتها لتصبح موازية لها، ثم قالت: "اسمعي، لا أريد منكِ أن تعتقدي بأنّ حبي لكِ قد يتغيّر مهما كنتِ أنانية.. أو حتى جيّدة. عاطفتي واحدة لن تختلف، وهي ليست مشروطة مهما تغيّرت علاقتي بكِ. أنتِ ابنتي الوحيدة، وسأبقى على حبكِ مهما تغيّرت الأمور. لا تُلقِ اللوم على نفسكِ لأي سبب كان".

ابتعدت ليديا عن والدتها، لكنهما كانتا ماتزالان تجلسان على الأريكة ذاتها. قبضت ليديها على ذراع والدتها. "أخبريني إذاً، هل ما وجدتِه في مكتبة جدي حقيقي؟"

فكّرت كاميلا في مدى تأثير ما ستقوله، وهي لا تريد أن تُقحم ليديا فيه الآن؛ لأنها ليست متأكّدة من مدى صحة هذا المعتقد، لكنّها قرّرت البوح بكل ما تعرفه؛ حتى تعرف ابنتها كيف يمكنها أن تحمي نفسها: "أنا لم أرَ ما رأيتِه أنتِ، وكونكِ أنتِ المُطارَدة، فهذا يدلُّ على وجود رابط حقيقي بينكِ وبين الرابطة، أو كما أعتقد أنا بأنّ العضوية تنتقل بالدم".

سألتها ليديا: "لكن ألم تقولي بأنّ تاريخ تلك الرابطة قد اختفى الآن؟"

"ليس هناك أيّ شيء مدوَّن، لكن الدم ما زال متوارثاً". شرحت كاميلا لابنتها، كيف وجدت هذه المعلومات، وأخبرتها بأنّ المكتبة لا بدّ أن تحتوي على معلومات أكثر، لكنها لا تملك الاستعداد الكافي لاكتشاف كل شيء. كان الأهم من معرفة تاريخ أسلاف زوجها، هو حماية ليديا في هذه اللحظة.

ذهبت ليديا إلى الأعلى قبل أن تقرّر كاميلا أن تخلد إلى النوم هي الأخرى. وبعد أن سئمت كاميلا البقاء في عتمة هذه الحجرة، قرّرت أن تصعد إلى حجرتها. عاد اضطراب النوم إليها مرة أخرى، ولن تنام هذه الليلة إلا بفعل الأقراص المنوّمة. ابتلعت قرصاً من العلبة الموجودة في الجرار المجاور لسريرها، وتركت الأفكار تذوب وتتلاشى حتى يأتي النعاس الكاذب، ويسرقها من الواقع.

استيقظت بسبب برودة الهواء، حاولت أن ترفع جسدها لكنه كان مشلولاً. كانت عيناها تريان كل شيء، ولكنْ لم تكن الصورة واضحة تماماً. كان

يمكنها أن ترى الستائر التي تغطي باب الشرفة، وهي تلوح في الهواء. ومن خلف لونها الشفاف كان هناك ظل رجل يقف، ويراقبها.

حاولت كاميلا النهوض، لكنّ جسدها خانها.

عجز صوتها عن عبور فمها.

لم يبقَ أمامها سوى أن تراقب الرجل، وهو يتجاوز الضوء الخارجي، وبصعوبة يسير تحت الظلام الذي يشوبه اللون الرمادي. كان يقترب بهدوء من كاميلا فهو متأكّد من أنّها عاجزة عن الهرب. أرادت أن تصرخ، حاولت من جديد، لكن ما خرج من فمها هو صوت مُكمَّم لا يصل حتى إلى ذلك الظلّ الذي كان يتقدم إليها.

اشتعل الفتيل في عينيه، وبرز منه ضوء خافت. ازدادت برودة الهواء، لكن رغم ذلك كانت كاميلا تغرق في عرقها. تمنّت لو أنّ ابنتها قريبة؛ لتشعر بعجزها، لكن... لا، من حسن الحظ أنها ليست هنا؛ حتى لا يؤذيها هذا الظلّ الذي يطاردها. يجب أن تُحذِّر ليديا من وجوده. لم تعد كاميلا تفكّر في أهمية حياتها، بل إنَّ كل ما تريده هو حماية ابنتها.

هل سيحميها فيكتور؟ هل سيدرك وجود كل هذه الاكتشافات، أم أنه سيعتقد بأنّ ليديا مجنونة؟

اقترب الغريب منها، وراح يزحف فوق لحاف كاميلا كغبار أسود لا وزن له. تشكل أمام وجهها من جديد على هيئة إنسان لا ملامح له، إنما هناك عينان تشعان بضوء أحمر خافت، كانتا تراقبانها وتتلذذان بعجز كاميلا عن القيام بأي شيء.

ليديا.. جوليا.. النادي.. الظل، كانت هذه هي كل الأشياء التي فكّرت فيها قبل أن يتلاشى الواقع من جديد.

54

قلبت جوليا لافتة متجر الكتب؛ لتعلن أنَّ المكان مغلق. لم يتبقَ سوى نصف ساعة على انتهاء وقت العمل، لكنّها كانت منشغلة بما هو أهمّ بالنسبة إليها. ابتعدت عن الباب، وعادت للجلوس بجوار إيفان، وكلاهما كان يجلس مقابل فيوليت وماثيو.

أحياناً تضعك الحياة في مضمار واحد، ولكنها توسّع الحدود، بحيث تجعلكَ قادراً على تصديق أنكَ تبتعد عن نقطة البداية. ما أن تكتشف بأنكَ تسير في ذات المضمار، حتى تقُلّ رغبتكَ في تحدّي نفسكَ وتجاوز هذا السور. أحياناً تكون العدو الذي يدفعكَ لكل التجاوزات، لكنكَ عندما تكتشف بأنك أنتَ شبيه بكل ما تقوم به، فإنّ الاختلافات الصغيرة في الحياة لا تعود هامّة، ولا تترك الأحداث لكَ سبباً حتى تكمل سباقك من أجله.

"إذاً جودي هي والدتكِ حقّاً؟" سألت جوليا فيوليت.

"أجل، وهي أيضاً عضو في الطائفة التي حدَّثتنا عنها كاميلا، وإنْ كان الأمر متوارثاً حقّاً، فأنا كذلك عضو آخر فيها، وليديا حتى. تقول جودي بأنه ليس من المشترط أن يطاردنا الشر لأننا أعضاء، أو لأننا نرث العضوية. إنما يكفي أن يكون لدينا ما يميّزنا".

سأل إيفان: "ولماذا يجب أن تصدقوا تلك المرأة. إنها تعيش في مشروع صغير لانقاذ المشردين، وإن كانت عضواً في أي شيء، فكيف إذاً آل بها الحال إلى العيش هناك؟"

أجابت فيوليت: "هذا ما فكّرنا به أنا وماثيو". التفتت لتستقبل تأييداً من ماثيو الجالس بالقرب منها. "لكنَّ حقيقة أنها والدتي لا يمكن إنكارها".

قاطعتها جوليا: "وكلامها يملأ فراغاً كُنا نبحث له عن إجابة. أعطتنا إجابة على سؤال. هذا يعزّز مدى صحة كونها محقّة".

قال إيفان: "أنا معكم يا جوليا. لستُ أنكر ما يحدث، لكن لا تدعو الخوف يدفعكم لتصديق كل شيء". كان محقّاً فيما قاله. الخوف يرتبط بالعجز أحياناً، والعاجز مدفوع لتصديق أي شيء؛ حتى يخرج من بحيرة مخاوفه.

"تقول بأنها تركتني من أجل حمايتي؛ فأعضاء الطائفة معرضون للخطر

دائماً، ولأنهم الأقرب من تحدّي الشر، فالشر يريد أولاً تدمير السد الأكبر، حتى يتمكّن من التسلُّل بسهولة إلى كل العالم". أكملت فيوليت شرح اللقاء بالتفصيل حتى اللحظة التي ودَّعتها فيها جودي. "لم تكن مهتمة لفكرة عودتي، ودّعتني ببساطة، وقالت لي بأنها ربما تؤذيني إذا اقتربت مني". صمتت فيوليت ثم قالت بغضب: "لا يمكنني أن أغفر لتلك المرأة أي شيء".

سألها إيفان: "ألم تخبركِ بتفاصيل موت والدكِ؟ أو مَن هو". هزّت فيوليت رأسها نفياً. عرض عليها إيفان: "يمكنني الوصول إليه عن طريقها هي. يمكنني البحث في معلوماتها أكثر لو أردتِ".

قالت فيوليت: "إن كان ميّتاً حقّاً فما الجدوى من العثور عليه؟" انتهى اللقاء دون أن يجيب إيفان على كلمات فيوليت. خرجت هي بصحبة ماثيو مبتعدَين عن المتجر، وكانت جوليا ما تزال تسمع صوتَ اللافتة الخشبية وهي تضرب زجاج باب المدخل.

قال إيفان لجوليا: "سأمشي حتى نهاية الطريق، وآتي بسيارتي إلى هنا". أرادت جوليا أن تعترض، وتخبره بأنها ستسير معه، لكنْ ما أن تذّكرت برودة الطقس حتى تراجعت عن ذلك. خرج إيفان ورأته من خلف الواجهة الزجاجية يبتعد. حملت هي أغراضها، ودسّتها في حقيبتها.

خرجت جوليا، وجرّت باب المتجر خلفها وثبتّتهُ، وبيدها الأخرى كانت تدير المفتاح في القفل. رمت المفتاح في جيب معطفها، وتركته يسقط بحرية حتى يثبت في نهاية جيبها الواسع. استدارت نحو الاتجاه الذي سار فيه إيفان، لكنّها شهقت لما رأت ما لم تتوقّع وجوده.

وقف أمامها ظل أسود مطابق تماماً لذلك الذي كان يراقبها تحت ضوء الطريق المقابل لمنزلها. كانت تقف هي وهو تحت ضوء إعلانات مضاءة بصابيح نيون قديمة. رغم سقوط الضو على الرجل إلى أنه كان مغطّى بالسواد كاللصوص. تراجعت خطوة واحدة، لكنّه اقترب منها بسرعة.

قبض الرجل على عنق جوليا ورفعها في الهواء. شعرت جوليا بالاختناق. أفلتت حقيبتها لترتطم بالأرض. حاولت أن تحرّك يديها وأن تصل إلى رأس الرجل، لكنها عجزت. أعاقها الاختناق عن التفكير. راقبت وجهه، ورأت خلف قناعه الأسود الضوء الخافت ينبض وبالكاد يمكن رؤيته.

شعرت جوليا بالموت يقترب منها بسرعة، رغم أنّ اللحظات التي ظلّت فيها معلقة بالهواء كانت بطيئة. سقطت فجأة على الأرض، ولامس جسدها الرصيف البارد. كانت برودة الأرض شبيهة بصعقة أعادتها إلى الواقع. رفعت رأسها لتجد إيفان يحاول النهوض من أمام مصباح سيارتها، التي أوقفها بطريقة عشوائية فوق الرصيف.

"أين ذهب؟" سألها إيفان. "لقد قبضتُ عليه، لكن ما أن رفعتُ جسدي، حتى تلاشى كأنه هواء". راقب الطريق خلف جوليا، ولم يجد أيّ أثر لذلك الرجل الذي حاول قتل جوليا. لا تتذكّر جوليا وصول سيارة إيفان إلى هنا، ولا تتذكر حتى هجومه على الرجل. عاد ضوء العالم إلى عينيها، ومع مرور الوقت استعادت جوليا حيويتها من جديد.

"لا يمكن أن يتلاشى من بين يدي هكذا" علّق إيفان وهو يساعد جوليا على المضي إلى السيارة التي كان نصفها يقف فوق الرصيف الحجري، والنصف الآخر استقرَّ في الشارع. لم تُجِب جوليا عليه؛ لأنها كانت ما تزال تحت تأثير صدمتها.

جلست بجوار إيفان، وراح هو يقود السيارة بغضب متّجهاً إلى منزلها. بدأت جوليا بالبكاء فجأة عندما أدركت خلاصها من قبضة ذلك الشيء الغريب. "لو.. لو لم تكن هنا"

لكمَ إيفان المقود وصاح: "كنتُ قريباً جداً". لم يساعد غضب إيفان في تغيير حال جوليا، بل ازداد خوفها، وراحت تجهش بالبكاء كالأطفال. التفت إليها وهو لا يدري ما الذي عليه القيام به الآن؟!

قالت جوليا: "لم يكن ذلك إنساناً، عيناه... النظر في عينيه يؤكد". قالت جوليا هذا رغم أنه لم ترَ عينيه، بل إنَّ ما رأته هو ضوء عميق في تجويف عينيه الفارغتين.

استعادت جوليا رباط جأشها بعد محاولات عديدة من إيفان في تهدئتها. التزمت الصمت طوال الطريق، وقبل أن تصل إلى المنزل قالت: "لو لم تكن هناك، لكنتُ الآن في عداد الموتى. خلّصتني من الموت للمرة الثانية".

"أخبرتُكِ بأنني سأكون دائماً موجوداً" ابتسم إيفان رغم أن تلك اللحظة لا تدعو إلى ذلك. أتت ابتسامته بمفعولها المطلوب، وبددت قلق جوليا ممّا حدث

رغم أنّ الرعب كان مايزال هو المسيطر. "لن أتركِكِ هنا وحدكِ يا جوليا".

"بل عليكَ أن تفعل ذلك يا إيفان".

قال إيفان بعناد: "سأبقى في الخارج لو كان هذا يناسبكِ، لكنّني لن أتركِكِ الليلة أبداً.

"لا نعلم إلى متى سيبقى هذا الخطر محدق بنا، ولن تقضي كل أيامكَ في مراقبتي".

ردّ إيفان بالعناد الطفولي ذاته: "بل سأفعل لو تطلّب الأمر". حينها لم تقوَ جوليا على الرفض. أخبرته بأنه سينام على الأريكة في غرفة المعيشة، ولم تخجل من الموافقة؛ لأنها كانت تشعر بخوف فعلي.

عندما دخلا إلى منزلها، اختفت جوليا، ثم عادت حاملة وسادةً ولحافاً من أجل إيفان. "أنتَ تعرف مكان المطبخ، ودخوله متاحٌ لكَ طوال الوقت". أرادت جوليا أن تتركه وتذهب إلى حجرتها، لولا أنَّ رنين الهاتف كان قد استوقفها. لم يكن هاتفها هي، بل كان هاتفه هو.

شعرت جوليا بالخجل؛ لأنها تتطفل على مكالمته، لكنّ قدميها لم تساعداها في الذهاب بعيداً عنه. سمعته وهو يجيب على الهاتف، ويتحدّث مع شخص يدعى جيمس. سأله إيفان: "ماهو العنوان؟ حسناً.. حسناً. أين هو الزوج؟" ساد الهدوء من جديد، وكان الصوت المسموع هو صوت الرجل عبر الهاتف. سأله إيفان من جديد: "ابنتها؟ هل هي بخير؟" اعترى الفضول دماغ جوليا. اقتربت من إيفان، وحاولت أن تستلخص أي شيء من ملامح وجهه.

أغلق الهاتف، ثم جلس على الأريكة التي ترك عليها اللحاف. ضمّ إيفان الهاتف بكلتا يديه، ثم قال موجهاً كلماته لجوليا التي كانت تقف مترقّبة: "جوليا، إنها كاميلا. لقد انتحرت". شهقت جوليا، وكتمت فمها بكفيها. "ابنتها هي من وجدتها، والزوج هو من أبلغ عن الأمر".

55

جلست ليديا على عتبات السلم الحجري المقابل للباب الرئيسي في منزلهم. لم يرها أحد، ولم يقترب منها رجال الشرطة؛ لأنهم كانوا قد وصلوا للتو. كان أحدهم يستجوب الزوج، وبعضهم يطلبون الإسعاف حتى ينقلون جثتها إلى المستشفى. لم يبقَ هناك أيّ شك في أن كاميلا قد فارقت الحياة. كانت مجرد جثة هامدة وباردة هوت من شرفة غرفتها. كان فيكتور يبكي، لكنه كان قوياً بما يكفي لكي يتحدث، ويخبرهم كيف وجد ليديا تراقب والدتها في الحديقة دون أي رد فعل.

وصل إيفان إلى منزل فيكتور وكاميلا، ولم تتركه جوليا يذهب إلى هناك بمفرده. كانت جوليا رغم توترها تفكّر، في أنها كانت المقصودة بذلك، ولكن الأمر آل إلى كاميلا في النهاية. لكن ماذا لو كان ذلك الشيء يريد قتل كل الأعضاء، ولم يتمكّن إلا من كاميلا. حاولت جوليا أن تصل إلى أذهانهم، لكن قدرتها عجزت عن التوجُّه إلى أي مكان محدد، بل ظلّت عالقة في رأس جوليا، ولم تتمكّن من التواصل مع أيٍّ منهم، كما أنها فقدت القدرة على التواصل مع أندي منذ انتقاله إلى منزل العطلة. أخرجت جوليا هاتفها، وقرَّرت أن تتواصل معهم بصورة طبيعية، فبعثت برسالة واحدة لكل الأعضاء: هل أنتَ بخير؟

ترجَّلت من السيارة برفقة إيفان، لكن أحد الرجال أعاق طريقها، قالت له: "إنها صديقتي، وابنتها وحيدة هنا". منعها الرجل من الاقتراب؛ لأنَّ المكان كان مايزال في طور الاستكشاف، ولا بدّ من إدراك أيّ لبس هناك، إن وجد. عاندت جوليا رغبة الرجل، لكنّه أصرّ على منعها.

قال إيفان: "دعها تعبر".

قاطعه جيمس الذي ظهر فجأة: "لا يمكن إلا لرجال الشرطة فعل ذلك. إننا لا نعرف من تكون".

قالت جوليا: "أنا صديقة كاميلا وليديا، ولا بدّ من أن أكون مع الفتاة. لا يجب أن تتركوها وحدها في وضع كهذا". أخبرها جيمس بأنّ رجال الشرطة سيهتمون بالأمر. لكنّ ليديا البعيدة ما أن لمحت طيف جوليا حتى نهضت تجري باتجاهها.

قالت ليديا: "كانت تشعر بقدوم هذا، كانت.."

قاطعتها جوليا: "لا تُجهدي نفسكِ". لم تكن جوليا ترغب في أن تفصح ليديا عن أي شي أمام الشرطي الغريب. توقفت ليديا عن التحدُّث، لكنّ جسدها ظلَّ يرتعش بين ذراعي جوليا. أعادتها جوليا إلى المنزل من جديد، وحين لم يبقَ سواهما، سألتها جوليا عمّا حدث.

"لا أعلم". سالت الدموع على وجنتي ليديا. "لم تكن كذلك قبل أن تخلد إلى النوم، كانت ألطف من أي وقت مضى، ولم يوحِ لي ذلك بأنها ستنتحر". فكَّرت جوليا في أنّ كاميلا لم تنتحر، بل إنّها كوالدة جيمي قُتِلت، وظهر الأمر على شكل انتحار. تذكَّرت مارك فجأة، وتخيَّلت كاميلا وهي تقف بجواره في مكان معتم.

قال جيمس لإيفان: "الأمر واضح تماماً. ألقت بنفسها من شرفة غرفتها، وماتت فور ارتطام جسدها بالأرض". نقل رجال الإسعاف جسد كاميلا إلى السيارة، التي كان ضوءها ينعكس على جدران المنزل الحجرية، ويتغيّر كل ثانية. ظلّت جوليا جالسة مع ليديا في المنزل حتى عاد والدها للظهور من جديد.

قال فيكتور زوج كاميلا: "سأذهب إلى المستشفى حتى ننهي كل الإجراءات".

"أمي لم تنتحر، لقد قتلها ذلك الشيء".

قال فيكتور بغضب: "ليس مجدداً، وليس الآن. كُفّي عن هذا الجنون، وانظري إلى أين أرسل والدتكِ".

صرخت ليديا: "ما أرسلها إلى هناك هو أنتَ". شعرت جوليا بالخجل، ففضَّلت الخروج، وترك الأب مع ابنته. لكنَّ كلاهما كان غاضباً، ولا يمكنها الانسحاب ببساطة.

تدخَّلت جوليا: "هذا ليس وقت الانفعال. انتظرا حتى ينتهي كل شيء". لم يكن فيكتور يعرف جوليا؛ إذ إنه كان يراها للمرة الأولى، لكنّه لم يفكّر بأن وجودها قد يسبب خطراً، بل كان وجودها يساعده. خرج فيكتور متجهاً إلى سيارته، وكانت خطّته هي أن يتّبع سيارة الإسعاف التي تحمل جثة كاميلا.

رفضت ليديا البقاء قائلة: "سأكون مع أمي، يجب عليّ أن أكون معها".

"وجودكِ في المستشفى لن يغيّر أي شيء. سترينها خلال التأبين. رؤيتها الآن لن تأتي إلا بالعواقب. أنتِ ماتزالين تحت تأثير صدمة رحيلها، وأي عامل آخر سوف يؤثّر عليكِ بشدّة".

ردّت ليديا: "وعدم وجودي معها الآن سيشعرني بالذنب". كانت ليديا محقّة، لذلك لم تعترض جوليا على اصطحاب الفتاة إلى المستشفى.

***

أدى كسر رقبة كاميلا أثناء سقوطها إلى الموت الفوري. لم يترك الكسر أي أثر، سوى نتوء في العظم، يمكن أن يخفوه خلال التأبين ببعض قطع الأزياء. لم يكن مظهرها في المستشفى يوحي بأي شيء غريب. بالنسبة لفيكتور كانت تبدو نائمة، وفي أية لحظة ستستيقظ وسينتهي هذا الكابوس، ويعود ترف الأمان الذي كان يعيش فيه قبل ذلك. لم يحسب ربُّ الأسرة أي حساب لهذه اللحظة، والآن أمام جثتها هو يتساءل عن الخطأ الذي جعله يفقدها. فيكتور رجلٌ عقلاني، ولا يسمح لأفكاره أن تسرقه بعيداً، لذلك لم يؤثّر في نفسه ذكر أمر اللعنة، بل كان ما قالته ليديا ليس أكثر من خيال مراهقة، تبحث عن سبب تخفي خلفه انتحار والدتها.

عندما خرج من الحجرة التي وُضِعت فيها جثة كاميلا، رأى ليديا وجوليا تسيران في آخر الممر. شعر بالإحباط لرؤية هذا المنظر. لا يجب أن ترى ليديا والدتها وهي على هذا الحال، ولكن ما فائدة الغضب الآن. سأل فيكتور ابنته ما أن وصلتا إليه: "لماذا أتيتما؟"

أجابت ليديا: "أريد رؤية والدتي".

"سترينها في التأبين".

قالت ليديا بعناد: "لن أنتظر". كانت الفتاة أصغر من تتقبّل فكرة الموت وانتظار وقت الدفن، كان للحدث عظمة أكبر في عينيها. "عليّ أن أراها الآن". رفض والدها ذلكَ؛ حرصاً على مشاعرها، فهي لا تقوى على رؤية والدتها بهذه الحالة. "أنا أعلم منكَ بمشاعري، وسأكون قوية. لن أذهب دون أن أراها".

أراد فيكتور أن يصطحب الفتاة إلى الداخل، لكنها منعته. دخلت وحدها إلى الغرفة الباردة، واقتربت من جسد والدتها المغطّى بلحاف أبيض. أزاحت الجزء الذي يغطي الرأس، وكشفت عن وجه والدتها. شعرت ليديا بأن الزمن قد توقف في تلك اللحظة، ومن دون أية قدرة على التحكم، سالت دموعها. "لم أكتفِ بكِ. عندما أدركتُ حقيقة ما أملكه، وما كنتُ عليه طوال السنوات الأخيرة.. لقد رحلتِ دون أنْ أنعمَ بفرصة تغيير هذه الأمور السيّئة". مسحت ليديا دموعها، ثم أكملت بعد صمت قصير: "أنا آسفة، وأرجو ألّا تكوني قد رحلتِ، وذلك الشعور الذي اكتشفتِهِ، ولم تبوحي لي به، مايزال موجوداً".

في الخارج كانت جوليا تقف بجوار فيكتور والد ليديا، وكلاهما أحاط نفسه بصمت غريب. فيكتور حزين، ولا يستطيع تصديق ما حدث، وجوليا خائفة. مرّت لحظات من الصمت قبل أن يسألها في النهاية: "هل أنتِ صديقة كاميلا؟"

أجابت جوليا بحذر: "نعم". وكانت قلقة من أن يسألها عن مكان التعارف.

"هل كنتِ صديقة بما يكفي لتدركي كيف بدت أيامها الأخيرة؟ هل كانت تعيسة إلى حد الانتحار؟ هل تخفي ما لا أعرفه". تحول الجزء الأخير من جملته إلى رجاء.

قالت جوليا فوراً: "لم تكن تعيسة.. بل كانت تشعر بالملل ليس أكثر، ولم يكن هذا خَطِراً إلى درجة الانتحار، لكنّ البشر يضعفون في لحظات مفاجئة لا يتوقعها أحد. لا أعلم ما تعرفه عنها تحديداً، وما يشبه ما أعرفه عنها، لكنكَ أنتَ وليديا كنتما كل شيء بالنسبة لها".

سأل بحزن: "لماذا تركتنا إذاً؟". أرادت جوليا أن تخبره بأنها لم تفعل، وما حدث كان قتلاً، وليس انتحاراً، ولكن كيف ستثبت له حقيقة ذلك؟ وقبل أن تحاول جوليا إيجاد إجابة كاذبة تصبر بها فيكتور، ظهر خلفها إيفان بطريقة مفاجئة. قطع الحديث، وأزاح موجة الحزن المقلقة التي انتشرت في المكان. ثمّ غزا الحزن الاعتيادي قلوب الجميع.

همس لها إيفان: "هل أنتِ بخير؟" استدارت جوليا لتواجهه، ثم هزّت رأسها نفياً بالتزامن مع اللحظة التي لمعت فيها عيناها بالدموع. قالت له بأنها تشعر بالخوف، ولم تحاول إخفاء خوفها، اصطحبها إيفان إلى خارج المستشفى،

وظلا واقفين تحت سماء الليل البارد، يستنشقان هواء مختلفاً عن الموجود في الداخل والعبق برائحة المعقمات.

"لم أتخيّل أن يصبح الموت بهذا القرب منّا، يبدو كما لو أنه يتلاعب بنا".

قال إيفان: "لايمكن لأي شيء أن يمنع الموت، ولكن إنْ كان هناك مَن يحاول إيذاءكِ فأنا موجود لأمنعه يا جوليا".

اختنق صوت جوليا المرتجف، وهي تقول: "لم تكن غير ذلك، منذ أن عرفتكَ يا إيفان".

56

قرّر أندي أن يكتشف المنزل الكبير، طالما أنَّ جيسي كانت موجودة معه، لتمده بالشجاعة الكافية للقيام بذلك. في صباح أول يوم من أيام نهاية الأسبوع، وما أن تناولا الإفطار، قادها عبر الطريق المغطى بالتراب إلى المنزل الكبير. أخبر أندي صديقته عن كل التفاصيل التي يعرفها، وكرر عليها حكاية طيف المرأة في ذلك المكان.

حين وصلا إلى هناك، كانت أثار أقدام أندي ما تزال موجودة، وهي الوحيدة المطبوعة على شرفة المنزل، ولكن الباب كان موصداً، وكانت الشبابيك كذلك أيضاً. لم يجد أيًّا منهما طريقة لدخول هذا المنزل. كان الدخول يشكّل بالنسبة لأندي الإجابة الأخيرة، والتي ستؤكّد ما إذا كان المنزل مسكوناً أو مهجوراً.

قال أندي لجيسي: "لا بدّ أن يكون هناك مدخل للقبو في زاوية ما". استدارا حول المنزل لاكتشاف ذلك، لكنهما قبل أن يجدا مدخل القبو صاحت جيسي لأندي طالبةً منه أن يقترب منها.

"انظر، هذه النافذة مكسورة".

اقترب أندي منها، وقال لها: "احذري؛ حتى لا يُصيبكِ الزجاج بأيّ أذى".

"لا توجد شظايا زجاج، بل مجرد إطار خشبي هشّ". دفعت جيسي الإطار بقوّة، فتهشّم بسهولة، وأصبحت النافذة تكفي لعبور الطفلين من خلالها. عبرت جيسي قبل أن يؤكّد لها أندي لزوم فعل ذلك. عبرت، وساعدت أندي في الدخول إلى المنزل.

للمنزل رائحة كريهة، غبار وعفن، وخشب رطب. قبضت جيسي على أنفها بطريقة طفولية، ثم تذمّرت بكلمات غير مفهومة، لكن أندي أدرك بأنّها تتعلق برائحة المكان. كان المنزل كبير جداً من الداخل، وكان الطفلان يقفان في زاوية بهو كبير، يطلُّ على سلم عريض مواجه لباب المنزل.

قال أندي: "هل عُدنا بالزمن قرناً كاملاً؟" ضحكت جيسي، لكن أندي لم يبتسم حتى.

تجاوز الطفلان البهو نحو السلم، ولم يعرف أندي إلى أي اتجاه عليه أن يقود جيسي، فالمنزل كان كبيراً جداً. لكنّ أندي فكّر في أنّ عليه الحصول على

معلومات عن هذا المكان، ولن يجد أية معلومة إلا في حجرات النوم؛ لذا قرّر أن يصعد إلى الحجرة التي رآى فيها شبح المرأة، والتي كانت تطلُّ على حجرته.

أخطأ أندي الباب مرات عديدة، وكل الأبواب كانت تؤدي إلى حجرات خالية، وبعضها يحتوي على قطع أثاث بالية، لكنّها ليست قديمة جداً، بل هي تخصُّ مالك المنزل الأخير، أو هذا ما خمَّنه أندي.

وجد الطفل أخيراً الحجرة التي تطلّ على نافذة غرفته في المنزل المُستأجر، وكان بإمكانه أن يتخيّل المنظر المعاكس من خلال المنزل المستأجر إلى هذه النافذة. كانت الحجرة أيضاً مهجورة، وقطع الأثاث عبقة برائحة عتيقة، لكن الحجرة كانت كبيرة بما يكفي لتوحي له بأنها حجرة صاحب المنزل.

علّقت جيسي قائلة: "هذا الخزانة، تبدو أكبر سناً من جدتي". أراد أندي أن يشكر جيسي على هذا التنويه. عاد إلى الخزانة وفتحها؛ لأنّها تبدو الأطول عمراً بين قطع أثاث المنزل كلها. أصدرت أبواب الخزانة صوت صريرٍ حاد، وفي جوفها لم يكن هناك أيّ شيء مفيد، مجرد قطع قماش قديمة. عبثت جيسي بها بكسل، وأراد أندي أن ينهاها عن فعل ذلك، لكنّ ما برز من خلف القماش استوقفه.

"هذه الصورة، تبدو كأنها مرسومة أكثر مما يبدو بأنه جرى التقاطها بالكميرة".

سحبت جيسي الصورة العتيقة والمجعدة من يد أندي برفق، وقالت له: "لا بل إنها صورة تمّ التقاطها بكاميرة عتيقة جداً، وجودة الوضوح تبرهن على ما أقوله. لدى والدي بعض الصور المشابهة". عندما قلب أندي الصورة رأى التاريخ المكتوب عليها: (العام الأول من ستينيات القرن الماضي). كما كُتِب أسفل التاريخ بخط صغير اسم "ويلسون". أعاد الصورة إلى وضعها الطبيعي أمامه. كانت تُظهِر له أفراد عائلة صغيرة يقفون متجاورين، أب، زوجة، وابنهما الذي كان شعره يغطي كل جبهته.

"هؤلاء هم آل ويلسون، لماذا ما تزال أغراضهم هنا؟".

قالت جيسي بسذاجة: "لأنهم تركوا المنزل فجأة، وقاطنوه الجدد يحبون القطع الأثرية". فكّر أندي في أنّ بعض الأمور تحتاج إلى أفكار ساذجة،

ريثما نجد حلاً مناسباً لها، بينما تطفو بعض الإجابات على السطح، بحيث لا نحتاج إلى الخوض في عمق الفكرة حولها.

صاح صوت ذكوري بعيد: "من هنا؟". قفزت جيسي من مكانها وشهقت، بينما تسمَّر أندي في مكانه بعد سماع ذلك الصوت. لم يكن هذا شبحاً تعكّرت خلوته بسبب الطفلين، بل إنه الحارس الذي اكتشف وجودهما هنا. أراد أندي أن ينفي وجوده هو وجيسي، وأن يختفيا في الحجرة حتى يذهب. لكنه داهمهما فجأة، ودفع الباب. سألهم بطريقة أبوية: "ما الذي تفعلانه هنا؟"

أجاب أندي بعد أن تلعثم صوته عدة مرات: "كُنّا نشعر بالملل".

"وهل يدفعكما الملل إلى اقتحام هذا المنزل".

قالت جيسي: "لا ولكننا شعرنا بالفضول حيال المكان". اعترفت، وكان الاعتراف أسهل وسيلة لتفادي عُقد الكذب التي كان أندي سيخوضها كلها. طلب منهما الحارس العودة معه إلى الأسفل، ولم يدرك بأنّ الصورة كانت ما تزال في يد أندي. دسَّ أندي صورة عائلة ويلسون في جيبه، وخرج من الحجرة ليتبع الحارس.

سأل أندي موجهاً كلماته للحارس الذي لم يكن ينظر إليه: "ما الذي حلَّ بآل ويلسون تحديداً؟".

"تلك أمور أقسى من أن يعرفها الأطفال يا فتى، إنها أمور كبيرة، لكنّ ربّ الأسرة قتل عائلته". التفت الحارس ليرى معالم الدهشة والخوف على وجه الطفلين. "لقد تسبَّبت هذه الحقيقة بجزعكما، لذلك لا يجب أن تعرفاها".

قال جيسي: "قتل الأم والأبناء؟".

"لا كان له ابن واحد، ولم يجده أحد بعد تلك الحادثة. من المحتمل أن يكون الابن قد دفن في مكان ما من المنزل؛ إذ لم يعثر على جثته أحد. العائلتان اللتان اشترتا المنزل طوال هذه السنوات، أكدتا بأنه منزل مسكون، وبأنّ الأشباح لم تفارقه، لكن لم يتمّ التأكيد من قبل هؤلاء بأن شبح الفتى هو ما كان يحوم في المنزل".

قال أندي بطريقة جعلته يبدو أكبر من سنه: "ولم يبقَ أحد ليشهد على تلك

الحادثة؟ هل هي مجرد قصص متوارثة عبر التاريخ؟"

توقف الحارس فجأة وقال: "كُفا عن العبث، تلك كلها قصص خرافية. إنّ ألكسا هي ابنة الخادمة الموجودة في عزبة آل ويلسون، لكنها كوالدتها مجنونة، ولا تستطيع أن تفيدكما بأية معلومة أبداً. لن تصدقوا حتى ما تقوله من قصص؛ لأنها كانت تهوى رواية الحكايات غير القابلة للتصديق".

استأنف الحارس السير، لكنّ أندي لم يكف عن طرح الأسئلة: "وأين تعيش؟".

ابتسم الحارس دون أن يظهر ابتسامته لهما. "في العزبة الصغير المجاورة، لا بُدّ من أنكما مررتما أمامها، قبل وصولكما إلى هنا". فكّر أندي في كل ما رآه قبل الوصول إلى هنا".

***

في المنزل المستأجر الصغير، وبعد تناول الغداء، كان أندي وجيسي يشعران بأنهما نفدا من جريمة لن تغتفر. جلس الطفلان في غرفة أندي في الطابق العلوي، وكان كلاهما يلقي نظرات متفرقة على المنزل الكبير، كما لو أنهما لم يكونا داخله قبل ساعات. دسّ أندي الصورة التي سرقها تحت وسادته، وعندما تأكّد من أنّ والديه مشغولان في أعمالهما، أخرجها من جديد، وتأمّلها وهو جالس بجوار جيسي.

"في هذه الصورة شيء غريب". قال أندي دون أن يفسر ماهو الغريب في الصورة التي بالكاد يمكن رؤية معالم الأشخاص الموجودين فيها. سألتها جيسي عن الغريب فيها، فحاول أن يشرح ما فكّر فيه: "لا أجد هوية لهؤلاء الأشخاص الموجودين في الصورة".

"هذا طبيعي؛ لأنها مجرد صورة".

قال: "أو قد يكون لا وجود لهم". تأمّل أندي الصورة مطوّلاً، ثم قال: "هذا غريب، في أعينهم عتمة غريبة، تشبه... تشبه". صمتَ لوهلة، ثم هتف بجزع: "السيد ثلاثاء".

وجّهت جيسي نظرها إليه بدهشة: "ستسمعكَ والدتكَ. كيف يمكن أن ينتمي السيد ثلاثاء إلى هؤلاء الأشخاص؟"

"لا أعلم، ولكن الهوية واحدة، جميعهم هنا.. يملكون روح السيد ثلاثاء. لا أعلم من منهم يكون ثلاثاء تحديداً، ولكنّ روح ذلك الشيء المخيف تنبعث من هذه الصورة".

سألته جيسي بإصرار: "ما الرابط بينهم يا أندي؟"

"هذا ما سنعرفه من ألكسا".

57

لم يكن منزل ألكسا يقع بعيداً عن عزبة آل ويلسون التي لم يتغيّر اسمها. لكنه استغرق مسيرة عشر دقائق حتى وصل الطفلان بمفردهما إلى هناك. تجاوزا سور عزبة آل ويلسون، وسارا على الطريق المخصّص للهبوط إلى الضاحية، ولكنهما لم يبتعدا كثيراً، فسور عزبة آل ويلسون مازال واضحاً.

مضى أندي وبخطوات تجاريه بالسرعة كانت جيسي تسير. لم يشعر أيٌّ منهما بالخوف، بل أرادا أن يعثرا على أية إجابة تملكها ألكسا. لا يعرف أندي تحديداً أين يقع منزل ألكسا، والعزبة المجاورة كانت تحتوي على أكثر من منزل صغير، لكنّه سأل أوّل شخص واجهه وكان يجرُّ عربة، رمق الرجل الطفلين باستغراب، فلم يكن هناك من يسأل عنها عادةً إلّا وكالات العمل، التي كانت ترسلها إلى بعض المنازل.

وصل الطفلان إلى المنزل الذي دلهَّما الرجل عليه، وطرقا باب المنزل المكوّن من طابق واحد. خرجت ألكسا ما أن اقترب الطفلان من الباب، وقبل حتى أنْ تلمسه ذراع أندي. "هل أنتما مخطئان في العنوان؟" هزّت جيسي رأسها، فالمرأة كانت تترقب الإجابة منها.

قالت جيسي: "نحن نبحث عن ألكسا".

"أنتِ هي، يمكنني أن أعرف ذلك". قال أندي من خلف جيسي. رمقته ألكسا بعدم اكتراث، وسألته عن ثقته في معرفتها. "لم أركِ من قبل، لكنني أعرف كل شخص أنظر إلى عينيه".

عقدت ألكسا حاجبيها، وقالت: "هذا هراء يا فتى، لسنا في مسلسل كرتوني".

أكّدت جيسي على ما قاله أندي: "إنه يملك قدرة مميزة، يمكنه أن يعرفكِ، وأن يعرف أي شخص آخر بمجرد النظر إلى عينيه".

قال أندي: "والدتكِ تحمل الاسم ذاته يا ألكسا، يمكنني أن أعرف هوية الشخص، وإلى من ينتمي حتى. لكن ما لا أعرفه هو ما رأته والدتكِ في عزبة آل ويلسون".

سألت العجوز: "من أرسلكما إلى هنا لتهزأا بي؟ أولئك الأوغاد...

سأقتلهم!".

قاطعها أندي: "نحن نستأجر منزل الضيوف في عزبة آل ويلسون، وأنا رأيتُ شبح السيدة ويلسون، أو شبح امرأة يظهر غي غرفة نومها، وعندما عبثنا في غرفة نومها وجدتُ هذه الصورة". أخرج أندي الصورة من جيبه، وأظهرها أمام وجه ألكسا. "كشف الحارس أمر وجودنا هنا، وهو من روى لنا تلك القصة، لكنّه لا يعرف كثيراً من التفاصيل".

قالت ألكسا بغضب: "هذا أكبر من أن أرويه لكما".

"بل يجب أن ترويه". رجاها أندي. "إنّ في الصورة كيان ما. إنه.. السيد ثلاثاء، وهو يطاردني دائماً. لا أحد يعلم بالأمر، ولا حتى عائلتي، لكنه حقيقي وخَطِر".

"ثلاثاء". همست ألكسا، ثم أردفت: "يتكرر الأمر من جديد". أشارت إلى الطفلين أن يدخلا إلى منزلها الصغير، والذي كان يبدو متهالكاً من الخارج، لكنه كان على العكس في الداخل.

سألتهم ألكسا: "هل أنتما فقط من يعرف بشأن ما حدث؟"

"لا لديّ أصدقاء يواجهون هذا السيد الغامض، وجيسي لم يحدث لها أنْ صادفت أي شيء سيِّئ". جلس أندي، وشرح لها بمساعدة جيسي التفاصيل، كيف بدأت قصة هذا الكيان الغامض، وفي النهاية وصل إلى جوليا والآخرين الذين رآهم في المكتب. أخبرها أندي بأنهم عرضة للخطر مثله تماماً.

"هل هم من أصحاب القدرات؟"

زمّ أندي شفتيه، وهزّ رأسه نفياً: "لستُ متأكّداً. لا أعتقد ذلك".

سألت جيسي بملل: "وماهي قصة تلك العائلة؟".

فكّرت ألكسا طويلاً قبل أن تعترف فاقدةً الأمل في حفظ هذه الحكاية، التي وجهت إليها تهمة الجنون بسببها. "كانت والدتي تعمل في منزل آل ويلسون، قبل أن يتلبَّس الشيطان روح السيد ويلسون، ويدفعه إلى قتل أفراد أسرته جميعهم. إنه الشيطان هو من وسوس له بذلك. وجدوا جثة المرأة، ولكن الصبي لم يعثر أحد عليه. تقول والدتي بأنه هرب، كما تدَّعي أمي بأنه هو من قتل والدته، وتمّ إلصاق التهمة بوالده. تمّ جر الأب إلى المنارة، وحُبِس

فيها لمدة أيام متتالية دون أن يسمحوا له بالنوم، أو حتى بتناول ما يكفي من الطعام. كان في نظر أهل البلدة ممسوساً، بل أكثر من ممسوس. فقد اعتقد الناس بأنه هو الشيطان نفسه. في النهاية انتحر الرجل المسكين، بعد أن قفز من قمة المنارة. لكنَّ هناك أقاويل تدور حول أنهم قتلوه، وقالوا بأنه انتحر".

تجاوز أندي كل تلك التفاصيل، وراح يتأمّل الصورة التي في يديه، ويتخيّل الأب وهو يتحوّل إلى شيطان. هل الأب هو من قتل زوجته؟ أم أنّ الابن هو من فعل ذلك؟ هناك شيطان تحيط به جوانب هذه الصورة، ولا يمكنه تحديد هويته.

يحاول أندي الآن فهم ارتباط السيد ثلاثاء بكل هذه الحكاية. رفع رأسه من جديد إلى ألكسا وسألها: "في أي يوم حدثت الجريمة".

أجابت العجوز: "في يوم الثلاثاء. كانت أمي هناك طوال اليوم. وانتحر السيد ويلسون في يوم الثلاثاء الذي تلاه". هذا يوضح للطفل ارتباط اليوم بذلك الشخص الغريب. لكنَّ ما لا يفهمه أندي هو أصل السيد ثلاثاء، هل هو من دمَّر تلك العائلة؟ أم هي من أنشأته؟

فكّر أندي في جوليا، وفي الوقت المناسب الذي سيروي لها كل هذه الحكاية فيه، لن يعود قبل موسم عيد الميلاد، ولا يستطيع أن يتَّصل بها ذهنياً كما كان يفعل في الأيام الماضية.

لا يرى أندي أنَّ ألكسا مجنونة، وهو الآن يقف في صفِّها ضد كل شخص اتَّهمها بذلك. إنّها تتحدّث كأي شخص سوي رآه، ولو كان هناك من يستمع لحديث أندي معها، لقال بأنّ الطفل مجنون هو الآخر، لكنّ ألكسا تتفهّم كل جنون يبوح لها الطفل به. روت له تفاصيل الحكاية التي نقلتها والدتها إليها، ولكنّ التشكيك في مصداقيتها مايزال موجوداً؛ لأنّ ألكسا لم تعبر ذلك الرعب بنفسها.

البقاء

58

حضر جميع أحضاء النادي في اليوم الذي دُفِنت فيه كاميلا. كانت ليديا تقف بجوار والدها في الصف الأمامي، وفي الوقت الذي كان فيه رجل الدين يلقي المواعظ على الموجودين، كان فيكتور يفكّر في كم الأصدقاء الصغير الذي ظهر فجأة. شعر بالحيرة وهو يقف بين احتمال أن يكون مُهمِلاً إلى حدٍّ يجعله بعيداً عن حياة زوجته، أو أنها كانت تخفي شيئاً كبيراً جعل حياتها تنتهي بهذه الطريقة البشعة. النار موجودة في كلا الاحتمالين، إذا وقع الأمر على فكرته الأولى فهذا يجعله مُهمِلاً، وهو ما أدركه الآن، ولن يغفره لنفسه. أما الاحتمال الثاني فيعني أنه كان غبيّاً إلى حدٍّ جعل كاميلا تعاني دون أن يشعر هو بما تمرُّ به. نظر ماركوس إلى ليديا الواقفة بجواره، وودَّ أن يسألها ما إذا كانت تحمل الإجابة، لكنّ الطفلة كانت تعاني بالقدر الكافي، الذي يجعلها أضعف من أن تجيب على أي سؤال، كما أنه لم يكن يرغب في أن يرميها في شباكه القاتلة.

غطّت الغيوم السماء، وأصبح العالم مكسيًّاً بلون رمادي حزين، كما لو أنّ الجو توافق مع الموقف ليشكلا معاً ذكرى حزينة لكل الموجودين هنا. وقفت جوليا مع إيفان بجوار ليو وسريزا وماثيو، وأيضاً فيوليت. كان ماركوس يقف بعيداً، وقد أخفى عينيه خلف نظّارة سوداء قاتمة، وقف كتمثال من الشمع، لم يُظهِر أي تعبير، ودون حتى أن يسمح لمشاعره بالاتصال مع مشاعر الآخرين. كان هذا يشعر الفتاتين سريزا وفيوليت بالغضب، أمّا جوليا فقد تفهَّمت الطريقة التي يكتم فيها ماركوس حزنه على صديقته المقرَّبة. في ذلك الوقت كان الرجال يقفون في مجموعة، وكان إيفان، ماثيو، وليو يقفون بينهم دون أيّ اكتراث لما يحدث من تصادم مع مشاعر الموجودين، بل إنهم لم ينتبهوا إلى وجود ماركوس.

لم يبكِ فيكتور، لكنّ تعابير وجهه كانت تظهر مدى الانكسار العميق الكامن في قلبه، حتى إنَّ روحه العاجزة كادت تنطق للجميع بذلك الشلل الذي يمنعها من أن تكون طبيعية. كانت ليديا قويّة في ذلك الموقف. وقفت أمام قبر والدتها بحزم وبغضب. كانت جوليا تفهم رغبتها في الانتقام، وتدرك بأنها غاضبة إلى حدٍّ يعمي الحزن.

هطل رذاذ مفاجئ على رؤوس الواقفين في المقبرة. فُتِحت المظلات السوداء، فبدت كما لو أنها أزهار كبيرة، غطّت رؤوس كل الموجودين. سار فيكتور وليديا باتجاه التابوت لإغلاقه؛ حتى لا يفسد مظهر كاميلا. دفع الأب حاجز التابوت ببطء متيحاً لابنته فرصة أخيرة سريعة لرؤية والدتها. كانت ليديا تراقبها بتمعُّن، وتحاول حفظ كل التفاصيل؛ لأن هذه الرؤية كانت الرؤية الأخيرة لجسد والدتها. في اللحظة التي سبقت اختفاء وده كاميلا فتحت عينيها، ونظرت بجزع باتجاه ليديا. ترنّحت الفتاة، وسقطت على الأرض.

جرت جوليا بإتجاه ليديا. أغلق التابوت. ساعدت جوليا الفتاة على النهوض. حدثت كل تلك الأمور بسرعة غريبة ليست مفهومة. "فقدتُ توازني، هذا كل شيء".

أنهى رجل الدين ما كان يقوله، وتمّ دفن كاميلا بسرعة؛ حتى لا يؤذيهم المطر أكثر. لم يبقَ أيٌّ من الحضور طويلاً. سرعان ما ابتعد الجميع، وظلّ قبر كاميلا مغطى بالتربة الرطبة.

سأل فيكتور ابنته: "هل أنتِ على ما يرام؟"

"أجل" أجابت ليديا باقتضاب.

"لا يجب أن تقسي عليّ بهذه الطريقة. إحساسي وحده يكفي ليهديني العذاب اللازم. أنا أشعر بما تريدين مني أن أشعر به، لذلك لا لزوم لجهود إضافية منكِ". أرادت ليديا أن تخبره بأنّ غضبها هي لن يتلاشى من خلال شعوره هو بالذنب. قد يريحه زوال هذا الشعور بعد وقت طويل، ولكنّ حقدها هي لن يمحوه إلا الغضب.

دلفت ليديا إلى سيارة والدها، وجلست على المقعد المجاور له. قاد هو السيارة بسرعة منتظمة حتى عاد إلى البيت. أغلقت ليديا الباب بقوة عندما ترجَّلت من سيارته، وسارت غير آبهة بوجود فيكتور خلفها. دخلت المنزل، واتجهت إلى غرفتها فوراً.

جلست وحيدة لوقت قصير، لم يسعفها حتى لتخلع حذاءها. فتح والدها الباب فجأة، دون أن يطرقه. اقترب منها وهي جالسة على طرف سريرها، ثم قال بأسى حقيقي: "لم يبقَ سوانا يا ليديا. لا تفعلي هذا إنني أرجوكِ".

"لم تكن معها".

زفر الأب، وقال: "ولم تكوني أنتِ معها، لكنني لا ألقي اللوم على أي شيء بما حدث. ما فعلتهُ هي كان اختياراً. ما أقوله صعب، وتقبُّله أصعب، ولكنه حقيقي".

نهضت ليديا من مكانها وقالت: "لم ترحل باختيارها. هناك ما يطاردني، وأنتَ لا تصدّق الأمر. ذلك الشيء قتلها، ولن يمنع الخطر عني، ولا عنكَ أي أحد... هل تفهم؟ إنّنا معرضان للخطر".

"هذا يكفي يا ليديا. هذا الأمر لا يُحتمل. من التي أتت بتلك الأفكار؟ أنتِ، أم هي؟"

صرخت ليديا: "من أتى بهذه الفكرة هو الخطر الذي أراه، والذي كانت أمي تراه. إنه حقيقي، ونحن رأيناه". عادت ليديا للجلوس مستسلمة، وكذلك فعل والدها، جاورها بكسل، وأطلق العنان لحزنه. كان الصمت ثقيلاً لا يُحتمل ممّا دفع ليديا للبوح له بكل ما مرّت به: "إنه النادي، أكبر برهان على ما عاشته والدتي. جوليا تعرف الحقيقة، وهذه الحقيقة أنا وأنتَ جزء منها، لكنّكَ لا تدرك ذلك".

"جوليا؟" تساءل الأب عن هويتها، لكنّه تذكر صورتها في المستشفى فجأة. "صديقة والدتكِ؟"

"أجل. كانت والدتي عضوة في نادي دعم في الآونة الأخيرة، وجوليا تلك هي التي اكتشفت بأنّ هناك خطر يحدق بنا جميعاً. جدي كان يعرف الكثير، وأمي اكتشفت ما كان يعرفه هو. الطائفة.. تعتقد والدتي بأنّني أنا وأنتَ، وجدي حتى، ننتمي لطائفة ما، كانت تحارب الشر فيما مضى".

كاد الأب أن يبتسم، وهو يتخيّل هذا الحوار في فيلم سينمائي. لكنّ ابتسامته تلاشت عندما تذكّر سؤال كاميلا عن والده. "لهذا السبب كانت تسألني عن أبي في الأيام الأخيرة".

"يجب أن نبحث في مكتب جدي؛ لعلنا نجد شيئاً. كما أنّ عليكَ أن تلتقي بجوليا؛ فهي من تعرف كل المفاتيح. إنها تحاول أن تخلّصنا، وتخلّص نفسها هي أيضاً من ذلك الشر". نهض الأب فجأة، ونادى ليديا كي تتبعه إلى القبو

حيث كان مكتب والده. كان لدى فيكتور ما يكفي من الوقت، ومن الفضول لاكتشاف هذا الشيء الذي دفع زوجته إلى الانتحار.

59

مرّت جوليا بالكثير، وكان هذا المشوار أطول مما كانت تودُّ خوضه. رغم أنّها كانت محطَّمة إلا أنها كانت تتطلَّع إلى حياة هادئة بعيدة عن كل الأفكار، رغم أنّها تدرك بأنّ الهدوء لا يمحو صوت الأفكار، وإنما يُعظِّم الأحزان أحياناً. لكنّ جوليا كانت تفضِّل الهدوء، على أن تخوض كل هذا الرعب. كل ما يمكنها أن تشكر هذا الخطر عليه، هو أنه أهداها أسابيع خالية من الحنين لآدم.

قد تتداعى أحلام إنسان، لكنّ علاج الحياة هو الحياة نفسها، والخوض فيها أكثر يبعدكَ عن كل لحظة ظننتَ فيها بأنّ الأيام قد تدمَّرت دون عودة. لا شيء يدوم، وليس من الضروري أن تكون الأيّام جيدة. لكنّ الأحزان أيضاً عابرة، وهذه الفكرة أكيدة رغم كل ما يحيط بها من خوف. التطلُّع إلى المستقبل أمر غامض، لكنّه يولّد الحماس في روح إنسان أيضاً.

امتزج صوت حركة لوحة الباب مع صوت الرياح التي اندفعت إلى الداخل حين فُتِح الباب. رأت جوليا طيف فتاة قصيرة تدخل إلى المكتبة. كانت الفتاة وحدها، وهي تتجه نحو جوليا، دون أن توجِّه نظرها في أي اتجاه آخر. أدركت جوليا بأنَّ الفتاة ستخاطبها الآن.

قالت الفتاة: "أنا جيسيكا، صديقة أندي".

هتفت جوليا: "أندي! هل هو بخير يا جيسيكا؟"

"أخبرني بأنه لم يتمكّن من الاتصال بكِ، عبر قدرتكِ. هو من طلب مني القدوم إليكِ. لقد قضينا عطلة نهاية الأسبوع معاً، واكتشفنا أمراً غريباً في ذلك المنزل". بلهفة تحرّكت جوليا، وطلبت من جيسي الجلوس على كرسي خشبي من دون أذرع. جلست جيسي وقالت: "كانت تعيش عائلة صغيرة.. أعني في تلك العزبة، قتل الأب ابنه وزوجته، وتمّ حبسه في المنارة الموجودة في البلدة إلى أن انتحر في يوم الثلاثاء. يعتقد أندي أن هذا مرتبط بحكاية السيد ثلاثاء".

لم تفهم جوليا كل تلك التداخلات؛ لأن كل التفاصيل التي قالتها جيسي كانت مبتورة. راقبت جوليا الفتاة ببلاهة، ولم يكن لديها أي تعليق على ما تقوله. قالت لها جيسي: "هناك سيدة تدعى ألكسا، يمكنكِ الذهاب إليها".

شرحت جيسي لجوليا تفاصيل اللقاء بتلك السيدة، كما وصفت لها مكان منزل ألكسا. لم تتمكن جوليا من تخيُّل المكان، ولن يساعدها في الوصول إلّا رؤية صورة فعلية للمنطقة هناك.

***

إنَّ اكتشاف الحقيقة بالنسبة لجوليا كان هو المهمة الأكبر. قلبت اللافتة التي تعلن أنَّ المتجر مفتوح، وأغلقت الباب بعد أن خرجت. كان إيفان في سيارته ينتظرها على جانب الشارع. هرولت بضع خطوات إلى أن وصلت إليه. وما أن اتّخذت وضعية الجلوس المناسبة، حتى قاد إيفان سيارته مبتعداً عن المتجر.

سأل إيفان: "هل الأطفال هم الذين يتحكمون في تفاصيل القصة؟"

"لا هم لا يتحكمون في تفاصيل القصة، وإنني أفهم هذه الطريقة في الحديث. أنتَ لستَ مجبراً على تقديم المساعدة، إن كنتُ لا تثق بي، لكن أنا لن أتردّد في اللحاق بالإجابة". راقبت جوليا وجه إيفان الذي امتعض، ثم عادت ملامحه الطبيعية بشكل تدريجيٍّ سريع.

التفت إليها ما أن أشاحت ببصرها عن وجهه، وقال: "أنتِ تعلمين بأنني لا أفعل هذا بداعي تقديم المساعدة يا جوليا. أقوم بما أقوم به؛ لأنني حريص على حياتكِ، وإن كان ما تفعلينه جنوناً. فمنذ أول مرة ألتقيتكِ بها، كُنتِ تقومين بالجنون نفسه حين ألقيتِ بنفسكِ من فوق الجسر، ولم أتردّد لحظة في أن أتبعكِ. أفعل هذا؛ لأنني أريد البقاء بقربكِ رغم كل ما يحدث في داخلكِ من تناقض. وأيضاً على الرغم من وجود إثرٍ لآدم في قلبك، أنا لم أتراجع لحظة عن محاولة تغيير كل شيء. جوليا إنني أشعر بأنني مهووس بوجودكِ، ولذلك أقوم بأشياء لم أفعلها مسبقاً؛ من أجل اكتشاف ما تبدين عليه في الحقيقة".

"لكنني حقيقية يا إيفان". قالت جوليا بضعف.

رد هو فجأة: "ليس بعد يا جوليا، ستكونين كذلك عندما ينتهي هذا الخطر". غاصت هي في فكرة الوقت، لا تعلم جوليا متى أصبحت أسيرة هذا الانتظار المليء بالتخمين.

قاد إيفان سيارته إلى أعلى البلدة، حيث كانت تقع عزبة آل ويلسون، لم

يبحث كثيراً قبل أن يجد العزبة التي كانت تقصدها جيسي. ركن سيارته بعد أن تجاوز سور العزبة، وبحثا عن منزل ألكسا سيراً على الأقدام. طرق إيفان الباب، وبعد وقت قصير فتحت ألكسا الباب للضيوف المتوقّعين. كانت ألكسا امرأة مسنّة، شديدة النحول، باهتة البشرة، ولها شعر يميل لونه إلى الأبيض أكثر مما يميل إلى الذهبي.

سألتهم المرأة: "أنتِ جوليا إذاً؟" أفسحت لهم الطريق للدخول. لم يبتعد إيفان كثيراً عن جوليا، وكان حذراً أكثر مما يتطلّب الموقف. سارت جوليا حتى حجرة الضيوف، وجلست مترقّبة إيفان حتى يجلس على ذات الأريكة الكبيرة.

"هل أخبركِ أندي عنّي؟"

ابتسمت ألكسا: "أندي طفل مميّز. اكتشف نصف تفاصيل الحكاية وحده، أمّا النصف الذي أملكه أنا فهو هشٌّ، قد يكون حقيقياً، أو لا يكون".

قال إيفان بنبرة جادّة، بدت مخيفة نوعاً ما: "هل حقاً قتل الأب عائلته؟"

"هذا ما يقوله الجميع، وما طُبع في سجلات الشرطة، لكن بعض الحقائق لم يذكرها أي مصدر آخر. تلك الحقائق أكبر مما نراه على أرض الطبيعة، وإنْ وُجِدت بقدر واضح، فإنَّ هناك من يحارب لإخفاءها". عقد إيفان حاجبيه؛ لأن لم يفهم نصف ما قالته.

قالت جوليا: "تماماً مثلما حدث مع مارك. اختفت زوجته في المنارة، وهو يقول بأنّ المنارة كلها اختفت لثلاثة أيام متواصلة، وبعد أن عادت إلى الظهور كانت قد ابتلعت زوجته. وقبل فترة قصيرة انتحر هو في المنارة ذاتها. وجريمة القتل التي تعرض لها جيمي حدثت في المنارة. لم تُذكَر أية تفاصيل غريبة تتعلق بكل تلك الجرائم حتى الآن، وهذا غريب!".

"أخبرتكم أن هناك من يناضل ليخفي الحقائق التي لا تشبه الواقع. العالم أكثر سذاجة من أن يفهم الأمور الأكبر من حجم ما تعلمه إنسان على مرّ التاريخ، ولأن البشر تعلموا الخوف فإنّ أي شيء خارج عن المألوف يخيفهم. لذلك هناك من يحاول أن يجعل الحياة تبدو طبيعية دائماً، رغم ما تطويه الحياة من أشياء غريبة".

سألتها جوليا: "هل هي الطائفة؟ عين الشمس.. أو الشمس السوداء؟"

"لم أسمع بهذه الطائفة من قبل؟" هزّت جوليا رأسها، ولم تفسر لألكسا أمر وجود هذه الطائفة؛ لأنه كما يبدو ليست لتلك الطائفة إلّا أثراً مطبوعاً في التاريخ القديم، والآن هي لا تتحرك. لم ترِ ألكسا أي شيء مختلف عمّا روته لأندي، كانت الرواية واحدة، ولم تفعل ألكسا شيئاً سوى أنّها كررتها على مسمع جوليا، وكانت جوليا أكثر تفهُّماً لتفاصيلها من أندي.

عندما خرجوا من المنزل، عادت إلى السيارة وهي تسير بجوار إيفان. سألها إن كانت تصدق هذه الحكاية، فرفعت جوليا عينيها، وقالت: "أنتَ من يعمل مع الشرطة، وأنتَ من يستطيع الحصول على جواب".

- "لكنها قضية قديمة".

قالت: "أليس من الغريب أن تكون هذه القضية متزامنة تقريباً مع فترة اختفاء الطائفة، كما ذكرت لنا كاميلا؟ حيث قالت بأنّ الطائفة لم تسجل أية عملية بعد الحرب العالمية الثانية، وهذه القضية حدثت في الحقبة ذاتها، ولو أن هناك فارقاً لايتجاوز بضع سنوات".

ابتسم إيفان، وقال: "طريقة ربطكِ للأمور تثير دهشتي". توقَّفت جوليا بجوار باب السيارة، وتحرَّك إيفان حتى وصل إلى جانب قائد المركبة. دلفا إلى السيارة في الوقت ذاته، ولم ينتظرا طويلاً قبل أن تتحرك السيارة بعيدة عن منزل ألكسا، وعلى زجاجها الخلفي، كانت تنعكس صورة للأشجار التي تحيط بعزبة آل ويلسون.

60

رأيتُ دمية روزالي ملقية على الأرض. مرّت أيام طويلة لم يحدث أي شيء يثير رعبي في حجرتي، ولم يكن هذا يثير رعبي مسبقاً. لكن لماذا الآن؟ حملتُها بيد واحدة، كانت خفيفة بين أصابعي، وأعدتُها إلى مكانها السابق. حاولتُ الخلود إلى النوم، لكنّ مشكلة الأرق عادت من جديد وبقوة أكبر. كانت الأصوات تبعث من أعماق رأسي، وفي هذا الزحام القاتل الذي لا يترك للهدوء مجالاً، كانت بعض الأصوات تتحدّث إليّ.

"يمكنك أن تنهي هذا العذاب، ارحلْ، اتركْ هذه الحياة". كنتُ أتجاهل هذه الرسالة، وأدرك بأنه يوماً ما كل هذه الكوابيس ستنتهي، ولن يطول هذا النداء القاتل. كانت شياطيني تُحرِّضني على فعل ذلك، لكنني أتجاهل. لم أعد أستطيع الجري في الخارج؛ لأن البرودة كانت شديدة، وفي بعض الأيام كان المطر يهطل بطريقة مخيفة.

أقضي ساعات متواصلة وأنا أتخيّل صورة سريزا، ولا يفارقني وجهها؛ لأنه يشعرني بالراحة، ولكنّ كان من واجبي أنا تقديم الأمان لها؛ لأنّنا معاً في مركب غارق واحد. كان تواصلنا لا ينقطع، وفي أوقات كثيرة كُنا ننسى تفاصيل نادي الأرق، وكل الرعب الذي أتى بعده.

في آخر لقاء لنا، سألتُها: "هل النادي هو ما بعث هذا الخطر إلينا، أم أنه كان ينتظرنا في كل الأحوال؟"

قالت لي: "جوليا تعتقد أنه يهدّد حياتنا في كل الأحوال".

أخبرتني جوليا نظريتها الجديدة، وهي أنّ هناك من يسعى لتقريبنا أكثر حتى نكون غنيمة أكبر، ولكن ما الذي ينتظره هذا الشيء حتى يقضي علينا؟ السؤال الأهم هو: لماذا أنا؟

لماذا أنا؟ لماذا ليو؟

فتحتُ عينيّ من جديد، وكانت الأصوات قد تلاشت، وأول أضواء الصباح قد أرسلت خيوطها إلى السماء. كنتُ مُرهق، ولا أستطيع حمل جسدي على النهوض، أو حتى على التحرّك من مكانه. سحبت هاتفي، فرأيت رسالة من جوليا تطلب فيها مني أن أعيد الاتصال بها. لم أتردد رغم تقدم الساعة،

واتصلتُ بها.

أتاني صوتها: "هل عكَّرتُ نومكَ؟"

"بل إنه عسير بطبيعة الحال".

قالت وقد بدت مستعدة لقول ذلك: "لديَّ حكاية جديدة لا أعلم إنْ كانت مرتبطة بالأمر، لكنَّ أندي يعتقد بأنه توصل إلى معرفة شيء مرتبط بالسيد ثلاثاء. آل ويلسون. إنّها جريمة وقعت في ستينيات القرن الماضي. أعتقد بأنّ عائلتكَ واسعة المعارف، وقد تكون على دراية بالأمر". أصدرتُ صوتاً يدلُّ على الاهتمام، لكنني لم أفهم واجبي في هذه المهمة. أعادني صوتها إلى الواقع: "ليو؟"

"أسمعكِ. سأسأل والدتي؛ لعلّها تعرف شيئاً عن ذلك".

قالت: "سيبحث إيفان في الأمر أيضاً. أحاول الوصول إلى أكبر قدر من الإجابات".

لم تعطني والدتي إجابة لسؤال جوليا، بل وجدتُ بول في الحديقة، ومن دون أي تخطيط لصيغة السؤال سألتُه: "هل تعرف آل ويلسون. أعتقد أنّ هناك جريمة مرتبطة بهم، حدثت في ستينيات القرن الماضي". كانت بول يعمل في حديقة المنزل، وإنه لمن المعتاد أن أجده في هذه الساعة مستيقظاً.

نظر إليّ قبل أن يجيب مستغرباً: "لقد سمعتُ بتلك الحكاية، وأعتقد أنّ والدي كان مطَّلعاً عليها. لكنني في ذلك الوقت لم أكن قد رأيتُ النور بعد. لكن في طفولتي سمعتُ كثيراً من الأقاويل... حكاية الأب المجنون الذي قتل عائلته".

"لماذا تعتقد أنه قتلهم؟"

أجابت: "لا أعلم يقولون بأنه تحريض من الشيطان. لكن هل تعلم بأنّ الابن لم يمت في تلك الحادثة، بل الأم وحدها ماتت".

"كيف لم يمُت الابن؟ إن لم يقتله الأب، فأين هو الآن؟"

قال بول: "والدي كان صديقاً له، وكان في أيامه الأخيرة في المطبخ يقول بأنه يعرفه. لستُ متأكداً مما إذا كان والدي يعنيه هو أم لا. لكنه يُدعى

فريدريك، وكان يتلقّى العلاج مع والدي. أعتقد أنّ جمعية للإصلاح الاجتماعي قد تدخّلت في تغيير حياة الرجل، وهكذا عاش بصيغة أخرى لا تشبه طفولته".

سألتُه باهتمام: "هل تعتقد بأنه مايزال على قيد الحياة؟ في أي دار كان والدكَ يقضي الأيام الأخيرة".

***

لم تخطر في بالي أية فكرة، في اليوم ذاته الذي عرفت فيه حكاية فريدريك، كان كل ما أريده هو أن أزور المصح الذي كان يعيش فيه برفقة والد بول، ولا أعلم إن كان حارس منزلنا محقّاً في قصته أم لا، فهذه الإجابة السريعة تبدو لي أسهل مما يمكنني الحصول عليه في العادة.

أعطاني بول اسم وعنوان دار الرعاية التي قضى والده فيها أيامه الأخيرة، وفي عصر ذلك اليوم اصطحبتُ تشارلي صديقي معي إلى هناك. لم يعترض أو يحاول الاعتراض على الفكرة، بل كان مدفوعاً بفضول طفيف لمعرفة تفاصيل تلك القصة، والتي لم يسمع عنها مطلقاً.

"هل أصبحتَ محقّقاً الآن يا ليو؟"

نظرتُ إليه بينما كان المقود بين ذراعي: "لو أنكَ صديقي حقّاً، لأدركت حجم الفضول الكامن في صدري تجاه هذه الحكايات. أما الآن فإنّ هذه الحكاية تهمني أنا كثيراً، فلا بدّ لي من الوصول إلى أي جواب مهما كان صغيراً". أشاح بوجهه عني، ونظر إلى الطريق مباشرةً دون أن يعلّق بأي شيء آخر.

لم أكن أتصوّر أن الرحلة ستسغرق ما يقارب الساعة، توقعتُ أن نصل إلى هناك في وقت أبكر، ولكنّ الطرقات كانت مزدحمة؛ بسبب موسم عيد الميلاد. عندما وصلنا إلى دار الرعاية علّقتُ قائلاً: "لا يمكن لهذه الرحلة الشاقّة أن تنتهي دون الوصول إلى أي هدف".

"لا تُلقي اللوم على هذه الرحلة، أنتَ من يختار القفز في الأمور العجيبة". قال تشارلي ذلك وهو يبتسم، ثم دفع باب السيارة فأغلقه، وسار بجانبي إلى مدخل دار الرعاية الصغير.

في قسم الاستقبال وجدنا موظفة وحيدة تعمل خلف الطاولة، ولم تنتبه

لوجودنا إلا عندما اقتربنا من الطاولة الخشبية التي تفصل بيننا. أعطيتُها بيانات فريدريك المزورة؛ فهو لم يكن يُدعى بهذا الاسم، ولكنّه تغيّر منذ طفولته. رمقتني مطوَّلاً، وشعرت هي بالشك في معلوماتي، فقالت لي: "هل تعرفه؟"

"نعم، أعرفه". أجبتُ.

"ولا تعرف بأنّه مات؟" رمقتني مطولاً منتظرة إجابة مني. "سكتة دماغية".

تدخل تشارلي قائلاً: "أوه... هذا مؤسف! لا يمكنني تصديق الأمر. ماذا كان والدنا سيقول حيال هذا الأمر. فقدنا والدنا، والآن صديقه الوحيد". لم أفهم فوراً ما يحاول التشارلي الوصول إليه، لكن ما أن فهمتُ ما يرمي إليه، تظاهرتُ بالحزن.

"فريدريك صديق والدكما؟ ليس لديه إلّا صديق واحد مايزال على قيد الحياة، وهو رجل أكل الخرف عقله الآن. وكان لديه ابن يزوره، ولكن لم يحدث ذلك بشكل متواصل مع الأسف. لم يأتِ أي غريب لرؤيته طوال السنوات العشرة الأخيرة في حياته".

سألها تشارلي: "وهل يمكن أن نرى صديقه الخَرف هذا". لم تأتِ في بالي تلك الفكرة، ولكن تشارلي حاول أن يصطاد كل الزوايا في هذه الحكاية. لم تتردّد الشابة القصيرة التي ترتدي زي التمريض في اصطحابنا إلى الرجل المعني في كلامها. لم تخبرنا باسمه، ولم تكترث حتى بالبقاء، والحرص على سلامته من أي خطر قد يتعرض له. تركتنا في حجرة ضيقة خانقة مع الرجل الذي لَوَّنَ الشيب رأسه باللون الأبيض، ورحلت.

تلعثمتُ أمام الرجل الذي لم يبدِ أية دهشة لوجودنا، وقلتُ: "مر.. مرحباً". لوَّحتُ بيدي أمامه، لكن تعابير وجهه لم تتغير. دفعني تشارلي فأصبح هو من يقف أمام مرمى بصر الرجل.

قال تشارلي: "سيدي نحن نتساءل إذا كُنتَ تعرف والدي. فريدريك". كان تشارلي يحبُكُ الكذبات دون أي تفكير مسبق بالأمر. "هل تعرف أبي؟"

تغيّر شكل عيني الرجل، وأصبحت عيناه مستديرتين، وكأنّ لهذا الاسم وقع

قويٌّ على أفكاره الشاردة. أصدر صوتاً خافتاً يوحي بالدهشة، ثم نظر مباشرة إلى عيني تشارلي: "هو.. هو.. لم يعد هنا. لستَ الابن، إنه أب الشيطان".

"الشيطان؟" قلتُ.

"الشيطان، يأتي إلى هنا.. أنا أخاف، لا أريده أن يعود. كان فريدي يكرهه". تلعثم العجوز، وخرجت الكلمات التالية غير مفهومة: "الشيطان يؤذي فريدي.. فريدي لم يحب الشيطان".

سأله تشارلي: "من يؤذي فريدي. هل الابن كان يؤذيه؟"

"أجل.. أجل.. ماركو يؤذي فريدي، فريدي لا يحبُّ الشيطان". اجتاح صوت صراخ الرجل المكان كله. عادت الممرضة مع رجل آخر، ودفعا الباب بقوة. سألتنا عَما حدث، وعندما أجاب تشارلي بكلمات لا معنى لها، لم تكن هي تستمع لما نقوله، بل طردتنا من المكان فوراً. أنا وتشارلي لم يكن لدينا أي دافع للبقاء هنا أكثر، بل خرجنا من المكان دون ترك تبرير واضح، لما حدث مع الرجل.

61

لم تكن اللقاءات الأخرى في متجر جوليا هي تعويض نادي الأرق. لم نكن نقدّم الدعم لبعضنا في ذلك المكان. بل كنا نجتمع؛ لنتحدث عن كل ما اكتشفناه في الأيام الأخيرة. كانت حكاية السيد ثلاثاء تتّسع أكثر، ولكل عضو من أعضاء النادي طرف يقبض عليه دون أن يشعر. اجتمعنا في المتجر، كانت تفصلنا عن عيد الميلاد أيام قليلة. لم تكتفِ السماء بغسل الأرض بالأمطار. بل أتى موسم الثلوج، وكانت الأرض تكتسي بلون أبيض باهت في ساعات الليل. لم يكن الثلج غزيراً إلى حد يمنع الحركة في المدينة، لكنّه أعاق حركة السيارات بعض الشيء.

قالت جوليا وهي تنظر إلى إيفان الذي أصبح عضواً في المجموعة، دون أن نشعر بتسلّله إلينا: "هذا يعني أن السيد يلسون صاحب العزبة، لم يقتل ابنه. الابن استمرّ في حياته تحت اسم مزيف، وهو الآخر لديه ابن "حفيد"، تلك العائلة ماتزال على قيد الحياة".

قلتُ لجوليا: "ويظنُّ الرجل في دار الرعاية أنّه يُدعى ماركو".

سألتنا فيوليت الجالسة بجوار ماثيو: "ماركوس؟". أخبرتُها بأنّ كلمات الرجل لم تكن واضحة، لكنه قال ماركو. تخيَّلتُ وجه ماركوس صاحب النادي، وكنتُ على يقين من أن فيوليت قد ربطت الأمر به بصورة طفولية. "هل تعتقدون أنّه يعني ماركوس؟"

ضحكت جوليا وهي تقول: "ماركوس صاحب نادي الأرق". اختفت ابتسامة جوليا بطريقة مفاجئة، وتحوَّلت إلى تكشيرة اشمئزاز. نظرت إلينا جميعاً وقالت: "مهلاً.. نادي الأرق".

نظرت سريزا إليّ بذعر، وبدا أنّها فهمت ما كان يجول في بال جوليا. نهضت سريزا من مكانها فجأة، وواجهت الجالسين جميعاً: "هل تعتقدون بأن ما قالته تلك المرأة ألكسا.. أو جودي كان صحيحاً؟ ماركوس هو من ابتكر فكرة النادي؛ ليجعلنا قريبين من بعضنا، فنصبح بذلك فريسة سهلة".

"هذا.. هذا.. ما فكَّرتُ به". قالت جوليا.

"مهلاً". قال ماثيو. "لا تحسبوا الأمر بهذه الطريقة لمجرد تشابه في

اسمي شخصيتَين مختلفتَين. إنه صديقنا في النهاية". صمت ماثيو؛ ليرى مدى تأثير كلماته التي لم يقتنع بها هو نفسه، غيّر رأيه قائلاً: "إنه الوحيد بيننا الذي لا يملك أية قصة ذات معنى، نحن حتى لا نعرف سبب وجوده".

قالت فيوليت مؤيدة لفكرة صديقها: "هذا صحيح، إن حكايته لم تكن مقنعة".

سألتهم: "ولكن كيف يمكننا أن نتأكّد من الأمر؟"

تدخّل إيفان فجأة، وقال: "لقد بحثتُ في قضية عائلة آل ويلسون، وقد اكتشفتُ بأنّه بالفعل لم يكن هناك أي مبرر لجريمة القتل. اختفى الابن بطريقة مفاجئة، ولكن يبدو لي بأنّ هناك من جاهد لنقله إلى مكان آخر، لا يربطه بجريمة القتل؛ حتى لا يتأثّر الصبي بتلك الحكاية التي سترتبط باسمه. هناك استجواب لعدة أشخاص مرتبطين بتلك العائلة، ومن بينهم الخادمة والدة ألكسا، وهي تقول بأنّ العائلة كانت سعيدة رغم بعض التصرفات الغريبة التي كان يقوم بها الفتى المدعو ماركوس والذي تحوّل إلى فربدريك، وهنا يبدو لي أنّ الاسم متطابق مع اسم صديقكم، يبدو لي بأنه حاول أن يعوّض وجوده عن طريق ابنه. تقول معلمته في المدرسة بأنّ الطفل كان يُبدي تصرفاتٍ غريبة قبل عدة أشهر من وفاة العائلة، لكنّها لم تتوقّع بأنّ الحال سيؤول إلى ما حدث".

هتفت جوليا: "لديّ فكرة. يمكن لأندي أن يقدّم لنا الدعم في معرفة كيان ماركوس. لو جعلنا الاثنين يتقابلان، سيُتاح للطفل أن يعرف أصل ماركوس".

"هذا مقنع" قلتُ لهم، ثم سألت: "ولكن ألم تقولي بأنّ أندي في عطلة مع عائلته؟".

"علينا أن ننتظر عودته".

سألت سريزا: "وهل سيسعفنا الوقت؟".

قال ماثيو: "وإنْ لم يسعفنا الوقت، يمكننا أن نقصّر الأمر".

سألته جوليا: "وكيف يمكننا فعل ذلك؟"

فسّرت فيوليت الأمر بدلاً من ماثيو: "قد يحاول أحدنا أنْ يفسد عليهم عطلتهم بأنّ يعيدهم إلى هنا قبل الأوان المحدّد، لكنني لا أعلم من سيفعل ذلك".

نظرنا جميعاً باتجاه جوليا، فقالت: "لا تنظروا إليّ، أندي صديقي". أحنى إيفان رأسه حتى تواجهت عيناه مع عيني جوليا، ثم رفع حاجبيه، فقالت: "حسناً، من أجل اكتشاف الحقيقة فقط. ستساعدني في الأمر". رفعت رأسها باتجاهنا، وقالت: "لن أفعل الأمر وحدي. ماثيو كان صديقَ ماركوس وكاميلا، سيحاول هو وفيوليت أن يعيداه إلينا... وأنا، وإيفان، وسريزا، وأنت يا ليو سنفكّر في الطريقة التي يجب علينا أن نفسد فيها عطلة أندي".

قلتُ لها: "لن يكون هناك أسوأ من فقدان الدفء في المنزل، و المياه أثناء نزول الثلج".

62

بينما كنتُ جالساً بجوار إيفان، جلست سريزا في المقعد الخلفي بجوار جوليا، ومن دون تخطيط مسبق وجدنا أنفسنا مكسويين بثياب سوداء، كما لو أنّنا نخطّط لسرقة بنك، وليس بهدف إفساد جهاز التدفئة في المنزل الذي يقضي فيه أندي عطلته.

تجاوزنا سور عزبة آل ويلسون دون أن يرانا الحارس، كان الأمر مستحيلاً. تركنا السيارة واقفة على بعد مسافة من العزبة، وفي تلك الأثناء كان كلٌّ منّا يفكّر في خطّة نقتحم فيها المكان. عرضت علينا سريزا أن نحاول السير بين الأشجار، وأن نترك السيارة في مكان بعيد.

قال إيفان: "لا بُدّ أن يكون هناك سياج خلف الأشجار".

عرضت علينا جوليا: "دعونا نطلب المساعدة من ألكسا".

قلتُ: "سنضطر لشرح الأمر كله لها، ولن يساعد هذا في كسب ثقة تلك المرأة". فكّرت جوليا في الأمر، وأثناء قيامها بذلك عاد الهدوء إلينا ونحنا جالسين في السيارة، التي كان الظلام يلفُّها من كل جانب.

قالت جوليا: "لا أظنُّ بأنّها سترفض، دعونا نطلب المساعدة منها. هيا يا إيفان توجَّه إلى منزلها". حرّك إيفان السيارة مُتَّجهاً إلى منزل تلك السيدة. ركن السيارة أمام منزل صغير يتكوّن من طابق واحد. ثم خاطبتنا جوليا قائلة: "ابقوا هنا، سأتحدّث إليها بمفردي".

"سأذهب معكِ". قال إيفان

استوقفته جوليا: "لا بل حرّك السيارة، واتركها في نقطة مجاورة لسور عزبة آل ويلسون، وترجلوا منها. انتظروا مني إشارة حتى نتسلّل مشياً إلى هنا". لم تنتظر جوليا ردّاً، بل ترجّلت من السيارة، وسارت إلى باب المنزل الصغير. التفتت وأشارت بيدها لنا حتى نتحرك.

عُدنا من جديد إلى جوار السور المغطى بالأشجار، وانتظرنا إشارة من جوليا. مرّ وقت طويل مليء بالقلق، قبل أن تظهر جوليا، وتضيء كشّاف هاتفها من بعيد. فهمنا رسالتها، وأطفأنا محرك السيارة متّجهين إليها.

"ستساعدنا ألكسا في المهمة. ستدخل هي إلى الحارس وتشغله، بينما نتسلّل نحن إلى المنزل. إنهم يستأجرون منزل الضيوف، وحسبما تقول ألكسا إنه هناك". أشارت جوليا بيدها باتجاه قمة الأرض.

راقبنا ألكسا وهي تتجه نحو بوابة المنزل، وانتظرنا حتى استجاب الحارس لطرقاتها على الباب، وما أن تجاوزت هي المدخل، حتى تسللنا نحن إلى منزل الضيوف. قالت جوليا: "ليس لدينا وقت طويل". رغم حذرنا في عبور الطريق، إلا أنَّ خطواتنا كانت سريعة.

"علينا أن نستدير حول المنزل، لا بدَّ من وجود حجرة خلفية لجهاز التدفئة. عادة ما توضع مثل هذه الحجرات في المنازل المخصصة للضيوف؛ لأنها ليست ثابتة، كما أنّها ليست جزءاً من المنزل حتى". كان منزل الضيوف المقصود محاطاً ببعض الأضواء، وذلك يدلّ على وجود الحياة فيه. استدرنا حول المنزل بحثاً عن أية إشارة تدلُّ على مكان أنابيب التدفئة.

أصبح المنزل الكبير أمامنا على بعد مسافة كبيرة، وكانت قمم المنزل الرئيسي تتّحد مع شكل سماء الليل، وقممه العالية المتفرّقة تكاد تطعن الغيوم التي ملأت السماء.

"وجدتُها" كانت الأنابيب في حجرة مقفلة في الجزء الخلفي من المنزل. تقدّم إيفان الذي وجدها، وقال من جديد: "يمكنني فتح هذا الباب". ولم يستغرق إتلاف القفل وقتاً طويلاً معه. "سأدخل وأوقف عمل الأنابيب، وأكسر المفاتيح. سيعطلهم هذا وقتاً كافياً، على نحوٍ لا يتحملون معه قسوة الشتاء".

همست أصوات بعيدة في رأسي تشبه تلك التي في منامي. رأيتُ ضوءاً أصفر بعيداً ينبعث إلى السماء. كان الضوء يتجاوز قمة الجرف البعيد في الطرف الآخر من العزبة، قلتُ لهم: "المنارة.. إنّها هنا". وأشرتُ إلى المكان الذي كانت تقع فيه.

قالت سريزا: "هذا صحيح، يجب أن تطلَّ القمة على الخليج حيث تكون المنارة".

شعرتُ بأنّ الظلام يحيطني، وبأنَّ الأصوات البعيدة تسرقني من الواقع. كان هناك نداء غريب ومخيف ينبعث من المنزل الكبيرة. تلاشى الواقع أمامي، وترنَّحت قدمي، فهويت على الأرض الباردة.

حملت الأم سكين تقطيع اللحم، ولم يكن حجمها كبيراً بحيث يصعب تحريكها، بل كان مناسباً تماماً لما يمكن أن تحمله من أجله. توجَّهت نحو السلم، وتسلقته صعوداً إلى الطابق العلوي. مشتْ عبر الرواق المظلم، حتى وصلت إلى باب حجرة موصد. حاولت فتحه، وعندما عجزتْ ركلته، ثم زمجرت بصوتٍ حيواني: "هيا افتح هذا الباب اللعين" .

لم يستجبْ أحد لذلك الصوت. استسلمتْ عائدةً عبر الممر. أرعدت السماء فومض الممر بضوء غريب. تجاوزت الأم الرواق، فظهر خلفها ظلٌّ يجري باتجاه السلم.

صرخت بدهشة: "ها قد خرج الفأر من حجرته" . لم يتوقف الصبي عن الجري، بل حاول هبوط السلم فتبعته هي بسرعة. قبضت على الجزء الخلفي من قميصه، وجرّته إلى الخلف، لكنّه دفعها قبل أن تطعنه بالسكين. انزلقت قدمها عن عتبة السلم، واندفعت إلى الخلف باتجاه الدرابزون، ثم سقطت على رأسها فوراً وفارقت الحياة.

كان الموت حاضراً بسهولة لم يتوقَّعها أحد.

أرعدت السماء مرات متتالية، لتزيد من رهبة الموقف.

صعدت الأب السلم، وسأل: "ماركوس، ماذا تفعل هنا؟"

أشار الفتى إلى الأسفل وهمس: "هي.. هي من أرادت فعل ذلك بي. لم أفعل شيئاً يا أبي، هي من حاول قتلي. كانت تنعتني بالشيطان" . نظر الأب من فوق الدرابزون وصرخ بجزع، عندما رآى منظر جثة زوجته ملتوية الرأس على الأرض.

"ماذا فعلتَ؟" صرخ.

بكى الطفل وهو يقول: "هي يا أبي، هي" .

لم أقع على الأرض تماماً، ولم أفقد الوعي حتى. عدتُ إلى الواقع بطريقة مفاجئة، وكانت سريزا تساعدني على النهوض، وجوليا تقبض على جسدي وتحول رفعه عن الأرض. قلتُ وأنا أحاول أن أعيد تنظيم أنفاسي: "لم يكن الأب، يا جوليا، لم يكن الأب" نهضتُ بصعوبة، وقلتُ: "رأيتُ كل شيء. لا أعلم إذا كانت هذه هي قدرتي، ولكنّ هذا المكان أراني ما كنتُ أبحث

عنه. كانت الأم هي من حاولت قتل الصبي، ووقعت أثناء محاولتها فعل ذلك، وماتت".

سألته سريزا: "ولماذا أنتَ متأكّد مما رأيتَه؟ ألا تخشى أن تكون تلك مجرد رؤية خيالية شكّلها عقلكَ". ساد الصمت بين الثلاثة الذي كانوا ينتظرون عودة إيفان. راقبت جوليا وجه سريزا، ثم فعلت الأمر ذاته معي

"بدا الأمر حقيقياً جداً، ولا يوجد في حياتي ما يرتبط مع تلك الرؤية لتظهر فجأة، وفي هذا المكان. لقد رأيتُ الأمر كما لو أنني أعيش اللحظة معهم".

سألت جوليا: "وأنتَ تعتقد بأنّ هذه هي قدرتكَ الخاصة؟"

"لست متأكّداً، لكنكم لن تفهموا الأمر إلا عندما تخوضون هذه التجربة". طلبت مني جوليا أن أغمض عيني، وأنْ أسمح لها بتجربة قدرتها في هذه اللحظة؛ لترى الأمر بنفسها. فعلنا ذلك أمام سريزا، وبعد لحظات فتحت جوليا عينيها بدهشة.

"إنهم الأشخاصُ ذاتهم الموجودون في الصورة، التي وجدها أندي ورأتها جيسي معه، لا يمكن أن يعبروا إلى ذاكرتكَ وأنتَ لا تعرفهم. أعتقد بأنكَ تستطيع أن تستشعر ما تحمله روح هذا المكان. ألا يمكنكَ أن تحاول من جديد يا ليو؟"

قلتُ لهن: "لا أعرف كيف حدث هذا، أو ما الذي يجب عليّ القيام به حتى يتكرّر الأمر من جديد".

قاطعنا صوت إيفان الذي خرج فجأة من الحجرة المعتمة، وأغلق ضوء مصباحه الصغير. "أعتقد بأنّ المهمة قد أُنجزِت، دعونا نذهب وننتظر ما سيحدث لاحقاً

63

لم تكتمل العطلة التي خططت لها عائلة أندي، فبسبب عطل جهاز التدفئة أصبح المكان أشد برودة، والماء كان يتجمّد قبل أن يصل إليهم. بعد محاولة قضاء يومين عقب ملاحظة تلك المشكلة، عادوا إلى منزلهم قبل يوم واحد من ليلة عيد الميلاد. كان أندي ممتنًّا للقدر الذي أعاده إلى حياته الطبيعية، والذي سيجعله يرى جيسي صديقته الوحيدة أثناء هذا الموسم، الذي كان يبعث بعض البهجة على البلدة. لم تكن زيارتهم لذلك المنزل فكرة سديدة. لم يدفع والداه باقي قيمة الإيجار، واحتفظا بما تبقّى من المال المخصص لذلك.

وجد أندي المنزل معتماً وساكناً، كما تركوه تماماً في آخر لحظة. جرّ ما استطاع أخذه من سيارة عائلته إلى الداخل، وفي النهاية استسلم للحنين الذي قاده إلى حجرته. دفع باب الحجرة فوجد عينين بعيدتين مشتعلتين بضوء خافت، تراقبانه في زاوية الغرفة. بعد النظر لوقت قصير باتجاه تلك الزاوية بدأت معالم الظلّ الطويل الواقف في الزاوية تتّضح. لم يمتلك أندي الجرأة لإشعال الضوء، ولرؤية ما كان ينتظره. بدت العينان واضحتين جداً. مدّ أندي ذراعه إلى مفتاح النور، ولكنّه قبل أن يضغط على الزر، تحرّكت العينان باتجاهه بسرعة غريبة، جعلته يقفز فجأة ويسقط في الممر أمام باب حجرته.

لم يدرك أندي بأنّ الصوت الصاخب الذي ملأ المكان كان يصدر من حنجرته. في آخر الممر ظهرت والدته فجأة، وجرت باتجاهه: "أندي ماذا هناك؟" أشار لها إلى داخل الحجرة، فاندفعت إلى الداخل، وأشعلت النور. راقبت المكان، ولم تجد أي شيء غريب.

استدارت والدته باتجاهه، وسألته: "هل أخافكَ شيء ما؟ لا يوجد أي شيء هنا. يبدو أنّ طول الغياب عن المنزل أتى بتأثيره عليكَ". ابتعدت عن الباب، فاندفع ضوء الحجرة إلى الممر. سمع أندي ضحكة والدته التي عادت أدراجها من حيث أتت. شعر بالشفقة على نفسه، وتلك الشفقة تحوّلت إلى غضب مفاجئ.

لم يستسلم يوماً للخوف، لماذا فعل هذا اليوم؟ لكنها المفاجآت، تأتي في وقت غير متوقّع، وتُحوّل الإنسان إلى شخص آخر لا يعرفه، دون حتى أن يدرك هو نفسه ما تغيّر فيه. إننا نتغيّر دون تحديد المسار الذي نختاره، ما إذا كان

جيّداً أم سيئاً، لكنّنا نتحوّل إلى شيء يشبه اللحظة التي نعيشها، عندما يتطلّب منا الواقع أن نتخلّى عن كل المبادئ الذي نريد السير عليها.

حاول أندي أن يستجمع شجاعته من جديد، وأن يكفَّ عن تخيُّل نفسه وهو يعود إلى فوهة الخوف القديمة. تظاهر بأنه لا يخاف من أي شيء، وتمكّن من النوم بسهولة لم يتوقَّعها هو نفسه.

***

استيقظ الطفل باكراً في الصباح التالي، ورغم أنه لم يكن يفصله عن عيد الميلاد سوى يوم واحد، إلا أنَّ الهدوء الذي عمّ المكان كان غريباً ومفاجئاً. ارتدى أندي معطفاً مطرياً ثقيلاً، أحاطه بالدفء المطلوب والكافي لكي يسير دون الشعور بالضيق إلى متجر جوليا. كان يحمل كتابها بين يديه، ويحرص على ألّا يجعله يتعرّض إلى ما قد يتلفه.

دفع باب المتجر، وتحرّكت اللافتة الخشبية لتعلن وصوله. تجاوز العتبة الصغيرة الموجودة عند الباب، وفوراً تمكّن من رؤية جوليا التي لم ترفع رأسها عن الأوراق المطروحة على الطاولة. بدا أنها توقَّعت اقتراب الزبون منها، فرفعت رأسها؛ لتتعرف على هوية من اقتحم المكان.

قال بحماس: "لقد عُدتَ".

"أجل، كانت تلك أسوأ عطلة قضيتُها في حياتي. لكنني اكتشفت أشياء قد يكون لها ارتباط بقصة السيد ثلاثاء. أرجو أن تكون جيسي قد باحت لكِ بكل شيء". هزّت جوليا رأسها موافقة، ولم تخفِ ابتسامتها. "هذا هو كتابكِ. يجب أن أقول أنّ تجربة قراءته كانت صعبة، لكنّه جميل بالفعل، ومن السيِّئ ألّا تنتهي الحكاية". اختفت ابتسامة جوليا بطريقة مفاجئة، وأخفضت رأسها.

سألها أندي: "لماذا مايزال المتجر مفتوحاً، ألن تغلقيه؟"

"في الواقع ليس لديّ ما أفعله، أو حتى من أحتفل معه بهذه المناسبة. سينسيني المتجر الصخب السعيد لعيد الميلاد، والذي سيذكّرني كم أنا وحيدة!". بدا أنّ أندي لم يفهم ما تعنيه جوليا، ولم يظهر أيّ تعبير يتفاعل به معها.

"أرجو أن يكون يوماً لطيفاً لكِ يا جوليا".

تردّدت جوليا قبل أن تطلب منه المساعدة. "أندي، هناك أمر ما، أعتقد بأنكَ تستطيع تقديم المساعدة من خلاله. لقد أتى دوركَ في الفريق الآن". ظهرت الحيرة على وجه الفتى، لكنّه اندفع وسألها عن مهمته في الفريق. شرحت له جوليا: "أريد منكَ أن ترى شخصاً ما، وتتعرّف على هويته".

"من هو هذا الشخص؟"

قالت جوليا: "إنه ماركوس صاحب فكرة نادي الأرق. نحن نعتقد بأنّه حفيد السيد ويلسون الموجود في الصورة التي كانت بحوزتكَ". تدفّقت الدهشة على وجه أندي، كما لو أنه ينتمي لتلك العائلة، كان فضول الصبي قوياً، كما كانت رغبته في معرفة أصل القصة كبيرة.

هتف أندي: "جوليا... يمكنني أن أفعل ذلك من خلال ذاكرتكِ أنتِ. فقط تذكّريه، وأوصليني بهذه الذكرى". فعلت جوليا ذلك باستخدام قدرتها، وحاولت أن تتذكّر كل اللقاءات السابقة في نادي الأرق، وأن تتيح الفرصة لأندي أيضاً لكي يرى وجه ماركوس.

عادت الذاكرة بها إلى نادي الأرق، لكنّها لم تكن موجودة، ولم يكن هناك أي عضو آخر. كان المكان هو ذاته مرآب ماركوس، لكن كل ما كان يضيئه هو نور رمادي خافت يشبه النهارات الغائمة الأخيرة. فكّرت جوليا في أن هذه لم تكن ذكرى. لم يكن هذا المشهد في ذاكرتها أبداً. أرادت أن تتراجع، وأن تطلب من أندي ألّا يحاول إيجاد أي شيء.

لقد وقعا في فخ ما.

ظهرت الكراسي الثمانية وقد صُفَّت بجوار بعضها على شكل دائرة فارغة من الأشخاص، بل مجرد كراسٍ متجاورة. ظهر ماركوس فجأة وجرّ أحدها، ثم جلس وراقب الصورة كما لو أنّه يراقب كاميرة تتحرّك. راقب أندي عيني الرجل، والذي كان بدوره يترك الفرصة لأندي حتى ينظر إليه، ويتعرّف عليه.

"أنتَ هنا أخيراً. بل إنّ كليكما هنا. لكنّ هذه المرة في خيالي أنا.. عالمي أنا".

أرادت جوليا أن تنطق بشيء ما، لكنها كانت عاجزة، لأنها كانت في خيال ماركوس، وهو من منعها عن فعل ذلك. تحدَّث أندي فجأة وملأ صوته

الطفولي الحاد المكان كله. "جوليا إنه هو... ينتمي لتلك الصورة التي رأيتُها في عزبة آل ويلسون. إنه هو السيد ثلاثاء".

ضحك ماركوس وقال: "السيد ثلاثاء؟ هذا ليس أنا. بل إنني من صنعتُه، وهو من يعطيني القوة. كلانا يمدُّ الآخر بما يحتاجه. هو يحتاج خيالكم، وخوفكم.. أمّا أنا فأحتاج القوة؛ لتعويض كل ما خسرته". ومضت عينا ماركوس بضوء أبيض، بدا أنّ غيوم تبرق في داخل عينيه.

نهض عن كرسيه، وحرّك يديه فطارت كل الكراسي. "هل ترون ما مدى هذه القوة؟" صمت لوهلة، ثم اتّسعت ابتسامته حتى تمزّقت شفتاه. "يظنُّ هذا الأحمق بأنّني أحتاجه حقّاً، هو ليس إلّا جسداً يربطني بعالمكم. أنا أبقى دائماً، وأنتم ترحلون؛ لأنكم أضعف من فكرة البقاء. صدَّق هذا الغبي كل وعودي، لكنه لم يعطيني أي شيء". تلاشى المرآب، وأحاط الظلام بكل شيء. "أنا أحتاج أحلامكم، مخاوفكم.. وحتى وحدتكم".

لقد كانوا كلهم وحيدين، هذا ما فكّرت فيه جوليا. أعضاء النادي وحيدون لن يتساءل أحد عن عدم وجودهم، لن يبحث عنهم أحد. سيصدِّق الجميع بؤس كاميلا، ومارك.. لن ينكر أحد موتهم أبداً.

يجب أن يزول كل هذا، وإلّا فسيبتلعهم الظلام. عرفت جوليا إجابة سؤالها الآن، لكنّها وقعت في شباك لا يمكنها الخلاص منها. فكّرت في ليو فجأة، وراحت تحثُّ أفكارها على الوصول إليه.

يجب أن تكون هنا يا ليو.. لكنّ صوتها لم يخرج، أو يُسمَع حتّى!

تلاشى الظلام وعادت إلى الواقع فجأة. وجدت نفسها راقدة على الأرض الخشبية، وإيفان يقف أمامها. "ما الذي يحدث هنا يا جوليا؟" ساعدها على النهوض قبل حتى أن يعرف الإجابة. راقبت جوليا أندي، كان الطفل مايزال عالقاً في أفكاره، ولمّا يعد إلى الواقع بعد.

قالت جوليا: "إنه هو ماركوس.. السيد ثلاثاء، سيقتل الصبي إنْ لم نساعده الآن". اقتربت جوليا من أندي، وحرّكت جسده؛ حتى يستيقظ لكنه لم يفعل. أغمضت عينيها وراحت تفكّر في ليو. عجزت عن الوصول إليه بفعل قدرتها.

ضغطت على أسنانها وهي تهمس: "هيا.. هيا.." عادت بأفكارها إلى

أندي العالق في الظلام مع السيد ثلاثاء الذي كان يختفي ويظهر؛ محاولاً إخافة الصبي".

"توقّفْ" أمرته جوليا. كانت هي الخائفة، وهي من يمدُّ الرجل الغامض بالقوة وليس أندي. ظهر ليو فجأة بجوار جوليا، ولم يكن يعرف بأنه ترك الواقع هو الآخر، وأصبح في أفكار مشتركة بين أندي وجوليا. "ليو؟" سألت جوليا حتى تتأكّد من أنه هو.

"ما هذا المكان يا جوليا؟"

قالت جوليا: "لقد هرب. إنّه يخافكَ يا ليو. إنه هو ماركوس من يفعل هذا كله".

64

امتزج المساء بشعور غريب، هو مزيج ما بين الوحشة، والخوف. لكنّ فيوليت كانت تجلس بجوار ماثيو، وهي مستعدة للاندفاع في أي بركان دون أن تشعر بالتردد، وإن كان هناك بعض الرعب في قلبها. كان ماثيو يعرف أين يقع منزل ماركوس، وهو يسير الآن بين المباني القصيرة وصولاً إلى المكان المحدد. لم يرَ أيٌّ منهما هاتفه، ولا حتى رسائل جوليا التحذيرية. ركن ماثيو السيارة تحت بقعة يغطيها ظلُّ جدار كبير، وهذا يجعلهم بالكاد مرئيَين في الظلام. أدار المفتاح فتوقّف المحرك عن العمل، واختفى النور الأمامي المنبعث من المصابيح. رمق ماثيو فيوليت بنظرة تساؤل، وهي بدورها لم تخفِ شعورها الحقيقي.

"هل أنتِ مستعدة؟" سألها ماثيو، فهزّت فيوليت رأسها إيجاباً. "يمكنكِ انتظاري هنا، وتفادي هذا الشعور. أستطيع القيام بهذا وحدي". عرض عليها ماثيو، لكن فيوليت رفضت.

"لن أبقى في هذا المكان وحدي، سأذهب معكَ". حاولت فيوليت أن تتحلّى بشجاعة مزيفة. فتحت الباب وترجّلت من السيارة قبل أن يعرض عليها ماثيو أي عرض آخر. سارت مبتعدة عن السيارة، دون أن تعرف الاتجاه الصحيح لوجهتهما.

"من هنا". تبعها مارك، وهو يشير باتجاه المبنى الموجود على الطرف الآخر من الطريق. سارا متجاورَين وصولاً إلى المدخل. لم ينتبه أيّ منهما إلى وجود المركبة التي أبطأت حركتها، وتوقّفت في بقعة قريبة من سيارتهم. دخلا المصعد، وتركت فيوليت ماثيو يضغط على زر الطابق المناسب.

رنَّ صوت الجرس معلناً وصولهما. فُتِح باب المصعد، فخرجا منه إلى ممر غارق في الظلام إلّا من ضوء بعيد منبعث من زجاج باب سُلّم الطوارئ. تقدَّم ماثيو عن فيوليت بخطوة واحدة، وتبعته هي بحذر. كان باب شقة ماركوس مفتوحاً. دفع ماثيو الباب، فسمع صوت موسيقى بعيدة، تنبعث من أحد الغرف.

"ماركوس؟" نادى ماثيو، لكن لم يكن هناك أيّ مجيب. تجاوز الباب فأصبح صوت الأغنية أوضح من السابق. التفت نحو فيوليت وسألها: "هل

تسمعين هذا؟"

"أجل، الموسيقى". قالت فيوليت.

"إنها أغنية يوم الثلاثاء.. وهي تعني الموت". دفعها إلى الخلف وقال: "علينا الخروج من هنا". أراد ماثيو أن يعود باتجاه الباب، لكنّ فيوليت منعته. ماركوس غير موجود، وهذه الأغنية قد توحي بأنّه قد تعرَّض لأمر سيِّئ. "دعينا نرحل من هنا يا فيوليت".

قالت فيوليت: "ربما يكون قد تعرض لأمر ما، ولن يجده أحدٌ هنا. من الغريب أن يكون باب منزله مفتوحاً حتى". أخبرها ماثيو أن هذا الأمر غير هامّ، وكل ما عليهما فعله الآن هو الهرب من هذا المكان. استدارت فيوليت؛ لتلبي رغبته، لكنهما وجدا بدلاً من الباب الذي دخلا منه جداراً خالياً من أي منفذ.

"أين الباب؟" سأل ماثيو.

"لقد.. لقد اختفى". قالت فيوليت بلهجة حادّة، ثم أردفت بصوت مرتجف يشبه البكاء: "كيف سنخرج من هنا؟" أصبح صوت أغنية يوم الثلاثاء أوضح الآن، وكانت الدعوة للموت واضحة، رغم أن اليوم لم يكن ثلاثاء.

"النوافذ" هتف ماثيو، لكنه لاحظ فجأة أنّ الستائر لا تغطي النوافذ، إنما هناك جدران صماء فقط.

"لقد علقنا هنا يا ماثيو. هل سنموت؟" أشار لها ماثيو بأن تصمت، وحاول أن يستجمع قدرته على التركيز، لكنه لم يجد أيّ حل مناسب يقوم به. "دعنا نبحث عن أي شيء يساعدنا هنا".

نادى ماثيو من جديد: "ماركوس؟" ثم اتّجه إلى الحجرة الوحيدة في الشقة ليجد ما إذا كان صديقه فيها، أم لا. عندما وصل إلى غرفة نوم ماركوس، وجدها في حالة مزرية، وتنبعث منها رائحة تشبه رائحة التراب. "كيف يعيش هذا الرجل هنا؟"

علقت فيوليت: "ليس هذا ما يهمنا الآن. علينا إيجاد طريقة للخروج من هنا". امتلأت جدران غرفة نوم ماركوس بكتابات لا تنتمي لأية لغة يفهمها أيٌّ من فيوليت وماثيو. تناثرت قصاصات الأوراق في كل مكان. بعضها كان يحتوي على أخبار لم يسمعا بها أبداً، ومن بين القصاصات، كانت توجد أخبار

تجاوز عمرها السنوات.

رفعت فيوليت القصاصات بشكل عشوائي، فوجدت خبراً غير مرفق بأية صورة لحادثة موت جيمي. تركت القصاصة تهبط على الأرض، ليظهر بعدها فوراً خبر اختفاء ماريا مرفقاً بصورة قديمة لها، كانت قد التُقِطت أثناء تخرجها من الثانوية.

همست فيوليت: "ماري.."

"لماذا يحتفظ بكل هذه المقالات؟" قال ماثيو، وهو يحاول التقاط أقرب قصاصة من قدمه. "هل هو من قام بهذه الأفعال كلها؟". رفعت فيوليت عينيها الدامعتين تجاهه، ثم طوت قصاصة الورق التي تعرض خبر اختفاء صديقتها، ودسَّتها في جيب معطفها.

استدارت فيوليت لتعود من حيث دخلت، فوجدت ماري تقف بعينين برّاقتين في آخر الممر الضيق. قفزت فيوليت خطوة إلى الوراء باتجاه ماثيو. كان هو الآخر يرى ما تراه فيوليت، لكنه يحاول أن يتحكّم في اللحظة دون أن يتسبّب في أي تداعٍ لقوتيهما.

"فيوليت، لقد عدتِ من جديد. هو من فعل هذا.. كان لا بُدّ له أن يفعل هذا؛ كي تصلي إليه. لا يخلق الروابط الصلبة بين البشر سوى الحزن. الأفراح تخلق جسوراً مؤقتة، فيما الحزن دائماً ما يُذكَر. وأنتِ سهلة التعرُّض لذلك، والحزن على بعد خطوة منكِ".

تلاشت ماريا وسط الظلام، كما لو أنها قطعة سكر تذوب في الماء. تقدَّمت فيوليت لتتجاوز باب الحجرة، وماثيو يسير إلى جوارها. "لقد اختفت". قالت فيوليت، وهي تترقب ظهور صديقتها من جديد".

"لم تكن هي يا فيوليت". فسَّر ماثيو الأمر.

تَبِع كلمات ماثيو صمت قصير، كسره صوت فحيحٍ آتٍ من زاوية لا يمكن تحديدها، لكن ما أن رفع ماثيو رأسه حتى وجد ماركوس في زاوية السقف ينظر إليهما بعينين يضيئها الفتيل الأحمر الذي كان موجوداً في عيني ماري. هبط ماركوس بطريقة مفاجئة وعشوائية عليهما، لكن ماثيو كان الأقرب إلى زاويته. سقط ماركوس وماثيو على الأرض في آن واحد. حاولت ماثيو أن يقاوم

ماركوس، لكن قبضة ماركوس كانت الأقوى. اندفعت فيوليت بكل قواها؛ لتدفع ماركوس بعيداً عن ماثيو، لكن الآخر رفع ذراعه، وبقوة لا يمكن لأيّ بشريٍّ أن يملكها دفعها لترتطم بالجدار القريب منها. أصبحت العالم ضبابياً في عيني فيوليت، وكل ما أمكنها رؤيته هو ظل ماركوس وهو يقبض على عنق ماثيو.

"هيا يا فيوليت انهضي". عاد الواقع إلى عيني فيوليت، فرأت أمامها صورة مطابقة لها، ولكنها تكبرها بعقدين. كانت جودي تحاول مساعدة فيوليت على النهوض. حرّك ماركوس رأسه، واستقرّ الفتيل المضيء في عينيه باتجاه فيوليت.

همست فيوليت: "ماثيو.. إنه". لكنّ جودي دفعتها إلى الخارج. "عليّ أن أساعده، اتركيني". لكن قبضة جودي كانت أقوى من قدرة فيوليت على العناد. كانت أضلع فيوليت تؤلمها، ورأسها كذلك.

"فات الأوان يا فيولت.. لقد قتله". لم تفهم فيوليت ترتيب الجملة. من قتل من؟ أدركت فجأة أن ماركوس قتل ماثيو. كادت تنهار لولا أن ذراع والدتها حملتها بقوة إلى سلم الطوارئ. لا وقت للمصعد الآن.

"لا يمكنني أن أدركه". كانت فيوليت تتحدّث بصوت قريب إلى النحيب، ولكنّ دموعها لم تكن تسيل. بل كانت تختنق، فلا تظهر الكلمات من خلال صوتها، ورغم ذلك لم تمتنع عن السير برفقة جودي إلى الخارج. كادت أن تسقط على السلم مراراً، ولكنها ما أن تشرّبت الصدمة قليلاً حتى بدأت تجري مع جودي إلى الخارج.

"لم يكن عليكما القدوم إلى هنا". لم يكن الوقت مناسباً لهذا التأنيب، ولم تكن فيوليت تصغي فعلياً لتلك الكلمات. تبعت فيوليت جودي، دون أن تدري لماذا تثق بها الآن! "سيارتي سنذهب بسيارتي. اتركي سيارة صديقكِ هنا؛ كي لاتتورطي بتهمة القتل، فسيأتي رجال الشرطة لاحقاً إلى هنا". رغم قسوة الفكرة إلا أنّ جودي كانت مُحقّة، وكان على فيوليت أن تتنازل على أحد مبادئها من أجل حياتها.

65

لا تعلم تريز كم من الوقت مرَّ في هذا الفراغ، بل إنها لا تعلم أين هي. كل ما يحيط بها، هو فراغ يشبه الواقع، لكنه أكثر وحشة وأقرب إلى الموت... كل المنازل هنا خالية، لا عائلة، ولا أصدقاء، ولا حتى حبيب. هي الآن وحيدة لا تنتمي إلى الحياة أو الموت.

رغم أن الوقت الذي تقضيه هنا قصير جداً، إلا أنها سرعان ما سئمت من وجودها هنا، وعندما تغيّر المحيط الذي ألقتها الحياة فيه بدأت تسير بحثاً عن مكان جديد. كلما سارت أصبحت الحياة أكثر عتمة حتى وصلت في النهاية إلى الشاطئ المُطلّ على المنارة المضيئة. راقبت تريز المنارة، ودون أي سبب واضح استحضرت ذكرى ليو.. لم يكن هنا الآن، ولا يمكنها أن تعرف أين ستراه مرة أخرى، لكنها تفتقده، بل إنها تفتقد أي شيء يرتبطها بالحياة.

"هل تفكرين في العودة". التفتت لترى زجاج نظارة مضيء تحت قبعة كبيرة.

"من أنتَ؟" سألته تريز، لأنها كانت تشعر بالدهشة، فهذا هو أول شخص يقابلها منذ أن وصلت إلى هنا.

"السيد ثلاثاء". ابتسم أمامها ثم قال: "يمكنني أن أحقّق لكِ رغبتكِ في العودة إلى حياتك. أنتِ هنا عالقة بين الحياة والموت". كان السيد ثلاثاء يفكر في الانتقام بأية طريقة؛ لأن أعضاء نادي الأرق يفسدون كل خططه، وهو لا يستحقُّ أن تتدمَّر أفكاره. هذا ما يعتقده هو. "إنه أمامكِ.. البحر، اعبريه. إنْ مُتِ في قلب البحر، ورحلتِ عن هذا العالم؛ فإنه سيعيدكِ إلى حياتكِ السابقة".

دون تفكير، أو سبب واضح لثقتها بكلماته، سارت تريز على الرمال عبر الماء البارد حتى غطّى البحر رأسها. وبالتزامن مع تلك اللحظات توقَّف مؤشر النبض المجاور لرأس تريز في المستشفى عن إظهار أية إشارة. لقد ماتت وحقَّق السيد ثلاثاء انتقامه ببساطة.

اقتحمت والدتها الغرفة، لكنّ الطبيب أبعدها بمساعدة الممرضين. حاول الطبيب أن يفعل ما بوسعه كي ينقذ حياة تريز، لكنه عجزَ عن ذلك. استخدم كل حيلة يعرفها خلال ممارسته للمهنة، لكن ذلك لم يساعد. كانت تريز تغرق

بأفكارها في بحر غريب داكن بارد، وتقترب من الموت بإرادتها.

كتمت والدة تريز دعاءها، وهي تناجي: "يا إلهي، أنقذها". ورغم أن حال تريز لم يتغيّر منذ أكثر من عام واحد، إلّا أنّ الأم لم تفقد الأمل بعودة ابنتها.

استخدم الطبيب الصدمات الكهربائية، ونجح الأمر بإعادة النبض إلى قلبها من المرة الأولى.

تلاشت برودة المياه، وطفت تريز من فوق سطح الماء. شهقت طويلاً وهي تتنفس الهواء الخيالي الموجود هناك. حرّكت أطرفها، ودفعت جسدها إلى الشاطئ من جديد. استلقت على ظهرها فوق رمال الشاطئ الرطبة. اتّجه نظرها نحو المنارة، وكان منظر قمّتها المشتعلة أمام الغيوم الحمراء يثير الرهبة. سمعت تريز صوت صراخ غاضب آتٍ من السماء.

لم تنجح خطة السيد ثلاثاء في الانتقام، وهذه الفتاة متعلّقة بالحياة بطريقة غريبة. تأمّلت تريز السماء الداكنة والتي عبقت بدخان أحمر غريب، كالذي يتبع انفجار قذائف الحرب.

"تريز.." ناداها أحدهم، لكنها لم تجد أيّ شخص. نهضت تريز متجاهلة النداء، وسارت نحو المنارة التي كانت قمتها تضيء بضوء أحمر غريب. لا بدّ أن يكون هناك شخص آخر غيرها في هذا المكان الموحش. وصلت إلى المنارة، وتسلّقت السلم الحلزوني وصولاً إلى قمتها.

"السيد ثلاثاء؟" كان يجلس على الكرسي الوحيد، وينتظر وصولها.

"لم تفعلي ما قلتُه.. يا لكِ من جبانة". أمالت تريز رأسها، وراقبت هذا الغريب الوقح. لم يكن مظهره يخيفها، إنما يثير اشمئزازها. "أحضري ليو إليّ، وإلا سأقتل الجميع.. بمن فيهم أنتِ وعائلتكِ. سأقتل كل شخص تعرفينه!".

"من أنتَ حقاً؟" سألته تريز بنبرة باردة كسولة. لكن قبل أن تسنح الفرصة للغريب بالإجابة، كان حلمها قد تلاشى. وجدت تريز نفسها محاطة بالظلام، وهناك ضوء وحيد مسلّط على وجوه متعددة تترقب عودتها. إنها في المستشفى وعلى قيد الحياة.

66

لم أتصوّر بأنني سأتلقى هذا النبأ أبداً. على عكس كل من أحبوا تريز، كنتُ انا أول من فقد الأمل بعودتها. بل إنني أحاول أنْ أتخلّص من سمّ حكايتنا. اتصلت بي والدتها لتخبرني بأنها استيقظت وطلبت لقائي، بل إنّ اسمي هو أول ما تذكّرته. قدتُ سيارتي وفكرت مطولاً بسريزا، ما الذي سأخبرها به؟ كيف ستتقبل هذا التغيير في حكايتنا؟

أتخيّل الحياة كعجلة تتشابه كل أطرافها، ولا يختلف أي جانب منها، لكنّها لا تجعلكَ تقف ثابتاً في أي طرف من الأطراف. كلما اعتدتَ الثبات على جانب واحد، تجد أنّ الأمور تدور، وتلقي به في جانب آخر معاكس تماماً لما أنتَ ثابتٌ عليه، ولكنّ الغريب والمثير للسخرية هو أنّ بيئة الحياة تبقى متشابهة لا تتغيّر. كأن الحياة ترفض اتّهامكَ لها بهذا التحوّل، لكنّها تغيّر باطن القصة، وكل التفاصيل الصغيرة التي تثير الحماس فيما تتوق أنتَ إليه.

تزداد غرابة الحياة بالنسبة إلّي، وأفقد القدرة على توقُّع أحداثها دائماً.

وجدتُ تريز منهكة متعبة، وبالكاد تستطيع أن تتكلم. لكنها ما أن رأتني حتى اغرورقت عيناها بالدموع. حاولت النهوض، ولكنها لم تنجح. دفعتُها لأن تبقى مستلقية، وقبضتُ على كفّها البارد بكلتا يديّ. همستُ لي بصعوبة: "أ..نا آ..سـ..فة".

"لا يجب أن تكوني كذلك". راقبتُ عينيها، وكأنّنا مجرمَيْن قد تخلّصا من ذنب قديم لن يغفره العالم لنا. "أنا سعيد لأنكِ استيقظتِ أخيراً. لقد انتظرتُ هذا طويلاً. لا يمكنكِ أن تتصوري كيف مضى الوقت قبل هذه اللحظة".

ابتلعت ريقها بصعوبة، وحاولت أن تشيح ببصرها عنّي، لكنها لم تفعل. راقبت عيني بجرأة غريبة، وقالت: "لـ.. قد حلمتُ.. بك".

سألتها: "حلمتِ بي؟ أهذا ما تقصدينه؟"

هزّت رأسها إيجاباً وحاولت أنْ تشرح لي: "مـ..نارة.." ثم استوقفها الإنهاك عن إكمال ما تتقوله. أغمضت عينيها وهي تشعر بالعجز.

"منارة؟" سألتُها مستغرباً.

"أ..جل. الـ..منارة. كان هناك، رجل يـ..طلـ..ب مني أن.. أموت. ثم قا..ل أنه يريـ..دكَ أنتَ". أعدتُ ترتيب الكلمة، رجل يطلب منها أن تموت، ويريدني أنا. "في.. المنا..رة".

- "ثلاثاء.. هل هو السيد ثلاثاء؟"

هزّت رأسها، وابتلعت ريقها في الوقت ذاته: "كيف.. كيف تعـ..رف ما حلـ..متُ به؟" لم أجد أيّ شرح مناسب. "طلـ..ب مني أنْ أر..سلك إليه، وإ..لا سـ.. يقـ..تل الجميع" هددها بأنه سيقتل الجميع، إن لم أذهب إليه، ولكن أين هو؟ "كا.. كابوس.. مز..عج". نسيت تريز رغبتها في معرفتي لكابوسها، وكنتُ ممتناً لذلك. هي تعتقد أنّ الأمر مجرد كابوس.

دخل الطبيب فجأة، وبرفقته والدة تريز. قال لي: "لا يجب عليها أن تبذل أي مجهود. سواء جسدي، أو حتى عن طريق عواطفها. لقد أصرّت الفتاة على رؤيتكَ، لكن دعنا نمهّد لها وجودكَ شيئاً فشيئاً". فهمتُ بأنّ عليّ الذهاب الآن، وهذا ما أردتُه أنا بالفعل.

"سأعود إليكِ". التفتُ ووعدتُ تريز. تركتُ المستشفى، وكل ما كنتُ أفكر فيه هو نادي الأرق، يجب عليّ أن أجد الأعضاء، وأخبرهم عن هذا. إنّ السيد ثلاثاء يحاول الوصول إلى كل من نعرفه، ومن ثمّ تحطيمه للتأثير علينا.

لم أكن أعلم كم يوماً مضى منذ أن استيقظت تريز؟! ولكنّنا لا أشعر بالندم كون تلك اللحظة فاتتني. شعوري الوحيد الآن هو الاندفاع تجاه حكاية السيد ثلاثاء تلك. قدتُ سيارتي بسرعة كبيرة متّجهاً إلى متجر جوليا. لا أزال أملك ساعة من الوقت قبل أن تُقفِل المتجر.

***

هتفت جوليا: "ليو.." كما لو أنّها تنتظر وصولي.

"تريز استيقظت، وأخبرتني بأنها رأت كابوساً غريباً. كانت في المنارة ومع السيد ثلاثاء، وهددها بأنها إنْ لم تجلبني إليه، فأنه سيقتلها". تقاطعت الكلمات مع صوت أنفاسي. تمهَّلتُ، وحاولتُ تنظيم أنفاسي من جديد. كانت جوليا تترقَّب ما سأقوله. "إنه يحاول الوصول إلى كل من نعرفهم يا جوليا".

لم تجب جوليا على كل ما قلتُه، لمحت عيناي طيف شخص آخر في

المكتبة، فوجدت فيوليت تجلس بعيداً بصحبة امرأة غريبة لا أعرفها. سألتُها: "لماذا تبكي؟".

قالت فيوليت من بعيد: "ماثيو.. لقد". أجهشت فجأة في نوبة بكاء قوية. التفتُ لأجد جوليا بالكاد تحاول أن تتماسك. نقَّلتُ عيناي مراراً بين جوليا، وفيوليت الجالسة بقرب المرأة الغريبة.

قالت جوليا: "لقد قتل ماركوس ماثيو، وجودي هي من أنقذت فيوليت قبل أن يقتلها هي الأخرى. ذهبوا إلى منزله وهذا ما حدث". وقع بصري على جودي والدة فيوليت، وأول ما لاحظتُه هو الشبه بينهما. بعد ذلك بدأت كلمات جوليا تتسرَّب إليّ، وحاولتُ أن أفهم ما قالته. ماثيو مات أيضاً.

حركت فيوليت باطن كفّيها حول وجنتيها، ومسحت دموعها: "لقد قتل ماريا، جيمي ووالدته، كاميلا، مارك، وماثيو.. والكثير من الأشخاص الذين لا نعرفهم". عادت إليها نوبة البكاء بطريقة أقوى. ضمّتها جودي التي بدت قاسية الملامح.

همستُ لنفسي: "سريزا". رفعت هاتفي، واتّصلت بها.

جاء صوتها ممزوجاً بصوت الهواء: "ليو؟" سألتُها عن مكانها فأجابت: "إنني برفقة دانيال ودوروثي".

"عليكِ أن تأتي إلى هنا حالاً". سألتني عمّا يجري، فكررتُ لها: " تعالي حالاً. إنّ الأمر خطير!".

67

في متجر جوليا والذي أصبح هو المقر الآخر لنادي الأرق، حضر كل من ارتبط مصيره بحكاية السيد ثلاثاء تلك، ما عدا الطفل المدعو أندي. استضافت جوليا كل الأشخاص الموجودين. أنا، سريزا، جودي، فيوليت، إيفان، ليديا، ووالدها فيكتور كذلك. كُنّا كما لو أننا نستعدُّ لخوض حرب ما.

قال إيفان: "في العام الذي انتحر فيه السيد ويلسون، صادف انتحاره يوم الثلاثاء، كما أنه يتقاطع مع يوم عيد الميلاد. وهذا الأمر يتكرّر هذا العام. أي أنّ الأمر يبدو كطقس يتكرّر كل عدة سنوات أو كل عقد. وفي كل مرة كان يتقاطع فيها يوم الثلاثاء مع ليلة عيد الميلاد، كان الأمر ينتهي بعدة جرائم مختلفة لا مبرر لها. حالات انتحار، قتل، وحرق منازل. كل تلك العائلات كان عيد الميلاد ذكرى بائسة بالنسبة لهم. الغريب في الأمر هو أنّ بعض تلك العائلات كانت قد فقدت أطفالها من دون أي أثر، إنْ كان لدى تلك العائلة أي طفل".

قالت جودي: "هذا يعني أن السيد ثلاثاء هذا، يخطِّط لشنّ مجزرة جديدة غداً. لكنّ الأمر يبدأ من اليوم".

في تلك اللحظة علّقت جوليا: "أعتقد أنه غاضب منّا بشكل غاص، وغاضب من العالم كله بشكل عام. لستُ متأكّدة إنْ كان هذا الكيان مرتبط بعائلة ويلسون، ولكنه يبدو لي كذلك. هو يريد تجديد ذكرى موته عن طريق هدر دماء الأشخاص القريبين من هذا المكان. هو يحاول الانتقام من هذه الأرض؛ لأن أهل هذه المدينة هم من قتلوه".

قلتُ: "لم يقتلوه".

نظرت إليّ جوليا بتساؤل: "لكنهم السبب في ذلك".

شرحتُ لها: "لقد وجّهوا إليه الاتّهام؛ لأنهم لا يرغبون في تصديق أنّ طفلاً قد قام بذلك دفاعاً عن نفسه. لقد قالوا بأنه هو من قتلها؛ لأن أصيب بمس، ولم يكن أمامهم سوى حبسه في أي مكان حتى تتدخل الكنيسة في حلّ هذا الأمر".

قال إيفان: "هذا ورد أيضاً في بعض السجلات القديمة. هناك من حاول

إخفاء تفاصيل هذه الجريمة، وأنا أعتقد أنها طائفة عين الشمس؛ لأن هذه القصص- من وجهة نظرهم- لا يجب أن تقع في أيدي العامة؛ لأنها ستثير فضولهم، والفضول لبدوره سيفتح بوابة أكبر لعبور الشر إلى عالمنا. السيد ويلسون متَّهم بقتل زوجته وابنه المفقود، والذي تمّ تهريبه. لكنّ أهالي البلدة لم يصدِّقوا بأنّ الابن هرب، وهم لا يرون إلا أنّه قاتل. حبسوه في المنارة بانتظار تدخُّل سلطة دينية في الأمر، وفي يوم الثلاثاء رمى نفسه من قمة المنارة، وانتحر".

قالت سريزا: "إذا هو مرتبط بتلك المنارة، وحلقة البداية تقع هناك".

سألت جودي: "ولماذا لا تكون في منزله. أعتقد أنه عالق في كل شيء يرتبط به، هذا العرف موجود مع الأشباح العالقة بين الحياة والموت، أو هذا ماتعتقده الطائفة سابقاً. كل مكان يرتبط بروح الشبح العالق، هو خط عودة".

سألت فيوليت: "ألا يحاول ماركوس تدمير الطائفة؟"

علّقت جودي: "أي كيان شرير سيسعى لفعل ذلك، قد لا تكون مهمته الأساسية، هي تدمير ما تبقى من طائفة زالت قبل عقود طويلة. لكنْ حتى تصل إلى نهاية المضمار، عليكَ أن تتخلّص من كل خصومكَ".

عندما تدخل فيكتور والد ليديا، كان لصوته تأثير عميق، يمكن من خلاله أن يجذب انتباه الجميع. "أعتقد أنّ ذلك الشيء أضعف من أن يتسبّب لنا بأي ضرر، والدليل على ذلك، هو عدم قدرته على قتلنا جميعاً دفعة واحدة. أنا لا أنكر قدرته على التدمير، لكنّ هناك عائقاً ما يمنعه من استخدام السرعة. إنه يستخدم الأحلام، وكان يمنعكم من النوم؛ حتى يترك مساحة للعقل الباطن بالعمل، وعندما تعمل قوى العقل الباطن، وتنوب عن العقل الظاهر، فإنه يستخدم عندئذٍ قدرته على صنع الخيال؛ لأن مجال أخذكم بعيداً عن أرض الواقع يصبح أوسع. أمّا الطريقة التي يؤذيكم بها، فهي عن طريق ماركوس هذا. فهو يستخدم يداً بشرية، ومؤثرات شيطانية، ومن خلال دمج القدرتين معاً يستطيع التسبّب لكم بالضرر".

ضمّت جوليا يديها بقوة وقالت: "هذا صحيح. إنه لا يريد لنا أن ننام؛ لأنّ الأحلام قصيرة جداً ولن تكفيه. أمّا الأرق فسيجعل أوهامنا تتداخل مع الواقع بسبب الإرهاق، وفي تلك اللحظة يصبح وجوده مع يد ماركوس البشرية أقوى،

وأكثر سطوة".

تدخَّلتُ أنا قائلاً: "ما يعنيه هذا هو أنّنا يجب أن نبقى يقظين، وألّا نستسلم للأوهام أبداً، وبتلك الطريقة سنتمكّن من تحديه على الأقل". لم يتفاعل أحد مع الفكرة أو يبدي اهتماماً بها، لكنْ على الأقل فإنَّ أحداً لم يعترض كذلك.

إنَّ تجاوز اللحظات القليلة التالية المُشبعة بالصمت كان صعب جداً. عاد إلينا الشك في أفكارنا، وتعاظم الأمر إلى حدٍّ يشبه الجنون. لا يستطيع إنسان التخلّص من شكّه في منطقية الأمور التي يعيشها في المرة الأولى إلا بعد أن يتجاوزها.

حدّقت جوليا بالجدار خلفي دون أي هدف، ولم يدرك أي أحد كم أصبح بريق عينيها باهتاً. سألتها: "جوليا ما الأمر؟" لكنّها ظلّت واقفة كتمثال. "جوليا؟ هل أنتِ بخير؟" لكنّ جوليا لم تكن تسمعني. كان جسدها موجوداً بيننا، لكنّ وعيها كان بعيداً كل البعد عنها.

عادت إلى الواقع فجأة، وكان أول شخص تقابله عيناها هو أنا. قالت لي فجأة: "إنه أندي، يجب أن ننقذه".

"أين هو؟ هل رأيتِ أيّ شيء يتعلّق به". سألتها، بينما ارتسم الفضول على وجه الباقين. "فيوليت، هل يمكنكِ تحديد مكان الفتى؟" هزّت فيوليت رأسها، وهي غير متأكدة، ولن تتأكد من قدرتها إلّا بعد أن تجرّب ذلك.

أمرتنا جوليا بنبرة القائد: "ليو، سريزا، ستذهبان إلى المنارة. ستحرقان ذلك المكان".

هتفت سريزا بجزع: "ماذا؟ نحرق ماذا؟"

"هيا ستحرقان المنارة". حثّتنا جوليا، كما لو أننا نقف أمام المنارة ونحمل قداحة بيدنا. "وأنتِ يا فيوليت، ستأتين معي، وتدلينني على مكان أندي".

علّقت جودي قائلة: "ألم تقولوا بأنّ منزل عائلة ويلسون مايزال قائماً؟ أعتقد بأنه لا يجب أن يبقى كذلك؛ لأنه يعتبر بوابة أخرى".

هتفت جوليا: "هذا تحديداً ما كنتُ أفكر به".

قالت جودي بشجاعة: "أعطيني عنوان ذلك المنزل، وسأتكفّل أنا بذلك.

لديّ طريقتي الخاصة للتعامل مع أمور شبيهة بذلك".

تدخَّل فيكتور قائلاً: "سأذهب معكِ". رمقته ليديا بنظرة خوف. قال لها: "هذا أقل ما يمكنني تقديمه كانتقام لكاميلا. لا يجب أن أتجاهل مشاركتي في هذا".

"ولكن.. إنْ كنتَ ستفعل ذلك، فلا بدّ أن أكون معكَ".

"لا". رفض فيكتور.

أصرّت ليديا: "سأذهب. ألم تكن ترغب في أن تعود الأمور إلى نصابها القديم. لن يشفي غليلي سوى ذلك، وإنْ كان هناك ما ينتظركَ فلن أدعكَ تتضرَّر وحدكَ".

ربتت جودي على كتف ليديا بقوّة: "هيا، لا وقت للحظات العائلية، سنذهب الآن". ثم استدارت نحو جوليا؛ كي تعطيها عنوان المكان المقصود. شرحت لها جوليا طريقة الوصول إلى العزبة، وحسبما تعرفه جوليا فإن العائلات تعيش في المنزل الرئيسي الكبير.

ترك فيكتور المتجر برفقة ليديا. كادت جودي أن تتبعهم، ولكنها عادت أدراجها وسارت باتجاه فيوليت. وقفت جودي أمام ابنتها، وأصبحتا تبدوان كصورتين متطابقتين الفارق بينهما عدة سنوات. قالت جودي: "لم أكن موجودة فيما مضى؛ لأنني لم أتحمل فكرة ألّا تخوضي تجربة الحياة، وإن كانت صعبة. مايزال لديّ قلب إنسان. لا يمكنني أن أعيش مع فكرة رحيلكِ؛ لأنني مطاردة دائماً. لا أعتقد بأنكِ ستسامحينني، أو تتفهمين الخير الموجود في شرّ أفعالي". سطقت دمعة وحيدة من عين فيوليت. "كوني حذرة، وشجاعة أيضاً". رحلت جودي دون أن تتداعى مشاعرها أمام ابنتها.

رغم أنّ الدموع ما تزال تلمع في عيني فيوليت، إلّا أنها التفتت نحو جوليا، وحثَّتها على المضي قُدماً. ذهبت جوليا برفقة فيوليت وإيفان، وتركونا أنا وسريزا وحيدَين في المتجر. التفتُّ لأرى سريزا تحاول التحلّي بشجاعة مزيفة.

"لم أتردّد في أن أنضمّ إلى نادي الأرق، طالما كنتُ برفقتكِ أنتِ، والآن لن أتردّد بأن أقفز في النار التي سنشعلها، طالما هذا سيكون برفقتكِ يا سريزا. أعلم بأنكِ خائفة، ولكن إذا كان هذا أقسى ما أقوم به في حياتي فأنا لن

أتردّد".

استقامت سريزا، وقالت: "واجهتُ كل أنواع الخوف في حياتي، وفقدتُ أفراد أسرتي بأبشع طريقة يمكن أن أتصوَّرها. لن أقف أمام هذه الخطوة التي ستصنع بيني وبينكَ ذكرى، أعلم أنَّ أقصى لحظات السعادة أو الخوف لن تمحوها".

68

إننا لا نختار معظم البدايات، بل نجد أنفسنا واقعين فيها دون تحديد واضح للوقت، أو حتى لشكل البداية. يبقى دائماً الحدث الأول والأهم مبهماً بطريقة لا توضّح حقيقة القصة. أما النهايات فهي أمور غيبية لا يمكن تخمين وقتها، أو ما إذا كانت تقترب منا، أو حتى إنْ كانت بعيدة. لكنّ فكرة المجهول تعطينا أحياناً شعوراً بالراحة؛ لأننا نبقى متيقّظين حتى لحظة النهاية، إذا ما كانت الحكاية تتعلّق بأمر سيّئ.

أما أندي الذي لم يكن يخاف من كابوس السيد يوم الثلاثاء، لم يكن يعرف بأنّ النهاية ستأتي قريباً قبل أن يحين عيد الميلاد، وينعم بدفء العائلة، وبعض الهدايا المقدّمة منهم. طلبت منه جيسي أن يمضي معها إلى حديقة الملاهي، والتي تمّ افتتاحها حديثاً في البلدة، ورغبته كطفل، لم تأخذه ولو قريباً من فكرة الرفض. بل مضى معها إلى هناك، وهما يقودان درّاجتيهم تحت آخر أضواء النهار.

لم تردع برودة الطقس حماسهما الطفولي. وصلا إلى صفّ الأضواء المتزاحمة ذات الألوان المختلفة. ربط كلاهما دراجته بسياج مدينة الملاهي، والتي كانت مزدحمة بسبب موسم العطلة، ثم قطعا تذكرتي الدخول. خاض أندي وصديقته العديد من الاحتمالات العالقة بين الرفض والقبول، فمثالاً على ذلك، لم يعتقد بأنه سيتمكّن من ركوب القطار الكهربائي؛ لأنه لم يصل إلى الطول الكافي، لكنه استطاع أن يخوض التجربة في النهاية. كان يعتقد بأنّ صوت والدته سينهره عن أكل المثلجات في الطقس البارد، لكنه تناول بعضاً منها.

كانت جيسي تسبقه دائماً، وتصيح وهي تلتفت إليه: "لنجربْ هذا، لنجرب هذا". ولا يرفض أندي بل كان يلعب كل الألعاب التي تشير إليها صديقته جيسي.

أخبرَته وهما يجلسان متجاورَين في الأرجوحة التي تدور، ومقاعدها معلّقة بحبال سميكة: "أنا سعيدة؛ لأنكم عدتُم قبل الموعد المحدّد. لم يكن الملل هنا يُطاق".

ابتسم أندي، وقال ليغيضها: "لقد قضيتُ عطلتي وحيداً عندما سافرتِ أنتِ

وعائلتكِ".

سألته والحيرة على وجهها: "هل كان الأمر سيئاً إلى هذا الحد". حرّك أندي رأسه موافقاً. لم تعلّق جيسي؛ لأنها شعرت بالأسى. قال أندي ليمحو شعورها الغريب، والمتأخّر بالذنب: "لكننا الآن هنا".

***

"إنها الحديقة ذاتها يا إيفان". قالت جوليا الجالسة بجوار إيفان، بينما فيوليت كانت تجلس على طرف المقعد الخلفي، كما لو أنها طفل يمنعه الحماس عن الجلوس بأريحية. "إن المكان مليءٌ بالأضواء، بل إنه مزدحم حتى".

"لقد تمّ افتتاح المكان". علّق أندي. كان إيفان يتحرّك بين زحام المركبات، ويبحث عن ركنٍ خالٍ ليركن سيارته فيه، وعندما عجز ركنها أمام الباب. تقدّم رجل الأمن ليعترض، لكنّ إيفان رفع شارة الشرطة، وقال في وجه رجل الأمن: "نحن من الشرطة". ظهر الرعب على وجه الرجل، فابتعد وأفسح مجال الدخول لإيفان، حتى من دون أن يقطع تذاكر.

أشارت فيوليت نحو الجهة الغربية، وقالت: "هناك". وكانت تقصد مكان وجود أندي. هرول الثلاثة إلى الجهة التي أشارت إليها فيوليت، من دون أن يقصدوا أي مكان محدّد. لمحت جوليا العجلة الكبيرة التي صعدت على متنها ذات مرة برفقة إيفان، لكنّها تجاهلت اللحظة الشاعرية القصيرة.

توقفت فيوليت، وحاولت أن تستجمع تركيزها: "إنّه هنا.. لكنني أعجز عن تحديد مكانه وسط كل هذا الزحام".

"هيا حاولي". حثّها إيفان، فرمقته فيوليت بنظرة عجز.

"إنه يبتعد" قالت ذلك، وهرولت، فتبعتها جوليا وكذلك فعل إيفان.

***

وقع بصر أندي على الورقة التي كانت تتحرّك مع نسمات الهواء، وفكّر في أنّ ما طبع عليها لا يجب أن يكون حقيقياً. صورة السيد ثلاثاء مطبوعة على ورقة إعلان ملقية على الأرض. صاح ليسمع صوته: "إنه هنا، السيد ثلاثاء". تبعت خطواته الورقة إلى أنْ وصل في النهاية إلى منزل الرعب.

لم تنتبه جيسي إلى كلماته، لكنّها عندما رأت المبنى الكبير قالت له: "لتكن تلك محطتنا الأخيرة". لم يعترض أندي، لكنّه الآن بدأ يشعر بخوف حقيقي. إن تلك الورقة هي إشارة السيد ثلاثاء له.. إنه موجود في الداخل.

"أنتما أصغر من السنّ المسموح". قال الحارس الواقف أمام مدخل منزل الرعب.

"إنّنا أقصر فقط". قالت جيسي ببراءة مزيفة.

تنهَّد الحارس وقال: "حسناً يمكنكما الدخول، ولكن لا تخبرا أحداً بأنني سمحتُ لكما بذلك". وعدته جيسي بأنها لن تفعل، وكذلك أندي. تجاوزاه وتحركت خطواتهما باتجاه المدخل الكبير المضاء بمصابيح حمراء، وقبل أن يدخلا تبادر إلى ذهنَيهما صوت ثقيل عميق، كما لو أنّه زئير ممتزج بصوت صراخ حاد.

ابتسمت جيسي، وهرولت باتجاه المدخل؛ لتنال حصّتها من المتعة.

***

توقف الثلاثة أمام منزل الرعب. التفتت جوليا نحو فيوليت، ورمقتها برعب قائلة: "هل أنتِ متأكدة من أنه هنا؟" حرّكت فيوليت رأسها بحركة لا تدلُّ على الموافقة أو الرفض حتى. لأوّل مرة لا تكن فيوليت واثقة من قدرتها على الوصول إلى المكان الذي تريده.

"لا أعلم.. لا أعلم يا جوليا".

"تحلَّي بالشجاعة يا فيوليت. هيا لندخل". قال إيفان، ومضى نحو المدخل متجاوزاً حارس المنزل. كانت جوليا تملك ما يكفي من الشجاعة كي تكون بجوار إيفان، وتمضي إلى الداخل دون تردّد.

***

"يوجد العديد منّا هنا". علّقت جيسي بسذاجة وهي تتلفت؛ لترى العديد منها في كل الجوانب، وكان تكرار الصور يولّد حالة من التشتت تجعلهم غير قادرين على تحديد الطريق الصحيح للخروج من المتاهة. شعر أندي بالذهول، وهو يرى بريق المرايا، ولمعان الأضواء المحيط بصورهم في الانعكاس.

التفتَ نحو جيسي فوجدها قد اختفت بلمح البصر، لكن صورها في المرايا ما تزال موجودة. ناداها: "جيسي". ثم استجمع قواه ليصرخ بخوفٍ وُلِد فجأة: "جيسي، أين أنتِ؟" في المرايا كانت الطفلة ما تزال إلى جواره، لكن معالم وجهها كانت غير واضحة. في كل الزوايا كانت الطفلة توليه ظهرها، ولا تنظر إليه.

"أندي، أنا هنا". بدأ طيفها الموجود في المرايا يجري في اتجاهات مختلفة. عجز أندي عن تحديد الاتجاه الصحيح فتحرّك في المتاهة دون أن يدري إلى أين سيصل عبر الطريق الذي اختاره. "أنا هنا". كرّرت جيسي، وهرولت في اتجاه مختلف.

سمع أندي صوت ضحكتها من بعيد، فصرخ: "عودي إلى هنا، هذا ليس وقت المزاح". ظهرت في المرآة من جديد، لكنّها هذه المرة كانت تراقبه بعينين لامعتين. لم تكن العين المضيئة في المرآة هي عين جيسي، بل إنه السيد ثلاثاء هو من كان يحاول أن يستفزّ أندي بتقمُّص شكل جيسيكا صديقته.

كانت الصورة الموجودة في المرايا هي صورة صديقته، لكنّ الصوت الناطق لم يكن صوتها، بل هو صوت ذكوري: "أندي صديقي العزيز، ها نحن نلتقي من جديد. ما أزال أطمع فيما تملكه من خيال".

قال أندي بشجاعة: "أنا لا أخاف منكَ".

"مع أنّ الخوف يُعظِّم الخيال، ولكن رغم واقعيتكَ إلّا أنّ ما تملكه من أوهام باطنية تبني فيها حياة أخرى لكَ، يكفيني لكي أدمّر وعي الآخرين، وأصنع عالماً مليئاً بالأوهام يغطي أعين سكان البلدة، وبذلك يمكنني أن أدمّرهم جميعاً".

أتى صوت جوليا فجأة من خلف المرايا: "لكنّ لم يعد لديكَ من الوقت ما يكفيكَ لتفعل هذا".

ضحك السيد ثلاثاء وقال: "حصّتي أصبحت أكبر". تغيّرت صورة جيسي وظهرت بدلاً منها صورة السيد ثلاثاء، وهو عبارة عن ظلٍّ أسود، له عينان تومضان بضوء أحمر خافت.

قال إيفان وهو يقبض على مسدسه المعلّق بحزامه: "لا تستخدم أوهامكَ الغبية؛ لأنّها لن تنفعكَ الآن". تغيّرت صورة السيد ثلاثاء، وظهرت في المرايا والدة إيفان بوجهها الشاحب بسبب المرض. قال إيفان: "هل تعتقد بأنكَ تؤذيني بهذه الطريقة".

"لا تكابرْ، ابحثْ في أعماق نفسكَ عن الأذى، وستجده". ضرب إيفان بكعب سلاحه المرآة المجاورة له. غطّت الصدوع وجه أمه، وفي الوقت ذاته ومضت عيناها بضوء أحمر، ثمّ تحركتا.

"هذا يغضبكَ". ضحك السيد ثلاثاء من جديد.

اقترب أندي من المجموعة التي دخلت إلى متاهة المرايا، وقال: "جيسي، لقد خطفها". واجهت جوليا فيوليت الواقفة خلفها، وهمست لها: "إنّها مهمتكِ. يجب أن تجديها". أغمضت جوليا عينيها، وحاولت أن تسترجع ملامح وجه جيسي في ذاكرتها؛ حتى ترسمه في ذهن فيوليت.

حاولت فيوليت أن تربط قدرتها بوجه الطفلة الذي ظهر في خيالها. "إنّها قريبة". قالت وبدأت تتحرّك في ممرات المتاهة. كان إيفان يجري عبر المرايا، ويضربها بكعب سلاحها. بينما قبضت جوليا على ذراع أندي، وحاولت أنْ تحدد مكان المخرج. تغيّر ترتيب المرايا، بحيث لم يعد تحديد مكان باب الخروج ممكناً. لم يكن المدخل يفتح لمن يريد عبوره، وإنما كان عليهم إيجاد باب الخروج.

دفعت جوليا المرايا المتحرّكة، وهي تحاول جعل أندي يتفادى كل الصور الغريبة التي كانت تظهر على المرايا.

69

ملأت رائحة الوقود السيارة الصغيرة التي كنتُ أقودها. إلى جواري كان يجلس تشارلي، والذي لم يتردّد في خوض هذه الخطورة مع صديقه، رغم أنّ عواقب الأمر كانت كبيرة. لا أعلمُ لماذا أصطحبُ تشارلي معي، لكنني لم أكن متأكداً من أنني أستطيع حماية سريزا وحدي.

فيما مضى تخلّى تشارلي عني؛ لأنّ حياتي كانت لا تطاق، وتركني رهيناً لرغابتي التي أخذتني بعيداً لسنوات طويلة، أما الآن ونحن أقرب صديقين من جديد، لن يتركني أخوض أية تجربة أخرى وحدي. حاولت سريزا أن تثبّت خزان الوقود الذي وضعته بجوار قدميها على أرضية المقعد الخلفي.

وصلنا إلى المنارة قبل الوقت المفترض للوصول؛ لأنني كنتُ أقود السيارة بتهوّر وبسرعة أكبر مما يسمح لي الطريق بها. تركنا السيارة بجوار الشاطئ. حملتُ خزّان الوقود، وسرتُ مع تشارلي إلى مدخل المنارة. أقفلت الشرطة باب المنارة بعد انتحار مارك في المكان، رغم أنّه ظلَّ مفتوحاً بعد جريمة جيمي. حمل تشارلي المفتاح الحديدي، وضرب القفل مرات عديدة حتى حطَّمه.

"ابقي هنا". أمرتُ سريزا، فأظهرت الفتاة امتعاضاً. "راقبي المكان حتى نعود". لم تقتنع سريزا بحجتي، لكنها وافق. تسلّقتُ السلم برفقة تشارلي حتى وصلنا إلى قمة المنار. فتحتُ خزان الوقود، وسكبتُ مافيه في قلب الحجرة الكبيرة.

تسلّلت رائحة الوقود إلى أنفي، ثم أصبحت قوية فجأة. شعرتُ بالدوار، ثم أصبح العالم بعيداً عني من جديد. تحوّلت صورة الحجرة القديمة، إلى صورة حيّة. أصبح المكان أنظف فجأة، وكان الليل أقلَّ حلكة مما هو عليه الآن.

جلس الرجل وحيداً في المكان، وعيناه محجوبتان. لم يكن مقيّداً، لكنّ مدخل الحجرة كان موصداً. لم يكن الرجل قادراً على أن ينتحب، لكنّه أرخى رأسه على الجدار، وضرب بقبضته الجدار مرات عديدة، حتى أدمى طرف ذراعه.

لقد سلبوه نظره، وحجزوه في هذه الحجرة كسجن مؤقت.

تسلّل الظل من شرفة غرفة المراقبة، كان الظل غريباً وهو يحاول تشكيل

جسد غير مكتمل. لم يكن الرجل قادراً على رؤية الدخيل، الذي وصل إليه بطريقة ليست بشرية أبداً. لكنه سمع صوت همسه، وهو يقول له: "إنهم لا يفهمون الأمر، بل يلقون بأحكامهم دون أيّ حق" .

"من أنتَ؟" سأل الأسير بلهفة.

"أنا من سيخرجكَ من هذا السجن الكئيب. أنا من أراد حمايتكم منذ البداية" .

سأل الرجل الذي لا ترى عيناه سوى الظلام: "كيف ستفعل هذا؟"

"الموت... يمكنكَ أن تهبني الموت، فأعطيكَ أنا حياة جديدة تنتقم فيها من كل شخص أذاكَ. زوجتكَ كانت مخطئة حين حاولت أن تردعني، وأنا حاولتُ إنقاذكم، وحماية عائلتكم كثيراً" .

قال الرجل بغضب: "أنتَ.. أنتَ الشيطان الذي دفع ماركوس لقتل أمه" .

قال الظلّ بصوت يشبه الفحيح: "لا.. لا.. كنتُ أحميه من جنون والدته. إنّ تلك الطائفة الغبية قد محت كل أفكارها، ولم تقتنع يوماً إلا بفكرة واحدة: هي أنّ الشر يطاردها. كانت تشكُّ في أن ابنكما هو الشرّ من جديد؛ لأنّ الطائفة كانت قد غسلت دماغها، ولم تترك لها إلا فكرة محاربة الشر. كان الطفل البريء خائفاً، وهي امرأة مجنونة أخذها الجنون إلى حدود القتل، فأرادت أن تقتل الطفل الذي استنجد بي" .

"والآن ماذا؟"

أمره الظّل: اقفز، وسأعيدكَ من جديد لتنتقم. ماركوس مايزال موجوداً وهو قادر على أن يحييكَ من جديد، على أن يكون هو عينيكَ في هذه الحياة" . نهض الرجل ورغم أنه غير قادر على الرؤية إلا أنه سار بتخبُّط حتى وصل إلى مصدر الهواء. أدرك بأنه أصبح في منطقة مكشوفة، وبأنه أمام الحاجز الحديدي. أرخى جسده من فوق الحاجز، وترك الجاذبية تسحبه إلى الأسفل.

عدتُ إلى الواقع على صوت تشارلي: "هيا يا ليو". لم يكن أمامي متسع من الوقت لأشرح له ما رأيتُه. أخرجت من جيبي قدّاحة بلاستيكية ليست مميّزة. ثبّتُ الزر الذي يطلق اللهب، ورميتُ القداحة على بقعة الوقود. رأيتُ الألسنة الأولى تتصاعد على الأرض اللامعة، وتنتشر بسرعة.

تراجعنا أنا وتشارلي إلى السلم الحلزوني من جديد، وهبطنا بسرعة إلى الأسفل. ابتعدنا عن المارّة عائدين إلى سيارتنا، ورأينا أمام سماء الليل البارد ضوء النيران يحيط بقمّة المنارة، في تلك اللحظة فقط ملأ السكونَ صوت صراخ غريب، لا يمكن لأيّ بشري أن يطلق صوتاً مثله.

70

تمكّنت جودي من التسلّل إلى عزبة آل ويلسون، وكانت بارعة في إيجاد طريقة تقفز فيها فوق السور المحيط بالعزبة. ساعدت فيكتور وليديا في تجاوز السور هما أيضاً. لم تكن تكترث لكونها تسير في طريق واضح إلى العزبة، لكنها توجَّهت إلى المنزل الكبير، الواضح بين المنازل الأخرى في العزبة.

دفعت الباب الأمامي للمنزل بغضب، فلم يفتح! ركلته بقوّة، لكنّه ظلَّ موصداً. التفتت إلى فيكتور وليديا: "هيا ساعداني في هذا". تقدّم الثلاثة، ودفعوا البواب بقوّة في آن واحد، فتحطَّم قفله القديم.

***

انعطف الممر الضيف والمحاط بالمرايا، فتحرّكت فيوليت نحو الوجهة التي يؤدي إليها الطريق. استقبلها باب عريض محاطٌ بمصابيح صغيرة تجعل إطار الباب لامعاً، كما تظهر منه أقنعة بيضاء تبتسم. دفعت فيوليت الباب بقوة فوجدت نفسها تقف في حجرة عريضة تتوسطها عجلة مراجيح صغيرة، فيها تماثيل أحصنة صغيرة ملونة بألوان الطيف، ومحاطة بمصابيح صفراء. كانت العجلة تدور مع صوت موسيقى طفولية.

تقدّمت فوليت إلى العجلة الخشبية الصغيرة، وقفزت على متنها؛ لترى ما الذي أرسله إليه حدسها. كانت جيسي ترقد بين الأحصنة التي تعلو وتنخفض، ولا تشعر بوجود أيّ خطر حولها. كان الضوء المحيط بالعجلة الخشبية هو مصدر الضوء الوحيد في المكان، وما عدا ذلك لم يكن هناك سوى الظلام، وصدى صوت الموسيقى الطفولية.

اقتربت فيوليت من جسد الطفلة الراقدة، وحاولت أن تحملها، لكنّ العجلة بدأت تدور بسرعة أكبر ممّا أفقدها توزنها، وجعلها تقع على ركبتيها بجوار الطفلة بينما هي منحنية.

"لم أتصوّر أنّ لقاءنا سيستغرق هذا الوقت كله". سمعت فيوليت صوتاً مألوفاً، عرفت صاحبه قبل أن تستدير حتى.

***

بعثت الموسيقى الموجودة في متاهة المرايا التوتر والقلق في قلب جوليا،

التي كانت تحاول حماية أندي من خطر غير متوقع، لم تستطع تحديد مصدره. كان السيد ثلاثاء يضحك محاولاً استفزاز إيفان، كلما قام الآخر بتحطيم مرآة جديدة.

قال الظل: "لم أتصوّر بأنكَ بهذا الذكاء أيها الشرطي".

قال إيفان ساخراً: "من المؤسف ألّا يكون لديكَ تلفاز في طفولتكَ، كُنتَ ستعرف هذه الحيل لو أنكَ عشتَ طفولة طبيعية يا هذا". يؤمن إيفان بأنّ كل القصص الخيالية التي تعرض في الشاشات، وتروى في الكتب هي انعكاس لحقائق مبهمة.

تحرّكت المرايا، وتجاور عدد كبير من المرايا المحطمة، والذي لم يعد أيٌّ منها صالحاً لكي يستعمله السيد ثلاثاء في رسم أوهامه. ما أن تحرّكت المرايا من جديد، حتى ظهر ظلُّ رجل حقيقي يقف في المتاهة معهم. خطى الرجل الغريب خطوة إلى الأمام، وقال: "من الغباء أن نستهين بالعدو، فهذه لحظة غباء تمكّنه من تسلّق الأسوار".

أحاطت جوليا أندي بذراعيها، فيما رفع إيفان سلاحه أمام الرجل الذي كان يتحرّك: "ماركوس ويلسون. لا تتحرك وارفع ذراعيكَ؛ لأرهما". لم يلبِ ماركوس رغبة إيفان، بل راح يضحك بطريقة هستيرية، ثم تلاشى مع الرياح، ليظهر بعد ذلك من جديد على مسافة أقرب من إيفان. أطلق إيفان رصاصة من سلاحه، لكنها بدلاً من أن تخترق جسد ماركوس، حطمت الرصاصة الصورة المقابلة لإيفان.

"لم تصبني هذه المرة". ضحك ماركوس، وقد نجحت حيلته. استدار إيفان؛ ليرى ما إذا كان ماركوس خلفه، لكنه لم يكن هناك. بل ظهر بالقرب من جوليا وأندي. رفع ذراعه بطريقة مفاجئة، وجرّ جوليا بعيداً عن الطفل. قاومت جوليا حركته، وحاولت أن تقبض على وجهه، لكنها عجزت بعد أن دفعها باتجاه إحدى المرايا، فتحطّمت بعد أن اصطدم جسد جوليا بها.

قفز إيفان ليقبض على أندي، لكن رصاصة إيفان أعاقته وألقت به بجوار الطفل.

***

تقدمت جودي والقداحة بيدها، حرّكتها على أطراف الستار. فيما فيكتور كان يلقي بالوقود على قطع الأثاث الكبيرة. ومن دون أين تردّد أشعل فيكتور النيران في قطع الأثاث كلها.

اتّجه الثلاثة إلى باب المنزل، لكن الباب لم يكن في مكانه، بل وجدوا أنّ الجدار خالٍ من أي أثر للباب. كانت النيران تنتشر في المكان كله، وتلتهم قطع الأثاث تباعاً. والثلاثة الموجودين في المنزل فقدوا المخرج الوحيد.

"لم يعد الباب موجوداً". قالت ليديا.

حاول فيكتور أن يقبض على زمام الموقف: "إنّه وهم، وليس حقيقة".

"النوافذ". أمرتهم جودي، ولكن النوافذ لم تكن موجودة كذلك. خلف زجاج النافذة كانت هناك أعين كبيرة تراقبهم، وتحجب عنهم العالم الخارجي. "هل علقنا هنا حقاً؟" سألت جودي ببلاهة لا تتناسب مع رهبة الموقف.

قالت ليديا بعجز: "لا يجب أن تكون هذه النهاية". لكنّها كانت النهاية بالفعل؛ لأنّ النيران كانت قد أحاطت بهم جميعاً. فكّر فيكتور في أنّ هذا هو الوقت الأنسب للقاء كاميلا في مكان آخر، فيما ليديا كانت ترفض أن تكون هذه هي اللحظة الحاسمة. أما جودي فكانت تفكّر في أن هذا سيحمي ابنتها، وبأنها ستتمكن بذلك من تقديم شيء فعليٍّ لها.

***

استلقى ماركوس على وجوهه، ولم تتشكّل الدماء حوله بعد. نهض أندي، وسار نحو جوليا التي كانت تحاول النهوض. تقدّم إيفان نحوهما وحاول أن يساعد جوليا، ثم سحب أندي معه، ليخرجه من هناك. قالت جوليا: "يجب أن نجد فيوليت وجيسي".

تذكرهما إيفان فجأة، ولأول مرة تمنّى لو أنه يمتلك قدرة فيوليت على تحديد مكان الآخرين. لم يعد أمامهما سوى البحث في المتاهة. ظلّت جوليا بجواره، ولم يفترقا أثناء بحثهما عن فيوليت. كان كلاهما ينادي باسم فيوليت وجيسي، بينما كان أندي مايزال تحت تأثير اللحظة، فهو ولأول مرة يرى شخصاً يتعرّض لإطلاق نار، ولأول مرة يرى جثة حقيقية.

***

حاولت فيوليت النهوض رغم سرعة العجلة، ولكن قدمها خانتها. همست بتساؤل: "ماري؟ أنتِ على قيد الحياة إذاً؟" ابتسمت ماري ابتسامة ماكرة، وتقدمت نحو فيوليت بخطى واثقة.

"لم أرغب يوماً في أن تكوني أنتِ جزءاً من هذا، ولكنكِ أنتِ من لم تكفِ عن البحث ورائي". لم يختل توازن ماري فوق العجلة السريعة، كانت تتحرك وتتفادى الأحصنة المتحركة. حاولت فيوليت النهوض وراقبت المرايا البيضاوية المعلّقة على محور العجولة. كانت ترى من خلالها انعكاس صورة ماري واضحاً أمامها.

"لأنكِ صديقتي". قالت فيوليت ذلك بصوت فيه بعض التأنيب، ولكنّ الدهشة كانت هي سيدة الموقف في تلك اللحظة. لا تعلم فيوليت إذا ما كان هذا وهماً أم حقيقة، ولكن كيف لم تجد ماري من خلال قدرتها؟

"لم نلقَ يوماً من الحياة ما يجعلنا نشبه الآخرين. كانت الحياة قاسية معنا يا صديقتي. لكنّني تلقيتُ وعداً بأن أحظى بما أريد، وكادت هذه الأمنية أن تتحقق، لولا ما تقومون به. لماذا لا تتركينهم للموت، وتنجَين بحياتكِ؟ لماذا أنتِ مُصِرّة على الصراع معهم؟"

استعادت فيوليت توازنها التامّ، وقالت: "لأنهم أصدقائي، لم أتخلَّ عنكِ يوماً، ولن أفعل هذا معهم".

"أنا لم أتخلَّ عن شي، بل تلقيت هديتي من الحياة. أستطيع أنْ أملك كل شيء من خلال ما أقوم به. أنا أتغذّى على أفكار الآخرين مخاوفهم أحلامهم، فأصبحُ أقوى. أم أنكِ تريدينني أن أستمرّ في حياة بائسة تشبه ما تقاسمناه سابقاً".

قالت فيوليت بعد أن اعتراها الغضب: "ذلك البؤس كان يمثّل كل شيء بالنسبة لي، ولكن أنتِ من لم ترضَي بما كنتِ تملكين. كنتِ تغارين من الآخرين، ولا أعلم من الذي وعدكِ بحياة أفضل تشبه هذه العتمة الغريبة".

ابتسمت ماري: "إنه هو من تبحثون عنه، هو ذاته من كان يهمس لي وحدي".

عقدت فيوليت حاجبيها، وقالت: "الشيطان؟" زمّت ماري شفتيها، وأمالت

رأسها، ثم ابتسمت. "أهذا ما كُنتِ تبحثين عنه، وعدٌ مع الهلاك نفسه؟"

تلاشت ابتسامة ماري وقال: "الهلاك؟ إنها الحياة التي أستحق. إنّها القوة". في تلك اللحظة كُسِرت العتمة المحيطة بالغرفة، وفُتِح باب القاعة ليدخل منه إيفان وبرفقته جوليا. راقبتهما فيوليت، وهما يقتربان قبل أن تدور العجلة في الاتجاه الآخر.

رفعت ماري ذراعيها أمام عينيها، وراقبت الدخيلَين، وهم يقتربان: "ما الذي فعلتماه؟" بدأت ألسنة اللهب تأكل ذراعيها. فصرخت من شدة الألم.

تقدَّمت فيوليت نحوها، وهي تنادي: "ماري".

صرخت الفتاة: "لستُ ماري، تلك الغبية قد ماتت. صَدَّقت كل وعودي، وماتت. أنا من هو أقوى منها". وصل اللهب إلى كتفي ماري، وبدأ أسفل قدميها يشتعل. "لقد أحرقتما كل شيء.." لم تتمكن من أن تتمّ كلماتها؛ لأنّ النيران أحاطت بجسدها كله.

عاود جوليا وإيفان الظهور أمام فيوليت، ولكنّ صورتهما لم تبقَ طويلاً؛ لأن العجلة استدارت من جديد. سقطت ماري على ركبتيها، وراحت تصرخ بسبب الألم. تركتها فيوليت، واتجّهت نحو جيسي الراقدة. رفعت الفتاة وهزّت جسدها حتى تستيقظ، لكنها لم تفعل. حملت فيوليت جسد جيسي بصعوبة، واتّجهت إلى طرف العجلة. ضمّت الفتاة بقوة، وقفزت ما أن رأت ظلّ جوليا وإيفان من جديد.

سقطت على الأرض، وفي ساقها اليسرى كان هناك مزيج من الشعور بالحرق، والخدر. لقد كُسِرت ساقها. كانت جيسي راقدة فوق جسد فيوليت النحيل، ممّا جعلها تلتقط أنفاسها بصعوبة. تقدّم إيفان، وحمل جيسي فيما جوليا كانت ما تزال مع أندي.

تخيَّلت فيوليت وجه ماثيو، ثم جاوره مارك، وكذلك فعلت كاميلا. وقبل أن تغيب عن الوعي. نادتها جوليا: "ابقَي يقظة. سنخرج من هنا". مدّت ذراعها لجوليا، وحاولت أن تتكئ عليها، وعلى الجانب الآخر كان أندي يحاول رفع جسدها رقم قصر قامته.

حمل إيفان جيسي إلى الخارج، بينما كان أندي وجوليا يساعدان فيوليت على

التقدّم نحو الباب.

خاتمة

غطّى الثلج أرجاء البلدة كلها، وقبل أن أتّجه إلى الضاحية حيث يقع منزلنا، وحيث تنتظرني والدتي برفقة كريستين وزوالي على العشاء، زرتُ متجر جوليا. يجب أن يكون المكان مغلقاً في هذا اليوم، لكنها خصّصت بعض الوقت للقاءنا هناك. كنتُ أول الواصلين إلى المتجر، وكانت هي تجلس وحيدة في انتظار الجميع.

لم تنجُ جودي، ولم يؤثّر ذلك في فيوليت بالطريقة المتوقّعة، بل كانت ما تزال تحت تأثير رحيل ماثيو، وهذا ما كانت تهذي به، بينما كان الطبيب يضع الجبيرة حول قدمها المكسورة. لم يتمكّن فيكتور، ولا ليديا من الخروج من منزل آل ويلسون أيضاً، وكان وقع ذلك مؤلماً، لكنّني لم أكن أعرفهما جيداً؛ حتى أحزن على ما حلّ بهما. كان الأمر المحزن هو فقدان أعضاء الفريق الذي اتّحد لمحاربة كابوسنا الجماعي.

"من الجيد أن تلبي دعوتي في يوم الميلاد يا ليو، أنا ممتنّة لذلك".

قلتُ وأنا أهديها ابتسامة: "أنتِ قائد الفريق، ونحن رهن الإشارة".

ضحكت جوليا، وتقدّمت لتجلس قبالتي: "أتمنى أن تكون هذه هي النهاية الفعلية للأمر. لقد خسرنا أكثر مما كُنّا نتصوّر". أخفضتُ رأسي وأنا أتأمل كلماتها، كان الأسى في هذه الحكاية أكبر ممّا يمكن أن يتحمّله أيٌّ منّا. "كيف أحوالكَ أنتِ وسريزا؟" أعادتني إلى الواقع فجأة.

قلتُ: "على ما يرام؟"

"تلك الفتاة شجاعة، ولا يعيقها الخوف أبداً. لا يجب أن تخذلها يا ليو. أخبرتَني أن تريز قد استعادت وعيها، ولكن لن أقبل بأنْ تحطّم قلب سريزا بعد كل ما عنته؛ لأنني أكثر شخص يدرك كيف يبدو شكل هذا الجرح".

"أنا لن.." فقدتُ الكلمات المناسبة، لكنني رتبتُ كلماتي بسرعة، وقلتُ: "أنا وتريز فقدنا فرصتنا. كان الأمر خاطئاً منذ البداية، ودفعنا ثمنه من خلال تجربة قاسية. سأتركها تخوض حياةً تناسبها، وسأبدأ أنا حياتي التي تناسبني مع سريزا".

دُفِع الباب، وظهر من خلاله إيفان: "هناك من سبقني إذاً".

"ولأوّل مرة". علّقت جوليا.

قال إيفان: "لقد نسبت كل الجرائم لماركوس وماريا، التي لم يهتدِ أحد إلى تفسيرٍ لموتها. لكنّهم أخرجوا جثّتها من بين الحطام. ستحتاج المدينة إلى بعض الوقت حتى يعاد إحياؤها".

زمّت جوليا شفتيها، وقالت: "هذا مؤسف". ولم أفهم ما إذا كنتَ تقصد وضع مدينة الملاهي، أم ما حلَّ بماركوس وماريا. سألت إيفان: "والطفل ماذا حلّ به؟"

قال: "هو مع عائلته. يجب أن تَري كيف كان فخوراً بكل ما قام به".

قالت: "يجب أن يكون فخوراً".

قلتُ: "أن تكون جزءاً من حكاية بطولية، فهذا يكفيكَ كي تبقى معتزّاً بفكرة وجودكَ. عشتُ سنوات طويلة وأنا أفكّر في سبب وجودي في الحياة، ثم بعد ذلك أتساءل عن سبب ارتباطي بنادي الأرق".

قاطعتني جوليا: " أنتَ هنا لسبب، وضعتكَ الحياة في هذا المكان؛ لأنّكَ جزء لن تكتمل القصة إلا به".

دخلت فيوليت وبرفقتها سريزا، وكنا نحن مَن تبقّى من نادي الأرق. قالت فيوليت وهي تجرّ قدمها المغطاة بالجبيرة البيضاء: "ها نحن ذا في نادي الأرق الجديد".

ابتسمت جوليا، وقالت: "لقد انتهى أمر النادي، لا وجود له بعد الآن".

قالت سريزا: "لم يعد في وسعنا أن نتحمل أية قصص أخرى، يكفي ما فقدناه حتى الآن!".

شكّلنا دائرة صغيرة، وقادت جوليا الحديث، كما كان يفعل ماركوس. "نحن لسنا هنا لنناقش القصص المخيفة والغريبة مرة أخرى، بل أنتم معي لأنكم أصدقائي، وأريد أن أعرف خطّة كل منكم الآن".

رفعتُ يدي لأبدأ الحديث: "أنا سأعمل فيما كان يعمل به والدي، وبهذا أُلبّي رغبة أمي. سأخبرها هذا اليوم أثناء احتفالنا بعيد الميلاد، ثم إنني أنتظر الوقت المناسب لتتعرف أمي على سريزا".

ظهر الخجر على وجه سريزا، لكنها بادرت للتتحدث بعدي: "أمّا أنا فيجب أن أخبركم بأن دوروثي ستتزوج في الربيع، وحتى ذلك الوقت سأكون معها، وهي أيضاً يجب أن تتعرّف عليكَ يا ليو".

قلتُ: "وأنا أنتظر الوقت الذي تختارينه".

حركّت فيوليت ساقها، فظهرت على وجهها إمارات الألم: "أما أنا فرغم كل الإصابات ما زلتُ أمتلك حياتي. لقد قرّرت الأخت صوفي أن تنتقل للعيش معي، وسأكمل عامي الدراسي بعد أن تنتهي عطلة عيد الميلاد. هذه كل خططي حتى الآن".

ابتسمت جوليا، وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تقول: "لقد انتقلتُ إلى هنا، ولم أفكر إلّا بالهرب من حياتي الفاشلة، تركتُ كل ما يتعلّق بها، بما في ذلك حلمي بالأمومة، والكتابة حتى. لم أتصوّر يوماً بأنّني سأجد هنا كابوساً أقسى ممّا تركته خلفي. لم أتخيّل بأنّ هذا الأمر سيُخرِج من أعماقي إنسانة أقوى وأشد من جوليا التي ماتت في النهر. أنا جوليا أخرى أنقذها إيفان، وهي ممتنّة لوجوده معها. سأبقى هنا في متجري، وسأعكف على كتابة الجزء الثاني من روايتي، وسأبقى صديقتكم جميعاً، ولن أغلق بابي أمام أيٍّ منكم".

ساد صمت قصير أجبرنا على أن نلتفت جميعاً إلى إيفان، الذي شدَّ ظهره وقال: "أنا.. في الواقع.." واستجمع شجاعته وقال: "أنا ممتنٌّ لجوليا؛ لأنها أعطتني سبباً آخر للمضي في الحياة". نظر إلى جوليا مباشرة: "أنا لن أتخلّى عنكِ أبداً، سأكون بجوارك حتى آخر لحظة". تلاقت نظراتهما، ورأيتُ بريقاً في عيني جوليا كان مزيجاً من الحبّ والحزن. "أنتِ أكثر شخص شجاع قابلته في حياتي، ورغم أنَّ أحداً لم يفهم ما يجري، أو يرغب حتى في تصديق الحكاية، كُنتِ ملتزمة بها ومتابعة لتفاصيلها، حتى أجبرتني على تصديق حكاية كنتُ أرفض تصديقها، وكنتِ محقَّة في النهاية"

"شكراً لكَ". قالت له جوليا.

"أمّا عن خططي التالية، فأنا أفكر في أن أدعوكِ لتناول العشاء معي اليوم، فأنا شخص وحيد في هذا العالم، وأنتِ كلّكِ". رأيتُ الابتسامة تولد على شفتي سريزا وفيوليت.

قالت فيوليت: "أنا سأذهب لأقضي يومي مع صوفيا، فهي وأنتم آخر من

أملك أيضاً". نهضنا لنخرج من متجر جوليا أنا، وسريزا، وفيوليت التي سنوصلها بسيارتي إلى سكنها. كنتُ أعلم أنّ سريزا ستقضي ليلتها مع دوروثي، في حين أنني سأكون مع عائلتي.

جلستُ خلف المقعود بجوار سريزا، ورأيتُ جوليا تقفل متجرها وتسير بجوار إيفان. ضحكتُ دون أن نسمع صوت ضحكتها، فشاركها إيفان الضحك. أدرتُ محرك سيارتي، ثم تحرّكنا بعيداً عن الرصيف المقابل لمتجر جوليا، ومررنا بجوارها من جديد، فلوّحت لنا بيدها، وكذلك فعل إيفان، وابتسامتهما لم تتلاشَ بعد.

عندما وصلنا إلى سكن فيوليت، قالت بينما هي تجرّ عكازها إلى الخارج: "دعونا لا ننقطع عن بعضنا". ثم اعتدلت في وقفتها. "سأراكم قريباً، أليس كذلك؟" سألتنا.

أجابت سريزا: "لا تكوني ساذجة، لا نملك أصدقاء آخرين".

قالت فيوليت: "ليتني اقتديتُ بنصيحة صوفي، وبحثتُ عن سكن فيه مصعد، كيف سأصعد السلالم بساقي هذه الآن؟" أشارت لها سريزا إلى مدخل المبنى، فالتفتت فيوليت إلى الخلف، ثم قالت: "هاهي صوفي تنتظرني. سأذهب الآن. ميلاد سعيد لكما".

وجهتي الأخيرة قبل العودة إلى المنزل، كانت حيث تعيش سريزا. توقفتُ أمام منزلها، وتركت سيارتي لأقف أمامها قبل أن ترحل. قلتُ لها: "سأنتظر الوقت الذي ترغبين في أن تتعرف دوروثي عليّ خلاله"

لم تتجاوب سريزا معي فوراً. راقبتني مبتسمة، ثم قالت: أتعلم أمراً؟ إن كان هناك ما يعادل سوء حياتي ويلغيه، فهو أنتَ وحدك يا ليو".

قلت: "أتعلمين أمراً؟ إن كان هناك أمر واحد يشكّل الحياة بالنسبة لي، فهو أنتِ وحدكِ". تركتني سريزا فجأة وهرولت نحو مدخل المنزل. لوّحت لي بسرعة، ففعلتُ الأمر ذاته قبل أن أعود إلى سيارتي. رأيتُ عبر النافذة المجاورة لباب منزلها، ظلَّ امرأة يراقبني، اختفت ما أن وقع بصري عليها، وأدركتُ فوراً بأنّها دوروثي.

قُدتُ سيارتي مبتعداً عن منزل سريزا، كنتُ وحيداً في الطريق الذي غطّى

الثلج جانبيه. كان ضوء النهار يتلاشى، وأشجار عيد الميلاد تضيء الواجهات المغلقة. تلاشى لون الشمس، واصبغت السماء بلون أزرق يشبه لون البحر.

أصبحت وحدي من جديد، وعاد الفراغ الذي أتخيَّله ناعم الملس، يسمح لصوت أفكاري بالانزلاق. أين هي بداية كل شيء؟ ومن هو من يعطي الأمر ببداية الأحداث؟ كانت الإجابة ستسمح لنا بإدراك شكل النهاية أحياناً، لكننا أضعف وأقلُّ قدرة من تخمين النهاية، فإدراك النهاية يلغي متعة المفاجأة في الحكاية، والخوف أيضاً عنصر شبيه المفاجأة؛ فهو يمنحكَ الإحساس بالانعتاق عن نفسكَ، وعمّا اعتدتَ العيش فيه.

نحن نهوى التخمين، لكننا نرفض اكتشاف الأمور التالية؛ لأننا لو أدركنا ما يحمله لنا المستقبل، لكُنّا فقدنا متعة الانتظار، ولأصبح الترقُّب غير ذي معنى.

وصلتُ إلى منزلي.. عائلتي، نقطة بداية كل الأحداث، وهم أيضاً نقطة النهاية التي تنتظرني بعد كل المعطفات القاسية. هنا تنتهي الحكاية، وهنا بدأت، وكذلك أخوضها في هذا المكان.

تركتُ سيارتي، وتوجَّهتُ إلى المدخل الذي غطَّتهُ أضواء الميلاد، وفي الداخل وجدتُ روزالي تحمل دميتها الخشبية التي لم تكن لها أية ملامح، وتدور حول شجرة عيد الميلاد المزيّنة بالأجراس. ناديتُها لكي نذهب إلى جوار والدتي ووالدتها.

لديّ الكثير لأخبر عائلتي به. كنتُ أترقَّب أنْ يظهر لهم وقت تغيير الفعلي الذي اخترتُه لنفسي. كانت عائلتي تستحقُّ أيضاً نهاية الجانب الخاصّ بي من الحكاية، وهذه السعادة الممزوجة برتابة الحياة لم تكن كثيرة علينا. هذا ماتدركه بعد المرور بالتجارب الصعبة، وهذا ما يبدو ثميناً بعد أن تبعدكَ الحياة عن رتابته؛ لتريكَ الظلام الموجود في باطنها.

- النهاية -



نادي الأرقى

COVER DESIGNED BY
AHMED FARAG

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
www.novapluskw.com novapluskw @novakw

ضياء
t.me/twinkling4

9 789921 737353